

نَفْحُ الطَّيِّبِ

مِنْ
غَضَنِ الْأَنْدَلِسِ الرَّطِّيبِ

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد القرني التيساني

حقيقه
الدكتور احسان عباس

المجلد السادس

دار صادر
بيروت

دار صادر : صندوق برید ۱۰ - بیروت

۱۳۸۸ هـ - ۱۹۶۸ م

الإمام الميرزا الميرزا

الباب الرابع

في مخاطبات الملوك والأكابر الموجهة إلى حضرته العلية ، وثناء غير واحد من أعلام أهل عصره عليه ، وصرف القاصدين وجوه التأميل إليه ، واجتلائهم أنوار رياسته الجليلة ، وكتبهم بعض المؤلفات باسمه ، ووقوفهم عند إشارته ورسمه ، وما يضاهاه ذلك في حظه وقسمه ، وسعيهم بين يديه .

اعلم — سلك الله بي وبك الطريق الأقوم الأقوى ، وحلّى صدور جميعنا بزينة التقوى — أن لسان الدين ذكر في كتبه كالإحاطة ونفاضة الجراب وغيرهما جملة ممّا خاطبه به الملوك وغيرهم ، من تبجيل وتنويه ، ولندكر بعض ذلك من كتبه ومن غيرها تميمًا للمقصود وتبليغًا لنفوس الناظرين في هذه العجالة ما تؤمله وتنويه .

[١ - ظهير من أبي زيان المريني لسان الدين]

فمن ذلك ما ذكره في «الإحاطة» من إكرام السلطان أبي زيّان المريني ابن الأمير أبي عبد الرحمن ابن السلطان أبي الحسن له ، وسرد ما كتب له به من قوله : هذا ظهير ، إلى قوله : أيده الله ونصره ، وستى له الفتح المبين ويسّره ،

وبعد ما صورته^١ : « للشيخ الفقيه الأجل الأسنى ، الأعز الأخطى الأرفع الأجد
الأسنى الأوحده الأنوه الأرقى ، العالم العلم الرئيس الأعراف المتفنن الأبرع
المصنف المفيد الصدر الأحنف الأفضل الأكل أبي عبد الله ابن الشيخ الفقيه الوزير
الأجل الأسنى الأعز الأرفع الأجد الوجيه الأنوه الأحنف الأفضل الحسيب
الأصيل الأكل المبرور المرحوم أبي محمد ابن الخطيب ، قابله أيده الله بوجه القبول
والإقبال ، وأضفى عليه ملابس الإنعام والإفضال ، ورعى له خدمة السلف
الرفيع الجلال ، وما تقرر من مقاصده الحسنة في خدمة أمرنا العال ، وأمر في جملة
ما سوغه من الآلاء الوارفة الظلال ، الفسيحة المجال ، بأن يحدد له حكم ما بيده
من الأوامر المتقدم تاريخها المتضمنة تمشية خمسمائة دينار من الفضة العشرية^٢
في كل شهر عن مرتب له ولولده الذي لنظره من متجني مدينة سلا حرسها الله
في كل شهر ، ومن حيث جرت العادة أن يتمشى له ، ورفع الاعتراض ببابها
فيما يجلب من الأدم والأقوات على اختلافها من حيوان وسواه ، وفيما يستفيده
خدامه^٣ بخارجها وأحوازها من غن و قطن وكتان وفاكهة وخضر وغير ذلك ،
فلا يطلب في شيء من ذلك بمغرم ولا وظيف^٤ ، ولا يتوجه فيه إليه بتكليف ،
يتصل له حكم جميع ما ذكر في كل عام تجديداً تاماً ، واحتراماً عاماً ،
أعلن بتجديد الخطوة واتصالها ، وإتمام النعمة وإكمالها ، من تواريخ الأوامر
المذكورة إلى الآن ، ومن الآن إلى ما يأتي على الدوام ، واتصال الأيام ، وأن
يحمل جانبه فيمن يشركه أو يخدمه محمل الرعي والمحاشاة في السخر مهمما
عرضت ، والوظائف إذا افترضت ، حتى يتصل له تالد العناية بالطارف ،

١ ورد هذا الظهير في الاستقصا ٤ : ٤٨ .

٢ العشرية : لعلها العاشرية وهي ما كان في كل دينار منها عشرة دراهم (انظر « عاشر » في ملحق
المعاجم لدوزي) .

٣ ق : خدمه .

٤ الوظيف أو الوظيفة : الضريبة المقررة .

وتتضاعف أسباب المنن والعمّارف ، بفضل الله ، وتحرّر له الأزواج^١ التي يحرثها بتالمغت من كل وجيبة^٢ وتحاشى من كل مغرم أو ضريبة ، بالتحريير التام بحول الله وعونه ، ومن وقف على هذا الظهير الكريم فليعمل بمقتضاه ، وليُمرض ما أمضاه ، إن شاء الله ، وكتب في العاشر من شهر ربيع الآخر من عام ثلاثة وستين وسبعمائة ، وكتب في التاريخ^٣ : انتهى .

وقوله « وكتب في التاريخ » هو العلامة السلطانية في ذلك الزمان ، يكتب بقلم غليظ ، وبعض ملوك المغرب يكتب عند العلامة « صح في التاريخ »^٤ .

[ترجمة أبي زيان المريني]

وقد عرّف لسان الدين في « الإحاطة » بهذا السلطان بما نصّه : محمد بن يعقوب أبي عبد الرحمن بن علي أمير المسلمين بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمير المسلمين بالمغرب إلى هذا العهد ، يكنى أبا زيان^٤ ، وصل الله نصره على عدوّ الدين ، وأرشدته إلى سنن الخلفاء المهتدين .

حاله - فاضل سكون منقاد ، مشغول بخاصة نفسه ، قليل الكلام ، حسن الشكل ، درّب بركض الخيل ، مفوض للوزراء ، عظيم التأتّي لأغراضهم ، ووكل الأمور لمن استكفاه منهم ، استقدم من أرض النصارى بالأندلس وقد فر

١ الأزواج : هي ما يسمى في المشرق « الأفدنة » ، أخذت من زوج البقر للحرث أي (الفدان) .
٢ الوجيبة : الضريبة .

٣ قال ابن الأحمر عند تعريفه العلامة : « فإذا رأيت الصلك المريني وعلامة : كتب في التاريخ المؤرخ به ، فهي بخط يد السلطان ، وإذا كانت : وكتب في التاريخ ، فهي بخط يد صاحب العلامة (مستودع العلامة : ٢١) .

٤ بويغ أبو زيان الملقب بالمتوكل ١١ صفر سنة ٧٦٣ وقاتل غرقاً في السانية التي بروض الغزلان ٢٢ ذي الحجة سنة ٧٦٧ وسنه ٢٨ سنة ودفن بجامع قصره (روضة النسرين : ٣٢ وانظر الاستقصا : ٥١) .

إليهم خوفاً على نفسه ، فسمح به ملك الروم بعد اشتراط واشتراط ، فكان وصوله إلى مدينة الملك بفاس يوم الاثنين الثاني والعشرين لصفري عام ثلاثين وستين وسبعمائة ، ودخوله داره مغرب ليلة الجمعة بطالع الثامن من السرطان وبه السعد الأعظم كوكب المشتري من الكواكب السيارة ، وقد كان الوزير قيم الأمر والمثل في الكفاية والاضطلاع بالعظيمة عمر بن عبد الله بن علي اليباباني^١ لما ثار بعمه السلطان أبي سالم رحمه الله تعالى وأقام الرسم بأخيه المعتوه المدعو بأبي عمر استدعى هذا المترجم به ، وقد نازله الأمير عبد الحليم ابن عمهم ، وتوجه عنه رسوله أثناء الحصار لما رأى الأمر لا يستقيم بمن نصبه ، فتلطف فيه إلى طاغية النصارى ، واستعان بالسلطان أبي عبد الله ابن نصر ، وقد جمعتهما إيالته ، فقم له اللحاق بالمغرب ، وانصرف الأمير عبد الحليم إلى سجلماسة فتملكها ، وتم الأمر للأمير أبي زيان يقوم به عنه وزيره ومستدعيه المذكور مصنوعاً له في خدمته ، أعانه الله تعالى وأصلح حاله وأحوال الخلق على يديه ، ووفدت عليه من محل الانقطاع بسلا وأنشدته قولي^٢ :

لَمَنْ عَلِمَ فِي هَضْبَةِ الْمَلِكِ خِفَاقُ أفاقت به من غَشِيَةِ الْمَرْجِ آفاقُ
تُقِلُّ رِيَّاحَ النَّصْرِ مِنْهُ غِمَامَةٌ تَمُدُّ لَهَا أَيْدِيَهُ وَتَخَضَعُ أَعْنَاقُ
وَبِيعَةُ شُورَى أَحْكَمِ السَّعْدِ عَقْدَهَا وَأَعْمَلُ إِجْمَاعَ عَلَيْهَا وَإِصْفَاقُ
قَضَى عَمْرٌ فِيهَا بِحَقِّ مُحَمَّدٍ فَسُجِّلَ عَهْدُ لِلْوَفَاءِ وَمِيثَاقُ
أَحْلَمًا تَرَى عَيْنَايَ أُمُّ هِيَ فِتْرَةٌ أَعْنَدَكُمَا فِي مَشْكَلِ الْأَمْرِ مَصْدَاقُ
وَفَاضٌ^٣ لِفَضْلِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ تُبْتَغَى وَجَمِيعَاتُ لَا تَرِيبُ وَأَسْوَاقُ
وَسَرَحٌ تَهْنِئُهُ الْكَلَاءَةُ بِالْكَلا وَفَلَحٌ لِسَقِي الْغَيْثِ قَامَ لَهُ سَاقُ

١ راجع أخبار هذا الوزير في العبر ٧ : ٣١٩ ، ٣٢٣ .

٢ انظر القصيدة في الاستقصا ٤ : ٤٦ - ٤٨ .

٣ الوفاض : جمع وفضة وهي المكان الذي يمسك الماء ؛ وفي ص : رفاض .

وقد كان طيفُ الحلم لا يعمل الخطأ
 وللغيثِ إمساكٌ وفي الأرضِ رجّةٌ
 فكلُّ فريقٍ فيه للبغي رايةٌ
 أجلُ إنّه من آل يعقوب وارثٌ
 له من جناحِ الروحِ ظلٌ مسجفٌ
 أطلّ على الدُّنيا وقد عادَ ضوءُها
 فأشرقت الأرجاء من نورِ ربها
 فمِن ألسُنِ الله بالشكر أعلنت
 وليس لأمرٍ أبرم الله ناقضٌ
 محمدٌ قد أحْيَيْتَ دينَ محمد
 ولو لم تَتَّبِ غطى على شفقِ الضُّحى
 فأيمِنُ بمشحونٍ من الفلكِ سابحٍ
 أقلك والدأماءُ تُظْهَر طاعة
 إلى هدفِ السعد أنبرى منه والدجى
 فَخُطَّتْ لتقويمِ القوامِ جداولٌ
 تباركُ من أهداك للخلقِ رحمة
 هو الله يبلو الناسَ بالخيرِ فتنةٌ
 سمّتْ منك أعناقُ الورى لخليفةٍ

وللفتنة العمياء في الأرضِ إطباق
 وللدين والدنيا وُجُومٌ وإطراق
 وكلُّ طريقٍ فيه للغيثِ طراقٌ^١
 يحنُّ له البيتُ العتيقُ ويشناق
 ومِن رفرفِ العزِّ الإلهي رُستاقٌ^٢
 دُجى وعلى الأحداق للذعر إحداق
 وساحَ بها لله لطفٌ وإشفاق
 وكان لها من قبلُ همسٌ وإطباق
 وليسَ لمَسْعَى أنجحِ الله إخفاق
 وللخلقِ أذماء تفيضُ وأرماق
 دمٌ لسيوفِ البغي في الأرضِ مهراق
 لهُ باختيارِ الله حطٌّ وإيساقٌ^٣
 إليك وصفح الماء أزرق رقراق
 يضلُّ الحجي سهمٌ من السعد رشاق
 وصَحَّتْ من التوفيقِ واليُمْنِ أوفاقٌ^٤
 ومستبعدٌ أن يهمل الخلقَ خلاق
 وبالشرِّ ، والأيامُ سمٌّ وترياق
 لهُ في مجالِ السعدِ وخذٌ وإعناق

١ سقط البيت من ق .

٢ الرستاق : معربة عن الفارسية بمعنى الناحية أو الكورة .

٣ الخط : الرسو في الميناء ، والإيساق : مصدر أوسق بمعنى ملأ بالأحمال .

٤ الدأماء : البحر .

٥ يعني بالجداول : الجداول الفلكية ، والأوفاق : جمع وفق وهو المربع الذي يقسم إلى « خانات »

ترتب فيها الأرقام .

تفيضُ على العافين أم هي أرزاق
 فلم يُجدِ إطنابٌ ولم يُغنِ إغراق
 غمامٌ ندَى إن أخلف الغيث غيداق
 بدورٌ لها في ظلمة الروح إشراق
 ففيها جتنى ملء الأكف وإبراق
 وجدك قد فاق الملوك وإن فاقوا
 لآلىء والمجدُ المؤثّل نساق
 هم الأصل في العلياء والناس إلحاق
 فإن حاربوا راعوا وإن سلموا راقوا
 فهم للمعالي والمكارم عشاق

وقالوا بنانٌ ما استقلّ بكفته
 وأطنب فيك المادحون وأغرقوا
 ألتست من القوم الذين أكفهم
 ألتست من القوم الذين وجوههم
 رياض إذا العافي استظل ظلالها
 أبوك وليُّ العهد لو سالم الردى
 فمن ذا له جدٌ كجدك أو أب
 وحسبُ العلا في آل يعقوب أنهم
 أسودٌ سروحٍ أو بدور أسرة
 يطولُ لتحصيل الكمالِ سهادهم

ومنها :

تزرُّ على أعناقهم منه أطواقُ
 ولم تدر ما ضمت من الذكر أوراق
 ومن دون ما أموه للفتح أغلاق
 جريرة من أبدى لك الغدر أخلاق
 وتهفو حلوم القوم والقوم حذّاق
 والله إرفاد عليّهم وإرفاق
 خزائنه ما ضرها قط إنفاق
 وإن حشدت طسّم وعاد وعملاق
 تخومٌ بمخط الصليب وأعماق
 وللروح إرعاد عليك وإبراق
 مواهب جود غيئها الدهر دفاق
 فانت كريم طهرت منك أعراق

لئن نسيّت إحسانَ جدك فرقة
 أجازت خروج ابن ابنه عن ترائه
 ومين دون ما راموه لله قدرة
 خذ العفو وابدل فيهم العرف ولتسع
 فربّما تنبو مهنّدة الطّبي
 وما الناس إلا مذنب وابن مذنب
 ولا ترج في كلّ الأمور سوى الذي
 إذا هو أعطى لم يضرّ منع مانع
 عرفت الردى واستأثرت بك للعدا
 فيسرّ ليسرى وأحيا بك الورى
 فجاز صنيع الله وازدد بشكره
 وأوف لمن أوفى وكاف الذي كفى

وتَهْنِك يا مولى الملوك خلافة
فقد بلغت أقصى المنى بك نفسها
فلا راعٍ منها السُّرْبَ للدَّهْرُ رائع
أمولاي راع الدَّهْرُ سِرْبِي وغالتي
وليس لكسري غيرك اليوم جابر
ولي فيك ودًا واعتدادٌ غرسته
وقد عيل صبري في ارتقابي خليفة^١
وأنت حسامُ الله والله ناصر
وأنت الأمان المستجار من الردى
وأهونُ ما تُرجى لديك شفاعة^٢
ودونكها من ذائع الحمدِ مخلصٍ
إذا قالَ أمّا كلُّ سَمْعٍ لقوله
ودمٌ خافق الأعلام بالنصر كلما

وُعدتُ منه ببر كثير ، واحترام شهير .

دخوله غرناطة - لحق بها مُفلتاً عند القبض على قرابته وبنى عمته وتقريبهم
إلى مصارعهم ، فكان وصوله في رمضان من عام خمسين وسبعمائة ، ثم رابه
رائب لحق لأجله بصاحب قشتالة ، وأقام في جملته إلى حين استدعائه المتقرر
أنفأ ، وهو لهذا العهد أمير المسلمين بالمغرب ، أعانه الله تعالى على الخير ،
وأطلق به يده ، وأهمه لما يرضى منه بفضلته وكرمه ؛ انتهت الترجمة .

ورأيت على هامش هذا المحل من « الإحاطة » بخط الخطيب الشهير الإمام

١ ق : أصل .

٢ الأوهاق : جمع وهم وهو الأنشودة .

أبي عبد الله ابن مرزوق التلمساني رحمه الله ما صورته : توفي - يعني السلطان
أبا زيان - مغتالاً عام ستة وستين على يد مظاهره الخائن عمر بن عبد الله
ابن علي الوزير ، ردّاه في بئر ، وأشاع أنه أفرط في السكر ، وألقى نفسه في
البئر المعروفة برياض الغزلان ، وباع لعمته عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ،
فسلطه الله عليه ، وأخذ حقوق الخلائق على يديه ، فقتله غيلة بعد أن كان تغلب
عليه ، فأعمل الحيلة في قتله ، واستمر ملك عبد العزيز ظاهراً ظافراً قد جمع
بين المغرب إلى أقصاه وبين ملك تلمسان وقد شرّد أهلها كلّ مُشرّد ، فعندما
أقبلت الدنيا عليه ، واستقام ملكه ، وكاد يلحق ملك أبيه أو يزيد مات رحمه
الله تعالى ، قيل : مطعوناً ، وقيل غير ذلك ، وذلك في حدود أربع وسبعين ،
وولي ولده ، ثم عُزل بابن عمته أبي العباس ابن السلطان أبي سالم ، وحاز ملك
المغرب إلى حين كتب هذا سنة سبع وسبعين وسبعمائة ؛ انتهى ما ألفيته بخط
سيدي أبي عبد الله ابن مرزوق .

ورأيت تحته بخط ابن لسان الدين أبي الحسن علي ما صورته : رحمة الله عليك
يا عمر بن عبد الله بن علي ، فلقد كنت غسلت ملك المغرب من درّان كبير ،
وقمت على ملك هو وضعف شهير ، وشهّرت سيف الحق ، على الزواكرة
الحرق ، فابتهج منبر الدين ؛ انتهى .

ومراده بهذا الكلام الرد على ابن مرزوق في ذمّه للوزير عمر ، وقوله
« الزواكرة » لفظ يستعمله المغاربة ، ومعناه عندهم المتلبس الذي يُظهر النسك
والعبادة ، ويبطن الفسق والفساد ، وعند الله تجتمع الخصوم .

[٢ - رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين]

ولنرجع إلى ما كنا بسبيله فنقول :

ومما خوطب به ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، من قبل سلطان المغرب المستعين بالله أبي سالم إبراهيم ابن السلطان أبي الحسن المريني ما صورته بعد البسملة والصلاة^١ :

« من عبد الله المستعين بالله إبراهيم أمير المسلمين ، المجاهد في سبيل رب العالمين ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي الحسن ، ابن مولانا أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين ، أبي يوسف يعقوب ابن عبد الحق ، أيد الله أمره وأعز نصره ، إلى الشيخ الفقيه الأجل الأسنى الأعز الأخطى الأوجه الأنوه الصدر الأحفل المصنف البليغ الأعراف الأكل أبي عبد الله ابن الشيخ الأجل الأعز الأسنى الوزير الأرفع الأنجد الأصيل الأكل المرحوم المبرور أبي محمد ابن الخطيب ، وصل الله عزته ووالى رفعته ، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

« أما بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم المصطفى ، والرضى عن آله وصحبه أعلام الإسلام وأئمة الرشد والهدى ، وصلة الدعاء لهذا الأمر العلي العزيز المنصور المستعني بالنصر الأعز والفتح الأسنى ، فإننا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم بلوغ الأمل ، ونُجِّح القول والعمل - من منزلنا الأسعد بصفة وادي ملوية يمنه الله ، وصنع الله جميل ، ومنه جزيل ، والحمد لله ، ولكم عندنا المكانة الواضحة الدلائل ، والعناية المتكفلة برعني الوسائل ، ذلكم لما تميزتم به من التمسك بالحناب العلي ، المولوي العلوي ، جدد الله تعالى عليه ملابس غفرانه ، وسقاه غيث رحمة وحنانه ؛

١ وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٢٩ - ٣٠ وأزهار الرياض ١ : ٢٨٢ .

وما أهديتم إلينا من التقرب لدينا ، بخدمة ثراه الطاهر ، والاشتمال بمطارف حرمة السامية المظاهر .

« وإلى هذا وصل الله حُظُوتكم ووالى رفعتكم ، فإنه ورد علينا خطابكم الحسن عندنا قصده ، المقابلُ بالإسعاف المستعذب وِرْدُهُ ، فوقنا على ما نصَّه ، واستوفينا ما شرحه وقصَّه ، فأثرنا حُسْنَ تَلَطُّفكم في التوسل بأكبر الوسائل إلينا ، ورعينا أكمل الرعاية حق ذلكم الجناب العزيز علينا ، وفي الحين عَيْنًا لكمال مطلبكم ، ونمام مأربكم ، والتوجه بخطابنا في حقكم ، والاعتماد بوقفكم ، خديمتنا أبا البقاء ابن تاشكورت^١ وأبا زكريا ابن فرقاجة ، أنجدهما الله وتولاهما ؛ وأمس تاريخه انفصلا مودعين إلى الغرض المعلوم ، بعد التأكيد عليهما فيه ، وشرح العمل الذي يوفيه ، فكونوا على علم من ذلكم ، وابسُطوا له جملة آمالكم ، وإنّا لندرجو ثواب الله في جبر أحوالكم ، وبرء اعتلالكم ، والله سبحانه وتعالى يَصِلُ مبرّتكم ، ويتولى تكريمكم ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ كتب في الرابع والعشرين لرجب عام واحد وستين وسبعمائة . »

[٣ - جواب لسان الدين]

فراجعه ابن الخطيب بما نصَّه^٢ : « مولاي خليفة الله بحق ، وكبير ملوك الأرض عن حجة ، ومعدن الشفقة والحرمة ببرهان وحكمة ، أبقاكم الله تعالى عالي الدرجة في المنعمين ، وافيرَ الحظ عند جزاء المحسنين ، وأراغم ثمرة برّ أبيكم في البنين ، وصنع لكم في عدوكم الصنع الذي لا يقف عند معتاد ، وأذاق العذاب الأليم مَنْ أراد في مثابتكم بإلحاد ، عبدكم الذي ملكتم رقه ،

١ الاستقصا والأزهار : تاشكورت .

٢ انظر هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ٣٠ - ٣١ والأزهار ١ : ٢٨٤ .

وأوتيم غربته ، وسترتم أهله وولده ، وأسنتيم رزقه ، وجبرتم قلبه ، يُقبَل
موطىء الأخمص الكريم من رجلكم الطاهرة ، المستوجبة بفضل الله تعالى لموقف
النصر ، الفارعة هَضْبَةَ العز ، المعملة الخطو في مجال السعد ، وميسراً الحظ
ابن الخطيب ، من شالة^٢ التي تأكد بملككم الرضي احترامها ، وتجدد برعيكم
عهدا ، واستبشر بملككم دفينها ، وأشرق بحسناتكم نورها .

« وقد ورد على العبد الجوابُ المولوي البر الرحيم ، المنعم المحسن بما
يليق بالملك الأصيل والقدر الرفيع والهمة السامية والعزة القعاء ، من رَعِي
الدخيل والنصرة للذمام والاهتزاز لبر الأب الكريم ، فثاب الرجاء
وانبعث الأمل وقوي العَضُدُ وزار اللطف ، فالحمد لله الذي أجرى الخير
على يدكم الكريمة ، وأعانكم على رعي ذمام الصالحين ، المتوسّل إليكم أولاً^١
بقبورهم ومتعبداتهم وتراب أجدادهم ، ثم بقبر مولاي ومولاكم ومولى الخلق
أجمعين الذي تسبب^٣ في وجودكم ، واختصكم بحبّه ، وغمركم بلطفه وحنانه ،
وعلمكم آداب الشريعة ، وأورثكم ملك الدنيا ، وهياتكم دعواته بالاستقامة
إلى ملك الآخرة بعد طول المدى وانفساح البقاء ، وفي علومكم المقدسة ما
تضمنت الحكاياتُ عن العرب من النعرة^٤ عن طائر داستَ أفراخه ناقة في
جوار رئيس منهم ، وما انتهى إليه الامتعاظُ لذلك ممّا أهنت فيه الأنفس
وهلكت الأموال ، وقُصارى من امتعض لذلك أن يكون كبعض خدامكم
من عرب تامسنا ، فما الظن بكم وأنتم الكريم ابن الكريم ابن الكريم فيمن لجأ
أولاً إلى رُحماكم بالأهل والولد عن حسنة تبرعتم بها ، وصدقة حملتكم الحرية

١ ق والاستقصا : ومسير .

٢ شالة : تمد اليوم من ضواحي الرباط ، وفيها قبور المرينيين . وإليها لجأ لسان الدين عندما نبت
به الأندلس .

٣ ق : الذي هو سبب .

٤ ق : النفرة ؛ الاستقصا : النمرة .

على بذلها؟ ثم فيمن حظ رحل الاستجارة بضريح أكرم الخلق عليكم دامع العين خافق القلب واهي الفزعة ، يتغطي بردائه ، ويستجير بعليائه ، كأنني تراميتُ عليهم في الحياة أمام الذعر الذي يُذهل العقل ويحجب عن التمييز بقصر داره ومضجع رقادته ، ما من يوم إلا وأجهرُ بعد التلاوة : يا لَيْعَقُوبُ ، يا لَمْرِينَ ، نسأل الله تعالى أن لا يقطع عني معروفكم ، ولا يسلبني عنايتكم ، ويستعملني ما بقيت في خدمتكم ، ويتقبل دعائي فيكم .

« ولحين وصول الجواب الكريم نهضت إلى القبر المقدس ووضعت بإزائه ، وقلت : يا مولاي ، يا كبير الملوك ، وخليفة الله ، وبركة بني مرين ، صاحب الشهرة والذكر في المشرق والمغرب ، عبدك المنقطع إليك ، المترامي بين يدي قبرك ، المتوسل إلى الله ثم إلى ولدك بك ، ابن الخطيب ، وصله من مولاه ولدك ما يليق بمقامه من رعي وجهك ، والتقرب إلى الله تعالى برعيك ، والاشتهار في مشرق الدنيا وغربها ببرك ، وأنتم من أنتم من إذا صنع صنيعه كلها ، وإذا من منة تمها ، وإذا أبدى يداً أبرزها طاهرة بيضاء غير معيبة ولا ممنونة ولا منتقضة ، وأنا بعدُ تحت ذيل حرمتك وظل دخيلك ، حتى يتم أملي ، ويخلص قصدي ، وتحف نعمتك بي ، ويطمئن إلى مأمك قلبي .

« ثم قلت للطلبة : أيها السادة ، بيني وبينكم تلاوة كتاب الله تعالى منذ أيام ومناسبة النحلة وأخوة التأليف بهذا الرباط المقدس والسكنى بين أظهركم ، فأمّنوا على دعائي بإخلاص من قلوبكم ، واندفعتُ في الدعاء والتوسّل الذي نرجو أن يتقبله الله تعالى ولا يضيعه ، وخاطب العبدُ مولاه شاكرًا لنعمته مشيدًا بصنيعته مسرورًا بقبُوله ، وشأنه من التعلق والتطرح شأنه حتى يكمل القصد ويتم الغرض ، معمور الوقت بخدمة يرفعها ، ودعاء يردده ، والله المستعان » ، انتهى .

١ ص ف : يا آل يعقوب ، يا آل مرين ؛ ولا خلاف .

وكان تقدم من لسان الدين كتاب للسلطان المذكور ، وكان ما سبق من كتاب السلطان جواباً له ، وذلك بعد رجوع لسان الدين من مراکش واستقراره في مدينة سلا برباط شالة مدفن السلاطين من بني مرين ، ومنهم السلطان أبو الحسن والد السلطان أبي سالم المذكور ، ونص الكتاب^١ :

« مولاي المرجو لإتمام الصنيعة وصيلة النعمة وإحراز الفخر ، أبقاكم الله تعالى تُضْرَبُ بِكُمْ الأمثال في البر والرضى وعلو الهمة ورعي الوسيلة ، مُقْبَلٌ موطىء قدمكم المنقطع إلى تربة المولى والدكم ابن الخطيب من الضريح المقدس بشالة ، وقد حظ رحل الرجاء في القبة المقدسة ، وتدمم^٢ بالتربة الزكية ، وقدع بإزاء لحد المولى أبيكم ساعة إياه من الوجهة المباركة وزيارة الربط المقصودة والترب العظمة ، وقد عزم أن لا يبرح طوعاً من هذا الجوار الكريم والدخيل المرعي حتى يصله من مقامكم ما يناسب هذا التطارح على قبر هذا المولى العزيز على أهل الأرض ثم عليكم ، والتماس شفاعته في أمر سهل عليكم لا يجر إنفاد مال ولا اقتحام خطر ، إنَّما هو إعمال لسان ، وخط بنان ، وصرف عزم ، وإحراز فخر وأجر ، وإطابة ذكر ، وذلك أن العبد عرفكم يوم وداعكم أنه ينقل عنكم إلى المولى المقدس بلسان المقال ما يحضر ممّا يفتح الله تعالى فيه ، ثم ينقل عنه لكم بلسان الحال ما يتلقى عنه من الجواب ، وقال لي صدر دولتكم وخالستكم وخالصة المولى والدكم سيدي الخطيب - يعني ابن مرزوق - سنّي الله تعالى أمله من سعادة مقامكم وطول عمركم : أنت يا فلان والحمد لله ممّن لا ينكر عليه الوفاء بهذين الفرضين ، وصدر عنكم من البشر والقبول والإنعام ما صدر ، جزاكم الله تعالى جزاء المحسنين .

١ قارن بما ورد في الاستقصا ٤ : ٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٧٧ .

٢ الاستقصا : وتيمم .

« وقد تقدم تعريفُ مولاي بما كان من قيام العبد بما نقله إلى التربة الزكية عنكم حسبما أداه من حَضَرَ ذلك المشهد من خدامكم ، والعبدُ الآن يعرض عليكم الجواب ، وهو أتيت لما فرغت من مخاطبته بمرأى من الملا الكبير ، والجسم الغفير ، أكببت على اللحد الكريم داعياً ومخاطباً ، وأصغيت بأذني عند قبره ، وجعل فؤادي يتلقى ما يوحيه إليه لسان حاله ، فكأنني به يقول لي : قل لمولايك : يا ولدي وقرة عيني المخصوص برضاي وبري ، و [من] ستر حريمي ورد ملكي وصان أهلي وأكرم صنائعي ووصل عملي ، أسلم عليك وأسأل الله تعالى أن يرضي عنك ويُقبِلَ عليك ، الدنيا دار غرور ، والآخرة خير لمن اتقى :

وما الناس إلا هالك وابن هالك^١

« ولا تجد إلا ما قدمت من عمل يقتضي العفو والمغفرة ، أو ثناء يجلب الدعاء بالرحمة ، ومثلك من ذكر فتذكر ، وعرف فما أنكر ، وهذا ابن الخطيب قد وقف على قبري ، وتَهَمَّ بي ، وسبق الناس إلى رثائي ، وأنشدني ومجدي وبكاني ، ودعا لي وهنأني بمصير أمري إليك ، وعقر وجهه في تربي ، وأملني لما انقطعت مني آمال الناس ، فلو كنتُ يا ولدي حياً لما وسعني أن أعمل معه إلا ما يليق بي ، وأن أستقل فيه الكثير ، وأحتقر العظيم ، لكن لما عجزت عن جزائه وكَلَّته إليك ، وأحلتها يا حبيب قلبي عليك ، وقد أخبرني أنه سلبُ المال ، كثير العيال ، ضعيف الجسم ، قد ظهر في عدم نشاطه أثر السن ، وأمل أن ينقطع بجواري ، ويستتر بدخيلي وخدمتي ، ويرد عليه حقه بخدمتي ، ووجهي ووجوه من ضاجعني من سلفي ، ويعبد الله تعالى تحت حرمتك وحرمتي ، وقد كنت تشوّفت إلى استخدامه في الحياة حسبما يعلمه حبيبنا الخالص المحبة ، وخطيبنا العظيم المزينة القديمُ القربة ، أبو عبد الله ابن مرزوق ، فأسأله يذكرك ،

١ صدر بيت لأبي نواس ، وأتمامه : « وذو نسب في الهالكين عريق » .

واستخيره بخبرك ، فأنا اليوم أريد أن يكون هذا الرجل خديمي بعد الممات ، إلى أن نلحق جميعاً برضوان الله تعالى ورحمته التي وسعت كل شيء ، وله يا ولدي ولد نجيب يخدم بيابك ، وينوب عنه في ملازمة بيت كتابك ، وقد استقر بدارك قراره ، وتعين بأمرك مرتبه ودشاره^١ ، فيكون الشيخ خديم الشيخ والشاب خديم الشاب ، هذه رغبتني منك ، وحاجتي إليك ، واعلم أن هذا الحديث لا بد له أن يُذكر ويُتحدث به في الدنيا وبين أيدي الملوك والكبار ، فأعمل ما يبقى لك فخره ، ويتخلد ذكره ، وقد أقام مجاوراً ضريحني ، تالياً كتاب الله تعالى علي ، منتظراً ما يصله منك ويقرؤه علي ، من السعي في خلاص ماله ، والاحتجاج بهذه الوسيلة في جبره ، وإجراء ما يليق بك من الحرمة والكرامة والنعمة . فالله الله يا إبراهيم ، اعمل ما يسمع عني وعنك فيه ، ولسان الحال أبلغ من لسان المقال ؛ انتهى .

«والعبد يا مولاي مقيم تحت حرمة وحرمة سلفه ، منتظر منكم قضاء حاجته ، ولتعلموا وتحققوا أنني لو ارتكبت الجرائم ، ورزأت الأموال ، وسفكت الدماء ، وأخذت حسائف^٢ الملوك الأعزة ممن وراء النهر من الططر وخلف البحر من الروم ووراء الصحراء من الحبشة وأمكنهم الله تعالى مني من غير عهد بعد أن بلغهم تدمي بهذا الدخيل ، ومقامي بين هذه القبور الكريمة . ما وسع أحداً منهم من حيث الحياء والحشمة من الأحياء والأموات وإيجاب الحقوق التي لا يُغفلها الكبار للكبار إلا الجود الذي لا يتعقبه البخل ، والعفو الذي لا تفسده المؤاخذة ، فضلاً عن سلطان الأندلس أسعده الله تعالى بموالاتكم ، فهو فاضل ، وابن ملوك أفاضل ، وحوله أكياس^٣ ما فيهم من يجهل قدركم وقدر سلفكم ، لا سيما مولاي والدكم الذي أتوسل به إليكم وإليهم ، فقد كان يتبنتي مولاي أبا الحجاج ، ويشمله بكنفه ، وصارخه بنفسه ، وأمدّه بأمواله ،

١ الدشار : المزرعة أو الأرض المستأجرة ، والجمع دشر .

٢ الحسائف : العداوات والضغائن .

ثم صير الله تعالى ملكه إليكم ، وأنتم من أتم ذاتاً وقبيلاً ، فقد قررت يا مولاي عينُ العبد بما رأته في هذا الوطن المراكشي من وفور حشودكم ، وكثرة جنودكم ، وترادف أموالكم وعددكم ، زادكم الله تعالى من فضله ؛ ولا شك عند عاقل أنكم إن انحلت عروة تأميلكم ، وأعرضتم عن ذلك الوطن ، استولت عليه يد عدوه . « وقد علم تطارحي بين الملوك الكرام الذين خضعت لهم التيجان ، وتعلقني بثوب الملك الصالح والد الملوك الكرام مولاي والدكم ، وشهرة حرمة شالة معروفة ، حاش لله أن يضيعها أهلُ الأندلس ، وما توسل إليهم قط بها إلا الآن ، وما يجهلون اغتنام هذه الفضيلة الغريبة ، وأملني منكم أن يتعين من بين يديكم خديم ، بكتاب كريم ، يتضمن الشفاعة في رد ما أخذ لي ، ويخبر بمشواي مترامياً على قبر والدكم ، ويقرر ما أُلزمتكم بسبب هذا الترامي من الضرورة المهمة والوظيفة الكبيرة عليكم وعلى قبيلكم حيث كانوا ، وتطلبون منه عادة المكارمة بحل هذه العقدة ، ومن المعلوم أنني لو طلبت بهذه الوسائل من صلب ما وسعهم بالنظر العقلي إلا حفظ الوجه مع هذا القبيل وهذا الوطن ، فالحياء والحشمة يأتیان العذر عن هذا في كل ملّة ونحلة .

« وإذا تمّ هذا الغرضُ - ولا شك في إتمامه بالله تعالى - تقع صدقتكم على القبر الكريم بي وتعينوني لخدمة هذا المولى وزيارته وتفقدته ، ومدح النبي صلى الله عليه وسلم ليلة المولد في جواره وبين يديه ، وهو غريب^١ مناسب لبركم به ، إلى أن أحجّ بيتَ الله بعناية مقامكم ، وأعود داعياً مُثنيّاً مستدعياً للشكر والثناء من أهل المشرق والمغرب ، وأتعوّض من ذمتي بالأندلس ذمّة بهذا الرباط المبارك يرثها ذريتي ، وقد ساومت في شيء من ذلك منتظراً ثمنه مما يباع بالأندلس بشفاعتكم ، ولو ظننت أنهم يتوقفون لكم في مثل هذا أو يتوقع فيه وحشة أو جفاء والله ما طلبته ، لكنهم أسرى وأفضل ، وانقطاعي أيضاً لوالدكم مما لا يسع مجدكم إلا عمل ما يليق بكم فيه ، وها أنا أرتقب جوابكم بما لي عندكم

١ غريب : يعني أنه عمل بديع .

من القبول ، وبَسَعْنِي مجدكم في الطلب وخروج الرسول لاقتضاء هذا
الغرض ، والله سبحانه يطلع من مولاي على ما يليق به ، والسلام . وكتب في
الحادي عشر من رجب عام أحد وستين وسبعمائة .

وفي مدرج الكتاب بعد نثر هذه القصيدة ١ :

مولايَ ها أنا في جوارِ أبيكا فابذلْ من البرِّ المقدَّرِ فيكا
أسمعهُ ما يرضيه من تحت الثرى واللهُ يُسمعكَ الذي يرضيكا
واجعلْ رضاهُ إذا نهدتَ كتيبةً تُهدي إليكَ النصرَ أو تهديكا
واجبر بجبري قلبه تنلِ المنى وتطالعِ الفتحَ المبينَ وشيكا
فهو الذي سنَّ البرورَ بأُمَّه وأبيه فاشرعْ شرعه لبنيكا
وابعث رسولك منذراً ومخذراً وبما تؤملُ نيلهُ يأتيكا
قد هزَّ عزمك كلَّ قطريٍّ نازحٍ وأخافَ مملوكاً بهِ ومليكا
فإذا سموتَ إلى مرَّامٍ شاسعٍ فغصُّونه ثمرَ المنى تجنيكا
ضمنتُ رجالُ الله منك مطالبي لما جعلتك في الثواب شريكا
فلئن كفيتَ وجوهها في مقصدي ورعيتها بركاتها تكفيكا
وإذا قضيتَ حوائجي وأريتني أملاً فربك ما أردتَ يريكا
واشدُّدْ على قولي يدأً فهو الذي برهانه لا يقبلُ التشكيكا
مولاي ما استأثرتُ عنك بمهجتي إنني ومهجتي التي تفديكا
لكن رأيتُ جنابَ شالة مغنماً يُضفي عليَّ العزَّ في ناديكا
وفروضُ حقلٍ لا تفوتُ فوقتها باقٍ إذا استجزيته يجزيكا
ووعدتني وتكرَّرَ الوعدُ الذي أبتِ المكارمُ أن يكونَ أفيكا
أضفى عليكَ الله سترَ عنايةٍ من كلِّ محذورِ الطريقِ يقيكا

ببقائك الدنيا تُحاطُ وأهلها فاللهُ جلَّ جلاله يُبقيكما
فلمّا وصل الكتاب إلى السلطان أجابه بما مرّ آنفاً .

ورأيت بخط الفقيه الأديب المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي
نزيل تلمسان على هامش قول ابن الخطيب في هذه الرسالة « ولا شك عند عاقل
أنكم إن انحلت عروة تأميلكم - إلخ » ما صورته : كذلك وقع آخر الأمر ،
وكان الاستيلاء على مدينة غرناطة آخر ما بقي من بلاد الأندلس للإسلام في
محرم عام سبعة وتسعين وثمانمائة ، فرحم الله تعالى ابن الخطيب ، العاقل اللبيب ،
وغفر له برحمته ؛ انتهى .

ومما خاطب به لسان الدين السلطان أبا سالم في الغرض المتقدم قوله :

عن باب والدك الرضي لا أبرحُ	يأسو الزمان لأجلِ ذا أو يجرحُ
ضربتُ خيامي في حماه فضببتي	تجني الحميمَ به وبهمني تشرحُ
حتى يراعى وجهه في وجهي	بعناية تشفي الصدورَ وتشرحُ
أيسوغُ عن مواه سيري خائباً	ومنابرُ الدنيا بذكرك تصدحُ
أنا في حماه وأنت أبصرُ بالذي	يرضيه منك فوزنُ عقلك أرجحُ
في مثلها سيفُ الحمية ينتصّي	في مثلها زندُ الحفيظة يُقدحُ
وعسى الذي بدأ الجميلَ يعيده	وعسى الذي سدَّ المذاهبَ يفتحُ

[ترجمة أبي سالم المريني]

وقد عرف في « الإحاطة » بالسلطان أبي سالم فقال بعد كلام : أملاك المسلمين ،
وحماة الدين ، وأمرء المغرب الأقصى من بني مرّين ، غيوث المواهب وليوث العرين ،
ومعتمد الصريخ وسهام الكافرين ، حفظ الله تعالى على الإسلام والمسلمين ظلهم ،
وزين ببدور الدنيا والدين هالتهم ، وأبقى الكلمة فيمن اختاره منهم أو من

أقاربهم ، فما عسى أن يُطْنِبَ اللسانُ في مدحهم ؟ وأين تقع العبارة ؟ وماذا^١
يحصُر الوصف ؟ إلى أن قال : وفاته — وفي ليلة العشرين من ذي القعدة^٢ من
عام اثنين وستين وسبعمائة^٣ ثار عليه بدار الملك وبلد الإمارة المعروف بالبلد
الجديد من مدينة فاس الخائنُ الغادرُ مخلفه عليها عمر بن عبد الله بن علي نسمة
السوء ، وجملة الشؤم ، والمثل البعيد في الجراءة على الله تعالى ، وقد اهتبل غيرةً
انتقاله إلى القصر السلطاني بالبلد القديم متحولاً إليه حذراً من قاطع^٤ فلكي كان
يحذر منه ، استعجله بضعف نفسه ، وأعانته على فرض صحة الحكم به ، وسد
الباب في وجهه ، ودعا الناس إلى بيعه أخيه المعتوه ، وأصبح حائراً بنفسه ، يروم
ارتجاع أمر ذهب من يده ، ويطوف بالبلد يلتمس وجهاً إلى نجاح حيلة ، فأعياه
ذلك ، ورشقت من معه السهام ، وفرّت عنه الأجناد والوجوه ، وأسلمه الدهر ،
وتبرأ منه الجلد ، وعندما جنّ عليه الليل فر لوجهه ، وقد التفّ عليه الوزراء ،
فسفّهت حلومهم ، وفالت آراؤهم ، ولو قصدوا به بعض الجبال المنيعة لولوا
أوجههم شطر مظنة الخلاص ، واتصفوا بإبلاغ الأعداء ، ولكنهم نكلوا عنه .
ورجعوا أدراجهم وتسلّوا راجعين إلى يد غادر الجملة ، قد سلبهم الله سبحانه
لباس الحياء والرجولية وتأذن الله تعالى لهم بعدُ بسوء العاقبة . وقصد بعض
بيوت البادية وقد فضحه نهارُ الغد ، واقتفى المتبعة أثره حتى وقعوا عليه ، فسيق إلى
مصرّعه ، وقتل بظاهر البلد ثاني اليوم الذي غدر به فيه ، جعلها الله تعالى له
شهادةً ونفعه ؛ فلقد كان ° بقية البيت وآخر القوم دماً وحياء ، وبعداً عن

١ ق : وما .

٢ ص : قعدة .

٣ قال ابن الأحمر : وقتل رحمه الله تعالى وأنا أنظر إليه وأتوجع وأبكي يوم الخميس ٢١ الذي

القعدة سنة ٧٦٢ وله ٢٨ سنة (روضة النسرين : ٣٠) .

٤ القاطع والقطع في مصطلح المنجمين ما يدل على نحس وخسارة .

٥ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٧٠ .

الشرور ، وركوناً للعافية ، وأنشدت على قبره الذي ووريت به جثته بالقلعة من
ظاهر المدينة قصيدةً أدبتُ فيها بعض حقّه :

بني الدنيا بني لمع السرابِ « لدوا للموت وابنوا للخرابِ »

انتهى المقصود من الترجمة .

وكان يصف لسان الدين بمقرَّبِي وجليسي ، كما سبقت الإشارة إليه من كلام
لسان الدين فيما خاطب به ابن أبي رمانة ، والله يسبل على الجميع رداء عفوه
سبحانه .

وقد تقدم أنه شفّع لابن الخطيب عند أهل الأندلس ، ولذلك قال يخاطبهم :

سَمِيَّ خَلِيلِ اللَّهِ أَحْيَيْتَ مُهْجَتِي وَعَاجَلْتَنِي مِنْكَ الصَّرِيخُ عَلَى بُعْدِ
فَإِنْ عَشْتُ أُبْلِغُ فَيْكَ نَفْسِي عَذْرَاهَا وَإِنْ لَمْ أَعْشُ فَاللَّهُ يَجْزِيكَ مِنْ بَعْدِي

[ثناء المغاربة والمشاركة على لسان الدين]

وقال الرئيس الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل ابن الأحمر في حق ابن
الخطيب ما صورته^١ : هو شاعر الدنيا ، وعالم المفرد والثُنْيَا ، وكاتب الأرض ،
إلى يوم العرض ، لا يدافع مدحه في الكتّاب ، ولا يجنح فيه إلى العتب ، آخر من
تقدم في الماضي ، وسيف مقوّله ليس بالكتّام إذ هو الماضي ، وإلاّ فانظر
كلام الكتّاب الأول من العصبية ، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصة ،
للبراعة ، بالبراعة ، وبه أسكت صائلهم ، وما حُمدتْ بُكرهم وأصائلهم ،
للجزالة المشربة بالخلاوة ، الممكنة من مفاصل الطلاوة ، وهو نفيس العُدوتين ،
ورئيس الدولتين ، بالإطلاع على العلوم العقلية ، والإمتاع بالفهوم النقلية ، لكن

١ هذا نص ما قاله في نثر فرائد الجمان ٢٤٢ وانظر أزهار الرياض ١ : ١٩١ .

صِلَّ لسانه في الهجاء لسع ، ونجاد نطقه في ذلك اتسع ، حتى صدمني ، وعلى القول فيه أقدمني ، بسبب هجوه في ابن عمي ملك الصقع الأندلسي ، سلطان ذلك الوطن في النفر الجنسي ، المعظم في الملوك بالقول الجني والإنسي ، ثم صفحت عنه صفحة القادر ، الوارد من مياه الظفر غير القاذر ، لأن مثلي لا يليق به إظهار العورات ، ولا يجمل له تتبع العثرات ، أتباعاً للشرع في تحريم الغيبة ، وضرباً عن الكريهة وإثباتاً لحظوظ النقيبة الرغبة ، فما ضره لو اشتغل بذنوبه ، وتأسف على ما شربه من ماء اللهو بذنوبه^١ ، وقد قال بعض الناس : من تعرض للأعراض ، صار عرضُه هدفاً لسهام الأغراض ؛ انتهى .

ومثل هذا في لسان الدين لا يقدر ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح^٢ ، وعلى تقدير صدور ما يخذش وجه جنابه الرفيع ، فالأولى أن ينشد :

وإذا الحبيبُ أتى بذنْبٍ واحدٍ جاءت محاسنه بألفٍ شفيع

وممن أثنى على لسان الدين ابن الخطيب - رحمه الله تعالى - بعضُ أكابر علماء تلمسان ، ولم يحضرنى الآن اسمه ، في تأليف عرّف فيه بالشيخ العلامة سيدي أبي عبد الله الشريف التلمساني وابنيه العالمين أبي يحيى وسيدي عبد الله ، فقال بعد كلام في حق الشريف ما نصّه : وكان علماء الأندلس أعرف الناس بقدره ، وأكثرهم تعظيماً له ، حتى إن العالم الشهير لسان الدين ابن الخطيب صاحب الأنباء العجيبة ، والتأليف البديعة ، كلّمَا أَلَفَ تأليفاً بعثه إليه ، وعرضه عليه ، وطلب أن يكتب عليه بخطه ، وكان الشيخ الإمام الصدر المفتي أبو سعيد ابن لب شيخ علماء الأندلس وآخرهم كلّمَا أشكلت عليه مسألة كاتبه بها ، وطلب منه بيان ما أشكل عليه ، مقرأً له بالفضل ؛ انتهى ما نقلته من الكتاب المذكور .

١ الذنوب : الدلو .

٢ عجز بيت ، وصدوره : « هجوت زهيراً ثم إني مدحته » .

رجع :

وكتب لسان الدين ابن الخطيب متمثلاً بشيخه الأوحى قاضي الجماعة أبي البركات ابن الحاج البليقي رحمهما الله تعالى^١ :

أيتها النفس إليه اذهبي فحُبِّهِ المشهور من مذهبي
أيا سني التوبة من حُبِّهِ طلوعه شمساً من المغرب

ويغلب على ظني أنه خاطبه بذلك عند قدومه ، أعني لسان الدين ، من المغرب إلى الأندلس ، والله تعالى أعلم .

وكان قاضي القضاة برهان الدين الباعوني الشامي^٢ ، كثير الثناء على لسان الدين رحمه الله تعالى ، لأنه تلقى أخباره من قاضي القضاة ابن خلدون حسبما ذكرناه في غير هذا الموضع ، ولقد رأيت بخطه على هامش بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ما نصّه : هذا بليغ إلى الغاية ؛ انتهى .

وكتب أثره بعض أكابر علماء المشرق ما نصّه : هذا خط العلامة قاضي القضاة برهان الدين الباعوني ، وهو شديد الاعتناء والمدح للمصنف ابن الخطيب الأندلسي ، معظم له وإنشائه ، وهو خليق بالتعظيم ، جدير بمزيد التمجيد والتكريم ، وكيف لا وهو شاعر مُفْلِقٌ ، وخطيب مِصْقَعٌ ، وكاتب مترسل بليغ ، لولا ما في إنشائه من الإكثار ، الذي لا يكاد يخلو من عثار ، والإطناب . الذي يُفْضِي إلى الاجتناب ، والإسهاب ، الذي يَقْدُ الإهاب ، ويورث الالتهاب ؛ انتهى .

١ قد تقدم القول في البيتين ونسبتهما ج ٤ : ١٤ ؛ ٥ : ٣٤٨ ، ٤٨٢ .
٢ هو إبراهيم بن أحمد الباعوني (- ٨٧٠) الصفدي المولد الدمشقي الدار ، كان ينمت بقاضي القضاة مع أنه رفض تولي القضاة ، وله ديوان شعر ومؤلفات أخرى (الضوء اللامع ١ : ٢٦ والبدر الطالع ١ : ٨ ونظم العقيان : ١٣) .

قلت : وهذا الانتقاد غير مُسَلِّم ، فإن لسان الدين وإن أظن وأسهب ، فقد سلك من البلاغة أحسنَ مذهب ، ويزحم الله تعالى العلامة البرهان الباعوني المذكور أعلاه ، إذ كتب بخطه في آخر بعض تأليف لسان الدين في الإنشاء ما صورته : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد الباعوني لطف الله تعالى به : الحمد لله على ما ألهم من البيان وعلم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم ، وقفتُ على هذا الكتاب من أوله إلى آخره ، وعمتُ من بحر بلاغته في زاخره ، وعددته من مناقب مؤلفه ومفاخره ، فإنه برز فيه غاية التبريز ، وأتى بما هو أحسن من الذهب الإبريز ، لا بل هو أبهى من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، وعمجت من تلك الألفاظ ، المشبهة لسحر الألفاظ ، ورقة المعاني ، المحكمة المباني ؛ انتهى .

فانظر - أيدك الله تعالى - بعين الإنصاف إلى كلام هذا الفاضل ، المنصف الكامل ، وقِسْه مع كلام ذلك المنتقد المتعصب الناقص الحامل ، مع أن الكلام الذي تعرض له ذاك بالقدح ، هو الذي تصدى له الباعوني بالمدح ، وكل إناء بالذي فيه ينضح ، وإتّما يعرف الفضل لأهل الفضل أهل الفضل ، والأمر أجلى من أن يقام عليه دليل وأوضح .

رجع إلى ما كتبنا بصدده :

وقال الوزير ابن عاصم عندما أجرى ذكر سلطان ابن الخطيب أمير المسلمين الغني بالله بعد كلام كثير ما صورة محل الحاجة منه : وكان هذا السلطان من نيل الأغراض على أكمل ما يكون عليه مثله ممن نزع غرقاً في قوس الخلافة ، حكى لي شيخنا القاضي أبو العباس الحسيني أن كبير ولده الأمير أبا الحجاج طلب من الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب أن يطلب من أبيه الغني بالله أن يبادر بإعذاره ، إذ كان قد جاوز سنّ الإثغار ، دون إعدار ، لمكان ما لحق والده من التمحيص وغير ذلك من الحوادث المهمة ، فأسعده الشيخ بذلك . وقال

للغني بالله : يا مولانا إن سيدي يوسف وكتني على طلب إعداره من مولانا نصره الله على ما يليق بك وبه ، فقال له الغني بالله : حسبي الله ، وسكت سكتة لطيفة تُشعر بفصل الكلام بعضه من بعض ، ثم قال : ونعم الوكيل ! فعدّها الأكياس من مدارك نُبيله ، ومحاسن قوله وفعله ؛ انتهى .

قلت : هذا من السلطان في حق لسان الدين غاية التبجيل ، أعني قوله « ونعم الوكيل » فأين هذا من سماع كلام أعدائه فيه بعد ، حتى آل أمره إلى النحس بعد ذلك السعد ؟ وسقاه دهره بعد الخلاوة ما مر ، ولم يكن قتله إلا بتسبب السلطان المذكور كما مر :

ثلاثةٌ ليسَ لها أمانُ البحرُ والسلطانُ والزمانُ

[٥ - رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى ^١ : ولما قضى الله عز وجل بالإدالة ، ورجعنا إلى أوطاننا من العُدوة ، واشتهر عني ما اشتهر من الانقباض عن الخدمة ، والتهيه على السلطان والدولة ، والتكبر على أعلى رتب الخدمة ، وتطارحت على السلطان في استنجاز وعد الرحلة ، ورغبت في تبرئة الذمة ، ونفرت عن الأندلس بالجملة ، خاطبني - يعني أبا جعفر ابن خاتمة - بعد صدرٍ بلَغ من حسن الإشارة وبراعة الاستهلال الغاية بقوله : « وإلى هذا يا سيدي وعمل تعظيمي وإجلالي ، أمتع الله تعالى الوجود بطول بقائكم ، وضاعف في العز درجات ارتقائكم ، فإنه من الأمر الذي لم يغب عن رأي العقول ، ولا اختلف فيه أرباب المعقول ، أنكم بهذه الجزيرة شمس أفقها ، وتاج مفرقها ، وواسطة سلكها ، وطيراز مُلكها ، وقِلادة نحرها ، وفريدة دهرها ، وعقد جيدها المنصوص ، وتمام

١ انظر الإحاطة ١ : ١٢٤ وأزهار الرياض ١ : ٢٦٥ .

زينتها على العموم والخصوص ، ثم أنتم مدار أفلاكها ، وسر سياسة أملاكها ،
 وترجمان بيانها ، ولسان إحسانها ، وطبّ مارستانها ، والذي عليه عقد إدارتها ،
 وبه قوام إمارتها ، فلديه يحلّ المشكل ، وإليه يُلجأ في الأمر المعضّل ، فلا غرو أن
 تنقيد بكم الأسماع والأبصار ، وتحديق نحوكم الأذهان والأفكار ، ويؤزجر عنكم
 السانح والبارح ، ويستنبأ ما تطرف عنه العين وتختلج الجوارح ، استقراء
 لمرامكم ، واستطلاعاً لطالع اعتزامكم ، واستكشافاً عن مرامي سهاكم ،
 لا سيما مع إقامتكم على جناح خفوق ، وظهوركم في ملتصع بروق ،
 واضطراب الظنون فيكم مع الغروب والشروق ، حتى تستقر بكم الديار ، ويلقي
 عصاه التسيار ، ولها العذر في ذلك إذ صدّعها بفراقكم لم يندمل ، وسرورها
 بلقائكم لم يكتمل ، ولم يبرأ بعد جناحها المهيبض ، ولا جسم ماؤها المغيض ،
 ولا تميزت من داجيها لياليها البيض ، ولا استوى نهارها ، ولا تألقت أنهارها ،
 ولا اشتملت نعمائوها ، ولا نُسيت غمّائوها ، بل هي كالناقِه ، والحديث العهد
 بالمكاهِر ، يستشعر نفس العافية ، ويتمسح منكم باليد الشافية ، فبحنانكم عليها ،
 وعظيم حرمتكم على من لديها ، لا تشوبوا لها عذب المُججاج بالأجاج ، وتفطموها
 عمّا عودت من طيب المزاج ، فما لدائها وحياة قربكم غير طبكم من علاج .
 « وإنتي ليخطر بخاطري محبة فيكم ، وعناية بما يعينكم ، ما نال جانبكم
 صانه الله تعالى بهذا الوطن من الجفاء ، ثمّ أذكر ما نالكم من حسن العهد وكرم
 الوفاء ، وأن الوطن لإحدى المواطنين الأظآر التي يحقّ لها جميل الاحتفاء ، وما
 يتعلّق بكم من حرمة أولياء القرابة وأوداء الصفاء ، فيغلب على ظني أنكم لحسن
 العهد أجنح ، ويحقّ نفسكم عن حق أوليائكم أسمح ، وليّتي هي أعظم قيمة
 من فضائلكم أو هبّ وأسجّح ، وهب أن الدرّ لا يحتاج في الإثبات ، إلى شهادة
 النحور واللبّات ، والياقوت غني في المكان ، عن مظاهرة القلائد والتيجان ،
 أليس أنّه أعلى للعيان ، وأبعد عن مكابرة البرهان ، تألّفها في تاج الملك أنوشروان ؟
 فالشمس وإن كانت أم الأنوار ، وجلاء الأبصار ، مهما أغمى مكانها من الأفق

قيل : أليلٌ هو أم نهار ، وكما في علمكم ما فارق ذوو الأرحام ، وأولو الأحلام ، مواطن استقرارهم ، وأما كن قرارهم ، إلا برغمهم واضطرارهم ، واستبدال دار خير من دارهم ، ومتى توازن الأندلس بالمغرب ، أو يعوض عنها إلا بمكة أو يثرب ؟ ما تحت أديمها أشلاء أولياء وعبيد ، وما فوقه مرابط جهاد ، ومعاهد ألوية في سبيل الله ومضارب أوتاد ، ثم ييواً ولده ميواً أجداده ، ويجمع له بين طارفه وتلاده ، أعيد أنظاركم المسددة من رأي فائل ، وسعي طويل لم يتحل منه بطائل ، فحسبكم من هذا الإياب السعيد ، والعود الحميد ؛ وهي طويلة .

[٦ - من لسان الدين إلى ابن خاتمة]

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : فأجبت بقولي ١ :

لَمْ فِي الْهَوَى الْعَذْرَى أَوْ لَا تَلْمُ فَالْعَذْلُ لَا يَدْخُلُ أَسْمَاعِي
شَأْنَكَ تَعْنِيْفِي وَشَأْنِي الْهَوَى كُلُّ أَمْرٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي

أهلاً بتحفة القادم ، وريحانة المنادم ، وذكر الهوى المتقادم ، لا يصغّر الله مسراك ، فما أسراك ، لقد جبت إليّ من همومي ليلا ، وجست رجلاً وخيلا ، ووفيت من صاع الوفاء كيلا ، وظننت بي الأسف على ما فات ، فأعملت الالتفات ، لكيلا ٢ ، فأقسم لو أن الأمر اليوم بيدي ، أو كانت اللمة السوداء من عددي ، ما أفلت أشراكي المنصوبة لأمثالك ٣ ، حول المياه وبين المسالك ، ولا علمت ما هنالك ، لكنك طرقت حمي كسعت الغارة الشعواء ، وغيرت

١ الإحاطة ١ : ١٢٦ والأزهار ١ : ٢٦٧ .

٢ هذا من الاكتفاء ، فهو يشير إلى الآية الكريمة « لكي لا تأسوا على ما فاتكم . . . الآية » .

٣ نثر بيت الشريف الرضي :

لو كانت اللمة السوداء من عددي يوم الغنيم لما أفلت أشراكي

رَبَّعَهُ الْأَنْوَاءَ ، فمخمد بعد ارتجاعه ، وسكت أذینُ دجاجه ، وتلاعبت الرياحُ
الهُوجُ فوق فيجاجة ، وطال عهدهُ بالزمن الأول ، وهل عند رسم دارس من
مُعَوَّلٍ ؟ وحيّاً الله ندباً إلى زيارتي ندبك ، وبآدابه الحكمية أدبك :

فكان وقد أفادَ بكَ الأمانِي كمن أهدى الشفاء إلى العليل

وهي شيمة بوركت من شيمَةٍ ، وهبة الله تعالى قبله من لدن المشيمة ،
ومَنَ مثله في صلةٍ رعي ، وفضلٍ سعي ، وقولٍ وعي ١ :

قَسَمًا بالكواكب الـ زَهْرٍ والزَّهْرُ عاتمه
إِنَّمَا الفضلُ ملّةٌ خُتِمَتْ بابن خاتمه

كساني حلة فضله ، وقد ذهب زمان التجمّل ، وحمّلتني شكره وكتدي
أواه عن التحمل ، ونظرني بالعين الكليّة عن العيب ، فهلاًّ أجاد التأمّل ، واستطلع
طيلعَ نثي ٢ ، ووالى في مبرك المعجزة حثي ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي ﴾ :

ولو تُرِكَ القَطَا ليلاً لنا ما ٣

وما حال شمل وتده مفروق ، وقاعدته فروق ، وصوّاع بني أبيه مسروق ،
وقلب قَرَحِهِ من عَضَّةِ الدهر دام ، وجمرة حسرته ذات احتدام ، هذا وقد
صارت الصغرى ، التي كانت الكبرى ، لمشيب لم يدع أن هجم لمّا نجم ، ثم
تهلّل عارضه وانسجم :

لا تجمعي هَجْرًا عَلَيَّ وغربةٌ فاهجر في تلف الغريب سريعُ

١ ق ص : ومرعى .

٢ النث : ما يذيعه المرء من سر .

٣ من أمثاله ؛ وصدّره : «ألا يا قومنا ارتحلوا وسيروا» يريد أن وراء إثارة القطا في الليل أمراً
رهيباً . انظر فصل المقال : ٣٠٥ - ٣٠٦ .

نظرت فإذا [الجنب ناب ، و]^١ النفس فريسة ظفُر وناب ، والمال أكيلة
انتهاب ، والعمر رهن ذهاب ، واليد صفر من كل اكتساب ، وسوق المعاد
مترامية ، والله سريع الحساب :

ولو نُعْطِيَ الخِيارَ لما افترقنا ولكن لا خيارَ مَعَ الزمان

وهب أن العمر جديد ، وظلّ الأمن مديد ، ورأي الاغتباط بالوطن سديد ،
فما الحجّة لنفسي إذا مرت بمطارح جفوتها ، وملاعب هفوتها ، ومثاقف
قناتها ، ومظاهر عزّأها ومناها ، والزمان ولّود ، وزناد الكون غير صلّود :

وإذا امرؤ لدغته أفعى مرّة^٢ تركته حين يُجرّ جبلٌ يَفْرَقُ^٣

ثم إن المرغب قد ذهب ، والدهر قد استرجع ما وهب ، والعارض قد
اشتبه ، وآراء الاكتساب مرجوحة مرفوضة ، وأسمائه على الحوار مخفوضة ،
والنية مع الله على الزهد فيما بأيدي الناس معقودة ، والتوبة بفضل الله عزّ وجل
منقودة ، والمعاملة سامرية ، ودروع الصبر سابرية ، والاقتصاد قد قرت العين
بصحبته ، والله قد عوض حب الدنيا بمحبته ، فإذا راجعها مثلي من بعد الفراق ،
وقد رقتي لدغتها ألف راق ، وجمعتني بها الحجر ، ما الذي تكون الأجرة ؟
جل شاني ، وإن رضي الوامق وسخط الشاني ، إني إلى الله تعالى مهاجر ،
وللعرض الأدنى هاجر ، ولأظعان السرى زاجر ، لنجد إن شاء الله تعالى وحاجر ،
لكن دعائي للهوى ، إلى هذا المولى المنعم هوى ، خلعت نعلي الوجود وما خلعت ،
وشوقي أمرني فأطعته ، وغالب^٤ والله صبري فما استطعته ، والحال أغلب ،
وعسى أن لا ينجيب المطلب ، فإن يسر رضاه فأمر كمل ، وراحل احتمل ، وحاد^٥
أشجى الناقة والجمل ، وإن كان خلاف ذلك فالزمان جم العلائق ، والتسليم

١ انفردت بها ص ، ووردت في المصدرين المذكورين .

٢ البيت لصالح بن عبد القدوس (تاريخ بغداد ٩ : ٣٠٤) .

بمقامي لائق :

ما بينَ غَمَضَةِ عينٍ وانتباهتها يُصَرِّفُ الأمرُ من حالٍ إلى حالٍ ،
وأما تفضيله هذا الوطن ليُمنَ طيِّره ، وعموم خيره ، وبركة جهاده ،
وعمران رُباه ووهاده ، بأشلاء عبَّاده وزُهَّاده ، حتى لا يفضلهُ إلا أحدَ الحرمين ،
فحقُّ برىء من الميَّن ، لكنني للحرمين جنحت ، وفي جوِّ الشوق إليهما سنحت ،
فقد أفضتُ إلى طريقِ قَصْدي محجته ، ونصرتني والمنة لله تعالى حُجَّتَه ، وقصد
سيدي أسنى قصد توخَّاه الحمد والشكر ، ومعروف عرف به النكر ، والآمال
من فضل الله بعدُ تُمَّتار ، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار ، ودعاؤه بظهر الغيب
مدد ، وعدة وعدد ، وبره حالِي الظعن والإقامة معتمَل معتمد ، ومجال المعرفة
بفضله لا يحصره أمد ، والسلام ؛ انتهى .

ومن خط ابن الصباغ ما صورته : يكفي ابنَ خاتمة الغايةُ التي سلمها له
إمام الطريقة ، وواحدها الفذ على الحقيقة ، حيث قال :

إنَّما الفضلُ ملةٌ خُتِمَتْ بابن خاتمه

ومن نظمه وقد تخلى عن الكتابة وطُلب منه أن يعود فأبى وأنشد :

تقضَى في الكتابة لي زمانٌ كشأن العبدِ يَنْتَظِرُ الكتابةُ
فمنَّ الله من عتقي بما لا يطيقُ الشكرُ أن يملا كتابه
وقالوا هل تعود فقلت كلا وهل حرٌّ يعود إلى الكتابه

فانظر حُسْنَ هذه التورية العجيبة ؛ انتهى .

[رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزري]

ولابن خاتمة يخاطب ابن جزري : يا أخي الذي سما ودُّه أن يُجازى ،

وسيدي الذي علا مجده عن أن يُوازي ، وصل الله تعالى لك أسباب الاعتلاء والاعتزاز ، وكافاً ما لك من الاختصاص بالفضائل والامتياز ؛ أما إنّه لو وسع التخلف عن جواب أخ أعز ، ولم يجب التكلف عمن قد عجز ، لفطيت عجزني عن عين تعجيزك . ولما تعاطيت المثول بين يدي مناهزك أو مجيزك ، لكنّه في حكم الود المكنون المكنوز ، ممّا لا يحل ولا يجوز ، فلکم الفضل في الإغضاء عن عاجز ، دعاه حكم التكلّف إلى القيام مقام مُناجز ، وإن لم يكن ذلك عند الإنصاف ، وحميد الأوصاف ، من السائغ الجائر ، فعن جهد ما بلغ وليك إلى هذه الأحواز . ولم يحصل الحقيقة إلّا على المجاز . أمّا ما ذهبتم إليه من تخميس القصيدة التي أعجزت ، وبلغت من البلاغة الغاية التي عزت مُناهضتُها وأعوزت ، فلم أكن لأستهدف ثانياً لمضاضة الإعجاز ، وأسجل على نفسي بالإفلاس والإعواز : انتهى .

وكتب قبلها قصيدة زائية أجابه بها عن قصيدة زائية ، التزم فيها ابنُ جزري ترك الراء ، لأنّه كان أُلثغ يبدها غيناً ، رحم الله تعالى الجميع .
وقال لسان الدين في ترجمة ابن خاتمة المذكور^١ : إنّه الصدر المتفنن المشارك ، القوي الإدراك ، السديد النظر ، الثاقب الذهن ، الكثير الاجتهاد ، الموفور الأدوات . المعين الطبع ، الجيد القريحة ، الذي هو حسنة من حسنات الأندلس ، أحمد بن علي بن خاتمة ، من أهل المربة .

[٧ - رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين]

إلى أن قال : « وممّا خاطبني به بعد إمام الركاب السلطاني ببلده وأنا صحبته ، ولقائه إيّاي بما يلقي به مثله من تأنيس وبر ، وتودد وتردد :

يا من حصلتُ على الكمال بما رأيتُ عيناَي منه من الجمال الرائع

١ انظر الإحاطة ١ : ١١٤ ، ١١٦ .

قمرٌ يروقُ وفي عِطافِيْ بَرْدِهِ ما شئتَ من كرمٍ ومجدٍ بارِعٍ
أشكو إليك من الزمانِ تحاملاً في فَضْلِ شَمَلٍ لي بقربكِ جامعٍ
هَجَمَ البعادِ عليهِ ضنّاً باللِّقا حتى تَقْلَصَ مثلَ برقٍ لامِعٍ
فلو آتني ذو مَدَّهَبٍ لشفاعة ناديتُهُ يا مالكي يا شافعي

« شكواي إلى سيدي ومُعظَمي - أقر الله تعالى بسنائه أعين المجد ، وأدرَ بثنائه
ألسنَ الحمد - شكوى ظمآنِ صُدَّ عن القَرَّاحِ العَدْبِ لأوَّلِ ورودِهِ ، والهيمانِ
رد عن استرواحِ القربِ لمعضلِ صدوده ، من زمانِ هجمِ عليٍّ بإبعاده ، على حينِ
إسعاده ، ودهمني بفراقِهِ ، غبَّ إنارةِ أفقي به وإشراقِهِ ، ثم لم يكفِهِ ما اجترَمَ في
ترويحِ خياله الزاهر ، حتى حرم عن تشييعِ كماله الباهر ، ففُطِعَ عن توفيةِ حقِّهِ ،
ومُنِعَ من تأديةِ مستحقِّهِ ، لا جرمَ أَنَّهُ أنفَ لشعاعِ ذُكائِهِ ، من هذه المطالعِ
النائيةِ عن شريفِ الإنارةِ ، وبخلِ بالإمتاعِ بذكائِهِ ، عن هذه المسامعِ النائيةِ
عن لطيفِ العبارةِ ، فراجعِ أنظارِهِ ، واسترِجِعِ معارِهِ ، وإلا فعهدي بغروبِ
الشمسِ إلى الطلوعِ ، وأن البدرِ يتصرفُ بين الإقامةِ والرجوعِ ، فما بال هذا
النيرِ الأسعدِ ، غَرَبَ ثمَّ لم يطلعِ من الغدِ ، ما ذاك إلا لعدوى الأيامِ وعدوانِها ،
وشأنها في تغطيةِ إساءتها وجهِ إحسانها ، وكما قيل : عادت هيف إلى أديانها ،
أستغفر الله أن لا يعد ذلك من المغتفرِ ، في جانبِ ما أولت من الأثرِ ، التي أزرى
العيانِ فيها بالأثرِ ، وأرَبى الخُبْرَ على الخُبْرِ ، فقد سرت متشوقاتِ الخواطرِ ،
وأقرتِ مستشرفاتِ النواظرِ ، بما حوت من ذلكم الكمالِ الباهرِ ، والجمالِ
الناضرِ ، الذي قيد خطا الأبصارِ ، عن التشوِّفِ والاستبصارِ ، وأخذ بأزمِةِ
القلوبِ ، عن سبيلِ كلِّ مأمولٍ ومرغوبٍ ، وأتى للعينِ ، بالتحوُّلِ عن كمالِ
الزَيْنِ ؟ أو بالطرفِ ، بالتَّنقُلِ عن خلالِ الظرفِ ؟ أو للسمعِ من مرادِ ، بعد

ذلكم الإصدار الأدبي والإيراد ، أو للقلب من مراد ، غير تلکم الشيم الرافلة من ملابس الكرم في حُلل وأبراد، وهل هو إلاّ الحسن جُمع في نظام ، والبدر طالع لتمام ، وأنواع الفضل ضمها جنس اتفاق والثام ، فما ترعى العين منه في غير مرعى خصيب ، ولا تستهدف الأذن بغير سهم في حلق البلاغة مصيب ، ولا تستطلع النفس سوى مطلع له في الحسن والإحسان أوفر نصيب ، لقد أزرى بناظم حلاه فيما يتعاطاه التقصير ، وانفسح مدى علاه بكل باع قصير ، وسفه حلم القائل إن الإنسان عالم صغير ، شكراً للدهر على يد أسداها بقرب مزاره ، وتحفة أهداها بمطلع أنواره ، على تغاليه في ادخار نفائسه وبخله بنفائس ادخاره ، لا غرو أن يضيق عنا نطاق الذكر ، ولا يتسع لنا سوار الشكر ، فقد عمت هذه الأقطار بما شاءت من تحف بين تحفٍ وكرامة ، واجتنت أهلها ثمرة الرحلة في ظل الإقامة ، وجرى لهم الأمر في ذلك مجرى الكرامة .

« ألا وإن مفاتحي لسيدي ومعظمي - حرس الله تعالى مجده ، وضاعف سعده - مفاتحة من ظفر من الدهر بمطلوبه ، وجرى له القدر على وفق مرغوبه ، فشرع له إلى أهله باباً ، ورفع له من خجله جلباباً ، فهو يكلف بالاقترام ، ويأنف من الإحجام ، غير أن الحصر عن درج قصده يقيده ، والبصر يبهرج نقده فيقعده ، فهو يُقدّم رجلاً ويؤخر أخرى ، ويجدد عزماً ثم لا يتحرى ؛ فإن أبطأ خطابي فلواضح الأعذار ، ومثلکم من قبل جليّات الأقدار ، والله سبحانه يصل لكم عوائد الإسعاد والإسعاف ، ويحفظ بكم ما للمجد من جوانب وأكناف ، إن شاء الله تعالى . وكتب في عاشر ربيع الأول عام ثمانية وأربعين وسبعمائة » ؛ انتهى .

ومن خاتمة رسالة من إنشاء ابن خاتمة المذكور : فلنصرف عنان البطالة عن الإطالة ، ونسلم على السيادة الطاهرة الأصالة ، بأطيب تسليم ، ختامه مسك ومزاجه من تسنيم .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور^١ :

هو الدهرُ لا يُبقي على عائذٍ به فمن شاء عيشاً يصطبرُ لنوائبه
فمن لم يُصَبْ في نفسه فمُصابه بفوتِ أمانيهِ وفقدِ حبابه

ومنه قوله :

ملاكُ الأمرِ تقوى الله ، فاجعلُ تُقاهِ عُدَّةَ لصلاحِ أمرِكُ
وبادرُ نحو طاعتهِ بعزمٍ فما تدري متى يقضى بعمرِكُ

[٨ - رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : وكتب إلي - يعني ابن خاتمة المذكور - عقب انصرافه من غرناطة في بعض قدماته عليها ما نصّه^٢ : ممّا قلته بديهة عند الإشراف على جنابكم السعيد ودخوله مع النفر الذين أتخفتهم سيادتكم بالإشراف عليه ، والدخول إليه ، وتنعيم الأبصار في المحاسن المجموعة لديه ، وإن كان يوماً قد غابت شمسهُ ، ولم يتّفق أن كمل أنسه ، وأنشدته حينئذ بعض من حضر ولعلّه لم يبلغكم ، وإن كان قد بلغكم ففضلكم يحملني في إعادة الحديث :

أقولُ وعينُ الدّمعِ نصبُ عيوننا ولاحَ لبستانِ الوزارةِ جانبُ
أهذي سماءُ أم بناء سما به^٣ كواكبُ غضّت عن سناها الكواكبُ
تناظرتِ الأشكالُ منه تقابلاً على السعدِ وسطى عقده والحبابُ
وقد جرتِ الأمواهُ فيه مجرةً مذانبها شهبٌ لهن ذوائبُ
وأشرفَ منِ علياه بهوُ تحفه شماسي زجاجٍ وشيهاً متناسبُ

١ القطعتان في الإحاطة : ١٢٢ - ١٢٣ .

٢ المصدر السابق : ١٢٣ والكتيبة : ٢٤٤ .

٣ الإحاطة : سمازه .

يطلّ على ماء به الآسُ دائراً^١ كما افتراً ثغراً أو كما اخضرّ شاربُ
هنالك ما شاء العلّاء من جلاله بها يزدهي بستانها والمراتبُ

ولما أحضر الطعام هنالك دعي شيخنا القاضي أبو البركات فاعتذر أنّه صائم
قد بيّته من الليل ، فحضرني أن قلت :

دعونا الخطيبَ أبا البركات لأكلِ طعامِ الوزيرِ الأجلِّ
وقد ضمّنا في نداه جناناً به احتفل الحسنُ حتى كملَّ
فأعرض عتاً لعذرِ الصيامِ وما كلَّ عذرٌ له مستقلِّ
فإنّ الجنانَ محلُّ الجزاءِ وليس الجنانُ محلُّ العملِّ

وعندما فرغنا من الطعام أنشدت الأبيات شيخنا أبا البركات ، فقال لي :
لو أنشدتنيها وأتم بعد لم تفرغوا منه لأكلت معكم ، برأ بهذه الأبيات ، والحوالة
في ذلك على الله تعالى ؛ انتهى .

ومن نظم ابن خاتمة المذكور في فرّان :

ربّ فرّانٍ جلا صفحتَه لهُبُ الفُرنِ جلاء العسجدِ
يضمُّمُ النارَ بأحشاء الورى مثلما يضمُّم في المستوقدِ
فكانَ الوجه منه خُبزةً فوقها الشعرُ كقدر أسودِ

[أحمد بن صفوان]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى^٢ : ولما قدمت مالقة آيياً من السفارة إلى
ملك المغرب محفوفاً بفضل الله تعالى وجميل صنّعه ، موفى المآرب ، مصحّباً

١ ق : دائر .

٢ انظر ترجمة ابن صفوان في الإحاطة ١ : ١٠٠ والكتيبة : ٢١٦ .

بالإعانة ، لقيني على عادته مهنيًا ، يعني أحمد بن صفوان أحد أعلام مالقة وبقية أدبائها وصدور كتبها ، وأنشدني معيداً في الود مبدياً ، وضمن غرضاً له تعجل قضاءه والحمد لله تعالى :

قدمت بما سرّ النفوس اجتلاؤه
 قدوماً بخيرٍ وافرٍ وعنايةٍ
 ورفعةٍ قدرٍ لا يداني محلّها
 عُنيتَ بأمرِ المسلمين فكلّتهم
 بلغت الذي أمّلته من صلاحهم
 فيا واحداً أغنت عن الجمع ذاته
 تشوّكك الملكُ الذي بك فخره
 فلا زال مُزداناً بحليك جوده
 وخصّصت من ربّ العبادِ بنعمةٍ
 وعشتَ عزيزاً في النفوسِ محبباً
 وقد جاءني داعي السرورِ مؤدياً
 ولي بعدَ هذا مأربٌ متوقفٌ
 هزرتُ له عطفَ البطرنيّ راجياً
 ولم يدرِ أُنّي من علانك منتضٍ
 يصمم إن هزّته كفتي لمعضلٍ
 فحقّقْ له دامت سعودك حرمتي
 وشاركُ محبباً خالصاً لك حبه
 وصلٍ بجزيلِ الرعي حبلَ ذمامه
 بقيتَ وصنعُ الله يدي لك المُني
 بجرمةٍ من حقّت سيادتهُ على
 فهنيتَ ما عمّ الجميعَ هناؤه
 وعزّيتَ مشيدٍ بالمعالي بناؤه
 رفيعٌ وإن ضاهى السماك اعتلاؤه
 بما يرتجيه قد توالى دعاؤه
 فأدركتَ مأمولاً عظيماً جزاؤه
 وقام بأعباء الأمور غناؤه
 وأنت حقيقاً حسنه وبهاؤه
 ولا زال موفوراً عليك اصطفاؤه
 ينيلُكها تخصيصه واحتفاؤه
 يلبّي بتبجيلٍ وبرٍّ نداؤه
 لحقّ هناءَ فرضٍ عينِ أداؤه
 على فضلك الرحبِ الجنبِ قضاؤه
 له النجعُ فاستعصى وخاب رجاءه
 حُساماً كفيلاً بالنجاح انتضاؤه
 فيكفي العنا تصميّمه ومضاؤه
 لديك يرحني مَطْلُه والتواؤه
 قديماً كريماً عهدُهُ ووفاءه
 يصلُك جزيلاً شكره وثناؤه
 ويوليك من مصنوعه ما تشاؤه
 بني آدم والخيرُ منه ابتداؤه

وجمعت^١ ديوان شعره أيام مقامي بمالقة عند توجيهي صحبة الركاب السلطاني إلى إصراخ الخضراء عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وقدمت صدره خطبة ، وسميت الجزء بـ « الدرر الفاخرة واللجج الزاخرة » .

[٩ - إجازة ابن صفوان للسان الدين]

وطلبت منه أن يجيزني وولدي عبد الله رواية ذلك عنه ، فكتب بخطه الرائق بظهر المجموع ما نصّه : الحمد لله مستحق الحمد ، أجبته سؤال الفقيه الأجل الأفضل السري الماجد الأوحى الأحفل الأديب البارع الطالع في أفق المعرفة والنباهة ، والرفعة المكيئة والوجاهة ، بأبهى المطالع ، المصنف الحافظ العلامة الحائر في فني النظم والنثر ، وأسلوب الكتابة والشعر ، رتبة الرياسة والإمامة ، محلي جيد العصر بتأليفه الباهرة الرؤاء ، ومجلي محاسن بنيه الراقية على منصة الإشادة والأنباء أبي عبد الله ابن الخطيب ، وصل الله تعالى سعادته ، وحرس مجادته ، وسنى من الخير الأوفر ، والصنع الأبر ، مقصده وإرادته ، وبلغه في نجله الأسعد ، وابنه الراقى بمحتده الفاضل ومنشئهِ الأطهر محلّ الفرقد ، أفضل ما يؤمل نحلته إياه من المكرمات وإفادته ، وأجزت له ولابنه عبد الله المذكور أبقاهما الله تعالى في عزّة سنية الخلال ، وعافية ممتدة الأفياء وارفة الظلال ، رواية جميع ما تفيد في الأوراق المكتتب على ظهر أول ورقة منها من نظمي ونثري ، وما توليت إنشاءه ، واعتمدت بالارتجال والرواية اختياره وانتقاه ، أيام عمري ، وجميع ما لي من تصنيف وتقييد ، ومقطوعة وقصيد ، وجميع ما أحمله عن أشياخي رضي الله تعالى عنهم من العلوم ، وفنون المنثور والمنظوم ، بأي وجه تأدّى ذلك إليّ ، وصح حملي له وثبت إسناده لديّ ، إجازة تامة ، في ذلك كلّه عامة ، على ستن الإجازات الشرعي ، وشرطها

١ الإحاطة : ١٥٥ .

المأثور عند أهل الحديث المرعيّ ، والله ينفعني وإياهما بالعلم وحمله ، وينظمننا جميعاً في سلك حزبه المفلح وأهله ، ويفيض علينا من أنوار بركته وفضله ؛ قال ذلك وكتبه بخط يده الفانية العبدُ الفقير إلى الله الغني به أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن صفوان ، ختم الله تعالى له بخير ، حامداً الله تعالى ، ومصلياً ومسلماً على نبيه المصطفى الكريم ، وعلى آله الطاهرين ذوي المنصب العظيم ، وصحابته البررة أُولي الأثره والتقديم ، في سادس ربيع الآخر عام أربعة وأربعين وسبعمائة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ انتهى .

[١٠ - من العذري إلى لسان الدين]

وكتب الفقيه أبو جعفر ابن عبد الملك العذري من أهل سبته إلى لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض الأغراض :

إنتي بمجدك لم أزل مُسْتَيْقِناً أن لا يهدم بالتغير ما بتي
 إذ أنتَ أعظم ماجد يعزى لهُ صفح وأكرم من عفا عن جني
 وكتب أيضاً :

إن كان دهري قد أساء وجارا فذمام مجدك لا يضيّع جارا
 فلأنتَ أعظم ملجلج يُنْجِي إذا ما الدهرُ أنجد موعداً وأغارا

[١١ - رسالة من لسان الدين إلى ابن نفيس]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : خاطبتُ الشيخَ الشريفَ الفاضلَ أبا عبد الله ابن نفيس صحبة ثمن مسكن اشتريته منه ، وكان قد أهداني فرساً عتيقاً :

جُرُيت يا ابن رسول الله أفضل ما جزى الإلهُ شريف البيت يوم جزى

إن أعجزَ الشكرُ منِّي منَّةٌ ضعفت عن بعضِ حَقِّكَ شُكْرُ اللهِ ما عجزا

« سيدي ، أبقى الله شرفك تشهد به الطباع ، إذا بعدت المعاهد المقدسة والرباع ، وتعترف به الأبصار والأسماع ، وإن جحدت عارضها الإجماع ، بأي لسان أنني ؟ أم أي الأفنان أهصر وأجني ؟ أم أي المقاصد الكريمة أعني ؟ أمطيت جوادك المبارك ، وأسكنت دارك ، وأوسعت مطلبي اصطبارك ، وهضمت حَقِّكَ وبوّأت جوارك ، ووصلت للغرباء إيثارك ، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم ، لا أقف في تعدادها عند حدٍ إلى خير جد ، فإن أعان الدهر على مجازاة ، وإن ترفع كرمك عن موازاة ، فحاجة نفس قضيت ، وأحكام آمال أمضيت ، وإن اتصل العجز فعين على القذى أغضيت ، ومناصل عزم ما انتضيت ، وعلى كل حال فالثناء ذائع والحمد شائع ، واللسان والحمد لله طائع ، والله مشير ما أنت بائع ٢ ، وقد وجهت من يحاول لسيدي ثمن ما اكتسبه مجده ، وسقّر عنه حمده ، والعقيدة بعد التراضي ، وكمال التقاضي ، وحميد الصبر وسعة التقاضي ، وكونه الحصم والقاضي ، أنه هبة سوغها لإنعامه ، وأكلة هناها مطعمه ، نسأل الله تعالى أن يعلي ذكره ، ويتولى شكره ، ويُنمِّي ماله ، ويرفع قدره ، والولد جاره الغريب الذي برز إلى مقارعة الأيام عن خبرة قاصرة ، وتجربة غير منجدة على الدهر وناصره ، قد جعلته وديعة في كرم جواره ، ووضعته في حجرٍ لإيثاره ، فإن زاغ فيدُهُ العليا في تبصيره ، ومؤاخذته بتقصيره ، ومن نَبّه مثله نام ، ومن استنام إليه بمهمةٍ أكرم بمن إليه استنام ، وإن تشوّف ٣ سيدي لحال محبه فمطلق للدنيا من عقال ، ورافض أثقال ، ومؤمل اعتياض بخدمة الله تعالى وانتقال » انتهى .

١ وهضمت ... عند حد : سقطت من ق .

٢ والحمد ... بائع : سقطت من ق .

٣ ق : تشوق .

وقال رحمه الله تعالى : ممّا خاطبت به صدرَ الفضلاء الفقيه المعظم أبا القاسم
ابن رضوان بما يظهر داعيته من فحواه :

مرضت فأيامي لديك مريضة وبرؤك مقرون ببراء اعتلاها
فلا راع تلك الذات للضر رائع ولا وسمت بالسقم غرّ خلاها

« وردت علي من فثي التي إليها في معرك الدهر أتمخيز ، وبفضل فضلها في
الأقدار المشتركة أتميز ، سحّاءة سرّت وساءت ، وبلغت من القصدين ما شاءت ،
أطلع بها سيدي صنيعة ودّه من شكواه على كل عابث في السويداء ، مُوجب
اقتحام البئداء ، مُضرم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلاّ القليل ، ولا
من إفصاح لسانه إلاّ الأئين والأليل ، ونوى مدت الغير ضرورة يرضها الخليل ،
فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع متقبل أعماله ،
أو أمل ضويق في فذلكة آماله ، لكنتي رجحت دليلَ المفهوم على دليل المنطوق ،
وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطّ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ،
واللفظ الحسن تومضُ في حبره للمعنى الأصيل بُروق ، فقلت : ارتفع الوصب ،
وردّ من الصحة المغتصب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراجُ
الإدراك دل على سلامة سكيطه ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى
ذلك فلا يقنع بليد احتياطي إلاّ الشرح ، ففيه يسكن الظمأ البرح ، وعذراً عن
التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزندُ القلق
في مثلها أورى ، والشفيقُ بسوء الظن مُغرّى ، وسيدي هو العمدة التي سلمت
لي الأيام فيها ، وقالت : حسب آمالك ويكفيها ، فكيف لا أشفق ، ومن أنفق من عينه
فأنا من عيني لا أنفق ، والله لا يحبط سعبي في سؤال عصمتها ولا يخفق ، ويرشد
إلى شكره على ما وهب منها ويوفق ، والسلام الكريم على سيدي البر الوصول ،

الذي زكّت منه الفروع لما طابت الأصول ، وخلص من ودّه لابن الخطيب
المحصل ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

[١٣ - جواب ابن رضوان]

قال : فراجعني حفظ الله سيادته بما نصّه :

متى شئت أُلقي من علائك كلّ ما ينيل من الآمال خير منالها
كبرء اعتلال من دعائك زارني وعادات برّ لم ترمّ عن وصالها

« أبقى الله ذلك الجلال الأعلى متطوّلاً بتأكيد البر ، متفضلاً بموجبات الحمد
والشكر ، ورَدَّتني سحائه المشتملة على معهود تشريفه ، وفضله الغني عن
تعريفه ، متحفياً في السؤال ، عن شرح الحال ، ومُعلناً بما تحلى به من كرم
الجلال ، والشرف العال ، والمعظم على ما يسّر ذلك الجلال الوزاري الرياسي
أجراه الله تعالى على أفضل ما عودّه ، كما أعلى في كل مكرمة يده ، ذلك ببركة
دعائه الصالح ، وحبّه المخيم بين الجوانح ، والله سبحانه المحمود على نعمه ،
ومواهب لطفه وكرمه ، وهو سبحانه المسؤول أن يهبني لسيدي قرّار الخاطر ،
على ما يسره في الباطن والظاهر ، بمنّ الله تعالى وفضله ، والسلام الكريم على
جلاله الأعلى ورحمة الله وبركاته ، كتبه المعظم الشاكر الداعي الذاكر المحب
ابن رضوان ، وفقه الله تعالى ، في ذي الحجّة ختام عام واحد وستين وسبعمائة » ؛
انتهى .

[١٤ - من لسان الدين إلى الجنان]

وقال رحمه الله تعالى : وفاتحته - يعني الشيخ الجنان - محرّكاً قريحته ومستثيراً

ما عنده ، بقولي :

إن كانت الآدابُ أضحَتْ جَنَّةً^١ فلقد غدا جَنَانُهَا الجَنَانُ^٢
أقلامه القُضْبُ اللَّدَانُ بدَوَّحِهَا والزهرُ ما رَقَمَتْهُ منه بنانُ^٣
وذكر بعد البيتین سَجْعاً بليغاً .

[١٥ - جواب الجنان]

ثمَّ قال : فراجعني الجنان بما نصَّه :

يا خاطبَ الآدابِ مهلاً فقد ردَّك عن خطبتها ابن الخطيبُ
هل غيره في الأرض كفاء لها وشرطها الكفاةُ قولُ مصيبُ
أصبح للشرطِ بها معرساً فاستفتِ في الفسخ فهل من مجيبُ

أيها السيد الذي يُتنافس في لقاءه ويَتَعَالَى ، ويصادم بولائه صرف الزمان
ويتعالى ، وتُسْتَنْتَج نتائج الشرف بمقدمات عرفانه ، وتُقْتَنَص شوارد العلوم
بروايات كلامه فكيف بمداناة عيانه ، جلوتَ عليَّ من بنات فكرك عقائل نواهد ،
وأقمت بها على معارفك الجمة دلائل وشواهد ، واقتنصت بِشْرَكِ بديهتك من
المعاني أو ابدَ شَوَارِدَ ، وفجرتَ من بلاغتك وبراعتك حياضاً عذبة الموارد ،
ثمَّ كلفني من إجراء ظالعي^١ في ميدان ضليعها ، مقابلة الشمس المنيرة بسراج
عند طلوعها ، فأخلدت^٢ لإخلاء مهيبض الجناح ، وفررت فرار الأعزل عن شاكي
السلاح ، وعلمت أنني إن أخذت نفسي بالمقابلة ، وأدليت دلو قريحتي للمُساجلة ،
كنت كمن كلف الأيام مراجعة أمسها ، أو طلب ممن علته السماء محاولة لمسها ،
وإن رضيت من القريحة بسجيتها ، وأظهرت القَدَرَ الذي كنت امتحنتُ من
رَكِيَّتِهَا ، أصبحت مسخرة للراوين والسامعين ، ونبت عن أسمى دواوينهم

١ ق ص : طالعي .

٢ ق ص : فأخذت .

كما تنبو عن الأشيب عيون العين؛ ثم إن أمرك يا سيدي لا يُحَلُّ وثيق مبرمه ، ولا يَحِلُّ نسخ محكمه ، فامتثلته امتثال من لم يجد في نفسه حزباً من قضائك ، ورجوت حسن تجاوزك وإغضائك ، أبقاك الله تعالى قطباً لفلك المكارم والمآثر ، وفصلاً لخاتم المحامد والمفاخر ، والسلام « انتهى .

[ترجمة ابن الجنان]

والجنان المذكور^١ مغربي من مكناسة الزيتون ، وهو الشيخ الفقيه العدل الأديب الأخباري المشارك ، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إبراهيم الأوسي ، الجنان ، من أهل الظرف والانطباع والفضيلة ، كاتب عاقل ناظم ناثر مشارك في فنون من العلم ، له تصنيف حسن في ثلاث مجلدات سماه « المنهل المورود في شرح المقصد المحمود » شرح فيه وثائق أبي القاسم الجزيري المالكي ، فأربنى على غيره بياناً وإفادة ، قال في « نفاضة الجراب » : وناولني إياه ، وأذن لي في حملي عنه ، وأنشدني كثيراً من شعره ، فمن ذلك ما صدر به رسالة يهنيء بها ناقهاً من مَرَضٍ^٢ :

البسِ الصِّحَّةَ بُرداً قشيباً وارشفِ النعمةَ ثغراً شنيباً
واقطفِ الآمالَ زهراً نضيراً واعطفِ الإقبالَ غصناً رطيباً
إن يكنْ ساءك وَعَكُ تَقْضَى تجسدِ الأجرَ عظيماً رحيباً
فانتعشْ في دهرنا ذا سرورٍ يصبحِ الحاسدُ منه كثيباً

[مقطعات وقصائد تكتب على المباني]

وقال أيضاً لسانُ الدين في النفاضة : قرأت بالدور الخشبي في الدار التي

١ انظر ترجمته في نيل الابتهاج : ٥٠ .

٢ الأبيات في المصدر المذكور .

نزلت بها بمكناسة الزيتون أبياتاً منقّشة استحسنتها لسهولتها فأخبرني أنها من نظمه ، وهي :

انظر إلى منزلٍ متى نظرت عيناك يعجبك كلُّ ما فيه
ينبئ عن رفعة المالكه وعن ذكاء الحجى لبانيه
يناسب الوشي في أسافله ما يرقمُ النقشُ في أعاليه
كأنه روضةٌ مُدبّجةٌ جاد لها وابلٌ بما فيه
فأظهرت للعيون زخرفها ووافقتها على تجليّه
فهو على بهجة تلوحُ به ورونقٍ للجمالِ بيديه
يشهدُ للساكنين أنَّهُم من جنّةِ الخلدِ ما يحاكيه

قلت : قد تذكرت هنا ، والشيء بالشيء يُذكر ، ما رأيته مكتوباً على دائرة مجرى الماء بمدرسة تلمسان التي بناها أميرُ المسلمين ابن تاشفين الزباني ، وهي من بدائع الدنيا ، وهو :

انظرُ بعينك بهجتي وسنائي وبديعِ إتقاني ، وحسنِ بناثي
وبديعِ شكلي ، واعتبرُ فيما ترى من نشأتي بل من تدفقِ مائي
جسمٌ لطيفٌ ذائبٌ سيلانه صافٍ كذوّبِ الفضةِ البيضاء
قد حفّ بي أزهارُ وشيٍ نمتت فغدتُ كمثلِ الروضِ غيبِ سماءِ

وما أنشده بعضُ أهل العصر في المغرب بقصد أن يُرسم في الأستار المذهبة المحكمة الصنعة التي جعلها السلطان المنصور أبو العباس الشريف الحسيني رحمه الله تعالى لكي يستر بها النواحي الأربعة من القبة الكبيرة بالبديع ، وتسمى هذه الستور عند أهل المغرب بالحائطي ، ففي الجهة الأولى :

متّع جفونك من بديعِ لباسي وأدرِ على حُسني حُميّا الكاسِ

هذي الرُّبى والروضُ من جَرِّعائها
 أنَّى لروضٍ أن يروقَ بهاؤهُ
 فالروضُ تغشاه السوامُ ، وإنما
 ممّا اغتذى^١ بالعارضِ البجّاس
 مثلي وأن يجري على مقياس؟
 تأوي إلى كنفِي ظباءِ كناس
 وعلى الجهة الثانية :

من كلِّ حَسَنّا كالقُضيبِ إذا انثى
 ولقد نشرتُ على السماكِ ذوايبي
 وجرتُ ذيلي بالمجرّةِ عابثاً
 ما نيطَ مثلي في القبابِ ولا ازدهت
 تُزري بغصنِ البانةِ الميَّاسِ
 ونظرتُ من شَرَّرَ إلى الكنّاس
 فخرأُ بمخترعي أبي العبّاس
 بفتى سواه مراتبُ وكراسي
 وعلى الجهة الثالثة :

ملكٌ تقاصرتِ الملوكُ لعزه
 غيَّثُ المواهبِ بحرُ كلِّ فضيلةِ
 فردُّ المحاسنِ والمفاخرِ كلّها
 ملكٌ إذا وافى البلادَ تَأرجتُ
 ورماهمُ بالذلِّ والإتعاسِ
 ليثُ الحروبِ مسعّرُ الأوطاسِ
 قطبُ الجمالِ أخو الندى والباسِ
 منه الوهادُ بعاطرِ الأنفاسِ
 وعلى الجهة الرابعة :

وإذا تطلّعَ بدرهٌ من هالةِ
 أيامهُ غرراً تجلّتْ كلّها
 لا زال للمجدِ السنيّ يشيده
 ما مال بالغصنِ النسيمُ وحببتُ
 يُعشي سناهُ نواظرَ الجلاسِ
 أبهى من الأعيادِ والأعراسِ
 ويقيمُ مبناه على الآساسِ
 دُررُ الندى في جيده الميَّاسِ

وما أنشدنيهِ بعضُ العصريين من المغاربة لصاحبنا المرحوم الفقيه الكاتب

١ في ص : علماً اغتذى ؛ ق : على ما اغتدى .

المحقق أبي محمد الحسن بن أحمد المسفيوي المراكشي^١ أحد مشاهير الكتاب
بباب أمير المؤمنين المنصور بالله أبي العباس الشريف الحسيني ملك المغرب ، صبَّ
الله تعالى على الجميع أمطار الرضوان ممّا كتب في بعض مباني صاحبنا الوزير
العلامة الأجل سيدي عبد العزيز الفشتالي رحمه الله تعالى ، وهو :

أجلِ الملقى من قِداحِ سُرُوري	وأدرِ كؤوسَ الأُنسِ دونِ شروري
خلعتُ على عِطْفِ البهاءِ محاسني	فكستُ به الآفاقَ ثوبَ حبور
وتناسقَ الوَشْيِ المَقوفِ حلَّتِي	نسقَ الشدورِ على نحرِ الحور
شأو القصورِ قصورها عن رتبة	لي بالسنا الممدود والمقصور ^٢
في المبتنى المراكشي وأفقه	أزرى على الزوراء والحابور
أعلى مقامي البارِعُ الأسمى الذي	قد حاز سبقَ النظمِ والمثور
فإذا أقلَّ بنانهُ أعلامهُ	نفتت ^٣ عقودَ السحرِ بين سطور
عبدُ العزيز أخو الجلالة كاتبُ	سِرِّ الخليفةِ أحمدَ المنصور
لا زالَ في يمنٍ وأمنٍ ما شدَّتْ	ورُقُّ بروضٍ بالندى ممطور

وبعضه كتبه بالمعنى من حفظي لطول العهد ، والغاية في هذا الباب ما أنشدنيه
لنفسه الوزير أبو فارس عبد العزيز الفشتالي المذكور ، وهي جملة من قصائد
كتبت في المباني الملوكية المنصورية بالحضرة المراكشية ، حاطها الله تعالى ، فمنها
ما كتب خارج القبة الحمسينية أي التي فيها خمسون ذراعاً بالعمل ، وذلك قوله
رحمه الله تعالى على لسان القبة^٤ :

- ١ ترجم له المقرئ في روضة الآس : ١٦٣ وأورد جملة من شعره ، وانظر درة البحال ١ : ١٢٨
وله قصائد في مناهل الصفا .
- ٢ يريد : بالسنا (مقصوراً) وبالسنا (ممدوداً) .
- ٣ ق : نقشت .
- ٤ وردت القصيدة في روضة الآس : ١٣٨ - ١٣٩ .

وأصبحَ قرصُ الشمسِ في أذني قُرطاً
 ونيطتُ بيَ الجوزاءُ في عنقي سمطاً
 نثيرُ جُمانٍ قد تتبعته لقطاً
 جعلتُ على كَبوانٍ رحليَ منحطاً
 خليجاً على نهرِ المجرَّة قد غطى
 إليه وفودُ البحرِ تغرفُ ما أنطى
 وقد رقرقتُ حصباؤه حيةً رقطاً
 وغيدٌ تجرُّ من خمائلها مِرطاً
 جنى الزهرِ لاح في ذوائبها وخطاً
 كما مال نشوانٌ تشربَ إسفنطاً
 سواء لديها الغيثُ أسكبَ أم أخطأ
 بحاراً غدا عرضُ البسيطِ لها شطاً
 هي الشمسُ لا تخشى كسوفاً ولا غمطاً
 سنا البدرِ حلٌّ من نجومِ السما وسطاً
 على جسمها الفضيِّ نهرٌ بها لظاً
 نقوشاً كأنَّ المسكَ ينقطها نقطاً
 فإنني لها في الحسنِ دُرَّتُها الوسطى
 عَدارى نضتُ عنها القلائدَ والريطا
 وأجملَ في تنعيمها النحتَ والحرطا
 قواريرُ أفلاكِ السماحِ بها ضغطاً
 بأكنافه رَحَلُ العُلا والمهدى حُطاً

سموتُ فخرَ البدرِ دونيَ وانحطاً
 وصُغتُ من الإكليلِ تاجاً لمفرقي
 ولاحتُ بأطواقِ الثريا كأنها
 وعديتُ عن زهرِ النجومِ لأنني
 وأجريتُ من فيضِ السماحةِ والندى
 عقدتُ عليه الجسرَ للفخرِ فارتمتُ
 تنفضُ ما بينَ الغروسِ كأنه
 حوالبه من دَوْحِ الرياضِ خرائدُ
 إذا أرسلتُ لدنُ الفروعِ وفتحتُ
 يرنحها مرُّ النسيمِ إذا سرى
 يشقُّ رياضاً جادها الجودُ والندى
 وسالتُ بسلسالِ اللُّجينِ حياضه
 تطلَّعَ منها وسطَ وُسطاهُ دُميةً
 حكمتُ وحبابُ الماءِ في جنباتها
 إذا غازلتها الشمسُ ألقى شعاعها
 توسمتُ فيها من صفاءِ أديمها
 إذا اتسقتُ بيضُ القبابِ قلادةً
 تكتنفي بيضُ الدُمى فكأنها
 قُدُودٌ ولكن زانها الحسنِ عريها
 نمتُ صُعداً تيجانها فتكسرتُ
 فيا لكَ شأواً بالسعادةِ أهلاً^٢

١ ص ق : تجرر ، ولا يصلح للوزن .

٢ ق ص : شأو ... أهل .

تطوفُ بمغناها أماني الوري شوطا
 حنايا قبابٍ لا الكثيبَ ولا السَّقَطَا
 ووُسْدن فيه الوشي لا السدْر والأرطى
 إذا مازجته السَّحْبُ عاد بها خلطا
 إلى كل أنفٍ عَرَفُ غيره قسْطَا
 أووينُ كسرى الفرسِ تغبطه غبطا
 على خير من يعزى لخير الوري سيطا
 وتُرسى سفانٌ للعُلا حينما وطًا
 يفلتُ هاماتِ العدا بالظُّبي خبْطَا
 ذوابُ أرضِ الزنج من ضوئها شُمُطَا
 جرتُ قبلها الأقدارُ تسبقها فُرطَا
 جعلن ضمانَ الفتحِ في عقدها شرطَا
 سناكبها أَبَقَتْ مِثَالًا بها خطَا
 فيعتاضُ من قبضِ الزَّمانِ بها بسطا
 زمامٌ يقود الفرسِ والرومِ والقبطا
 يحوطُ جهاتِ الأرضِ من رعيه حوطا

وكعبةٌ مجدٍ شادها العزُّ فانبرت
 ومسرحَ غزلانِ الصَّريمِ كناسُها
 فليكنَ به ما طاب لا الأثيلِ والحمِطَا
 تراهُ من المسكِ الفتيِّتِ مدبِّرًا
 وإن باكرته نسمةٌ سَحَرًا سرى ١
 أقرَّتْ لهُ الزهراءُ والخلدُ وانتقتُ
 جنابُ رواقِ المجدِ فيه مطنَّبُ
 إمامٌ يسيرُ الدهرُ تحتِ لوائه
 وفتاحُ أقطارِ البلادِ بفيلقِ
 تطلُّعٍ من خرصانه الشَّهْبُ فانثنتُ
 كتابُ نصرٍ إن جرتُ للممةِ
 إذا ما عقدنَ رايةَ علويةً
 فما للسما تلكَ الأهلهُ إنما
 يطاوعُ أيدي الملعواتِ عنانها
 يدُ لأميرِ المؤمنينَ بكفها
 أدارَ جداراً للعُلا وسرادقاً

وقوله مما كتب بيتهوها بممرر أسود في أبيض ٢ :

لله بهوٌ عزٌّ منه نظيرُ
 رُصِفَتْ نقوشُ حلاه رَصَفَ قلائدُ ٣
 فكأنتها والتبر سالَ خلالها
 لما زها كالروضِ وهو نضيرُ
 قد نضدتها في النحورِ الحورِ
 وشيٌ وفضَّةٌ تربها كافور

١ روضة الآس : نسمة لسرى بها .

٢ روضة الآس : ١٣٦ .

٣ ق : قلادة .

قد زان حُسْنَ طرازها تشجير
 أنماطيه نَوْرًا به ممطور
 سيان فيه خَوْرَنقٌ وسدير
 يرتدُّ وهو بحسنه محسور
 حركاتٌ سَجْفٍ صافحته دَبُور
 ملكَ النفوسَ بحسناها تصوير
 يسري إلى الأرواح منه سرور
 وأسودٍ يُسْلي لهن صغير
 وأظْلَمَها فَلَكَ بضيء منير
 تطفوا عليها اللؤلؤ المنثور
 باهى نجومَ الأفقِ وهي تنور
 حيثُ التفتَ كواكبٌ وبدور
 فخرُ الورى وإمامها المنصور
 وأقله فوقَ السَّمَاكِ سرير
 رُميت بحِمْفَلها اللُّهُامُ الكور
 جيشٌ على جسرِ الفراتِ عبور
 حَقَنَ الدماءَ وَعَفَّ وهو قدِير
 سيفُ العُلا ، لكنّه مطرور
 ولجيشه يومَ التزال ثبير
 طوقٌ على جيدِ العُلا مزور
 يغدو عليه بها المسا وبكور

وكانَ أرضَ قراره ديباجة
 وإذا تصعد نداءه نوأً ففي
 شأو القصورِ قصورها عن وصفه
 فإذا أجلتَ اللحظَ في جنباته
 وكانَ موجَ البركتين أمامه
 صُفَّتْ بِصُفُفِها تماثلُ فضة
 فتديرُ من صفوِ الزلالِ معتقاً
 ما بين آسادٍ يهيجُ زئيرها
 ودحتُ من الأنهارِ أرضَ زجاجة
 راقتُ فمن حصباها وفواقع
 يا حُسْنَهُ من مَصْنَعٍ فبهاؤه
 وكأتما زهرُ الرياضِ بجنبه
 ولدسته الأسمى تخيّرَ رَصْفَهُ
 ملكٌ أناف على الفراقِدِ رتبة
 قطبُ الخلافةِ تاجُ مفرقِ دولة
 وجرى إلى أقصى العراقِ لرعيها^١
 نجلُ النبيِّ ابنُ الوصيِّ سليلُ مَنْ
 بحرُ الندى ، لكنّه متموجٌ
 طودٌ يخفُّ لحلمه ووقاره
 دامتُ معاليه ودام ومجده
 وتعاهدته عن الفتوحِ بشائر^٢

١ ق والروضة : يطفو .

٢ الروضة : لرعيها .

ما دام منزلُ سعده يرقى به^١ نصرٌ يرفُّ لوائه المنشور
ومشت^٢ به مرحاً جيداً مسرةً^٣ وأدار كاسَ الأُنس فيه سمير

وقوله مما كتب بداخل القبة المذكورة^٤ :

جَمالُ بداعي سحرِ العيونا ورونقُ منظري بهرَ الجفونا
وقد حسنت نقوشي واستطارت سنّاً يُعشي عيونَ الناظرينا
وأطلع سميَ الأعلى نجوماً ثواقبَ لا تغورُ الدهرَ حيناً
وجوي من دخانِ التدّ ألقى على أرضي الغياهبَ والدُّجونا
علوتُ دوائرَ الأفلاكِ سبعاً لذاك الدهرَ ما ألفتُ سكوناً
فصغتُ من الأهلّةِ والحنايا أساورَ والخلاخلَ والبُرينا
تكنفني حياضُ مائحاتٍ أمامي والشمالَ أو اليميناً
يُقيدُ حسنُها، الطرفَ انفساحاً ويجري الفلكَ فيها والسفينا
تدافعَ نهرُها نحوي فلمّا تلاقى البحرُ في جريِ دفيناً
ترى شهبَ السماءِ بهنَّ غرقى فتحسبها بها الدرَّ المصوناً
وقد نشرَ الجبابُ على سماها لآلئِ تزدري العقدَ الثميناً
فخرتُ وحقّ لي لمّا اجتبانِي لمجلسه أميرُ المؤمنينا
هو المنصورُ حائرُ خصلِ سَبقِ وباني المجدِ بنياناً مكينا
وليثُ وغيّ إذا زار امتعاضاً يروعُ زثيره هنداً وصينا
إذا أمتُ كتابُه الأعادي بعن برعِه جيشاً كميناً

١ الروضة : يرتاده .

٢ ق : وجرت .

٣ روضة الآس : ١٣٥ .

٤ ص : جنحها . ٥ ص : ويكري .

٦ ق : نثر .

يدبرُ عليهمُ من كلِّ حربٍ
 إمامٌ بالمغربِ لاحَ شمساً
 بقيتَ بذي القصورِ الغرِّ بدرأ
 تحفّ بكم عواكفُ عند بابي
 لك البشري أميرَ المؤمنين ادُ
 تدقُّهم رحىً أو منجنونا
 بها الشرقُ اكتسى نوراً مبينا
 تلوحُ بأفقهن مدى السينا
 ملائكة كرام كاتبونا
 خلوها بسلام^١ آميننا

وقوله في بعض المباني المنصورية^٢ :

معاني الحسنِ تظهرُ في المغاني
 مشابه في صفاتِ الحسنِ أضحّتْ
 بكلِّ عمودِ صبحٍ من لحينٍ
 مفصّلة القُدودِ مثلثاتٍ
 تردّتْ سابريّ الحسنِ يزري
 وتعطو الخيزرانةَ من دُماها
 لمجدك تنتمي لكنّ نماها
 يدينُ لك ابنُ ذي يزنٍ ويعنو
 غدتْ حرّماً ولكن حلّ فيها
 مبانٍ^٣ بالخلافة آهلاتُ
 هي الدنيا وساكنها إمامُ
 قصورٌ ما لها في الأرضِ شبه
 ظهورَ السحرِ في حدّقِ الحسانِ
 تمتُّ بها المغاني للغواني
 تكونُ في استقامةِ خُوطِ بانٍ
 مواصلةِ العناقِ من التداي
 بحسنِ السابريّ الحسرواني
 بسالفَةِ القطيعِ البرهماني
 إلى صنعاء ما صنع اليدان
 لها غمّدانُ في أرضِ اليمان
 لوفدكم الأمانُ مع الأمانِ
 بها يتلو الهدى السبعَ المثاني
 لأهل الأرضِ من قاصٍ وداني
 وما في المجدِ للمنصورِ ثاني

وقوله رحمه الله تعالى ممّا كتب في المصرية^٤ المطلّة على الرياض المرتفعة

١ الروضة : مع سلام .

٢ روضة الآس : ١٣٣ .

٣ ق : منازل .

٤ المصرية : منزل بينى شبه عليه .

على القبة الخضراء من بديع^١ المنصور ، وكان إنشاؤها في جمادى الأولى من عام خمسة وتسعين وتسعمائة^٢ :

باكر لديّ من السرورِ كؤوسا وارضِ النديمِ أهلةً وشموسا
واعرجُ عليّ^٣ غُرّي المنيفِ سماؤها تلقى الفراقدَ في حمائيَ جلوسا
وإذا طلعتْ بأوجِها قمر العُلا لا ترتضي غيرَ النجومِ جليسا
شَرِقَ القصورُ بريقها لَمَّا اجتلتُ منّي على بُسُطِ الرياضِ عرُوسا
واعترضتُ بالمنصورِ أحمدَ ضيغماً ورَداً تحيّرَ من بديعي خيسا
ملكٌ أرى كلَّ الملوكِ ممالكاً لِعُلاه والدُنيا عليه حيسا
دامت وفودُ السعدِ وهي عواكفُ تَصِلُ المقيلاً لديّ والتعريسا
وهناكَ يا شرفَ الخلافةِ دولةً تلقى برايتها طلائعَ عيسى

وقوله من جملة قصيدة من نمط ما تقدم لم أستحضر أولها^٤ :

سلبت تماثيلها الحجى لَمَّا اغتدت تزهو بحسنِ طرازها تذهيبا
ولقد تشامخَ في العلو سماكها فجرى على الفلكِ المنيرِ جنيبا
وسما إلى الشهبِ الزواهرِ فاغتندى الـ إكليلُ منها تاجها المعصوبا
هذا البديعُ يعزّ شبه بدائعِ أبدعتهن به فجاء غريبا
أضنى الغزاةَ حسنه حسداً لذا أبدى عليها للأصيلِ شُحوبا
وانقضتِ الزهُرُ المنيرةُ إذ رأتُ زهرَ الرياضِ به ينور عجيبا
شيدتهن مصانعاً وصنائعاً أنجزن وعدكَ للعُلا المرقوبا

- ١ البديع : أحد المنشآت الثلاث التي بناها المنصور ، والاثنان الأخريان هما : المسرة والمشتهى .
٢ روضة الآس : ١٣٤ .
٣ الروضة : إلى .
٤ هذا ما قاله أيضاً في الروضة : ١٣٥ وزاد هناك : « ولعلي أجد أولها إن شاء الله فألحقه بها » وانظر القصيدة في مناهل الصفا ٢ : ٢٨١ .

وجريت في كل الفخار لغاية
 فانعم بملكك فيه دام مؤبداً
 وإليكها عذراء فكر أهديت
 ونظمت من درر البلاغة عقدها
 ورفعتها لمقامكم تمشي على اس
 فأنت على شرف لكم فتوقفت
 شفعت إليك بحب جدك أحمد
 دامت بك الدنيا يروق جمالها
 وكلاكُم اللهُ العظيمُ كلاءةً
 أدركتها أو ما مست لغوبا
 تجني به فن النعيم رطيبا
 وجعلت مدحك مهراً الموهوبا
 فنّدا يروق بجيدها ترتيبا
 تحيا فيزعجها الولا ترغيبا
 لما رأت ذاك الجلال مهيبا
 لتسيلها منك الرضى المرغوبا
 وإلى القيامة أمركم مرهوبا
 يرعى بها خلقاً لكم وعقيبا

[رسالة من الفشتالي إلى المؤلف]

ومحامن صاحبنا المذكور في النظم والنثر يضيق عنها هذا التأليف ، وكنت
 أثبت منها جملة في غير هذا الموضع .
 ولما أحس بعزمي على الرحلة إلى الحجاز ، واقتضائي من سلطان المغرب في
 وعده لي بها التجاز ، كتب إلي من حضرة مراکش وأنا حينئذ بفاس ، ما
 صورته بعد سطر الافتتاح :

يا نسمة عطست بها أنف الضبا
 هبني على ساحات أحمد و اشرحني
 وصفي له بالمنحنى من أضلعي
 بان الأعبة عنه ، حي قد توى
 فمساك تسعد يا زمان بقرهم
 فتضمخت بعيرها قنن الربي
 شوقي إلى لقياه شرحاً مطمئنا
 قلباً على جمر الغضا متقلبا
 منهم ، وآخر قد نأى وتغيبا
 فأقول أهلاً باللقاء ومرحبا

« السيادة التي سواها الله من طينة الشرف والحسب ، وغرس دوحته الطيبة
 بمعدن العلم الزاكي المحتد والنسب ، سيادة العالم الذي تمشي تحت علم فتياه

العلماء الأعلام ، وتخضع لفصاحته وبلاغته صَيَارْفَةُ النثر والنظام ، وحملة الأقلام ، كلما خطاً أو كتَبَ ، وإذا استطار بفكره الوقاد سواجع السجع انثالت عليه من كل أوكارها ونسلت من كل حدب ، وحكت بانسجامها السيل والقطر في صبب ، الفقيه العالم العَلَم ، والمحصل الذي ساجلت العلماء لتدرك في مجال الإدراك شأوه فلم ، سيدنا الفقيه الحافظ حامل لواء الفتيا ، ومالك المملكة في المنقول والمعقول من غير شرط ولا تُنْثِيَا ، أبو العباس سيدي أحمد بن محمد المقرئ أبقاه الله تعالى للعلم يَفْتَضُّ أبكاره ، ويَجْنِي من روضه اليانغ ثماره ، سلام الله عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، كتبه المحب الشاكر عن ودّ راسخ العِمَاد ، ثابت الأوتاد مزهر الأغوار والأنجاد ، ولا جديد إلا الشوق الذي تحنّ إلى لقياكم ركائبه وترتاح ، وتَحُومُ على مورد الأنس بكم حوم ذات الجناح على العذب القراح ، جمع الله تعالى الأرواح المؤتلفة على بساط السرور وأميرة الهنا ، وأتاح للنفوس من حُسن محاضرتكم قَطْفَ المشتهى وهو غَصَّ الحنّى .

« وقد اتصل بالمحب الودود الرقيم الذي راقت من سواد النقش وبياض الطرس شيباته ، وأرانا معجز أحمد فبهرت آياته ، وخبأ سقط الزند لما أشرقت من سماء فكركم آياته ، فأطربنا بتغريد طيور همزاته على أغصان ألفاته ، وعودنا بالسمع المثاني بنانا أجادت نثر زهراته على صفحاته ، ثم مررنا بتضاعفه بسوق الرقيق ، فرمنا السلوك على منحاها فعمتي علينا الطريق ، وقلنا : واهاً على سوق ابن نباتة وكساد رقيقها ، واستلاب البهجة عن نفيس دررها وأنيقها ، لا كسوق نفق فيها سوق الغزل ، وعلا كعب الرامح والأعزل ، وتضافر على سحر النفوس والآلباب هاروت الجحد وماروت الهزل ، وقد ألقينا السلاح وجنحنا للسلم ، وتميانا للسباحة فوقفنا بساحل اليم ، وسلمنا لمن استوت به سفينة البلاغة على الجودي ، فأبنا والحمد لله على السلامة بالفهاة والعي ، وقلنا : ما لنا وللإنشاء ، فهو فضل الله يؤتيه من يشاء .

« وعُدراً أيتها الشيخ عن البيت الذي عطست به أنف الصبا ففدفت به البديهة

من الفم ، وشرقت به صدرُ قناة القلم ، كما شرقت صدر القناة من الدم .
« وأما ما تحمّل الرسول من كلام ، في صورة ملام ، لا بل مدام ، أترع
به من سلاف المحبة كأسٌ وجام ، فلا وربك ما هي إلاّ نفحة نفحت ، لا سموم
لفحت ، هزنا بها جذعَ أدبكم كي يتساقط علينا رُطباً جنياً ، ويهمني
ودّقه على الرّبع المحيل من أفكارنا وسُمياً وولياً ، فجاد وأروى ، وأجاد
فيما روى ، وأحيا من القرائح ميتاً كان حديثاً يُروى ، وطرساً بين أنامل الأيام
يُنشر ويطوى ، أحيا الله تعالى قلوبنا بمعرفته ونواسم رحمته ، وعرجَ بأرواحنا عند
الممات إلى المحل الأنخص بالمؤمن من حضرته . وأهدي السلام ، المزري بمسك
الختام ، إلى الفقيهين الأمجدين ، الصدرين الأنجدين ، الفذين التوأمين ، الفاضلين
المجيدين ، فارسي البراعة واليراعة ، ورئيسي الجماعة في هذه الصناعة ، رضيحي
لبان الأدب وواسطي عقده ، ومُجِيلِي قِدْحِهِ المعلّى ومُورِيِي زَنْدِهِ ،
المتعين بشميم عرّاره ورندِهِ ، الكارعين بالبحر الفياض من هزله وجِدّه ،
الآتين بالجنس والفصل من رسمه وجِدّه ، الكاتب البارِع أبي الحسن سيدي علي
ابن أحمد الشامي ، والكاتب البليغ أبي عبد الله سيدي محمد بن علي الوجدي ^١ ،
وأقرّر لهما الود المستحکم المعاهد ، الصافي المناهل العذب الموارد ، وأنّي قائم
بورد الثناء عليكم وعليهما لدى المقام العلي ، الإماميّ الناصري ، دام سلطانه ،
وتمهدت أوطاره وأوطانه .

« ونُتْهِي إليكم أن الفقيه المحبّ الأستاذ سيدي محمد بن يوسف ^٢ طَلَّقُ
اللسان بالشكر ، صادقٌ على أيلك الثناء عن تلکم السيادة بما واليتموه به من جزيل
الإحسان ، وقابلتموه به عند الورود والصدر من البشر والكرامة وجميل الامتنان ،
والسلام التام مُعاد عليكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، وبه وجب الكتّب إليکم ،

١ ترجمة الوجدي في روضة الآس : ٧١ وانظر ص (لب) من المقدمة .

٢ راجع المجلد الثاني ص : ٤٧٠ .

والله سبحانه يرفعكم ، في يوم الخميس موافق عشرين من محرم الحرام فاتح
سبعة وعشرين وألف ، المحب الودود الشاكر عبد العزيز بن محمد الفشتالي لطف
الله تعالى به ، وخار له بمنته وكرمه « انتهى .

ومن أراد شيئاً من أخباره فعليه بكتابي الموسوم بـ « روضة الآس العاطر
الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس » وقد بلغتني وفاته رحمه
الله تعالى وأنا في مصر بعد عام ثلاثين وألف ، رحمه الله تعالى ؛ فلقد كان أوحده
عصره ، حتى إن سلطان المغرب كان يقول : إن الفشتالي نفتخر به على ملوك
الأرض ، ونباري به لسان الدين ابن الخطيب ، رحم الله تعالى الجميع .

[تعريف بأبي الحسن الشامي]

والشامي الذي أشار إليه هو من أعيان أهل فاس وذوي البيوت بها ، وجدته
قدم من الشام على حضرة فاس ، فشهد بنوه بالنسبة إلى الشام ، وقد بلغتني وفاته
أيضاً بعد الثلاثين بعد الألف ، وقد أجاب عن الأبيات البائية التي خاطبني بها
الوزير سيدي عبد العزيز الفشتالي المذكور رحم الله تعالى الجميع بقوله :

نمت نوافع عرفت أنفاس الصبا	فمنى بهار وروض الوداد وأخصبا
نثرت جواهر سلكها فتتوج ال	خصن النضير بدرها وتعصبا
ورمت محاجر منحى ذلك الحمى	فغدا بها خيف القلوب محصبا
وروت أحاديث الغرام صحيحة	فشفت فؤاداً من بعادك موصبا
لا غرو أن طارت حشاشة لبه	طرباً فما خلنو الغرام كمن صبا
لا زلم والزهر ينشق عرفكم	والزهر تحسد من كمالك منصبا

ولنمسيك عينان البنان ، ونرجع إلى ما كنا بصدده من شأن لسان الدين
ابن الخطيب المريع منه بمزج البلاغة والفصاحة جنان الجنان ، فنقول والله سبحانه
ولي التوفيق والإمداد ، وليس إلاّ عليه الاعتماد :

[١٦ - بين ابن الجياب ولسان الدين]

وقال ابن الصباغ العقيلي^١ : كان أبو الحسن ابن الجياب رئيس كتاب الأندلس وهم رؤساء غيرهم ، واختص به ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب اختصاصاً تاماً ، وأورثه رتبة من بعده ، وعهد بها إليه ، مشيراً بذلك على من استشاره من أعلام الحجاب عند حضور عمره ، وتدرّب بذكائه حتى استحق أزمته فأنسى بحسن سياسته شيخه المذكور ، ونال التي لا فوقها من الحظوة ، وبعد الصيت وسعادة البخت ، اتفق له يوماً بعدما عزم النصراني على ورود البلد وضافت به الصدور ، فأثمد ابن الجياب بديهاً بمحضر الكتاب :

هذا العدوُّ قد طغى وقد تعدّى وبغى

وقال لابن الخطيب : أجزأ عبد الله ، فأنشده بديهاً :

وأظهرَ السلمَ وقدَّ أسرَّ حسنواً في ارتغا
فبلغَ الرحمنُ سيِّد ف النصرِ فيه ما ابتغى
وردهُ ردَّ ثمَّسو دِ والفصيلُ قد رغا
حتى يرى وليمةً لكلِّ مرهوبِ الثغا

فقال ابن الجياب : هكذا وإلاّ فلا ، وعجب الحاضرون من هذه البديهة ؛

انتهى .

[١٧ - قصيدتان للبلوي يخاطب بهما لسان الدين]

وممّا خوطب به لسان الدين قول الفقيه أبي يحيى البلوي المري^٢ رحم الله

الجميع :

١ أزهار الرياض ١ : ١٩٢ .

٢ ص : المري .

عللوني ولتو بوعد محال
 واعلموا أنتي أسير هواكم
 قدموعي من بينكم في انسكاب
 يا أهيل الحمى كفاني غرامي
 من مجيري من لحظ ريم ظلوم
 ناعس الطرف أسهر الجفن مني
 بابلي اللحاظ أصمى فؤادي
 وكسا الجسم من هواه نحولاً
 ما ابتدى في الوصال يوماً بعطف
 ليس لي منه في الهوى من مجير
 علم الدين عزه وسناه
 هو غيث الندى ، وبحر العطايا
 إن وشي في الرقاع بالنقش قلنا
 أو دجا الخطب فهو فيه شهاب
 أو نبا الأمر فهو في الأمر غضب
 لست تلقى مثاله في زمان
 قد نأى بي حبي له عن ديار
 لكن اشتقت أن أرى منه وجهاً
 وكما همت فيه ألم كفاً
 ها كهابن الخطيب عذراء جاءت
 وتوفي حق الوزارة عمّن

وصلوني ولتو بطيف خيال
 لست أنفك دائماً عن عقال
 وفؤادي من هجركم في اشتعال
 لا تزيدوا حسبي بما قد جرى لي
 حلل الهجر بعد طيب الوصال
 طال منه الجفا بطول الليالي
 ورماه من غنجه بنال
 قصده في النوى بذاك انتحالي
 مذ روى في الغرام باب اشتغالي
 غير تاج العلا وقطب الكمال
 ذروة المجد ، بدر أفق الجلال
 هو شمس الهدى ، فريد المعالي
 صفحة الطرس حليت بالآلي
 زانه الصبح في ظلام الضلال
 صادق العزم عند ضيق المجال
 جل في الدهر يا أخي عن مثال
 لا لجدوى ولا لتيّل نوال
 نوره فاضح لنور الهلال
 جاد لي بالنوال قبل السؤال
 تلثم الأرض قبل شيع النعال
 هو ملك لها على كل حال

ومن نظمه قوله يخاطبه مهنتاً في إعداره أولاده بعد نثر نصه : يعتذر عن
 خدمة الإعدار ، ويصل المدح والثناء على بُعد الدار ، بتاريخ الوسط من شهر

شعبان عام تسعة وأربعين وسبعمائة :

لا عُدْرَ لي عن خدمة الإعدارِ
أو عاقبي عنه الزمانُ وصرفه
قد كنتُ أرغبُ أن أفوزَ بخدمتي
بادي المسرة بالصنيعِ وأهله
من شاء أن يلقي الزمانَ وأهله
فليأتِ حيَّ ابن الخطيبِ مليباً
كم ضمَّ من صيدِ كرامٍ قدرهمُ
إن جئتُ ناديه فنبَّ عني وقلْ
يا من له الشرفُ القديمُ ومن له الـ
يهنيك ما قد نلتَ من أملِ به
نجلاك قطبا كلِّ مجدٍ باذخِ
عبد الإله وصنوه قمر العُلا
ناهيك من قمرين في أفقِ العلا
زاكي الأرومة معرقٌ في مجده
رقتَ طباعه وراق جمالهُ
وحلتْ شمائلُ حسنه فكأنما
فإذا تكلمتْ قلتَ طلُّ ساقطُ
أو فتَّ حبر المسك في قرطاسه
تتسمُّ الأقلامُ بين بنانه
فتخالُ من تلك البنانِ كماثماً

ولئن نأى وطيَّ وشطَّ مزارِي
تقضي الأمانِي عادة الأعصارِ
وأحطَّ رحلي عندَ بابِ الدارِ
متشمرأ فيه بفضلِ إزارِي
ويرى جلالاً شاع في الأقطارِ
فيفوزُ بالإعظامِ والإكبارِ
يسمو ويعلو في ذوي الأقدارِ
نلتَ المنى بتلطفِ ووقارِ
حسبُ الصميمِ العِدُّ يومِ فجارِ
في الفرقدين النيرين لساري
أملانِ مرجوانِ في الإعسارِ
فرعانِ من أصلِ زكا ونجارِ
ينميها نورٌ من الأنوارِ
جمُّ الفضائلِ طيبُ الأخبارِ
فكأنما خُلِقا من الأزهارِ
خلعتْ عليه رقةَ الأسحارِ
أو وقعُ دُرٌّ من نحورِ جوارِي
فالروضُ غيبُ الواكفِ المدرارِ
فتريكَ نظم الدرِّ في الأسطارِ
ظلتْ تفتحُ ناضرَ النُّوارِ

تلقاهُ فيأصّر الندى متهللاً
 بجرُّ البلاغة قسُّها وإيادها
 إن ناظرَ العلماء فهو إمامهم
 أربى على العلماء بالصيت الذي
 ما ضره أن لم يجيء متقدماً
 إن كان آخره الزمان لحكمة
 الشمس تُحجبُ وهي أعظمُ نيرٍ
 يا ابن الخطيب خطبتها لعلاكم
 جاءتك من خجل على قدم الحيا
 وأتت تؤدي بعض حق واجب
 مدّت يد التطفيل نحو علاكم
 فابذلها في النقد صفحك إنها
 لا زلت في دعة وعزٍ دائم

يلقاك بالبشرى والاستبشار
 سبحانها حبر من الأحبار
 شرف المعارف ، واحد النظار
 قد طار في الآفاق كل مطار
 بالسبق يعرف آخر المضمار
 ظهرت وما خفيت كضوء نهار
 وترى من الآفاق إثر دراري
 بكرة تزف لكم من الأفكار
 قد طيبت بثنايك المعطار
 عن نازح الأوطان والأوطار
 فتوشحت من حلتكم بنضار
 تشكو من التقصير في الأشعار
 ومسرّة تترى مع الأعمار

[ترجمة أبي يحيى البلوي]

قال لسان الدين في حق المذكور في « الإحاطة » : هو محمد بن محمد بن عبد
 الواحد بن محمد البلوي ، من أبناء النعم وذوي البيوتات ، كثير السكون والحياء ،
 آل به ذلك أخيراً إلى لوثة لم يستفق منها ، لطّف الله به ، حسن الخط ، مطبوع
 الأدب ، سيال الطبع معينه ، وناب عن بعض القضاة ، وهو الآن رهين ما ذكر
 يتمنى أهله موته ، والله ولي المعافاة .

وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : من أولي الاتصال ، بأولى الخلال
 البارة والحصال ، خطأ رائقاً ، ونظماً بمثله لائقاً ، ودعابة يسترها تجهم ،

١ ق : به .

وسكوناً في طيه إدراك وتفهم ، غني بالدراية والتقيد ، ومال في النظم إلى بعض التوليد ، وله أصالة نبتت في السرو عروقتها ، وتألقت في سماء المجادة بروقها ، وتصرف بين النيابة في الأحكام الشرعية ، وبين الشهادات العلمية المرعية ؛ انتهى . ورأيت بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين علي هامش هذا المحل من «الإحاطة» ما صورته : رحمة الله عليه ما أعذب حلاوته ، وأعظم مروءته ، وأكرم أصالته ، وبنو البلوى ذوو حسب ، وأهل نعيم ، وتربية ملوكية ، حياهم الله وبياتهم ! قال ذلك حبييهم وأخوهم علي بن الخطيب ؛ انتهى .

[١٨ - من ابن مرزوق إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى عند ذكر الخطيب الرئيس أبي عبد الله محمد ابن مرزوق التلمساني ما صورته : ولما قدمت على مدينة فاس في غرض الرسالة خاطبني بمنزل الشاطبي على مرحلة منها بما نصه :

يا قادماً وافى بكلّ نجاحِ	أبشُرْ بما تلقّاه من أفراحِ
هذي ذرى ملك الملوك فلذّ بها	تنلّ المنى وتفزّ بكلّ سماحِ
مغنى الإمام أبي عنان يَمَمَنُ	تظنّفَرُ ببحرٍ في العُلا طفّاحِ
منّ قاسٍ جودٍ أبي عنان في الندى	بسواهُ قاسَ البحرَ بالضّحضاحِ
ملكٌ يُفِيضُ على العفاة نواله	قبلَ السّؤالِ وقبلَ بسطةِ راحِ
فلجودِ كعبٍ وابنِ سَعْدِي في الندى	ذكَرٌ مَحاهُ عن نداءه مَاحِي
ما إن سمعتُ ولا رأيتُ بمثلهِ	منّ أريحيّ للندى مرتاحِ
بسطةِ الأمانِ على الأنامِ فأصبحوا	قدّ الحفوا منه بظلّ جناحِ
وهَمَى على العافين سيبُ نواله	حتى حكى سحَّ الغمامِ الساحي

١ ص : بمنزلة .

٢ ابن سعدى : أوس بن حارثة الطائي .

فَتَوَالَهُ وَجَلَّالَهُ وَفَعَالَهُ
 وبه الدُّنَا أَضْحَتْ تَرُوقُ وَأَصْبَحَتْ
 من كَانَ ذَا تَرَّحٍ فَرُؤِيَّةٌ وَجَهَهُ
 فَانْهَضَ أَبَا عَبْدِ الإِلهِ تَفَزُّ بِمَا
 لَا زِلْتَ تَرْتَشِفُ الأَمَانِي رَاحَةً
 فَاقَتْ وَأَعَيْتَ ألسنَ المُدَّاحِ
 كلُّ المُنَى تَنْقَادُ بَعْدَ جَمَاحِ
 مِتْلَاقَةُ الأَحْزَانِ والأَتْرَاحِ
 تَبْغِيهِ مِنْ أَمَلٍ وَنَيْلِ نِجَاحِ
 مِنْ رَاحَةِ المولى بِكلِّ صَبَاحِ

فالحمد لله يا سيدي وأخي على نعمه التي لا تُحصى ، حَمْدًا يُؤمُّ به جميعنا المقصد الأسمى فيبلغ الأمد الأقصى ، فطالما كان معظم سيدي للأسمى في خيال ، وللأسف بين اشتغال بال ، واشتغال بلبال ، ولقد ومكم على هذا المقام المولوي في ارتقاب ، ولمواعيدكم بذلك في تحقق وقوعه من غير شك ولا ارتياب ، فها أنت تجتلي من هذا المقام العلي بتشيعك وجوه المسرات صباحاً ، وتلتقى أحاديث مكارمه ومواهبه مُسنَّدة صحاحاً ، بحول الله تعالى ، ولسيدي الفضل في قبول مركوبه الواصل إليه بسرجه وبلحامه ، فهو من بعض ما لدى المعظم من إحسان مولاه وإنعامه ، ولعمري لقد كان وافداً على سيدي في مستقره مع غيره ، فالحمد لله الذي يستر في إيصاله ، على أفضل أحواله .

[١٩ - جواب لسان الدين]

فراجعته بما نصَّه :

رَاحَتْ تَذَكُرُنِي كَوُوسَ الرَاحِ
 وَسَرَتْ تَدُلُّ عَلَى القَبُولِ كَأَنَّمَا
 حَسَنَاءُ قَدْ غَنَيْتِ بِحَسَنِ صِفَاتِهَا
 أَمَسَتْ تَحْضُ عَلَى اللِيَاذِ بِمَنْ جَرَتْ
 والقربُ يُخْفِضُ للجنوحِ جَنَاحِي
 دَلَّ النَسِيمُ عَلَى انبِلاجِ صَبَاحِ
 عَن دُمْلُجٍ وَقِلَادَةٍ وَوِشَاحِ
 بِسَعُودِهِ الأَقْلَامُ فِي الأَلْوَاكِ

١ ص : ولمواعيدكم ... محقق .

بخليفة الله المؤيد فارس
 ما شئت من شيم ومن همم غدت
 فضل الملوك فليس يدرك شأوه
 أنسى بني عباسهم بلوائه
 وغدت مغاني الملك لما حلها
 وحياة من أهداك تحفة قادم
 ما زلت أجعل ذكره وثناءه
 ولقد تمازج حبه بجوارحي
 ولو أنني أبصرت يوماً في يدي
 فالآن ساعدني الزمان وأيقنت
 إيه أبا عبد الإله ، وإنه
 أما إذا استنجدتني من بعد ما
 فإليكها مهزولة وأنا امرؤ

شمس المعالي الأزهر الوضاح
 كالزهر أو كالزهر في الأدواح
 أنتى يقاس الغمر بالضحاح
 منصور ، أو بحسامه السفاح
 تزهى بدير هدى وبحر سماح
 في العرف منها راحة الأرواح
 روعي وريحاني الأريج وراحي
 كتمازج الأجسام بالأرواح
 أمري لطرت إليه دون جناح
 من قربه نفسي بفوز قداحي
 لنداء ود في علاك صراح
 ركدت لما جنت الخطوب رياحي
 قررت عجزى واطرحت سلاحي

« سيدي أبقاك الله لعهد تحفظه ، وولي بعين الوفاء تلتحظه ، وصلتي
 رقتك التي أبدعت ، وبالحق من مولى الخليفة صدعت ، وألفتني وقد سطت
 بي الأوجال ، حتى كادت تلتف الرحال ، والحاجة إلى الغذاء قد شممت كشح
 البطين ، وثانية العجاوين قد توقع فوات وقتها وإن كانت صلاتها صلاة الطين ،
 والفكر قد غاض معينه ، وضعف وعلى الله جزاء المولى الذي يعينه ، فغزتي
 بكتيبة بيان أسد لها هصور ، وعلمها منصور ، وألفاظها ليس فيها قصور ،
 ومعانيها عليها الحسن مقصور ، واعتراف مثلي بالعجز في المضائق حول ومئة ،
 وقول « لا أدري » للعالم فكيف لغيره جنة ، لكنها بشرتي بما يقبل لمؤديه
 بدل النفوس وإن جلت ، وأطلعتني من السراء على وجه تحسده الشمس
 إذا تجلت ، بما أعلمتني به من جميل اعتقاد مولانا أمير المؤمنين أيده الله في

عبده ، وصدق المَخِيْلَة في كرم مجده ، وهذا هو الجود المَحْض ، والفضل الذي شكره هو الفرض ، وتلك الخلافة المولوية تتصف بصفات مَنْ يبدأ بالنوال ، من قبل الضَّرَاعَة والسؤال ، من غير اعتبار للأسباب ولا مجازاة للأعمال ، نسأل الله تعالى أن يبقي منها على الإسلام أَوْفَى الظلال ، ويُبْلِغها من فضله أقصى الآمال ، ووَصَلَ ما بعثه سيدي صحبتها من الهدية ، والتحفة الودية ، وقبلتها امتثالاً ، واستجلبت^١ منها عِتْقاً وجمالاً ، وسيدي في الوقت أنسب لاتخاذ ذلك الجنس ، وأقدر على الاستكثار من إناث البَهْم والإنس ، وأنا ضعيف القدرة ، غير مستطيع على ذلك إلاّ في الندرة ، فلو راء سيدي ورأيه سَدَاد ، وقصده فضل ووداد ، أن ينقل القضية إلى باب العارية من باب الهبة ، مع وجود الحقوق المترتبة ، لبَسَطَ خاطرني وجمعه ، وعمل في رفع المؤونة على شاكلة حالي معه ، وقد استصحبت مركوباً يشقّ عليّ هجره ، ويناسب مقامي شكله ونَجْرَه ، وسيدي في الإسعاف على الله أجره ، وهذا أمر عرض ، وفرض فرض ، وعلى نظره المعولّ ، واعتماد إغضائه هو المعقول الأوّل ، والسلام على سيدي من معظم قدره ، وملتزم برّه ، ابن الخطيب ، في ليلة الأحد السابع والعشرين لذي قعدة خمس وخمسين وسبعمائة ، والسماء قد جادت بمطر سهرت منه الأجناف ، وظنّ أنّه الطوفان ، واللحاق في غدها بالباب المولوي مؤمل بحول الله « انتهى .

[٢٠ - من البرجي إلى لسان الدين]

وكتب القاضي أبو القاسم البرّجي^٢ لسان الدين في غرض الشفاعة لبعض قرابته قوله^٣ :

١ ص ق : واستجلبت .

٢ ترجمة البرجي في الإحاطة ٢ : ٢١٥ والكتيبة : ٢٥٠ ونيل الابتهاج : ١٧٢ .

٣ الكتيبة : ٢٥١ .

أيا سابقاً في مجال البراعة • وفارس مَيِّدان أهل البراعة •
 ومَنْ بَدْرُهُ في سماء المعالي • يزينُ بوصفِ الكمالِ ارتفاعه
 بما لكَ في الفضلِ من حُجَّة • ومن إمرةٍ في ذويه مُطاعه
 قضاءكَ في معسرٍ حلَّ دَينُ • عليه فأرجاؤه قد أضاعه
 وقد كان يبغى لديكم شفيعاً • توسطَ عندكمُ في شفاعه
 على أنه في اقتضاء الودادِ • يوفى موازينه أو صُواعه
 وما هو في سوقِ تفریطكم • ونشرِ حلاككم بمزجتي البضاعه

« كتبت يا سيدي - أدام الله تعالى علاكم ، وحرس مجدكم الطاهر وسناكم -
 وأنا بين خَجَلٍ مفحم ، وعجلٍ مفحم ، أتذكرُ تسويفي بلقائكم ، حين
 سمح الدهر باقترابكم ، فأحجم وأفكر في أن إحجامي عند ذلك بإرجائي ،
 عسى أن يكون وفق رجائي ، أفاتني المقصود فأرى الحزم في أن أقدم ، وموقفها
 بين يديكم فلان ، يطالبني مطالبة الغريم ، وأروم مطاله فلا يبرح ولا يتريم ،
 والانقياد في زمام طاعته ممّا توجهه المروّة بعدما أوجه الشارع إذ جعل له حظاً
 في الأبوة ، وقد أعلقته من ذمام علائكم بالحبل المتين ، وأنزلته من حماكم
 ببربوة ذات قرار ومعين ، فإن أعرتموه من لحظكم الجميل طرّفَ اهتبال ،
 وأقبلتموه من اعتنائكم الجزيل وجّه إقبال ، فقد عاد دهره بعد النفار مُواتياً ،
 ونزل على أهل المهلّب شاتياً ، ومجدكم كفيل بتبليغ أمله ، وتوسيع جذله ،
 وذلكم يدٌ على معظمكم شكرها ، وعلى الله أجرها » انتهى .

[ترجمة أبي القاسم البرجي]

والبرجي المذكور هو محمد بن يحيى بن محمد بن يحيى بن علي بن إبراهيم ،
 الغساني البرجي ، يكنى أبا القاسم ، من أهل غرناطة ، قال في « الإحاطة » :
 هو فاضل مجتمّع على فضله ، صالح الأبوة ، طاهر النشأة ، بادي الصيانة والعفة ،

طرف في الخير والحشمة ، صدر في الأدب ، جم المشاركة ، ثاقب الفهم ، جميل العشرة ، ممتع المجالسة ، حسن الشُّعر والخط والكتابة ، فذ في الانطباع ، صنّاع اليد ، محكم لعمل الكثير من الآلات العلمية ، ويحيد تفسير الكتب ، رَحَلَ إلى العُدوة ولقي جلة ، وتوسَّل إلى ملكها مجدِّدِ الرسم ومعتام أولي الشهرة وعامر دست الشعر والكتابة ، أمير المسلمين أبي عنان ، فاشتمل عليه ، ونوّه به وملاً بالخير يده ، فاقنتي جِدّة وحُظوة ، وذكراً وشهرة ، وانقبض مع استرسال الملك لفضل عقله ، حتى تشكى إلى سلطانه بثَّ ذلك عند قدمي عليه ، وآثر الراحة ، وجهد في التماس الرحلة الحجازية ، ونبذ الكل ، وقصر الخطوة ٢ ، وسلا الخطوة ، فأسعفه سلطانه بغير ضه ، وجعل حبَلَ همة ٣ على غاربه ، وأصبحه إلى النبي الكريم صلوات الله عليه رسالةً من إنشائه وقصيدة من نظمه ، وكلاهما يعلن في الخلفاء ببعده شأوه ، ورسوخ قدم علمه ، وعراقة البلاغة في نسب خصله ، ولما هلك وولي ابنه [قدمه] قاضياً بمدينة ٤ ملكه وضاعف له التنويه ، فأجرى الخطة على سبيل من السداد والزاهة ، ثم لما ولي السلطان أبو سالم عمّه أجراه على الرسم المذكور ، واستجلى المشكلات بصدقه ، وهو الآن بحاله الموصوفة مفخر من مفاخر ذلك الباب السلطاني على تعدد مفاخره .

شعره - ثبت في كتاب « نفاضة الجراب » من تأليفنا عند ذكر المدعى الكبير بباب ملك المغرب ليلة ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذكر من أنشد ليلتئذ من الشعراء ما نصّه : وتلاه الفقيه الكاتب الحاج القاضي جملة السذاجة ٥ وكرم الخلق وطيب النفس وخذن العافية وابن الصلاح والعبادة ونشأة القرآن

١ الإحاطة : اليبدين .

٢ ص : الخطو .

٣ ق والإحاطة : نعمه .

٤ قدمه . . . بمدينة : سقطتا من ق ، ولفظة « قدمه » سقطت من ص .

٥ ص : الشداخة .

المتحيز إلى حزب السلامة المنقبض عن الغمار العزوف عن فضول القول والعمل
جامع المحاسن الأشتات^١ من عقل رصين وطلب متمع وأدب نقاوة ويد صنّاع أبو
القاسم ابن أبي زكريا البرّجي ، فأنشدت له على الرسم المذكور هذه القصيدة
الفريدة^٢ :

أصغى إلى الوجد لما جدّ عاتبه
لم يعط للصبر من بعد الفراق يداً
لولا النوى لم يبت حرّان مكتئباً
يستودع الليل أسرار الغرام وما
لله عصرٌ بشرفي الحمى سمحت
يا جيرة أودعوا إذ ودّعوا حرّفاً
يا هل ترى تجمع^٣ الأيام ألفتنا
ويا أهيل ودادي ، والنوى قدّف
هل ناقض العهد بعد البعد حافظه
ويا ربوع الحمى لا زلت ناعمة
يا من قلب مع الأهواء منعطف
يسنموا إلى طلب الباقي بهمة
وقنته المرء بالمألوف معضلة
أبكي لعهد الصبا والشيب يضحك بي
ولن ترى كاهوى ، أشجاه سالفه
وهمة المرء تغليه وترخصه

صَبَّ لَهُ شُغْلٌ عَمَّنْ يَعَاتِبُهُ
فَضْلٌ مِّنْ ظِلٍّ إِرْشَادًا يَخَاطِبُهُ
يَغَالِبُ الْوَجْدَ كَتْمًا وَهُوَ غَالِبُهُ
تَمْلِيهِ أَشْجَانُهُ فَالِدَمْعُ كَاتِبُهُ
بِالْوَصْلِ أَوْقَاتُهُ لَوْ عَادَ ذَاهِبُهُ
يَصَلِّي بِهَا مِنْ صَمِيمِ الْقَلْبِ ذَائِبُهُ
كَعَهْدِنَا أَوْ يَرُدُّ الْقَلْبَ سَالِبُهُ
وَالْقُرْبُ قَدْ أَهَمَّتْ دُونِي مَذَاهِبُهُ
وَصَادَعُ الشَّمْلِ يَوْمَ الشَّعْبِ شَاعِبُهُ
يَبْكِي عَهْدَكَ مُضْنَى الْجَسْمِ شَاحِبُهُ
فِي كُلِّ أَوْبٍ لَهُ شَوْقٌ يَجَازِبُهُ
وَالنَّفْسُ بِالْمَيْلِ لِلْفَانِي تُطَالِبُهُ
وَالْأَنْسُ بِالْإِلْفِ نَحْوَ الْإِلْفِ جَازِبُهُ
يَا لِلرِّجَالِ سَبَّتْ جِدِّي مَلَاعِبُهُ
وَلَا كَوْعِدِ الْمُنَى ، أَحْلَاهُ كَازِبُهُ
مَنْ عَزَّ نَفْسًا لَقَدْ عَزَّتْ مَطَالِبُهُ

١ الأشتات : ثبتت في ق صر وسقطت من الإحاطة .

٢ القصيدة في الإحاطة وبعضها في الكتيبة .

٣ الكتيبة : ترجع .

ما هانَ كسبُ المعالي أو تناولها
 لولا سُرىَ الفلَكِ السامي لما ظهرتْ
 في ذمّةِ الله ركبٌ للعُلا ركبوا
 يرمونَ عرضَ الفلا بالسير عن عُرْضِ
 كأنّهم في فؤادِ الليلِ سِرٌّ هَوَى
 شدّوا على لُهبِ الرمضاءِ وطأهم
 وكلفوا الليلَ من طولِ السرى شططاً
 حتى إذا أبصروا الأعلامَ مائلةً
 بحيثُ يأمنُ مَنْ مولاهُ خائفُهُ
 فيها وفي طيبةِ الغراءِ لي أملٌ
 إن أنسَ ٢ لا أنسَ أياماً بظلهما
 شوقى إليها وإن شطّ المزارُ بها
 إن ردّها الدهرُ يوماً بعدما عبثتْ
 معاهدُ شرفتْ بالمُصطفى فلها
 محمّدُ المُجتبى الهادي الشفيعُ إلى
 أوفى الورى ذمماً ، أسماهُمُ همماً
 هو المُكَمَّلُ في خَلْقٍ وفي خَلْقِ
 عنايةً قبلَ بدءِ الخلقِ سابقاً
 جاءتْ تُبَشِّرُنَا الرُّسُلُ الكرامُ به
 أخباره سرُّ علمِ الأولين وسلُّ
 تطابقتْ الكونُ في البُشرى بمولده

بل هانَ في ذاكَ ما يَلْقاهُ طالبُهُ
 آثارُهُ ولما لاحتْ كواكبُهُ
 ظهرَ السرى فأجابتهم نجائبُهُ
 طيَّ السجلِ إذا ما جدَّ كاتبُهُ
 لولا الضرامُ لما خفتْ جوانبه
 فغاص في لُجّةِ الظلماءِ راسبه
 فخلّفوه وقد شابتْ ذوائبُهُ
 بجانبِ الحرمِ المحميّ جانبُهُ
 من ذنبهِ وينالُ القصدَ راغبه
 يُصاحبُ القلبَ منه ما يُصاحبه
 سقى ثراهُ عَميمُ الغيثِ ساكبه
 شوقُ المقيمِ وقد سارتْ حبايبُهُ
 في الشملِ منّا يدها لا نُعاتبهُ
 من فضله شرفٌ تعلو مراتبهُ ٣
 ربّ العبادِ أمينُ الوحي عاقبه
 أعلنهمُ كراماً ، جلتْ مناقبه
 زكتْ حُلاهُ كما طابتْ مناسبه
 من أجليها كانَ آتيةً وذاهبه
 كالصُبحِ تبدُّو تباشيراً كواكبهِ
 بديرِ تيماء ما أبداه راهبه
 وطبقتْ الأرضَ أعلاماً تجاوبه

١ سقط البيت من ص .

٢ ق ص : لا أنس ؛ الإحاطة : لم أنس .

٣ ص : مراقبه .

فالجنُّ تهتفُ إعلاتاً هواتفه
 ولمْ تزل عصمةُ التأيد تكفه
 سرى وجنحُ ظلامِ الليلِ منسدلُ
 يَسْمُو لكلِّ سماءٍ منه منفردُ
 لمتهى وَقَفَ الروحُ الأمينُ بهِ
 لقابِ قوسينِ أو أدنى فما علمتُ
 أراهُ أسرارَ ما قد كان أودعه
 وآبَ والبدرُ في بحرِ الدجى غرقُ
 فأشرقتْ بسناهُ الأرضُ واتبعتُ
 وأقبلَ الرشيدُ والتاحتْ زواهره
 وجاء بالذكري آياتٍ مَقْصَلَةٌ
 نورٌ مِنَ الحكمِ لا تخبو سواطعه
 لهُ مَقامُ الرضى المحمودِ شاهدهُ
 والرسلُ تحتَ لواءِ الحمدِ يقدمها
 لهُ الشفاعاتُ مقبولاً وسائلها
 والحوضُ يروي الصدى من عذب مورده
 محامدُ المصطفى لا ينتهي أبداً
 فضلُ تكفلَ بالدارينِ يوسعها
 حسبي التوسلُ منها بالذي سمحتُ
 حيّاهُ من صلواتِ الله صوبُ حياً
 وخذلدهُ اللهُ ملكَ المستعينِ بهِ
 إمامُ عدلٍ بتقوى الله مشتملُ
 مسدّدُ الحكمِ ، ميمونُ نقيبته

والجنّ تقذفُ إحراقاً ثوابه
 حتى انجلي الحقُّ وانزاحتْ شوابه
 والنجمُ لا يهتدي في الأفقِ ساربه
 عنِ الأنامِ وجبرائيلُ صاحبه
 وامتاز قُرباً فلا خَلقُ يقاربه
 نفسُ بمقدارِ ما أولاهُ واهبه
 في الخلقِ والأمرُ باديه وغائبه
 والصُّبحُ لما يؤبُ للشرق آيبه
 سُبُلُ النجاةِ بما أبدتْ مذاهبه
 وأدبرَ الغيُّ فانجابتْ غياهبه
 يُهْدِي بها من صراطِ الله لاحبهُ
 بحرٌ مِنَ العلمِ لا تفي عَجابهُ
 في موقفِ الحشرِ إذ نابت نوابهُ
 محمدُ أحمدُ السامي مراتبه
 إذا دهمِ الأمرُ واشتدتْ مصاعبه
 لا يشتكي غلّةَ الظمانِ شاربه
 تعدادُها ، هل يعدُّ القطرَ حاسبه ؟
 نَعْمى ورُحمى فلا فضلُ يناسبه
 به القوافي وجلتْها غرائبه
 تُحْدِي إلى قبره الزاكي نجائبه
 مؤيّدَ الأمرِ منصُوراً كُتابهُ
 في الأمرِ والنهي يرضيه يراقبه
 مظفرُ العزمِ ، صدقُ الرأيِ صائبه

مُشَمَّرٌ لِلتَّقَى أَذْيَالَ مَجْتَهِدٍ
 قَدْ أَوْسَعَتْ أَمَلَ الرَّاجِي مَكَارِمُهُ
 وَفَازَ بِالْأَمْنِ مَجْبُوراً مُسَالِمُهُ
 كَمْ وَافِدٍ أَمَلَ مَعْهُودَ نَائِلُهُ
 وَمُسْتَجِيرٍ بَعِزٍّ مِنْ مِثَابَتِهِ
 وَجَاءَهُ الدَّهْرُ يَسْتَرْضِيهِ مَعْتَدِراً
 لَوْلَا الْخَلِيفَةُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَنْبَهَمَتْ
 سَمَتْ لِنَيْلِ تَرَاثِ الْمَجْدِ هَمَّتْهُ
 يَنْمِيهِ لِلْعِزِّ وَالْعَلِيَا أَبُو حَسَنِ
 مِنْ آلِ يَعْقُوبَ حَسَبِ الْمَلِكِ مَفْتَحِراً
 أَطْوَادُ حِلْمٍ رَسَا بِالْأَرْضِ مَحْتَدُهُ
 تَحْفَهَا مِنْ مَرِينِ أَبْحُرٍ زَخَرَتْ
 بِكَلِّ نَجْمٍ لَدَى الْهَيْجَاءِ مُلْتَهَبِ
 أَكْفَهُمْ فِي دِيَابِجِهَا مَطَالَعُهُ
 يَا خَيْرَ مَنْ خَلَصَتْ لَلَّهِ نَيْتُهُ
 جَرَّدَتْ وَالْفِتْنَةُ الشَّعْوَاءِ مُلْبَسَةُ
 وَخَضَّتْهَا غَيْرَ هَيَّابٍ وَلَا وَكَلٍ
 صَبِرَتْ نَفْساً لِعَقْبِي الصَّبْرِ حَامِدَةُ
 فَلِيَهْنَ دِينَ الْهُدَى إِذْ كُنْتَ نَاصِرُهُ
 لَا زَالَ مَلِكِكَ وَالتَّأْيِيدُ يَخْدُمُهُ
 وَدَمَتْ فِي نِعَمٍ تَضْفُو مَلَابِسُهَا
 ثُمَّ الصَّلَاةُ عَلَى خَيْرِ الْبَرِيَّةِ مَا

جَرَّارُ أَذْيَالِ سُحْبِ الْجُودِ سَاحِبُهُ
 وَأَحْسَبْتُ رَغْبَةَ الْعَافِي رَغَائِبُهُ
 وَبَاءَ بِالْخِزْيِ مَقْهُوراً مُحَارِبُهُ
 أَثْنِي وَأَثْنَتْ بِمَا أَوْلَى حَقَائِبُهُ
 عَزَّتْ مَرَامِيهِ وَانْقَادَتْ مَآرِبُهُ
 مُسْتَغْفِراً مِنْ وَقُوعِ الذَّنْبِ تَائِبُهُ
 طُرُقُ الْمَعَالِي وَنَالَ الْمَلِكَ غَاصِبُهُ
 وَالْمَلِكُ مِيرَاثُ مَجْدٍ وَهُوَ غَاصِبُهُ
 سَمِحُ الْخِلَاقِ مُحَمَّدٌ ضَرَابِيُّهُ
 بِيَابِ عِزِّهِمْ السَّامِيُّ تَعَاقِبُهُ
 وَزَاحَمَتْ مُنْكَبَ الْجُوزَا مَنَاقِبُهُ
 أَمْوَاجُهَا وَغَمَامٌ ثَارَ صَائِبُهُ
 يَنْقُضُ وَسَطَ سَمَاءِ النَّقْعِ ثَائِبُهُ
 وَفِي نَحُورِ أَعَادِيهِمْ مَغَارِبُهُ
 فِي الْمَلِكِ أَوْ خَطَبَ الْعَلِيَاءِ خَاطِبُهُ
 سَيْفًا مِنْ الْعِزْمِ لَا تَنْبُو مُضَارِبُهُ
 وَقَلَمًا أَدْرَكَ الْمَطْلُوبَ هَائِبُهُ
 وَالصَّبْرُ مَذْكَانَ مُحَمَّدٍ عَوَاقِبُهُ
 أَمْنٌ يُوَالِيهِ أَوْ خَوْفٌ يَجَانِبُهُ
 تَقْضِي بِخَفْضِ مُنَاوِيهِ قَوَاضِيهِ
 فِي ظِلِّ عِزِّ عَلَاءٍ تَضْفُو مِشَارِبُهُ
 سَارَتْ إِلَيْهِ بِمُشْتَاقٍ رَكَابُهُ

ومن شعره ما قيده لي بخطه صاحب قلم الإنشاء بالحضرة المرينية الفقيه الرئيس
الصدر المتقن أبو زيد ابن خلدون^١ :

صحبا القلبُ عما تعلمين فأقلعا
وأصبح لا يلُوي على حد منزل
وأضحى من السلوان في حرز معقل
يردُّ الجفونَ النُجلَ عن شرفاته
عزيزٌ على داعي الغرام انقياده
أهابَ به للشيبِ أنصحُ واعظُ
وسافر في أفقِ التفكيرِ والحجى
لعمري لقد أنضيتُ عزمي تطلباً
وخضتُ عبابَ البحرِ أخضرَ مُزبداً
وعطلَ من تلك المعاهدِ أربعا
ولا يتبعُ الطرفَ الخليّ المودعا
بعيدٍ عن الأيام أن يتعضعا
وإن لحظتُ عن كل أجيّدٍ أتلتعا
وكان إذ ناداه للوجدِ أهطعا
أصاخ له قلباً منيباً ومسمعا
زواهره لا تبرحُ الدهرَ طلتعا
وقضيتُ عمري رقبَةً وتطلعا
ودستُ أديمَ الأرضِ أغبرَ أسفعا

وقال حسبما قيده المذكور^٢ :

ناهُ النهى بَعْدَ طولِ التجاربِ
وخاطبَه دهرُه ناصحاً
فأضحى إلى نُصحِهِ واعياً
وأصبح لا تستيبه الغواني
ولاحَ لهُ منهجُ الرشدِ لاجبُ
بألسنةِ الوعظِ من كلِّ جانبُ
وألفى حديثَ الأمانى الكواذبُ
ولا تزدرية حظوظُ المناصبُ

ثم قال في «الإحاطة» : وإحسانه كثير في النثر والنظم والقصار والمطولات ،
واستعمل في السفارة إلى ملك مصر وملك قشتالة ، وهو الآن قاضي حضرة الملك

١ الإحاطة : ٢٢٠ .

٢ المصدر السابق : ٢٢١ والكتيبة : ٢٥١ وقد حولت في ق إلى وزن الطويل مثل « ولاح له نهج
من الرشد لاجب » أو « وخاطبه دهر له كان ناصحاً » . . إلخ .

نسيجُ وَحَدِه في السلامة والتخصص واجتناب فضول القول والعمل ، كان الله له ؛ انتهى .

وكتب ابن المصنف بهامش ترجمة المذكور من « الإحاطة » ما صورته :
سيدي وشيخي علامة المغرب اليوم ، وحائز رتبة العليّة من خطابة وقضاء وعلامة
وهو أحق بها ، لخلاله الحميدة ، أبقاه الله تعالى ، قاله محبه علي بن الخطيب ؛
انتهى .

وكتب على القصيدة الميلادية المتقدمة ما نصّه : رويتها عنه ، وسمعتها من
لفظه ، وأجازني إياها بتلمسان ؛ انتهى .

وكتب على حاشية قصيدته « صحا القلب - إلى آخره » ما صورته : سمعتها
من لفظ سيدي وشقيق روجي الإمام العلامة الرانس أبي زيد ابن خلدون بالأندلس
أمتع الله به تعالى ؛ قال ذلك أخوه علي بن الخطيب ؛ انتهى .

[٢١ - مخاطبات ابن زمرك للسان الدين]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة ابن زمرك ما صورته^١ : وشعره مترامٍ إلى
هدَفِ الإجابة ، خفاجي الزرعة ، كلف بالمعاني البديعة والألفاظ الصقيلة ،
غزير المادة ، فمن ذلك ما خاطبني به وهي من أول ما نظمه قصيدة مطلعها :

أما وانصداعِ النورِ من مطلعِ الفجرِ

يقول فيها بعد أبيات :

لكَ اللهُ من فدّ الجلالةِ أوحد
لكَ القلمُ الأعلى الذي طالَ فخْرُهُ
تطاوعه الآمالُ في النهي والأمرِ
على المرهفاتِ البيضِ والأسلِ السمرِ
يقلّد أجيادَ الطروسِ تئاتماً
بصنْفِي لآلٍ من نظامٍ ومن نثرِ

١ الإحاطة ٢ : ١٨٤ وانظر القصيدة في الكتيبة : ٢٨٤ وأزهار الرياض ٢ : ١٦٤ .

يُقلُّ بحوراً من أناملك العشر
يطرزه وشيُّ العذار من الخبر
بألوية حُمُرٍ وبالصُّحفِ الحمر
تحوكُ بها وشيَّ الربيع يدُ القطر
فيرقص غصنُ البانِ في حُللِ خُضر
من السوسنِ الغضِّ المختَمِ بالتبر
ويُمنعُ ثغرُ النورِ بالذابلِ النضر
وترزى نجومُ الزهرِ منها على الزهر
تنفَسُ ثغرُ الزهرِ عن عنبرِ الشجر
وأبهراً حسناً من شمائلك الغرُّ
وتفرقُ منه الأسدُ في موقفِ الذعر
تأججُ منه العُصبُ في بلحةِ البحر
ترقرقُ ماءُ البِشْرِ في صفحةِ البدر
يضيقُ نطاقُ الوصفِ فيه عن الحصر
فغرناطةٌ تختالُ تيهاً على مصر
وفاخرتِ الأملاكُ منك بنو نصر
وغرّةٌ وضّاحِ المكارمِ والنَّجْر
فعرَّ حِمَى الإسلامِ بالطيِّ والنَّشْر
فيُتلى سناءُ الملكِ بالمدِّ والقصر
وتضطربُ الآراءُ من كلِّ ذي حجْر
وأطلعت آراءَ قبسنَ من الفجر
فعنَّ رأيكَ الميمونِ تظفرُ بالنصر
وتسحبُ أذيالَ الفخارِ على النسر

تَهَيَّبِكَ القُرطاسُ فاحمرَّ إذ غدا
كأنَّ رياضَ الطرسِ خدُّ مورِدُ
فشارةٌ هذا الملكِ رائقةُ الحُلَى
وما روضةٌ غناءً عاهدَها الحيا
تُعَتِّي قيانُ الطيرِ في جنباتها
تمدُّ لأكواسِ العرارِ أناملاً
ويجرسُ خدَّ الوردِ صارمُ نهرها
يفاخِرُ مرآها السماءَ محاسناً
إذا مسحت كفُ الصبا جفنَ نورها
بأعطرَ من رياءِ ثنائك في السرى
عجبتُ لهُ يحكي خلالَ خَميلةٍ
إذا أضرمتُ من بأسها الحربُ جاحماً
وإن كَلَحَ الأبطالُ في حومةِ الوغى
لك الحسبُ الوضاحُ والسوددُ الذي
تَشَرَّفَ أفاقُ أنتَ بدرُ كماله
تكلَّلَ تاجُ الملكِ منك محاسناً
بعزمةِ مضمونِ السعادةِ أوحدٍ
طوى الحيفَ منشورَ اللواءِ مؤيداً
ومدَّ ظلالَ الأمنِ إذ قصرَ العدا
إذا احتفلَ الإيوانُ يومَ مَشُورَةٍ
صدعتُ بفصلِ القولِ غيرَ منازعٍ
فإن تظفرِ الحيلُ المغيرةُ بالضحى
فلا زلتَ للعلياءِ تحمي ذمارها

وللعلم فخر الدين والفتك بالعدا
 فيهنك عيدُ الفطر من أنت عيدهِ
 جبرت مَهِيضاً من جناحي ورشته
 وبوأتني من ذروة العزّ معتلي
 وسوغني الآمالَ عذباً مسلسلاً
 فدهري عيدٌ بالسرور وبالمنى
 فأصبحتُ مغبوطاً على خيرِ نعمةٍ
 وهي طويلة ؛ انتهى .

قلت : هذا الرئيس ابن زَمْرَك صرح هنا بأنه يجاه لسان الدين ابن الخطيب
 أدرك من العز ما أدرك ، ثم انقلب عليه مع الدهر وكفر نعمته وبها أشرك ،
 وحرك من دواعي قتله ما حرك ، وكم من صديق لك ضرّك ، وعَقَقَكَ بعدما
 برّك ، وساءك إثر ما سرّك ، ولذا رأيت بخط ابن لسان الدين علي هامش قوله
 في هذه القصيدة « ومد ظلال الأمن - إلخ » ما صورته : هذا مدحه لحاه الله ؛
 وعلى قوله « وبوأتني من ذروة العزّ - إلخ » ما مثاله : هكذا شهادتك لحقه ،
 ثم تحوّلَكَ عنه ، وكفر نعمته ، اغرب أخزأك الله ؛ انتهى .

وكتب بهامش أول ترجمته من « الإحاطة » ما نصّه : أتبعه الله خزيماً ؛
 وعامله بما يستحقّه ؛ فبهذا ترجمه والذي مولاه الذي رفع من قدره فيه ، ولم
 يقتله أحد غيره ، كفانا الله تعالى شرّاً من أحسنّا إليه .

وكتب أيضاً تحت هذا ما مثاله : هذا الوغد ابن زَمْرَك من شياطين الكتاب
 ابن حداد بالبيازين ، قتل أباه بيده ، أوجعه ضرباً فمات من ذلك ، وهو أخسُّ
 عباد الله تربية ، وأحقرهم صورة ، وأخملهم شكلاً ، استعمله أبي في الكتابة
 السلطانية ، فجنينا أيام تحولنا عن الأندلس منه كل شرّ ، وهو كان السبب في
 قتل أبي مصنف هذا الكتاب الذي ربّاه وأدّبّه واستخدمه ، حسبما هو معروف ،

وكفانا الله شرًّا من أحسنَّا إليه وأساء إلينا ؛ انتهى .

وقد ألمنا بترجمته في هذا الكتاب في باب تلامذة لسان الدين فلترجع هنالك .

وممَّا كتب به ابن زَمْرَك المذكور إلى لسان الدين ابن الخطيب جواباً عن

رسالة قوله ^١ :

حَيَّتْ صَباحاً فَأَحْيَتْ سَاكِنِي الْقَصَبَةِ
قَضَى الْبَيَانُ لَهَا أَنْ لَا نَظِيرَ لَهَا
نَاجَتْ طَلِيحَ سُرَى لَا يَسْتَفِيقُ لَهَا
فَحَرَكْتَهُ عَلَى فَنَكِ الْكَلالِ بِهِ
وَأَذَكْرَتْ عَهْدَ مَهْدِيهَا عَلَى شَحَطِ
مَا كُنْتُ أَسْمَحُ مِنْ دَهْرِي بِجَوْهَرِهِ
سَلْ أَدْمَعَ الصَّبَّ مِنْ أَعْدَى السَّحَابِ بِهَا
فَاللَّهُ يُحْفَظُ مَهْدِيهَا وَيَشْكُرُهُ
مَنْ كَانَ وَارِثَ آدَابِ يَشْعَشَعِهَا
هُوَ الْمَلَأُ مَلَأُ النَّاسِ قَاطِبَةً

وَاسْتَرَجَعَتْ أَنْفُساً بِالشُّوقِ مُغْتَصَبَةً
فَأَحْرَزَتْ مِنْ مَعَانِي خَصَلَهُ قَصَبَةً
هَدَّتْ جَوَارِحَهُ وَاسْتَوَهَنْتْ عَصَبَهُ
وَأَذْهَبَتْ بِسُرورِ الْمَلْتَقَى نَصَبَهُ
فَعَاوَدَ الْقَلْبَ مِنْ تَذْكَارِهِ وَصَبَهُ
لَوْ كَانَ يَسْمَحُ لِي بِالْقَلْبِ مَنْ غَصَبَهُ
وَقَلْبَهُ بِجَمَارِ الشُّوقِ مَنْ حَصَبَهُ
فَوَجَّهَهَا بِعَصَابِ الْحَسَنِ قَدْ عَصَبَهُ
بِالْفَرَضِ لِنِّي فِي لِرْثِي لَهَا عَصَبَهُ
سَبْحَانَ مَنْ لَغِيَاثِ الْخَلْقِ قَدْ نَصَبَهُ

وخاطبه كذلك بقوله ^٢ :

يَكْلَفْنِي مَوْلَايَ رَجَعَ جَوَابَهُ
أَجِيكَ لِلْفَضْلِ الَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ
فَأَنْتَ الَّذِي طَوَّقْتَنِي كُلَّ مَنَّةٍ
وَأَنْتَ الَّذِي أَعْدَى الزَّمَانَ كَمَالَهُ
فَلَا زَلْتَ لِلْفَعْلِ الْجَمِيلِ مُوَاصِلاً

وَمَا لِنِعَاطِي الْمُعْجِزَاتِ وَمَا لِيَا
وَأَكْتُبُ مِمَّا قَدْ أَفَدْتُ الْأَمَالِيَا
وَأَحْسَبْتَ آمَالِي وَأَكْسَبْتَ مَالِيَا
وَصَبِرْتَ أَحْرَارَ الزَّمَانِ مَوَالِيَا
وَلَا زَلْتُ لِلشُّكْرِ الْجَزِيلِ مَوَالِيَا

١ الأزهار ٢ : ١٦٦ .

٢ الكنية : ٢٨٨ والأزهار ٢ : ١٦٧ .

وخطبه كذلك بقوله ١ :

طالعتها دون الصِّباحِ صباحاً
ولقد رأيتُ، وما رأيتُ كحُسْنِها
عذراءَ أرضعها البَيانُ لِبِانِه
فأتتْ كما شاءت وشاءَ نَجِيها
لا بل كمثلِ الروضِ باكره الحيا
وطوت بساطَ الشوقِ مني بعدما

وخطبه كذلك بقوله ٢ :

ذروني فإنني بالعلاء خبيرُ
وكم بت أطوي الليلَ في طلب العلاء
بعزمٍ إذا ما الليلُ مدَّ رواقه
أخو كلفٍ بالمجدِ لا يستفزه
إذا ما طوى يوماً على السرِّ كَشْحَه
وإنني وإن كنتُ الممنعَ جارهُ
وما تعزبني فترةٌ في مدى العلاء
وفي السَّرْبِ من نجدٍ تعلقْتُ ظييةً
وتمنعُ ميسورَ الكلامِ أخوا الهدى
أسكَّانَ نجدِ جادها واكفُ الحيا
ويا سكني بالأجرعِ الفردِ من منى
ذكرتك فوقَ البحرِ والبعدِ بيننا

١ الأزهار ٢ : ١٦٧ .

٢ الأزهار ٢ : ١٦٧ .

وأومضَ خَفَّاقُ الذُّوَابَةِ بَارِقُ
ويَهْفُو فُوَادِي كَلَّمَا هَبَّتِ الصَّبَا
ووالله ما أدري أذْكَرُكَ هَزَّتِي
فَمَنْ مَبْلُغٌ عَنِي النَّوَى مَا يَسُوءُهَا
بِأَنَّ غَدَاً أَوْ بَعْدَهُ سَوْفَ نَلْتَقِي
إِلَى كَمْ أَرَى أَكْبَى وَوَجْدِي مَصْرَحُ
أَمْنَجِدَ آمَالِي ، وَمَغْلَى كَاسِدِي
أُنْسَى ، وَلَا أُنْسَى ، مَجَالِسُكَ الَّتِي
نَزْرُوكَ فِي جَنَحِ الظَّلَامِ وَنَشْنِي
عَلَى أَتَيْتِي إِنْ غَبْتُ عَنْكَ فَلَمْ تَغِبْ
نُزُوحُ وَنَغْدُو كُلَّ يَوْمٍ وَعِنْدَهَا
فَظَلُّكَ فَوْقِي حَيْثَمَا كُنْتُ وَارْفُ
وَعَدْرًا فَلِإِنِّي إِنْ أَطَلْتُ فَلِإِنَّمَا

وكتب إليه خاتمة رسالة كذلك :

وَحَقَّقْ مَا اسْتَطَعْتُمْ بَعْدَكُمْ غَمْضَةً
وَعَارِضَتْ مَسْرَى الرِّيحِ قَلْتُ لَعَلَّهَا
إِلَى أَنْ بَدَا وَجْهُ الصَّبَاحِ كَأَنَّهُ
فَقَلْتُ لِقَلْبِي اسْتَشْعِرِ الْإِنْسَ وَابْتَهَجْ
وَسِرْ فِي ضَمَانِ اللَّهِ حَيْثُ تُوَجَّهْتُ
مِنَ النَّوْمِ حَتَّى آذُنِ النُّجْمِ بِالْغُرُوبِ
تَمُّ بَرِيًّا مِنْكَ عَاطِرَةٌ الْهَبُوبِ
مَحْيَاكَ إِذْ يَجْلُو بَغْرَتَهُ الْخَطُوبُ
فَإِنْ تَبَعْدِ الْأَجْسَامُ لَمْ تَبَعْدِ الْقُلُوبُ
رَكَابُكَ لَا تَخْشَى الْخَوَادِثَ أَنْ تَتُوبَ

قلت : هذه غاية في معناها ، لولا خروجها عن القواعد في ترتيب قافيتها ومبناها ، فانظر إلى تحوله عن لسان الدين بعد هذه المدائح ، ونسبته إليه بعده القبائح ، والإنسان خَوَّانٌ ، إلا النادر من الإخوان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

قال في « الإحاطة » في ترجمة ابن سلبطور ما نصّه : ومما خاطبني به :

تالله ما أورى زنادَ القلقِ
أيقنتُ بالحَيْنِ فلولا نفحةُ
لكننتُ أفضي بتلظّي زفرةِ
فآه من هَوْلِ النوى وما جئى
يا حاكبي الغصنِ انثى متوجّجاً
الله في نفسٍ مُعتنى أقصدتُ
أتى على أكثرها برحُ الأسي
ولو بِلِمامِ خيالٍ في الكرى
فربّ زورٍ من خيالٍ زائرٍ
شقيتُ من برحِ الأسي لو أنّ منّ
ففي معاناة اللّيالي عائقُ
وفي ضمانٍ ما يُعاني المرء من
هذا لعمرى معَ أتى لم أبتُ
فقد أخذتُ من خطوبِ غدرها
فخرُ الوزارة الذي ما مثله
ومذ أرائيه زماني لم أبلُ
لا سيّما منذُ حططتُ في حمى
أيقنتُ أتى في رجائي لم أخبُ
ندبُ لهُ في كلِّ حُسنِ آيةُ

سوى بريقٍ لاح لي بالأبرقِ
نجديّةٌ منكم تلافى رمقي
وحسرةٍ بين الضلوعِ تلتقي
على القلوبِ موقفُ التفرّقِ
بالبدرِ تحت لمةٍ من غسقِ
من لاعجِ الشوقِ بما لم تُطيقِ
دع ما مضى منها وأدرك ما بقي
إن ساعدَ الجفنِ رقيبُ الأرقِ
أقرّ عيني وإن لم يصدقِ
أصبح رقي في يديه مُعتقي
عن التصابي وفنون العلقِ
نوابِ الدهرِ مشيبُ المفرّقِ
منها بشكوى روعة أو فرّقِ
بابن الخطيبِ الأمنَ ممّا أتقي
بدرٌ علا في مغربٍ أو مشرقِ
من صرّفه بمُرعدٍ أو مُبرقِ
مقامه الأمتع رحلَ أينقي
وأنّ مسعى بعيني لم يُخفيقِ
تناسبتُ في الخلقِ أو في الخلقِ

١ سقطت هذه الكلمة من ص ، وفي ق : مسماه .

في وجهه مسحةٌ بِبِشْرٍ إن بدت
 تعتبر الأبصارُ في الألاء ما
 كالدهر في استينائه وبطشه
 إن بخل الغيثُ استهلَّتْ يدهُ
 وإن وشتُ صفحة طرسٍ انجلى
 بمثلها من حبراتٍ أنجلتُ
 مازاق في الآذان أشنافٌ سوى
 تودُّ أجيادُ الغواني أن يرى
 فسَلُّ به هل آده الأمرُ الذي
 إذا رأى الرأيَ فلا يخطئه
 ليه أبا عبدِ الإله هاكها
 خذها إليك بكثرِ فكرٍ يزدرى
 لازلت مرهوبَ الجنبِ مرتجئِ
 مبلغَ الآمالِ فيما تبغى

تبهرجتُ أنوارُ شمسِ الأفقِ
 عليه مِن نورِ السماحِ المشرقِ
 كالسيفِ في حدِّ الظُّبى والرئوقِ
 يوابلٍ من غيثِ جودٍ غَدِقِ
 ليلٌ دجاها عن سنا مؤتلقِ
 حواشيِ الروضِ خدودُ المَهْرَقِ
 ملتقطاتٍ لفظه المفرقِ
 حليها من درّ ذاك المنطقِ
 حُمَلٍ في شرخِ الشبابِ المونقِ
 يُمنُّ اختيارٍ للطريقِ الأوفقِ
 عذراءٌ تحشو في وجوهِ السُّبِقِ
 لديك بالأعشى لدى المخلِّقِ
 موصولَ عزٍّ في سعودٍ ترنقي
 مؤمنَ الأغراضِ ممّا تتقي

[ترجمة ابن سلبطور]

وابن سلبطور هو : محمد بن محمد بن أحمد بن سلبطور الهاشمي .
 قال في « الإحاطة » : من أهل المرية ، يكنى أبا عبد الله ، من وجوه بلده
 وأعيانه ، نشأ نبيه البيت ساحباً بنفسه وبماله ذيل الخطوة ، متحلياً بنحصل
 من خط وأدب ، وزيراً متجنّداً ظريفاً ، درباً على ركوب البحر وقيادة
 الأساطيل ، ثم انحطّ في هواه انحطاطاً أضاع مروءته واستهلك عقاره وهدّ
 بيته ، وألجأه أخيراً إلى اللحاق بالعدوّة فهلك بها .
 وجرى ذكره في « الإكليل » بما نصّه : مجموع شعر وخط ، وذكاء عن

درجة الظرفاء غير منحطاً ، إلى مجادة أثيلة البيت ، شهيرة الحي والميت ، نشأ في حجر الترف والنعمة ، محفوقاً بالمالية الجمّة ، فلماً عقل عن ذاته ، وترعرع بين ليداته ، أجرى خيول لذاته ، فلم يدع منها ربّعاً إلا أفقره ، ولا عقاراً إلا عقره ، حتى حطّ بساحلها ، واستولى بسفر الإنفاق على جميع مراحلها ، إلا أنه خلص بنفس طيبة ، وسراوة سماؤها صيّبة ، وتمتّع ما شاء من زير ويم ، وتأنّس لم يعط القيادة لهم ، وفي عفو الله سعة ، وليس مع التوكل عليه ضعة .

شعره - من شعره قوله يمدح السلطان ، وأنشدها إيّاه بالمضارب من وادي الغيران عند قدومه المريّة :

أثغرُك أم سِمِطٌ من الدرّ يُنظّمُ وريقُك أم مسكٌ به الراح تُختَمُ
ووجهُك أم بادٍ من الصبح نيرٌ وفرعُك أم داجٍ من الليل مُظلمُ
أعلل منك الوجد والليل مُتلفي وهل ينفعُ التعليلُ والخطبُ مؤلمُ
وأفنعُ من طيفِ الخيالِ بزورةٍ لو أنّ جفوني بالمنامِ تنعمُ

ثم سرد لسان الدين القصيدة ، وهي طويلة .

ثم قال : ومن شعره مديلاً على البيت الأخير حسبما نُسب إليه ببلده :

نامتُ جفونُك يا سؤلي ولم أنمِ ما ذاك إلا لفرطِ الوجدِ والسقمِ
أشكو إلى الله ما بي من محبتكم فهو العليمُ بما ألقى من الألمِ
« إن كان سفكُ دمي أقصى مرادكم فما غلّتُ نظرةً منكم بسفكِ دمي »

ومما يُنسب إليه كذلك :

قفْ بي ونادِ بين تلكِ الطلُولِ أينَ الألى كانوا عليها نزولُ
أينَ ليالينا بهم والمنى نجنيه غضاً بالرضى والقبولِ

لا حُمَّلُوا بعضَ الذي حَمَلُوا يومَ تولَّتْ بالقيابِ الحُمُولُ
إن غبتمُ يا أهلَ نجدٍ ففِي قَلْبِي أنتمُ وضلوعي حُلُولُ^١

ثم قال : ناب في القيادة البحرية عن خاله القائد أبي علي الرنداحي ، وولي أسطول المنكب^٢ برهة ، وتوفي بمراكش عام خمسة وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[٢٣ - من ابن راجح إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : كتب إليَّ أبو عبد الله ابن راجح التونسي بما يظهر من أبياته ، وهي :

أما والذي لي في حُلاكٍ من الحمدِ : ومالكٌ ملاكِي لَدِيٍّ من الرَفْدِ
لقد أشعرتني النفسُ أنكَ مُعرضٌ عن المسرِفِ الآتي لفضلكِ يستجدي
فإن زلةً مني بدتُ لكَ جَهرةً فصفحاً فما والله أذنبتُ عن قصدِ

[٢٤ - جواب لسان الدين]

فراجعته بقولي :

أُجِلُّكَ عن عتبٍ يغضُّ من الودِّ وأُكْرَمُ وجهَ العذرِ منكَ عن الردِّ
ولكنني أهدي إليك نَصِيحتي وإن كنتُ قد أهديتها ثم لم تُجِدْ
إذا مِقْوَلُ الإنسانِ جاوزَ جَدَّهُ تحوَّلتِ الأغراضُ منه إلى الضدِّ
فأصبح منه الجُدُّ هزلًا مذمَّمًا وأصبح منه الهزلُ في معرضِ الجِدِّ
فما اسطعتَ قبضاً للعنانِ فإنَّه أحقُّ السجايا بالعلاءِ وبالمجدِ

١ ق : نزول ؛ ص : حمول .

٢ هذه رواية ص ؛ وفي ق : المبكم .

[ترجمة ابن راجح]

وقال في « الإحاطة » في حق ابن راجح المذكور ما محصّله^١ : محمد بن علي ابن الحسن بن راجح ، الشريف الحسيني باعترافه ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ (الزمر: ٧ ، والإسراء: ١٥ ، والأنعام: ١٦٤) تونسي ، أبو عبد الله ، يُعرف بابن راجح ، صاحب رُوءاء وأبهة^٢ ، نظيف البزة ، فاره المركب ، مطفف مكيال الإطراء ، جَمُوحٌ في إيجاب الحقوق ، مترامٍ إلى أقصى آماذ التوغّل ، سخي اللسان بالثناء ثرثاره ، مرسلٌ لعنانه في كل المحافل ، متواضع متودد فكه مطبوع حسن الخلق عذب الفكاهة ، مخصوص حيث حلّ من الملوك والأمراء بالائترّة ، وممّن دونهم بالمداخلة والصحبة ، ينظم الشعر ، ويحاضر بالأبيات ، ويقوم على تاريخ بلده ، ويثابر على لقاء أهل المعرفة ، والأخذ عن أولي الرواية ، قدم الأندلس عام خمسين وسبعمائة مفلتاً من الوقعة بالسلطان أبي الحسن ، فمهد له سلطانها كَتَفَ برّه ، وآواه إلى سَعَةِ رعيه ، وتأكّدت بيني وبينه صحبة .

[٢٥ - من لسان الدين إلى ابن راجح]

كُتِبَتْ إليه أولَ قدومه بما نصّه أخذو حذو أبيات ذكر أن شيخنا أبا محمد الحضرمي خاطبه بها :

أَمِنْ جَانِبِ الْغَرْبِيِّ نَفْحَةَ بَارِحٍ	سَرَتْ مِنْهُ أَرْوَاحُ الْجَوَاوِي فِي الْجَوَارِحِ ؟
قَدَحْتُ بِهَا زَنْدَ الْغَرَامِ وَإِنَّمَا	تَجَافَيْتُ فِي دِينِ السَّلْوِ لِقَادِحِ
وَمَا هِيَ إِلَّا نَسْمَةٌ حَاجِرِيَّةٌ	رَمَى الشُّوقُ مِنْهَا كُلَّ قَلْبٍ بِقَادِحِ
رَجَحْنَا لَهَا مِنْ غَيْرِ شَكِّ كَأَنَّهَا	شَمَائِلُ أَخْلَاقِ الشَّرِيفِ ابْنِ رَاجِحِ

١ ق : حاصله .

٢ ق : وبدية .

وصبراً ، مُغارِ الفتلِ في كلِّ فادحٍ
 طرازُ نُصارٍ في برودِ المدائحِ
 حبا الله منه كلُّ صدرٍ بشارحِ
 صحائفه أنست مضاء الصفائحِ
 وجزَلٌ كما راعتك صولةُ جارحِ
 وخوضِ خِضمِّ القولِ منه بسابحِ
 أسنةُ حربٍ للعيونِ اللوامحِ
 ولا ذهبت منه بحكمةِ ناصحِ
 وقد غصَّ بالشَّمِّ الأنوفِ الجحاجحِ
 خواتمه موصولةٌ بالفواتحِ
 لمراك من فوقِ الربى والبطائحِ
 برحلك في قفرٍ عن الأنسِ نازحِ
 وساعدها السعدانُ وسطِ الأباطحِ
 بمعرضِ سوءِ فهي ناقةُ صالحِ
 بطوعِ القوافي وانبعاثِ القرائحِ
 وموردِ ظمآنٍ وكعبةِ مادحِ
 أرحت السرى من كلِّ غادٍ ورائحِ

فتى هاشمٍ سبقاً إلى كلِّ غايةٍ
 أصيلُ العلاجمِ السيادة ، ذكره
 وفرقانُ مجدٍ يصدعُ الشكَّ نوره
 وفارسُ ميدانِ البيانِ إذا انتضى
 رقيقٌ كما راقنتك نعمةُ ساجعِ
 إذا ما احتبي مستحضراً في بلاغةٍ
 وقد شرعت في مجمعِ الحقلِ انحوه
 فما ضعفت منه لصوله صيادعِ
 تذكرتُ قسّاً قائماً في عكاظه
 ليهنك شمسُ الدين ما حزت من علا
 رعى الله ركباً أطلع الصبحَ مسفراً
 والله ما أهدته كَوْماءُ أوضعت
 أقول لِقومي عندما حطَّ كورها
 ذروها وأرضِ الله لا تعرضوا لها
 إذا ما أردنا القولَ فيه فمَنْ لنا
 بقيت مئى نفسٍ وتحفةُ قادمِ
 ولا زلت تلقى البرَّ والرحبَ حيثما

[٢٦ - جواب ابن راجح]

فأجابني بما نصّه :

تعادُ لمفؤودٍ عن الحيّ نازحِ
 غليلُ عليلٍ للتواصلِ جانحِ

أمينُ مطلعِ الأنوارِ لمحةُ لامحِ
 وهل بالمنى من مَوردِ الوصلِ يرتوي

١ ق : الحصل .

ورند الحمى والشيع شيع الأشايح
فسقياً لها سقياً لناقة صالح
حمى لمحات العين عن ملح لامح
حلّى الحسن والحسن وحلّى الملامح
يدلّ ، وهل حسم لداء التبارح
لعفّر عفار الأنس بين الأباطح
تغصّ نواديبها بغادٍ ورائح
لترتيل آيات الندى والمنايح
وأوترّ بالتوراة شفّع المدائح
نأت عن رشاد فيه محض النصائح
لكلّ هدّى هادٍ لأرجح راجح
وأورى الهدى للرشد أوضّح وأضح
وإن لم تقلّ لم يُغنّ مدحٌ لمادح
وعامٌ ببحرٍ من عطايك طافع
ويغدو بذاك البحر أسبح سابع
وبشرى له قد راح أربع رايح^٢
وتبدي لمن خصصت سبيل المناجح
وملّكت ما ملكت يا ابن الحجاجح
أقلّ مراميهما أجلّ المطامح
أجبتُ بها عن مدحٍ أشرف مادح

فيا فيض عين الدمع مالك والحمى
مربع أرامي ومورد ناقتي
سقى الله ذاك الحيّ ودقاً فإنه
وأبدي لنا حور الخيام تزف في
ترى حيّ تلك الحور للحور مهيع
ويا دوحه الريحان هل لي عودة
وهلّ أنت إلا حلّة حاتمية
أقام بها الصخر الخطيب منابراً
وشفّع بالإنجيل حمد مدح
وفرق بالفرقان كلّ فريقة
وهل هو إلا للبرية مرشد
فبشرى لسان الدين ساد بك الورى
متى قلت لم ترك مقالا لقائل^١
فمن حام بالحيّ الذي أنت ربّه
يحقّ له أن يشفّع الحمد بالشنا
ويا فوز ملك دمت صدر صدوره
بآرائك اللاتي تدلّ على الهدى
ملكّت خصال سبق في كلّ غايه
مطامح^٣ آمالٍ لأشرف همّة
فدونكها يا مهدي المدح مدحة

١ من قول حسان في مدح ابن عباس :

إذا قال لم يترك مقالا لقائل

٢ سقط البيت من ص .

٣ ق : مطالب .

تُهَنِّيكِ بِالْعَامِ الَّذِي عَمَّ مَدْحُهُ
فَخُذْهَا سَمِيَّ الْفَخْرِ يَا خَيْرَ مَسْبَلٍ
وَدُمُّ خَاطِبِ الْعُلِيَا بِهَا خَيْرَ خَاطِبٍ
مَوَاهِبُ هَاتِيكَ الْبِحَارِ الطَّوَافِحِ
عَلَى الْخَلْقِ لِإِغْضَاءِ سُتُورِ التَّسَامُحِ
وَأَتَوْقَ تَوَاقٍ وَأَطْمَحَ طَامِحِ

[بقية ترجمة ابن راجح]

ثمَّ قال لسان الدين : توفي يوم الخميس ثالث شعبان سنة خمس وستين
وسبعمائة ، وقد ناهز السبعين ، ودفنناه بروضتنا بباب البيرة ، وأعفي شارب الشعر
من ثاني^١ مقصّصه ، عفا الله تعالى عنا وعنّه ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط البدر البشتكي في اختصاره لإحاطة لسان الدين وسمّاه
« مركز الإحاطة » في هذا المحل ما نصّه : قال كاتبه : لو وفق الله تعالى هذا
الرجل لم يجب عن مثل تلك الحائية بهذا الهدء ، ولعل ما في كتاب أبي البركات
الذي اسمه « شعر من لا شعر له » أنزل من هذه الطبقة ؛ انتهى .

وقد أشار لسان الدين لهذا بقوله السابق : وأعفي شارب الشعر من ثاني^١ مقصّصه ،
فله دره من لودعي زان خاتم البراعة بفصّصه ، فلکم له من عبارة وجيزة يقضي
بها ما لم يستطع غيره أن يعبر عنه بإطنابه ، فعلى كل من يروم التعبير ، عمّا في
الضمير ، أن يتمسك بأطنابه .

وقال ابن خاتمة : حدثني الشريف الأديب أبو عبد الله ابن راجح التونسي
مقّدمه علينا بالمرية قال : سجن القاضي أبو عبد الله ابن عبد السلام شاباً وسيماً
لحقّ تعين عليه ، فأنشدته مداعباً :

أقاضي المسلمين حكمتَ حكماً غداً^٢ وجهُ الزمانِ له عبوسا

١ ص : نابي .

٢ ق : بدا .

سجنت على الدراهم ذا جمال ولم تسجنه إذ غصَبَ النفوسا
فأجاني بأن قال : إنما شكاه لي أربابُ الدراهم ، دون أرباب النفوس ؛
انتهى .

رجع إلى ما خوطب به لسان الدين رحمه الله تعالى :

[٢٧ - من العشاب إلى لسان الدين]

ومما خاطبه به أبو عبد الله العشاب^١ التونسي في بعض الأعياد قوله :

يُيْمَنُ أَبِي عَبْدِ الْإِلَهِ مُحَمَّدٍ تِيْمَنَ هَذَا الْقَطْرُ وَانْسَجَمَ الْقَطْرُ
أَفْضَلَ عَلَيْنَا مِنْ جَزِيلِ عَطَائِهِ بِحُورٍ تَدِيمُ الْمَدَى لَيْسَ لَهُ جَزْرُ
وَآتَسْنَا لَمَّا عَدَمْنَا مَغَانِيماً إِذَا ذُكِرْتَ فِي الْقَلْبِ لَيْسَ لَهَا ذَعْرُ
هَنِيئاً بَعِيدِ الْفَطْرِ يَا خَيْرَ مَاجِدٍ كَرِيمٍ بِهِ تَسْمُو السِّيَادَةُ وَالْفَخْرُ
وَدَمَّتْ مَدَى الْأَيَّامِ فِي ظِلِّ نِعْمَةٍ تَطِيعُ لَكَ الدُّنْيَا وَيَعْنُو لَكَ الدَّهْرُ

[٢٨ - من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين في ترجمة ابن عبد الملك المراكشي ما صورته : وخاطبني
بقوله :

وَلِيَّتَ وِلَايَةٍ أَحْسَنَتْ فِيهَا لِيُعْلَمَ أَنَّهَا شَرُفَتْ بِقَدْرِكَ
وَكَمْ وَالِ أَسَاءَ فَقِيلَ فِيهِ ذَنِي الْقَدْرِ لَيْسَ لَهَا بِمَدْرِكَ
وقال أيضاً يخاطبني في المعنى :

١ ق : الفشتالي .

٢ ص : من ذكرها .

وليتَ فقيل أحسنَ خيرُ والِ ففاق مَدَى مداركها بفضلهُ
وكم والِ أساءَ فقيلَ فيهِ دَنَا فمَحَا محاسنَها بفعلهُ

[ترجمة ولد ابن عبد الملك]

وفي « الإحاطة » ما محصّله أن المذكور محمد بن محمد بن عبد الملك بن سعيد الأنصاري الأوسي ، كان شديد الانقباض ، محجوب المحاسن ، تنبو العين عنه جهامة ووحشة ظاهر وغرابة شكل ، وفي طي ذلك أدب غض ، ونفس حرّة ، وحديث ممتع ، وأبوّة كريمة ، أحد الصابرين على الجهد ، المستمسكين بأسباب الحشمة ، الراضين بالخصاصة ، وأبوه قاضي القضاة نسيجُ وحنده الإمام العالم التاريخي المتبحر في الآداب ، تقلبت به أيدي الليالي بعد وفاته لتبعة سلطت على نَشَبه ، فاستقر بمالقة مقدوراً عليه ، لا يهتدي لمكان فضله إلا من عثر عليه ، ومن شعره قوله :

من لم يصنْ في أملٍ وجههُ عنك فصنْ وجهك عن ردهِ
واعرفْ لهُ الفضلَ وعرفْ لهُ حيثُ أحلَّ النفسَ من قصدهِ

ثم قال : توفي في ذي القعدة عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٢٩ - من المكودي إلى لسان الدين]

ومما مُدِح به لسان الدين قولُ أبي عبد الله محمد المَكُودي الفاسي رحمه الله تعالى :

رُحماكَ بي فلقدْ خلّدتَ في خلدي هوى أكابدُ منه حُرْفَةَ الكبدِ
حللتَ عقْدَ سلُوي عن فؤادي إذ حللتَ منه محلَّ الروح من جسدي
مراكَ بدري ، وذكراك التذاذُ فمي ودين حبك إضماري ومعتقدي

ومن جمالك نورٌ لآحَ في بصري
لا تحسبنَ فؤادي عنكَ مصطبراً
وهاكَ جسمي قد أودى النحولُ به
بما بطرفكَ من غُنْجٍ ومن حَوَرٍ
كنُ بينَ طرفي وقلبي منصفاً فلقد
فقال لي : قد جعلتَ القلبَ لي وطناً
وكيف تطلبُ عدلاً والهوى حَكَمُ
من لي بأغيدَ لا يرثي لذي شجنٍ
ما كنتُ من قبلِ إذعاني لسطوته
إن جاد بالوعدِ لم تصدقْ مواعده
شكوتهُ عِلَّتِي منهُ فقال : ألا
فقلتُ : إن شئتَ برثي أو شفا ألمي
وإن بخلتَ فلي مولى يوجدُ على

ومن ودادك روحٌ حلَّ في خلدي
فقبلَ حُبِّكَ كان الصبرُ طوعَ يدي
فلو طلبتَ وجوداً منه لم تجدِ
وما بشغركَ من دُرٍّ ومن برَدِ
حاييتَ بعضهما فاعدلُ ولا تحدِ
وقد قضيتَ على الأجنانِ بالسُّهْدِ
وحكمهُ قطُّ لَمْ يعدلُ على أحدِ
وليسَ يعرفُ ما يلقاه ذو كمدِ
إخالُ أنَّ الرشا يسطو على الأسدِ
فإن قنعتُ بزورِ الوعدِ لم يعدِ
سرُّ للطبيبِ فما برء الضنى بيدي
فبارتشافِ لملكِ الكوثريِّ جدِ
ضعفي ويبريء ما أضنيتَ من جسدي

وخرج بعد هذا إلى مدح لسان الدين فأطال وأطاب ، وكيف لا وقد ملأ
من إحسانه الوطاب ، رحم الله تعالى الجميع .

[٣٠ - من اليتيم إلى لسان الدين]

وقال لسان الدين : كتبت إلى أبي عبد الله اليتيم^١ أسألُ منه ما أثبت في
كتاب « التاج » من شعره ، فكتب إليَّ بهذه الأبيات :

أما الغرامُ فلمَ أُخْلِلُ بمذهبهِ فلمَ حَرَمْتَ فؤادي نيلَ مطلبهِ

١ هو محمد بن علي بن محمد العبدري ، وسينقل المقرئ ترجمته عن التاج فيما يلي ، وبعضها مثبت أيضاً
في الكتيبة : ٥٩ .

يا معرضاً عن فؤاد لم يزل كلفاً
 قطعت عنه الذي عودته فغدا
 أيام وصلك مبدول ، وبرك بي
 وسمع ودك عن إفك العواذل في
 لا أنت تمنعني نيل الرضى كراماً
 لله عرفك ما أذكى تنسمه
 أنت الحبيب الذي لم أتخذ بدلاً
 يا ابن الخطيب الذي قد فقت كل سنا
 محمد الحسن في خلق وفي خلق
 حضرت أو غبت ما لي عن هواك غنى
 سيان حال التداني والبعاد ، وهل
 يا من أحسن ظني في رضاه وما
 إن كان ذنبي الهوى فالقلب مني لا

بجته ، ذا حذارٍ من تجنّب
 وحظه من رضاه برق خلّبه
 مجدّد ، قد صفا لي عذب مشربه
 شغلٍ وبدر الدجى ناسٍ لمغربه
 ولا فؤادي بوانٍ في تطلّبه
 لو كنت تمنحني استنشاق طيبه
 منه وحاشا لقلبي من تقلّبه
 أزال عن ناظري إظلام غيبهه
 أكملت باسمك معنى الحسن فازه به
 لا ينقص البدر حسناً في تغيبه
 لمبصر البدر نيل في ترقبه؟
 ينفك يهدي قبيحاً من تغضبه
 يصغي لسمع ملامٍ من مؤنّب

[٣١ - من لسان الدين إلى اليتيم]

فأجبت بهذه الرسالة ، وهي ظريفة في معناها : « يا سيدي الذي إذا رفعت
 راية ثنائها تلقيتها باليدين ^٢ ، وإذا قُسمت سيهاً وداده على ذوي اعتقاده كنت
 صاحب الفريضة ^٣ والدين ، دام بقاؤك لطرفة تبيدتها ، وغريبة تردفها بأخرى
 تليها ، وعقيلة بيان تجليتها ، ونفس أخذ الحزن بكظمها ، وكلف الدهر
 بشت نظمها ، تؤنسها وتسليها ، لم أزل أشد على بدائعك يد الضنين ، وأقتني

١ ص : نأيت .

٢ فيه إشارة إلى قول الشماخ :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين

٣ الفريضة : الإرث أو الحصة منه .

درر كلامك ، ونفثات أقلامك ، اقتناء الدر الثمين ، والأيام بلقائك تعدّ ولا تُسعد ، وفي هذه الأيام انثالت عليّ سماؤك بعد قحط ، وتواترت لدي الآؤك على شحط ، وزارني من عقائل بيانك كلُّ فاتنة الطرف ، عاطرة العرف ، رافلة في حلل البيان والظرف ، لو ضربت بيوتها بالحجاز ، لأقرت لها العربُ العاربة بالإعجاز ، ما شئت من رصف المبني ، ومطاوعة اللفظ لغرض المعنى ، وطيب الأسلوب ، والتشبيث بالقلوب ، غير أن سيدي أفرط في التنزل ، وخطط المخاطبة بالتغزل ، وراجع الالتفات ، ورام استدراك ما فات ، ويرحم الله تعالى شاعر المعرفة فلقد أجاد في قوله ، وأنكر مناجاة الشوق بعد انصرام حوله^١ :

أبعُد حوَلٍ تناجي الشوقَ ناجيةً هلاًّ ونحن على عشرٍ من العشرِ^٢

« ولقد تجاوزت في الأمد ، وأنسيت أخبار صاحبك عبد الصمد ، فأقسم باللفات القدود ، وهمزات الجفون السود ، وحامل الأرواح مع الألواح ، بالقدو والرواح ، لولا بُعد مزارك ، ما أمنت غائلة ما تحت إزارك ، ثم إنني حققت الغرض ، وبجئت عن المشكل الذي عرّض ، فقلت : للخواطر^٣ انتقال ، ولكل مقام مقال ، وتختلف الحوائج باختلاف الأوقات ، ثم رفع اللبسَ خبر الثقات » .

ومنها - « وتعرفت ما كان من مراجعة سيدي لحرفة التكتيب والتعليم ، والحنين إلى العهد القديم ، فسررت باستقامة حاله ، وفضل ماله ، وإن لاحظ

١ من قصيدته التي مطلعها :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمير لعل بالجزع أغواناً على السهر

(شرح السقط : ١١٤) .

٢ الناجية : الناقة السريمة ؛ والعشر : شجر ، وأراد به هنا المكان الذي ينبت فيه .

٣ ق : للخاطر .

اللاحظ ، ما قال الجاحظ^١ ، فاعترض^٢ لا يرد^٣ ، وقياس لا يطرد^٤ ، حبذا والله عيش^٥ التأديب ، فلا بالضعف ولا بالجديب ، معاهدة الإحسان ، ومشاهدة الصور الحسان^٦ . يميناً إن المعلمين ، لسادة المسلمين ، وإنني لأنظر منهم كلما خطرت على المكاتب ، أمراء فوق المراتب ، من كل مسيطر الدرّة ، متقطب الأسرة ، متمر للوارد تنمر الهرة ، يغدو إلى مكتبه ، كالأمير في موكبه ، حتى إذا استقل في فرشه^٧ ، واستوى على عرشه ، وترنم بتلاوة قالونه وورثه^٨ ، أظهر للخلق احتقاراً ، وأزرى بالجبال وقاراً ، ورفعت إليه الحصوم ، ووقف بين يديه الظالم والمظلوم ، فتقول : كسرى في إيوانه ، والرشد في أوانه ، أو الحجاج بين أعوانه ، فإذا استولى على البدر السّرار ، وتبين للشهر الغرار ، تحرك إلى الخرج ، تحرك العود إلى الفرج ، أستغفر الله ممّا يشقّ على سيدي سماعه ، وتشمئز من ذكره طباعه ، شيم اللسان ، خلط الإساءة بالإحسان ، والغفلة من صفات الإنسان ، فأبي عيش كهذا العيش ؟ وكيف حال أمير هذا الجيش ؟ طاعة معروفة ، ووجوه إليه مصروفة ، فإن أشار بالإنصات ، لتحقق القصّات ، فكأنما طمس على الأفواه ، ولأم بين الشفاه ، وإن أمر بالإفصاح ، وتلاوة الألواح ، علا الضجيج والعجيج ، وحف به كما حف بالبيت الحجيج ، وكم بين ذلك من رشوة تدس ، وغمزة لا تحس ، ووعد يستنجز ، وحاجة تستعجل وتحفز ، هنا الله سيدي ما خوّله ، وأنساه بطيب أخراه أوله ، وقد بعثت بدعائتي هذه مع إجلال قدره ، والثقة بسعة صدره ، فليتلقها بيمينه ، ويفسح لها في المرتبة بينه وبين خدينه ، ويفرغ لمراجعتها وقتاً من أوقاته عملاً بمقتضى دينه ، وفضل يقينه ، والسلام .

١ يومية إلى أن الجاحظ قد ذم معلمي الصبيان ، ويداعب ابن اليتيم في عودته إلى هذه الحرفة .

٢ ومشاهدة . . . الحسان : سقطت من ق .

٣ ق : استقبل على فرشه .

٤ قالون وورش : مقرنان اختص كل منهما بقراءة من القراءات .

[ترجمة أبي عبد الله اليتيم]

ثم قال : ومن المداعبة التي وقعت إليها الإشارة ما كتب به إليه صديقه أبو علي ابن عبد السلام :

أبا عبدِ الإلهِ نِداءِ خِلِّ
وفيّ جاءَ يمنحكِ النصيحةُ
إلى كم تَأَلَّفُ الشبانَ غِيًّا
وخذلانا، أما تخشى الفضيحة؟

فأجابه بقوله :

فديتكِ صاحبَ السِّمَةِ المليحةُ
ومن قَلْبِي وضعتُ لهُ عِلاَّ
وأنتِ فدمعُ عيني في انسكاب
وطرفي لا يُتاحُ لهُ رقادُ
وزاد تشوّقي أبياتُ شعري
ولم تقصدِ بها جدًّا ، ولكن
فقلت : أتألفُ الشبانَ غِيًّا
ففيهم حرفتي وقوامُ عَيْشِي
وأمرِي فيهمُ أمرُ مُطاعُ
وتعلم أني رجلُ حَصُور
ومن طابتْ أرومته الصريحهُ
فما عنهُ يحلُّ بأن أزيحه
وأكبادي لفرقتكم قريحه
وهل نومٌ لأجفان جريحه
أنت منكم بالفاظِ فصيحه
قصدتَ بها مداعبة وقيحه
وخذلانا ، أما تخشى الفضيحة ؟
وأحوالي بخلطتهم نجيحة
وأوجههم مصاييحُ صبيحه
وتعرفُ ذلكَ معرفةً صحيحه

ثم قال لسان الدين - بعد إيراد ما مر - ما صورته : ولما اشتهر المشيب بعارضه ولمته ، وخضر الدهر بعهود صباه وأذيمته ، أفلح واسترجع ، وتألم لما فرط وتوجع ، وهو الآن من جلّة ٢ الخطباء طاهر العِرض والثوب ، خالص

١ سقط هذان البيتان من ق .

٢ ق : جملة .

من الشُّوب ، بادٍ عليه قبول قابل التوب ، وتوفِّي في أخريات صفر سنة
 خمسين وسبعمائة في الطاعون ، رحمه الله تعالى وغفر له ؛ انتهى .
 واليتم المذكور هو أبو عبد الله محمد بن علي العبدري المالقي ، وفي حقّه
 يقول لسان الدين في «التاج» ما مثاله : هو مجموع أدوات حسان ، من خط ونبغة^١
 لسان ، أخلاقه رَوْضٌ تتضوَّعُ نسماته ، وبشره صبح تتألق قسَماته ، ولا تخفى
 سِماته ، يُقرِّطس أغراض الدعابة ويُضمِّيها ، ويفوق سهام الفكاهة إلى
 مرَّامِها ، فكلَّما صدرتْ في عصره قصيدة هازلة ، أو أبيات منحنطة عن
 الإجادة نازلة ، خَمَسَ أبياتها وذيلها ، وصرَّف معانيها وسيَّلها ، وتركها سَمَرَ
 الندمان ، وأضحوكة الأزمان ، وهو الآن خطيبُ المسجد الأعلى بمالقة ،
 متحلّ بوقار وسكينة ، حالٌّ من أهلها بمكانة مكينة ، لسهولة جانبه ، واتضح
 مقاصده في الخير ومداهبه ، واشتغل لأوّل أمره بالتكثير ، وبلغ الغاية في التعليم
 والترتيب ، والشباب لم ينصل خضابُه ، ولا سلَّت للمشيب عِضابه ، ونفسه
 بالمحاسن كلفة صبّة ، وشأنه كلة هوى ومحبّة ، ولذلك ما خاطبه بعضُ
 أودائه ، وكلاهما رمى أخاه بدائه ، حسبما يأتي خلال هذا المقول وفي أثناءه ؛
 انتهى .

وذكر نحو ما تقدّم ذكره ، سامح الله الجميع بفضله .

[٣٢ - مخاطبة الكرسوطي لسان الدين]

وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي
 القاسمي^٢ نزيل مالقة ما صورته : وأنشدني وأنا بمالقة أحاول لَوثَ العمامة ،
 وأستعين بالغير على الإحكام لها :

١ ق : من حفظ ونبغة .

٢ ترجمة الكرسوطي في الإحاطة ، الورقة : ٥٠ وفي البيتان .

أمعمتاً قمرأ تكامل حُسْنُهُ أربى على الشمسِ المنيرة في البها
لا تلتمس ممّن لديك زيادةً فالبدرُ لا يمتارُ من نور السها

[ترجمة ابي عبد الله الكرسوطي]

قال لسان الدين : وهو فقيه محدث متكلم ، ألف كتاباً منها « الغرر في تكميل الطُّرر » طُرر أبي إبراهيم الأعرج ، ثم كتاب « الدرر في اختصار الطُّرر » المذكور ، وتقييدان على الرسالة كبير وصغير ، ولخص « التهذيب » لابن بشير ، وحذف أسانيد المصنّفات الثلاثة ، والتزم إسقاط التكرار ، واستدرك الصحاح الواقعة في الترمذي على البخاري ومسلم ، وقيد على مختصر الطليطي ، وشرع في تقييد على قواعد الإمام أبي الفضل عياض بن موسى برسم ولدي ، ويصدر منه الشعر مصدرأ لا تكنفه منه العناية ، وكانت له اليد الطولى في عبارة الرؤيا ، ومولده بفاس عام تسعين وستمائة ؛ انتهى ملخصاً .

[٣٣ - مخاطبة ابن الزبير لسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عمرو ابن الزبير ما صورته : وممّا خاطبني به عند إياي
من العُدوة في غرض الرسالة قوله :

نوالي الشكرَ للرحمن فرضاً	على نِعَمٍ كَسَتَ طولاً وعرضاً
وكم لله من لطفٍ خفيّ	لنا منه الذي قد شا وأمضى
بمقدمك السعيد أنت سعود	ننال بها نعيمَ الدهرِ محضاً
فيا بشرى لأندلس بما قد	به والاك بارينا وأرضى
ويا لله من سفرٍ سعيد	قدّ أقرضك المهيمنُ فيه قرضاً
ورحتَ بنيةٍ أخلصتَ فيها	فأبتَ بكلّ ما يبغى ويرضى
وثبتتَ لنصرة الإسلام لماً	علمت بأنّ الأمر إليك أفضى

لقد أحييتَ بالتقوى رُسُوماً
وقمتَ بسنةِ المختارِ فينا
ورضتَ من العلوم الصَّعبَ حتى
فرايكَ راجحاً فيما تراهُ
تدبِّرُ أمرَ مولانا فيلقى الـ
فأعقبنا شفاءً وانبساطاً
ومن أضحى على ظلمِ وأمسى
أبا عبد الإله إليك أشكو
ومن نَعَمَّاك أستجدي لباساً
بقيتَ مؤملاً تُرجى وتُخشى

كما أَرْضيتَ بالتمهيدِ أرضاً
تُمَهِّدُ سنةً وتقيمُ فرضاً
جَنيتَ ثمارها رطباً وغيضاً
وعزمتَ من مواضي الهند أمضى
مسيءَ لديكَ إشفاقاً وإغضاً
وقد كانت قلوبُ الناس مرضى
يَرِدُ إن شاء من نعماك حوضاً
زماي حين زاد الفقرُ غيضاً
تُفيضُ به عليَّ الجاهَ فيضاً
ومثلك من إذا ما جاد أرضى

[ترجمة أبي عمرو ابن الزبير]

وأبو عمرو المذكور هو محمد بن أحمد بن إبراهيم بن الزبير ، أبوه الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير أستاذ الزمان شيخ أبي حيان وغيره ، وقال في « الإحاطة » في حقه : إنَّه فكهُ حسن الحديث ، ركَّضَ طرفَ الشيبية في ميدان الراحة منكباً عن سنن أبيه وقومه ، مع شفوف إدراك ، وجودة حفظ ، كانا يُطمعان والده في نجاته ، فلم يعدم قادحاً ، شرَّقَ فنال حظوة ، وجرت عليه خطوب ، ثمَّ عاد إلى الأندلس ، فتطور بها ، وهو الآن قد نال منه الكبر يزجي لوقته^١ بمالقة متعللاً برمتق من بعض الخدم المخزنية^٢ ، استجاز له والده الطم والرم من أهل المغرب والمشرق ، وبضاعته في الشعر مُزجاة ، ثم قال : مات تاسع المحرم عام خمسة وستين وسبعمائة ؛ انتهى .

١ ق : الوقت .

٢ المخزنية : نسبة إل المخزن وهو الدولة .

[ترجمة أبي يحيى الأكل]

وقال في ترجمة أبي يحيى محمد بن أحمد بن محمد بن الأكل ما صورته :
 شيخ هيدوري^١ الذقن ، خدوع الظاهر ، خلوب اللفظ ، شديد الهوى إلى
 الصوفية ، والكلف بإطراء أهل الخير ، من بيت صَوْن وحشمة ، متقدم في
 معرفة الأمور العلمية ، خائض في غمار التصوف ، وانتحال كيمياء السعادة ،
 راكب متن دعوى عريضة في مقام التوحيد ، تكذبها أحواله الراهنة ، لمعاصرة
 خلقه على الرياضة ، واستيلاء الشره ، وغلبة سلطان الشهوة ، والمشاحة أيام
 الولاية ، والسباب^٢ الشاهد بالشدّة ، والحلف المتصل بياض اليوم في ثمن
 الخردلة باليمين التي فيها فساد الأنكحة ، والغضب الذي يقرب العين .

[٣٤ - مخاطبة الأكل للسان الدين]

خاطبني بين يدي نكبتة ولم أكن أظن الشعر ممّا تلوكة جَحَفَلْتَهُ^٣ ، ولكنّه
 من أهل الكفاية :

رجوتك بَعْدَ اللهِ يا خَيْرَ مُنْجِدِ
 وأفضلَ مَنْ أَمَلْتُ لِلْحَادِثِ الَّذِي
 وحاشا وكلاًّ أَنْ يَخِيبَ مُؤَمِّلِي
 وما أنا إلاّ عَبْدُ نِعْمَتِهِ الَّتِي
 وأشرفُ مَنْ حَضَّ الْمُلُوكَ عَلَى التَّقْيِ
 وأكرمَ مَأْمُولِ وَأَعْظَمَ مُرْفِدِ
 فقدتُ به صَبْرِي وما مَلَكَتْ يَدِي
 وقد عَلَقَتْ بَابِنِ الْخَطِيبِ مُحَمَّدِ
 عهدتُ بها يُمْنِي وَإِنْجَاحَ مَقْصِدِي
 وأبدى لهم رَشْداً نَصِيحَةً مُرْشِدِ

١ ق : هيدري ؛ ولعلها هيدوري من قولهم هدر التبت إذا كثر وطال .

٢ ص : والسيد ولعلها محرفة عن « والسب » .

٣ الجحفلة للداية بمنزلة الشفة للإنسان .

٤ ق : رشد النصيحة .

وساس الرعايا الآن خيرَ سياسةٍ
وأعرض عن دنياه زهداً وإنها
وما هو إلاّ الليثُ والغيثُ إن أتى
وبحرُ علومٍ درّه كليماته
صقيلُ مرآئي الفكرِ ربُّ لطائفِ
بديعُ عروج النفس للملاّ الذي
شفيقٌ رفيق دائم الحلم راحمٌ
صفوحٌ عن الجاني على حين قدرةٍ
أيا سيدي يا عمدتي عند شدتي
حنانيك والطفُ بي وكن لي راحماً
رجاك رجاء للذي أنت أهله
وأملك مضطراً لرحماك شاكياً
وعندي افتقارٌ لا يزالُ مواصلاً
ترفقُ بأولاد صغار بكاؤهم
وليس لهم إلاّ إليك تطلّعُ
أنلهم أيا مولاي نظرة مشفقٍ
وعاملٍ أخا الكرب الشديدِ برحمة
ولا تنظرن إلاّ لفضلك ، لا إلى
وإن كنتُ قد أذنبتُ إني تائبٌ
بقيتَ بخيرٍ لا يزال وعزةٍ
وسخرك الرحمن للعبد ؛ إنّه

ثم قال : وهو الآن من مسطري الأعمال على تهوّر واقتحام كبرة^٢ ، من

١ سقط البيت من ص .

٢ ق : كبيرة .

خط لا غاية وراءه في الركافة ، كما قال المعري ١ :

تمشت ٢ فوقه حُمْرُ المنايا ولكن بعدما مُسِخَتْ نَمالاً ٣

[٣٥ - مخاطبة ابن عياش للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عياش بن مشرف الأمي :
لأنه من أهل الأصالة والحسب ، ظهرت منه على حداثة السن أبيات ، ونُسب
إليه شعر توسّل به ، وتصرف في الإشراف ، فحمدت سيرته ، وكتب إلي
بقوله :

سِقَرَتُ شَمُوسُ اليُمنِ والإقبالِ وبدت بدورُ السعدِ ذاتِ كمالِ
لِقُدُومِ سيدنا الوزيرِ محمدِ أعزّزْ بهِ من سيدِ مفضلِ
قمرٌ تجلّي بينَ زُهْرٍ تجتلي يهدي لفعلِ الخيرِ لا الإضلالِ
سرّ آمناً لا تكترثُ ، فلأنتِ في حفظِ الإلهِ الواحدِ المتعالي
براً وبحراً لا تخافُ مُلَمَّةً وعدوّ ذاتك خلفَ ظهرِكِ صالي
لا يَسْتَقِرُّ لهُ قرارٌ بعدكم ممّا يحلُّ بهِ من الأوجالِ
والآنِ ترجعُ سالماً ومبشراً ببلوغِ كلِّ مسرّةِ ومنالِ
وهي طويلة ، نَمَطُها متخلف عن الإجادة ، وهي من مثله ممّا يُسْتَظرف ؛
انتهى .

[٣٦ - مخاطبة أبي عبد الله الوادي آشي للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد العراقي الوادي آشي : فاضل

١ شروح السقط : ١٠٤ .

٢ السقط : ودبت .

٣ البيت في وصف السيف ؛ أي أن إفرنده وكأنما دبت فوقه النمل .

الأبوة ، بادي الاستقامة ، حسن الأخلاق ، تولى أعمالاً ، كتب إلي وقد أبى
عملاً عرض عليه بقوله :

أَصْنَتُ أَلْفًا ثُمَّ أَنْطَقُ بِالْخَلْفِ وَأَفْقَدُ أَلْفًا ثُمَّ آنَسُ بِالْخَلْفِ
وَأَمْسِكُ دَهْرِي ثُمَّ أَفْطِرُ عَلَنِمًا وَيُمَحِّقُ بَدْرِي ثُمَّ أَلْحِقُ بِالْخَسْفِ
وَعَزَمْتُ لَا كُنْتُ بِالذَّلِّ عَامِلًا وَلَوْ أَنَّ ضَعْفِي يَنْتَهِي بِي إِلَى الْخَتْفِ
فَإِنْ تَعْمَلُونِي فِي تَصْرِفِ عِزَّةٍ وَعَدَلٍ وَإِلَّا فَاحْسُمُوا عِلَّةَ الصَّرْفِ
بِقِيَمٍ وَسُحْبِ الْعَفْوِ مِنْكُمْ تَظَلِّي وَحِظْتُ ثِنَاثِي دَائِمًا ثَانِي الْعِطْفِ

[٣٧ - مخاطبة أبي محمد الأزدي للسان الدين]

وقال في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم الأزدي ما صورته : وخاطبني
لما وليت خطة الإنشاء وغيرها في أواخر عام تسعة وأربعين وسبعمائة بما نصه :
حُشَاشَةُ نَفْسٍ أَعْلَنْتُ لِمَذْيَبِهَا بِتَذْكَارِ أَيَّامِ الْوَصَالِ وَطَيْبِهَا
وَنَادَتْهُ رَحْمَى أَحْيَيْهَا نَفْسَ مَدْنَفٍ تَمُوتُ إِذَا لَمْ تَحْيَيْهَا بِوَجِيهِهَا
فَدَاوٍ بِقَرَبٍ مِنْكَ لِأَعِجَ وَجَدَهَا وَفِيضَ أَمَاقِيهَا ، وَطَوْلَ نَحْيِهَا
وَقَدْ بَلَغْتَ حَدَّآ بِه صَحَّ فِي الْهَوَى وَأَحْكَامِهِ ثُوبُ الضَّنَى فِي نَصِيْبِهَا
وَهَلْ يَتَدَاوَى دَاءُ نَفْسٍ تَعِيْسَةَ إِذَا كَانَ يَوْمًا دَاوَاهَا مِنْ طَيْبِهَا
لَعَلَّ أَوَارِ الْوَجْدِ تَحْمَدُ نَارَهُ فَيُرَدُّ عَنْهَا مَا بَهَا مِنْ لَهْيِهَا
إِلَيْكَ حَدَاهَا الشَّوْقُ يَا بَدْرَهَا الَّذِي يَعْزُّ عَلَيْهَا مِنْهُ طَوْلُ مَغْيِهَا
سَلَكْتَ بِهَا سَبِيلَ الْهَوَى فَهِيَ تَبْتَغِي لِقَاكَ وَتَبْغِي غَفْلَةً مِنْ رَقِيْبِهَا
أَجْبَاهَا بِإِبْقَاءِ عَلَيْهَا فَإِنَّهَا سَتَفِي إِذَا مَا لَمْ تَكُنْ بِمَجْيِهَا
وَمِلَّ نَحْوَهَا بِالْوَدِّ فَهِيَ قَدْ أَدْعَنْتُ كَمَا تَدْعُنُ الْأَقْلَامُ لِابْنِ خَطِيْبِهَا
وَحِيدَ الزَّمَانِ الْمَاهِرِ الْبَاهِرِ الْحَلِيِّ وَجَهْدِ آدَابِ الْعُلَا وَأَدْيِهَا
إِمَامُ مَعَالِيهَا ، وَبِحُرِّ عُلُومِهَا وَبَدْرُ دِيَاجِيهَا ، وَصَدْرُ شَعُوبِهَا

مُصَرَّفُهَا كَيْفَ انْتَت وَمَعِيدَهَا
وَرَاغُ أَعْلَامِ الْبَلَاغَةِ وَالَّذِي
وَحَامِلُ رَايَاتِ الرِّيَاسَةِ رَفْعَةً
مِنَ الْغُرِّ مَمَّنْ أَوْجَبَتْ لَشَبَابِهَا
مِنْ أَبْنَاءِ أَرِيَابِ الْمَنَابِرِ وَالْأُولَى
خِلَالَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ طُودِ الْحَجِيِّ أَبِي
أَجَادٍ وَأَجْدَى فَاسَلُ عَنْ ذِكْرِ طِيءٍ
فَقِي كُلِّ مَا يَبِيدِي مُحَمَّدٌ عِبْرَةٌ
تَجِيبُ الْقَوَافِي إِنْ دَعَا بِبَعِيدِهَا
تَغْيِيرَ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ فَلَمْ يَكُنْ
تَقْدَمُ فِي دَارِ الْخِلَافَةِ حَاجِبًا
وَقَامَ لَهَا فِي سَاحَةِ الْعَزِّ كَاتِبًا
فَأَبْدَى مِنْ أَنْوَاعِ الْفَضَائِلِ أَوْجُهًا
هَنِيئًا بِهِ يَمْنًا بِأَسْعَدِ مَائِلِ
فَلِلسَعْدِ تَأْثِيرٌ يَجِيءُ إِذَا جَرَى
أَمْوَقَدَ نَارِ الْفِكْرِ يَقْدَحُ زَنْدَهَا
حَدَانِي إِلَيْكَ الْحُبُّ قِدْمًا وَمَالٌ بِي
فَقَدَّمْتَهَا نِظْمًا قَوَافِي قَصْرَتْ
وَكُنْتُ كَمَنْ وَافَى لَدَى الدَّارِ بِالْحَصَى
فَصَلَّهَا وَخَذْتُ بِالْعَفْوِ فِيهَا فَلَمْ أَصِلْ

[قطع من شعر الأزدى]

وصاحب هذا النظم من أهل بلش ، وله اقتدار على النظم والنثر ، قال في

« الإحاطة » ما محصّله : ومما وقع له أثناء مقامات وأغراض تشهد باقتداره مهملًا :

رعى الله عهداً حوى ما حوى
أراهم أموراً حلاً وردها
ولما حلا الوصلُ صالوا له
وأوردهم سرّاً أسرارهم
وما أملّ طال إلاّ وهى
وأملّ صال إلاّ هوى

وقال معجزة :

بثّ بيّني يبّثني فيض جفني
فتنتني بغنجٍ ظبيّ تجني
بزة زينت قضيّب تثنّي
خفت تثنيت بيّني فجفتني

شغفي شفّني فشبّني بيّني
تبّثني نقض نيّني بتجني
قضيّب بغيتي ففزت بفنّ
ثقة تثنّي فخيب ظني

وقال كلمة وكلمة :

الهوى شفّني وأهمل جفني
أحور شبّ حرّ بيّني لما
حاكم يتقّى ولا ذنب إلاّ
ماله ينقض العهود فيشجي
لم يجز وصله فبت محالاً

أدمعاً تثنّي دماً بتني
نقض العهد بين طول تجني
شغف لم يخيب لسعاه ظني
ولها ينثي مسهد جفن
يقتضي حلّ بغيتي كل فنّ

وقال يرثي ديكاً فقده ، ويصف الوجد الذي وجدّه ، ويبكي عدم أذانه ،

إلى غير ذلك من مستظرف شانه :

أودى به الحنّف لما جاءه الأجلُ ديكاً فلا عوّض منه ولا بدّلُ

قد كان لي أملٌ في أن يعيشَ فلم
فقدته فلعمري إنها عظةٌ
ما كانَ أبدعَ مرآهُ ومنظرهُ
كأنَّ مطرفَ وشيٍ فوقَ ملبسه
كأنَّ إكليلَ كسرى فوقَ مفرقه
موقتٌ لم يكنْ يُعزى له خطأ
كأنَّ زرقالاً فيما مرَّ علكمه
يرحلُّ الليلُ ، يحيي بالصراخ فما
رأيته قد وهت منه القوى فهو
لو يُفتدى بديوكِ الأرضِ قلَّ له
قالوا الدواء فلم يغنِ الدواء ولم
أملتُ فيه ثوباً أجرَ محتسبٍ

وأمره السلطان أبو عبد الله سادس الملوك النصريين ، وقد نظر إلى شلير
وقد تردى بالثلج وتعمم ، وكمل ما أراد من بزته وتمم ، أن ينظم في وصفه ،
فقال بديهاً :

وشيوخ جليل القدر قد طال عمرهُ
عليه لباسٌ أبيضٌ باهرُ السنَا
فظوراً تراهُ كلكه كاسياً به
وطوراً تراهُ عارياً ليسَ يكتسي
وكم مرَّت الأيامُ وهو كما ترى
وذاك شليرٌ شيخٌ غرناطةَ التي

١ يريد إبراهيم بن يحيى النقاش المعروف بولد الزرقال وقد وضع صحيفة في الرصد اسمها الزرقلة
(أو الزرقالة) .

بها ملك سامي المراقي ، أطاعه كبارُ ملوك الأرضِ في حالة الصغر
 تولاه ربُّ العرشِ منهُ بعصمةٍ تقيه مدَى الأيامِ من كلِّ ما ضررُ
 وتوفّي المذكور في بلده بلش في طاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٣٨ - من لسان الدين إلى ابن رضوان]

وقال في « الإحاطة » في ترجمة صاحب القلم الأعلى بالمغرب أبي القاسم
 ابن رضوان النجاري^١ ما صورته : ولما ولي الإنشاء بباب ملك المغرب ظهر
 لسلطاننا بعض قصور في المراجعات ، فكتبت إليه^٢ :

أبا قاسم^٣ لا زلتَ للفضلِ قاسماً بميزان عدل ينصرُ الحقَّ من نصَّرُ
 مدادك وهو المسك طيباً ومنظراً وإلاّ سوادُ القلبِ والقوَد والبصرُ
 عهدناه في كلِّ المعارفِ مطنباً فما باله في حرمةِ الود مختصرُ
 أظنّك من ليلِ الوصالِ انتخبته إلينا ، وذاك الليلُ يوصفُ بالقصَّرُ
 أردنا بك العذرَ الذي أنتَ أهلهُ ومثلك لا يرْمَى بعِي ولا حصَّرُ

[٣٩ - جواب ابن رضوان]

فراجعي ، ولا أدري أهي من نظمه أم نظم غيره :

١ هو صاحب كتاب « الشهب اللامعة في السياسة النافعة » وترجمته في الإحاطة ، الورقة : ٢٤٤
 والكتيبة : ٢٥٤ ونيل الابتهاج ١٢٣ والتعريف ٤١ (و ص : ٢٠) وفهرسة السراج (ك :
 ١٢٤٢ د : ٢٦٤٣) الورقة : ١٣٩ ، ١٤٨ ومستودع العلامة : ٥٢ ونثير الجمان ، الورقة :
 ٦٥ (نسخة دار الكتب) وجذوة الاقتباس : ٢٤٧ وقد كتبنا عنه دراسة مفصلة (نشرت في كتاب
 العيد الصادر ببيروت سنة ١٩٦٧) .
 ٢ الأبيات وجوابها في الكتيبة : ٢٥٦ .
 ٣ كناه في الإحاطة بأبي محمد .

حقيقاً أبا عبد الإله بك الذي وإن الذي نبهت مني لم يكن
ورباً اختصاراً لم يشين نظم ناظم وعذرک عني من محاسنک التي
ومن عرف الوصف المناسب منصفاً
لذهبه في البر يتضح الأثر
نؤوماً وحاشا الود أن أعط الأثر
ورباً اقتصاراً لم يعب نثر من نثر
نظام حلاها في المادح ما انتثر
تأتى له نهج من العذر ما دثر

[ترجمة ابن رضوان]

وهو عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النجاري ، من أهل مالقة ، صاحب العلامة العلية والقلم الأعلى بالمغرب ، قرأ على جماعة منهم بتونس قاضي الجماعة ابن عبد السلام ، قال في « التاج » فيه أيام لم يفهم حوضه ، ولا أزهرو روضه ، ما نصه : أديب أحسن ما شاء ، وفتح قلبه فملاً الدلو وبيل الرشاء ، وعانى على حدائته الشعر والإنشاء ، وله ببلده بيت معمور بفضل وأمانة ، ومجد وديانة ، ونشأ هذا الفاضل على أم العفاف والصون ، فما مال إلى فساد بعد الكون ، وله خط بارع ، وفهم إلى الغوامض مسارع ، وقد أثبت من كلامه ، ونقشات أقلامه ، كل محكم العقود ، زار بابنة العنقود ، فمن ذلك قوله ١ :

لعلكما أن ترعيا لي وسائلاً فبالله عوجاً بالركاب وسائلاً

ومنها :

لقد جار دهري إذ نأى بمطالبي وظلاً بما أبغي من القرب ماطلا
عتبت عليه فاغتندي لي عاتباً وقال : أصح لي لا تكن قط عاذلاً
أنتعيني أن قد أفدتك موقفاً لدى أعظم الأملاك حلماً وناثلاً

١ القصيدة في الإحاطة : ٢٤٦ - ٢٤٨ .

ملك حباه الله بالخلق الرضى وأعلى له في المكرمات المنازل
وهي طويلة .

ومن نظم ابن رضوان المذكور^١ :

تبرأت من حوّلي إليك وأيقنت برحماك آمالي أصحّ يقين
فلا أرهب الأيام إذ كنت ملجأ وحسي يقيني باليقين يقيني

وكلفه أبو عنان وصف صيد من غدِير فقال من أبيات^٢ :

ولربّ يومٍ في حِمَاكَ شهدته والسرّح ناشرةٌ عليك ظلّها
حيثُ الغديرُ بريك من صفحاته درعاً تجيدُ به الرياحُ صِقَالها
والمنشآتُ به تديرُ حبالاً للصيد في حَيْلٍ تديرُ حبالها
وتُريك إذ يلقي بها اليمُّ الذي أخفتُ جوانحه وغب خلالها
فحسبتها زرداً وأن^٣ عوالياً تركتُ به عند الطعانِ نصالها

وقال فيه أيضاً :

أبصرتُ في يومِ الغديرِ عجائباً جاءت بآيات العجائب مُبصِرةً
سمكاً لدى شبّك فقلّ ليلٌ بدت فيه الزواهرُ للتواظُرِ نيّره
فكانَ ذا زردٍ تضاعفَ نسجه وكانَ تلك أسنةٌ متكسره

ومما نظمه عن أمر الخلافة المستعينية ليُكتب في طرّة قبة رياض الغزلان

١ الإحاطة : ٢٥٠ والكتيبة : ٢٥٩ .

٢ الكتيبة : ٢٥٧ .

٣ ق ص : لو أن .

٤ ق : فكانه .

من حضرته^١ :

هذا محلُّ المني بالأمْنِ مَعْمُورُ
مأوى النعيم به ما شئت من تَرْفٍ
ويطلع الروضُ منه مُصنَعاً عَجَباً
ويسطعُ الزهرُ من أرجائه أرجاً
مَعْنَى السرور سقاه الله ما حملتُ
انظر إلى الروضِ تنظرُ كلَّ معجبةٍ
مرَّ النسيم به يبغي القيرى فقَرى
وهامت الشمسُ في حسنِ الظلالِ به
والدوحُ ناعمةٌ تهتز من طربٍ
كأنما الطيرُ في أفنانها صدحتُ
والنهرُ شقَّ بساطَ الروضِ تحسبه
ينسابُ للُّجَّةِ الخضراءِ أزرقهُ
هذي مصانعُ مولانا التي جمعتُ
وهذه القبة الغراءُ ما نظرت
ولا بصورها في الفهمِ ذو فِكْرٍ
ولا يرامُ بِمَحْضِرٍ وصفُ ما جمعتُ
فيها المقاصيرُ تحميتها مهابته
كأنها الأفقُ تبسِّدو النيراتُ به
وينشأ المزنُ في أرجائه ولهُ
وينهمي القطرُ منه وهو منسكبُ

١ القصيدة في الاستقصا ٤ : ٤٠ .

وتخفق الريحُ منهُ وهي ناسمةُ
ويشرقُ الصبحُ منه وهو من غُررِ
وتطلعُ الشمسُ فيه من سَنَا ملكِ
لله منهُ إمامٌ عادلٌ بهرتُ
غيثُ السماحِ وليثُ البأسِ فالتقَ به
قلُ للمُباري وإن لم تلقَه أبدأُ
فخر الأنامِ أحلَّ الفخرَ منزله
إذا أبو سالم مولى الملوكِ بدأ
فأيّ خطبٍ يخافُ الدهرَ آملهُ
بشراكِ بشراكِ يا نجلَ الخلافةِ ما
لك الخلودُ بعزِّ الملكِ في نعمِ
فانعم هنيئاً بِلَدَاتِ مواصلةِ
لا زلتَ تلقى المنيّ في غبطةِ أبدأُ
وقال وكتب به على قلم فضة :

إذا شهدتُ بالنصرِ خطيّةَ القنا
كفى شاهداً مني بفضلكِ ناطقاً
وقال وكتب به على سكين :

أروحُ بأمرِ المستعينِ وأغتدي
ويفعل في الأقلامِ حَدَيَّ مصلحاً
لإذهابِ طغيانِ اليراعِ الرواقمِ
كفعل ظُبي أسيافهِ في الأقالمِ
قال : وممّا كتب به على قصيدة عيدية :

لمّا رأيتُ هدايا العبدِ أعظمها
هديةَ الطيبِ في حُسنٍ وتعجيبِ

ولم أجد في ضروب العاطرات شدا
أهديتُ نَحْوَكَ مِنْهُ كُلَّ ذِي أَرْجٍ
وفي القبولِ منالُ السعدِ فالْتَقَ بِهِ
وقال في رجل يلقب بالبعير :

وذي لقب عَنَّتْ لَهُ عِنْدَ صَحْبِهِ
دَعَوَهُ بِعَيْرٍ فَاسْتَشَاطَ فَقَالَ مَهْ
فقلتُ لَهُ عُدْ نَحْوَهُمْ لَتَعُودَ مِنْ
فقال وقد غصَّ الفَضَاءُ بِصَوْتِهِ
لئن عدتُ نادوني بِعَيْرٍ كَثَلَهَا
وقال ٢ :

وبخيلٍ لَمَّا دَعَوَهُ لِسُكْنِي
قال لي مَخْزَنٌ بِدَارِي فِيهِ
قلتُ وَفَقَّتْ لِلصَّوَابِ فَحَازِرُ
لا تَعْرَجْ عَلَى الْجَنَانِ بِسُكْنِي
وقال رحمه الله تعالى في مركب :

يا رَبِّ مَنْشَأَةٌ عَجِبْتُ لِشَأْنِهَا
سَكَنْتُ بِجَنِّيْهَا عَصَابَةٌ شَدَّةُ
فَتَحَرَّكَتْ بِإِرَادَةِ مَعِ أَنَّهَا
وقد احتوت في البحرِ أعجبَ شَانِ
حَلَّتْ مَحَلَّ الرُّوحِ فِي الْجَثْمَانِ
في جنسها لَيْسَتْ مِنَ الْحَيَّوَانِ

١ يوري بكلمة « العود » وهو البعير أيضاً . وفي ص : لا تمس .
٢ الأبيات في الإحاطة : ٢٥٤ وكذلك القطعتان التاليتان . والثانية منهما في الكتيبة : ٢٥٨ .
٣ يوري بملك التي تعني المال ، وملك هو خازن النار .

وَجَرَّتْ كَمَا قَدْ شَاءَهُ سُكَّانُهَا
فَعَلِمْتُ أَنَّ السَّرَّ فِي السُّكَّانِ
وَقَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

وَذِي خُدَعٍ دَعَوُهُ لِاسْتِغْثَالِ
فَأَظْهَرَ زَهْدَهُ وَغَنَى بِمَالِ
وَأَقْسَمَ لَا فَعَلْتُ يَمِينَ خَبَّ
يَغْرُ بَيْسَرَهُ وَيَمِينَ حَنْثِ
وَمَا عَرَفُوهُ غَثًّا مِنْ سَمِينِ
وَجَيْشِ الْحَرَصِ مِنْهُ فِي كَمِينِ
فِيَا عَجَبًا لِحِلَافِ مَهِينِ
لِيَأْكُلَ بِالْيَسَارِ وَبِالْيَمِينِ
وَهُوَ الْآنَ بِحَالِهِ الْمَوْصُوفَةُ ؛ انْتَهَى .

[٤٠ - مخاطبة أبي بكر ابن عبد الملك للسان الدين]

وَقَالَ لِسَانَ الدِّينِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى : خَاطَبَنِي أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ
الْمَلِكِ مُسْتَدْعِيًّا إِلَى إِعْذَارِ وَلَدِهِ بِقَوْلِهِ :

أُرِيدُ مِنْ سَيِّدِي الْأَعْلَى تَكَلُّفَهُ
يَزِيدُنِي شَرْفًا مِنْهُ وَيُبَصِّرُنِي
إِلَى الْوَصُولِ إِلَى دَارِي صَبَاحَ غَدِ
صِنَاعَةَ الْقَاطِعِ الْحِجَامِ فِي وَوَلَدِي
فَأَجَبْتَهُ :

يَا سَيِّدِي الْأَوْحَدَ الْأَسْمَى وَمُعْتَمِدِي
دَعَوْتَ فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ الصُّحَابَ ضَحَى
يَوْمُ السَّلَامِ عَلَى الْمَوْلَى وَخُدَمَتِهِ
وَالْعَذْرُ أَوْضَحُ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ
وَذَا الْوَسِيلَةَ مِنْ أَهْلِي وَمَنْ بَلَدِي
وَفِيهِ مَا لَيْسَ فِي سَبْتٍ وَلَا أَحَدِ
فَاصْفَحْ وَإِنْ عَثَرْتُ رَجُلِي فَخُذْ بِيَدِي
فَعَدُّ إِنْ غَبْتُ عَنْ لَوْمٍ وَعَنْ فَنَدِ
مُصَاحِبًا غَيْرَ مَحْصُورٍ إِلَى أَمَدِ
بَقِيَتْ فِي ظِلِّ عَيْشٍ لَا نَفَادَ لَهُ

١ التورية في السكان من المثل « الشأن في السكان لا في المكان » والسكان أيضاً « دقة السفينة » .

[ترجمة أبي بكر ابن عبد الملك]

وأبو بكر المذكور أصله من باغنة ، ونشأ بلوشة ، وهو محسوب من
الغرناطين .

وفي « التاج » في حقه ما صورته : فارض* هاجي ، مداهن مداجي ،
أخبث من نظر من طرف خفي ، وأغدر من تلبس بشعارٍ وفي ، إلى مكيدة ميثوثة
القبائل ، وإغراء يقطع بين الشعوب والقبائل ، من شيوخ طريقة العمل ، المتقلبين
من أحوالها بين الصَّحْوِ والثلْمِ ، المتعلمين برسومها حين اختلط المرعيُّ بالهمَلِ ،
وهو ناظمٌ أرجاز ، ومستعمل حقيقة ومجاز ، نظم مختصر السيرة ، في الألفاظ
اليسيرة ، ونظم رجزاً في الزجر والقال ، نبه به تلك الطريقة بعد الإغفال ؛ انتهى .

قال : ومن شعره :

إنَّ الولايَةَ رفعةٌ لكنَّها أبدأ إذا حقَّقتها تنقلُ
فانظرُ فضائلَ من مضى من أهلِها تجدُ الفضائلَ كلَّها لا تعزلُ
توفي بالطاعون بغرناطة عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

[٤١ - مخاطبة أبي سلطان لسان الدين]

وقال في ترجمة أبي سلطان عبد العزيز بن علي الغرناطي بن يشت ما صورته^١ :
وممّا خاطبني به قوله :

أطلتُ عتَبَ زمانٍ فلَّ من أُملي وسُمَّته الذمَّ في حلِّ ومرتحلِّ
عاتبته ليُلينَ العتَبُ جانبَه فما تراجعَ عن مَطلِّ ولا بَحَلِّ

١ ترجمت في الإحاطة ، الورقة : ٣١٥ .

فقال لي إن سمعي عنك في شغلٍ
 أصغي لمدحك إذ لم أصغِ للعدلِ
 لا تنفسي وجوابِ صيغٍ من وجلِ
 سما عن الذلِّ واستولى على الجذلِ
 فقد أجابَ قريباً من جوابك لي
 فليسَ ينفعكم حولي ولا حيكلي
 وكان ما كان من أيامي الأولِ
 فكيف يختلط المرعي بالهملِ
 من بعد شيب غدا في الرأسِ مشتعلِ
 نيلِ الحظوظ وإغذاذي إلى أجلي
 لكنَّ من شأنه التفصيل للجملِ
 على المظالم في حالٍ ومُقتبلِ
 أحلَّ ربُّك في قولٍ ولا عملِ
 كما الولايةُ تبيعُ اليمِّ بالوشلِ
 هذا لعمرى أمرٌ غير منفعلي
 كتب المقام الرفيع القدر في الدولِ
 وأسمح الخلق من حافٍ ومنتعلِ
 ولم يسُدَّ الذي قد بان من خللِ
 يصفو لديك الذي أمّلت من أملِ
 قد نيظاً منه بفضلٍ غير منفصلِ
 من عالمٍ وحكيم عارفٍ وولي
 قلَّ النظرُ له عندي فلا تسَلِ
 وليس لي عن حمى عليك من حولِ
 وليس لي عنك من زيغٍ ولا ميلِ

فعدتُ أمتحه العتبي ليشفق لي
 فالعتبُ عندي كالعتبي فليست أرى
 فقلتُ للنفس كُفِّي عن معاتبتي
 من يعتلق في الدنيا بآبن الخطيبِ فقد
 قالتُ فمن لي بتقريبي لخدمته
 فقال للناسِ كُفُّوا عن محادثتي
 قد اشتغلتُ عن الدنيا بآخرتي
 وقد رعيتُ وما أهملتُ من منح
 ولستُ أرجعُ للدنيا وزخرفها
 ألت تبصرُ أطماري وبعدي عن
 فقلتُ ذلك قولٌ صحَّ مجملهُ
 ما أنت جالبُ أمرٍ تستعين به
 ولا تحلَّ حراماً أو تحرّم ما
 ولا تبعُ آجلَ الدنيا بعاجلها
 وأين عنك الرشا إن ظلمتَ تطلبها
 هل أنت تطلبُ إلا أن تعودَ إلى
 فما لأوحدِ هذا الكونِ قاطبةً
 لم يلتفتْ نحو ما تبغيه من وطيرِ
 إن لم تقعْ نظرةٌ منه عليك فما
 فدونك السيّد الأعلی فمطلبكم
 فقد خبّرتُ بني الدنيا بأجمعهم
 فما رأيتُ له في الناس من شبه
 وقد قصدتُك يا أسمى الورى همماً
 فما سواك لما أمّلتُ من أملِ

فانظرُ لحالي فقد رَقَّ الحسود لها
 ودمٌ لنا ولدينِ الله ترفعُهُ
 لا زلتَ معتلياً عن كلِّ حادثةٍ
 واحسمَ زَمَانَةَ ما قد ساءَ من عللِ
 ما أعقبتُ بكَرِّ الإصباحِ بالأصلِ
 كما علتُ ملَّةُ الإسلامِ في المللِ
 انتهى .

[ترجمة عبد العزيز أبي سلطان]

والمذكور هو عبد العزيز بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد العزيز بن يشت ، من غرناطة ، يكنى أبا سلطان ، قال في « الإحاطة » في حقّه : فاضل حيي حسن الصورة باذي الحشمة ، فاضل البيت سريتهُ ، كتب في ديوان الأعمال فأتقن ، وترقى إلى الكتابة السلطانية ، وسفر في بعض الأعراس الغربية ، ولازم الشيخ أبا بكر عتيق بن مقدم من مشيخة الصوفية بالحضرة فظهرت عليه آثار ذلك في نظمه ومقاصده ، فمن نظمه ما أنشده ليلة الميلاد المعظم :

القلبُ يعشق والمدامعُ تنطِقُ
 إن كنتُ أكرمُ ما أكنُّ من الجوى
 وتدلُّني عندَ اللقا وتملُّقي
 إنَّ المحبَّ إذا دنا يتملُّقُ
 فلكم سترتُ عن الوجودِ محبتي
 والدمعُ يفضحُ ما يُسرُّ المنطقُ
 ولكم أموّه بالطلولِ وبالكني
 وأنحوضُ بجرِّ الكتمِ وهو الأليقُ
 ظهر الحبيبُ فلستُ أبصرُ غيره
 فبكلِّ مرثيٍ أرى يتحققُ
 ما في الوجودِ تكثُرُ لمكثُرِ
 إنَّ المكثُرَ بالأباطلِ يعلقُ
 فمتى نظرتُ فأنتَ موضعُ نظرتي
 ومتى نطقتُ فما بغيرك أنطقُ
 يا سائلي عن بعضِ كنه صفاته
 كَلَّ اللسانُ وكَلَّ عنه المنطقُ
 فاسلكُ مقاماتِ الرجالِ محققاً
 إنَّ المحققَ شأوه لا يلحقُ
 مرَّقُ حجابِ الوهمِ لا تحفلُ به
 فالوهمُ يسرُّ ما العقولُ تحقُّقُ

فالعجزُ عن طلب المعارفِ موبقٌ
 ذاك الجنابَ ، فبابه لا يُغلقُ
 والغِ السّوى إن كنتَ منها تفرّقُ
 وصعقتَ خوفاً فالمكلمُ يصعقُ
 تلقَ الذي قيّدتَ وهو المطلقُ
 إنَّ العوائقَ بالمكاره تطرقُ
 إنَّ العوائدَ بالتجردِ تحرقُ
 فالسيفُ من بثِّ الحقائقِ أصدقُ
 سرٌّ بمكنونِ الكتابِ مصدقُ
 سرُّ الوجودِ وغيثُه المتدفقُ
 أنوارهُ في هديها تتألقُ
 ولنصّه سرُّ الكتابِ يصدقُ
 إلا إليه فكلُّ سترٍ يُحرقُ
 رُتبُ الوجودِ وكعّ عنه السّبِقُ
 أمدٍ تناهى ما إليه مَسْبِقُ
 قطبُ الجمالِ وغيثُه المتدفقُ
 كلُّ الوجودِ بجودهٍ يتعلّقُ
 والذكرُ فهو عن الهوى لا ينطقُ
 وأجلّهم سبقاً وإن هم أعنقوا
 فالذلُّ والإذعانُ عندك ينفقُ
 فالقلبُ من عظم الخطايا يَنقَلِقُ

واخلصُ إذا شئتَ الوصولَ ولا تتلُ
 إنَّ التحلي في التحلي فاقصدُ
 ولتقتبسُ نارَ الكليمِ ولا تخفُ
 ومتى تجلّى فيك سرُّ جماله
 دع رتبةَ التقليدِ عنك ولا تته
 واقطعُ حبالَ علائقٍ وعوائقِ
 جرّدُ حسامِ النفسِ عن جفنِ الهوى
 فإذا فهمتَ السرَّ منك فلا تبسُحُ
 بالذوقِ لا بالعلمِ يدركُ علمنا
 وبما أتى عن خيرٍ من وطىء الثرى
 خيرُ الوري وابنِ الذبيحين الذي
 منْ أخبرَ الأنبياءَ قبلُ ببعثه
 رُفعتْ له الحجبُ التي لم ترتفعُ
 ورقي مقاماً قصّرت عن كنهه
 وطىء البساطَ تدلّلاً وجرى إلى
 إنسانٍ عينِ الكونِ مبلغُ سرّه
 سرُّ الوجودِ ونكتةُ الدهرِ الذي
 من جاء بالآياتِ يسطعُ نورها
 يا سيّدَ الأرسالِ غيرَ مدافعِ
 بالفقرِ جئتكَ موثلي لا بالغنى
 فاجبر كسيرَ جرائرٍ وجرائمِ

١ لا تتل : لا تقصر .

٢ ق : ريبة .

أرجوك يا غوث الأنام فلا تدع
حاشاك تطرد من أذاك مؤملاً
ومحبي تقضي بأتك منقذي
يا هل تساعدني الأمانى والمئى
إن كان ثبطني القضا بمقيدي
ولئن ثوى شخص بأقصى مغرب
فعليك يا أسنى الوجود تحية
وعلى صحابتك الذين تأتقوا
وعلى الألى آووك في أوطانهم
أعظم بأنصار النبي وحزبه
من مثل سعد أو كقيس نجله
أكرم بهم وبمن أتى من سرهم
من مثل نصر أو بنيه ملوكنا
بمحمد نجل الخليفة يوسف
مولى الملوك وتاج مفرق عزهم
ملك يرى أن التقدم مغم
تروى أحاديث الوغى عن بأسه
ملك البسالة والمكارم والنهى
مئت قلوب عداه منه مهابة
مولاي يا أسنى الملوك ومن غدت
لا تقطعوا عني الذي عودتم
لا تحرموني مطلبي فمحبي
فانعم بردي في بساطك كاتباً
فاسلم أمير المسلمين لأمة

باب الرضى دوني يسد ويغلق
فلأنت لي مني أحن وأرق
مما أخاف فما بغيرك أعلق
وأحل حيث سنا الرسالة يشرق
فعنان عزمي نحو مجدك مطلق
فتشوقني مني إليك يشرق
من طيب نفتحها البسيطة تعبق
رتب الكمال ومثلهم يتألق
نالوا بذلك رتبة لا تلحق
وبمن أتى بعباءة يتعلق
عرف السيادة من حماهم ينشق
عز النظر فمجدهم لا يلحق
كل الأنام لعزهم يتملق
عز الهدى فحماء ما إن يطرق
وأجل من تحدى إليه الأينق
مهما تعرض موكب أو فيلق
فالسيف يسند والعوالي تطلق
فعداته منه تغص وتفرق
فمغرب من خوفه ومشرق
عين الزمان إلى سناه تحدق
فالعبد من قطع العوائد يشفق
تقضي لسعيي أنه لا يخفق
وأعد لما قد كنت فهو الأليق
أفواهم ما إن بغيرك تنطق

واهنأ بها من ليلة نبوية جاءت بأكرم من به يُتعلقُ
صَلَّى عليه الله ما هَبَّتْ صَباً واهتزَّ غصنٌ في الحديقةِ موركُ
ثمَّ قال : وهو الآن بحالته الموصوفة ؛ انتهى .

[٤٢ - رسالة من النباهي للسان الدين]

وممّا خوطبَ به لسان الدين رحمه الله تعالى ما حكاه في « الإحاطة » في
ترجمة القاضي أبي الحسن النباهي ، إذ قال ما نصّه : وخاطبني بسبته وأنا يومئذ
بسلا بقوله : يا أيتها الآية البالغة وقد طُمِسَت الأعلام ، والغرة الواضحة وقد
تنكرت الأيام ، والبقية الصالحة وقد ذهب الكرام ، أبقاكم الله تعالى البقاء
الجميل ، وأبلغكم غاية المراد ومُنْتَهَى التأميل ، أبقى الله أن يتمكن المقام بالأندلس
بعدكم ، وأن يكون سكون النفس إلا عندكم ، سرٌّ من الكون غريب ،
ومعنى في التشاكل عجيب ، أختصر لكم الكلام ، فأقول بعد التحية والسلام :
تفاقت الحوادث ، وتعاضمت الخطوب الكوارث ، واستأسدت الذئاب الأخابث ،
ونكث الأكثر من ولد سام وحام ويافث ، فلم يبق إلا كاشح باحث ، أو مكافح
عابث ، ويا ليت شعري من الثالث ؟ فحينئذ وجهت وجهي للفاطر الباعث ،
ونجوت بنفسي لكن منجى الحارث ، وقد عبرت البحر كسير الجناح ،
دامي الجراح ، وإنني لأرجو الله سبحانه بحسن نيتكم أن يكون الفرج قريباً ،
والصنع عجيباً ، فعِمادي أعان الله على القيام بواجبه ، هو الركن الذي ما زلت
أميل على جوانبه ، ولا تريدني الأيام إلا بصيرة في الإقرار بفضله والاعتداد به ،
وقد وصلني خطابُ سيدي جلّى الشكوك بنور يقينه ، ونصح النصح
اللائق بعلمه ودينه ، وكأته نظر إلى الغيب من وراء حجاب ، فأشار بما أشار به
على سارية عمر بن الخطاب ، ومن العجب أنني عملت بمقتضى إشارته ، قبل
بلوغ إضبارته ، فله ما تضمّنه مكتوبكم الكريم من الدر ، وحرره من الكلام

الحر ، وايم الله لو تجسم لكان مَلَكًا ، ولو تنسم لكان مسكًا ، ولو قبس لكان شهابًا ، ولو لبس لكان شابًا ، فحلَّ مني علم الله تعالى محل البرء من المريض ، وأعاد الأنس بما تضمَّنه من التعريض ، والكلم المُرْزِيَّة بِقِطْعِ الرَوْضِ الأَرِيضِ ، فقبلته عن راحتكم ، وتخيَّلت أنَّه مُقيِّمٌ بساحتكم ، ثم وردتْ مَعِينَهُ الأَصْفَى ، وكلت من بركات مواعظه بالمكيال الأوفى ، وليست بأول أيادكم ، وإحالتكم على الله فهو الذي يجازيكم ، وبالحملة فالأمور بيد الأقدار ، لا إلى المراد والاختيار :

وما كلُّ ما ترجو النفوسُ بنافعٍ ولا كلُّ ما تخشى النفوسُ بضرَّارٍ انتهى .

قلت : أين هذا الكتاب من الذي قدمناه عنه في الباب الثاني ، حين أظلم بينه وبين لسان الدين الجوه وعِطْفَه إلى مُهاجراته ثاني ، وسَقَرَ في أمره إلى العُدْوَة ، واجتهد في ضرره بعد أن كان له به القدوة ، وقد قابله لسان الدين بما أذهب عن جفنه الوَسَنَ ، وألَّف فيه كما سبق « خَلْعُ الرَسَنِ » .

[ترجمة النباهي]

على أنه عرّف به في « الإحاطة » أحسن تعريف ، وشرّفه بجلاله أجمل تشريف ، إذ قال ما ملخصه^١ : علي بن عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد الله ابن الحسن بن محمد بن الحسن الجذامي المسالقي أبو الحسن ، ويُعرف بالنباهي ، هذا الفاضل قريعُ بيت مَجَادَة وِجْلالَة ، وبقية تعين وأصالة ، عَف النَّشأة ، طاهر الثوب ، مؤثر للوقار والحشمة ، خاطب للشيخوخة ، مستعجل للشيبة ، ظاهر الحياء ، متحرّك مع السكون ، بعيد الغرور ، مرهف الجوانب

١ قارن بما كتبه عنه في الكتيبة : ١٤٦ بعد أن تغيرت النفوس .

مع الانكماش ، مقتصد في الملبس والآلة ، متظاهر بالسذاجة ، بريء من النوك والغفلة ، يقظ للمعاريض ، مهتدٍ إلى الملاحن ، طرف في الجود^١ ، حافظ مقيّد طلعة إخباري ، قائم على تاريخ بلده ، شرع في تكميل ما صنف فيه ، ملازم للتقييد والتطيرير^٢ ، منقّر عن الإجازات والفوائد ، استفدت منه في هذا الغرض وغيره كثيراً ، حسن الخط ، ناظم نائر ، نثره يشف على نظمه ، ذاكر للكثير ، استظهر محفوظات منها « النوادر » للقالي ، وناهيك به محفوظاً مهجوراً ، ومسلماً غفلاً^٣ ، فما ظنك بسواه ، نشأ ببلده حرّ الطعمة فاضل الأبوة ، وقرأ به ، ثم ولي القضاء بملتماس^٣ ثم بيلش وعملها ، فسيح الخطّة مطلق الجراية ، بعيد المدى في باب التزاهة ، ماضياً غير هيوب ، حتى أربى في الزمن القريب على المحتنكين ، وغبّر في وجوه أهل الدربة ، وجرت أحكامه مستندة إلى الفتيا ، جارية على المسائل المشهورة ، ثم نُقل منها إلى النظر في أمور الحل والعقد بمالقة مضافة إليه الخطط النبوية ، وصدر له منشور من إملائي ، إلى أن قال في ترجمة نظمه : قال نظمت سمح الله تعالى لي قطعتين مؤطّأً فيهما على البيتين المشهورين ، إحداهما :

بنفسي من غزلان حزوي غزاة
تصيدُ بلحظ الطرف من رام صيدها
جمالُ محيّاها عن النسك زاجرُ
هوها بقلبي في المهامه سائرُ
مُعطرّةُ الأنفاس رائحةُ الحلّي
من الحبّ : ميعاد السلو المقابرُ
« إذا رمتُ عنها سلوةً قال شافعُ

والأخرى :

وقائلةٍ لما رأتُ شيبَ لتي
لئن ملّتَ عن سلمي فعذرک ظاهرُ

١ ق : المجون .

٢ التطيرير : التقييد في طرر الكتب .

٣ ق : بملتمامو .

زمانُ التصابي قد مَضَى لسيّله
فقلتُ لها : كلا وإن تلفَ الفتى
وهل لك بعد الشيبِ في الحبِّ عاذرُ
« سيبقى لها في مضمَرِ القلبِ والحشا
فما لهاها عند مثليَ آخرُ
سريرةٌ ودَّ يومَ تُبلى السرائرُ »

وكتب على مثال النعل الكريم ، وأهداه لمزمع سفر :

فديتك لا يهدى إليكَ أجلَ من
ومن ذلك الباب المثالُ الذي أتى
حديثُ نبيِّ الله خاتمِ رُسُلِهِ
به الأثرُ المأثورُ في شأنِ نعلِهِ
ومن فضله مهما يكنُ عند حاملِهِ
له نالَ ما يهواهُ ساعة حملِهِ
ولا سيما إن كان ذا سَفَرٍ به
فقد ظفرتُ بمانهُ بالأمنِ كلِّهِ
فدونكَ منه أيتها العَلَمُ الرضى
مثالاً كريماً لا نظيرَ مثلهِ

وقال مراجعاً عن أبيات يظهر منها غرضها :

إذا كنتَ بالقصدِ الصَّحيحِ لنا تهوى
ولا تتبَّعُ أهواءَ نفسك والتفتُ
فسلمَ لنا في حكمتنا ودعِ الشكوى
وكم من محبِّ في رضانا وحبنا
لنا حيثُ كنَّا في الرخاءِ وفي الأوا
رأنا عياناً عينَ معنى وجودِهِ
محا كلَّ ما يبدو سوانا له محوًا
وقال تحكِّمُ كيف شئتَ بما ترى
فعاجَ عن الشكوى وفوِّضَ في البلوى
فحلَّ لدينا بالخلوصِ وبالرضى
رضيتُ بما تقضي وهمتُ بما تهوى
فإن كنتَ ترجو في الصباية والهوى
محلَّ اختصاصِ نال منه المنى صَفْوًا
ومتُ في سبيلِ الحبِّ إن كنتَ مخلصاً
لحاقاً بهم فاسلكِ طريقهمُ الأضوا
هناك تُؤتَى ما تريدُ وتقتضي
لنا في الهوى تحيا حياة أُولي التقوى
وتشربُ من عينِ اليقينِ وتغتذي
ديونكَ منَّا دون مَظَلِّ ولا دعوى
بجمرِ الصفا الصِّرفِ الزلالِ لكي تروى

وقال :

لا تلجانّ لمخلوقٍ من الناسِ
وثقُ بربِّك لا تياسُ تجدُ عجباً
من يافث كان أصلاً أو من الياسِ
فلا أضربُ على عبدٍ من الياسِ

وقال :

فديتك لا تصحبُ لثيماً ، ولا تكنُ
فلا عهدَ يرعى ، لا ، ولا نعمةَ يرى
مُعينا له إنَّ اللثيمَ خؤونُ
ولا سرَّ خلٍ عن عداه يصونُ

وقال يخاطب أبا القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان :

لكَ اللهُ قلبي في هواك رهينُ
ملكْتَ بحكم الفضلِ كلِّي خالصاً
وروحِي عني إن رحلتَ ظعنُ
وملككَ للحجرِ الصريحِ يزينُ
فهب لي من نطقي بمقدارِ ما بهِ
فقد شملتنا من رضاك ملابسُ
أعنتَ على الدهرِ الغشومِ ولم تزلُ
وقصّرتَ من لم تعلم النفسُ أنه
ولاني بحمدِ الله عنه لفي غنى
أبى لي مجدٌ عن كرامِ ورثته
ونفسٌ سمتُ فوقَ السماكينِ همةُ
ولما رأته عيني مُحياك أقسمتُ
وعاد لها الأنسُ الذي كان قد مضى
بجيت نشأنا لابسين حلى التقى
أما وسنا تلكَ الليالي وطيبها
وفتيانِ صدقِ كالشموسِ وكالحيا
لئن نزحتُ تلكَ الديار فوجدنا

وروحِي عني إن رحلتَ ظعنُ
وملككَ للحجرِ الصريحِ يزينُ
يترجم سرُّ في الفؤادِ دفينُ
وسحَّ لدينا من نذاك معينُ
بدُنياك في الأمرِ المهمِّ تعينُ
خذولُ إذا خان الزمانُ يخونُ
وحسبي صبرٌ عن سواك يصونُ
وقوفاً ببابِ للكريمِ يهينُ
وما كلُّ نفسٍ بالهوانِ تدينُ
بأنك للفعلِ الجميلِ ضمينُ
بريةَ إذ شرخُ الشبابِ خدينُ
وكلُّ بكلِّ عند ذاك ضنينُ
ووجدِ غرامي ، والحديثُ شجونُ
حديثهمُ ما شئتَ عنه يكونُ
عليها له بينَ الضلوعِ أنينُ

إذا مرَّ حينٌ زاده الشوقُ جِدَّةً
 وأنتى بمسلاها ، وللبين لذعةُ
 لقد عبثتُ أيدي الزمانِ بجمعنا
 وبعدُ التقينا في محلٍّ تغرَّبُ
 فقابلتَ بالفضلِ الذي أنتَ أهله
 وغبتَ وما غابت مكارمك التي
 يميناُ لقد أوليتنا منك نعمةُ
 ويقصرُ عنها الوصفُ إذ هي كلُّها
 ولما قدمتَ الآن زاد سرورنا
 لأنك أنتَ الروحَ منا وكلِّنا
 ولو كان قدر الحبِّ فيك لقاؤنا
 ولكن قصدنا راحةَ المجد جهدنا
 هنيئاً هنيئاً أيها العَلم الرضى
 لك الحسنُ والإحسانُ والعلمُ والتقى
 وكم لك في بابِ الخلافة من يدٍ
 وقامتُ عليها للملوك أدلةُ
 فلا وجهَ إلا وهو بالبشرِ مُشرقُ
 بقيتَ لرَبِّ الفضلِ تحمي ذماره
 ودونك يا قطبَ المعالي بُنيَّةُ
 أبتك ابنَ رضوانٍ تمتُّ بודהا
 فخلُّ انتقادِ البحثِ عن هفواتها
 وخذها على علائها فحديثها

وهو بحاله الموصوفة ؛ انتهى باختصار .

ولما كتب لسان الدين الى شيخه الرئيس الكاتب أبي الحسن الجياب قصيدة أولها^١ :

أُستخرجاً كَنَزَ العقيقِ بآماقي أناشدك الرحمنَ في الرَّمقِ الباقي
فقد ضعفتُ عن حملِ صبريَ طاقتي عليك وضافتُ عن زفيرِ أطواقي

وهي طويلة أجابه عنها بقوله :

سقاني فأهلاً بالمدامة^٢ والساقى ولا نَقَلَ إلا من بدائعِ حكمةِ
فقد أنشأت لي نشوةً بعد نشوةِ فمن خطبها الفاني^٣ متاع لناظري
أعادتُ شبابي بعد سبعين حجةً وما كنتُ يوماً للمدامةِ صاحباً
ولا خالطتُ لحمي ولا مازجتُ دمي وهذا على عهدِ الشبابِ ، فكيف لي
تبصّرُ فحكماً القهوتين تخالفا وشتان ما بين المدامين فاعتبرُ
فتلك تهادى بين ظلمٍ وظلمةِ أيا علمِ الإحسانِ غيرِ منازعِ

سُلاًفاً بها قام السرورُ على ساقِ ولا كأسٍ إلا من سطورٍ وأوراقِ
تمدّ بروحانيةِ ذاتِ أذواقِ وسمعي ، وحظ الروح من خطها الباقي
فأثوابهُ قد جدّدت بعد إخلاقِ ولا قبلتها قطُّ نشأةُ أخلاقي
كفى شرّها مولايَ فالفضلُ للوآقي بها بعد ماءٍ للشيبيةِ مُهراقِ ؟
فكم بين إثباتِ لعقلٍ وإزهاقِ فكم بين إنجاحِ لسعيٍ وإخفاقِ
وهذي تهادى بين عدلٍ وإشراقِ شهادةِ إجماعٍ عليها وإصفاقِ^٤

١ انظر الكتيبة : ١٨٦ .

٢ الكتيبة : بالسقاية .

٣ الكتيبة : الباهي .

٤ الكتيبة : وإطباق .

فضائلك الحسنى عليّ تواترتُ
خزائنُ آدابٍ بعثتَ بدرّها
ولا مثلَ بكرٍ حرّةٍ عربيّةٍ
فأقسم ما البيضُ الحسانُ تبرّجتُ
بدورٌ بدتُ من أفق أطواقها على
فناظرٍ منها الأقحوانُ ثغورها
وناسبَ منها الوردُ خدّاً مورداً
وألبسَ من صنعاءٍ وشياً منمنماً
بأحلى لأفواهٍ ، وأبهى لأعين
رأيتُ بها شهبَ السماء تنزلت
ألا إنّ هذا السحرُ لا سحرُ بابلٍ
لقد أعجزتُ شكري فضائلُ ماجدٍ
تقاضى ديونَ الشعرِ مني منبهاً
فلو نشر الصادان من ملحدَيْهما
فخذُ بزمامِ الرفقِ شيخاً تقاصرتُ
فلا زلتُ تحيي للمكارم رسمها

بمنهمرٍ من سحّب فكرك غيّداقِ
إليّ ولم تمننَ بخشية إنفاقِ
زكية أخلاقٍ كريمّةٍ أعراقِ
تناجيك سرّاً بين وحيّ وإطراقِ
رياض شدتُ في قطبها ذاتُ أطواقِ
وقابل منها نرجسٌ سحرّاً أحداقِ
سقاها الشبابُ النَّضْرُ بورك من ساقِ
وحلّين من درّ نفاثسٍ أعلقِ
وأحيى لألبابٍ ، وأشهى لعشاقِ
إليّ تحييّني تحيّةً مشتاقِ
فقد سحرت قلبي المعنى فَمَن راقِ
أبرّ بأجبابٍ وأوفى بميثاقِ
رويدك لا تعجلُ عليّ بإرهاقِ
لإنصافِ هذا الدّينِ لا إذا بإملاقِ^٢
خطاه وعاهده بمعهودٍ إشفاقِ
وقدرك في أهل العُلا والنهي راقِ

قال : وكتبت إليه في غرض العتاب قصيدة أولها :

أدرنا وضوءُ الأفق قد صدع الفضا
فله عينا من رآنا وللحيا
مدامة عتب بيننا نقلها الرضى
حيّ بأفاقِ البشاشة أومّصا

١ الكتيبة : حسن .

٢ الصادان : الصابي أبو إسحاق والصاحب بن عباد .

نفرُّ إلى عدلِ الزمانِ الذي أتى
ونأسو كلومَ اللفظِ باللفظِ عاجلاً

فراجعني عنها بهذه القصيدة :

ونبراً من جورِ الزمانِ الذي مضى
كذا قدحُ الصهباءِ داوى وأمراضاً

وإن جرّهُ واشٍ بزورٍ تَمضمضاً
ولكنّها كانت طلائعَ للرضى
على معهدِ الحبِّ الصميمِ فروضاً
وإن ظنَّ سيفاً للقطيعةِ مُنتَضِياً
أتى ملكُ الرُحْمى عليها فيبيضاً
ليرمى بوسواسِ الوشاةِ فيرفضاً
تخلصَ من أدراهِ فتحمضاً
سناها بأفاقِ البسيطةِ قد أضاً
أيخفى شعاعُ الشمسِ قد ملأ الفضا؟
معاقدَ حبٍّ أحكمتها يدُ القضا
لتشييدِ مبناها الوثيقِ تعرّضاً
على البرِّ والتسكينِ والحبِّ حرّضاً
يقلبُ منها القلبَ في موقدِ الغصا
ويا ولدي البرِّ الزكيّ إن ارتضى
على ما ارتضى حكمَ المحبةِ واقتضى
أطالَ مداهِ في البيانِ وأعرضاً
كزورةِ خيلٍ بعدما كان أعرضاً
تناظرُ حسناً مذهباً ومفضضاً
مدى العمرِ في وصفي لها وهو ما انقضى
فذا الليلُ مسوداً وذا الصبحُ أبيضاً

ألا حبذا ذلك العتابُ الذي مضى
أغارت له خيلٌ فما ذعرت حمى
تألت منه بارقٌ صابٌ مزنةُ
تألاً نوراً للصدقةِ حافظاً
فإن سودَ الشيطانُ منه صحيفةً
وما كان حبُّ أحكمِ الصدقِ عهده
أعيدُ وداداً زاكيَ القصدِ وافياً
ونيةَ صدقٍ في رضى الله أخلصتُ
مِنِ الآفكِ الساعي ليخفي نورها
وكيف يحلُّ المبتلون بيفكهم
تعرض بيغي هدمها فكأنه
وحرّضَ في تنفيره فكأنما
وأوقد ناراً فهو يصلى جحيمها
أيا واحدي المعدود بالألف وحده
بعثت من الدرِّ النفيسِ فلائدأ
نتيجةُ آدابٍ وطبيعٍ مهذبٍ
ولا مثلَ بكرٍ باكرتني أنفاً
هي الروضةُ الغناءُ أينعَ زهرها
أو الغادةُ الحسناءُ راقتُ فينقضي
تطابقَ منها شعرها وجبينها

أَوْ الشَّهْبُ مِنْهَا زِينَةٌ وَهَدَايَةٌ
أَتَتْ بِبَدِيعِ الشَّعْرِ طَوْرًا مَصْرُوحًا
وَمَهَّدَتْ الْأَعْدَارَ دُونَ جَنَائِدِ
لَكَ اللَّهُ مِنْ بَرٍّ وَفِيٍّ وَصَاحِبِ
لِسَانِكَ فِي شُكْرِي مَفِيضٌ تَفْضُلًا
وَقَلْبِكَ فَاضَتْ فِيهِ أَنْوَارُ خَلْتِي
وَقَصْدُكَ مَشْكُورٌ، وَعَهْدُكَ ثَابِتٌ
فَهَلْ مَعَ هَذَا رِيَّةٌ فِي مَوَدَّةِ
فَتِحْ بُولَائِي لِأَنِّي لَكَ مَخْلُصٌ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ مَا هَبَّتِ الصَّبَا

وقال لسان الدين : من غريب ما خاطبني به قوله ١ :

أَقْسَمُ بِالْقَيْسِيْنَ وَالنَّابِغَتَيْنِ
وَبِابْنِ حُجْرٍ وَزُهَيْرِ بْنِ أَبِي
ثَمٍّ بِعَشَاقِ الثَّرِيَاءِ وَالرِّقَّةِ
وَبِأَبِي الشَّيْصِ وَدَعْبَلٍ وَمَنْ
وَوَلَدِ الْمُعْتَزِ وَالرَّضِيِّ وَالْوَائِلِ
وَإِحْتَمِ بِقُسٍّ وَبِسُجْبَانَ وَإِنْ
وَحَلَبْتِي نَثَرَهُمْ وَنَظَّمَهُمْ
إِنَّ الْخَطِيبَ ابْنَ الْخَطِيبِ سَابِقُ
رَاقِنِي الصَّحِيفَةُ الْحَسَنَاءُ الَّتِي
تَجْمَعُ مِنْ بَرَاعَةِ الْمُعْتَبَرِ إِلَى

وَشَاعِرِي طَيْسِيٍّ وَالْمَوْلِدَيْنِ
وَالْأَعَشِيْنَ بَعْدُ ثُمَّ الْأَعْمِيْنَ
بِيَّاتِ وَعَزَّةٍ وَمِيٍّ وَبَثِينِ
كَشَاعِرِي خَزَاعَةَ الْمُخَضْرَمِينَ
سَرِيٍّ ثُمَّ حَسَنِ بْنِ الْحُسَيْنِ
أَوْجِبْ حَقِّي أَنْ يَكُونَ أَوْلِيْنَ
فِي مَشْرِقِي أَقْطَارِهِمُ وَالْمَغْرِبِينَ
بِثَرِهِ وَنَظْمِهِ لِلْحَلْبَتَيْنِ
شَاهَدْتُ فِيهَا الْمَكْرَمَاتِ رَأْيَ عَيْنِ
بِرَاعَةِ الْأَلْفَاظِ كَلْنَا الْحَسَنِيْنَ

أشهدُ أنك الذي سبقتَ في طريقي الآدابِ أقصى الأمدِين
شعرٌ حوى جزالةً ورقّةً تصاغُ منه حلّةٌ للشّعريين
رسائلٌ أزهارها منثورةٌ سرورُ قلبٍ ومتاعُ ناظرين
يا أحوذياً يا نسيجَ وحدهِ شهادةٌ تنزهتُ عن قولِ مِين
بقيتَ في مواهبِ الله التي تقرُّ عينك وتملأُ اليدين
. انتهى .

[٤٤ - من سعيد الغرناطي إلى لسان الدين]

وحكى لسان الدين أن سعيد بن محمد الغرناطي الغساني استعار منه كتاباً ،
فأرسله إليه وعلى ظهره هذه الأبيات :

هذا كتابٌ كلّه معجمٌ أفحمني معناهُ إفحاماً
أعجمه منشئه أوّلاً وزاده الناسخُ إعجاماً
أسقط من إجماله جملةً وزاد في التفصيلِ أقساماً
وغيرَ الألفاظَ عن وضعها وصيرَ الإيجادَ إعداماً
فليس في إصلاحه حيلةٌ تُرجى ، ولو قوبل أعواماً

ولم أقف على جواب لسان الدين له عنها ، والله تعالى أعلم .
وولد سعيد المذكور سنة ٦٩٩ .

[٤٥ - مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين]

ومما خوطب به لسان الدين لما تقلد الكتابة العليا قولُ أبي الحسن علي بن
محمد بن علي بن البناء الوادي أشي رحمه الله تعالى :

هو العلاء جرى باليمن طائرُهُ فكان منك على الآمالِ ناصرُهُ

ولو جرى بك ممتداً إلى أمد
لقد حباه منيع العزّ خالقه
فليزه فخرأ فما خلّق يعارضه
لله أوصافك الحسنى لقد عجزت
هيات ليس عجيباً عجزُ ذي لسنٍ
هل أنت إلا الخطيبُ ابن الخطيب ومن
فإن يقصّر عن الأوصاف ذو أدبٍ
يا ابن الكرام الألى ما شبّ طفلهم
مهلاً عليك فما العلياء قافية
ولا المكارم طرساً أنت راقمه
ماذا على سابقٍ يسري إلى سنن
سِرٍ حيث شئت من العلياء متثداً
أنت الإمام لأهل الفخر إن فخرُوا
ما بعد ما حُرّته من عزة وعلاً
نادت بك الدولة النصريّ محتدها
حكيتها برداء البر مرتدياً
فالملكُ يرقلُ في أبراده مراحاً
فاهناً بها نعمة ما إن يقوم لها
وليهنها أنها ألفت مقالدها
فإنه بدرُ تمّ في مطالعها

لأعجزَ الشمسَ ما آبت عساكره
بفاضلٍ منك لا تحصى مآثره
ولا علاءٍ مدى الدنيا يفاخره
من كلّ ذي لسنٍ عنها خواطره
عن وصفٍ بحرٍ رمى بالدرّ زاخره
زانتِ حلّى الدينِ والدنيا مفاخره
فما بدا منك في التقصير عاذره
إلا وللمجد قد شدّت مآزره
ولا العلاء بسجع أنت ناثره
ولا المناقب طباً أنت ماهره
إن كان من رفته خلّ يسايره
فما أمامك سباق تحاذره
أنت الجوادُ الذي عزّت أوافره
شأؤ يطاردُ فيه المجد كابره
نداء مستنجدٍ أزرأ يوازره
وصبّحُ يمنك فجرُ السعدِ سافره
قد عمّت الأرضَ إشراقاً بشائره
من اللسانِ ببعضِ الحقّ شاكره
إلى زكيّ زكت منه عناصره
قد طبّقَ الأرضَ بالأنوار ناثره

وقال لسان الدين : وأهدى إلي قباقب خشب جوز وكتب معها :

هاكها ضمراً مطايا حسانا
نشأت في الرياض قُضباً لِدانا
وثوت بين روضةٍ وغديرٍ
مرضعاتٍ من النَميرِ لبانا

لابسات من الظلالِ بروداً
ثمّ لمّا أراد إكرامها الله
فصدتْ بابلِك العليّ ابتداراً
دونها القُضْبُ رقةً وليانا
وسنّى لها المني والأمانا
ورجّتْ في قبولك الإحسانا

قال : فأجبتة :

قد قبلنا جيادك الدُّهمَ لمّا
أقبلتْ خلفَ كلِّ حِجرٍ تبعٍ
فعنينا برعيها وفسحنا
وأردنا امتطاءها فاتخذنا
قدمتْ قبلها كتيبة سحرٍ
مثلما تجنّبُ الجيوشُ المذاكي
لم يرقْ مقلتي ولا راق قلبي
من يكنْ مُهندياً فمثلك يهدي
أن بلونا منها العتاق الحسانا
خلعتْ وصفها عليه عيانا
في ربوع العلا لها ميدانا
من شراك الأديم فيها عنانا
من كتاب سبّتْ به الأذنانا
عدّةً للقاء مهما كانا
كعلاها براعةً وبيانا
لم أجدُ للثنا عليك لسانا

وقال لسان الدين : ومن أبدع ما هز به إلى إقامة سوقه ، ورعي حقوقه ،

قوله :

يا معدنَ الفضلِ موروثاً ومكتسباً
بباب مجدكم الأسمى أخو أدبٍ
ذلّ الزمانُ له طوراً فبلّغه
والآن أركبه من كلِّ نائبةٍ
فحملته دواعي حبّكم وكفى
فهلّ سرى نسمةً من جاهكم فيها
وكلّ مجدٍ إلى عليائه انتسبا
مستصرخٌ بكمُ يستنجدُ الأدبا
من بعضِ آماله فوقَ الذي طلبا
صعبَ الأعتة لا يألو به نصبا
بذاك شافعُ صدقٍ يبلغ الأربا
خليفةُ الله فينا يطرّ الذهبا

وقال لسان الدين في « الإكليل » في حق المذكور ما صورته : فاضل يروك وقاره ، وصقر بعد مطاره ، قدم من بلده يروم للحاق بكتّاب الإنشاء وتوسل بنظم أتيق ، ونسب في نسب الإجابة عريق ، تُعرب براعته عن لسان ذليق ، وطبع طليق ، وذكاء بالأثرة خليق ، وبينما هو يُلحَم في ذلك الغرض ويُسدي ، ويعيد وييدي ، وقد كادت وسائله أن تنجح ، وليل رجائه أن يصبح ، اغتاله الحِمَام ، وخانته الأيام ، والبقاء لله تعالى والدوام ، توفي بالطاعون في عام واحد وخمسين وسبعمائة وسنه دون الثلاثين ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

[٤٦ - رسالة من لسان الدين إلى سلطان تونس]

ولما خوطب لسان الدين من سلطان تونس بما لم يحضرني الآن أجاب عنه بما نصه : « المقام الإمامي الإبراهيمي المولوي المستنصري الحفصي ، الذي كرم فرعاً وأصلاً ، وشرف جنساً وفصلاً ، وتملّى في ظلّ رعاية المجد ، من لدن المهّد ، كرمًا وخصلًا ، وصرّفت متجرّدة الأقلام ، إلى مثابة خلافته المنصورة الأعلام ، وُجوهَ عبارة الكلام ، فاتخذ من مقام إبراهيم مُصلّي ، مقامُ مولانا أمير المؤمنين الخليفة الإمام أبي إسحاق ابن مولانا أبي يحيى أبي بكر ابن الخلفاء الراشدين ، أبقاه الله تعالى تهوي إليه الأفتدة كلما انتشت بذكره ؛ وتنافس الألسنة في إحراز غاية حمده وشكره ، وتتكفل الأقدار بإنفاذ نبيه وأمره ، وتغرى عواملُ عوامله بحذف زيد عدوه وعمّره ، ويتبرع أسمر الليل وأبيض النهار بإعمال بيضه وسُمّره ، ولا زال حُسامه الماضي يغني يومه في النصر عن شهره ، والروض يحيه بمباسم زهره ، ويرفع إليه رُقع الحمد بينان قضبه الناشئة من معصم نهره ، وولي الدنيا والآخرة يمتعنا بهما بعد الإعانة على مهّره ، يُقبَلُ بساطه المعوّد الاستلام بصفحات الحدود ، الرافع

عماده ظلُّ العدل الممدود ، عبدُ مقامه المحمود ، وواردُ غَمْرٍ إنعامه غير المتزور ولا المثمود ، المثني على نعمه العميمة ، ومنححه الجسيمة ، ثناء الروض المجود ، على العهود ، ابنُ الخطيب ، من باب المولى الموجب حقّه ، المتأكد الفروض ، الثابت العهود ، المعتدّ منه بالود الجامع الرسوم والحدود ، والفضل المتوارث عن الآباء والجدود ، يسلم على مثابتها سلامَ متلو على مثلها إن وجد المثل في الثاني ، ويعوّد كماها بالسبع المثاني ، ويدعو الله تعالى لسلطانها بتشديد المباني ، وتيسير الأماني ، وينهي إلى علوم تلك الخلافة الفاروقية المقدّسة بمناسب التوحيد ، المستولية من مدارك الآمال على الأمد البعيد ، أن مخاطبتها المولوية تاهت على الملوك فارعة العلا ، مزعفّرة الحلل والحلى ، ذهبية المجلى ، تفيد العز المكين ، والدنيا والدين ، وتُرعى في الآباء والبنين ، على مر السنين ﴿صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسْرُّ النَّاطِرِينَ﴾ (البقرة : ٦٩) وقد حملت من مدحها الكريم ما أخفى للمملوك من قرة عين ، ودرة زين ، جبين الشرف الوضاح ، ومستوجب الحق على مثله من الخلق بالنسب الصّراح ، والغرر والأوضاح ، والأرجِ الفوّاح ، فاقتنى دره النفيس ، ووجد المروع^١ في جانب الخلافة التنفيس ، وقرأه لما قرأه التعظيم والتقدّيس ، وقال ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنَِّّي أُلْقِيَ إِلَيْ كِتَابٍ كَرِيمٍ﴾ (النمل : ٢٩) وإن لم يكن بلفيس ، أعلى الله تعالى تلك اليد مُطوّقة الأيادي ، ونخجلة الغمائم والغوّادي ، وأبقاها عامرة النوادي ، غالبه الأعادي ، وجعل سيفها السفاح ورأيها الرشيد وعلمها الهادي ، ووصل ما ألطف به رعيها من أشتات بر بلغت ، وموارد فضل سوّغت ، أمدتها سعادة المولى بمدد لم يضر معه البحر الهائل ، ولا العدو الغائل ، وأقام أودّها عند الشدائد الفُلك المائل ، لا بل الملك الذي له إلى الله الوسائل ، وحسب الجفن رسالتكم الكريمة لحظاً فصان وأكرم ، وعوذة فتعوذ بها وتحرم ، وتولى المملوك تنفيق عروضها

١ ص : المروج .

بانشراح صدره ، وعلى قدره ، فوقعت الموقع الذي لم يقعه سواها ، فأما الخليل فأكرم مثواها ، وجُعِلت جنان الصون مأواها ، ولو كسيت الربيع المزهرة حلالاً ، وأوردت في نهر المجرة علاً ونهلاً ، وقلدت النجوم العوالم صحلاً ، ومسحت أعطافها بمندبل النسيم ، وألحفت بأردية الصباح الوسيم ، وافترشت لمرباطها الحشايا ، وأقضمت حبات القلوب بالعشايا ، لكان بعض ما يجب ، لحقها الذي لا يجحد فضله ولا يحتجب ، وما عداها من الرقيق والفتيان ، رعاة ذلك الفريق تكفله الاستحسان ، وأطبب الاعتقاد وإن قصر اللسان ، تولى الله تعالى تلك الخلافة بالشكر الذي يُحسبُ العطاء ، والحفظ الذي يُسبَلُ الغطاء ، والصنع الذي ييسر من مطا الأمل الامتطاء ، وأما ما يختص بالملوك فقد خصه بقبوله تبركاً بتلك المقاصد التي سدها الدين ، وعددها الفضل المبين ، وأنشد الخلافة التي راق من مجدها الجبين :

قلدتني بفرائد أخرجتها من بحر جودك وهو ملتطمُ الثبج
ورعيت نسبتهما فإن سبيكة مما يلائم لونها قطع السبج

والملوك بهذا الباب النصري أعزّه الله تعالى على قدم خدمة ، وقائم بشكر منة لكم ونعمة ، وحاضر في جملة الأولياء بدعائه وحبّه ، ومتوسل في دوام بقاء أيامكم ونصر أعلامكم إلى ربّه ، وإن بعدَ بجسمه فلم يبعد بقلبه ، والسلام الكريم ، الطيب البر العميم ، يخصّها دائماً متصلاً ، ورحمة الله تعالى وبركاته « انتهى .

[٤٧ - مخاطبة من ابن البربري المألقي إلى لسان الدين]

ومما خوطب به لسان الدين قول أبي الحسن علي بن يحيى الفزاري المألقي

١ ص : جنات .

المعروف بابن البربري ، وكان ممن يمدح الملوك والكبراء :

لِيبَايِكَ أُمَّ الْأَمْلُونِ وَيَمْتَمُوا
وَمِنْ رَاحَتِي كَفَيْكَ جَدَاوِكَ تَنْهَمِي
وَأَنْتَ لَمَّا رَامُوهُ كَعَبَةٌ حَجَّهُمْ
يَطُوفُونَ سَبْعًا حَوْلَ بَابِكَ عِنْدَمَا
فِيْمُنَّاكَ يَمْنٌ لِلرَّعَايَا وَمِنَّةٌ
وَلَقِيَاكَ بِشْرٌ لِلنَّفُوسِ وَجَنَّةٌ
فِيَا وَاحِدَ الْأَرْزَامِ عِلْمًا وَمَنْصِبًا
وَمَنْ وَجْهَهُ كَالْبَدْرِ يَشْرُقُ نُورُهُ
وَمَنْ ذَكَرَهُ كَالْمَسْكَ فَضٌّ خَتَامُهُ
لَقَدْ حُزِنَتْ فَضْلَ السَّبْقِ غَيْرَ مَنَازِعِ
حَوِيَتْ مِنَ الْعَالِيَاءِ كُلِّ كَرِيْمَةٍ
وَبَاهَيْتَ أَقْلَامَ الْأَنْبَاءِ بِرَاعَةٍ
إِذَا فَاخَرَ الْأَعْجَادُ يَوْمًا فَلِئِمَّا
وَإِنْ سَكَنُوا كُنْتَ الْبَلِيغَ لَدَيْهِمْ

ومنها :

فِيَا صَاحِبَتِي نَجْوَايَ عَوْجًا بِرَامَةٍ
وَقَوْلَا لَهُ عَبْدٌ بِبَابِكَ يَرْتَجِي
فَلَيْسَ لَهُ إِلَّا عُلَاكَ وَسِيْلَةٌ
فَجَدُّ بِالَّذِي يَرْجُوهُ مِنْكَ فَمَا لَهُ
بَقِيَتْ وَنَجْمُ السَّعْدِ عِنْدَكَ طَالِعٌ
عَلَى رَبْعِهِ حَيْثُ النَّدَى وَالتَّكْرَمُ
قَضَاءُ لُبَانَاتٍ لَدَيْكَ تُتَمِّمُ
وَلَا شَيْءَ أَسْمَى مِنْ عِلَاكَ وَأَعْظَمُ
كَعْقَدِ ثَمِينٍ مِنْ ثَنَائِكَ يُنْظَمُ
يُضِيءُ لَهُ بَدْرٌ وَتَشْرُقُ أَنْجَمُ

توفي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

وممّا خوطب به قولُ أبي القاسم قاسم بن محمد الحرالي المالقي القاضي بانتقيرة^١ قبل وفاته :

وأفضلَ موصوفٍ بكلِّ المحامدِ	عليك قصرتُ المدحَ يا خيرَ ماجدِ
وموردَ جودٍ قد كفى كلَّ واردِ	ويا كهفَ ملهوفٍ ، وملجأَ خائفٍ
محاسنها أزكى وأعدلُ شاهدِ	لقد شهّرتُ بالمجدِ منك شمائلُ
حُبّيت به ، أعظّمُ بها من محامدِ	وكلُّ الذي يبدو من الفضلِ بعضُ ما
تُنادي هلمّوا فزتمُ بالمساعدِ	إذا أمّلتُ منك المكارمُ ألفتُ
فمثلكم يبغي فيا سعدَ قاصدِ	عطاؤكم جزلُ فمن أمّلَ الغنى
وأصلُ زكيُّ الفرعِ عذبُ الموردِ	ورائتُ مجدٍ كابرأ بعد كابرِ

[ترجمة أبي القاسم الحرالي]

وتوفّي المذكور بالطاعون عام خمسين وسبعمائة ، وفي حقّه يقول في « الإكليل » : مشمر في الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحذاق ، متحل للعربية ، جادّ في إحصاء خلافتها ، ومُعاطاة سُلّافها ، وربما شرست في المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهّرت أعلّاقه ، ونوزع تمسّكه بالحجّة واعتلاقه . وقال لسان الدين في ترجمة شعر المذكور : إنّه ضعيف مهزول ؛ انتهى .

[٤٩ - رسالة من المنتشاقري إلى لسان الدين]

وممّا خوطب به قول أبي الحجاج يوسف بن موسى الجذامي المنتشاقري من أهل رُنْدَة ، ونصّه :

حَبَاكَ فؤادي نيلَ بشرى وأحياكا وحيدُ بادابٍ نفائسَ حيّاكا

١ انتقيرة (Antequera) تبعد عن مالقة حوالي ٦٠ كيلومتراً شمالاً .

بدائعُ أبدَها بديعُ زمانهِ فطاب بها يا عاطرَ الروضِ ريبًا كا
 أمهديها أودعتَ قلبي علاقةً وإن لم يزل مُغرَى قديمًا بعليا كا
 إذا ما أشارَ العصرُ نحو فريدهِ فياك يَعني بالإشارةِ إيا كا
 لأتحفني لقياكَ أسنى مؤملي وهل تُحفةٌ في الدهرِ إلا بليكا كا
 وأعقتَ إتخافي فرائدكَ التي وجوبُ ثناها يا لساني أعيا كا

ووصل هذا النظم بنثر صورته : « خصصتني أيها المخصوص بمآثرِ أعياءِ
 عدُّها وحصرُها ، ومكارمِ طيبِ أرواحِ الأزاهرِ عطرُها ، وسارت الركبان
 بثنائها ، وشملت الخواطر حجة علائها ، بفرائدك الأنيقة ، وفوائدك المزرية جمالا
 على أزهار الحديقة ، ومعارفك التي زكت حقاً وحقيقة ، وهَدَت الضالَّ عن
 سبيل الأدب مهتبعه وطريقه ، وسبق تحفتك أعلى التحف عندي وهو مأمول
 لقائك ، والتمتع بالتماح سنَّاك الباهر وسنائك ، على حين امتدت لذللكم اللقاء
 أشواقِي ، وعظم من فوت استنارتي بنور محيَّاك إشفاقي ، وتردد لهجتي بما يبلغني
 من معاليلك ومعانيك ، وما شاده فكرك الوقاد من مبانيلك ، وما أهلت به بلاغتك
 من دراسه ، وما أضفيت^١ على الزمان من رائق ملبسه ، وما جمعت من أشناته ،
 وأحييت من أمواته ، وأيقظت من سِناته ، وما جاد به الزمان من حسنَّاته ،
 فلترداد هذه المحاسن من أنبائك ، وتصرفُ الألسنة بثنائك ، علفت النفسُ من
 هواها بأشدَّ علاقة ، وجنحت إلى لقائك جنوحَ والهة مشتاقة ، والحوادث الجارية
 تصرَّفُها ، والعوائق الحادثة كلما عطفت أملها إليه لا تتحفها به ولا تعطفها ،
 إلى أن ساعد الوقت ، وأسعد البخت ، بلقائكم في هذه السفرة الجهادية ، وجاد
 إسعاف الإسعاد من أمنيتي بأسنى هدية ، فلقيتكم لُقيا خَجَل ، ولمحت
 أنواركم لمحة على وَجَل ، ومحبيتي في محاسنكم الرائقة ، ومعاليكم الفائقة ، على

١ ق ص : أضيفت .

ما يعلمه ربنا عزّ وجل ، وتذكرت عند لقائكم المأمول ، لإنشاء قائل يقول :

كانت مساءلةُ الركبانِ تخبر عن محمدِ بن الخطيبِ أطيّبَ الخبيرِ
حتى التقينا فلا والله ما سمعتُ أذني بأحسنَ ممّا قد رأى بصري

قسمٌ لعمرى أقوله وأعتقده ، وأعتده وأعتمه ، فلقد بهرت منك المحاسن ،
وفُقتَ من يُحاسن ، وقصّر عن شأوكَ كلُّ بليغٍ لسن ، وسبقتَ فطنتك
النارية النورية بلاغة كل فطين ، وشهد لك الزمان أنك وحيدُه ، ورئيس
عصبتِه الأدبية وفريده ، فبورك لك فيما أنلت من الفضائل ، وأوتيت من آيات
المعارف التي بها نور الغزاة ضائل ، ولا زلت ترقى في مراتب المعالي ، موقّي
صروف الأيام والليالي « انتهى .

[٥٠ - رسالة لسان الدين إلى المتشاقري]

وهذا الخطاب جواب من المذكور لكلام خاطبه به لسان الدين نصّه :

حمدتُ على فرطِ المشقةِ رحلةً أتاحتُ لعينيّ اجتلاءً محيّاكا
وقد كنتُ بالتذكارِ في البعدِ قانعا وبالريحِ إن هبتْ بعاطرِ ريباكا
فحلّتْ لي النعمى بما أنعمتْ به عليّ فحيّاها الإلهُ وحيّاكا

« أيها الصدر الذي بمخاطبته يُباهى ويتشرف ، والعلم الذي بالإضافة إليه
يتعرف ، والروض الذي لم يزل على البعد بأزهاره الغضة يُتّحف ، دمت
تتراحم على موارد ثنائك الألسن ، ويروي الرواة من أنبائك ما يصح ويحسن ،
طلما مالت إليك النفوسُ منّا وجنحتْ ، وزجرت الطائر الميمون من رقاعك
كلّما سنحتْ ، فالآن اتضح البيان ، وصدق الأثر العيان ، ولقد كنّا للمقام
بهذه الرحال نرتمص ، ويجنُّ الظلام فلا نغتمض ، هذا يقلقه إصفار كيسه ،
وهذا يتوجّع لبعد أنيسه ، وهذا تروعه الأهوال ، وتضجره بتقلباتها الأحوال ،

فمن أنة لا تنفع ، وشكوى إلى الله تعالى تُرفع ، فلما ورد بقدمك البشير ،
وأشار إلى ثنية طلوعك المشير ، تشوفت النفوس الصدثة إلى جلائها وصقالها ،
والعقول إلى حل عقالها ، والأنفس المُفحمة إلى فصل مقالها ، ثم إن الدهر
راجع التفاته ، واستدرك ما فاته ، فلم يسمح من لقائك إلا بلمحة ، ولا بعث
من نسيم روضك بغير نفحة ، فما زاد أن هيَّج الأشواق فالتهبت ، وشنَّ
غاراتها على الجوانح فانتهبت ، وأعلَّ القلوب وأمراضها ، ورمى ثغرة الصبر
فأصاب غرَضها ، فإن رأيت أن تنفّس عن نفسٍ شد الشوق مُخَنَّقها ،
وكدَّر مشارب أنسها وأذهب رَوْنَقها ، وتتحف من آدابك بدرر تُقنِّي ، وروضة
طيبة الجحى ، فليست ببدع في شيمك ، ولا شاذة في باب كرمك ، ولولا شاغل
لا يبرح ، وعوائق أكثرها لا يُشرح ، لنافستُ هذه السحاة في القوم عليك ،
والثول بين يديك ، فتشوَّتِي إلى اجتلاء أنوارك شديد ، وتشيَّعِي إلى إبلاء الزمان
جديد « انتهى .

[ترجمة أبي الحجاج المتشاقري]

ووصف لسان الدين في « التاج المحلّي » أبا الحجاج المذكور بما صورته^١ :
حسنة الدهر الكثير العيوب ، وتوبة الزمان الجمّ الذنوب ، ما شئت من أدب
يتألق ، وفضل تعطر به النسومات وتتخلّق ، ونفس كريمة الشمائل والضرائب ،
وقريحة يقذف بحرّها بدرر الغرائب ، إلى خشية لله تعالى تحول بين القلوب
وقرارها ، وتثني النفوس عن اغترارها ، ولسان يبوح بأشواقه ، وجفن يسخو
بدرر آماقه ، وحرص على لقاء كل ذي علم وأدب ، ومن يمتُّ إلى أهل الديانة
والعبادة بسبب ، سبق بقطّره الحلبّة ، وفرع من الأدب الهضبة ، ورفع الراية ،

١ انظر ترجمة أبي الحجاج المتشاقري في الكتيبة : ١١٩ ؛ وهذه النسبة الى متشافر (Monte - Sacro) في مقاطعة أكشونة .

وبلغ في الإحسان الغاية ، فطارت قصائده كلَّ المطار ، وتغنّى بها راكب الفلّك وحادي القطار ، وتقلد خُطّة القضاء ببلده ، وانتهت إليه رياسة الأحكام بين أهله وولده ، فوضحت المذاهبُ بفضل مذهبه وحُسن مقصده ، وله شيمة في الوفاء تعلّم منها الآس ، ومؤانسة عذبة لا تستطيعها الأكواس ، وقد أثبت من كلامه ما تتحلّى به مراتب المهارق ، ويجعل طيبه فوق المفارق ، وكنت أتشوق إلى لقائه ، فلقيته بالمحلة من جبل الفتح لقياً لم تبل صدّي ، ولا شفتُ كمدّاً ، وتعذر بعد ذلك لقاءه ، فخطبته بهذه الرقعة :

حمدت على فرط المشقة رحلة

فذكر لسان الدين ما قدمنا إلى آخره .

وقد أورد جملة من مطولاته وغيرها ومؤلفاته ، ولنلخص بعض ذلك فنقول :
ومن شعر أبي الحجاج المذكور بمدح الجهة الكريمة النبوية ، مُصدراً بالنسب لبسط الخواطر النفسانية ، قوله :

لما تنهى الصبُّ في تشويقه	دررُ الدموعِ اعتاضها بعقيقه
متلهفٌ وفسؤادهُ متلهبٌ	كيف البقا بعد احتدامِ حريقه
متموجٌ بحرُ الدموعِ بخده	أنّى خلاصٌ يرتجى لغريقه
متجرعٌ صابَ النوى من هاجرٍ	ما إن يمنُّ للاعجاتِ مشوقه
يسبي الخواطرَ حسنه ببيديه	يُصبي النفوسَ جماله بأنيقه
قيدُ النواظرِ إذ يلوحُ لرامقٍ	لا تشني الأحداقُ عن تحديقه
لبسدرٍ لمحتّه كبشر ضيائه	للمسكِ نَفَحته كشرِ فتيقه
سكرتُ خواطرُ لاجيه كأنهم	شربوا من الصهباءِ كأسَ رحيقه
عطشوا لثغري لا سبيلَ لريقه	إلا كلمحهمُ للمع بريقه

١ ق : تتجلى .

ما ضرَّ مولى عاشقوه عبيده
عنه اصطباري ما أنا بمطيعه
سجعَ الحمامُ بشوقٍ ترجيعِ الهوى
وبكتُ هديلاً راعها تفريقه
وبكاءٍ أمشالي أحقُّ لأنتي
وغفَلتُ في زمنِ الشبابِ المتقضي
وبدا المشيبُ وفيه زجرُ ذوي النهي
حسبي ندامةُ آسفٍ ممّا جنى
ويروم ما خرم الهوى زمن الصبا
ويردّد الشكوى لديه تذلاً
فيصحُّ من سكر التصابي سكره
لو كنتُ يمتُّ التقي وصحبته
لأفدتُ منه فوائداً وفرائداً
لله أربابُ القلوبِ فإنهم
قاموا وقد نام الأنام فنورهم
وتأنسوا بحبيهم فلهم به
قصرتُ عنهم عندما سبقوا المدى
لولا رجاءُ تلمحٍ من نورهم
وتأرجُّ يستافُ من أرواحهم
لفنيتُ من جرّاً جرّاً ثريّ التي
ومعي رجاءُ توسّلٍ أعدده
حبي ومدحي أحمد الهادي الذي
أسمى الورى في منصبٍ وبمنسبٍ
الحقُّ أظهره عقيبَ خفائه

لو رقَّ إشفاقاً لحالِ رقيقه
مثلُ السلوِّ ولا أنا بمطيعه
فأثارَ شجوةَ مشوقه بمشوقه
ويحقُّ أن يبكي أخو تفريقه
لم أقضِ للمولى أكيدَ حقوقه
أقبحُ بنسخِ بروره بعقوقه
لو كنتُ مزدجراً لشيءِ بروقه
يصلُ النسيجَ لوزره بشهيقه
ويروم من مولاه رتقَ فتوقه
علّ الرضى يحيه دركُ لحوقه
نسخاً لحكمِ صبوحة وغبوقه
وسلكتُ إيثاراً سواءَ طريقه
عرضتُ تُسامُ لرابحٍ في سوقه
من حزبٍ من نال الرضى وفريقه
هتكَ الدجى بضياته وشروقه
بشرُّ لصدقِ الفضلِ في تحقيقه
ولسابقِ فضلٍ على مسبوقة
يحبي الفؤادَ بسيره وطروقه
سببَ انتعاشِ الروح طيبُ خلقه
من خوفها قلبي حليف خفوقه
ذخراً لصدماتِ الزمانِ وضيقة
فوزِ الأنامِ يصحُّ في تصديقهِ
من هاشمٍ زاكي النجار عريقهِ
والدينُ نظّمه لدى تفريقهِ

ونفى هُدهاه ضلالةً من جائر
 سبحان مرسله إلينا رحمةً
 والمعجزاتُ بدت بصدقِ رسوله
 كالظبي في تكليمه، والجدعِ في
 والنارِ إذ خمدتُ بنورِ ولادةِ
 والزادُ قلَّ فزاد من بركاته
 ونبوعُ ماءِ الكفِّ من آياته
 والنخلُ لما أن دعاه مشى لهُ
 والأرضُ عاينَها وقد زويت له
 وكذا ذراعُ الشاةِ قد نطقتُ له
 ورمى عداه بكفِّ حصبا فانثنت
 وعليه آياتُ الكتابِ تنزلت
 وأذيق من كأسِ المحبَّةِ صرْفها
 حاز السناءَ وناله بعروجهِ
 ولكم له من آيةٍ من ربِّه
 يا خيرةَ الأرسالِ عندِ إلهه
 علقتُ آمالي بجاهك عداةً
 وعلقتُ من جبلِ اعتمادِي عمدةً
 ولئن غدوتُ أحميدَ ذنبي لآتني
 وكسادُ سوقي مذ لحأت لبابكم
 ويحنُّ قلبي وهو في تغريبه
 وتزيد لوعته متى حثَّ السرى
 وأرى قشيبَ العمرِ أمسى بالياً

مستوثقٍ بيغوثه ويعوقه
 يهدي ويهْدِي الفضلُ من توفيقه
 وحقيقه بالمأثرات خليقه
 تخينه ، والبدرِ في تشقيقه
 وأجاج ماءٍ قد حلا من ريقه
 فكفى الجيوشَ بتمره وسويقه
 وسلامُ أحجارٍ غدت بطريقه
 ذا سرعةٍ بعذوقه وعروقه
 فقريب ما فيها رأى كسقيقه
 نطقَ اللسانِ فصيحِه وذليقه
 هرباً كمدعورِ الجنانِ فروقه
 تُتلى بعلو جلاله وبسوقه
 سبحان ساقيه بها ومذيقه
 جاز السماءَ طباقها بخروقه
 وعنايةٍ ورعايةٍ بحقوقه
 يا محرزَ العُليا على مخلوقه
 والقصدُ ليس يخيبُ في تعليقه
 لتمسكي بقويته ووثيقه
 أرجو بقصدك أن أرى كطليقه
 يقضي حصولَ نفوذه ونفوقه
 لمزاره لرُبالكِ في تشريقه
 حادٍ حداً بجماله وبنوقه
 ومرورَ دهري جدًّا في تمزيقه

وأخافُ أن أقضي ولم أقضِ المُنى
فمتى أخطُ على اللوى رحلي وقد
وأمرغُ الخدين في تربِ غدا
وأعيدُ إنشائي وإنشادي الثنا
حتى أميلُ العاشقين تطرباً
وتحمةُ التسليم أبلغُ شافعٍ
ولذي الفخار وذو الحلى ووزيره
مني السلامُ عليهم كالزهرِ في

وقال ١ :

بنفوذِ سَهْمٍ منيِّ ومُروقه
بلغتُ ركابي للحمى وعقيقه
كالمسكِ في أَرَجٍ شذا منشوقه
ببديعِ نظمٍ قريحتي ورقيقه
كالغصنِ مرَّ صَباً على ممشوقه
وثنا المديحِ حديثه وعقيقه
صديقه وأخي الهدى فاروقه
تأليفها والزهرِ في تأنيقه

هواكمُ بقلبي ما لمحكمه نسخُ
ومن نشأتِي ما إن صحَّتْ منه نشوتي
عليه حياتي مُذْ تمادت وميتي
ولي خلدٌ أضحى قنيصٌ ٣ غرامه
قتلتُ سلوي حين أحييتُ لوعي
وأغدو إلى سعدى بكرخِ علاقتي
وناصحُ كتمي؛ إذ زكت بيئاته ٥
وأرجو بتحقيقي هواكم بأن أفي
وما الحبُّ إلا ما استقلَّ ثبوته

ومِنْ أَجلِهِ جفني بمدمه يسخو
سواءً به عصر المشيب ٢ أو الشرخُ
وبعني إذا بالصُور يتفقُ النفخُ
ولا شَرَكٌ يدني إليه ولا فحُ
وما اجتيجَ بالإقرار في حالي لطحُ
وقصدي قصدي ليس سعدى ولا الكرخُ
يجولُ عليه من دموع الأسي نضخُ
فعهدٌ ولا نقضٌ ، وعقدٌ ولا فسحُ
لمبناه رصٌ في الجوانح أو رسخُ ٦

١ القصيدة في الكتيبة : ١٢١ .

٢ ق والكتيبة : الشباب .

٣ ق ص : يبيض .

٤ الكتيبة : وما صح جسمي .

٥ ق ص : أدركت ؛ ص : بينانه .

٦ ق : رض ... أو رضخ .

إذا مسلكٌ لم يستقمْ بطريقه
 بدا لضميري من سناكم تلمحٌ
 على عودِ ذلك الملح ما زلتُ نادياً
 يدي بأياديكم وقلبي شاغل

سلكتُ اعتدالاً مثلما يسلك الرخُ
 فبخٌ لعقلٍ لم يطرُ عندها بخُ
 كما تندب الورقاء فارقها الفرخُ
 فمن فكرتي نسجٌ ومن أعملي نسجُ

وقال :

إليكَ تحنُّ الثُجْبُ والثُجْبَاءُ
 تحبُّ بركابٍ تحبُّ وصولها
 فأنفاسها ما إن تني صعداؤها
 همُ عاجلوا إذ عجلَ السيرُ داءهم
 فعدتُ ودوني للحبيبِ ترحلوا
 له وعليه حبُّ قلبي وأدمعي
 بطيبة هل أرضى وتبدو سماؤها
 شذا نَفَحِها والمُحُّ منها كأنه
 فيا حادياً غنّى وللركب حادياً
 بسكع فسل عمّا أقاسي من الهوى
 وفي عالجٍ مِنِّي بقلبي لاعجٌ
 وللرقتين أرقمُ الشوقِ لادعُ
 أماكن تمكينٍ وأرضٍ بها الرضى

فهم وهَيَ في أشواقهم شركاءُ
 لأرضٍ بها بادٍ سناً وثناء
 وأنفسُهُمُ من فوقها سَعْدَاءُ
 وأشباهُ مثلي مُدْتَقُونِ بِطَاءُ
 وما قاعدٌ والراحلون سواء
 وقد صحَّ لي حبٌّ وسحَّ بكاء
 وإن تكُ أرضاً فالحبيب سماء
 ذكاء عبير والضياء ذكاء
 عناني بعدَ البعد عنكَ عناء
 وسلُّ بقباءٍ إذ يلُوح قباء
 فهلُ لي علاجٌ عنده وشفاء
 ودرياقهُ أن لو يُباح لقاء
 وأرجاءُ فيها للمشوق رجاء

وقال ١ :

أدبُ الفتى في أن يرى متيقظاً
 فإذا تمسكَ بالهوى يهوي بهِ
 لأوامرٍ من ربّه ونواه
 والحبلُ منه لمن تيقنَ واه

١ هذه المقطوعة واثنتان تاليتان في الكتيبة : ١٢٢ .

وقال :

يا من بدُنياه ظلّ في الحجِ
تطمعُ في إرثك الفلاحِ وقد
حقّقَ بأنّ النجاةَ في الشاطي
أضعتَ ما قبله منَ أشرافِ
من حجبِ نقصِ وحجبِ إسقاطِ
الذي طمعتَ بهِ

وقال :

تُرى شعروا أنّي غبطتُ نُسَيْمَةَ
كما قابلتُ زهرَ الرياضِ وقبّلتُ
ذكَتُ بتلاقي الروضِ غِيبَ الغمامِ
ثغورَ أفاحيهِ بلا لومِ لائمِ

وقال :

ورَدَ المشيبُ مبيّضاً بورودهِ
يا ليتَهُ لو كان بيّضَ بالتُّقى
ما كان من شعرِ الشبيبةِ حالكا
ما سوّدتهُ مآثمٌ من حالكا
إنّ المشيبَ غدا رداءً للردى
فإذا علاك أجدتُ في ترحالكا

وقال ١ :

لوعةُ الحبِّ في فؤادي تعاصتُ
كيفَ يبّرا منْ علّةٍ وعليها
أن تُداوى ولوّ أتى ألفُ راقِ
زائدٌ علّةُ النوى والفراقِ
فانسكابُ الدموعِ جارٍ فجارٍ
والتهابُ الضلوعِ راقِ فراقِ

ومن غرائب الاتفاق أنّه قال : كنت جالسا بين يدي الخطيب أبي القاسم
التاكروني صبيحة يوم بمسجد مالقة ، فقال لنا في أثناء حديثه : رأيت البارحة
في عالم النوم كأنّ أبا عبد الله الجلياني يأتي بي شعر في يده ، وهما :

١ الكتيبة : ١٢٢ .

كلُّ علمٍ يكون للمرء شُغلاً بسوى الحقِّ قَادِحٌ في رشاده
فإذا كان فيهِ للهِ حظٌّ فهوَ ممّا يُعِدُّهُ لمعاده

قال : فلم ينفصل المجلس حتى دخل علينا الفقيه الأديب أبو عبد الله الجلياني ،
والبيتان معه ، فعرضهما على الشيخ ، فأخبره أنه صنعهما البارحة ، فقال له كل
من في المجلس : أخبرنا بهما الشيخ قبل مجيئك ، فكان هذا من العجائب .
ولأبي الحجاج المذكور تواليف ، منها كتاب « ملاذ المستعين في بعض
خصائص سيد المرسلين » أربعون حديثاً ، وكتاب « تخصيص القرب وتحصيل
الأرب » و « قبول الرأي الرشيد في تخميس الوترية النبوية لابن رشيد »
و « انتشاق النسمة النجدية واتساق النزعات الجدية » و « غرر الأمانى المسفرت
في نظم المكفّرات » و « النفحات الرّندية واللمحات الرّندية » مجموع شعره ،
و « حقائق بركات المنام في مرأى المصطفى خير الأنام » و « الاستشفاء بالعدة
والاستشفاع بالعمدة في تخميس البردة » و « توجع الرائي في تنوع المرائي »
و « اعتلاق السائل بأفضل الوسائل » و « ملح البهيج ونفح الأريج » في ترجيز
كلام الشيخ أبي مدين من عبارات حكمية وإشارات صوفية ، وكتاب « تجريد
رؤوس مسائل البيان والتحصيل لتيسير البلوغ لمطالعتها والتوصليل » وفهرسة
روايته ، ورجز ذكر مشايخ أبي عمر الطنجي ، وكتاب « أرج الأرجاء في مزج
الخوف والرجاء » أربعون حديثاً في الرجاء والخوف .

وكان رحمه الله تعالى حياً حين ألف لسان الدين « الإحاطة » رحم الله تعالى

الجميع .

ورأيت على ظهر أوّل ورقة من « الريحانة » بخط الإمام الكبير الشهير الشيخ
إبراهيم الباعوني الدمشقي رحمه الله تعالى ما نصّه : قال كاتبه إبراهيم بن أحمد
الباعوني - غفر الله ذنوبه ، وستر عيوبه ، وبلغّه من فضله مطلوبه - صاحبُ
كتاب الريحانة ، آية من آيات الله سبحانه ، لوجه أدبه طلاقة ، ولسانه ذلاقة ،

وللقلوب به علاقة ، وفي خطّه غلاقة ، يعرفها مَنْ عرف اصطلاحه بمطالعه ،
وينفتح له بابُ فهمها بتكرير مراجعته ، فليتأمل الناظر إليه ، والمقبل عليه ، ما
فيه من الجواهر ، والنجوم الزواهر ، بل الآيات البواهر ، وليسبح الله تعالى تعجباً
من قدرته جل وعلا ، ومواهبه التي عذب ماؤها النَمِيرُ وحلا ، وليقل عند
تأمل دره النّظيم ﴿ ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ
الْعَظِيمِ ﴾ (الحديد : ٢١) ؛ انتهى .

وقوله رحمه الله تعالى « وفي خطّه غلاقة » ليس المراد به إلا صعوبة الخط
المغربي على أهل المشرق حسبما يُعلم ممّا بعده ، وإلاّ فإن خط لسان الدين رحمه
الله تعالى محمود عند المغاربة ، ولتقتصر من هذا الغرض على ما ذكر ، فإن تبعه
يطول ؛ إذ هو بحر لا ساحل له .

[نقل من الروض الأريض لابن عاصم]

وكان لسان الدين رحمه الله تعالى مؤثراً لقضاء حاجة مَنْ أمّله ، وقصد
بابه وأمّ له ، سواء كان من أودائه ، أو من أعدائه ، وقد ذكر الوزير الرئيس
الكتاب أبو يحيى ابن عاصم رحمه الله تعالى عنه في ذلك حكاية في أثناء كلام
رأيت أن أذكر جملة لما اشتمل عليه من الفائدة ، وهو أنه ذكر في ترجمة
شموس العصر من ملوك بني نصر من كتابه المسمّى بـ « الروض الأريض » في
اسم السلطان الذي كان ابن الخطيب وزيره ، وهو الغني بالله محمد بن يوسف بن
إسماعيل بن فرج بن نصر الخزرجي ، بعد كلام ما صورته^١ : كان قد جرى
عليه التمحيص الذي أزعجه عن وطنه إلى الدار البيضاء بالمغرب من إيالة بني
مرّين ، فأفادته الحنكة والتجربة هذه السيرة التي وقف شيوخننا على حقيقتها ،
وانتهجوا واضح طريقتها ، وبلغتنا منقولة بألسنة صدقهم ، معبراً عنها في عرف

١ أزهار الرياض ١ : ٥٨ - ٦٠ .

التخاطب بالعادة ، فلم يكن الوزير الكيس والرئيس الجهد يجريان من الاستقامة على قانون ، ولا يطردان من الصواب على أسلوب ، إلا بالمحافظة على ما رسم من القواعد ، والمطابقة لما ثبت من العوائد ، وكان ذوو النبل من هذه الطبقة وأولو الخدق من أرباب هذه المهن السياسية يتعجبون من صحة اختياره لما رسم ، وجودة تمييزه لما قصد ، ويرَوْن المفسدة في الخروج عنها ضربة لازب ، وأن الاستمرار على مراسمها أكد واجب ، فيتحررونها بالالتزام كما تتحرى السنن ، ويتوخونها بالإقامة كما تتوخى الفرائض ، وسواء تبادر لهم معناها ففهموه ، أو خفي عليهم وجهه رسمها فجهلوه ، حدثني شيخنا القاضي أبو العباس أحمد بن أبي القاسم الحسيني أن الرئيس أبا عبد الله ابن زمرك دخل على الشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب يستأذنه في جملة مسائل مما يتوقف عادة على إذن الوزير ، وكان معظمها فيما يرجع إلى مصلحة الرئيس أبي عبد الله ابن زمرك ، قال الشريف : فأمضاها كلها له ، ما عدا واحدة منها تضمنت نقض عادة مستمرة ، فقال له ذو الوزارتين ابن الخطيب : لا ، والله يا رئيس أبا عبد الله لا آذن في هذا ، لأننا ما استقمنا في هذه الدار إلا بحفظ العوائد .

ثم قال صاحب الروض : فلما تأذّن الله تعالى للدولة بالاضطراب ، واستحكّم الوهن بتمكن الأسباب ، عدل عن تلك القواعد الراسخة ، واستخف بتلك القوانين الثابتة ، فنشأ من المفاصد ما أعوز رفعه ، وتعددت وتره وشفعه ، واستحكّم ضرره حتى لم يمكن دفعه ، وتعذر فيه الدواء الذي يرجى نفعه ، وكان قد صحبه من الجدم ما سنّى آماله ، وأنجح بإذن الله تعالى أقواله وأعماله ، فكان يجري الأمر على رسم من السياسة واضح ، ونظر من الآراء السديدة راجح ، ثم يحفّه من الجدم سياج لا يفارقه إلى تمام الغاية المطلوبة من حصوله ، وتمكن مقتضى الإرادة السلطانية من فروعه وأصوله ؛ انتهى كلام ابن عاصم .

وإذ جرى ذكره فلا بأس أن نلمع بشيء من أحواله ، لأن أهل الأندلس كانوا يسمونه ابن الخطيب الثاني ، فنقول :

[ترجمة أبي يحيى ابن عاصم]

هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الجامع الكامل الشاعر المفلح الناثر الحجة ، خاتمة رؤساء الأندلس بالاستحقاق ، ومالك خدم البراعة بالاسترقاق ، أبو يحيى محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن عاصم ، القيسي الأندلسي الغرناطي ، قاضي الجماعة بها ، كان - رحمه الله تعالى - من أكابر فقهاؤها وعلمائها ورؤسائها ، أخذ عن الإمام المحقق أبي عبد الحسن ابن سمعت ، والإمام القاضي أبي القاسم ابن سراج ، والشيخ الراوية أبي عبد الله المتتوري ، والإمام أبي عبد الله البياني ، وغيرهم ، ومن تأليفه شرح تحفة والده ، وذكر فيه أنه ولي القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة ، ومنها كتاب « جنة الرضى في التسليم لما قدر الله تعالى وقضى » وكتاب « الروض الأريض في تراجم ذوي السيوف والأقلام والقريضة » كأنه ذيل به إحاطة لسان الدين ابن الخطيب ، وله غير ذلك ، وقد أطلت الكلام في ترجمته من كتابي « أزهار الرياض في أخبار عياض وما يناسبها مما يحصل للنفس به ارتياح وللعقل ارتياض »^١ .

ووصفه ابن فرج السبتي بأنه الأستاذ العَلَمَ الصدر المفتي القاضي رئيس الكتاب ، ومعدن السماحة ، ومنبع الآداب ؛ انتهى .

[نموذج من نثر ابن عاصم]

وقد تقدم بعض كلامه فيما مرّ ، ومن بديع نثره الذي يسلك به نهج ابن

١ انظر ص : ١٤٥ وما بعدها من الجزء الأول من أزهار الرياض .

الخطيب رحمه الله تعالى قوله من كلام جللت جملته في «أزهار الرياض» ،
واقتصرت هنا على قوله بعد الحمدلة الطويلة ما صورته^١ : أمّا بعدُ فإن الله على
كل شيء قدير ، وإتته بعباده لخبير بصير ، وهو لمن أهل نيّته ، وأخلص
طويّته ، نعم المولى ونعم النصير ، بيده الرفع والخفض ، والبسط والقبض ،
والرشد والغبي ، والنشر والطيّ ، والمنح والمنع ، والضرب والنفع ، والبطء والعجل ،
والرزق والأجل ، والمسرة والمساءة ، والإحسان والإساءة ، والإدراك والقوت ،
والحياة والموت ، إذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون ، وهو الفاعل على
الحقيقة وتعالى الله عما يقول الآفكون ، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين
كله ولو كره المشركون ، وإن في أحوال الوقت الداهية لذكرى لمن كان له
قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ
مَا يَشَاءُ﴾ (الحج : ١٨) ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ (المائدة : ١) بينما الدسوت
عامرة ، والولاة أمرة ، والفئة مجموعة ، والدعوة مسموعة ، والإمرة مطاعة ،
والأجوبة سمعاً وطاعة ، وإذا بالنعمة قد كُفِرَتْ ، والذمة قد خُفِرَتْ .

إلى أن قال : والسعيد من اتعظ بغيره ، ولا يزيد المؤمن عمره إلاّ خيراً
جعلنا الله تعالى ممّن قضى عمره بخيره ، وبينما الفرقة حاصلة ، والقطيعة فاصلة ،
والمضرة واصلة ، والحبل في انبتات والوطن في شتات ، والخلاف يمنع رعّي
مات ، والقلوب شتى من قوم أشتات ، والطاغية يتمطى لقصم الوطن وقضمه ،
ويلحظه لحظ الحائف على هضمه ، والآخذ بكظّمه ، ويتوقع الحسرة أن يأذن
الله بجمع شمله ونظّمه ، على رغم الشيطان ورغمه ، وإذا بالقلوب قد اختلفت ،
والمتنافرة قد اجتمعت بعدما اختلفت ، والأفتدة بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى
وازدلفت ، والمتضرعة إلى الله تعالى قد ابتهلت ، في إصلاح الحالة التي سلّقت ،
فألقت الحرب أوزارها ، وأدنت الفرقة النافرة مزارها ، وجلت الألفة الدينية

١ أزهار الرياض : ١ : ١٦٠ .

أنوارها ، وأوضحت العصمة الشرعية آثارها ، ورفعت الوحشة الناشبة أظفارها ،
 أعذارها ، وأرضت الخلافة الفلانية أنصارها ، وغضت الفئة المتعرضة أبصارها ،
 وأصلح الله تعالى أسرارها ، فجمعت الأوطان بالطاعة ، والتزمت نصيحة الدين
 بأقصى الاستطاعة ، وتسابقت إلى لزوم السنّة والجماعة ، وألقت إلى الإمامة الفلانية
 يَدَ التسليم والضراعة ، فتقبلت فيآتهم ، وأحمدت جيآتهم ، وأسعدت
 آمالهم ، وارترضيت أعمالهم ، وكملت مطالبهم ، وتمت مآربهم ، وقضيت
 حاجاتهم ، واستمعت مناجاتهم ، وألستهم بالدعاء قد انطلقت ، ووجهتهم في
 الخلوص قد صدقت ، وقلوبهم على جمع الكلمة قد اتفقت ، وأكفهم بهذه
 الإمامة الفلانية قد اعتلقت ، وكانت الإدالة في الوقت على عدوّ الدين قد ظهرت
 وبرقت ، إلى أن قال : وكفّت القدرة القاهرة ، والعزة الباهرة ، من عدوان
 الطاغية غوائل ، بإعزاز دين الله الموعود بظهوره على الدين كله فواتح وأوائل ،
 ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى لطيف بعباده حسبما شهد بذلك برهان الوجود ،
 ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ (إبراهيم : ٣٤) دليل على ما سوغ من
 الكرم والحدود ؛ انتهى المقصود منه ، وهو كلام بليغ ، ومن أراد جملة فعلية
 بأزهار الرياض .

[من نظم ابن عاصم]

ومن نظم ابن عاصم المذكور قوله مخاطباً شيخه قاضي الجماعة أبا القاسم
 ابن سراج ، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة ، فظن أنّه يستخبره عن سر من
 أسرار السلطان ، فأعدّه معترداً ، ولم يصدق الظن :

فديتك لا تسأل عن السرّ كاتباً فتلقاه في حالٍ من الرشدِ عاطلِ
 وتضطره إمسا لحالةٍ خائنِ أمانتهُ أو خائضٍ في الأباطلِ
 فلا فرّقَ عندي بين قاضٍ وكاتبِ وشئٍ ذا بسرٍ أو قضى ذا بباطلِ

ومن بديع ما نُظِمَ في مَدْحِ الرَّئِيسِ أَبِي يَحْيَى ابْنِ عَاصِمِ الْمَذْكَورِ قَوْلُ الْعَلَامَةِ
ابْنِ الْأَزْرَقِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

خَضَعْتُ لِمُعْطَفِهِ الْغُصُونُ الْمَيْسُ
ذُو مَبْسَمٍ زَهْرُ الرَّبِيِّ فِي كَسْبِهِ
وَمُورَدٌ مِنْ وَرْدِهِ أَوْ نَارِهِ
فَالْوَرْدُ فِيهِ مِنْ دَمُوعِي يَرْتَوِي
كَمَلْتُ مَحَاسِنَهُ فَقَدْ نَاضِرٌ
صَعْبُ التَّعْطَفِ بِالْغَرَامِ حَبِيَّتُهُ
غَرَسَ التَّشَوُّقَ ثُمَّ أَغْرَى الْوَجْدَ بِي
مَا كُنْتُ أَشْقَى لَوْ حَلَلْتُ بِجَنَّةِ
الْحَاطِظُ وَرُضَابُهُ وَعِذَارُهُ
وَلِيَالِ أَنْسٍ قَدْ أَمِنْتُ بَهْنَ مِنْ
أَطْلَعْتُ شَمْسَ الرَّاحِ فِيهَا فَاهْتَدَى
صَفْرَاءُ كَالْعَقِيَانِ فِي الْأَلْوَانِ لِأَنَّ
صُبَّتْ شَقِيقًا فَاسْتَحَالَتْ نَرْجَسًا
وَحَبَابَهَا يَغْنَى بِأَسْنَى جَوْهَرٍ
يُجَلِّي بِهَا لِلْغَمِّ مِنْهَا حِنْدِسًا
حَتَّى إِذَا عَمَشَتْ مِرَاةُ الْبَدْرِ مِنْ
نَادِيَتِهِ وَسَنَا الصَّبَاحِ مُحْضَحْصُ
يَا مُطْلِعَ الْأَنْوَارِ زَهْرًا يَجْتَنِي
بِكَ مَجْلِسُ الْأَنْسِ اطمأنَّ وَبَابِنِ عَا
بَدْرٌ بِأَنْوَارِ الْهُدَى مُتَطَّلِعُ

وَرَنَا فَهَامٌ بِمَقْلَتِيهِ الرَّجْسُ
مُتَنَافِسٌ عَنْ طَيْبِهِ مُتَنَفَسُ
يَتَنَعَّمُ الْقَلْبُ الْعَمِيدُ وَيَأْسُ
وَالنَّارُ فِيهِ مِنْ ضُلُوعِي تُقْبَسُ
وَلِوَاظِحٌ نُجْلٌ وَثَغْرٌ أَلْعَسُ
فَالْحَبُّ يُحْبِي وَالتَّعْطَفُ يُحْبِسُ
فَالْوَجْدُ يُغْرَى وَالتَّشَوُّقُ يُغْرَسُ
مِنْ وَصْلِهِ تَحِيًّا لَدَيْهَا الْأَنْفَسُ
حُورٌ بِهَا أَوْ كُوثَرٌ أَوْ سِنْدَسُ
وَاشٍ يَنْمُ وَمِنْ رَقِيبٍ يَجْرَسُ
عَاشٍ إِلَيْنَا فِي الدَّجَى وَمُغْلَسُ
نَدْمَانٍ كَالشُّهْبَانِ مِنْهَا أَكْوَسُ
فِي مَزْجِهَا فَمُورَدٌ وَمُورَسُ
أَنْفَى لَغَمِّ الْمَعْدَمِينَ وَأَنْفَسُ
قَمْرٌ عَلَيْهِ مِنَ الذُّوَابَةِ حِنْدَسُ
صَبْحٌ بَدَا تَلْقَاهُ إِذْ يَتَنَفَسُ
يَنْجَابُ عَنْهُ مِنَ الظَّلَامِ مَعْسَسُ
وَمَشْعَعُ الصُّهْبَاءِ نَارًا تُلْمَسُ
صِمٌّ اطمأنَّ مِنَ الرِّيَاسَةِ مَجْلِسُ
غَيْثٌ بِأَشْتَاتِ الْهَدَى مُتَبَجِّسُ

حامى فلم نرْتَعْ لخطبٍ يعترى
 شِيَمٌ مهذبةٌ ، وعلمٌ راسخٌ
 لو كان شخصاً ذكره لبدأ على
 ذاكم أبو يحيى به تحمى العُلا
 بيتٌ على عمَدِ الفخارِ مُطَنَّبٌ
 خِيَمٌ وعرْسٌ في حماه فكم حوى
 إنّا لنغدو هِيَمًا فينبِلُنَا
 حتى أقمنا والأمانى منهضا
 لم ندرِ قبلَ يرَاعِهَ وبنانه
 هنَّ اليراع بها يؤمَّنُ خائفٌ
 مهما انبرت فهي السهام يَرى لها
 يشفى بمأمله الشكى المعترى
 فتَقْصُ حين تُشَقُّ منها ألسنٌ
 من كلِّ وشاءٍ بأسرارِ النهى
 قد جمع الأضدادَ في حركاته
 عطشانٌ ذورِيٌّ ، بيبسٌ مشمرٌ ،
 لله من تلك اليراعِ جواذبٌ
 رُضْنَا شِماسِ القولِ في أوصافها
 وإليكما حللاً تشابه نسجها
 واهناً بعيدي باسمٍ متهللٍ
 وأحبس لواء الفخرِ موقوفاً فإنَّ

ووفى فلم نخفلٌ بدهرٍ يبخرُ
 ومكارمٌ هتُنٌ ، ومجدٌ أقدسُ
 أعطافه من كلِّ حمدٍ ملبَسُ
 وبه خلالُ الفخرِ طُرّاً تُحرسُ
 مجدٌ على متنِ السماكِ مؤسسُ
 فيه المرادُ فخيمٌ ومعرسُ
 ريباً ويوحشنا النوى فيؤنَّسُ
 تٌ وابتسنا والزمانُ مُعبَسُ
 أنَّ الذوايلَ بالغمائمِ تبجسُ
 ويحاطُ مذعورٌ ، ويغنى مُفلسُ
 وقعٌ لأغراضِ البيانِ مقرَّطسُ
 يحيا بمأمنه الحمامُ المؤيسُ
 وتسيرٌ حين تُقَطُّ منها أروسُ
 دَرِبٍ بإظهارِ السرائرِ يهجسُ
 فلذا اطرَّادُ فخاره لا يعكسُ
 غضبانٌ ذو صفحٍ ، فصيحٌ أخرسُ
 للسحرِ منكَ كأنها المغنيطسُ
 فهي التي راضتُ لنا ما يُشمسُ
 مثلي يفصلها ومثلك يلبسُ
 وافاك يجهرُ بالسرورِ ويهمسُ
 الحمدَ موقوفٌ عليك محبَسُ

قلت : وعندى الآن شك في صاحب هذه القصيدة ، هل هو قاضي الجماعة
 بغرناطة محمد بن الأزرق أو ابن الأزرق الثاني القائل فيما يكتب على السيف :

إن عمّت الأفقَ من نقع الوغى سُحُبٌ فشمّ بها بارقاً من لمع إيماضي
وإن نوتَ حركاتُ النصرِ أرضَ عِداً فليس للفتحِ إلاّ فعليَ الماضي
والله سبحانه أعلم .

[رسالة ابن عاصم إلى ابن طركاط]

ومن إنشاء الرئيس ابن عاصم المذكور ما كتب به يخاطب الكاتب أبا القاسم
ابن طركاط ، وهو : « القضاء - حفظ الله تعالى كمالك ، وأنجح آمالك - إذا
لم يحطه العدلُ من كلا جانبيه سبيلٌ معوجٌ ، ومذهب لا يوافق عليه مُناظر
ولا ينصره محتجٌ ، كما أنّه إذا حاظه العدل جادة للنجاة ، وسببٌ في حصول
رحمة الله تعالى المرتجاة ، وسوق لنفاق بضاعة العبد المُزجاة ، وأجمل العدل
ما تحلى به في نفسه الحكم ، وجرى على مقتضى ما شهدت به الآراء المشهورة
والحكيم ، حتى يكون عن البغي رادعاً ، وبالقسط صادقاً ، ولأنف الأنفةِ
من الإذعان للحق جادعاً ، وأنت أجلك الله تعالى على سعة اطلاعك ، وشدة ساعد
قيامك بالطريقة واضطلاعك ، ممن لا يُنَبَّه على ما ينبغي ، ولا يرد على طلبته
من الإنصاف المبتغي ، فلك في الطريقة القاضوية التبريز ، وأنت إذا كان غيرك
الشبهَ الذهبُ الإبريز ، ولعلمية عدلك التوشية بالنزاهة والتطريز ، وليتني كنت
لمظهرك الحكمي حاضراً ، ولإعلام القضاء بأرائك المرتضاة محاضراً ، والوازع
قد تمرّسَ بالخصوم ، وجعل المتصدي للإذن في محل المخصوم ، وأنت حفظك
الله تعالى قد قمت من غلظ الحجاب بالمقام المعصوم ، ومثلت من سعة المنزل
في الفضل والطول كالشهر المعصوم ، والباب قد سُد ، وداعي الشفاعة قد رُد ،
والميقات للإذن قد حُد ، ومطلب الأجرة المتعارفة قد بلغ الأشد ، حتى إذا قضى
الواجب ، وأذن في دخول الخصمين الحاجب ، وكبح السابقين إلى الحد الذي

لا يَعدُّونه ، وحفز^١ إيماءه مَن تعداه أو وقف دونه ، وقد حصل باللحظ واللفظ التساوي ، وأنتج المطالب الأربعة هذا اللازم المساوي ، ومجلسك قد رجح وقاره برضوى ، ومجتلاك قد فضح نوره البدر الأضوا ، وقد امترت عن سواك من القضاة بمراسم لا تليق بجملتهم معارفها ، وتخصصت عنهم بملابس تعج عجيباً من جذامهم مطارفها^٢ ، بحيث تحد لخلع النعلين حدّاً لا يتجاوز طوَاه ، وتسد في بعض الأوقات الباب سدّاً لا تُرقع بالمحاجر كُوَاه^٣ ، وتفصل بين الخصمين أحياناً بالنية^٤ دون الكلام ولكل امرئ ما نَوَاه .

« وهذه أعانك الله تعالى مكملات من العدل في الحكم وقف عياض دون تحقيق مناطها ، وأعيت ابن رُشدٍ فلم يهتد بيانه ولا تحصيله لاستنباطها ، فما بال النازحة^٥ عنك حساً ومعنى ، النازلة من تقاضي دينك بمتزلة المطول المعنى ، المعتقلة من ملكة رفق بحيث أقصاها لاعج الشوق ، المعذبة من الصباية فيك بما شب عمّره عن الطوق ، تتنفس الصعداء مما تشاهده منك من مبتدعات الجور ، وتردد البكاء على ضياع ما استعار الحسن لصفاتها من النجد والغور ، وتقضي العجب ممّا تسمع من عدلك الذي لم تجتل لمحّة من نوره ، ومن حلمك الذي أشقاها^٦ فلم تحضر لدكة طوره ، وتستصوب أنظار النحاة في منع التهيئة والقطع في العامل ، وتستجلب اصطلاح العروضيين في المديد والبسيط دون الطويل والكمال ، فهلاً راجعت فيها النظر ، وأنجزت لها الوعد المنتظر ، وكففت من

١ ص : وأحفز ؛ ق : وأحقر .

٢ إشارة إلى قول الشاعرة :

شكا الخز من روح وأنكر ريحه وعجت صجيحاً من جذام المطارف

٣ من قول الشاعر : « ورعن الكوى بالمحاجر » وأصله قول المثقب العبدى « وثقبن الوصاص لليون » .

٤ ق ص : بالبينة .

٥ أخذ يتحدث هنا - بضمير المؤنث - عن رسالة لم يحفل القاضي برد جوابها .

٦ ص : أشقاها المجد .

عيونها دموعاً مستهتة ، واجتليت من جبينها الوضاح ما أخجل بدوراً مشرقة وأهيلة ، ولم تحوجها إلى أن ينطق قرينها^١ الروحاني بالشعر على لسانها ولسانك ، ولم تضطرها في هذه المعاملة إلى ما لا ترتضيه من كفر إحسانك ، والعدر أظهر ، والبرهان أبهر ، وخلافك في العالم أشهر ، وأنت إن لم يكن ما يعصم الله تعالى منه لمقتضى الطبيعة أفهر .

« وقد أدرجتُ لك في طي هذا ما يصل إلى يدك ، وتلهج به في يومك وغدك ، منتظرة منك إطفاء الجوى بالجواب ، ومحو ما سبق من الخطأ بالخطاب ، إن شاء الله تعالى ، والله تعالى يصل سعادته ، ويحفظ مجادته ، ومعاد السلام من الشاكر الذاكر ابن عاصم وفقه الله تعالى في أوائل ذي الحجة عام خمسة وأربعين وثمانمائة » انتهى ، وهو مما لم أذكره في « أزهار الرياض » .

[ظهور بتقديم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء]

ولنذكر هنا الظهير الذي جلبته فيها^٢ بتقديم المذكور للنظر في أمور الفقهاء وغيرهم ، ونصّه : هذا ظهير كريم إليه انتهت الظواهر شرفاً علياً ، وبه تقررت المآثر برهاناً جلياً ، وراقت المفاخر قلائد وجلياً ، وتميزت الأكابر الذين افتخرت بهم الأقاليم والمحابر ، اختصاصاً مولويّاً . فهو وإن تكاثرت المرسومات وتعددت ، وتوالت المنشورات وتجددت ، أكبر^٣ مرسوم تم في الاعتقاد نظراً خطيراً ، وأحكم في التفويض أمراً كبيراً ، وأبرم في الاستخلاص عزماً أيّاً . اعتمد بمسطوره العزيز ، واختص^٤ بمشوره الذي تلقاه اليُمنُ بالتعزيز ، من لم يزل

١ قرينها : سقطت من ق .

٢ فيها : يعني في أزهار الرياض ؛ انظر ج : ١ ص : ١٧٢ .

٣ ق : أكرم .

٤ ق : واختبر .

بالتعظيم حقيقاً ، وبالإكبار خليقاً ، وبالإجلال حريراً . فهو شهير لم يزل في
 الشهرة سابقاً ، هادٍ لم يزل بالهدى ناطقاً ، بليغ لم يزل بالبلاغة درياً ، عظيم
 لم يزل في النفوس معظماً ، علم لم يزل في الأعلام مقدماً ، كريم لم يزل في الكرام
 سنياً . اشتملت منه محافل الملك على العقد الثمين ، وحلّت به المشورة في الكنف
 المحوط والحرم الأمين ، فكان في مشكاة الأمور هادياً ، وفي ميدان المرشد
 جرياً . فإلى مقاماته تبلغ مقامات الإخلاص ، وإلى مرتبته تنتهي مراتب
 الاختصاص ، فيمن حاز خصلاً ، وزين حَفلاً ، وشرف ندياً . واستكمل
 همماً ، واستحمل قلماً ، واستخدم مشرفياً . فله ما أعلى قدر هذا الشرف ،
 الجامع بين المتلد والمطرف^١ ، السابق في الفضل أمداً قصياً . الحال من الاصطفاء
 مظهرأ ، الفارع من العلاء منبرأ ، الصاعد من العز كرسيأ . حاز الفضل لإرثاً
 وتعصياً ، واستوفى الكمال حقاً ونصيأ ، ثناء أرجه كالروض لو لم يكن
 الروض ذابلاً وهدياً . نوره كالبدر لو لم يكن البدر آفلاً ، ومجد علوه كالسها
 لو لم يكن السها خفياً . فما أشرف الملك الذي اصطفاه ، وكل له حق التقريب
 ووفاه ، وأحلّه قرارة التمكين ، ومن اختصاصه بالمكان المكين ، فسبق في
 ميدان التفويض وشأى^٢ ، ورأى من الأنظار الحميدة ما رأى ، صادعاً بالحق
 إماماً علماً ، موضحاً من الدين نهجاً أمماً ، هادياً من الواجب صراطاً سويأ . بانياً
 للمجد صرحاً مشيداً ، مشهراً للعدل قولاً مؤيداً ، مبرماً للخير سبباً قويأ . فالله
 تعالى يصل لمقام هذا الملك الذي طلع في سمائه بدرأ دونه البدر ، وصدراً تلوذ
 به الصدور ، سعداً لا تمطله الأيام في تقاضيه ، ونصراً يمضي به نصل الجهاد فلا
 يزال ماضيه ، على الفتح مبنياً . ويوالي له عزاً يدود عن حرم الدين ويمنحه
 تأييداً^٣ يصبح في أعناق الكفر حديث سيفه قطعياً .

١ ق : والطارف .

٢ الأزهار : وسما ؛ ق : وشاء .

٣ هكذا في الأزهار ؛ وفي ص : وخيفة وتأيداً ، واللفظتان على الرفع في ق .

أمر به مرسوماً عزيزاً لا تبلغ المرسومات إلى مداه ، ولا يبدي آثار الاختصاص مثل ما أبداه ، عبد الله أمير المسلمين محمد الغالب بالله أيّد الله تعالى مقامه ، ونصر أعلامه ، وشكر إنعامه ، ويسرّ مرّاه ، لإمام الأئمة وعلم الأعلام ، وعماد ذوي العقول والأحلام ، وبركة حملة السيوف والأقلام ، وقدوة رجال الدين وعلماء الإسلام ، الشيخ الفقيه أبي يحيى ابن كبير العلماء ، شهير العظماء ، حجة الأكابر والأعيان ، مصباح البلاغة والبيان ، قاضي القضاة وإمامهم ، أوجد الجليّة وطود شمامهم ، الشيخ الفقيه أبي بكر ابن عاصم أبقاه الله تعالى ، ومناطق الشكر له فصيحة اللسان ، ومواهب الملك به معهودة الإحسان ، وقلائد الأيادي منه متقلدة بجيد كل إنسان ، قد تقرر والمفاخر لا تُنسب إلا لبنيها ، والفضائل لا تعتبر إلا بمن يشيد أركانها وبينها ، والكمال لا يُصفي شربه ، إلا لمن يؤمن سرّبه ، أن هذا العلم الكبير ، الذي لا يفي بوصفه التعبير ، علم بآثاره يقتدى ، وبأنظاره يهتدى ، وبإشارته يستشهد ، وبإدارته يسترشد ، إذ لا أمد علو إلاّ وقد نخطاه ، ولا مركب فضل إلاّ وقد تمّطاه ، ولا شارقة هدى إلا وقد جلاها ، ولا لبة فخر إلاّ وقد حلاها ، ولا نعمة إلا وقد أسداها ، ولا حرمة إلا وقد أبداها ، لما له في دار الملك من الخصوصية العظمى ، والمكانة التي تسوغ النعمى ، والرتب التي تسمو العيون إلى مرّتها ، وتستقبلها النفوس بالتعظيم وتلقاها ، حيث سر الملك مكتوم ، وقرطاسه محتوم ، وأمره محتوم ، والأقلام قد روضت الطروس وهي ذاوية ، وقسمت الأرزاق وهي طاوية ، شقت ألسنتها فنطقت ، وقطت أرجلها فسبقت ، ويبست فأثمرت إنعاماً ، ونكست فأظهرت قواماً ، وخطت فأعطت ، وكتبت فوهبت ، ومشقت ففرقت ، وأبرمت فأنعمت ، فكم يسرت الجبر ،

١ ص : على (علا) .

٢ ق : وقطمت .

وعفرت الهزبر ، وشنتت المسامع ، وكيثت المطامع ، وأقلت فيما ارتفع
من المواضع ، وأحلت لما امتنع من المراضع ، فهي تنجز النعم ، وتحجز النقم ،
وتبث المذاهب ، وتحث المواهب ، وتروض المراد ، وتنهض المراد ، وتحرس
الأكناف ، وتغرس الأشراف ، مصيخة لنداء هذا العماد الأعلى ، طامحة لمكانه
الذي سما واستعلى ، فيما يملئ عليها من البيان الذي يقر له بالفضل ، الملك الضليل ،
ويشهد له بالإحسان ، لسان حسان ، ويحكم له بيري القوس^١ ، حبيب بن أوس ،
ويهم بما من الأساليب عنده ، شاعر كنده ، ويستمر سحبه الثرة ، فصيح
المعرة ، إلى منثور تزيل الفقر فقره ، وتدرّ الرزق درره ، لو أنهبي إلى قس
إياد لشكر في الصنعة أياديه ، واستمر سحبه وغواديه ، أو بلغ إلى سحبان
لسحره ، وما فارقه عشيته ولا سحّره ، ولو رآه الصابي لأبدي إليه من صوته
ما أبدي ، أو سمعه ابن عباد لكان له عبدا ، أو بلغ بديع الزمان لهجر بدائمه ،
واستتر بضائمه ، أو أتخف به البستي لاتخذه بستانا ، أو عرض على عبد الحميد
لأحمد من صوبه هتانا ، فأعظم به من عال لا ترقى ثنيته ، ولا تحاز مزيته ،
ولا يرجم أفته ، ولا يكتم حقه ، ولا ينام له عن اكتساب الحمد ناظر ، ولا
ينقاس به في الفضل مناظر ، وهل تقاس الأجادل بالبعث ، أو الحقائق بالأضغاث ؟
ألا وإن بيته هو البيت الذي طلع في أفته كل كوكب وقاد ، ممن وشج
به للعلوم اتقاء وانتقاد ، وترامى به للمدارك ذكاء وانتقاد ، فأعظم بهم أعلاماً
وصدوراً ، وأهلاً وبدوراً ، خلدت ذكرهم الدواوين المسطرة ، وسرت في
محامدهم الأنفاس المعطرة ، إلى أن نشأ في سمائهم هذا الأوحده ، الذي شهرة
فضله لا تجحد ، فكان قمرهم الأزهر ، ونيرهم الأظهر ، ووسيلة عقدهم
الأنفس ، ونتيجة مجدهم الأقدس ، فأبعد في المناقب أماده ، ورفع الفخر وأقام
عماده ، وبني على تلك الأساس المشيدة ، وجرى لإدراك تلك الغايات البعيدة ،

١ ق : براء النفوس .

فسبق وجلتى ، وشتف بذكره المسامع وحتلى ، ورفع المشكل ببيانه ، وحرر
 الملتبس ببرهانه ، إلى أن أحله قضاء الجماعة ذروة أفقه الأصد^١ ، وبوآه عزيز
 ذلك المقعد ، فشرف الخطه ، وأخذ على الأيدي المشتطة ، لا يراقب إلا ربّه ،
 ولا يضمّر إلا العدل ووجه ، والمجلس السلطاني أسماه الله تعالى يختصه بنفسه ،
 ويفرغ عليه من حلال الاصطفاء ولبسه ، ويستمطر فوائده ، ويجرب بأنظاره
 حقوق الملك وعوائده ، فكان بين يديه حكماً مقسّطاً ، ومقسماً لحظوظ
 الإنعام مقسّطاً ، إلى أن خصّه بالكتابة المولوية ، ورأى له ذلك حق الأولوية ،
 إذ كان والده المقدس نعم الله تعالى ثراه ، ومنحه السعادة في أخراه ، مشرف ذلك
 الديوان ، ومعلي ذلك الإيوان ، يجبر رقاغ الملك فتروق ، وتلوح كالشمس
 عند الشروق ، فحلّ ابنه هذا^٢ الكبير شرفاً ، الشهير سلفاً ، مرتبته التي سمّت ،
 وافترت به عن السعد وابتسمت ، فسحبت به للشرف مطارف ، وأحرزت به
 من الفخر التالد والطارف ، فهو اليوم في وجهها غرّة ، وفي عينها قرّة ، والله
 هو في ملاحظة الحقائق ورعيها ، وسمع الحجج ووعيها ، فلقد فضل بذلك أهل
 الاختصاص ، وسبقهم في تبين ما يشكل منها وما يعتاص ، إذ المشكلة معه
 جليلة الأغراض ، والآراء لديه آمنة من مأخذ الاعتراض ، فكم رتبة عمرها
 بدويها ، فأكسبها تشريفاً وتنوياً ، وعلى ذلك فأعلام قضاة الوطن ، ومن عبّر
 منهم وقطن ، مع أقدارهم السامية ، ومعاليهم التي هي للزهر مسامية ، إنتما
 رقتهم وساطته التي أحسنت ، وزينت بهم المجالس وحسنت ، فيه^٣ أمضوا
 أحكامهم ، وأعملوا في الأباطيل احتكامهم ، وكتبوا الرسوم ، وكتبوا
 الخصوم ، وحلوا دسّت القضاء ، وسلوا سيف المضاء ، وفي زمانه تخرّجوا ،

١ ق : الأسد .

٢ ص : ذلك .

٣ كذا في ص ق ؛ وفي الأزهار : فيه .

وفي بستانه تأرجوا ، ومن خلقه اكتسبوا ، وإلى طرقة انتسبوا ، وعلى موارد
حاموا ، وحول فوائده قاموا ، وبتعريفه عرفوا ، وبتشريفه شرفوا ، وبصفاته
كلفوا ، وبعرفاته وقفوا ، فأمنوا مع انسكاب سحب إفادته من الجذب ،
وقاموا بذلك الفرض بسبب التدب ، وهل العلماء وإن عمّت فوائدهم ،
وانتظمت بيجاد الأذهان فرائدهم ، إلا من أنواره مستمدون ، وإلى الاستفادة
من أنظاره ممتدون ، وببركاته معتدون ، وبأسبابه مشتدون ، فيه اجتنيت من
أفنان المنابر ثمراتهم ، وتأرجت في روضات المعارف زهراتهم ، وبه عمروا
الحلق ، واثلق من أنوارهم ما اثلق ، إذ كل من اصطناعه محسوب ، وإلى
بركته منسوب ، فهو بدرهم الأهدى ، وغيثهم الأجدى ، وعقدهم المقتنى ،
وروضهم المجتنى ، وبدر منازلهم ، وصدر محافظهم .

وعلى ما أعلى المقام المولوي من مكانه ، وقضى به من استمكانه ، واعتمد
من لإبرامه ، وأبرم من اعتماده ، ومهد من لإكرامه ، وكرم من مهاده ، واختص
من علاه ، وأعلى من اختصاصه ، واستخلص من حلاه ، وحلا من استخلاصه ،
ووفى من تكرمه ، وكرم من وفائه ، واصطفى من مجده ، ومجد من اصطفاؤه ،
وقدم من براعته ، وحكم من يراعته ، وشقق من كتابته ، وأنطق من خطابته ،
وسجل من أنظاره ، وعجل من اختياره ، فذكا ذكره ، وسطا سطره ، وأمعن
معناه ، وأغنى مغناه ، أشار أيده الله تعالى باستئناف خصوصيته وتجديدها ،
وإثبات مقاماته وتجديدها ، لتعرف تلك الحدود فلا تتخطى ، وتكبر تلك
المراتب فلا تستعطي ، فأصدر له شكر الله تعالى لإصداره ، وعمر بالنصر داره ،
هذا المنشور الذي تأرج بمحامده نشره ، وتضمن من مناقبه البديع فراق
طيه ونشره ، وغدا وفرائد المآثر لديه موجدة مكونة¹ ، وأصبح للمفاخر مالكا
لما أتى به مدونه ، وخصه فيه بالنظر المطلق الشروط ، الملازم للتفويض ملازمة

١ ق : مكنونه ؛ ص : مكنونه .

الشرط للمشروط ، المستكمل الفروع والأصول ، المستوفي الأجناس والفصول ، في الأمور التي تخصص بأعلام القضاة الأكابر ، وكتاب القضاة ذوي الأقالام والمحابر ، وشيوخ العلم وخطباء المنابر ، وسائر أرباب الأقالام القاطن منهم والعابر ، بالخرصة العلية ، وجميع البلاد النصرية ، تولى الله تعالى جميع ذلك بعمهود ستره ، ووصل لديه ما تعود من شفع اللطف ووتره ، يحوط مراتبهم التي قُطفت من روضاتها ثمرات الحكم وجُنِيَت ، ويراعي أمورهم التي أقيمت على العوائد وبُنِيَت ، وحقوقهم التي حُفِظت لهم في المجالس السلطانية ورُعيت ، ويحل كل واحد منهم في منزلته التي تليق ، ومرتبته التي هو بها خَلِيق ، على ما يقتضي ما يعلم من أدواتهم ، ويخبر من تباين ذواتهم ، ويُرَشِّح كل واحد إلى ما استحقه ، ويؤتي كل ذي حق حقه ، اعتماداً على أغراضه التي عدلت ، وصدحت على أفنانها من الأفواه طيور الشكر وهَدَاكَت ، واستناداً في ذلك إلى آرائه ، وتفويضاً له في هذا الشأن بين خالصاء الملك وظُهَرَاءه ، وذلك على مقتضى ما كان عليه أعلام الرياسة الذين سبقوا ، وانتهضوا بهمهم واستبقوا ، كالشيخ الرئيس الصالح أبي الحسن ابن الجيّاب ، والشيخ ذي الوزارتين أبي عبد الله ابن الخطيب ، رحمهما الله تعالى .

فليقم أبقاه الله تعالى بهذه الأعمال التي سَمَتَ واعتزّت ، ومالت بها أعطاف العدل واهتزّت ، وسار بها الخبر حيث السرى ، وصار بها الحق مشدود العرى ، وعلى جميع القضاة الأمضياء ، والعلماء الأرضياء ، والخطباء الأوليياء ، والمقرئين الأركياء ، وحملة الأقالام الأحظياء ، أن يعتمدوا هذا الولي العماد في كل ما يرجع إلى عوائدهم ، ويختص في دار الملك من مراتبهم وفوائدهم ، وما يتعلّق بولاياتهم وأمنياتهم ، ويليق بمقاصدهم ونياتهم ، فهو الذي يسوغهم المشارب ، ويبلغهم المآرب ، ويستقبل العلي بالعلي ، والعاطل بالخلي ، والمشكل بالجلي ، والمفرق بالتاج ، والمقدمة بالإنتاج ، وعلى ذلك فهذا المنشور الكريم قد أقرهم على ولاياتهم وأبقاهم ، ولقاهم من حفظ المراتب ما رقاهم ، فليَجْرُوا

على ما هم بسبيله ، وليهتدوا بمرشد هذا الاعتناء ودليله ، وكتب في صفر عام
سبعة وخمسين وثمانمائة ؛ انتهى .

قلت : وإنما أتيت به لوجوه : أحدها ما يتعلق بلسان الدين إذ وقعت
الإشارة إلى مرتبته في آخره ، والثاني ما اشتمل عليه من الإنشاء الغريب ، والثالث
معرفة حال الرئيس أبي يحيى ابن عاصم وتمكّنه من الرياسة ، لأننا بنينا هذا الكتاب
على ذكر ما يناسبه من أبناء أهل المغرب ، لكون أهل هذه البلاد المشرقية ليس
لهم بها عناية ، والرابع أن بعض أكابر شيوخنا ممن ألف في طبقات المالكية
لما عرف بأبي يحيى ذكره في نحو أسطر عشرة ، وقال : هذا الذي حضرني من
التعريف به ، والخامس أن ابن عاصم المذكور كما قاله الوادي آشي وغيره كان
يدعى في الأندلس بابن الخطيب الثاني ، ويعنون بذلك البلاغة والبراعة والرياسة
والسياسة .

رجع إلى أخبار لسان الدين فنقول :

وأما كتب التأليف باسم لسان الدين رحمه الله تعالى ، فقد قال في «الإحاطة» لما
أجرى ذكر ذلك ما صورته: وأما ما رفع إليّ من الموضوعات العلمية ، والوسائل
الأدبية ، والرسائل الإخوانية ، لما أقامني الملك صنماً يعتمد ، وخيالاً إليه
يستند ، صادرة عن الأعلام ، وحملة الأعلام ، ورؤساء النثر والنظام ، فجَمَّ
يضيق عنه الإحصاء ، ويعجز عن ضم نشره الاستقصاء ، وربما تضمّن هذا الكتاب
كتاب «الإحاطة» منه كثيراً ، ومنظوماً كثيراً ، ودرّاً كثيراً ، جرى في أثناء الأسماء ،
وانتمى إلى الإجابة أكرم الانتماء ، غفر الله تعالى لي ولقائله ، فما كان أولاني
ولياه بستر زوره ، وإغراء الإضراب بفروره ، فأهون بما لا ينفع ، وإن ارتفع
الكلم الطيب لا يرفع ، اللهم تجاوز عنا بفضلك وكرمك ؛ انتهى .

وقد تقدم في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن الكرسوطي القاسي
نزيل مالقة وصاحب التأليف العديدة أنه ألف تقييداً على قواعد الإمام القاضي

أبي الفضل عياض رحمه الله تعالى برسم ولد لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله
تعالى ، وكذلك غير واحد من أهل عصره ، قصدوه بالنظم والنثر ، وهي سنة
الله سبحانه وتعالى في عباده ، إذ السلطان سوق يُجَلَّب إليها ما ينفق فيها ، والله
سبحانه وتعالى وليُّ المكافأة ، لا ربَّ غيره ، ولا مأمول سواه ^١ ؛ انتهى .

١ ص : ولا . . . سواء : سقطت من ص ؛ وإلى هنا انتهت نسخة ص ، وفي آخرها « انتهى الجزء
الثالث من نفع الطيب تاريخ الإمام العالم العلامة أحمد المقرئ المالكي » .

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثره الذي عبقّ أريجُ البلاغة من نفحاته ، ونظّمه الذي تألّق نور البراعة من لمحاته وصفحاته ، وما يتصل به من أجزاله وموشحاته ، ومناسبات رائقة في فنون الأدب ومصطلحاته .

اعلم - سلك الله تعالى بي وبك أوضح محجّه ، وجعلنا ممّن انتحى صوب الصواب ونهجه - أن هذا الباب ، هو المقصود بتأليف هذا الكتاب ، وغيره كالتبّع له ، وها أنا أذكر ما حضرني الآن من بنات أفكار لسان الدين التي هي بالمحاسن متقنة ، وللبدائع متعلة ، فأقول :

أما نثره فهو البحر الزخار ، بل الدر الذي به الافتخار ، وناهيك أن كتبه الآن في المغرب قبلة أرباب الإنشاء التي إليها يصلّون ، وسوق دررهم النفيسة التي يزينون بها صدور طروسهم ويحلون ، وخصوصاً كتابه «ريحانة الكتاب ونُجعة المتاب» فإنه ، وإن تعددت مجلداته ، على فنّ الإنشاء والكتابة مقصور ، وقد اشتمل على السلطانيات وغيرها ومخاطباته لأهل المشرق والمغرب على لسان ملوك الأندلس الذين علّم بلاغتهم منصور ، وقد تركت نسختي منه في المغرب ، ولو حضرتني لكفتني عن هذه الفوائد التي أتعبت خاطرني في جمعها من مقيداتي التي صحبتها معي ، وهي قليلة .

وقد مرّ في هذا الكتاب جملة من نثره ونظمه ، والذي نجلبه هنا زيادة على

ما سبق .

وقال رحمه الله تعالى في «الإحاطة» عند ترجمة نثره ما صورته : وأما النثر

فبحر زاخر ، ومدى طوله مستاخر ، وإنك لم يفخر عليك كفاخر ، وقد مرّ
منه في تضاعيف هذا الديوان كثير ، ونحن نجلب منه ما يشير إليه مُشير ؛ انتهى .

١ - فمن ذلك قوله في غرض التحميد ممّا افتتح به الكتاب في التاريخ المتضمن
دولة بني نصر^١ : « الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك ، ودول الأملاك كأنجم
الأحلاك ، تطلعها من المشارق نيرة ، وتلعب بها مستقيمة أو متحيرة ، ثم تذهب
بها غائرة متغيرة ، السائق^٢ عَجَل ، وطبع الوجود مرتجِل ، والحِي من الموت
وجِل ، والدهر لا معتذر ولا خَجَل ، بينما ترى الدّست عظيم الزحام ،
والموكب شديد الالتحام ، والوزعة تشير ، والأبواب يقرعها البشير ، والسرور
قد شمل الأهل والعشير ، والأطراف تلمها الأشراف ، والطاعة يشهرها الاعتراف ،
والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف ، والرايات تُعقّد ، والأعطيات
تُنقّد ، إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسوت لا مؤمّلة ولا مزورة ، والحركات
قد سكنت ، وأيدي الإدالة قد تمكنت ، فكأنما لم يسمر سامر ، ولا نهى
ناه ولا أمر أمر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ﴿ إنما مثلُ الحياة
الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلف به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح ﴾
(الكهف : ٤٥) .

٢ - ومن ثره قوله في استدعاء إمداد وحضّ على الجهاد : « أيها الناس
رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس قد دهم العدو قضمه الله تعالى
ساحتهم ، ورام الكفر خذله الله تعالى استباحتهم ، وزحفت أحزاب الطواغيت
إليهم ، ومد الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله تعالى أقوى ، وأنتم
المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم الغريب فلا
تحضروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه ، الجهاد الجهاد فقد تعين ،

١ يريد كتاب اللحة البدرية ، انظر مقدمته ص : ٩ .

٢ اللحة : السابق .

الجارّ الجارّ فقد قرر الشرع حقه وبيّن ، الله الله في الإسلام ، الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله في وطن الجهاد في سبيل الله ، قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه ، أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة أعانكم الله تعالى عند الشدائد ، جدّدوا عوائد الخير يصل الله تعالى لكم جميل العوائد ، صلوا رحم الكلمة ، واسوا بأنفسكم وأمواكم تلك الطوائف المسلمة ، كتاب الله بين أيديكم ، وألسنة الآيات تنادىكم ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمة فيكم ، والله سبحانه يقول فيه ﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم ﴾ (الصف : ١٠) ومما صح عنه قوله « من اغبرت قدماه في سبيل الله حرّمهما الله على النار » لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم « من جهز غازياً في سبيل الله فقد غزا » ، أدركوا رمقَ الدين قبل أن يفوت ، بادروا عليل الإسلام قبل أن يموت ، احفظوا وجوهكم مع الله تعالى يوم يسألكم عن عبادته ، جاهدوا في الله بالألسن والأقوال حق جهاده :

ماذا يكون جوابكم لنييكم وطريقُ هذا العذرِ غير ممهّدِ
 إن قال لمُ فرطتمُ في أمّتي وتركتموهم للعدوِّ المعتدي
 تالله لو أنّ العقوبةَ لم تُخفْ لكفى الحيا من وجه ذاك السيّدِ

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بث لنا الحميّة في البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك ، بأحبابك وأوليائك ، يا خير الناصرين ، اللهم أفرغ علينا صبراً وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمأ كثيراً . انتهى .

٣ - ومن ذلك قوله في صداق أمره السلطان بإنشائه لكبير الشرفاء بفاس في فصل منه تضمن ذكر أوليتهم واستيطانهم لتلك المدينة ما صورته :
 « فضرب بفاس - عمرها الله تعالى - حلته ، وأورث منها بالبقعة الزكية

الرفيعة سراته وجليته ، فتبوأوا من ذلك الغور ، المعشب الروض الأرج النور ،
هالة سعد ، وأفق برق ورعد ، ودست وعيد ووعد ، يتناقلون رُتَبَ الشرف
الصريح كابرأ عن كابر ، ويروي مسلسل المجد عن بيتهم الرفيع الجدد كل حريص
على عوالي المعالي مثابر :

فالكف عن صلة ، والأذن عن حسن والعين عن قرّة ، والقلب عن جابر
حيث الأنوف الثم والوجوه الغر ، والعزة القعاء والنسب الحر ، والقواطم في
صدف الصون من لدن الكون كأنهن الدر ، آل رسول الله ونعم الآل ، والموارد
الصادقة إذا كذب الآل ، ومن إذا لم يُصَلَّ عليهم في الصلاة حَبِطَتْ منها الأعمال ،
طلبيبة الراكب ، ونيشدة الطالب ، وسراة لؤي بن غالب ، وملتقى نور الله
تعالى ما بين فاطمة الزهراء وعلي بن أبي طالب . انتهى ، وهو طويل لم يحضرني
منه الآن سوى ما ذكرته .

٤ - ومن ذلك قوله رحمه الله تعالى : كتبت إلى بعض السادة الفضلاء ،
وقد بلغني مرضه أيام كان الانزعاج عن الأندلس إلى الإيالة المرينية^١ :
« وردت علي من فنتي التي إليها في معركة الدهر أتحيز ، وبفصل فضلها في
الأقدار المشتركة أتميز ، سحاة سرت وساءت ، وبلغت من القصدين^٢ ما
شاءت ، أطلع بها سيدي صنيعه وده من شكواه على كل عابث في السويداء ، موجب
اقتحام البيداء ، مضمم نار الشفقة في فؤاد لم يبق من صبره إلا القليل ، ولا من
إفصاح لسانه إلا الأنين والأليل ، ونوى مدت لغير ضرورة يرضاهما الخليل ،
فلا تسأل عن ضنين تطرقت اليد إلى رأس ماله ، أو عابد نوزع في تقبل أعماله ،
أو أمل ضويق في فذلكة آماله ، لكني رجحت دليل المفهوم على دليل المنطوق ،
وعارضت القواعد الموحشة بالفروق ، ورأيت الخطأ يبهر والحمد لله تعالى ويروق ،

١ مر في الباب الرابع ص : ٤٣ أن هذا النص من رسالة خاطب بها أبا القاسم ابن رضوان .

٢ ق : القصد .

واللفظ الحسن تومض في حبره للمعنى الأصيل بروق ، فقلت : ارتفع الوصَب ، وردَّ من الصحة المغتصَب ، وآلة الحس والحركة هي العصب ، وإذا أشرق سراج الإدراك دل على سلامة سليطه ، والروح خليط البدن والمرء بخليطه ، وعلى ذلك فبليد احتياطي لا يقنعه إلاّ الشرح ، فبه يسكن الظمأ البرح ، وعُذراً عن التكليف فهو محل الاستقصاء والاستفسار ، والإطناب والإكثار ، وزندُ القلق في مثلها أورى ، والشفيق بسوء الظن مُغرى ، والسلام .

٥ - ومن نثر لسان الدين ما ذكره في «الإحاطة» في ترجمة أبي عبد الله الشُّدَيْد وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الأنصاري الجبائي الأصل ثم المالقي إذ قال ما صورته^١:

« جملة جمال^٢ من خط حسن واضطلاع بحمل كتاب الله ، بلبل دَوْح السبع المثاني ، وماشطة عروس أبي الفرج ابن الجوزي ، وآية صُفْعُه ونسيج وحده في حسن الصوت وطيب النغمة ، اقتحم لذلك دسوت الملوك ، وجر أذيال الشهرة^٣ ، عذب الفكاهة ، ظريف المجالسة ، قادراً على المحاكاة ، متسوراً حمى الوقار ، مليئاً داعي الانبساط ، قُلد شهادة الديوان بمالقة فكان مُغار حبْل الأمانة ، شامخ مارن النزاهة ، لوحاً للألقاب ، وعزّزت ولايته ببعض الألقاب النبيلة ، وهو الآن الناظر في أمور الحِسْبَة ببلده ، ولذلك خاطبته برقعة أداعبه بها وأشير إلى أصداده بما نصه :

يا أيها المحتسبُ الجزلُ ومن لديه الجدُّ والهزلُ
يهنيك والشكرُ لمولى الورى ولايةٌ ليس لها عزلُ

كتبت أيها المحتسب ، المنتمي إلى النزاهة المنتسب ، أهنيك ببلوغ تمنيك ، وأحذرك

١ الإحاطة ، الورقة : ١٢ .

٢ الإحاطة : مجموع خلال .

٣ الإحاطة : الصحة .

من طمع نفس بالغرور تمنيك ، فكأنني بك وقد طافت بركابك الباعة ، ولزم
أمرك السمع والطاعة ، وارتفعت في مصانعتك الطماعة ، وأخذت أهل الريب
بغته كما تقوم الساعة ، ونهضت تقعد وتقيم ، وسطوتك الريح العقيم ، وبين
يديك القسطاس المستقيم ، ولا بد من شرك يُنصب ، وجماعة على ذي جاه تعصب^١ ،
ودالة يمت بها الجناب الأخصب ، فإن غضضت طرفك ، أمنت على الولاية
صرفك ، وإن ملأت ظرفك^٢ ، رحلت عنها حرفك ، وإن كففت فيها كفك ،
حفك العز فيمن حفك ، فكن^٣ لقالى المجبنة قالياً ، ولحوت السلة سالياً ، وأبد
لدقيق الحواري زهد حواري ، وازهد فيما بأيدي الناس من العواري ، وسر
في اجتناب الحكواء ، على السيل السواء ، وارضض في الشواء ، دواعي الأهواء^٤ ،
وكن على الهراس^٥ وصاحب ثريد الراس شديد المراس ، وثب على طبيخ الأعراس
ليثاً مرهوب الافتراس ، وأدب أطفال الفسوق في السوق ، لا سيما من كان قبل
البلوغ والبسوق ، وصمم على استخراج الحقوق ، والناس أصناف فمنهم خسيس
يطمع منك في أكلة ، ومُستعد عليك بوكرة أو ركلة ، وحاسد في مطية تُركب
وعطية تُسكب ، فاخفض للحاسد جناحك ، وسدد إلى حربه رماحك ، وأشبع
الحسيس منهم مرقه فإنه حنق ، ودُس له فيها عظماً لعله يخنق ، واحفر لشريرهم
حفرة عميقة ، فإنه العدو حقيقة ، حتى إذا حصل ، وعلمت أن وقت الانتصار
قد اتصل ، فأوقع وأوجع ولا ترجع ، وأولياءه من الشياطين^٥ فافجع ، والحق^٥
أقوى ، وأن تعفو أقرب للتقوى ، سدك الله تعالى إلى غرض التوفيق ، وأعلقتك

١ الإحاطة : تتصّب .

٢ ملأ ظرفه : كناية عن قبول الهدية والرشا .

٣ الإحاطة : وارضض في الشوا دواعي الهوى .

٤ الهراس : صانع الهريسة .

٥ الإحاطة : من حذب الشيطان .

من الحق بالسبب الوثيق ، وجعل قدومك مقروناً برخص اللحم والزيت والدقيق « انتهى .

٦ - ومما كتب به لسان الدين إلى علي بن بدر الدين الطوسي بن موسى ابن رحو بن عبد الله بن عبد الحق من مدينة سلا ما نصه :

« يا جملةَ الفضلِ والوفاءِ ما بمعاليك منْ خَفَاءِ
عندي بالودِّ فيكَ عَقْدٌ صَحْفَهُ الدَّهْرُ باكتفاءِ
ما كنتُ أقضي حلاكَ حقاً لو جئتُ مدحاً بكلِّ فاءِ
فأولِ وجهِ القبولِ عذري وحسبك^١ الشكُّ في صفاءِ

سيدي الذي هو فصل جنسه ، ومزية يومه على أمسه ، فإن افتخر الدين من أبيك ببدرة افتخر منك بشمسه ، رحلت على المنشل والقرارة ، ومحل الصبوة والفرارة ، فلم تتعلق نفسي بذخيرة ، ولا عهد جيرة خيرة^٢ ، كتعلقها بتلك الذات التي لطفت لطافة الراح ، واشتملت بالمجد الصُّراح ، شفقة أن تصيبها معرة والله تعالى يقيها ، ويحفظها ويُبقيها ، إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوائل ، والصد عن ضده منحرف بالطبع ومائل ، فلما تعرفت خلاص سيدي من ذلك الوطن ، وإلقاءه وراء الفرضة^٣ بالعطن ، لم تبق لي تعلّة ، ولا أحرصتني له علّة ، ولا أوتي جمعي من قلّة ، فكثبت أهنيء نفسي الثانية بعد هناء نفسي الأولى ، وأعترف للزمان باليد الطولى ، فالحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته ، وأحيا الأنس بعد مماته ، سبحانه لا مبدل لكلماته ، وإياه أسأل أن يجعل العصمة حظ سيدي ونصيبه ، فلا يستطيع حادث أن يصيبه ، وأنا أخرج له عن بث كمين ، ونصح أنا به قمين ،

١ ق : وجنب .

٢ خيرة : سقطت من ق .

٣ ق : العرصة .

بعد أن أسبر غوره ، وأحبر طوره ، وأرصد دوره ، فإن كان له في التشريق أمل ، وفي ركب الحجاز ناقة وجمل ، والرأي فيه قد نجحت منه نية وعمل ، فقد غني عن عرف البقرات ، بأزكى الثمرات ، وأطفاً هذه الجمرات ، برمي الجمرات ، وتأنس بوصل الشرى ووصل السراة ، وأنا به إن رضيني أرضى مُرافق ، ولواء عزى به خافق ، وإن كان على السكون بناؤه ، وانصرف إلى الإقامة اعتناؤه ، فأمر له ما بعده ، والله يحفظ من الغير سعده ، والحق أن تحذف الأبهة وتختصر ، ويحفظ اللسان ويغضّ البصر ، وينخرط في الغمار ، ويخلّي عن المضمار ، ويجعل من المحظور مداخلة من لا خلاق له ، ممن لا يقبل الله تعالى قوله ولا عمله ، فلا يكتم سرّاً ، ولا يتطوق من الرجولة زراً ، ويرفض زمام السلامة ، وترك العلامة على النجاة علامة ، وأما حالي فكما علمتم مُلّازم كين ، ومهبط تجربة وسن ، أزجي الأيام ، وأروم بعد التفرق الالتئام ، خالي اليد ، مليء القلب والخلد ، بفضل الواحد الصمد ، عامل على الرحلة الحجازية التي أختارها لكم ولنفسى ، وأصل في التماس الإعانة عليها يومي بأمسي ، أوجب ما قررته لكم ما أنتم أعلم به من ود قررته الأيام والشهور ، والخلوص المشهور ، وما أطلت في شيء عند قدومي على هذا الباب الكريم إطالتي فيما يختص بكم من موالاته ، وبذل مجهود القول والعمل في مرضاته ، وأما ذكركم في هذه الأوضاع فهو ممّا يقر عين المجادة ، والوظيفة التي ينافس فيها أولو السيادة ، والله يصل بقاءكم ، وييسر لقاءكم ، والسلام « انتهى .

٧ - ومن نثر لسان الدين ما أثبتته في « الإحاطة » في ترجمة ابن خلدون صاحب التاريخ الذي تكرر نقلنا منه في هذا التأليف :

ولنذكر الترجمة بجملتها فنقول : قال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصه : « عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن

إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي ، من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نبهاء ثوار الأندلس ، ويُنسب سلفهم إلى وائل بن حجر ، وحاله عند القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفة ، انتقل سلفه من مدينة إشبيلية عن نباهة وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك ، فاستقر بتونس منهم ثاني المحمدين محمد بن الحسن ، وتناسلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة ، وتصرف جدُّ المترجم به في القيادة . وأما المترجم به فهو رجل فاضل ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، باهر الحصل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصي الزي ، عالي الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوي الجأش ، طامح لقنن الرياسة ، خاطب للحظ ، متقدم في فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخط ، مغرى بالتجلة ، جواد حسن العشرة ، مبدول المشاركة ، مقيم لرسم التعين ، عاكف على رعي خلال الأصالة ، مفخر من مفاخر التخوم المغربية . قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال ، والعربية على المقرئ الزواوي وغيره ، وتأدب بأبيه ، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله ابن جابر الوادي آشي ، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله ابن عبد السلام ، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطحي ، والرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي ، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الآبلي وانتفع به ، انصرف من إفريقية منشئه بعد أن تعلق بالخدمة السلطانية على الحداثة ، وإقامته لرسم العلامة بحكم الاستنابة ، عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، وعرف فضله ، وخطبه السلطان مُنْفَقُ سوق العلم والأدب أبو عنان فارس بن علي بن عثمان ، واستحضره بمجلس المذاكرة فعرف حقه وأوجب فضله ، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستة وخمسين ، ثم عظم عليه حمل الخاصة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التأني ، وشفوفه بثقوب الفهم وجودة الإدراك ، فأغروا به

١ ق : واستقدمه واستحضره .

السلطان إغراء عَصَدَه ما جُبِلَ عليه عهدئذٍ من إغفال التحفظ ممّا يريب لديه ، فأصابته شدة تخلصه منها أجله ^١ ، كانت مغربة في جفاء ذلك الملك وهناة جواره ، وإحدى العواذل لأولي الهوى في القول بفضله وعدم الخشوع وإهمال التوسل وإيادة المكسوب في سبيل النفقة والإرضاخ على زمن المحنة وجار المنزل الخشن ، إلى أن أفضى الأمر إلى السعيد ولده ، فأعتهب قيّم الملك لحينه ، وأعادته إلى رسمه ، ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم ، وكان له به الاتصال قبل تسوغ المحنة بما أكد حُظوته ، فقلده ديوان الإنشاء مطلق الجرايات محرر السهام نبيه الرتبة ، إلى آخر أيامه . ولما ألت الدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله مدبر الأمر ، وله إليه وسيلة وفي حليه شركة وعنده حق ، رابه تقصيره عمّا ارتمى إليه أمله ، فساء ما بينهما بما آل إلى انفصاله عن الباب المريني ، وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة ، واهتز له السلطان ، وأركب خاصته لتلقيه ، وأكرم وفادته ، وخلع عليه وأجلسه بمجلسه ، ولم يدخر عنه بيراً ومؤاكلة ومراكمة ومطايبة وفكاهة » .

٨ - وخاطبني لما حل بظاهر الحضرة مخاطبة لم تحضرني الآن ، فأجبتة عنها بقولي ^٢ :

حللت حلول الغيث في البلد المحل
على الطائر الميمون والرحب والسهل
يميناً بمن تعنو الوجوه لوجهه
من الشيخ والطفل المهدأ والكهل
لقد نشأت عندي للقياك غبطة
تُنسي اغتباطي بالشبية والأهل
أقسمت بمن حجت قريش لبيته ، وقبر صُرفت أزمة الأحياء لميته ، ونور ضُربت
الأمثال بمشكاته وزيتته ، لو خيرت أيها الحبيب الذي زيارته الأمانة السنية ، والعارفة

١ ق : الأجل .

٢ أوردها ابن خلدون في التمرين : ٨٢ .

الوارفة ، واللطيفة المطيفة ، بين رجح الشباب يقطرُ ماء ويرفُ نماء ، ويغازل
عيون الكواكب فضلاً عن الكواكب إشارة وإيماء ، بحيث لا الوخط يلمُ بسياج
لمته ، أو يقدح ذُبالةً في ظلمته ، أو يقوم حواريه في ملته ، من الأحابش وأمته ،
وزمانه رَوْح وراح ، ومغدى في التعيم ومراح ، وقصف صراح ، ورقى وجراح ،
وانتحاب واقتراح ، وصدور ما بها إلاً انشراح ، ومسرات تردفها أفرح ، وبين
قدومك خليع الرسن ، ممتعاً والحمد لله باليقظة والوسن ، محكماً في نسك الجنيذ
أو فتك الحسن ، ممتعاً بظرف المعارف ، مائلاً أكف الصيارف ، ماحياً بأنوار
البراهين شُبّه الزخارف ، لما اخترت الشباب وإن راقني^١ زمنه ، وأعياني ثمنه ،
وأجرت سحائب دمعِي دِمْتُهُ ، فالحمد لله الذي رقى جنون اغترابي ، وملّكني
أزمة آرابي ، وغبطني بمائي وترابي ، ومألف أترابي ، وقد أغصني بلذيد شرابي ،
ووقع على سطورهِ العتبرة إضرابي ، وعجلتُ هذه مُعَبَّطَةً بمناخ المطية ،
ومنتهى الطية ، وملتقى السعود غير البطية ، وتبني الآمال الوثيرة الوطية ، فما
شئت من نفوس عاطشة إلى ربيك ، متجملة بزيبك ، عاقلة خطي مهريتك ، ومولى
مكارمه نشيدة أمثالك ، ومظان مثالك ، وسيصدق الخبر ما هنالك ، ويسع فضل
مجدك في التخلف عن الإصحار^٢ ، لا بل اللقاء من وراء البحار ، والسلام .

٩ - ولما استقر بالحضرة جرت بيني وبينه مكاتبات أقطعها الظرف جانبه ،
وأوضح الأدب مذاهبه ، فمن ذلك ما خاطبته به وقد تسرّى جارية رومية اسمها
هند صبيحة الابتاء بها :

أوصيك بالشيخ أبي بكره ° لا تأمنن° في حالةٍ مكره°
واجتنب الشك إذا جئته ° جنبك الرحمن ما تكره°

١ ق والتعريف : شافعي .

٢ الإصحار : الخروج لتلقيه خارج البلد .

سيدي لا زلت تتصف بالوالج ، بين الخلاخل والدمالج ، وتركض فوقها
 ركض الهمالج ، أخبرني كيف كانت الحال ، وهل حطت بالقاع من خير
 البقاع الرحال ، وأحكم بمرود المرادة الاكتحال ، وارتفع بالسقيا الإعمال ،
 وصح الانتحال ، وحصحص الحق وذهب المحال ، وقد طولعت بكل بشري
 وبشر ، وزفت هند منك إلى بشر ، فله من عشية ، تمتعت من الربيع بفروش
 مؤشية ، وأبدلت منها أي آساد وحشية ، وقد أقبل ظبي الكناس ، من الديماس ،
 ومطوق الحمام ، من الحمام ، وقد حسنت الوجه الجميل التطرية ، وأزيلت
 عن الفرع الأنيث الأبرية ، وصقلت الحدود فكأنها الأمرية^١ ، وسلطت الدالك
 على الجلود ، وأغرقت النورة بالشعر المولود ، وعادت الأعضاء يزلق عنها اللمس ،
 ولا تنالها البنان^٢ الخمس ، والسحنة يجول في صفحتها الفضية ماء النعيم ، والمسواك
 يلبي من ثنية التنعيم ، والقلب يرمى من الكف الرقيم^٣ بالمقعد المقيم ، وينظر
 إلى نجوم الوشوم فيقول : إني سقيم ، وقد تفتح ورد الخضر ، وحكم لزنبي
 الضفيرة بالظفر ، واتصف أمير الحسن بالصدود المغتفر ، ورش بماء الطيب ،
 ثم أعلق بياله دخان العود الرطيب ، وأقبلت الغادة ، يهديها اليمن وتزفها السعادة ،
 فهي تمشي على استحيا ، وقد ذاع طيب الريا وراق حسن المحيا ، حتى إذا نزع
 الحف ، وقبلت الأكف ، وصخب المزمار وتجاوب الدف ، وذاع الأرج ،
 وارتفع الحرج ، وتجوّز اللوى والمنعرج ، ونزل على بشر بزيارة هند الفرج ،
 اهتزت الأرض وربت ، وعوصيت الطباع البشرية فأبت ، ولله در القائل^٤ :

ومرت فقلت : متى نلتقي ؟ فهششت اشتياقاً إليها الخبيثُ
 وكاد يمزقُ سربالهُ فقلت : إليك يساقُ الحديثُ

١ لعل الأبرية جمع برى بمعنى التراب ؛ والأمرية : المرايا جمع مرآة .

٢ البنان : سقطت من ق .

٣ الرقيم : المزين .

٤ ينسب البيتان لبشار (فصل المقال : ٤٦) وفي الثاني منهما المثل «إليك يساق الحديث» .

فلما انسدل جنح الظلام ، وانتصفت من غريم العشاء الأخيرة فريضة السلام ،
 وخاطت خيوط المنام عيون الأنام ، تأتّى دنو الجلسة ، ومسارقة الجلسة ، ثم عضه
 النهد ، وقبله الفم وأخذ ، وإرسال اليد من النجد إلى الوهد ، وكانت الإمالة القليلة
 قبل المد ، ثم الإفاضة فيما يغبط ويرغب ، ثم الإماطة لما يشوش ويشغب ، ثم
 إعمال المسير ، إلى السرير^١ :

وصرنا إلى الحسنى ، ورقّ كلامنا ورُضتُ فذلتُ صعبةً أيّ إذلالِ

وهذا بعد منازعة للأطواق يسيرة ، يراها الغيد من حسن السيرة ، ثمّ شرع
 في النكة ، ونزع الشكة^٢ ، وتهيئة الأرض العزاز^٣ عمل السكة ، ثمّ كان الوحي
 والاستعجال ، وحمي الوطيس والمجال ، وعلا الجزء الخفيف ، وتضافرت
 الحصور الهيف ، وتشاطر الطبع العفيف ، وتواتر التقييل ، وكان الأخذ الوبيل ،
 وامتاز الأنوك من النبيل ، ومنها جائر وعلى الله قصد السبيل ، فيا لها من نعم
 متداركة ، ونفوس في سبيل القحة متهالكة ، ونفّس يقطع حروف الخلق ،
 وسبحان الذي يزيد في الخلق ، وعظمت الممانعة ، وكثرت باليد المصانعة ، وطال
 التراوغ والتزاور ، وشكّي التحاور ، وهنالك تختلف الأحوال ، وتعظم الأهوال ،
 وتخسر أو تريح الأموال ، فمن عصاً تنقلب ثعباناً مبيئاً ، ونونة^٤ تصير تينياً ،
 وبطل لم يهمله المعترك الهائل ، والوهم الزائل ، ولا حال بينه وبين قرنه الحائل ،
 فتعدى فتكة السليّك إلى فتكة البرّاض ، وتقلد مذهب الأزارقة من الخوارج
 في الاعتراض^٥ ، ثم شق الصف ، وقد خضب الكف ، بعد أن كان يصيب البوسى

١ البيت لامرئ القيس ، ديوانه : ٣٢ .

٢ ونزع الشكة : سقطت من ق .

٣ العزاز : الصلبة .

٤ النونة : السكة ؛ وفي العبارات كنايات تنطوي على الغمز والسخرية .

٥ الاعتراض : عدم المبالاة بالقتل في حال الخروج أو الإقدام على القتل الجماعي .

بطعنته ، وبيوء بمقت الله ولعنته :

طعنت ابن عبد الله طعنة ناثر لها نَفَذٌ لولا الشعاع أضاءها^١

وهناك هدأ القتال ، وسكن الخبال ، ووقع المتوقع فاستراح البال ، وتشوف إلى مذهب الثنوية من لم يكن للتوحيد بمبال ، وكثر السؤال عن المبال ، بما بال ، وجعل الجريح يقول وقد نظر إلى دمه ، يسيل على قدمه :

إني له عن دمي المسفوك معتذر أقول حَمَلْتُهُ في سفكه تعباً^٢

ومن سنان^٣ عاد عناناً ، وشجاع صار جباناً ، كلما شابته شائبة ربيه ، أدخل يده في جيبه ، فأنجحرت الحية ، وماتت الغريزة الحية ، وهناك يزيغ البصر ، ويخذل المنتصر ، ويسلم الأشر ، ويغلب الحصر ، ويحفّ اللعاب ، ويظهر العاب^٤ ، ويحقق الفؤاد ، ويكبو الجواد ، ويسيل العرق ، ويشد الكرب والأرق ، وينشأ في محل الأمن الفسّاق ، ويدرك فرعون الغرق ، ويقوى اللعاج ويعظم الحرق ، فلا تزيد الحال إلاّ شدة ، ولا تعرف تلك الجائحة المؤمنة إلاّ ردة :

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأولٌ ما يجني عليه اجتهاده^٥

فكم مغرى بطول اللبث ، وهو من الخبث ، يؤمّل الكرة ، ليزيل المعرة ، ويستنصر الخيال ، ويعمل باليد الاحتيال :

إنك لا تشكو إلى مصمّتٍ فاصبر على الحمل الثقيل أو مت^٦

١ البيت لقيس بن الخطيم ، ديوانه : ٧ .

٢ ق : التعبا .

٣ عطف على قوله فيما سبق : « فمن عصا تنقلب . . . إلخ » .

٤ ق : اللعاب ؛ والعباب : الميب .

٥ ق : فأكثر .

٦ المصمت : الذي يهّم إذا شكوت إليه ؛ وهذا من الأمثال ، (انظر اللسان - صت -) .

ومعتذر بمرض أصابه ، جرَّعه أوصابه ، ووجع طرقه ، جلب أرقه ، وخطيب
أرتج عليه أحياناً ، فقال : سيحدث الله بعد عسر يسراً وبعد عي بيانا ؛ اللهم إنا
نعوذ بك من فضائح الفروج إذا استغلقت أقفالها ، ولم تتسم بالنجيع أغفالها ، ومن
معزات الأقدار ، والنكول عن الأبيكار ، ومن التزول عن البطون والسرر ،
والجوارح الحسنة الغرر ، قبل ثقب الدرر ، ولا تجعلنا ممن يستحيي من البكر
بالغداة ، وتعلم منه كلال الأداة ، وهو مجال فضحت فيه رجال ، وفراش
شكيت فيه أوجال ، وأعملت روية وارنجال ، فمن قائل :

أرفعه طوراً على إصبعي ورأسه مضطرباً أسفله
كالخنس المقتول يلتقى على عودٍ لكي يطرح في مزبلته

وقائل :

عدمتُ من أيري قُوى حسه يا حسرة المرء على نفسه
تراه قد مال على أصله كحائطٍ خرَّ على أسه

وقائل :

أيحسدني إبليسُ داءين أصبحا برجلي ورأسي دُملاً وزكاما
فليتهدما كانا به وأزيدهُ رخواوةً أيرٍ لا يطيقُ قياما
إذا نهضتُ للنيك أزبابُ معشري توسدَ إحدى خصيتيه وناما

وقائل :

أقولُ لأيري وهو يرقب فتكةً به : خبتَ من أيرٍ وعالتك داهيه
إذا لم يكن للأيرِ بختٌ تعذرت عليه وجوهُ النيكِ من كل ناحيه

وقائل :

تعقفَ فوقَ الخصيتين كأنه رشاء إلى جنبِ الركيّةِ ملتفٌ

كفرخ ابن ذي يومين يرفع رأسه إلى أبيه ثم يدركه الضعف
وقائل :

تكرش أيري بعدما كان أملسا وكان غنياً من قواه فأفلسا
وصار جوابي للمها إن مررت بي «مضى الوصل لإمنية تبعث الأسي»
وقائل :

بنفسي من حبيته فاستخف بي ولم يخطر الهجران يوماً على بالي
وقابلي بالغور والنجد بعدما حططت به رحلي وجردت سربالي
وما أرتجي من موسر فوق تكة عرضت له شيئاً من الحشف البالي

هموم لا تزال تُبكي ، وعلل الدهر تُشكي ، وأحاديث تُقص وتُحكي ، فإن
كنت أعزك الله سبحانه من النمط الأول ، ولم تقل :

وهل عند رسم دارس من معول^١

فقد جنيت الثمر ، واستطبت السمر ، فاستدع الأبواق من أقصى المدينة ، واخرج
على قومك في ثياب الزينة^٢ ، واستبشر بالوفود ، وعرف المسمع عازفة الجود ،
وتبجح بصلابة العود ، وإنجاز الوعود ، واجن رمآن النهود ، من أغصان القدود ،
واقطف بينان اللثم أقاح الثغور وورد الخدود ، وإن كانت الأخرى فأخف الكمد ،
وارضَ الثمد ، وانتظر الأمد ، وأكذب التوسم ، واستعمل التيسم ، واستكتم
النسوة ، وأفض فيهن الرشوة ، وتقلد المغالطة وارتكب ، وجيء على قميصه
بدم كذب ، واستنجد الرحمن ، واستعن على أمرك بالكتمان :

١ صدر هذا البيت « وإن شفائي عبرة مهراقة » وهو من معلقة امرئ القيس .

٢ يشير إلى زهوه كأنه قارون .

لا تُظْهَرَنَّ لِعَاذِلٍ أَوْ عَاذِرٍ حَالِيكَ فِي الضَّرَاءِ وَالسَّرَاءِ^١
فَلرَحْمَةُ المُنْفِجِيعِينَ حَرَارَةٌ فِي القَلْبِ مِثْلَ شِمَاتَةِ الأَعْدَاءِ

وانتشق الأرج ، وارتقب الفرج ، فكم غمام طما ﴿وما رميت إذ رميت ولكن
الله رمى﴾ (الأنفال : ١٧) واملِكِ بعدها عِنانَ نفسِكَ حَتَّى تَمَكِّنَكَ الفُرْصَةَ ،
وترفع إليك القصة ، ولا تشره إلى عمل لا تفيء منه بتمام ، وخذ عن إمام ،
ولله درُّ الحارث بن هشام^٢ :

الله يعلمُ ما تركتُ قتالهم حتى رموا مهري بأشقر مزبدٍ
وعلمتُ أني إن أقاتل دونهم أقتلُ ، ولم يضرر عدوي مشهدي
فقررتُ منهم والأجبةُ فيهم طمعاً لهم بعقاب يومٍ مفسدٍ

واللبانات تلين وتجمح ، والمآرب تدنو وتنزح ، وتحرن ثمّ تسمع ، وكم من
شجاع خام^٣ ، ويقظ نام ، ودليل أخطأ الطريق ، وأضلّ الفريق ، والله عز وجل
يجعلها خلة موصولة ، وشملاً أكنافه بالخير مشمولة ، وبنية أركانها لركائب اليُمن
مأمولة ، حتى تكثر خدم سيدي وجواريه ، وأسرته وسراريه ، وتضفو عليه نعم
باريه ، ما طورِد قنيص ، واقتحم عيص ، وأدرك مرام عويص ، وأعطي زاهد
وحرَم حريص ؛ والسلام .

[بقية ترجمة ابن خلدون عن الإحاطة]

توالياه — شرح البردة شرحاً بديعاً دل به على انفساح ذرعه ، وتفنن إدراكه

١ ق : السراء والضراء .

٢ قالها حين فر عن أصحابه يوم بدر وعيره حسان بالفرار بقوله :

إن كنت كاذبة الذي حدثني فنجوت منجى الحارث بن هشام

وانظر حماسة البحري : ٤٠ .

٣ خام : حاد وجبن .

وغزارة حفظه ، ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، وعلق للسلطان أيام نظره في العقليات تقييداً مفيداً في المنطق ، ولخص محصل الإمام فخر الدين الرازي ، وبه داعبته أول لقيه ، فقلت له : لي عليك مطالبة فإنك لخصت محصلي ، وألّف كتاباً في الحساب ، وشرع في هذه الأيام في شرح الرجز الصادر عني في أصول الفقه بشيء لا غاية فوقه في الكمال .

وأما نثره وسلطانياته السجعية فخلُج بلاغة ، ورياض فنون ، ومعادن إبداع ، يفرغ عنها يراعه الجريء ، شبيهة البداءات بالخواتم ، في نداوة الحروف ، وقرب العهد بجزية المداد ، ونفوذ أمر القريحة ، واسترسال الطبع .

وأما نظمه فهض لهذا العهد قُدماً في ميدان الشعر ، ونقده باعتبار أساليبه فائثال عليه جوّه ، وهان عليه صعبه ، فأتى منه بكل غريبة .

خاطب السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الكريم عام اثنين وستين وسبعمائة بقصيدة طويلة أولها^١ :

أسرقتني في هجري وفي تعذيبي	وأطلسن موقف عبرتي ونحبي
وأبين يوم البين وقفة ساعة	لوداع مشغوف الفؤاد كئيب
لله عهد الطاعنين وغادروا	قلبي رهين صباية ووجيب
غربت ركائبهم ودمعي سافح	فشرت بعدهم بماء غروبي ^٢
يا ناقعاً بالعتب غلة شوقهم	رحماك في عدلي وفي تأنيبي
يستعذب الصب الملام وإنتي	ماء الملام لدي غير شرب ^٣
ما هاجني طرب ولا اعتاد الجوى	لولا تذكر منزل وحبيب
أهفو إلى الأطلال كانت مطلقاً	للبدري منهم أو كناس ريب

١ القصيدة في التعريف : ٧٠ .

٢ الغروب : الشئون ، أي مجاري الدموع .

٣ الشريب : العذب ؛ وفي التعريف : شروب .

عبثت بها أيدي البلى وترددت
تبلى معاهدها وإنَّ عهودها
وإذا السديارُ تعرضتْ لمُتيمِّمٍ
ليه على الصبرِ الجميلِ فإنه
لم أنسها والدهرُ يثني صَرفه
والدارُ مونيقةٌ محاسنها بما
يا سائقَ الأظعانِ تعتسفُ الفلا
متهافتاً عن رحلِ كلِّ مدللٍ
تتجاذبُ التفحاتُ فضلَ رداثه
إن هام من ظلمِ الصبايةِ صحبه
أو تعترض مسراهمُ سُدفُ الدجى
في كلِّ شعبٍ مُنيّةٌ من دونها
هلاً عطفتْ صدورهنَّ إلى التي
فتومُّ من أكنافِ يثربَ مأمناً
حيثُ النبوةُ آياها مجلوةٌ
سرٌّ غريبٌ لم يحجبهُ الثرى

ومنها بعد تعديد معجزاته صلى الله عليه وسلم :

يا سيّدَ الرُّسلِ الكرامِ ضراعةٌ
عاقَتْ ذنوبي عن جنابكِ والني
لا كالألى صَرفوا العزائمَ للتقى
تقضي مني نفسي وتذهبُ حُوبي
فيها تعلّني بكلِّ كذوبِ
فاستأثروا منها بخيرِ نصيبِ

١ الإسماعيل : سير الليل ، والتأويب : سير النهار .

٢ الحوب : الإثم .

في الله بين مضاجع وجنوب
 صفحاً جميلاً عن قبيح ذنوبي
 فبفضل جاهك ليس بالسبب
 يا خير مدعوٍ وخير مجيب
 فيما لذكرك من أريج الطيب
 في مدحك القرآن كل مطيب
 تُسدي إلي الفوز بالمرغوب
 وأحط أوزاري وإصر ذنوبي
 إنضاء كل نجيسة ونجيب
 ما شئت من خبب ومن تقرب
 أنفاس مشتاق إليك طروب
 حنوا لمغناها حنين النيب
 إرث الخلافة في بني يعقوب
 يَغشى مئثارُ النقع كل سبب^١
 من كل خوار العنان^٢ لعوب
 في متدى الأعداء غير معيب
 والعز شيمة مرتجى ومهيب

لم يخلصوا لله حتى فرّقوا
 هب لي شفاعتك التي أرجو بها
 إن النجاة وإن أتيت لأمريء
 إنني دعوتك واثقاً بإجابتي
 قصرت في مدحي فإن بك طيباً
 ماذا عسى يبغي المطيل وقد حوى
 يا هل تبلغني الليالي زورة
 أمحو خطيئاتي بإخلاصي بها
 في فتية هجرنا المنى وتعودوا
 يطوي صحائف ليلهم فوق الفلا
 إن رتم الحادي بذكرك رددوا
 أو غرد الركب الخلي بطيبة
 ورثوا اعتساف البيد عن آبائهم
 الطاعنون الخيل وهي عوابس
 والواهبون المقربات صوافس
 والمانعون الجار حتى عرضهم
 تُخشى بوادهم ويرجى حلمهم

ومنها :

تزجى بريح العزم ذات هبوب
 يصدعن ليل الحادث المرهوب

سائل به طامي العباب وقد سرى
 تهديه شهب أسنة وعزائم

١ السبب : شعر عرف الفرس .

٢ خوار العنان : لين العطف .

حتى انجلت ظلم الضلال بسعيه
يا ابن الألى شادوا الخلافة بالتقى
جمعوا بحفظ الدين آي مناقب
لله مجدك طارفاً أو تالداً
كم رهبة أو رغبة لك والعلا
لا زلت مسروراً بأشرف دولة
تحيي المعالي غادياً أو راحاً

وسطا الهدى بفريقيها المغلوب^١
واستأثروك بتاجها المعصوب
كرموا بها في مشهد ومغيب
فلقد شهدنا منه كل عجب
تقتاد بالترغيب والترهيب
يبدو الهدى من أفقها المرقوب
وجديد سعدك ضامن المطلوب

وقال من قصيدة خاطبه بها عند وصول هدية ملك السودان إليه وفيها الزرافة^٢:

قدحت يد الأشواق من زندي
ونبتت سلواني على ثقة
ولرب وصل كنت آمله
لا عهد عند الصبر أطلبه
يلحى العذول فما أعنفه
وأعارض النفحات أسألها
يهدى الغرام إلى مسالكها
يا سائق الوجناء معتسفاً
أرح الركاب ففي الصبا نبأ
وسل الربوع برامة خبراً
ما لي تلام على الهوى خلقي
لأبيت إلا الرشدة مذ وضحت
نعم الخليفة في هدى وتقى

وهفت بقلبي زفرة الوجد
بالقرب فاستبدلت بالبعد
فاعتضت منه مؤلم الصد
إن الغرام أضاع من عهدي
وأقول ضل فأتبغي رشدي
برد الجوى فتزيد في الوقد
لتعلمي بضعيف ما تُهدي
طبي الفلاة لطية الوجد
يغني عن المستنة الجرد
عن ساكني نجد وعن نجد
وهي التي تأبى سوى الحمد
بالمستعين معالم الرشد
وبناء عز شامخ الطود

١ ق : المطلوب .

٢ التعريف : ٧٤ ، وانظر الاستقصا ٤ : ٣٥ .

نجلُ السِراةِ العُمرَ شأْنَهُمْ كسبُ العِلا بِمواهبِ الوجدِ
ومنها :

للهِ مِنِّي إِذْ تَأَوَّبَنِي شَهْمٌ يَقلُّ بِواترأَ قُضْباً
أوريتُ زندَ العزمِ في طلي ووردتُ عن ظلمِ مناهلهُ
هي جنةُ المأوى لمن كلفتُ لو لمْ أعلِّ بورْدِ كوثرها
مَنْ مَبْلِغٌ قومي ودونهمْ أتى أنقتُ على رجائهمْ
ذكراهُ وهو بشاهقِ فرْدِ وجموعَ أقبالِ أولي أيدِ
وقضيتُ حقَّ المجدِ من قصدي فرويتُ من عزِّ ومن رِفْدِ
آمالهُ بمطالبِ المجدِ ماقلتُ هذي جنةُ الخلدِ
قُدُفُ النوى وتَنوْفَةُ البعدِ وملكتُ عزَّ جميعهم وحدي

ومنها :

ورقيمةِ الأعطافِ حاليةِ وَحشِيَّةِ الأنسابِ ما أنستُ
تسمو بيجيدِ بالغِ صَعْداً طالتُ رؤوسَ الشامحاتِ به
قطعتُ إليكَ تنائفاً وصلتُ تخدي على استصعابها ذُللاً
بسعودكَ اللاتي ضمنَّ لنا جاءتكِ في وفدِ الأحابشِ لا
وافوكَ أنضاءَ تُقَلِّبهمْ كالطيفِ يستقرى مضاجعهُ
مَوْشِيَّةِ بوشائعِ البُردِ في مَوْحشِ البيداءِ بالقرْدِ
شرفَ الصروحِ بغيرِ ما جهدِ ولربما قصرتُ عن الوهدِ
إسآدها بالنصِّ والوخذِ وتبيتُ طوعَ القنِّ والقدِّ
طولَ الحياةِ بعيشةِ رغدِ يرجونَ غيركَ مُكْرِمَ الوفدِ
أيدي السرى بالغورِ والنجدِ أو كالحسامِ يُسكُّ من غمدِ

١ ومنها : سقطت من ق .

يثنونَ بالحسنى التي سبقتَ
ويرونَ لحظكَ من وفادتهمْ
يا مستعيناً جلّ في شرفٍ
جازاكَ ربُّكَ عنْ خليقتهِ
وبقيتَ للدنيا وساكنها
من غيرِ إنكارٍ ولا جحدٍ
فخراً على الأتراكِ والهندِ
عن رتبةِ المنصورِ والمهدي
خيرَ الجزاءِ فنعمَ ما تسدي
في عزةٍ أبداً وفي سعدٍ

وقال يخاطب عمر بن عبد الله مدبر ملك المغرب :

يا سيدَ الفضلاءِ دعوةَ مشفقٍ
ما لي وللإقصاءِ بعدَ تعلقةٍ
وأرى الليالي رنقتُ لي صافياً
ولقد خلصتُ إليك بالقربِ التي
ووثقتُ منكَ بأيّ وعدٍ صادقٍ
وسما بنفسي للخليفةِ طاعةً
حتى انتحاني الكاشحون بسعيهم
رغمتُ أنوفهمُ بنجحِ وسائلِي
وبغوا بما نعموا عليّ خلافتي
لا تطمعنّهمُ ببذلٍ في التي
أتى أضامُ وفي يدي القلم الذي
وليّ الخصائصُ ليسَ تأبى رتبةً
قسماً بمجدكَ وهو خيرُ أليّةٍ
إني لتصطحبُ الهمومُ بمضجعي
عظفاً عليّ بوحدتي عن معشري
أغدو إذا باكرتهم متجلداً
حيران أوجسُ عند نفسي خيفةً

نادى لشكوى البثِ خيرَ سميعٍ
بالقربِ كنتُ لها أجلّ شفيعٍ
منها فأصبح في الأجاجِ شروعي
ليسَ الزمانُ لشمها بصدوعٍ
أنتي المصونُ وأنتِ غيرُ مُضيعٍ
دون الأنامِ هواكَ قبلَ نزوعٍ
فصددتهمُ عنّي وكنتَ منيعي
وتقطعتُ أنفاسهمُ بصنيعي
حسداً فراموني بكلّ شنيعٍ
قد صنّتها عنهم بفضلِ قنوعي
ما كان طيّعهُ لهم بمطيعٍ ؟
حسبي بعلمي ذاكَ من تفريعي
أعتدّها لفؤادي المصدوعِ
فتحولُ ما بيني وبين هجوعي
نفتتَ الإباءَ صدودهم في روعي
وأروحُ أعرُّ في فضولِ دموعي
فتسرُّ في الأوهامِ كلّ مروعي

أطوي على الزفراتِ قلباً آدهُ
ولقد أقولُ لصرفِ دهرِ رابي
مهلاً عليكِ فليس خطبك ضائري
إني ظفرتُ بعصمةٍ من أوحدٍ
حملُ الهسومِ تجولُ بين ضاوعي
بحوادثٍ جاءت على تنويعِ
فلقد لبست له أجنَّ دروعِ
بذَّ الجميعَ بفضلهِ المجموعِ

وقال يخاطب بعض الوزراء في حال وحشة ١ :

هنيئاً بصومٍ لا عداه قبولُ
وهنيئها من عزةٍ وسعادةٍ
سقى الله دهرأ أنت إنسانُ عينه
فعصرك ما بين الليالي مواسمُ
وجانبك المأمولُ للوجودِ مَشْرَعُ
عسكُ وإن ضنَّ الزمانُ منولي
أجبرني وليس الدهرُ لي بمسلمٍ
وأوليتني^٢ الحسنى بما أنا آملُ
ووالله ما رمتُ الترحلَ عن قلبي
ولا رغبةً عن هذه الدارِ لأنها
ولكن نأى بالشعبِ عني حبابُ
يهيجُ بهنَّ الوجدَ أني نازحُ
عزيرُ عليهنَّ الذي قد لقيته
توارتُ بأبائي البقاعُ كأنني
وبشرى بعيدٍ أنت فيه منيلُ
تتأبَعُ أعوامُ بها وفصولُ
ولا مسَّ رباعاً في حماك محولُ
لها غررٌ وضاحَةٌ وحجولُ
يحومُ عليه عالمٌ وجهولُ
فرسمُ الأماني من سواك محيلُ
إذا لم يكن لي في ذراكٍ مَقِيلُ
فمثلك يولي راجياً وينيلُ
ولا سَخَطُ للعيشِ فهو جزيلُ
لظليلُ على هذا الأنامِ ظليلُ
دعاهنَّ^٣ خطبُ للفراقِ طويلُ
وأنَّ فؤادي حيث هنَّ حلولُ
وأنَّ اغترابي في البلادِ يطولُ
تُخْطِطُ أو غالت ركابي غولُ

١ هو الوزير عمر بن عبد الله ، ويستجير بصديقه ورديفه الوزير مسعود بن رحو بن ماسي ،

والقصيدة في التعريف : ٧٧ .

٢ التعريف : وأولني .

٣ التعريف : شجاهن .

فطارت بقلبي أنةٌ وعويلٌ
 يُمَثَّلُ لي نويٌ بها وطولٌ
 كريمٌ، وما عهد الكريم يحولٌ
 فلا قرَّبَتني للقاء حمولٌ
 مرادي ولم تعطِ القيادة ذلولٌ؟
 وساء صباحٌ بينها وأصيلٌ
 زمانٌ بنيلِ المعلواتِ بنخيلٌ
 ويؤيسني لِيانٌ منه مطولٌ
 ففي كبدي من وقعهنَّ فلولٌ
 تكادُ له صمُّ الجبالِ تزولٌ
 يصانعُ واشٍ خوفها وعذولٌ
 تجودُ بنفسي زفرةٌ وغليلٌ
 تحيلُ الليالي سلوتي وتزِيلُ
 عهدتُ به أن لا يُضامَ نزيلٌ
 مداهُ وأنَّ الله سوف يُبدِلُ
 وإن هان أنصارٌ وبان خليلٌ

ذكرتك يا مَنى الأحبَّةِ والهوى
 وحييتُ عن شوقِ رَبِّاكَ كأنما
 أحبابنا والعهْدُ بيني وبينكم
 إذا أنا لم تُرَضِ الحمولَ مدامعي
 لإلامَ مُقامي حيثُ لم تردِ العلا
 أجادبِ فضلِ العمرِ يوماً وليلةٌ
 وينهبُ فيما بين يأسٍ ومطمعٍ
 تُعلِّني منه أمانِ خوادعٍ
 أما لليالِ لا تردُ خطوبها
 يروغني من صرفها كلُّ حادثٍ
 أداري على رغمِ العدا لا لريبةٍ
 وأغدو بأشجاني عليلًا كأنما
 وإني وإن أصبحتُ في دارِ غربَةٍ
 وصدتني الأيامُ عن خيرِ منزلٍ
 لأعلمُ أنَّ الخيرَ والشرَّ ينتهي
 وأني عزيزٌ بابنِ ماساي مكرٌ

وقال يمدح ١ :

أو عن جنابك للأماني معدلٌ
 عزمًا كما شحذ الحسامَ الصيقلُ
 والغيثُ حيثُ العارضُ المتهللُ
 تُعنى بها زهرُ النجومِ وتخللُ

هل غيرُ بابيكَ للغريبِ مؤملُ
 هي همةٌ بعثتُ إليك على النوى
 متبوءاً الدنْيَا ومنتجعُ المنى
 حيثُ القصورُ الزاهراتُ منيفةٌ

١ قالها يمدح أبا العباس سلطان تونس عندما قدم إليه نسخة من كتابه « العبر » ، انظر التعريف : ٢٣٣ .

حيثُ الخيامُ البيضُ يُرفعُ للعلأ
 حيثُ الحمى للعزّ دون مجالهِ ١
 حيثُ الكرامُ ينوبُ عن نارِ القيرى
 حيثُ الجيادُ أملتَهَنَ بنو الوغى
 حيثُ الوجوهُ الغرُّ قنّعها الحيا
 حيثُ الملوكُ الصيّدُ والتفّر الألى
 والمكرماتِ طرافُها المتهدلُ
 ظلُّ أفاءته الوشيجُ الذبيلُ
 عرّفُ الكبياءُ بجيهمُ والمتدلُ
 ممّا أطلوا في المغارِ وأوغلوا
 والبشرُ فوق جبينها يتهللُ
 عزّ الجوارُ لديهمُ والمنزلُ

وأنشد السلطان أبا عبد الله ابن الحجاج لأول قدومه ليلة الميلاد الكريم عام
 أربعة وستين وسبعمائة هذه القصيدة ٢ :

حيّ المعاهدَ كانت قبلُ تحييني
 إنّ الألى نرحت داري ودارهمُ
 وقتتُ أنشدُ صبراً ضاعَ بعدهمُ
 أمثلُ الرّبّعَ من شوقٍ وألثمهُ
 وينهبُ الوجدُ مني كلّ لؤلؤة
 سقّت جنوني مغاني الرّبّع بعدهمُ
 قد كان للقلبِ عن داعي الهوى شغل
 أحبابنا هل لعهدِ الوصلِ مدّكرُ
 ما لي وللطيفِ لا يعتادُ زائرهُ
 يا أهلَ نجدٍ وما نجدُ وساكنها
 أعندكمُ أنتي ما مرّ ذكركمُ
 أصبو إلى البرقِ من أنحاء أرضكمُ
 بواكفِ الدمعِ يرويا ويظمّيني
 تحمّلوا القلبَ في آثارهمُ دوني
 فيهمُ وأسألُ رسماً لا يناجيني
 وكيفَ والفكرُ يديهِ ويقصيني
 ما زالَ جفني عليها غيرَ مأمونِ
 فالدمعُ وقفُّ على أطلاله الجونِ
 لو أنّ قلبي إلى السلوان يدعوني
 منكمُ وهل نسمةٌ منكمُ تحييني
 وللتسيمِ عليلاً لا يسداويني
 حسناً سوى جنة الفردوس والعينِ
 إلاّ انثيتُ كأنّ الرّاحَ تنثيني
 شوقاً ، ولولاكمُ ما كان يصبيني

١ التّريف : في ساحاته .

٢ التّريف : ٨٥ .

يا نازحاً والمني تُدنيه من خَلْدِي
 أسلى هواك فؤادي عن سواك وما
 ترى الليالي أنستك ادّكاري يا
 حتى لأحسبه قرباً يناجيني
 سواك يوماً بحالٍ عنك يسليني
 من لم يكن ذكره الأيامُ تنسيني
 ومنها :

أبعد مرّ الثلاثين التي ذهبتُ
 أضعتُ فيها نفيساً ما وردت به
 واحسرتي من أمانٍ كلّها خُدَعُ
 أولى الشبابِ بإحساني وتحسيني
 إلاّ سرابٌ غرورٍ لا يرويني
 تریشُ غيبي ومرّ الدهرِ يبريني
 ومنها في وصف المشور^١ المبني لهذا العهد :

يا مصنعاً شيّدتُ منه السعودُ حمى
 صرْحُ بحارٍ لديه الطّرفُ مفتتناً
 بُعداً لإيوان كسرى إنّ مشورَكَ الـ
 ودّع دمشق ومغناها فقصرَكَ ذا
 لا يطرُقُ الدّهرُ مبناهُ بتوهينِ
 فيما يروقك من شكلٍ وتكوينِ
 سامي لأعظمُ من تلك الأواوينِ
 « أشهى إلى القلبِ من أبواب جيرونِ »
 ومنها في التعريض بالوزير الذي كان انصرافه بسببه :

من مبلغ غني الصحب الألى جهلوا
 أني أويتُ من العليا إلى حرَمِ
 وأنتي طاعناً لم ألقَ بعدهمُ
 لا كالتّي أخضرتُ عهدي ليالي إذ
 سقياً ورعياً لأيامي التي بظفرتُ
 أرتادُ منها ملياً لا يماطلي
 ودّي وضاع حماهم إذ أضاعوني
 كادتُ مغانيه بالبرى تحييني
 دهرأ أشاكي ولا خصماً يشاكي
 أقلبُ الطرفَ بين الخوفِ والهونِ
 يداي منها بحظّ غير مغبونِ
 وعداً وأرجو كريماً لا يعنيني

١ المشور : المكان الذي يجلس فيه السلطان للحكم .

ومنها :

وهاكـ منها قوافـ طيها حكم
تلوح إن جليت درأ ، وإن تليت
عانيتُ منها بجهدي كل شاردة
يمنعُ الفكرَ عنها ما تقسّمهُ
لكنّ بسعدك ذلت لي شواردها
بقيت دهرك في أمن وفي دعة
مثل الأزهري في طي الرياحين
ثنى عليك بأنفاس البساتين
لولا سعودك ما كانت تواتيني
من كل حزن بطي الصدر مكنون
فرضتُ منها بتجبير وتزيين
ودام ملكك في نصر وتمكين

وهو الآن بحالته الموصوفة من الواجهة والحظوة قد استعمل في السفارة إلى ملك قشتالة فراقه وعرف حقه .

مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى كلام لسان الدين في حق ابن خلدون .

[تعليق للمقري والباعوني]

قلت : هذا كلام لسان الدين في حق المذكور في مبادئ أمره وأواسطه ، فكيف لو رأى تاريخه الكبير الذي نقلنا منه في مواضع وسماه « ديوان العبر وكتاب المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر » ورأيت به فاس وعليه خطه في ثماني مجلدات كبار جداً ، وقد عرف في آخره بنفسه ، وأطال ، وذكر أنه لما كان بالأندلس وحظي عند السلطان أبي عبد الله شمس من وزيره ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوض الرحال ولم يرض من الإقامة بحال ، ولعب بكرته صوالحة الأقدار ، حتى حل بالقاهرة المعزية واتخذها خير دار ، وتولى بها قضاء القضاة وحصلت له أمور ، رحمه الله تعالى .

وكان - أعني الولي ابن خلدون - كثير الثناء على لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى .

ولقد رأيت بخط العالم الشهير الشيخ إبراهيم الباعوني الشامي فيما يتعلق بابن خلدون ما نصّ محل الحاجة منه : تقلبت به الأحوال حتى قدم إلى الديار المصرية ، وولي بها قضاء قضاء المالكية ، في الدولة الشريفة الظاهرية ، وصحبته - رحمه الله تعالى - في سنة ٨٠٣ عند قدومه إلى الشام صحبة الملك الناصر فرج ابن الملك الظاهر برقوق في فنتة تمرلنك عليه من الله تعالى ما يستحقه ، وأكرمه تمرلنك غاية الإكرام ، وأعادته إلى الديار المصرية ، وكنت أكثر الاجتماع به بالقاهرة المحروسة للمودة الحاصلة بيني وبينه ، وكان يكثر من ذكر لسان الدين ابن الخطيب ، ويورد من نظمه ونثره ما يشنف به الأسماع ، وينعقد على استحسانه الإجماع ، وتتناصر عن إدراكه الأطماع ، فرحمة الله تعالى عليهما ، وأزكى تحياته تهدي إليهما . ولقد كان ابن خلدون هذا من عجائب الزمان ، وله من النظم والنثر ما يزري بعقود الجمان ، مع الهمة العلية ، والتبحر في العلوم الثقيلة والعقلية ، وكانت وفاته بالقاهرة المعزية سنة ٨٠٧ ، سقى الله تعالى عهده ، ووطأ في الفردوس مهده . قاله وكتبه الفقير إلى الله تعالى إبراهيم بن أحمد الباعوني الشافعي ، غفر الله تعالى له زلله ، وأصلح خلله ؛ انتهى .

١٠ - ومن نثر لسان الدين ما ذكره في « الإحاطة » في ترجمة يحيى بن إبراهيم ابن يحيى البرغواطى من بني الترجمان ، ولنذكر الترجمة بجملتها لاشتغالها على ما ذكر وغيره في حق المذكور بعد قوله « إنه من بني الترجمان » ما صورته : « عزف عنهم وانقطع إلى لقاء الصالحين ، وصحبة الفقراء المتجردين ، وكان نسيجَ وَحْدِهِ في طلاقة اللسان ، حافظاً لكل غريبة من غرائب الصوفية ، يتكلم في مشكلاتهم ، حفظ « منازل السائرين » للهروي ، وتائية ابن الفارض ؛ مليح الملبس ، مترفع عن الكُديّة ، حسن الحديث ، صاحب شهرة ، ومع ذلك

فمغضوض منه ، محمول عليه ، لما جبل عليه من رفض الاصطلاح ، واطّراح
التغافل ، مؤلّع بالتقد ، والمخالفة في كل ما يطرق سمعه ، مرشحاً ذلك بالجدل
المبرم ، ذاهباً أقصى مذاهب القحّة ، كثير الفلتات ، نالته بسبب هذه البلية
محن ، ووُسم بالرهق في دينه مع صحة العقل ، وهو الآن عامر الرباط المنسوب
إلى اللجام على رسم الشياخة ، عديم التابع ، مهجور الفناء ، قيد الكثير من الأجزاء
منها في نسبة الذنب إلى الذاكر جزء نبيل غريب المأخذ ، ومنها فيما أشكل من
كتاب أبي محمد ابن الشيخ ، وصنف كتاباً كبير الحجم في الاعتقادات جلب فيه
كثيراً من الحكايات ، رأيت عليه بخط شيخنا أبي عبد الله المقرّي ما يدل على
استحسانه . ومن البرسام الذي يجري على لسانه ، بين الجدل والقحّة والجهالة
والمجانة ، قوله لبعض خدام باب السلطان وقد ضويق في شيء أضجره منقولاً
من خطّه — بعد ردّ كثير منه للإعراب — ما نصه : الله نور السموات من غير
نار ولا غيرها ، والسلطان ظلٌّ له وسراجة في الأرض ، ولكل منهما فرّاش مما
يليق به ويتهافت عليه ، فهو تعالى محرق فرّاشه بذاته ، مغرقهم بصفاته وسراجة ،
وظله هو السلطان محرق فرّاشه بناره ، مغرقهم بزيتته ونواله ، فقرّاش الله تعالى
ينقسم إلى حافّين ومسبّحين ومستغفرين وأمناء وشاخصين ، وفرّاش السلطان ينقسمون
إلى أقسام لا يشدّ أحدهم عنها ، وهم وزعة ابن وزعة ، وكلب ابن كلب ،
وكلب مطلقاً ، وعار ابن عار ، وملعون ابن ملعون ، وقط ، فأما الوزعة فهو
المغرق في زيت نواله المشغول بذلك عما يليق بصاحب النعمة من النصيح وبذل
الجهد ، والكلب ابن الكلب هو الكيس المتحرز في تهافته من إحراق وإغراق
يعطي بعض الحق ويأخذ بعضه ، وأما الكلب مطلقاً فهو المواجه وهو المشرّد للسفهاء
عن الباب المعظم التليل النعمة ، وأما العار ابن العار فهو المتعاطي في تهافته ما فوق
الطوق ، ولهذا امتاز هذا الاسم بالرياسة عند العامة إذا مر بهم جلف أو متعاطم
يقولون : هذا العار ابن العار ، يحسب نفسه رئيساً ، وذلك لقرب المناسبة ؛ فهو
موضوع لبعض الرياسة ، كما أن الكلب ابن الكلب لبعض الكياسة ، وأما الملعون

ابن الملعون فهو المغالط المعاند المشارك لربه المنعم عليه في كبريائه وسلطانه ، وأما القط فهو الفقير مثلي المستغني عنه لكونه لا تختص به رتبة ، فتارة في حجر الملك ، وتارة في السنداس^١ ، وتارة في أعلى الرتب ، وتارة محسن ، وتارة مسيء ، تُغفر سيئاته الكثيرة بأدنى حسنة ، إذ هو من الطوّافين ، متطيّر بقتله وإهانتة ، تياه في بعض الأحيان بعزة يجدها من حرمة أبقاها له الشارع ، وكل ذلك لا يخفى .
وأما الفَراش المحرّق فهو عند الدول نوعان : تارة يكون ظاهراً وحصته مسح المصباح وتصفية زيتته وإصلاح فتيله وستر دخانه ومسايسة ما يكون من المطلوب منه ، ووجود هذا شديد الملازمة ظاهراً ، وأما المحرّق الباطن فهو المشار إليه في دولته بالصلاح والزهد والورع فيعظمه الخلق ويترك لما هو بسبيله ، فيكون وسيلة بينهم وبين ربهم وخليفته الذي هو مصباحهم ، فإذا أراد الله تعالى إهلاك المروءة وإطفاء مصباحها تولى ذلك أهل البطالة والجهالة ، وكان الأمر كما رأيتم ، والكل فَرّاش متهافت ، وكلُّ يعمل على شاكلته .»

١١ - قال الوزير لسان الدين : وطلب مني الكتّب عليه بمثل ذلك ، فكتبت ببعض أوراقه إثارة لضجره ، واستدعاء لفكاهة انزعاجه ، ما نصه :
«وقفت من الكتاب المنسوب لصاحبنا أبي زكريا البرغواطي على برسام محموم ، واختلاط مذموم ، وانتساب زنج في روم ، وكان حقه أن يتهيب طريقاً لم يسلكها ، ويتجنب عقيلة لم يملكها ، إذ المذكور لم يتلق شيئاً من علم الأصول ، ولا نظر من الإعراب في فصل من الفصول ، إنما هي قِحة وخلاف ، وتهاون بالمعارف واستخفاف ، غير أنه يحفظ في طريق القوم كل نادرة ، وفيه رجولية ظاهرة ، وعنده طلاقة لسان ، وكفاية قلماً تتأني لإنسان ، فإلى الله نضرع أن يعرفنا مقادير الأشياء ، ويجعلنا بمعزل عن الأغبياء ، وقد قلت مرتجلاً من أول نظرة ، واجتراء بقليل من كثرة :

١ السنداس : بيت الراحة .

كلُّ جارٍ لغايةٍ مرَّجوةٌ فهو عندي لم يعدُّ حقَّ الفتوةِ
وأراك اقتحمتَ ليلاً بهيماً موبحاً منك ناقةٌ في كوةِ
لا اتِّباعاً ولا اختراعاً أتتنا إذ نظرنا عروسكَ المجلوةِ
كلُّ ما قلتَهُ فقد قاله لنا سُمُّ مقالاً آياتهُ متلوةِ
لم تزدْ غيرَ أن أبحتَ حمى الإءِ رابٍ في كلِّ لفظةٍ مَقروءةِ
نَسألُ اللهَ فكرةً تلزمُ العقِ لَ إلى حشمةٍ تحوطُ المروءةِ
وعزيرٌ عليٌّ أن كنتَ يحيى ثم لم تأخذ الكتابَ بقوةِ»

١٢ - ومن بديع نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه لسلطان تلمسان إثر قصيدة سينية حازت قصب السبق ، ولنثبت الكل هنا فنقول : قال الإمام الحافظ عبد الله التنسي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ، عندما جرى ذكر أمير المسلمين السلطان أبي حمزة موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يعقوب راسن بن زيان رحمه الله تعالى ، ما صورته : وكان الفقيه ذو الوزارتين أبو عبد الله ابن الخطيب كثيراً ما يوجه إليه بالأمداح ، ومن أحسن ما وجه له قصيدة سينية فائقة ، وذلك عندما أحس بتغير سلطانه عليه ، فجعلها مقدمة بين يدي نجواه ، لتمهد له مثنواه ، وتحصل له المستقر ، إذا ألبأه الأمر إلى المفر ، فلم تساعده الأيام ، كما هو شأنها في أكثر الأعلام ، وهي هذه :

أطلعنَ في سُدَفِ الفروعِ شموسا ضحكَ الظلامُ لها وكان عبوسا
وعطفنَ قُضْباً للقدودِ نواعماً بوئنَ أدواحِ النعيمِ غُروسا
وعدلنَ عن جهرِ السلامِ مخافةً الِ واشي فجننَ بلفظهٍ مهْموسا
وسفَرنَ من دهشِ الوداعِ وقومُ هُنَّ إلى الترحلِ قد أناخوا العيسا
وخلصنَ من خللِ الحجالِ إشارةً فتركنَ كلَّ حجالها مخلوسا
لم أنسها من وحشةٍ والحِيُّ قد زَجَرَ الحمولَ وآثرَ التَغْلِيسا

١ أزهار الرياض ١ : ٢٥٠ وبغية الرواد ٢ : ٢٨٧ .

عَوْجُ الرِّكَابِ تَسَامُ التَّخْيِيسُ^١
 وَقِفْتُ عَلَيْهِ وَحُبِسْتُ تَحْيِيسًا
 بَعْضَا النَّوَى قَدْ بَحَسْتُ تَبْحِيسًا
 فَعَرَضْتُ دِرًّا لِلدَّمُوعِ نَفِيسًا
 وَلَكَمْ تَرَأَى آهْلًا مَسْأُونًا
 عَمَّنْ يَحْسُ بِهِ وَكَانَ أُنِيسًا
 لَا يَقْتَضِي وَرْدًا وَلَا تَعْرِيسًا
 لَا فَرَقَ بَيْنَهُمَا إِذَا مَا قِيسًا
 حَرْفًا فَيَشْفِي بِالْمَزِيدِ نَسِيسًا^٢
 ظَلْنَا عَكُوفًا عِنْدَهُ وَجَلُوسًا
 وَنَدِيرٌ مِنْ شَكْوَى الْغَرَامِ كَوْوسًا
 وَإِذَا سَمِعْتَ فَلَا تَحْسُ حَسِيسًا
 وَقَدْ اقْتَضَتْ نِعْمَاهُ أَنْ لَا بَوْسًا
 تَلَيْتُ بِمَغْنَاهُ عَلِيَّ عَرُوسًا
 دَرَسَتْ مَغَانِي الْأَنْسِ فِيهِ دَرُوسًا
 مِنْ رَوْنَقِ الْبَشْرِ الْبَهِيِّ عُبُوسًا
 فِي مِثْلِهَا إِلَّا لآيَةٍ عَيْسِي
 فَإِذَا قَضَى يَسْتَأْنَفُ التَّدْرِيسًا
 لَا سِيْمَا فِي بَابِ نَعْمٍ وَيِيسًا
 مِنْ صَبْغِهَا حَتَّى يُرَى مَرْمُوسًا
 فَإِذَا عَرَاهُ الْخَطْبُ كَانَ يُوُوسًا

لَا الْمَلْتَقَى مِنْ بَعْدِهَا كَثَبٌ وَلَا
 فَوَقَفْتُ وَقِفَةً هَائِمٍ بِرَحَاؤُهُ
 وَدَعَوْتُ عَيْنِي عَاتِبًا وَعَيُونَهَا
 نَافَسْتُ يَا عَيْنِي دَرًّا دَمُوعَهُمْ
 مَا لِلْحَمَى بَعْدَ الْأَحْبَةِ مَوْحِشًا
 وَلِسِرِّيهِ حَوْلَ الْخَمِيلَةِ نَافِرًا
 وَظَلَّهِ الْمُرُودِ غَمْرٌ قَلْبِيهِ
 حَيِّتُهُ فَأَجَابَنِي رَجْعُ الصَّدَى
 مَا إِنْ يَزِيدُ عَلَى الْإِعَادَةِ صَوْتُهُ
 نَضَبَ الْمَعِينِ وَقَلَصَ الظِّلُّ الَّذِي
 تَتَوَاعَدُ الرَّجْعَى وَنَغْنَمُ اللَّقَا
 فَإِذَا سَأَلْتَ فَلَا تَسْأَلُ مَخْبِرًا
 عَهْدِي بِهِ وَالدهرُ يَتَحَفُّ بِالْمَى
 وَالْعَيْشُ غَضُّ الرَّبْعِ وَالذُّنْيَا قَدْ أَجِ
 أَتْرَى يَعِيدُ الدهرُ عَهْدًا لِلصَّبَا
 أَوْطَانُ أَوْطَارٍ تَعَوَّضَ أَفْقَهَا
 هِيَهَاتَ لَا تَغْنِي لَعْلٌ وَلَا عَسَى
 وَالدهرُ فِي دَسْتِ الْقَضَاءِ مَدْرَسُ
 تَفْتَنُ فِي جُمَلِ الْوَرَى أَبْحَاثُهُ
 وَسَجِيَّةُ الْإِنْسَانِ لَيْسَ بِنَاصِلِ
 يَغْتَرُّ مَهْمَا سَاعَدَتْ أَمَالَهُ

١ ق ص : التخييس ، والتصويب عن الأزهار والبنية ؛ التخييس : تذليل الدابة .

٢ النيس : غاية الجهد ؛ قلت ولعل الصواب « رسيسا » .

يوماً وقدَّسها الهدى تقديساً
 هلعت إذا كثرت^١ إليها البوسى
 بضمَانٍ عزٍّ لم يكن ليخيساً^٢
 تغشيتُ من سردِ اليقينِ لبوساً
 من ضرِّه وأذاهُ عُدْتُ بموسى
 ليثاً ويعلمُ بالزئيرِ الخيساً
 لنا اختبرتُ الليثَ والعريساً
 فتخلفَ الأسدَ الهزبرَ فريساً
 أبدأً فيجلو الظلمةَ الحنديساً
 وسما فطأطأتِ الجبالُ رؤوساً
 مثلتُ بأيديِ الحالينِ بسوساً^٤
 وتراهُ بأساً في الهياجِ بئيساً
 إن أوطأ الجُرْدَ العتاقَ وطيساً
 للسالكينِ أبانَ منه دريساً^٥
 لبسَ الكمالَ فزينَ الملبوساً
 والسؤددَ المتواترَ القُدموساً
 والعلمُ ليسَ يعارضُ الناهوساً
 تستخبرُ الترييعَ والتسديساً
 كم يخاضُ بحراً لا يخاضُ ضروساً

فلو أن نفساً مكنت من رشدها
 لم تستقرَّ رسوخها النعمى ولا
 قل للزمان إليك عن متدممٍ
 فإذا استحرَّ جلادُهُ فأنا الذي اسد
 وإذا طغى فرعونه فأنا الذي
 أنا ذا أبو مثواه^٣ من يحمي الحمى
 بحمى أبي حمو حططت ركائبي
 أسدُ الهياجِ إذا خطأ قدماً سطا
 بدرُ الهدى يأبى الضلالَ ضياؤه
 جبلُ الوقارِ رسا وأشرف واعتلى
 غيثُ النوالِ إذا الغمامُ حلوبة
 تلقاهُ يومَ الأُنسِ روضاً ناعماً
 كم غمرةِ جلتي وكم خطبِ كفى
 كم حكمةِ أبدى وكم قصدِ هدى
 أعلى بني زيانَ والقدُّ الذي
 جمَعَ الندى والبأسَ والشيمَ العلا
 والحلمُ ليسَ يباين الخلقَ الرضى
 والسعدُ يغني حكمه عن نصبة
 كم راضٍ صعباً لا يراضُ معاصياً

١ ق : كثرت .

٢ خاس : خفر العهد . ٣ البغية : نادى أبا مثواه .

٤ البسوس : التي تتطلب إيساساً أي تسكيناً كي تدر .

٥ الدريس : الطريق الخفي .

وعلا السُّها واستسفل البرجيسا^١
للتصير تُمطره أُجشٌ بجيسا^٢
إن كَرَّ ضعُف كرهُ الكردوسا
عمدٍ ورقع فوقها إدريسا
ما إن يزالُ على القرارِ حيسا
حشر الرئيسَ إليه والمرؤوسا
صون الحريزِ مُتَعَمَّ محروسا
لرآك مستاماً بها مبخوسا
ويمينُ من عقدَ اليمينِ غموسا
جهلَ الوزانِ وأخطأ التقيسا
وطبيعة فطرَ الإلهُ وسوسا^٣
من قبل ذرء الخلقِ خصَّ نفوسا
جحدَ العيانِ وأنكرَ المحسوسا
لا يقبلُ التَمويهَ والتليسا
لترى دخيلاً في بنيه ديسا
تحمي الملائكُ دوحه المغروسا
ورميت بالتقصيرِ أسطاليسا
ما كان يَطْمَعُ أن يُعدي سوسا^٤
بخساً ، ولم يكُ بعضهن كيسا

بلغَ التي لا فوقها متمهلاً
يا خيرَ من خفقتُ عليه سحابة
وأجلٌ من حملته صهوةُ سابحٍ
قسماً بمن رفع السماء بغير ما
ودحا البسيطة فوق لُججٍ مُزبدٍ
حتى ييبَ بأهله الوعدُ الذي
ما أنتَ إلا ذخرُ دهرِكِ دمتَ في الـ
لو ساومتَهُ الأرضُ فيك بما حوتُ
حلفَ^٥ البرورُ بها أليّة صادق
من قاسَ ذاتكَ باللذواتِ فإنه
لا تستوي الأعيانُ فضلَ مزية
لعاية التخصيصِ سرُّ غامضٍ
من أنكرَ الفضلَ الذي أوتيته
من دان بالإخلاصِ فيك ففقدته
والمتنمى العكويّ عيصك لم تكن
بيتُ البتولِ ومنبتُ الشرفِ الذي
أما سياستك التي أحكمتها
فلو أن كسرى الفرسِ أبصر بعضها
لو سار عدلك في السنين لما اشتكتُ

١ البرجيس : المشتري .

٢ البجيس : المتدفق بقرارة .

٣ ق والبغية : كلف .

٤ السوس : الخليفة والسجية .

٥ يعدي سوسا : يتجاوز السوس ، منطقة تستر ، وفي الأزهار : يعد سوسا أي ذا سياسة .

ولو الجوارى الحنّسُ انتسبت إلى
 قُدّت الصعابَ فكلُّ صعبٍ سامحٌ
 تلقى الليوثَ وللقَتَامِ غَمَامَةٌ
 وكأنها تحتَ الدروعِ أراقمُ
 ما لابنِ مامةٍ في القديمِ وحاتمِ
 مَنْ جاءَ منهمُ مثلَ جودكَ كلِّما
 أنتَ الذي افتكَّ السفينَ وأهله
 أنتَ الذي أمددتَ نعرَ اللهِ بالص
 وأعنتَ أندلساً بكلِّ سبيكةٍ
 وشحينةٍ بالبرِّ في سُبُلِ الرضى
 إن لم تجرَّ بها الحميسَ فطالما
 وملاّت أيديها وقد كادت على
 صدقتَ للآمالِ صنعةَ جابرٍ
 والحلِّ والتقطيرِ والتصعيدِ وال
 فسبكتَ من آمالها مالا ، ومن
 بُهتوا فلماً استخبروا لم ينكروا
 وتُدِيرُ من قلبِ السَطورِ سبائكا
 ونحوتَ نحوَ الفضلِ تعضدُ منه بال
 وجبرتَ بعدَ الكسرِ قومكَ جاهداً

إقدامِ عزمكَ ما خسنَ خنوسا ١
 لكَ بالقيادِ وكانَ قبلُ شَموسا
 قدَحَ الصفيحُ وميضها المقبوسا
 ينظرونَ من خللِ المغافرِ شوسا
 ضربَ الزمانُ بجودهمِ ناقوسا
 حسبوا المكارمَ كسوةً أو كيسا
 إذْ أوسعتْ سبُلُ الخلاصِ طموسا
 دقاتِ تَبْلِيسُ كَرَّةً لإيلسا
 موسومةٍ لا تعرفُ التَدليسا
 والبرِّ قاربِ قاعها القاموسا
 جهزتَ فيها للنوالِ خميسا
 حكمَ القضاءِ تُشافهُ التَقليسا
 وكفيتها التشميعَ والتشميسا ٢
 تخميرَ والتصويلَ والتكليسا ٣
 أوراها ورقاً ، وكنَّ طُروسا
 وزناً ولا لونا ولا ملموسا
 منها ومن طبعِ الحروفِ فلوسا
 مسموعِ ما ألفتِ منه مَقيسا
 تُغني العديمَ وتُطلقُ المحبوسا

١ هذا البيت والذي بعده سقطا من ق .

٢ ذكر جابر بن حيان وأردف ذلك بذكر بعض المصطلحات الكيميائية ؛ فالتشميع : تليين الشمع ،
 والتشميس : تعريض المواد للشمس .

٣ الحل : التحليل الكيميائي ؛ والتقطير والتصعيد متشابهان . والتصويل : جعل الرواسب طافية
 وهو تال للتكليس .

ونشرت راية عزهم من بعد ما
أحكمت حيلة برتهم بلطافة
وفلكت من حد الزمان وإنه
وشحذت حدًا كان قبل مثلما
لم ترج إلا الله جل جلاله
قدمت صباحاً فاستضأت بنوره
ما أنت إلا فالح متيقن
ومتاجر جعل الأريكة سهوة
ما إن تباع أو تشاري واثقاً
والعزم يفرع النجوم بناؤه
ومقام صبرك واتكالك مذكر
ومن ارتضاه الله وفق سعيه
ما ازددت بالتمحيص إلا جدة
ولطالما طرق الحسوف أهلة
ثم انجلت قسامتها عن مشرق
خذها إليك على النوى سينية
إن طولت بالدّر من حول الطل
لولاك ما أصغت لخطبة خاطب
قصدت سليمان الزمان وقاربت
لي فيك ود لم أكن من بعد ما
كم لي بصحة عقده من شاهد

دال الزمان فسامها تنكيسا
قد أعجزت في الطب جالينوسا
أوحى وأمضى من غرار الموسى
ونعشت جدًا كان قبل تعيسا
في شدة تكفى وجرح يوسى
ووجدت عند الشدة التنفيسا
بالنجح عمر ممرعاً ويبسا
عربية والمتكا القربوسا
بالربح إلا المالك القدوسا
مهما أقام على الثقى تأسيسا
بجديسه الشبلي أو طـاووسا
فراى العظيم من الحظوظ خيسا
ونضوت من خلع الزمان لبسا
ولطالما اعترض الكسوف شموسا
للسعد ليس بحاذر تنعيسا
ترضى الطباق وتشكر التجنيسا
يوماً تشكت حظها الموكوسا
ولعنست في بيتها تعيسا
في الخطو تحب نفسها بلقيسا
أعطيت صفقة عهده لأخيسا
لا يحذر التجريع والتدليسا

يقفو الشهادة باليمين ، وإنه
لا يستقرُّ قرارُ أفكاري إلى
وأرى تجاهك مستقيم السيرِ لا
هي دينُ أيامي فإن سَمَحْتَ بهِ
لا زالَ صنعُ اللهِ مجنوباً إلى
مُتتَابِعاً كَتَابِعِ الأيَامِ لا
فَلَوَ أَنْصَفْتَكَ إِيَالَهُ المَلِكِ الـسَّيِّ
قَرَنْتَ بِذِكْرِكَ والدعاء لك الذي
القلبُ أنتَ لها رئيسُ حياتها

ثمَّ قال الحافظ النسبي رحمه الله تعالى بعد سرد هذه القصيدة ما معناه : إن
لسان الدين ابن الخطيب حدًا في هذه القصيدة السنية حدَّوْ أبي تمام في قصيدته
التي أولها ٢ :

أَقَشِيبَ رَبِّعَهُمُ أَرَاكَ دَرِيسَا تَقْرِي ضِيُوفَكَ لَوْعَةً وَرَسِيسَا

واختلس كثيراً من ألفاظها ومعانيها ؛ انتهى .

ووصل لسان الدين هذه القصيدة بنثر بديع نصه :

« هذه القصيدة — أبقى الله تعالى أيام المثابة المولوية الموسوية ممتعة بالشمل
المجموع ، والثناء المسموع ، والملك المنصور الجموع — نفثة مَنْ باح بسر
هَوَاهُ ٣ ، ولبي دعوة الشوق العابث بلبه وقد ظفر بمن يُهدي خبر جواه ، إلى
محلِّ هَوَاهُ ، ويختلس بعث تحيته ، إلى مثير أريحيته ، وهي بالنسبة إلى ما يعتقد

١ الفيس : الضميف ؛ وفي ق ص : قيسا .

٢ ديوانه ٢ : ٢٦٢ .

٣ البنية : بسر حبه .

من ذلك الكمال ، الشاذ عن الآمال ، عنوانٌ من كتاب ، وذواق من أوقار ذات أقتاب ، وإلاّ فمن يقوم بحق تلك المثابة لسانه ، أو يكافئها إحسانها إحسانه ، أو يستقلّ بوصفها يراعه ، أو تنهض بأيسر وظيفها ذراعه ؟ ولا مكابرة بعد الاعتراف . والبحر لا ينفدُ بالاغتراف ، لا سيما وذاتكم اليومَ والله تعالى يبقئها ، ومن المكاره يبقئها ، وفي معارج القرب من حضرة القدس يرقئها ، ياقوته اختارها واعتبرها ، ثمّ ابتلاها بالتمحيص في سبيل التخصيص واختبرها ، وسيكة أخلصها مسجرتها ، فخلصها بتسجيده من الشوب ، وأبرزها من لباب الذوب^١ ، وقصرت عن هذه الأثمان ، وسرّ بصدق دعواه البهرمان^٢ ، ليفاضل بين الجهم والصيّب ﴿ ليميز الله الخبيث من الطيب ﴾ (الأنفال : ٣٧) فأراكم أن لا جدوى للعديد ولا للعدة ، وعرقكم بنفسه في حال الشدة ، ثمّ فسح لكم بعد ذلك في المدة ، لتعرفوه إذا دال الرخاء ، وهبّت بعد تلك الزعازع الريحُ الرُخاء ، وملاكم من التجارب ، وأوردكم من ألطافه أعذب المشارب ، ونقلكم بين إمرار الزمان وإحلالته ، ولم يسلبكم إلاّ حقيراً عند أوليائه ، وأعادكم المعاد المُطهر ، وألبسكم من أثواب اختصاصه المُعلم المشهر ، فأتمّ اليوم بعين العناية ، بالإفصاح والكناية ، قد وقف الدهر بين يديكم موقف الاعتراف بالحناية ، فإن كان الملك اليوم علماً يُدرس ، وقوانين في قوّة الحفظ تُغرس ، وبضاعة برصد التجارب تُحرس ، فأتمّ مالك دار هجرته المحسوبة ، وأصمعي شعوبه المنسوبة ، إلى ما حزتم من أشتات الكمال ، المُربّية على الآمال ، فالبيت علوي المنتسب ، والملك بين الموروث والمكتسب ، والجود يعترف به الوجود ، والدين يشهد به الركوع والسجود ، والبأس تعرفه التهائم والنُجود ، والخلق يحسده الروض المتجود ، والشعر يغترف من عذب نمير ، ويصدق ما قال : بدىء بأمرٍ وختم بأمرٍ ، وإن مملوككم حوّم

١ ق : أخلصها وشجرها فخلصتها الشخيرة من الشوب وأبرزتها من الباب الذوب ؛ وكذلك هي في أصول الأزهار ؛ وفي البغية : خلصها وشجرها فخلصتها السخيرة من الشوب . . . إلخ .
٢ البغية : يصدق دعوته البرهان ؛ والبهرمان : العصفور .

من بآبكم على العذب البرود ، فعاقه الدهر عن الورود ، واستقبل أفقه ليحقق الرصد ، ولكنه أخطأ القصد ، ومن أخطأ الغرض أعاد ، ورجا من الزمان الإسعاد ، فربما خبيء نصيب ، أو كان مع الخواطيء سهم مصيب^١ ، وكان يؤمل صحة ركاب الحجاز ، فانتقلت الحقيقة منه إلى المجاز ، وقطعت القواطع التي لم ينلها الحساب ، ومنعت الموانع التي خلص منها إلى الفتنة الانتساب ، ومن طلب الأيام أن تجري على اقتراحه ، وجب العمل على اطراحه ، وإنما هي البحر الزاخر ، الذي لا يدرك منه الآخر ، والرياح متغيرة ، والسفينة الحائرة ، فتارة يتعذر من المرسى الصرف ، وتارة تقطع المسافة البعيدة قبل أن يرتد الطرف ، هذا إن سلمها عطبها ، وأعفي من الوقود حطبها ، ولقد علم الله جل جلاله أن لقاء ذلك المقام الكريم عند المملوك تمام المطلوب ، ممن يجبر كسر القلوب ، فإنه مما انعقد على كماله الإجماع ، وصح في عوالي معاليه السماع ، وارتفعت في وجود مثاله الأطماع ، أخلاقاً هذبها الكرم الوضاح ، وسجية كلف بها الكمال الفضاح ، وحرصاً على الذكر الجميل وما يتنافس فيه إلا من سمته همته ، وكرمت ذمه ، وألفت الخلد رمه ، إذ الوجود سراب ، وما فوق التراب تراب ، ولا يبقى إلا عمل راق ، أو ذكر بالجميل يسطر في أوراق ، حسبما قلت من قصيدة كتبها على ظهر مكتوب موضوع أشار به من كانت له طاعة ، فوفت بمقرحه استطاعة :

يمضي الزمان وكلُّ فانٍ ذاهبٌ	إلا جميلُ الذكرِ فهو الباقي
لم يبقَ من إيوانِ كسرى بعد ذا	كالحفلِ إلا الذكر في الأوراقِ
هل كان للسفاح والمنصور والـ	مهدي من ذكر على الإطلاقِ
أو للرشيدي وللأمينِ وصنوه	لولا شبابةِ براعةِ الوراقِ
رجع التراب إلى التراب بما اقتضتْ	في كلِّ خلقتِ حكمةُ الخلاقِ

١ أصله من المثل « مع الخواطيء سهم صائب » .

إلاّ الشّناء الخالد العطر الشّدا يهدي حديث مكارم الأخلاق

والرغبة من مقامكم الرفيع الجناب ، أن يمكنها من حسن المناب ، فتحظى بحلول
ساحته ، ثمّ بلمّ راحتته ، ثمّ بالإصغاء ، ولا مزيد للابتغاء ، إلى أن ترتفع الوساطة ،
وتغني عن التركيب البساطة ، ويُنسى الأثر بالعين ، ويحسن الدهر قضاء الدين ،
ونسأل الذي أغرى بها القريحة ، ولم يجعل الباعث إلاّ المحبة الصريحة ، أن يبقى
تلك المثابة زيناً للزمان ، وذخراً مكنوفاً باليُمن والأمان ، مظلاًّ برحمة الرحمن ،
بفضله وكرمه ؛ انتهى .

١٣ - وممّا كتب به لسان الدين رحمه الله تعالى إلى الشيخ الرئيس الخطيب
شيخه أبي عبد الله ابن مرزوق رحمه الله تعالى حين كانت أزمّة أمر المغرب بيده
أيام السلطان أبي سالم ابن السلطان أبي الحسن المريني رحم الله تعالى الجميع ، ما
صورته :

« سيدي بل مالكي بل شافعي ، ومُنْتَشِلِي^١ من الهفوة ورافعي ، وعاصمي
عند تجويد حروف الصنائع ونافمي ، الذي يجاهه أجزلت المنازل قيراي ، وقضّت
أولاي والمئة لله تعالى أخراي ، وأصبحت وقول الحسن^٢ هيجيراي :

علقتُ بجبلٍ من حبالِ محمدٍ أمنتُ به من طارقِ الحدّثانِ
تغطيتُ من دهري بظلِّ جناحه فعيني ترى دهري وليس يراني
فلو تُسأل الأيامُ ما اسمي ما درتُ وأين مكاني ما عرفن مكاني

وصلت مكناسة حرسها الله تعالى حداني حدو نذاك ، سحائب لولا الخصال المبرة
قلت : يداك^٣ ، وكان الوطن لاغتابه بجواري ، أو ما رآه من انتياب زوآري ،

١ ق : ومنشلي .

٢ يعني أبا نواس ، والأبيات في ديوانه : ٩٧ .

٣ ق : قبلت يداك ؛ فاقتضى التصويب ، والمبرة : الزائدة على خصال السحائب هنا .

أوغر لى بهت يقطع الطريق ، وأطلع يده على التفريق ، وأشرق القوافل مع كثرة الماء بالريق ، فلم يسع إلاّ المقام أياماً قعوداً في البر وقياماً ، واختياراً لضروب الأُنس واعتياماً ، ورأيت بلدة معارفها أعلام ، وهوأها برد وسلام ، ومحاسنها تعمل فيها السنة وأقلام ، فحياً الله تعالى سيدي فلکم من فضل أفاد ، وأنس أحياء وقد باد ، وحفظ منه على الأيام الذخر والعَتَاد ، كما ملكه زمام الكمال فاقتاد ، وأنا أتطرح عليه في صلّات تَفَقَّدِه ، وموالاته يده ، بأن يُسهنني في فرض مخاطبته مهما خاطب معتبراً بهذه الجهات ، ويصحيني من مناصحته بكَوُوس مسرة يعمل فيها هاك وهات ، فالعز بعزه معقود ، والسعد بوجوده موجود ، ومنهسلُ السرور بسروره مورود ، والله عز وجل يُبقيه بقاء الدهر ، ويجعل حبّه وظيفة السر وحمّده وظيفة الجهر ، ويحفظ على الأيام من زمنه زمن الزهر ، ويصل لنا تحت إيلته العام بالعام والشهر بالشهر ، آمين آمين « انتهى .

١٤ - وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى صاحب الأشغال بالمغرب أبا عبد الله ابن أبي القاسم بن أبي مَدِين يهنيه بتقلد المنصب من رسالة قوله :

تعودُ الأمانِيُّ بعدَ انصرافِ ويعتدلُ الشِيءُ بعدَ انحرافِ
فإن كان دهرُكَ يوماً جَنِي فقد جاء ذا خجلٍ واعترافِ

طلع البشير أبقاك الله تعالى بقبول الخلافة المرينية ، والإمامة السنية ، خصها الله تعالى ببلوغ الأمانة ، على تلك الذات التي طابت أرومتها وزكت ، وتأوّهت العلياء لتذكر عهدها وبكت ، وكاد السرور ينقطع لولا أنها تركت منك الوارث الذي تركت ، فلولا العذر الذي تأكّدت ضرورته ، والمانع الذي ربما تقررت لديكم صورته ، لكنك أول مشافه بالهناء ، ومصارف لهذا الاعتناء ، الوثيق البناء ، بنقود الحمد لله والثناء ، وهي طويلة .

١٥ - وممّا خاطب به رحمه الله تعالى قاضي الجماعة وقد نالته مشقة

جرّها غلطُ الخدّامِ السوءِ واشتراكِ الأسماءِ ، أعتبه عندها السلطانُ وخلع عليه
وأشاد بقدره بما نصه :

تعرفتُ أمراً ساعني ثمّ سرّني وفي صحّة الأيام لا بد من مرّضٍ
تعمّدك المحبوب بالذاتِ بعدما جرى ضده ، والله يكفيه بالعرضِ

في مثلها سيدي يُحمّد الاختصار ، وتُقصّر الأنصار ، وتُصرف الأبصار ،
إذ لم يتعين ظالم ، ولم يتبين يقظ ولا حالم ، وإنما هي هدية أجر ، وحقيقة وصل
أعقبت مجاز هجر ، وجرح جُبّار ، وأمر ليس به اعتبار ، ووقية لم يكن فيها
إلاّ غُبّار ، وعثرة القدم لا تُنكّر ، والله سبحانه يُحمّد في كلّ حالة ويُشكّر ،
وإذا كان اعتقاد الخلافة لم يشبّهه شائب ، وحسن الولاية لم يعبه عائب ، والرعي
دائب ، والجاني تائب ، فما هو إلاّ الدهر الحسود ، لمن يسود ، خَمَشَ بيد ثمّ
سترها ، ورمى عن قوس ما أصلحها - والحمد لله - ولا أوترها ، إنما باء بشينه ،
وجنى من مزيد العناية محنة عينه ، ولا اعتراض على قدر ، أعقب بحظ معتذر ،
ووردٍ نُقصَ بكدر ، ثمّ أُتسّ بأكرام^٢ صدر ، وحسبنا أن نحمد الدفاع من
الله تعالى والذب ، ولا نقول مع الكُظُم إلاّ ما يُرضي الرب ، وإذا سابق أولياء
سيدي في مضمّار ، وحماية ذمار ، واستباق إلى بر وابتدار ، بجهد اقتدار ،
فأنا ولا فخر متناول القصبّة ، وصاحب الدّين من بين العصبّة^٣ ، لما بلوت من
بر أوجه الحسب ، والفضل الموروث والمكتسب ، ونصح وضح منه المذهب ،
وتنفيقٍ راق منه الرداء المُذهّب ، هذا مُجمل وبيانه إلى وقت الحاجة مؤخّر ،
ونبذة شرّه لتعجيلها يراعٍ مسخّر ، والله سبحانه يعلم ما أنطوي عليه لسيدي من
إيجاب الحق ، والسير من إجلاله على أوضح الطرق ، والسلام ؛ انتهى .

١ ق : وتطرف .

٢ ق : بأكرم .

٣ العصبية : الأقرباء من جهة الأب .

١٦ - وقال رحمه الله تعالى : خاطبتُ بعضَ الفضلاء بقولي ممّا يظهر
من الجملة غرضه :

تعرفتُ قُرْبَ الدارِ ممّن أُحِبُّهُ فكنتُ أُجِدُّ السيرَ لولا ضرورةً
لأتلُوَ من آيِ المحامدِ سورةً وأبصر من شخص المحاسنِ صُورةً

كنت أبقاك الله تعالى لاغتباطي بولائك ، وسروري بلفائك ، أود أن أطوي إليك
هذه المرحلة ، وأجدّد العهد بلُفْيَاكِ المؤمّلة ، فمَنع مانع ، وما ندرني في الاي
ما الله صانع ، وعلى كل حال فشأنني قد وضح منه سبيل مسلوك ، وعلمه مالك
ومملوك ، واعتقادي أكثر ممّا تسعه العبارة ، والألفاظ المستعارة ، وموصّلتها
ينوب عني في شكر تلك الذات المستكملة شروط الوزارة ، المتصفّة بالعفاف
والطهارة ، والسلام .

١٧ - وقال سامحه الله تعالى يخاطب السلطان أبا عبد الله ابن نصر جبره الله
تعالى عند وصول ولده من الأندلس :

الدهرُ أضيّقُ فُسْحَةً من أن يُرى بالحزنِ والكمدِ المضاعفِ يُقَطِّعُ
وإذا قَطَّعْتَ زمانه في كربةٍ ضيعتَ في الأوهامِ ما لا يرجعُ
فاقنِعْ بما أعطاك ربكَ واغتم منه السرورَ وخلِّ ما لا ينفعُ

مولاي الذي له المنن ، والخلق الجميل والخلق الحسن ، والمجد الذي وضح
منه السنن ، كتبه عبدك مهنتاً بنعم الله تعالى التي أفاضها عليك ، وجلبها إليك ،
من اجتماع شملك ، بنجلك ، وقضاء دينك ، من قرة عينك ، إلى ما تقدم
من إفلاتك ، وسلامة ذاتك ، وتمزق أعدائك ، وانفرادك بأودائك ، والزمن ساعة
في القصر ، لا بل كلمنح البصر ، وكأني بالبساط قد طوي ، والتراب على
الكل قد سوي ، فلا تبقى غبطة ولا حسرة ، ولا كربة ولا يسرة ، وإذا نظرت

ما كنت فيه تجددك لا تنال منه إلاّ أكلة وفراشاً ، وكنيناً ورياشاً ، مع توقُّع الوقائع وارتقَاب الفجائع ، ودعاء المظلوم وصداع الجائع ، فقد حصل ما كان عليه التعب ، وأمن الرهب ، ووضح الأجر المذهب ، والقدرة باقية ، والأدعية راقية^١ ، وما تدري ما تحكم به الأقدار ، ويتمخض عنه الليل والنهار ، وأنت اليوم على زمانك بالخيار ، فإن اعتبرت الحال واجتنبت المحال ، لم يخفَ عليك أنك اليوم خير منك أمس ، من غير شك ولا لبس ، وكان من أملي التوجه إلى رؤية ولدكم ولكن عارضتني موانع ، ولا ندري في الآتي ما الله تعالى صانع ، فاستنبت هذه في تقبيل قدّمه ، والهناء بمقدمه ، والسلام .

١٨ — وقال رحمه الله تعالى : قلت أخاطب محمد بن نوار ، وقد أعرسَ بنت مزوار الدار السلطانية ، وهو معروف بالوسامة وحسن الصورة :

إن كنتُ في العرسِ ذا قصورٍ فلا حضورٌ ولا دخاله^٢
ينوبُ نظمي منابَ تيسٍ والنثرُ عن قفّة النخاله^٣

هناكم الله سبحانه دعاء وخبراً ، وأبسكم من السرور حبيراً ، وعودكم بالحمس ، حتى من عين الشمس ، فلعمري لقد حصلت النسبة ، ورضيت هذه المعيشة الحسبة ، ومن يكن المزوار ذواقه^٣ ، كيف لا يشق البدر أطواقه ، وينشر القبول عليه رواقه ، وأنتم أيضاً بركان جمال ، وبقية رأس مال ، ويمين في الانطباع وشمال ، بمنزلكم اليوم بدرٌ وهلال ، ولعقد التوفيق بفضل الله تعالى استقلال ، فأنا أهنيكم بتسّي أمانيكم ، والسلام .

١٩ — وقال رحمه الله تعالى مخاطباً عميد مراكش المتميز بالرأي والسياسة

١ كذا في ق ، ولعلها أن تقرأ « واقية » .
٢ الدخالة : الهدية .
٣ لست مطمئناً إلى أن اللفظة صحيحة .

والهمة وإفاضة العدل وكف اليد والتجافي عن مال الجباية عامر بن محمد بن علي
الاهتتائي^١ :

تقولُ ليَ الأَطْعانُ والشوقُ في الحشا لهُ الحُكْمُ يمضي بين ناهٍ وآمرٍ
إذا جبلَ التوحيدَ أصبحتَ فارعاً فخيِّمَ قَرارَ العَيْنِ في دارِ عامرٍ
وزُرُ تربةَ المَعْلومِ إنَّ مزارها هو الحجُّ يُفْضي نحوهُ كلُّ ضامرٍ
ستَلقي بمتوى عامرٍ بن محمدٍ ثغورَ الأمانِ من ثنايا البشائرِ
وللهِ ما تبلوهُ من سَعَدٍ وجهِهِ وللهِ ما تلقاهُ من يُمْنٍ طائرِ
وتُسْتَعْمَلُ الأمثالُ في الدهرِ منكما بخيرِ مَزورٍ أو بأغْبَطِ زائرِ

لم يكن همي أبقاك الله تعالى مع فراغ البال ، وإسعاف الآمال ، ومساعدة الأيام
والليال ، إذ الشمل جميع ، والزمان كله ربيع ، والدهر مطيع سميع ، إلا
زيارتك في جبلك الذي يعصم من الطوفان ، ويواصل أمنه بين النوم والأجفان ،
وأن أرى الأفق الذي طلعت منه الهداية ، وكانت إليه العودة ومنه البداية ،
فلما حُمَّ الواقع ، وعجز عن خرق الدولة الأندلسية الواقع ، وأصبحت ديار
الأندلس وهي البلاقع ، وحسنت من استدعائك إياي المواقع ، وقوي العزم وإن
لم يكن ضعيفاً ، وعرضت على نفسي السفر بسببك فألفيته خفيفاً ، والتمست
الإذن حتى لا نرى في قبلة السداد تحريفاً ، واستقبلتك بصدر مشروح ، وزند
العزم مقدوح ، والله سبحانه يحقق السؤل ، ويسهل بمتوى الأمائل المثول ، ويهيئ
من قبل هتاتة القبول ، بفضلته .

٢٠ — للسان الدين ابن الخطيب مقامة عظيمة بديعة وصف بها بلاد الأندلس

١ كان أبو ثابت عامر بن محمد اهتتائي كبير جبل درن والبلاد المراكشية ، وقد وفد على أبي زيان
ابن أبي عبد الرحمن فأكرمه سنة ٧٦٣ ، فلما عاد إلى بلده كان كأنه حاكم مستقل فيها ، وكان
ذلك فاتحة انتقانات كثيرة إلى أن هلك عامر على يد السلطان عبد العزيز ، كما يذكره المقرئ في
ما يلي (ص: ٢١٩) وهذه القصيدة والرسالة في الاستقصا ٤ : ١٧ ومشاهدات لسان الدين : ١٢٠ .

والعدوة ، وأتى فيها من دلائل براعته بالعجب العُجاب ، وقد تركتها مع كتيبي بالمغرب ، ولم يحضرني منها الآن إلاّ قوله في وصف مدينة سبتة ما صورته :

« قلت : فمدينة سبتة ، قال ^١ : عروس المجلى ، وثنية الصباح الأجلى ، تبرجت تبرج العقيلة ، ونظرت وجهها من البحر في المرأة الصقيلة ، واختص ميزان حسناتها بالأعمال الثقيلة ، وإذا قامت بيض أسوارها ، وكان جبل بنيونش ^٢ شَمَامَة أزهارها ، والمنارة منارة أنوارها ^٣ ، كيف لا ترغب النفوس في جوارها ، وتهيم ^٤ الخواطر بين أنجادها وأغوارها ؟ إلى المينا الفُلُكية ، والمراقي ^٥ الفلّككية ، والركية الزكية ، غير المنزورة ولا البكية ، ذات الوقود الجزل ، المعد للأزل ، والقصور المقصورة على الجلد والهزل ، والوجوه الزُهر السّحَن ، المضمون بها عن المحن ، دار الناشبة ، والحامية المضرمة للحرب المناشبة ، والأسطول المهوب ، المحذور الألهوب ، والسلاح المكتوب المحسوب ، والأثر المعروف المنسوب ، كرسي الأمراء والأشراف ، والوسيطه ، لخامس أقاليم ^٦ البسيطة ، فلاحظها في الانحراف ، بصرة علوم اللسان ، وصنعاء الحُلل الحسان ، وثمره امتثال قوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ (النحل : ٩٠) الأمانة على الاختزان ، القويمه المكيال والميزان ، محشر أنواع الحيتان ، ومحط قوافل العصير والحريير والكتان ، وكفاها السكنى ببنيونش في فصول الأزمان ، ووجود المساكن النبيهة بأرخص الأثمان ، والمدفن المرحوم ، غير المرحوم ، وخزانة كتب العلوم ، والآثار المنبئة عن أصالة الحلوم ، إلاّ أنها فاغرة أفواه الجنوب ، للغيث المصبوب ^٧ ، عرضة للرياح ذات

١ انظر هذا النص في مشاهدات لسان الدين : ١٠١ .

٢ بنيونش (Baliunech) : قرية إلى الغرب من سبتة .

٣ المشاهدات : شوارها .

٤ المشاهدات : وتعيم .

٥ المشاهدات : والمراسي .

٦ ق : الأقاليم .

٧ ق : المصبوب .

الهبوب ، عديمة الحرث فقيرة من الحبوب ، ثغر تنبو فيه المضاجع بالجنوب ، وناهيك بحسنة تُعدُّ من الذنوب ، فأحوال أهلها رقيقة ، وتكلّفهم ظاهر مهما ظهرت وليمة أو عقيقة ، واقتصادهم لا تلتبس منه طريقة ، وأنساب نفقاتهم في تقدير الأرزاق عريقة ، فهم يمحسون البلالة مصّ المحاجم ، ويجعلون الخبز في الولاثم بعدد الجماجم ، وفتنتهم ببلدهم فتنة الواجم بالبشير الهاجم ، وراعي الحديب بالمر الساجم ، فلا يفضلون على مدينتهم مدينة ، الشك عندي في مكة والمدينة « انتهى .

وقد سلك في هذه المقامة وصف بلدان المغرب بالسجع والتقفية ، ووفّأها من المدح وضده أكمل توفية ، وعكس هذه الطريقة في « نفاضة الجراب » فوصف فيها الأماكن بكلام مرسل جزل غير مسجع ، مع كونه أقطع من السيف إذا بان عنه القُراب .

٢١ - فمن ذلك قوله حين أجرى ذكر مدينة « مكناسة الزيتون » :
وأطلتْ مدينة مكناسة في مظهر النجد ، رافلة في حلق الدوح ، مبتسمة عن شنب
المياه العذبة ، سافرة عن أجمل المراد ، قد أحكمَ وضعها الذي أخرج المرعى ،
قيد النص وفذلكة الحسن ، فنزلنا بها منزلاً لا تستطيع العين أن تخلفه حسناً ووضعاً
من بلد دارت به المداشر^١ المُغِلَّة ، والتفتْ بسوره الزيتاين المفيدة ، وراق بخارجه
للسلطان المستخلص الذي يسمو إليه الطرف ، ورحب ساحة والتفاف شجرة
ونباهة بنية وإشراف ربوة ، ومثلت بإزائها الزاوية القُدُمي المعدة للوراد^٢ ،
ذات البركة النامية ، والمثذنة السامية ، والمرافق المتيسرة ، يصنابقها الخان البديع
المنصب الحصين الغلّق الخاص بالسابلة والجوابة في الأرض يبتغون من فضل الله

١ المداشر : القرى أو المزارع .

٢ ق : للوراد .

تعالى ، تقابلها غرباً الزاوية الحديثة المربية برونق الشيبية ومزية الجدة والانفساح وتفنن الاحتفال ، إلى أن قال : وبداخلها مدارس ثلاث لبث العلم ، كلفت بها الملوك الجلة الهمم ، وأخذها التنجيد ، فجاءت فائقة الحسن ، ما شئت من أبواب نحاسية ، وبرك فياضة تقذف فيها صافي الماء أعناق أسدية ، وفيها خزائن الكتب والجراية الدارة على العلماء والمتعلمين ، وتفضل هذه المدينة كثيراً من لِداتها بصحة الهواء وتبحر أصناف الفواكه وتعمير الخزائن ومداومة البر لجوار ترابها سليماً من الفساد معافى من العفن ، إذ تقام ساحات منازلها غالباً على أطباق الآلاف من الأقوات تتناقلها المواريث ويصحبها التعمير وتتجافى عنها الأرض ، ومحاسن هذه البلدة المباركة جمّة ، قال ابن عبدون من أهلها والله دره :

إن تفتخر فاسٌ بما في طيّها وبأنّتها في زيّها حسناء
يكفيك من مكناسة أرجاؤها والأطيان : هواؤها والماء

ويُسامتها شرقاً جبل زرهون ، المنبجس العيون ، الظاهر البركة ، المتزاحم العمران ، الكثير الزياتين والأشجار ، قد جلله سكرأ ورزقاً حسناً ، فهو عنصر الخير ، ومادة المجبى ، وفي المدينة دور نبيهة ، وبنى أصيلة ، والله سبحانه ولي من اشتملت عليه بقدرته ، وفيها أقول :

بالحسن من مكناسة الزيتون قد صحَّ عذُر الناظرِ المفتونِ
فضلُ الهواءِ وصحةُ الماءِ الذي يجري بها وسلامةُ المخزونِ
سَحَتْ عليها كلُّ عينٍ ثرّةٍ للمزنِ هاميةِ الغمامِ هتونِ
فاحمرَّ خدُّ الوردِ بين أباطحِ وافترَّ ثغرُ الزهرِ بين غصونِ
ولقد كفاها شاهداً مهما ادعتْ قصبَ السباقِ القربُ من زرهونِ
جبلٌ تضاحكتِ البروقُ بجوهِ فبكتْ عذابُ عيونهِ بعيونِ

وكأنما هو بربري فاقد^١ في لوحه والتين والزيتون
 حَيِّتَ من بلدٍ خصيبٍ أرضه مَثوى أمانٍ أو مُنَاخِ أُمونٍ
 وضفتَ عليك من الإلهِ عنايةً تكسوك ثوبِي أمنةً وسكونٍ

٢٢ - وقد وصفها في مقامة البلدان على منوال السجع فقال^١ : مكناسة
 مدينة أصيلة ، وشعب للمحاسن وفصيلة ، فضّلها الله تعالى ورعاها ، وأخرج
 منها ماءها ومرعاها ، فجانبها مريع ، وخيرها سريع ، ووضعها له في فقه
 الفضائل تفرّيع ، اعتدل فيها الزمان ، وانسدل الأمان ، وفاقت الفواكه فواكهها
 ولا سيما الرمان ، وحفظ أقواتها الاختزان ، ولطفت فيها الأواني والكيزان ،
 ودنا من الحضرة جوارها ، فكثرت قصّادها من الوزراء وزوّارها ، وبها المدارس
 والفقهاء ، ولقصبتهما الأبهة والمقاصير والأبهاء .

[تعليق للمقري]

ويعني بالحضرة مدينة فاس المحروسة لأنها إذ ذاك كرمي الخلافة ، ومكناسة
 مقر الوزارة ، وأهل المغرب يعبرون عن المدينة التي فيها كرسي الخلافة بالحضرة .
 قلت : دخلت مكناسة هذه مراراً عديدة ، وقد أبلى الدهر محاسنها التي كانت
 في زمان لسان الدين^٢ ابن الخطيب جديدة ، واستولى عليها الخراب ، وتكدر منها
 بالفتن الشراب ، وعاث في ظاهرها الأعراب ، وفي باطنها سمسرة الفتنة العائقة
 عن كثير من الآراب ، حتى صار أهلها حزينين ، لبس كثير من أهلها ثياب
 البعد عنها والبين ، والله تعالى يجبرُ حالها ، ويعقب بالخصب إجمالها ، ويرحم الله
 تعالى ابن جابر إذ قال :

لا تنكرون الحسن من مكناسة فالحسن لم يبرحُ بها معروفا
 ولئن محت أيدي الزمان رسومها فلربما أبقّت هناك حروفا

١ كذا في ق ، ولعلها « ناقد » .

٢ انظر مشاهدات لسان الدين : ١٠٩ .

على أن ضواحيها كانت في زمان لسان الدين مأوى للمحاربين والاصوص ، ومثوى للأعراب الذين أعضل داؤهم بأقطار المغرب على العموم والخصوص ، ولذلك يقول لسان الدين رحمه الله تعالى :

مكناسةٌ حُشِرَتْ بها زُمْرُ العدا فمدى بريدٍ فيه ألفُ مرِيدٍ
من واصلٍ للجوعِ لا لرياضةٍ أو لابسٍ للصوفِ غير مُرِيدٍ
فإذا سَلَكَتْ طريقَهَا متصوفاً فانوَ السلوكَ بها على التجريدِ

وما أشار إليه رحمه الله تعالى فيما سبق من ذكر الزاوية القُدُمى والجديدة أشار به إلى زاويتين بناهما السلطان أبو الحسن المريني الكثير الآثار بالمغرب الأقصى الأوسط والأندلس ، وكان بنى الزاوية القُدُمى في زمان أبيه السلطان أبي سعيد والجديدة حين تولى الخلافة ، وله في هذه المدينة غير الزاويتين المذكورتين عدّة آثار كثيرة جميلة من القناطر والسقايات وغيرها ، ومن أجلّ مآثره بها المدرسة الجديدة ، وكان قدّم للنظر على بنائها قاضيه على المدينة المذكورة ، ولما أخبر السلطان بتمام بنائها جاء إليها من فاس ليراها ، فقعده على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها ، وجيء بالرسوم المتضمنة للتنفيذات اللازمة فيها ، فغرّقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها ، وأنشد :

لا بأسَ بالغالي إذا قيلَ حَسَنٌ ليسَ لما قرّرتُ بهِ العينُ ثَمَنٌ

وهذا السلطان أبو الحسن أشهر ملوك بني مرين ، وأبعدهم صيتاً ، وكان قد ملك رحمه الله تعالى المغرب بأسره وبعض الأندلس ، وامتد ملكه إلى طرابلس الغرب ، ثمّ حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان حين قاتل أعراب إفريقية ، فغدره بنو عبد الواد الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان ، وانتهزوا الفرصة فيه ، وهربوا إلى الأعراب عند المصافّة ، فاختل مصافه ، وهُزِمَ أقبح هزيمة ، ورجع إلى تونس مغلوباً ، وركب البحر في أساطيله ، وكانت نحو الستمئة من السفن ، ففضى الله تعالى أن غرقت جميعاً ، ونجا على لوح ، وهلك من كان معه من أعلام المغرب ،

وهم نحو أربعمائة عالم^١ ، منهم السطي شارح الحوفي ، وابن الصباغ الذي أملى في مجلس درسه بمكناسة على حديث « يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر^٢ » أربعمائة فائدة . قال الأستاذ أبو عبد الله ابن غازي رحمه الله تعالى : حدثني بعضُ أعيان الأصحاب أنه بلغه أن الفقيه ابن الصباغ المذكور سُمِعَ بمنصورة تلمسان المحروسة ينشد كالمعاتب لنفسه^٣ :

يا قلبُ كيفَ وقعتَ في أشراكهم ولقد عهدتُكَ تحذُرُ الأشركا
أرضيَ بذلِّ في هَوَى وصبايةٍ هذا لعمرُ اللهِ قدْ أشقاكا

ومات رحمه الله تعالى غريقاً في أسطول السلطان أبي الحسن المريني على ساحل تدلس^٥ هو والفقيه السطي والأستاذ الزواوي وغير واحد في نكبة السلطان أبي الحسن المعروفة .

ومن نظم ابن الصباغ المذكور في العلاقات المعبرة في المجاز وفي المرجحات له قوله رحمه الله تعالى :

يا سائلاً حَصَرَ العلاقاتِ التي وضعُ المجازِ بها يسوغُ ويحملُ
خُذها مرتبةً وكلُّ مقابلٍ حكمُ المقابلِ فيه حقاً يحملُ
عن ذكر ملزومٍ يعوّضُ لازمٌ وكذا بعلتهِ يعاضُ معللُ
وعن المعمّمِ يستعاضُ مخصّصٌ وكذلك عن جزءٍ ينوبُ المكملُ
وعن المحلِّ ينوبُ ما قد حلّه والحذفُ للتخفيفِ ممّا يسهلُ
وعن المُضَافِ إليه نابَ مُضَافهٌ والضدُّ عن أضدادهِ مُستعملُ

١ عرف ابن خلدون في كتاب التعريف ببعض من كان في صحبة أبي الحسن من العلماء ، وانظر كلامه عن ابن الصباغ ص : ٤٥ .

٢ النغير : تصغير نفر وهو طائر صغير أحمر المنقار .

٣ ورد البيتان دون نسبة في مشارق أنوار القلوب : ٦٠ .

٤ مشارق : أبدأ تعالى الله ما .

٥ تدلس : مدينة على ساحل الجزائر .

والشبهُ في صفةٍ تبيّنُ وصورةً ومن المقيّدِ مطلقٌ قد يُبدلُ
والشيءُ يسمّى باسم ما قد كانهُ وكذلك يُسمّى بالبديلِ المبدلُ
وضعِ المجاور في مكانةٍ جارهِ وبهذه حكمُ التعاكسِ يكملُ
واجعل مكان الشيء آله ، وحيء بمنكّرٍ قَصْدَ العموم فيحصلُ
ومعرّفٍ عن مطلقٍ وبه انتهتُ ولحلّها حكمُ التداخلِ يشملُ
وبكثرةٍ وبلاغةٍ ولزومه لحقيقةٍ رجحانهُ يتحصّلُ

انتهى كلام شيخ شيوخ شيوخنا الإمام أبي عبد الله محمد بن غازي رحمه الله تعالى .
وقد حكى ابن غازي المذكور عن شيخه القوري عن شيخه ابن جابر أن ابن
الصباغ المذكور اعترض على القاضي ابن عبد السلام التونسي ، قال : لما لقي ابن
الصباغ بتونس اعترض عليه ابن الصباغ أربع عشرة مسألة لم ينفصل عن واحدة
منها ، بل أقرّ بالخطأ فيها ، إذ ليس ينبغي اتصاف بالكمال ، إلاّ لربي الكبير
المتعال ؛ انتهى .

وذكر الشيخ أبو عبد الله الأبّي رحمه الله تعالى في « شرح مسلم » عند
تكلمه على أحاديث العين ما معناه أن رجلاً كان بتلك الديار معروفاً بإصابة العين ،
فسأل منه بعض الموتورين للسلطان أبي الحسن أن يصيب أساطيله بالعين ، وكانت
كثيرة نحو الستمائة ، فنظر إليها الرجل العائن ، فكان غرقها بقدرة الله الذي يفعل
ما يشاء ، ونجا السلطان برأسه ، وجرت عليه محن ، واستولى ولده السلطان أبو
عنان فارس على ملكه ، وكان خلّفه بتلمسان ، ولم يزل في اضطراب حتى ذهب
إلى سجلماسة ، ومنها خلاص إلى جبل هنتاة قرب مراکش ، فذهب إلى حربه
ابنه السلطان أبو عنان فارس بجيوشه ، وأناخ على الجبل بكلّكله ، ولم تخفر أهل
هنتاة جواره لديهم ، ولا كبيراهم عامر بن محمد وأخوه ، وصبروا على الحصار
وخراب الديار ، وحرقت الأماكن ، حتى مات هناك رحمه الله تعالى ونُقِلَ بعدُ
إلى شالة سلا مدفن أسلافه ، ومن أراد الوقوف على أخباره فعليه بكتاب الخطيب

ابن مرزوق الذي ألفه فيه وسماه « المسند الصحيح الحسن من أحاديث السلطان أبي الحسن » .

ولما ذهب لسان الدين ابن الخطيب إلى عامر بن محمد يجبله المشهور زار محل وفاة السلطان المذكور ، وقد ألمّ بذكر ذلك في « نفاضة الجراب » إذ قال : وشاهدت يجبل هنتاة محل وفاة السلطان المقدس أمير المسلمين أبي الحسن رحمه الله تعالى ، حيث أصابه طارق الأجل ، الذي فصل الخطبة ، وأصمت الدعوة ، ورفع المنازعة ، وعايته مرفعاً عن الابتدال بالسكنى مفترشاً بالحصباء ، مقصوداً بالابتهاال والدعاء ، فلم أبرح يوم زيارة محل وفاته أن قلت ١ :

يا حسنها من أربُعٍ وديارٍ وجبالٍ عزٍّ لا تذُلُّ أنوفها ومقرٌّ توحيدٍ وأُسٌّ خلافةٍ ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنهارَ الندى ما كنتُ أحسبُ أنَّ أنوارَ الحجى مَحَّتْ جوانبها البرود ، وإن تكنْ هدَّتْ بناها في سبيلِ وفائها لما توعدّها على المجدِ العدا عمرتْ بجِلَّةِ عامرٍ وأعزّها فرسا رهانٍ أحرزا قصبَ الندى ورثا عن النَّدْبِ الكبيرِ أيهما وكذا الفروعُ تطولُ وهي شبيهةٌ أزرتْ وجوهُ الصَّيْدِ من هنتاةٍ للهِ أيُّ قبيلةٍ تركتْ لها الـ	أضحتْ لباغِي الأَمْنِ دارَ قَرارِ إلا لعزَّ الواحدِ القَهَّارِ آثارها تُنبِي عن الأخبارِ تجري بها في جملَةِ الأنهارِ تلتاحُ في قُننٍ وفي أحجارِ شَبَّتْ بها الأعداءُ جَدْوَةَ نارِ فكأنها صرعى بغيرِ عِقارِ رضيتْ بعَيْثِ النارِ لا بالعارِ عبدُ العزيزِ بمرهفٍ بتارِ والبأسِ في طلقٍ وفي مضمارِ مَحْضَ الوفاءِ ورفعةِ المقدارِ بالأصلِ في ورقٍ وفي أثمارِ في جوهها بمطالعِ الأَقمارِ نظراءِ دعوى الفخرِ يومَ فخارِ
---	--

١ القصيدة في المشاهدات : ١٢٨ وأزهار الرياض ١ : ٢٩٤ .

نصرت أميرَ المسلمينَ وملكهُ
 وارت^١ علياً عندما ذهب الردي
 وتخاذلَ الجيشُ اللّهامُ واصبحَ الـ
 كفرتُ صنائعهُ فيمّمَ دارها
 وأقامَ بينَ ظهورها لا يتّقي
 فكأنها الأنصارُ لما أتست^٢
 لما غسدا لحظاً وهم أجفانهُ
 حتى دعاهُ اللهُ بينَ بيوتهم
 لو كان يمنعُ من قضاء الله ما
 قد كان يأملُ أن يكافيءَ بعض ما
 ما كان يقنعهُ لو امتدَّ المدى
 فيعيدُ ذاكَ الماءَ ذائبَ فضةٍ
 حتى تفوزَ على النوى أوطانها
 حتى يلوحَ على وجوه وجوههم
 ويسوغَ الأملَ القصيَّ كرامها
 ما كان يرضى الشمسَ أو بدر الدجى
 أو أن يتوجَّ أو يقلدَ هامها
 حقّ على المولى ابنه ليثارُ ما
 فلمثلها ذخيرَ الجزاءِ ، ومثلهُ
 وهو الذي يقضي الديونَ وبرهُ
 حتى تحجَّ محمّلةً رفعوا بها

قدّ أسلمتهُ عزائمُ الأنصارِ
 والروعُ بالأسماعِ والأبصارِ
 أبطالُ بسين تقاعدِ وفرارِ
 مستظهِراً منها بعزّ جوارِ
 وقَعَ الردي وقد ارتمى بشرارِ
 فيما تقدّمَ غربّةَ المختارِ
 نابتُ سفارهمُ عن الأشفارِ
 فأجابَ ممثلاً لأمرِ الباري
 خلصتُ إليه نوافذُ الأقدارِ
 أولوهُ لولا قاطعُ الأعمارِ
 إلاّ القيامُ بحقّها من دارِ
 ويعيدُ ذاكَ الترابَ ذوبَ نضارِ
 من ملكهٍ بجلائلِ الأوطارِ
 أترُ العناية^٣ ساطعَ الأنوارِ
 من غير ما ثنيا ولا استعصارِ
 عن درهمٍ فيهم ولا دينارِ
 ونحورها بأهليّةٍ ودراري
 بذلوهُ من نصري ومن إشارِ
 من لا يضيعُ صنائعَ الأحرارِ
 يرضيه في علني وفي إسرارِ
 علّمَ الوفاءَ لأعينِ النظارِ

١ المشاهدات : آوت ؛ ق : وأوت . . . بعدما .

٢ ق : أن سبت .

٣ المشاهدات : الرعاية .

فيصير منها البيتُ بيتاً ثانياً للطائفين إليه أيّ بدارِ
تغني قلوبُ القومِ عن هدي بهِ ودموعُهُم تكفي لرمي جمارِ
حييت من دارٍ تكفل سعيها الـ محمود بالزئفي وعقبى الدارِ
وضفت عليك من الإله عنايةً ما كرت ليل فيك إثر نهارِ

ويعني بالمولى ابنه السلطان أبا سالم ابن السلطان أبي الحسن .

ومن العجائب أن الرئيس عامر بن محمد الذي جرى في هذه الأبيات ذكره كان يؤمل بيواته للسلطان أبي الحسن ونُصرت له وعدم إخفار ذمته فيه أن ينال من أولاده الملوك بذلك عزّاً مستطيلاً ورياسة زائدة على ما كان فيه ، فقضى الله تعالى أن كان حنفة على يد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن ، إذ نازله بجنوده ، وحاصره بمعتقله ، حتى استولى عليه وقتله ، حسبما استوفى ذلك الشيخ الرئيس قاضي القضاة أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي المغربي نزيل مصر في تاريخه الكبير الذي سماه بـ «كتاب العبر وديوان المتبدل والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر» فمن شاء فليراجعه ثمّة .

وكان الرئيس أبو ثابت عامر بن محمد الهنتاقي المذكور خرج على السلطان عبد العزيز بالسلطان المعتمد على الله أبي الفضل محمد ابن أخي السلطان عبد العزيز المذكور ، فكان من قتله ما ذكر ، والله غالب على أمره .

ولنرجع إلى ما كنا فيه من نثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى عنه ، فنقول :

٢٣ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في كتابه «أعمال الأعلام»

ما صورته :

«وفي غرضي إذا من الله تعالى بانفراج الضيقة الوقتية ، ومُعَاوَدَة الأزمان الهنية ، والنصبة النقية ، أن نصنف في التاريخ كتاباً مبنياً على التطويل ، مستوعباً

الكثير والقليل ، نسميه «بضاعسة المهولين في أساطير الأولين» يكون هذا الكتاب بالنسبة إليه الحصاة من الرمال ، والقطرة من الغيث المثال ، بإعانة ذي القدرة والجلال ؛ انتهى .

٢٤ — ومن كلامه رحمه الله تعالى : فما استبعد المرام ، مَنْ قصد الكرام ، وما فقد الإيناس ، من أَمَل الناس ؛ انتهى .

وقد سلك لسان الدين رحمه الله تعالى في كثير من كتبه كـ «الكتيبة الكامنة» و «التاج المحلّي» و «الإكليل الزاهر» وغيرها تحلية الأعلام من حملة السيوف والأقلام ، بالكلام المسجع الآخذ بحظه من الإتقان على طريقة صاحب «القلائد» و «المطمح» أبي نصر الفتح بن عبيد الله المدعو بابن خاقان ببلغ الأندلس غير مدافع وعلى نهج مباريه ابن بسّام صاحب «الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة» وهو كتاب ينبغي أن يراجع ، وقد رأيت أن آتي بشيء من كلام لسان الدين فيما ذكر ، ونلّم بعد تحليته بالتعريف بحال مَنْ حلاه من الأعلام ، بحسب ما من به ويسره لي الملك العلام ، سبحانه وتعالى ، فنقول :

٢٥ — قال لسان الدين رحمه الله تعالى في بعض كتبه في وصف بعض من عرف به ما نصه : أي نفس صافية من الكدر ، وصدّر طيب الورد والصدّر ، ودوحة عهد تندى أوراقها ، وميشكاة فضل يستطلع إشراقها ، تمسك برضاع الكأس ، يرى ذلك من حسن عهده ، وقسم لحظاته بين آس الرياض وورده ، فلما حوّم حمامه للوقوع ، وكاد يقوّض رحله عن الربوع ، وشعر بجبائل المنية تعلقه ، وسرعان خيل الأجل تزهرقه ، أقلع عن فنّه ، وأمر بسفك دنته ، ولجأ إلى الله تعالى بأوبته ، وضرع إلى الله تعالى في قبول توبته وغفران خوبته ، فكان ذلك عنوان الرضى ، وعلامة عفو الله تعالى عمّا مضى ، دخلت عليه في مرضه ، وأشرتُ باستعمال الدواء المسمّى بلحية التيس عند الأطباء ، فاستعمله ، فوجد بعض خفة .

٢٦ - وقال في آخر : كثيف الحاشية ، معدود في جنس السائمة والماشية ،
تُلّيت على العمال به سورة الغاشية ، تولّى الأشغال السلطانية فدُعرت الجبابة
لولايته ، وقامت قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا : جاءت
الدابة تكلمنا وهي لإحدى الشروط ، من رجل صائم الحشوة ، بعيد من المصانعة
والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخاطبة : لا مِساس ، وعلى مسافة نحوه ،
وتجهّم وجهه ، فكان خالطاً إساءته بإحسانه ، مشتغلاً بشانه ، غاضباً من عنان
لسانه ، عهدي به في الأعمال يقدرّ فيها ويدبّر ، ويرجح ويعبر ، ويجبط ويتبّر ،
وهو مع ذلك يكبّر ، ويحسنّ من الأزمنة ويقبّح ، وهو يسبّح ، ولما شرع في
البحث والتنقير ، والمحاسبة على القِطْمير والنقير ، أتاه قاطع الأجل ، فحنّ
ركابه فأفضى العجل ، وصدرت عنه أبيات خَضَمَ فيها وقضم ، وحصل تحت
القدر المشترك مع من نظم .

٢٧ - وقال في آخر : كودن حلبة الآداب ، وسنّور عبد الله بيع بقيراط
لما شاب^١ ، هام بوادي الشعر مع مَن هام ، واستمطر منها الجهم ، فجاء بأبيات
أوهى من بيت العنكبوت نسجاً ، ومقاصد لا تبين قصداً ولا نهجاً ، وله بيت
معمور بقضاة أكابر ، فرسان أقلام ومحابر ، وعمال قادوا الدهر بأزمنة أزمتهم ،
وفرعوا الزهر بهمتهم ، وتكاثرت عليه رحمه الله الإحن ، وتعاورته المحنّ ،
وتصرّف آخر عمره في بعض الأعمال المخزنية فتعلّل بنزر القوت ، إلى الأجل
الموقوت .

٢٨ - وقال في آخر : معدود في وقته من أدبائه ، ومحسوب في أعيان بلده
وحُسبائه ، كان رحمه الله تعالى من أهل العدالة والخير ، سائراً على منهج الاستقامة

١ يشير إلى قول بعضهم :

كسنور عبد الله بيع بدرهم صغيراً فلما شب بيع بقيراط
انظر الحيوان ٥ : ٣١٥ وتعليق الجاحظ على البيت ، والحاشية رقم : ٤ .

أحسن السّير ، وله أدب لا يقصر عن السداد ، وإن لم يكن بطلاً فمن يكثر
السواد ، قد أثبت له ما عثرت عليه ، ممّا ينسب الناس إليه .

٢٩ - وقال في آخر : معتر غير قانع ، ومنجع كل شهيم وخانع ، نشأ
ببلده مالفة أبرع من أورد اليراعة في نِقْس ، وهز غصنها في روضة طِرْس ،
إلا ما كان من سخافة عقله ، وقعوده تحت المثل « اخْبِرْ تَقْلِهْ » ، لا يرتبط إلى
رتبة ، ولا ينتمي إلى عَصْبَة ، ولا يتلبّس بسمت ، ولا يستقيم من أمت^١ ،
أخبرني مَنْ عني بجزبه ، وذِكْر عِبْرِهِ ، من صباه إلى كبره ، أنه رشح في بعض
الدول ، وعرض لاكتساب الخيل والحَوَل ، وخُلعت عليه كسوة فاخرة ،
وشارة بزهر الرياض ساخرة ، فانقاد طَوْع حرمانه ، ونبذ صفقّة زمانه ، وحمله
فرطُ النهَم ، على أن ابتاع في حجره طعاماً كثير الدَّسَم ، وأقبل وأذباله منه
تقطر ، كما اختلفت باللبن الأشطر ، فطرُد ونُبذ ، وطُرِح بعدما جُبذ ، لقيته
بمالقة وقد قلب له زمانه عينيه ، وسقط في يديه ، فانتابني بأمداحه ، وتعاورني
بأجاجة وقراحه .

٣٠ - وقال في آخر : أديبٌ نار فكره تتوقد ، وأريب لا يُعترض كلامه
ولا يُنقَد ، أما الهزل فهو طريقته المثلى ، ركض في ميدانها وجلّتي ، وطلع في
أفقها وتجلّتي ، فأصبح علّم أعلامها ، وعابر أحلامها ، إن أخذ بها في وصف
الكاس ، وذكر الورد والآس ، وألمّ بالربيع وفصله ، والحبيب ووصله ؛ والروض
وطيبه ، والغمام وتقطيبه ، شتّى الجيوب طرباً ، وعلّ النفوس شرباً وضرباً ،
وإن ابتغى لاعتلال العشيّة ، في فرش الربيع الموشيّة ، ثمّ تعدّها إلى وصف
الصَّبوح ، وأجهز على الزق المجروح ، وأشار إلى نغمات الورق ، يرفلن في
الحلل الزُّرق ، وقد اشتعلت في عنبر الليل نارُ البرق ، وطلعت بنودُ الصبح في

١ الأمت : الاعوجاج .

شرفات الشرق ، سَلَبَ الحليم وقاره ، وذكر الخليع كأسه وعقاره ، وحرك الأشواق بعد سكونها ، وأخرجها من وكونها ، بلسان يتزاحم على موارد الخيال ، ويتدفق من حافته الأدب السيال ، ويبان يقيم أود المعاني ، ويشيد مصانع اللفظ محكمة المباني ، ويكسو حلل الإحسان جسوم المثلث والمثاني ، إلى نادرة لمثلها يشار ، ومحاضرة يُجنى بها الشهد ويُشار ، وقد أثبت من شعره المعرب وإن كان لا يتعاطاه إلا قليلاً ، ولا يجاور إلا تعليلاً ، أبياتاً لا تخلو عن مسحة جمال على صفحاتها ، وهبّة طيب يتمّ في نفحاتها .

٣١ - وقال أيضاً في آخر : ظريفُ السجية ، كثير الأريحية ، ارتحل من لورقة فتحها الله تعالى واتخذ المريّة داراً ، وألّف بها استقراراً ، إلى أن دعاه بها داعيه ، وقام فيها ناعيه .

٣٢ - وقال في وصف آخر : شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه - كما قيل في نفس المؤمن - هيّنة ، ينظم الشعر عذباً مساقفه ، محكماً اتساقه ، على فاقة ، وحال ما لها من إفاقة ، أنشد المقام الكريم بظاهر بلده قصيدة استغرب منه منزعها ، واستعذب من مثله مشرعها .

٣٣ - وقال في آخر : من أئمة أهل الزمام ، خليق برعني المتات والذمام ، ذو خط كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان ببلده رحمه الله تعالى بدار إشرافه محاسباً ، ودرة في لجة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يلبس الطروس من براعته حُسنَ الحلل ، وله شعر لا بأس به ، ولا خفاء بفضل مذهبه .

٣٤ - وقال في آخر : خير من استبق إلى داعي الفلاح استباقاً ، وانتمى إلى القوم الذين هم في الآخرة أطولُ أعناقاً ، وإن كانوا في الدنيا أضيقُ أرزاقاً ، مردد أذكار ، ومُسَبَّح أسحار ، وعامر مثذنة ومنار ، كان ببلده مؤذناً بجامعها ،

ومؤقتاً بأَمْ صوامعها ، ومعتبراً فيمن كان بها من السدنة ، ومن مثله قوله : فكأنما
قربَ بدنة ، وله لسان مخيف ، وشعر سخيف ، توشح بحليته ، وجعله وسيلة
كديته .

٣٥ - وقال في آخر : عظيم الهيبة حسن اللقاء ، أغرب في حسن المداراة
من العنقاء ، استمر عمره للحكم ، وصبر على حجج الصم والبكم ، وأفرط
في هشته وهزته ، وتنزل عن نخوة القضاء وعزته ، وله سلف في القضاء عالي
المراقب ، مزاحم للنجم الثاقب ، وقد أثبت من شعره ما تيسر إثباته ، ونجح
بروض هذا المجموع نباته .

٣٦ - وقال في آخر : قاضٍ توارث كل جلالة ، عن كلاله ، وجمع في
العلم الحسب ، بين الموروث والمكتسب ، أشرق بجيدٍ معمٍ في العشيرة مخول ،
وألقت عليه مقاليدها من منقول ومتأول ، إلى نزاهة لا تغرها البيضاء ولا الصفراء ،
وحلم لا تستهويه السعاية ولا يستفزه الإغراء ، ووقار يستخف الجبال الراسية ،
ونظر يكشف الظلم الغاشية ، تولى قضاء الحضرة فأنفذ الأحكام وأمضاها ، وشام
سيوف الجزالة وانتضاها ، ولبس أثواب النزاهة والانقباض فما نضاها ، وسلك
الطريق التي اختارها السلف وارتضاها ، فاجتمعت الأحوال المفترقة عليه ، وصرف
الثناء أعنة الألسن إليه ، ثم كرّ إلى بلده ، واستقر خطيباً بقرارة أهله وولده .

٣٧ - وقال في آخر : مُتَمِّمٌ إلى معرفة ، متصف من الذكاء بأحسن صفة ،
أقرأ ببلده علم اللسان ، وما حاد عن الإحسان ، وعانى الشعر فنظم قوافيه ، وما
تكلف فيه ، وعلى غزارة مادته ، ووضوح جادته ، فشعره قليل البشاشة ، ذاهبُ
الحشاشة ، وذو الإكثار ، كمثل العثار ، وله سلف يخوض في الحقائق ، وينتحل
بعض الكلام الرائق .

٣٨ - وقال في آخر : مُنَمِّمٌ لدين وعفة ، وإلى نفس بالعرص الأذني

مستخفّة ، ممّن نزع إلى سلوك ورياضة ، ويفيض في طريق القوم بعض إفاضة .

٣٩ - وقال في آخر : ممّن يتشوق إلى المعارف والمقالات ، ويرتاح إلى الحقائق والمحالات ، ويشتمل على نفس رقيقة ، ويسيرُ من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر ما يشهد بنبله ، ويُستظرف من مثله .

٤٠ - وقال في آخر : مشمر في الطلب عن ساق ، مثابر على اللحاق بدرجات الحُدّاق ، منتحل للعربية جاداً في إحصاء خلافها ، ومعاطاة سلافها ، وربما شرست في المذاكرة أخلاقه ، إذا بُهرجت أعلاقه ، ونوزع تمسكه بالحجة واعتلاقه ، ورحل إلى المغرب فاستجدى بالشعر سلطانه ، ثم راجع أوطانه .

٤١ - وقال في آخر : منتمٍ إلى زهد ، باذل في التماس الخير الجهد ، نظمه لا يخلو من حلاوة ، ومعانيه في طريقه عليها بعض طُلاوة .

٤٢ - وقال في آخر : كاتب سجلات لا يساجلُ في صحة فصولها ، وتوقيع فروعها على أصولها ، وكلما طلب بالنظم القريحة ، وأعمل الفكرة الصريحة ، مع إقلاله ، وعدم استعماله ، أجابت ولبّت ، وتنسّمت رباحها وهبّت .

٤٣ - وقال رحمه الله تعالى وسامحه في بعض العدول الصوفية الأخيار ، الذين وحدوا الله وفنّوا عن سائر الأغيار : خير عدل ، وممّن له وقار وفضل ، مُتّسم بخير ، معرض عن غير ، مشتمل بصفات مرضية ، مُلم بالنظم في الطريقة الصوفية .

وللسان الدين رحمه الله تعالى ركض في هذا الميدان لا يجارى فيه ، وثبوت فضل لا يستند إلى دليلٍ جاحده ونافيه .

٤٤ - وقال رحمه الله تعالى في كتابه « التاج المحلّي في مساجلة القِدْح

المعلّى « في ترجمة محمد بن عبد الله بن محمد بن لب الأمي المري^١ ، ما صورته :
لُجُّ معرفة لا يَغِيضُ ، وصاحب فنون يأخذ فيها ويفيض ، نشأ ببلده مشمراً عن
ساعد اجتهاده ، وسائرأ في قُنن العلم ووهاده ، حتى أبنع روضه ، وفهق حوضه ،
ثمَّ أخذ في راحة ذاته ، وشام بارق لذاته ، ثمَّ سار في البطالة سير الجَموح ،
وواصل الغَبوق بالصَّبوح ، حتى قضى وطره ، وسثم بطره ، وركب الفُلك ،
وخاض اللجج الحُلك ، واستقر بمصر على النعمة العريضة ، على شك في قضاء
حجة الفريضة ، وهو اليوم بمدرستها الصالحية نبيه المكانة ، معدود في أهل العلم
والديانة ؛ انتهى .

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور ما نصه : من خط شيخنا أبي البركات
في الكتاب « المؤتمن على أبناء أبناء الزمن » : كان سهلاً سلكس القيادة ، لذيد
العشرة ، دمث الأخلاق ، ميالاً إلى الدّعة ، نفوراً عن النصب ، يركن إلى فضل
نباهة وذكاء يحاسب بهما عند التحصيل والدراسة والدّثوب على الطلب ؛
من رجل يجري من الألحان على مضمار لطيف ، ولم يكن له صوت رخيم يساق^٢
انطباعه في التلحين ، فعجبر ذلك بالأوتار ، وحاول من ذلك بيده مع أصحابه ما
لاذ به الظرفاء منهم ، واستعمل بدار الأشراف بالمرية ، فأحكم تلك الطريقة في
أقرب زمان ، وجاء زمامه يروق من ذلك العمل من شأنه ، ثمَّ نهضت به همته
إلى أرفع من ذلك ، فسار إلى غرناطة ، فقرأ بها العربية وغيرها ، وانخرط في
سلك نبهاء الطلبة لأدنى مدة ، ثمَّ رحل إلى بلاد المشرق في حدود العشرين وسبعمائة
فلم يتجاوز القاهرة لموافقة هوائها علة كان يشكوها ، وأخذ في إقراء العربية بها ،
وعرّف بها إلى أن صار يدعى بأبي عبد الله النحوي . قال شيخنا المذكور : ورأى
في صغره فارة أنثى فقال : هذه قرينة ، فلقّب بذلك ، وصار هذا اللقب أغلب

١ انظر ترجمته في الكتيبة : ٨٨ وبغية الوعاة : ٦٠ والدرر ٤ : ١٠٣ (ط . القاهرة) .

٢ ق : يصادق .

عليه من اسمه ومعرفته .

ثم قال لسان الدين في حق المذكور ما ملخصه : إنه قرأ بالخطبة على الخطيب أبي علي القيجاطي وطبقته ، وأخذ بالقاهرة عن الأستاذ أبي حيان ، وانتفع بجاهه ، نقل إلينا الحاج الحافظ أبو جعفر ابن غصن من شعره حسبما قيده عنه بمصر :

بُعْدُ المزارِ وَلَوْعَةُ الأشواقِ حَكَمًا بِفَيْضِ مَدَامِعِ الآمِقِ
وَحُفُوقُ نَجْدِي النسيمِ إِذَا سَرَى أَذْكَى لَهَيْبِ فَوَادِي الحَفَاقِ
أَمْعَلِي أَنَّ التَّوَاصلَ فِي غَدِّ مِنْ ذَا الَّذِي لَعْدَ فِدَيْتِكَ باقِ
إِنَّ اللَّياليَ سُبَقُ إِنِّ أَقْبَلْتُ وَإِذَا تَوَلَّيْتُ لَمْ تُنَلِّ بلِحاقِ
عَجَّ بِالْمَطِيِّ عَلَى الحِمَى ، سُنِّي الحِمَى صَوَّبَ الغمامِ الواكِفِ الرِّراقِ
فِيهِ لَذِي القَلبِ السَّليمِ ودادَةٌ قَلْبُ سَلِيمٌ ما لَهُ مِنْ راقِ
قَلْبُ غِدادَةٍ فِراقِهِم فارقَتَهُ لا كانَ فِي الأيامِ يَوْمُ فِراقِ
يا سارياً وَاللَّيْلُ ساجٍ عاكِفٌ يَفْئِدُ الفِلا بِنِجائبِ وِناقِ
عَرَّجَ عَلَى مَشْوى النَبِيِّ مُحَمَّدِ خَيْرِ البِريَّةِ ذِي المِقامِ الراقِ
وَرَسولِ رَبِّ العالِمِينَ وَمَنْ لَهُ حَفْظُ العُهودِ وَصِحَّةُ المِثاقِ
الظاهِرُ الآياتِ قامَ دَليلُها وَالطاهِرُ الأَخلاقِ والأَعراقِ
بَدَرُ الهُدَى وَهُوَ الَّذِي آياتُهُ وَجِيبُهُ كَالشَّمسِ فِي الإِشراقِ
الشافِعُ المَقبولُ مَنْ عَمَّ الوَرى بِالجُودِ والإِرافِ والإِراقِ
الصادِقُ المأمونُ أَكْرَمُ مَرسلِ سارتْ رِسالَتُهُ إِلَى الآفاقِ
أَعلى الكِرامِ نَدَى وَأَبسطِهِم يَدًا قَبضَتْ عِنانَ المِجدِ باسْتِحاقِ
وأشدَّ خَلقِ اللَّهِ إِقدامًا إِذا حَمِي الوَطيسُ وَشَمَرَتْ عَن ساقِ
أَمْضاهُمُ وَالخَيْلُ تَعَثُّ فِي الوِغى وَتَجولُ سَبْحًا فِي الدَّمِ المِهراقِ

١ القصيدة في الكتيبة : ٨٨ - ٩٠ .

مَنْ صَيَّرَ الْأَدْيَانَ دِيناً وَاحِداً
وَأَحْلَنَّا مِنْ حُرْمَةِ الْإِسْلَامِ فِي
لَوْ أَنَّ لِلْبَدْرِ الْمُنِيرِ كَمَالَهُ
لَوْ أَنَّ لِلْبَحْرَيْنِ جُودَ يَمِينِهِ
لَوْ أَنَّ لِلْأَسَادِ شِدَّةَ بَأْسِهِ
لَوْ أَنَّ لِلْآبَاءِ رَحْمَةَ قَلْبِهِ
ذُو الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ الْخَفِيِّ الْمُنْجَلِيِّ
آيَاتُهُ شُهْبٌ وَغُرٌّ بِنَانِهِ
مَا جَتِ فُتُوحُ الْأَرْضِ وَهُوَ غِيَاثُهَا
ذُو رَأْفَةٍ بِالْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٍ
وَخِصَالٍ مَجْدٍ أَفْرَدَتْ بِالْخِصْلِ فِي
ذُو الْمِعْجَزَاتِ الْغُيُورِ وَالْآيِ الَّتِي
ثَنَّتِ الْمُعَارِضَ حَائِثِراً لَمَّا حَكَتْ
يَقْظُ الْفُؤَادِ سَرَى وَقَدْ هَجَعَ الْوَرَى
وَسَمَا وَأَمْلَاكُ السَّمَاءِ تَحْفَهُ

ومنها :

مَنْ بَعْدَ إِشْرَاكِ مُضَى وَنِفَاقِ
ظَلَّلَ ظَلِيلٍ وَارِفِ الْأُورَاقِ
مَا نَالَهُ كَسْفٌ وَنَكْسٌ مُحَاقِ
أَمِنَ السَّفِينُ غَوَائِلَ الْإِسْطَاقِ
لَثَنَتْ عَنِ الْإِنْجَادِ وَالْإِعْرَاقِ
ذَابَتْ نَفُوسُهُمْ مِنَ الْإِشْفَاقِ
وَالجَاهِ وَالشَّرْفِ الْقَدِيمِ الْبَاقِي
سُحِبُ النُّوَالِ تَدْرُجُ بِالْأُرْزَاقِ
وَرَبَّتْ رَبُّي الْإِيمَانَ وَهُوَ السَّاقِي
وَهَدَى وَتَسَادَيْبٍ بِحَسَنِ سِيَاقِ
مَرْمَى الْفَخَّارِ وَغَايَةِ السَّبَّاقِ
كَمْ آيَةٌ فُقِدَتْ وَهُنَّ بَوَاقِي
فَلَقَّ الصَّبَاحَ وَكَانَ ذَا إِفْلَاقِ
لِمَقَامِ صَدَقٍ فَوْقَ ظَهْرِ بُرَاقِ
حَتَّى تَجَاوِزَهُنَّ سَبْعَ طَبَاقِ

وَانْبَتَ مِنْ هَذَا الْوَرَى بِطَلَاقِ
إِنِّي مِنَ الْأَعْمَالِ ذُو إِمْلَاقِ
تَخْتَالُ بَيْنَ الْوُخْدِ وَالْإِعْنَاقِ
تَطْوِي الْفَلَاحَ مَمْتَدَّةَ الْأَعْنَاقِ
وَتَقُودُهُنَّ أَرْمَةُ الْأَشْنَاقِ
وَهِيَ الْقَسِيُّ بُرِينَ كَالْأَفْوَاقِ
وَسِعَ الْوَرَى بِالنَّائِلِ الدَّفَاقِ

يَا ذَا الَّذِي اتَّصَلَ الرَّجَاءُ بِجَبَلِهِ
حُبِّي إِلَيْكَ وَسِيَلِي وَذَخِيرَتِي
وَالْإِلَيْكَ أَعْمَلْتُ الرُّوَاحِلَ ضَمْرًا
نُجْبًا إِذَا نَشَدْتُ حَلِي تِلْكَ الْعَلَا
يَحْدُو بَيْنَ مَيْنِ النَّحِيبِ مَرْدَدٌ
غَرَضٌ إِلَيْهِ فَوْقَتْنَا أَسْهَمًا
فَأَنْخَتَهَا بِفِنَائِكَ الرَّحْبِ الَّذِي

وقيرى مؤملاً الشفاعةُ في غدٍ
وعليك يا خير الأنام تحيةُ
تأرج الأرجاء من نَفحاتها
ومنها :

وكفى بها هبةً من الرزاقِ
تحي النفوسَ بنشرها الفتاقِ
أرج النديِّ بمدحك المصدقِ

قَسَمًا بطيبِ ترابِ طيبةٍ ؛ إنه
وبشأن مسجدها الذي يرجى به
لأجودُ فيه بأدمعِ أسلاكها
أغدو بتقبيلِ على حصائه
ومنها :

مسكُ الأنوفِ وإمددُ الأحداقِ
لُعامِلِ الرحمنِ أيُّ نفاقِ
منظومةٌ بثرائبِ وتراقِ
وعلى كرائمِ جُدْرِهِ بعناقِ

وعليكَ ذا النورينِ تسليمٌ له
كفؤ النبيِّ وكفؤ أعلى جنةٍ
وكفاه ما في الفتحِ جاء ومصحفٌ
وعلى أبي السبطينِ مَنْ سَبَقَ الأُلى
الظاهرِ الطهرِ ابنِ عمِّ المصطفى
مُبدِي القضايا من وراءِ حجابها
يفزوا العُداةَ بغلظةٍ فيهدُّهم
راياتهُ لا شيءٌ من عقبانها
وعلى كرامِ ستَّةِ عشرتِ بهم
ما بينَ أروعِ ماجدِ نيرانه
وأخي حروبِ صداهُ رَشِقُ القنا
ما غرَّدتْ شجواً مطوِّقةً وما
وعلى القرابةِ والصحابَةِ كلهم

نورٌ يلوحُ بصفحةِ المهرقِ
حيزتُ له بشهادةٍ وصداقِ
في الفتحِ يحمده وفي الإطباقِ
سبقوا إلى الإسلامِ يومَ سباقِ
شرفٌ على التخصيصِ والإطلاقِ
ومفتحِ الأكمامِ عن أعلاقِ
بصوارمِ تفري الفقارِ رفاقِ
بمطارِ يومِ وغيِّ ولا بمطاقِ
عند النظامِ لآلئِ النَساقِ
جنحِ الظلامِ تشبُّ للطَّرَاقِ
عما قدودِ مثلهنَّ رفاقِ
شقتُ كمامِ الروضِ عن أطواقِ
والتابعينَ لهمْ ليومِ تلاقِ

وذكر في « الإحاطة » غير هذه .

٤٥ - وقال لسان الدين في « التاج » في ترجمة محمد بن عبد الرحيم الوادي أشي^١ ما صورته : ناظم أبيات ، وموضح غرر وشيات ، وصاحب توقيعات وقيعات ، وإشارات ذوات شارات ، وكان شاعراً مكثراً ، وجواداً لا يخاف عثراً ، دخل على أمير بلده المخلوع عن ملكه ، بعد انتشار سلكه ، وخروج الحضرة عن ملكه ، واستقراره بوادي آش مُروِّع البال ، متعللاً بالآمال ، وقد بلغه دخول طبرنش^٢ في طاعته ، فأشده من ساعته :

خُذْهَا إِلَيْكَ طبرنشا شَفَعُ بِهَا وادي الأشا
والأمُّ تأتي بنتها والله يفعل ما يشا

ومن نوادره العذبة ، ما كتبه إليه يطلب منه الحسبة :

أنلني أيا خيرَ البرية خبطةً ترفّعني قدراً وتكسبني عزاً
فاعتزُّ في أهلي كما اعتزَّ ببدقٍ على سفرة الشطرنج لما انثنى فرزا

فوقع له بما ثبت في ترجمته ؛ انتهى .

٤٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله ابن العطار المزني ما صورته : ممّن نبغ ونجب ، وحق له البر بذاته ووجب ، تحلّى بوقار ، وشعشع للأدب كأس عقار ، إلاّ أنه اجترّم في اقتبال ، وأصيب للأجل بنبال ؛ انتهى .

٤٧ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد ابن علي بن يحيى بن خاتمة الأنصاري المزني^٣ ، ما صورته : ممّن ثكلته البراعة ، وفقدته البراعة ، تأدب بأخيه وتهذب ، وأراه في النظم المذهب ، وكساه من التفهم والتعليم الرداء المذهب ، فاقتضى واقتدى ، وراح في الحلبة واغتدى ، حتى

١ ترجمته في الدرر ٤ : ١٣٣ (ط . القاهرة) .

٢ طبرنش (Tabernas) شرقي المرية . ٣ ترجمته في الدرر ٤ : ٢٠١ .

نبيل وشدا ، ولو أمهله الدهر لبلغ المدى ، وأما خطه فقيد الأبصار ، وطرفة
من طرف الأمصار ، واعتبط يانع الشبية ، مخضراً الكتيبة ، مات عام خمسين
وسبعمائة .

وأورد له في « الإحاطة » قوله :

وَمَضَى التَّوَمُ وحلَّ الأرقُ	وَمَضَى البرقُ فصار القلقُ
ضمنا فيها الحمى والأبرقُ	مذُ تذكرتُ لأيامٍ خلَّتْ
في محيّا الدهرِ منها رونقُ	وعشياتٍ تقصّتْ باللوى
ورياضُ الأُنسِ غصّ موركُ	إذُ شبابيّ والتصابي جُمعا
خلقَ البينُ لقلبٍ يعشقُ	شَتَّ يومُ البينِ شملي ليت ما
شابَ مني يومَ حلَّتْ مفرقُ	أهٍ من يومٍ قضى لي فرقةً

وقوله ١ :

والحفصُ شيمةٌ مثلي والهوى دولُ	الرفعُ نعتكمُ لا خانكم أملُ
إذ ليس لي منكمُ يا سادتي بدلُ	هل منكمُ لي عطفٌ بعد بعدكمُ

قلت : البيت الثاني غاية في معناه ، وأما الأول فسافل وإن أسس على الرفع مبناه ،
والله أعلم .

٤٨ — وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد بن إبراهيم
ابن عيسى بن داود الحميري المالقي ٢ ما صورته : علّم من أعلام هذا الفن ،
ومشعشع راح هذا الدن ، مجموع أدوات ، وفارس يراعة ودواة ، ظريف
المنزع ، أنيق المرأى والمسمع ، اختص بالرياسة فأدار فلك إمارتها ، واتسم

١ البيتان في الدرر الكامنة .

٢ انظر أيضاً ترجمته في الكتيبة : ١٥٨ والدرر ٤ : ٢٧١ (ط . القاهرة) .

باسم كتابتها ووزارتها ، ناهضاً بالأعباء ، صاعداً في درج التقريب والاجتباء ،
مصانعاً دهره في راح وراحة ، أويأ إلى فضل وسماحة ، وخصب ساحة ، كلما
فرغ من شأن خدمته ، وانصرف عن رب نعمته ، عقد شرباً ، وأطفأ من الاهتمام
بغير الأيام حرباً ، وعكف على صوت يستعيده ، وظرف يبيده ويعيده ، فلما
تقلبت بالرياسة الحال ، وقوضت منها الرحال ، استقر بالمغرب غريباً ، يقلب
طرفاً مستريباً ، ويلحظ الدنيا تبعه عليه وثرريباً ، وإن كان لم يُعدم من أمرائه حظوة
وتقريباً ، وما برح ييوح بشجنه ، ويرتاح إلى عهود وطنه ، ومما أعرب به ،
عن براعة أدبه ، قوله ^١ :

« يا نازحينَ ولم أفارق منهمُ شوقاً تأججَ في الضلوعِ ^٢ ضرامهُ
غيبتمُ عن ناظريّ وشخصكمُ حيث استقرّ من الضلوعِ مقامهُ
رمتِ النوى شملي فشتتَ نظمه ^٣ والبينُ رامٍ لا تطيشُ سهامهُ
وقد اعتدى فينا وجدّ مبالغاً وجرتْ بمحكمٍ جوره أحكامهُ
أترى الزمانَ مؤخرأً في مدّتي حتى أراهُ قد انقضتْ أيامهُ »

تحملها يا نسيم نجدية النفحات ، وجدية اللفحات ، تؤدي عني إلى الأحبة نفحها
سلاماً ، وتورد عليهم لفحها برداً وسلاماً ، ولا تقل كيف تحملني ناراً ، وترسل
على الأحبة مني إعصاراً ، كلاً إذا أهديتهم تحية إيناسي ، وأنسوا من جانب
هبوبك نار ضرام أنفاسي ، وارتاحوا إلى هبوبك ، واهتزوا في كف مسرى
جنوبك ، وتعللوا بك تعليلاً ، وأوسعوا آثار مهبك تقيلاً ، أرسلها عليهم
بليلاً ، وخاطبهم بلطافة تطلقك تعليلاً ، ألم تروني كيف جئتكم بما حماني
عليلاً :

١ الكتيبة : ١٦١ ؛ والبيتان الأولان في الدرر : ٢٧٢ .

٢ الكتيبة : في الفؤاد .

٣ ق : شمله .

كذلك تركته^١ ملقَى بأرضٍ له فيها التعللُ بالرياحِ
 إذا هبتَ إليه صبا إليها وإن جاءته من كلِّ النواحي
 تساعده الحمامُ حينَ يبكي فما ينفكُ موصولَ النواحي^٢
 يخاطبهنَّ مهما طرُنَ شوقاً أما فيكنَّ واهبةُ الجناحِ

ولولا تعلله بالأماني ، وتحدث نفسه بزمان النداني ، لكان قد قضى نجه ، ولم
 أبلغكم إلا نعيه أو نديه ، لكنه يتعلل من الآمال بالوعد المطول ، ويتطرح
 باقتراحاته على الزمن المجهول ، ويحدث نفسه وقد قنعت من بروق الآمال بالخُلب ،
 ووثقت بمواعيد الدهر القُلب ، فيناجيتها بوحى ضميره ، وإيماء تصويره :
 كيف أجذك يوم الالتقاء بالأحباب ، والتخلص من رِبقة الاغتراب ، أبائنة
 الحضور أم بادية الاضطراب ، كأني بك وقد استفرّك ولهُ السرور ، فصرفك
 عن مشاهدة الحضور ، وعانتك غشاوة الاستعبار للاستبشار ، عن اجتلاء محيّا
 ذلك النهار :

يومٌ يُداوي زماناتي منَ آزماني أزالَ تنغيصَ أحياني فأحياني
 جعلتُ لله نذراً صومهُ أبداً أفي بهِ وأوقّي شرطَ إيماني
 إذا ارتفعنا وزال البعد وانقطعتُ أشطانُ دهرٍ قد التفتتُ بأشطاني
 أعدهُ خيراً أعيادِ الزمانِ إذا أوطاني السعدُ فيه ترب أوطاني

أرأيت كيف ارتياحي إلى التذكار ، وانقيادي إلى معلّلات توهمات الأفكار ؟
 كأن البعد باستغراقها قد طويت شقته ، وهبت عني مشقته ، وكأني بالتخيل بين
 تلك الحمامائل أتشم صباها ، وأتشم رباها ، وأجتني أزهارها ، وأجتلي أنوارها ،
 وأجول في خمائلها ، وأتعمم بيكرها وأصائلها ، وأطوف بمعلمها ، وأنتشق

١ الكتيبة : غريب بعدكم .

٢ الكتيبة : التياح .

أزهار كمامها ، وأصيح بأذن الشوق إلى سجع حمامها ، وقد داخلني الأفراح
ونالت مني نشوة الارتياح ، ودنا السرور لتوهم ذهاب الأتراح ، فلما أفقت
من غمرات سكري ، ووثبت من هفوات فكري ، وجدت مرارة ما شابه لي
في استغراق دهري ، وكأني من حينئذٍ عاجلت وقفة الفراق ، وابتدأت منازعة
الأشواق ، وكأنما أغمضني النوم ، وسمح لي بتلك الفكرة الحلم :

ذَكَرَ الدِّيارَ فَهاجَهُ تَذكارُهُ وَسَرَتْ بِهِ مِنْ حِينِهِ أَفكارُهُ
فاحتلَّ منها حيث كان حلولُهُ بالوهمِ منها واستقرَّ قرارُهُ
ما أقربَ الآمالَ من غَفَوَاتِهِ لو أنها قُضِيَتْ بها أوطارُهُ

فإذا جئتها أيها القادم والأصيلُ قد خلع عليها بُرداً مُورساً ، والربيع قد مدَّ على
القيعان منها سندساً ، فاتخذها - فديتك - معرّساً ، واجرر ذيولك فيها متبختراً ،
وبث فيها من طيب نفحاتك عنبراً ، وافشّق عليها من نوافج أنفاسك مسكا أذفراً ،
واعطف معاطف بانها ، وأرقِصْ قُضْبَ ريحانها ، وصافح صفحات نهرها ،
ونافحْ نفحات زهرها ، هذه كلها أمارات ، وعن أسرار مقاصدي عبارات ،
هنالك تتعش بها صبايات ، تعالج صبايات ، تتعلل بإقبالك ، وتعكف على لثم
أذيالك ، وتبدو لك في صفة الفاني المتهالك ، لاطفها بلطافة اعتلالك ، وترفق
بها ترفق أمثالك ، فإذا مالت بهم إلى هواك الأشواق ، ولَوَّوا إليك الأروس
والأعناق ، وسألوك عن اضطرابي في الآفاق ، وتقلّبي بين الإشام والإعراق ،
فقل لهم : عرض له في أسفاره ، ما يعرض للبدر في سراه ، من سرار السرار ،
ولحاق المحاق ، وقد تركته وهو يسامر الفرقدين ، ويساير النيرين ، وينشد إذا
راعه اليبين :

وقد نكونُ وما يُخشى تفرُّقنا فاليومَ نحنُ وما يُرجى تلاقينا

لم يفارق وعشاء الأسفار ، ولا ألقى من يده عصا التسيار ، يتهاداه الغور والنجد ،

ويتداوله الإرقال والوَخْدُ ، وقد لفحته الرَّمْضاءُ ، وسثمه الإنضاءُ ، فالجهات
تلفظه ، والآكام تَبْهَظُه ، يحمل همومه الرواسم ، وتحياته البواسم :

لا يستقرُّ بأرضٍ حين يبلغها ولا له غير حدِّ العيسِ إيناسُ

ثم إذا استوفوا سؤالك عن حالي ، وتقلَّبي بين حلِّي وترحالي ، وبلغت القلوب
منهم الخناجر ، وملأت الدموع المحاجر ، وابتلت ذبولك بمائها ، لا بل تضرجت
بدمائها ، فحيتهم عني تحيةً منفصل ، ووداعَ مرتحل ، ثم اعطف عليك ركابك ،
ومهد لهم جنابك ، وقل لهم إذا سألتني عن المنازل بعد سكانها ، والربوع بعد
ظعن أظعانها ، بماذا أجيبه ؟ وبماذا يسكن وجيبه ، فسيقولون لك هي البلاقع
المقفرات ، والمعارف التي أصبحت نكرات :

صَمَّ صداها وعفا رسمها واستعجمت عن منطقِ السائلِ

قل لهم : كيف الروض وآسُه ؟ وعمَّ تتأرج أنفاسُه ؟ عهدي به والحمام يردد به
أسجاعه ، والذباب يغني به هزجاً فيحك بذراعه ذراعه ، وغصونه تعتق ، وأحشاء
جداوله تصطقق ، وأسحارُه تنسم ، وأصاله تتوسم ، كما كانت بقية نضرته ،
وكما عهدتها أنيقة خضرته ، وكيف التفاته عن أزرق نهره ، وتأنقه في تكليل
إكليله بيانع زهره ، وهل رقَّ نسيمُ أصائله ، وصفت موارد جداوله ؟ وكيف
انفساح ساحاته ، والتفاف دوحاته ؟ وهل تمتدَّ كما كانت مع العشي فينانةُ
سرحاتِه ، وعهدي بها المديدة الظلال ، المزعفرة السربال ؟ وهل تحدق الآن به
عيون نرجسه ، ويمد بساط سندسه ؟ وأنتى منه مجالس لِداتي ، ومعاهد غدواتي
وروحاتي ، إذ أباري في المجون لمن أباري ، وأسبق إلى اللذات كلَّ من أباري ،
فسيقولون لك : ذوتَ أفنانه ، وانقصفت أغصانه ، وتكدَّرت غدранه ، وتغير
رَوْحُه ورِيحانه ، وأقفرت معالمة ، وأخرست حمائمه ، واستحالت حُللُ
خمائله ، وتغيرت وجوه بُكره وأصائله ، فإن صلَّصَلَّ حين رعد فعن قلبي

لفراقه خَفَقَ ، وإن تلاً لَأُبرقُ فَعَنُ حَرَّ حشاي ائتلق ، وإن سحَّت السحب
فمساعدَة لِحفي ، وإن طال بكأؤها فعنّي ، حيّاها الله تعالى منازل ، لم تنزل بمنظوم
الشمل أو اهل ، وحين انتثرت نثرت أزهارها أسفاً ، ولم تن الرّيح من أغصانها
مِعْطفاً ، أعاد الله تعالى الشمل فيها إلى محكم نظامه ، وجعل الدهر الذي فرقه
يتأنق في إحكامه ، وهو سبحانه يجبر الصّدع ، ويعجل الجمع ، إنّه بالإجابة
جدير ، وعلى ما يشاء قدير .

إيه بُنيّ كيف حال من استودعتهم أمانتك ، وألزمتهم صوتك وصيانتك ،
وألبيستهم نسبك ، ومهدت لهم حسبك ، الله في حفظهم فهو اللائق بفعالك ،
المناسب لشرف خلالك ، ارع لهم الاغتراب لديك ، والانتقطاع إليك ، فهم
أمانة الله تعالى في يديك ، وهو سبحانه يحفظك بحفظهم ، ويوالي بلحظك أسباب
لحظهم ، وإن ذهبتم إلى معرفة الأحوال ، فنعممُ الله تعالى ممتدة الظلال ، وخيراته
وارفة السربال ، لولا الشوق الملازم ، والوجدُ الذي سكن الحيازم .

٤٩ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي بكر محمد بن محمد بن عبد الله
ابن مقاتل المالقي^١ ما نصه : نابغة مالقية ، وخلف بوقية ، ومغربي الوطن أخلاقه
مشرقية ، أزمع الرحيل إلى المشرق ، مع اخضرار العود وسواد المتفرق ، فلما
توسطت السفينة اللُّجَج ، وقارعت الثَّبَج ، هال عليها البحر فسقاها كأس
الحمام ، وأولدها قبل التمام ، وكان فيمن اشتملت عليه أعوادها ، وانضم على
نوره سوادها ، من جملة الطلبة والأدباء ، وأبناء السراة الحساء ، أصبح كل
منهم مطيعاً ، لداعي الردى وسميعاً ، وأحيوا فرادى وماتوا جميعاً ، فأجروا
الدموع حزناً ، وأرسلوا العبرات عليهم مُزناً ، وكأن البحر لما طمَسَ سبيل
خلاصهم وسدّها ، وأهال هضبة سفينتهم وهدّها ، غار على نفوسهم النفيسة
فاستردّها ، والفقير أبو بكر مع إكثاره ، وانقياد نظامه ونثاره ، لم أظفر من أدبه

١ ترجمته في الدرر ٤ : ٣١٣ (ط . القاهرة) .

إلا بالقليل التافه ، بعد وداعه وانصرافه ، فمن ذلك قوله وقد أبصر فتى عائراً .

ومهفهف هافي المعاطفِ أَحورٍ فضحتْ أشعةُ نوره الأقمارا
زلتْ له قدمٌ فأصبحَ عائراً بينَ الأنامِ لَعاً لَدَاكَ عِثارا
لو كنتُ أعلمُ ما يكونُ فرشتُ في ذاكَ المكانِ الخدَّ والأشفارا
وقال :

أيا لني الرفاء تنضي ظباؤهم جفونَ ظبَاهم فالفؤادُ كليمٌ
لقد قطعَ الأحشاءَ منهم مهفهفٌ له التبرُ خدَّ واللَّجَيْنُ أديمٌ
يسدد إذ يرمي قسيَّ حواجبٍ وأسهُمُها من مقلتيه تسومُ
وتسقمني عيناهُ وهي سقيمةٌ ومن عجبٍ سقمٌ جناهُ سقيمٌ
ويذبُلُ جسمي في هواهُ صبايةٌ وفي وصله للعاشقينَ نعيمٌ

كان غرقه في أخريات عام تسعة وثلاثين وسبعمائة ؛ انتهى .

٥٠ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن محمد الشَّدِيد

المالقي ما نصه : شاعرٌ مُجيدٌ حوَّكُ الكلامِ ، ولا يقصر فيه عن درجة الأعلام ،
رحل إلى الحجاز لأول أمره فطال بالبلادِ المشرقية ثواؤه ، وعميتْ أنباؤه ،
وعلى هذا العهد وقفتُ له على قصيدةٍ بخطه غرضُها نبيلٌ ، ومرعاها غيرَ وبييلٌ ،
تدل على نفْسٍ ونفَسٍ ، وإضاءةٍ قَبَسٍ ، وهي :

لنا في كلِّ مكرمةٍ مَقامٌ ومن فوقِ النجومِ لنا مَقامٌ
ومنها :

رَوينا من مياهِ المجدِ لما وردناها وقد كثرَ الزحامُ
فنحنُ همُّ ، وقلُّ لي من سوانا لنا التقديمُ قدماً والكلامُ
لنا الأيدي الطوالِ بكلِّ صوبٍ يُهزُّ به لدى الروعِ الحسامُ
ونحنُ اللابسونَ لكلِّ درعٍ يصيبُ السَّمْرَ منهم انثلامُ

بأندلس لنا أيامُ حرب
توى منها قلوبَ الرومِ خَوْفٌ
حمينا جانبَ الدينِ احتساباً
وتحتَ الرايةِ الحمراءً مناً
بنو نصر وما أدراك ما هم
لهم في حربهم فتكات عمرو
يقولُ عداتهم مهما ألموا
إذا شرعوا الأستهة يومَ حرب
كانَ رماحهم فيها نجومٌ
أناسٌ تخلفُ الأيامُ ميتاً
رأينا من أبي الحجاج شخصاً
موقى العرضِ محمودُ السجايا
يجولُ بذهنه في كلِّ شيءٍ
قومُ الرأي في نوبِ الليالي
له في كلِّ معضلةٍ مضاءةٌ
رؤوفٌ قادرٌ يُغضي ويغفو
تطوفُ بيتِ سؤده القوافي
وتسجدُ في مقامِ علاهُ شكرياً
أفارسها إذا ما الحربُ أختتْ
ومطرها إذا ما السُّحبُ كفتْ
لك الذكرُ الجميلُ بكلِّ قطري
لقد جُبنا البلادَ فحيث سرنا
فضلتْ ملوكها شرقاً وغرباً
فأنتَ لكلِّ معلوٍ مدارٌ

مواقفهن في الدنيا عظامُ
يخوفُ منه في المهدي الغلامُ
فها هو لا يهان ولا يضامُ
كتائبُ لا تطاقُ ولا ترامُ
أسودُ الحربِ والقومُ الكرامُ
فللأعمارِ عندهم انصرامُ
أتونا ما من الموتِ اعتصامُ
فحققُ أن ذاك هو الحِمامُ
إذا ما أشبهَ الليلَ القتامُ
بجِيٍّ منهم فلهم دوامُ
على تلك الصفاتِ له قيامُ
كريمُ الكفِّ مقدمُ همامُ
فيدركهُ وإن عزَّ المرامُ
إذا ما الرأيُ فارقه القوامُ
مضاءُ الكفِّ ساعدها الحسامُ
وإن عظمَ اجتناءُ واجترامُ
كما قد طافَ بالبيتِ الأنامُ
ونعمَ الركنُ ذلك والمقامُ
على أبطالها ودنا الحِمامُ
وكفُّ أخي الندى أبداً غمامُ
لك الشرفُ الأصيلُ المستدامُ
رأينا أن ملكك لا يرامُ
وبتَ لملكها يقطاً وناموا
وأنتَ لكلِّ مكرمةٍ إمامُ

جَعَلْتِ بِلَادَ أُنْدَلُسَ إِذَا مَا ذُكِرْتَ تَعَارُ مِصْرُ وَالشَّامُ
 مَكَانٌ أَنْتَ فِيهِ مَكَانُ عَزِّ وَأَوْطَانٌ حَلَلْتَ بِهَا كِرَامُ
 وَهَيْتَكَ مِنْ بَنَاتِ الْفِكْرِ بِكَرًّا لَهَا مِنْ حُسْنِ لِقْيَاكَ ابْتِسَامُ
 فَتَزَّهُ طَرْفَ مَجْدِكَ فِي حِلَاهَا فَلِلْمَجْدِ الْأَصِيلِ بِهَا اهْتِمَامُ

٥١ - وقال في «الإكليل» في ترجمة الشريف محمد بن الحسن العمراني من أهل فاس ما صورته : كريم الانتماء ، متظلل بأغصان الشجرة الشماء ، من رجل سليم الضمير ، ذي باطن أصفى من الماء النّيمير ، له في الشعر طبع يشهد بعروبية أصوله ، ومضاء نصوله .

وذكر في «الإحاطة» أن الشريف المذكور توفي في حدود ثمانية وثلاثين وسبعمائة.

٥٢ - وقال في «الإكليل» في ترجمة محمد بن أحمد بن إبراهيم المرادي العشاب ، وهو قرطبي الأصل تونسي المولد والمشأ ، ما صورته : جواد لا يتعاطى طلقه ، وصبح فضل لا يماثل فلّقه ، كانت لأبيه رحمه الله تعالى من الدول الحفصية منزلة لطيفة المحل ، ومفاوضة في العقد والحل ، ولم يزل تسمو به قدم النجابة ، من العمل إلى الحجابة ، ونشأ ابنه هذا مقضيّ الديون ، مقدّيّ بالأنفس والعيون ، والدهر ذو ألوان ، ومارقُ حرب عوان ، والأيام كُرات تُتلقف وأحوال لا تتوقف ، فألوى بهم الدهر وأنحى ، وأغام جوهم بعقب ما أصحى ، فشملمهم الاعتقال ، وتعاورهم النّوب الثقال ، واستقرت بالمشرق ركابه ، وحطّت به أفتابه ، فحج واعتمر ، واستوطن تلك المعاهد وعمّر ، وعكف على كتاب الله تعالى فجوّد الحروف ، وقرأ المعروف ، وقيد وأسند ، وتكرر إلى دور الحديث وتردّد ، وقدم على هذا الوطن قدوم النسيم البليل ، على كبد اللليل ، ولما استقر به قراره ، واشتمل على جفنه غراره ، بادرت إلى مؤانسته ، وثابرت على مجالسته ، فاجتليت للسر شخصا ، وطالعت ديوان الوفاء مُستقصى ،

١ ترجمته في الدرر ٤ : ٤٦ (ط . القاهرة) .

وشعره ليس بمخائد عن الإحسان ، ولا غفل عن النكت الحسان ؛ انتهى .

٥٣ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر بن علي ابن إبراهيم المليكشي^١ ما صورته : كاتب الخلافة ، ومُشعشع الأدب الذي يزري بالسُّلَافَة ، كان بطل مجال ، وربّ روية وارْتِجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عَطَنَه ، فتلوم تلومَ النسيم بين الحمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبت مدة إقامته تحت جراية واسعة ، وميرة^٢ يانعة ، ثم آثر قُطْرَه ، فولّى وجهه شطره ، واستقبله دهره بالإنابة ، وقلده خُطّة الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحُطّت رحاله ، وله شعر أنيق ، وتصوّف وتحقيق ، ورحلة إلى الحجاز سعيها في الخير وثيق ، ونسبها في الصالحات عريق ، ومن شعره قوله :

رَضِي نلتِ ما ترضين من كل ما يهوى
وصفحاً عن الجاني المسيء لنفسه
بما بيننا من خَلْوَة معنوية
قفي أتشكى لوعةَ البين ساعةً
قفي ساعةً في عرصَةِ الدار وانظري
وكم قد سألتُ الرّيحَ شوقاً إليكم
فيا ريحُ حتى أنتِ ممّن يغارُ بي
خَلِقْتُ ولي قلبٌ جليدٌ على النوى
فلا توقفيني موقفَ الذلّ والشكوى
كفاه الذي يلقاه من شدّةِ البلوى
أرقّ من النجوى وأحلى من السلوى
ولا يكُ هذا آخرَ العهد بالنجوى
إلى عاشقٍ ما يستفيقُ من البلوى
فما حنّ مسراها عليّ ولا ألوى
ويا نجدُ حتى أنتِ تهوى الذي أهوى
ولكنّ على فقدِ الأحيّةِ لا يقوى

وحدث بعض من عني بأخباره ، أيام مقامه بمالقة واستقراره ، أنه لقي بيباب الملعب من أبوابها ظييةً من ظبيات الإنس ، وقينة من قينات هذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى هممت بالانقياد ، وانعطفت انعطاف الغصن

١ ترجمته في نيل الابتهاج : ٢٣٧ ورحلة البلوي (الوزقة : ٢٢) والدرر : ٤ : ٢٢٦ (ط. القاهرة).

٢ ق : وميرة .

المَيَّاد ، فأبقى على نفسه وأمسك ، وأنيفَ من خلع العِذار بعدما تنسك ، وقال :

لم أنسَ وقفنا ببابِ الملعبِ بين الرجا واليأس من متجنبِ
وعَدتُ فكنتُ مراقباً لحديثها يا ذلَّ وقفه خائفٍ مترقبِ
وتدللتُ فذللتُ بعد تعزيرِ يأتي الغرامُ بكلِّ أمرٍ معجبِ
بدويةٌ أبدى الجمالُ بوجهها ما شئتَ من خلدٍ شريقِ مذهبِ
تدنو وتبعدُ نفرةً وتجنياً فتكادُ تحسبها مهاةَ الربربِ
ورنتُ بلحظِ فاتنٍ لك فاترِ أنضى وأمضى من حسامِ المضربِ
وأرتكَّ بابلُ سحرها يجفونها فسبتُ ، وحق لمثلها أن تستبي
وتضحكتُ فحكَّتْ بِنيرِ ثغرها لمعانَ نورِ ضياءِ برقِ خُلبِ
بمنظَّمٍ في عقدِ سمطيِّ جوهرِ عن شبه نورِ الأقحوانِ الأشنبِ
وتمايلتُ كالغصنِ أخضلهِ الندى رِيانَ من ماءِ الشبيةِ مخضبِ
تثنيه أرواحُ الصبابةِ والصبَا فراهُ بينَ مشرقِ ومغربِ
أبتِ الروادفُ أن تميلَ بميلهِ فرستُ وجالَ كأنهُ في لولبِ
متوجاً بهلالِ وجهِ لاحِ في خللِ السحابِ لحاجبِ ومحجبِ
يا من رأى فيها محباً مغرماً لم ينقلبِ إلا بقلبِ قلبِ
ما زالَ مذوً ولتى يحاولُ حيلةً تدينه من نيلِ المنى والمطلبِ
فأجالَ نارَ الفكرِ حتى أوقدتُ في القلبِ نارُ تشوقِ وتلهبِ
فتلاقتِ الأرواحُ قبلَ جسمها وكذا البسيطُ يكونُ قبلَ مركبِ

وقال :

أرى لك يا قلبي بقلبي حبةً بعثتُ بها سرِّي إليك رسولا
فقابلهُ بالبشرى ، وأقبلُ عشيَّةً فقد هبَّ مسكياً التسيمِ عليلا
ولا تعتذرِ بالقَطْرِ أو بللِ الندى فأحسنُ ما يأتي النسيمُ بليلا

توفي عام أربعين وسبعمائة بتونس ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

٥٤ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن علي بن عمر العبدري التونسي الشاطبي الأصل^١ ، ما نصه : غَدِيُّ نعمة هامية ، وقريع رتبة سامية ، صُرِفَتْ إلى سلفه الوجوه ، ولم يبق من إفريقية إلا مَنْ يخافه ويرجوه ، وبلغ هو مدة ذلك الشرف ، الغاية من الترف ، ثم قلب الدهر له ظهر المِجَنِّ ، واشتد به الحُمار عند فراغ الدنِّ ، ولحق صاحبنا هذا بالمشرق بعد خطوب مُبيرة ، وشدة كبيرة ، فامتزج بسكانه وقُطَّانَه ، ونال من اللذات به ما لم ينله في أوطانه ، واكتسب الشمائل العذاب ، وكان كابن الجَهْم بُعث إلى الرصافة ليرقَّ فذاب ، ثم حوِّم على وطنه تحويم الطائر ، وألمَّ بهذه البلاد لإمام الخيال الزائر ، فاغتنمت صفقة وده لحين وروده ، وخطبت موالاته على انقباضه وشروده ، فحصلت منه على درة تُقْتَتِي ، وحديقة طيبة الجتنى ، أنشدني في أصحاب له بمصر قاموا ببره :

لكلِّ أناسٍ مذهبٌ وسجيةٌ ومذهبٌ أولادِ النظامِ المكارمِ
إذا كنتَ فيهم ثاوياً كنتَ سيداً وإن غبتَ عنهم لم تنلِكَ المظالمِ
أولئك صحبي لا عدمت حياتهم ، ولا عدموا السعدَ الذي هو دائمٌ
أغنتني بذكرهم وطيبَ حديثهم كما غرَّدتْ فوق الغصونِ الحمامُ

وقال :

أحببتنا بمصرٍ لو رأيتم° بكائي عند أطرافِ النهارِ
أكنتم تشفقون لفرطِ وجدي وما ألقاهُ من بُعدِ الديارِ

٥٥ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي القاسم محمد بن أبي زكريا يحيى ابن أبي طالب عبد الله بن محمد بن أحمد العزفي السبتي^٢ ، ما صورته : فرع تأود من الرياسة في دَوْحة ، وتردد بين غدوة في المجد وروحة ، نشأ والرياسة العزفية

١ ترجمته في الدرر ٤ : ١٩٨ (ط . القاهرة) .

٢ الدرر : ٥٢ .

تعله وتنهله ، والدهر ييسر أمله الأقصى ويُسهله ، حتى اتسقت أسبابُ سعده ،
وانتهت إليه رياسة سلفه من بعده ، فألقت إليه رحالها وحطَّتْ ، وتمعته بقرها بعدما
شطَّتْ ، ثمَّ كلح له الدهر بعدما تبسم ، وعاد زَعَزَعاً نسيمةً الذي كان يتنسم ،
وعاق هلاله عن تيمِّه ، ما كان من تغلب ابن عمِّه ، واستقر بهذه البلاد نازح الدار ،
بحكم الأقدار ، وإن كان نبيه المكانة والمقدار ، وجرت عليه جراية واسعة ،
ورعاية متتابعة ، وله أدب كالروض باكرتهُ الغمام ، والزهر تفتحت عنه
الكمائم ، رفع منه راية خافقة ، وأقام له سوقاً نافقة ، وعلى تدفق أنهاره ،
وكثرة نظمه واشتهاره ، فلم أظفر منه إلاّ باليسير التافه ، بعد انصرافه ؛ انتهى .

٥٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن [عبد الرحمن]

المكودي الفاسي ما نصه : شاعر لا يُتقاصى ميدانه ، ومرعى بيان رفّ غضاهُ وأينع
سعده ، يدعو الكلام فيهِ طبع لداعيه ، ويسعى في اجتلاب المعاني فتنجح مساعيه ،
غير أنه أفرط في الانهماك ، وهوى إلى السمكة من أوج السمك ، قدم على هذه البلاد
مفلتاً من رهق تلمسان حين الحصار ، صفر اليمين واليسار من اليسار ، فلَّ
هوى أنحى على طريقه وتلاده ، وأخرجه من بلاده ، ولما جدَّ به البين ، وحلَّ هذه
البلدة بحال تقتحمها العين ، والسيف بهزته لا بحسن بزته ، دعوانه إلى مجلس أعاره
البدر هالته ، وخلع عليه الأصيلُ غلالته ، وروض تفتَّح كمامه ، وهى عليه غمامه ،
وكأس أنس تدور ، فتتلقى نجومها البدور ، فلما ذهبَت المؤانسة بنجمله ، وتذكر
هواه ويوم نواه حتى خفنا حلول أجله ، جذبنا للمؤانسة زمامه ، واستسقيناه منه
غمامه ، فأمتع وأحسب ، ونظر ونسب ، وتكلم في المسائل ، وحاضر بطرف
الآيات وعيون الرسائل ، حتى نشر الصباح رايته ، وأطلع النهار آيته ، فمما
نسبه إلى نفسه وأنشدناه قوله :

غرامي فيكَ جَلَّ عن القياسِ وقد سقيتني بكلِّ كأسِ
ولا أنسى هواكَ ولو جفاني عليكَ أقاربي طرّاً وناسي

ولا أدري لنفسي من كمالٍ سوى أني لعهدك غيرُ ناسي

وقال :

بَعَثْتِ بِخَمْرِ فِيهِ مَاءٌ وَإِنَّمَا بَعَثْتَ بِمَاءٍ فِيهِ رَائِحَةُ الْخَمْرِ
فَقَلَّ عَلَيْهِ الشُّكْرُ إِذْ قَلَّ سَكْرُنَا فَنَحْنُ بِلَا سَكْرٍ ، وَأَنْتَ بِلَا شُكْرِ

٥٧ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي عبد الله محمد بن

محمد بن محمد بن بيش العبدري الغرناطي^١ ما صورته : معلم مدرّب ، مسهل مقرب ، له في صنعة العربية باعٌ مديد ، وفي هدفها سهم سديد ، ومشاركة في الأدب لا يفارقها تسديد ، خاصي المنازع مختصرها ، مرتب الأحوال مقررها ، تميز أول وقته بالتجارة في الكتب فسُلِّطَتْ منه عليها أرضة آكلة ، وسهم أصاب من رميتها الشاكلة ، أثرى بسببها وأترب ، وأغنى جهة وأفقر أخرى ، وانتقل لهذا العهد الأخير إلى سكنى مسقط رأسه ، ومنبت غرسه ، وجرت عليه جراية من أحباسها ، ووقع عليه قبول من ناسها ، وبها تلاحق به الحمام ، فكان من تراها البداية وإليها التمام ، وله شعر لم يقصر فيه عن المدى ، وأدب توشح بالإجادة وارتنى ، أنشدني بسبته تاسع جمادى الأولى عام اثنين وخمسين وسبعمائة يجيب عن بيتي ابن العفيف التلمساني :

يا ساكناً قلبي المعنى وليسَ فيه سواك ثاني
لأيّ معنى كسرتَ قلبي وما التقى فيه ساكنانِ

فقال :

نَحَلَّتْني طائماً فؤاداً فصار إذ حُرِّتُهُ مكاني
لا غرو إذ كان لي مضافاً أني على الكسرِ فيه باني

وقال يخاطب الشريف أبا العباس وأهدى أقلاماً :

١ انظر أيضاً ترجمته في الكتيبة : ٩٠ وبنية الوعاة : ١٠٠ والدرر ٤ : ٣٥٨ (ط . القاهرة) وراجع ما تقدم في النفع ٥ : ٣٨٤ .

أناملك الغرُّ التي سيبُ جودها
أنتني منها تحفةٌ مثلُ حدِّها
هي الصفرُ لكن تعلمُ البيضُ أنها
مهذبةُ الأوصالِ ممشوقةٌ كما
فقبلتها عشراً ومثلتُ أنتي
يفيض كفيض المزنِ بالصيبِ القطرِ
إذا انتضيتُ كانت كرهقةِ السمرِ
محكمةٌ فيها على النفعِ والضرِّ
تصوغ سهام الرمي من خالصِ التبرِ
ظفرتُ بلثمٍ في أناملكِ العشرِ

وقال في ترتيب حروف الصحاح :

أساجعةٌ بالواديينِ تبوّئي
دعي ذكرَ روض زاره سقي شربه
غرامُ فؤادي قاذفٌ كلَّ ليلةٍ
ثمارةٌ جنتها حالياتٌ خواضبُ
صباح ضحى طيرٌ ظمأءٌ عواصبُ
متى ما نأى وهناً هواهُ يراقبُ

مولده في حدود ثمانين وستمائة ، وتوفي بغرناطة في رجب عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ؛ انتهى .

قلت : رأيت بخط الجلال السيوطي على هامش جوابه عن بيتي ابن العفيف التلمساني ما صورته : قلت : في هذا البيت تصريح بأن المضاف إلى الياء مبني على الكسر ، وهو رأي مرجوح عند النحاة ، ذهب إليه الجرجاني ، والصحيح أنه معرب ، على أن ذلك لا يحتاج إلى جواب كما يظهر بالتأمل ، قاله عبد الرحمن السيوطي ؛ انتهى . ويعني بذلك أن الساكنين إنما يُكسر أحدهما ، لا محلهما ، والله سبحانه أعلم .

٥٨ - وقال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة أبي عبد الله محمد بن هانيء اللخمي السبتي ، وأصله من إشبيلية ، ما صورته : علم تشير إليه الأكف ، ويُعمل^٢ إلى لقائه الحافر والحف ، رفع للعربية ببلده رايةً لا تتأخر ، ومرج

١ الكتيبة : أو خالص .

٢ الإحاطة : وينتقل .

منها لجة تزخر ، فانفسح مجالُ درسه ، وأثمرت أنواع غرسه ، فركض ما شاء ومرح ، ودوّن وشرّح ، إلى شمائل يملك الظرف زمامها ، ودعابة راشّت الحلاوة سهامها ، ولما أخذ المسلمون في مُنازلة الجبل وحصاره ، وأصابوا الكفر منه بجارحة إبصاره ، ورموا بالشُّكل فيه نازح أمصاره ، كان ممّن انتدب وتطوّع ، وسمع النداء فأهبط ، فلازمه إلى أن نفذ لأهله القوت ، وبلغ من فسحة الأجل الموقوت ، فأقام الصلاة بمحاربه ، وحيّاه وقد غير محياه طول اغترابه ، وبادره الطاغية قبل أن يستقر نصل الإسلام في قرابه ، أو يعلق أصل الدين في ترابه ، وانتدب إلى الحصار ربه وتدرّع ، ودعاه أجله فلبّى وأسرع ، ولما هدر عليه الفنيق ، وركع إلى قبلة المنجنيق ، أصيب بحجر دوّم عليه كالجراح المحلّق ، وانقض إليه انقضاض البارق المتألّق ، فاقتنصه واختطفه ، وعمد إلى زهره فاقتطفه ، فمضى إلى الله تعالى طوع نيّته ، وصحبته غرابة المنازع حتى في أمنيته ؛ انتهى .

وقد جوّد ترجمته في «الإحاطة»^١ وقال : إنّه ألّف كتاباً منها شرح «تسهيل الفوائد» لابن مالك ، مبدع تنافس الناس فيه ، وكتاب «الغرة الطالعة في شعراء المائة السابعة» ، وكتاب «إنشاد الضوال وإرشاد السوّال» في لحن العامة ، وهو مفيد ، وكتاب «قوت المقيم»^٢ ودوّن ترسيل أبي المطرّف ابن عميرة وضمه في سفرين ، وله جزء في الفرائض ، وحدثني شيخنا الشريف القاضي أبو القاسم قال : خاطبت ابن هانيء بقصيدة من نظمي أولها :

هاتِ الحديثَ عن الركبِ الذي شَخَصَا

فأجابني بقصيدة على رويها ، أولها :

لولا مشيبٌ بفودي للفؤادِ عصي أنضيتُ في مهمه التشيبِ لي قلُصا

١ ترجمته في الورقة : ٦٠ وقد نقل فيها ما قاله في الإكليل .

٢ وكتاب . . . المقيم : سقط هذا من الإحاطة .

وكفأء توهم^١ ربعاً للحبيب قصا
أيدي الأمانى بها ما شئت فقصا
من الإجابة لم يجمع ولا نكصا
من الشوارد ما لولاه^٢ ما اقتنصا
لم يرض إلا بأبكار النهى قنصا
مدح به قد غلاما كان قد رخصا
ذاتاً ومنتسباً أعزز بها قمصا
وجرع الكاشح المغرى بها غمصا
لولا أبايده بيع الحمد مرتخصا
ولم يكن قابلاً في مدحه الرخصا
يردي ويرضي بها الحساد والخلصا
حسنية تستبي من حل أو شخصا
بالبخت ينقاد للإنسان ما عوصا
ود إذا شئت وداً للورى خلصا
إن كنت تأخذ من در النحور حصي

واستوقفت عبراتي وهي جارية^٣
مسائلاً عن لياليه التي انتهزت^٤
وكنت جاريت^٥ فيه من جرى طلقاً
أصاب شاكلة المرمي^٦ حين رمى
ومن أعد مكان النبيل نبل حجى
ثم انثنى ثانياً عطف النسب إلى
فظلت أرقل^٧ فيها لبسة شرفت^٨
يقول فيها وقد خولت منحتها
هذي عقائل^٩ وافت^{١٠} منك ذا شرف
فقلت هلاً عكست القول^{١١} منك له
وقلت ذي بكر^{١٢} فكر^{١٣} من أخي شرف
لها حللى^{١٤} حسنيات^{١٥} على حلل
خولتها وقد اعتزت^{١٦} ملابسها
خذها أبا قاسم^{١٧} مني نتيجة^{١٨} ذي
جاءت تجاوب^{١٩} عما قد بعث^{٢٠} به
وهي طويلة .

ومما ينسب إليه :

ولقبل ما عهدي بها مقصورة^{٢١}
لم يرض ذاك فكيف دون ضرورة^{٢٢}

ما للنوى مدت^{٢٣} لغير ضرورة
إن الخليل وإن دعت^{٢٤} ضرورة^{٢٥}

وقال مضمناً للثاني :

وجه من أهوى فلومي مستحيل^{٢٦}

لا تلمني عاذلي^{٢٧} حين ترى

١ الإحاطة : خلي يا عاذلي .

لو رأى وجهَ حبيبي عاذلي لتفارقنا على وجهٍ جميلٍ

وأجاب الشريف المذكور عن قصيدة مهموزة بقوله :

يا أوحـد الأـدبـاء أو يا أوحـد الـفضلاء أو يا أوحـد الشـرفاء
من ذا تراه أحقّ منك إذا التوت أدبٌ أرقُّ من الهواء وإن تشا
وألذُّ من ظلم الحبيب وظلمه ما السحرُ إلا ما تصوغُ بنائه
طرقُ الحجاجِ بأن يجيب ندائي فمنَ الهوا والماءِ والصهباء
بالظاء مفتوحاً وضمّ الظاء ولسانهُ من حليّةِ الإنشاء

وهي طويلة يقول فيها بعد جملة أبيات :

لله نفثةٌ سحرٍ ما قد شدت لي من نفثٍ سحركَ في مشادِ ثناء
عارضت صفواناً بها فأريت^١ ما يستعظمُ الراوي لها والرائي
لو راء لؤلؤك المنظم لم يفزُ من نظمٍ لؤلؤه بغيرِ عتاء
بوأتي منها أجلّ مبراً فلأخمي مستوطىء الجوزاء
وسما بها اسمي سائراً فأنا بما أسديت ذو الأسماء في الأسماء
وأشدت ذكرى في البلاد فلي بها طولُ الثناء وإن أطلت ثوائي
ولقومي الفخرُ المشيدُ بنيته^٢ يا حسنَ تشييدٍ وحسنَ بناء
فليهن هانهم^٢ يدٌ بيضاء ما إن مثلها لك من يدٍ بيضاء
حكيت أبياتاً له لحمية^٢ تُجلى على مصرية غراء
فليشمخوا أنفاً بما أوليتهم^٢ يا محرزَ الآلاء بالإيلاء

ووصلها بئر نصه : « هذا بُنيَّ - وصل الله سبحانه لك ولي بك علو المقدار ،

١ ق : فأرتك .

٢ : فلتنها بهم .

وأجرى وفق إرادتك وإرادتي لك جاريات الأقدار - ما سَنَحَ به الدهن الكليل ،
واللسان الفليل ، في مراجعة قصيدتك الغراء ، الجالبة السراء ، الآخذة بمجامع
القلوب ، الموفية بجوامع المطلوب ، الحسنة المَهَيِّعِ والأسلوب ، المتحلية بالخلي
السنية ، العريقة المنتسب في العلا الحسنية ، الجالية لصدل القلوب ران عليها الكَسَلُ ،
وخانها المسعدان السؤل والأمل ، فمتى حامت المعاني حولها ، ولو أقامت حولها ،
شكت ويلها وعَوَّها ، وحرمت من فريضة الفضيلة عَوَّها ، وعهدي بها والزمان
زمان ، وأحكامها الماضية أمانى مقضية وأمان ، تتوارد أَلْفَها ، ويجمع إجماعها
وخلافها ، ويساعدها من الألفاظ كل سهل ممتنع ، مفترق مجتمع ، مستأنس
غريب ، بعيد الغور قريب ، فاضح الخُلِّي ، واضح العلا ، وضاح الغرة والجبين ،
رافع عمود الصبح المين ، أيد من الفصاحة بأيادٍ ، فلم يحفل بصاحبي طيبيء
وإياد ، وكسي نِصاعة البلاغة ، فلم يعبا بهمّام وابن المراغة ، شفاء المحزون ،
وعلم سر المحزون ، ما بين منثور والموزون ، والآن لا ملهج ولا مبهج ، ولا
مرشد ولا منهج ، عكست القضايا فلم تُنتج ، فتبلد القلب الذكي ، ولم يرشح
القلم الزكي ، وعم الإفحام وغم الإحجام ، وتمكن الإكداء والإجبال ، وكورت
الشمس وسيرت الجبال ، وعلت سامة ، وغلبت ندامة ، وارتفعت ملامة ،
وقامت لنوعي الأدب قيامة ، حتى إذا ورد ذلك المَهْرَقُ ، وفرع غصنه المورق ،
وتغنى به الحمام الأورق ، وأحاط بعداد عداته الغصص والشرق ، وأمن من ذلك
الغصب والسرّاق ، وأقبل الأمن وذهب لإقباله الفرّاق ، نفخ في صور أهل المنظوم
والمنثور ، وبُعْث ما في القبور وحُصِّل ما في الصدور ، وتراءت للأدب صور ،
وعمرت للبلاغة كور ، وهَمَّتْ للبراعة درر ، ونظمت البراعة درر ، وعندنا تبين
أنك واحد حلبة البيان ، والسابق في ذلك الميدان يوم الرهان ، فكان لك القَدَم ، وأقر
لك مع التأخر السابق الأقدم ، فوحي نِصاعة أَلْفَها أجدها حين أوردتها ، وأسلتها

١ ق : ونسي .

حين أرسلتها ، وأزنتها حين وزنتها ، وبراعة معان سلكتها حين ملكتها ، وأرويتها حين رويتها أو رويتها^١ ، وأصلتها حين فصلتها أو وصلتها ، ونظام جعلته بجسد البيان قلباً ، ولمعصمه قلباً ، وهصرت حدائقه غلباً ، واركتبت زويته صعباً^٢ ، ونثار أتبعته له خديماً ، وصيرته لمدير كأسه نديماً ، ولحفظه ذمامه المدامي أو مدامه الذمامي مديماً ، لقد فتنني حين أتتني ، وسببتني حين اطبتني ، فذهبت خفتها بوقاري ، ولم يرعها بعد شيب عذارى ، بل دعت للتصابي فقلت مرحباً ، وحللت لفتنتها الحباً ، ولم أحفل بشيب ، وألفت مارد تصابي نصيباً^٣ ، وإن كنتا فرسي رهان ، وسابقي حلبة ميدان ، غير أن الجلدة بيضاء ، والمرجوة الإغضاء بل الإرضاء . بُني كيف رأيت للبيان هذا الطوع ، والخروج فيه من نوع إلى نوع ؟ أين صفوان بن إدريس ، ومحل دعواه بين رحلة وتعريس ؟ كم بين ثغاء بقر الفلاة وبين الليث ذي الفريس ؟ كما أتى أعلم قطعاً وأقطع علماً ، وأحكم مضاء وأمضي حكماً ، أنه لو نظر إلى قصيدتك الرائقة ، وفريدتك الحالية الفائقة ، المعارضة بها قصيدته ، المتسحخة بها فريدته ، لذهب عرضاً وطولاً ، ثم اعتقد لك اليد الطولى ، وأقر فارتفع النزاع ، وذهبت له تلك العلاقات والأطماع ، ونسي كلمته الأؤلوية ، ورجع عن دعواه الأدبية ، واستغفر ربه من تلك الأليّة . بُني وهذا من ذلك الجري في تلك المسالك ، والتبسط في تلك المآخذ والمثار ، أينزع غيري هذا المتزع ؟ أم المرء بنفسه وابنه مولع ؟ حيا الله الأدب وبنيه ، وأعاد علينا من أيامه وسنيه ، ما أعلى منازعه ، وأكبر منازعه ، وأجل مآخذه ، وأجهل تاركة وأعلم آخذه ، وأرق طباعه ، وأحق أشياعه وأتباعه ، وأبعد طريقه ، وأسعد فريقه ، وأقوم نهجه ، وأوثق نسجه ، وأسمح ألفاظه ، وأفصح عكاظه ، وأصدق معانيه وألفاظه ، وأحمد نظامه ونثاره ،

١ حين رويتها : سقطت من ق .

٢ أشار إلى صعوبة القافية ، وإن كانت همزية ، وهي غير صعبة .

٣ يشير إلى قول نصيب (الأغاني ١٦ : ١٠٩) :

ولولا أن يقال صبا نصيب لقلت بنفسى النثر الصغار

وأغنى شعاره ودثاره ، فعائبه مطرود ، وعاتبه مصفود ، وجاهله محصود ، وعالمه محسود ، غير أن الإحسان فيه قليل ، ولطريق الإصابة فيه علم ودليل ، مَنْ ظفر بهما وصل ، وعلى الغاية القصوى منه حصل ، ومن نكب عن الطريق ، لم يُعَدَّ من ذلك الفريق ، فليهنك أيها الابن الذكي ، البرُّ الزكي ، الحبيب الحفي ، الصفيّ الوفي ، أنك حاملُ رايته ، وواصل غايته ، ليس أولوه وآخروه لذلك بمنكرين ، ولا تجد أكثرهم شاكرين ، ولولا أن يطول الكتاب ، وينحرف الشعراء والكتّاب ، لفاضت ينابيع هذا الفضل فيضاً ، وخرجت إلى نوع آخر من البلاغة أيضاً ، قرّرت عيونُ أودائك ، وملكت غيظاً صدور أعدائك ، ورقيت درج الآمال ، ووقيت عين الكمال ، وحفظ منصبك العالي ، بفضل ربك الكبير المتعالي ، والسلام الأتم الأتم الأكمل الأعم ، ينخلك به من طال في مدحه إرقالك وإغذاذك ، وراد روض حمدك وابلك وطلّك ورداذك ، وغدت مصالح سعيه في سعي مصالحك ، وسينفعك بحول الله وقوته وفضله ومنتته معاذك ، ووسمت نفسك بتلميذه فسمت نفسه بأنه أستاذك ، ابن هانيء ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

وكانت وفاته شهادة في أواخر ذي القعدة عام ثلاثة وثلاثين وسبعمائة ، ورثاه شيخنا أبو القاسم الحسيني بقصيدة أثبتت في اسمه منها :

سقى الله بالخضراء أشلاء سؤددٍ تضمّنهنَّ التّربُّ صوبَ الغمام

ورثاه شيخنا أبو بكر ابن شبرين فقال :

قد كان ما قال البريدُ فاصبرْ فحزنك لا يفيدُ
أودى ابن هانيء الرضى فاعتادني للثكلِ عيدُ
بحرُ العلومِ وصدورها وعميدُها إذْ لا عميدُ

١ ق : طريق .

قد كان زيناً للوجو
 العلمُ والتَّحقيقُ والتَّ
 تندى خلائقه فقل
 مَغضٍ عن الإخوانِ لا
 أودى شهيداً باذلاً
 لم أنسه حينَ المعَا
 وله صوبٌ في طلا
 لله وقتٌ كان يذ
 أيامَ تغدو أو نرو
 وإذا المشيخةُ جُثْمٌ
 ومرادنا جَمُّ النبا
 لهفي على الإخوانِ وال
 لو جئتُ أوطاني لأنز
 ولراع نفسي شيبُ مَنْ
 ولطفتُ ما بين اللحو
 سرعانَ ما عاثَ الحما
 كم رُمْتُ إعمالَ المسية
 والآنَ أخلفتِ الوعو
 ما للفتى ما يبتغي
 أعلى القديمِ الملكِ يا
 يا بينُ قد طالَ المدى

د فيه قد فُجِّعَ الوجودُ
 وفيقُ والحسبُ التَّليدُ
 فيها هي الروضُ المَجدُ
 جهمُ اللقاءِ ولا كَنودُ
 مجهوده ، نِعَمَ الشهيدُ
 رفُ باسمه فينا تُشيدُ
 ب العلمِ يتلوه صعودُ
 ظمنا كما نُظِمَ الفريدُ
 حُ وسَعِينَا السعيُ الحميدُ
 هضباتُ حلمٍ لا تُميدُ
 ت وعيشنا خَصِرٌ برودُ
 أترابِ كلهم فقيدُ
 كرنى التَّهائمِ والنَّجودُ
 غادرته وهو الوليدُ
 د وقد تكاثرتِ اللحو
 مٌ ونحنُ أيقاظُ هجودُ
 ر فقيدتُ عزمي قيودُ
 د ، وأخلفتُ تلك البرودُ
 فالله يفعلُ ما يريدُ
 ويلاه يُعترضُ العبيدُ ؟
 أبرقُ وأرعدُ يا يزيدُ ١

١ أخذه من قول الكميته :

أرعد وأبرق يا يزيد د فما وعيدك لي بضائر

ولكلّ شيء غايةً
 إليه أبا عبدِ الإله
 أينَ الرسائلُ منك تأ
 أينَ الرسومُ الصالحا
 أنعمُ مساء لا تخطي
 وأقدمُ على دارِ الرضى
 والقرّ الأحيّة حيث دا
 حتى الشهادة لم تفت
 لا تبعدنْ وعداً لو أنّ
 فلئن بليت فإنّ ذك
 تالله لا تنسك أذ
 وإذا تسومح في الحقو
 جادت صدك غمامة
 وتعهدتك من المهية
 ولربما لان الحديدُ
 ه ودوننا مرمى بعيدُ
 تينا كما نسق العقودُ
 ت؟ تصرمت أين العهودُ
 لك البشائرُ والسعودُ
 حيث الإقامة والخلودُ
 رُ الملك والقصر المشيدُ
 لك فنجمك النجم السعيدُ
 البدء في الدنيا يعودُ
 رك في الدنا غصّ جديدُ
 لدية العلاما اخضرّ عودُ
 ق فحقك الحق الأكيدُ
 يرمي بها ذاك الصعيدُ
 من رحمة أبدأ وجودُ

وقوله أول هذه الرسالة «عارضت صفوان بها ، إلى آخره» يعني بذلك همزية صفوان بن إدريس المشهورة بين أدباء المغرب ، ولذكراها لإفادة للغرض ، وهي :

جادَ الرُّبى من بانهِ الجرعاء
 فالدمعُ يقضي عندها حقّ الهوى
 خلّت الصدورُ من القلوب كما خلّت
 ولقد أقولُ لصاحبيّ وإنما
 يا صاحبيّ ولا أقلّ إذا أنا
 نوءان من دمعي وغيم سماء
 والغيمُ حقّ البانة الغناء
 تلك المقاصرُ من مها وظباء
 ذخيرَ الصديقُ لا كد الأشياء
 ناديتُ من أن تُصغيا لندائي

حتى يُرى كيفَ انسكابُ الماءِ
 نُمضي بها حكماً على الظرفاءِ
 حتى تبسّمَ زهره لبكائي
 أنّ المدامعَ أصدقُ الأنواءِ
 والدّهْرُ ناسخُ شدةِ برحاءِ
 خفّاقَةِ الأغصانِ والأفياءِ
 ما فيه سخنةُ أعينِ الرُقباءِ
 قدّ قلدّتْ بلآئِ الأنداءِ
 عني عذارِ الآسَةِ الميساءِ
 رمداً ألمٌ بمقلّنةِ زرقاءِ
 زهُرُ النجومِ تلوحُ بالخضراءِ
 للروضِ يخبره بطولِ بقاءِ
 بدراهمِ الأزهارِ رميَ سخاءِ
 للعُدْرِ عنه نعمةُ الورقاءِ
 كالخودِ في موشيةِ خضراءِ
 طرباً وقهقهه منه جريّ الماءِ
 فكأنّه قد كان في الإغفاءِ
 وكلاهما سببٌ لطولِ عناءِ
 إنّ الرقاعَ لتخفةُ النهاءِ
 إنّ الكتابَ تحيةُ الخلطاءِ
 أنّ البطائقَ أكوسُ الصهباءِ
 وجررتُ أذيالي من الخيلاءِ
 وجعلتُ مهديه من الندماءِ
 كأساً وراءَ البحرِ والبيداءِ

عوجا نجاري الغيثِ في سقيّ الحمى
 ونسُنّ في سقيّ المنازلِ سنّة
 يا منزلاً نشطتْ إليه عبرتي
 ما كنتُ قبلَ مزارِ ربّك عالماً
 يا ليتَ شعري ، والزمانُ تنقلُ
 هلْ نلتقي في روضةِ موشيةِ
 وننالُ فيها من تألّفنا ولو
 في حيثَ أتلت الغصونُ سوالفأ
 وبدتْ ثغورُ الياسمينِ فقبتتْ
 والوردُ في شطّ الخليجِ كأنّه
 وكأنّ غصّ الزهرِ في خضرِ الرّبّي
 وكأنّما جاء النسيمُ مبشراً
 فكساهُ خِلعةَ طيبهِ ورمى له
 وكأنّما احتقر الصنيعُ فبادرتْ
 والغصنُ يرقصُ في حلى أوراقهِ
 وافترّ ثغرُ الأقحوانِ بما رأى
 أفديه من أنسٍ تصرّمَ فانقضى
 لم يبقَ منه غيرَ ذكرى أو منى
 أو رقعة من صاحبٍ هي تحفةُ
 كبطاقةِ الوشقيّ إذ حيّاً بها
 ما كنتُ أدري قبلَ فضّ ختامها
 حتى نثيتُ معاطفي طرباً بها
 فجعلتُ ذاكَ الطرسَ كأسَ مُدامةِ
 وعجبتُ من خلٍ يعاطي خلّه

ورأيتُ رونقَ خطِّها في حُسْنها
فوحقَّها من تسعِ آياتٍ لقد
فكأنني موسى بها ، وكأنَّها
لو جاء فكرُ ابنِ الحسينِ بمثلها
سوداءُ إذْ أبصرتها لكنها
ولقد رأيتُ وقد تأوَّبني الكرى
أنَّ السَّماءَ أتى إليَّ رسولها
بالفرقدينِ وبالثريا أدرجا
فكفى بذلك الطَّرسِ من كافورةٍ
قسماً بها وبنظْمها وبنثرها
وعلمتُ أنكَ أنتَ في إبداعها
لا ما تعاطتُ بابلُ من سحرها
ولقد رميتُ لها القيادَ وإنها
وطلبتُ من فكري الجوابَ فعقتي
فلذا تركتُ عروضا ورويا
ويَعْتَمَتُها أليفةٌ همزيةٌ
علمتُ بقدرِكَ في المعارفِ فانبرتُ

كالوشي نَمَّقَ معصمُ الحسنا
جاءت بتأييدي على أعدائي
تفسيرُ ما في سورةِ الإسراءِ
صحتُ نبوتُهُ لدى الشعراءِ
كم تحتها لك من يدِ بيضاء
في حيثُ شابتُ لمةُ الظلِّماءِ
بهديَّةٍ ضاءتُ بها أرجائي
في الطيِّ من كافورةٍ بيضاء
وبنظْمِ شعركَ من نجومِ سماءِ
لقد انتحتني ملءَ عينِ رجائي
لفظاً وخطاً معجزُ النبلاءِ
لا ما ادعاهُ الوشيُّ من صنعاءِ
لقضيةٍ أعيَّتْ على البلغاءِ
وكبا بكفِّ الذهنِ زَنَدُ ذكائي
وهجرتُ فيها سنَّةَ الأدباءِ
خدعاً لفكرِ جامعِ إبيائي
من خجلةٍ تمشي على استحياءِ

انتهت القصيدة ، ومن خط ناظمها صفوان نقلتها .

رجع :

٥٩ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في ترجمة أبي محمد عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله الأزدي في « التاج » ما صورته : طويل القوادم والخوافي ، كَلِّفَ على كبر سنه بعقائل القوافي ، شاب في الأدب وشبَّ ، ونشق ريح البيان لما هبَّ ، فحاول رقيقه وجزَّله ، وأجاد جدّه وأحكم هزله ، فإن مدح ،

صَدَح ، وَإِنْ وَصَف ، أَنْصَف ، وَإِنْ عَصَف ، قَصَف ، وَإِنْ أَنْشَأَ وَدَوَّن ، وَتَقَلَّبَ فِي أَفَانِينَ الْبَلَاغَةِ وَتَلَوَّن ، أَفْسَدَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَكَوَّن ، فَهُوَ شَيْخُ الطَّرِيقَةِ الْأَدْبِيَّةِ وَفَتَاهَا ، وَخَطِيبُ حَفَلِهَا كُلَّمَا أَتَاهَا ، لَا يَتَوَقَّفُ عَلَيْهِ مِنْ أَغْرَاضِهَا غَرَضٌ ، وَلَا يَضِيعُ لَدَيْهِ مِنْهَا مَفْتَرَضٌ ، وَلَمْ تَزَلْ بِرُوقِهِ تَتَأَلَّقُ ، وَمَعَانِيهِ بِأَذْيَالِ الْإِحْسَانِ تَتَعَلَّقُ ، حَتَّى بَرَزَ فِي أَبْطَالِ الْكَلَامِ وَفِرْسَانِهِ ، وَذُعُرَتِ الْقُلُوبُ بِسَطْوَةِ لِسَانِهِ ، وَأَلْقَتْ إِلَيْهِ الصَّنَاعَةَ زَمَامَتَهَا ، وَوَقَفَتْ عَلَيْهِ أَحْكَامُهَا ، وَعَبَّرَ الْبَحْرَ مُتَجَعِّمًا بِشَعْرِهِ ، وَمَنْفَقًا فِي سَوْقِ الْكِسَادِ مِنْ سَعْرِهِ ، فَأَبْرَقَ وَأَرْعَدَ ، وَحَذَّرَ وَأَوْعَدَ ، وَبَلَغَ جِهْدَ إِمْكَانِهِ ، فِي التَّعْرِيفِ بِمَكَانِهِ ، فَمَا حَرَكَ وَلَا هَمَزَ ، وَذَلَّ فِي طَلْبِ الرَّفْدِ وَقَدْ عَزَّ ، وَمَا بَرِحَ أَنْ رَجَعَ إِلَى وَطَنِهِ الَّذِي اعْتَادَهُ ، رَجُوعَ الْحَدِيثِ إِلَى قَتَادَةَ ، وَقَدْ أُثْبِتَ مِنْ نَزْعَاتِهِ ، وَبَعْضَ مَخْتَرَعَاتِهِ ، مَا يَدُلُّ عَلَى سَعَةِ بَاعِهِ ، وَنَهْضَةِ ذِرَاعِهِ ، فَمِنْ النَّسِيبِ قَوْلُهُ :

مَا لِلْمَحَبِّ دَوَاءً يُذْهِبُ الْأَلْمَا عَنْهُ سِوَى لِمٍ فِيهِ ارْتِشَافٌ لِمَى
وَلَا يَرِدُّ عَلَيْهِ نَوْمٌ مَقْلَتَهُ إِلَّا الدَّنُورُ إِلَى مَنْ شَقَّه سَقْمَا
يَا حَاكِمًا وَالْهُوَى فِينَا يُؤْتِيدهُ هَوَاكَ فِيَّ بِمَا تَرْضَاهُ قَدْ حَكْمَا

ثمَّ سردها . وقال في المديح :

إِلَيْكَ جَدًّا بِنِي التَّسْيَارُ تَأْمِيلَا فلي على فضلك المأمولِ تعويلا
الْحَمْدُ لِلَّهِ حَمْدًا لَا كِفَاءَ لَهُ بِسَعْدِ أَيَامِكَ المأمولُ قَدْ نَيْلَا
يَا رَاغِبًا مَرْتَجَاهُ دَفْعُ مَعْضَلَةٍ فَصَبْرِهِ بِصُرُوفِ الدَّهْرِ قَدْ عَيْلَا
أَلْمٌ بِمَحْضَرَةِ مَلِكٍ كُلُّ مَفْتَخِرٍ بِالْمَلِكِ يُولِيهِ بِالتَّعْظِيمِ تَرْسِيلَا
فِرْعَ مِنَ الدُّوْحَةِ النَّصْرِيَّةِ اجْتَمَعَتْ فِيهِ الْفَضَائِلُ تَتِمِّمًا وَتَكْمِيلَا
لَدَيْهِ مِمَّا لَدَى الصَّدِيقِ تَسْمِيَةٌ وَمِيسَمٌ وَكِفَاهُ ذَاكَ تَفْضِيلَا

وهي طويلة ؛ انتهى .

٦٠ - وقال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة أبي الحسن علي بن إبراهيم ابن علي بن خطاب السكاك من أهل غرناطة ، ما صورته : متسور على بيوت القريض ، في الطويل من الكلام والعريض ، ممن أطاعته براعة الخط ، وسلّمت لأقلامه رماح الخط ، عانى كتابة الشروط لأول أمره ، ثمّ أظتّ به محتته على توفّر خصاله ، ونُبِلَ خلاله ، وهو الآن من كتاب ديوان الحساب ، يتعلّل من الأمور المخزنية ببعض الألقاب ؛ انتهى .

٦١ - وقال في « التاج » في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الحق ابن الصباغ العقيلي الغرناطي^١ ما صورته : اللسن العارف ، الناقد لجواهر المعاني كما يفعل بالسكة الصيارف ، والأديب المجيد ، الذي تحلّى به للعصر النحرُ والجليد ، إن أجال جياذ براعته فضح فرسان المهارق ، وأخجل بين بياض طرسه وسواد نيقسه الطرّر تحت المفارق ، وإن جلا أبحار أفكاره ، وأثار طير البيان من أوكاره ، سلب الرحيق المقدّم فضل إسكاره ، إلى نفس لا يفارقها ظرف ، وهمة لا يرتد إليها طرف ، وإبانة لا يُفلس لها غرّب ولا حرف ، وله أدب غض ، زهره على مجتنيه منفض ، كتبت إليه أستنجز وعده في الإتحاف برائقه ، والإمتاع بزهر حدائقه ، قولي :

عندي لموعدك افتقارٌ محرجٌ وعهودك افتقرت إلى إنجازها
والله يعلم فيك صدق مودتي وحقيقة الأشياء غير مجازها

فأجابني بقوله :

يا مُهدي الدرّ الثمين منظماً كليمًا حلال السحر في إنجازها
أدركت حَلَباتِ الأوائل وانيباً ورددت أولها على أعجازها

١ انظر ترجمته أيضاً في الكتيبة : ٢٢٨ .

أحرزت في المضمارِ خصل سباقها ولأنتَ أسبقهم إلى إحرازها
 حلتيتَ بالسمطينِ مني عاطلاً وبعثتَ من فكري فتاة مفاها
 فلا تجزنَ مواعدي مستعطفاً فاسمحْ ، وبالإغضاء منك فجازها

وقال في « الإحاطة » في حق المذكور : إنه من أهل الفضل والسرارة والرجولة
 والجزالة ، فذئ في الكفاية ، ظاهر السداجة والسلامة ، مُصعبٌ لأضداده ،
 شديد العصبية لأولي وداده ، يشتمل على خلال من خط بارع وكتابة حسنة وشعر
 جيد ومشاركة في فقه وأدب ووثيقة ومحاضرة ممتعة ، ناب عن بعض القضاة
 وكتب الشروط ، وارتسم في ديوان الجند ، وكتب عن شيخ الغزاة أبي زكريا
 يحيى بن عمر على عهده ، ثم انصرف إلى العُدوة سبع عشر جمادى الأولى من
 عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة ، فارتسم في الكتابة السلطانية منوهاً به مستعملاً في
 خدم مجدية بان غناؤه فيها وظفرت كفايته ؛ انتهى .

وقد وصفه بصاحبنا ، ثم قال : ومن شعر المذكور قوله :

ليت شعري ، والهوى أملٌ وأماني الصبُّ لا تقفُ
 هل لذاك الوصلِ مرتجعٌ أو لهذا الهجرِ منصرفٌ ؟

وقال :

وظي سبي بالطرفِ والعطفِ والجيد^١ وما حاز من عُنجٍ ولينٍ ومن غيدٍ
 أشرتُ إليه بالدنوِّ مداعباً فقال : أيدنو الظبي من غابة الأسد ؟

وقال في مبدل قصيدة مطولة :

حديثُ المغاني بعدهنَّ شجون^٢ وأوجهُ أيامِ التباعدِ جُونُ

١ الكتيبة : زها بالطرف ... والطلا .

٢ ق : شجون .

لما الله أيامَ الفراقِ فكم شجّتُ
وحياً دياراً في رُبِّي أغرناطة
لأرخصتُ فيها من شبابي ما غلا
خليليَّ - لا أمرٌ - بأربُعها قيفا
ألم ترياني كلما ذرّاً شارقُ
إذا لم يساعدي أخٌ منكما فلا
أليسَ عجبياً في البريةِ مَنْ له
فلا تثقنْ من ذي وفاءٍ بعهدِهِ
لقبلي عذرٌ في فراقِ ضلوعهِ
ومن تركَ الحزمَ المعينَ فإنّه
رعى الله أيامي الوثيقَ ذمامها
ولم أرَ مثلَ الدهرِ أمّا عدوّهُ
ولولا أبو عمرو وجودُ بنانهِ

وقال :

زار الخيالُ ويا لها من لذّة
ما زلتُ أَلُمُّ مَبَسَماً منظومه
وأضَمَّ غصنَ البانِ من أعطافِهِ
لكنّ لَدَاتِ الخيالِ مَنَامُ
درٌّ ومورده الشهيُّ مُدَامُ
وأشمُّ مسكاً فُضَّ عنه ختامُ

مولده عام ستة وسبعمائة ، وتوفي بفاس ، وقد تخلّفه السلطان كاتب ولده عند
توجهه لإفريقية في العشرين من رمضان عام ثمانية وخمسين وسبعمائة ، رحمه الله
تعالى .

١ ق : فخب .

وقد وهم لسان الدين في شهر وفاة المذكور ، وإنما الصواب أنه توفي يوم
الأحد ثامن شوال ، فاعلم ذلك ، والله سبحانه أعلم .

رجع :

٦٢ - وقال في « التاج المحلّي في مساجلة القيدح المعلّي » وفي « الإكليل
الزاهر فيمن فضل عند نظم التاج من الجواهر » وغيرهما ممّا ثبت في حلّي
رؤساء الكتاب ، وحاملي ألوية الآداب ، في ترجمة شيخه ابن الجياب^١ ، ما نصه :
« صدر الصدور الجلّة ، وعلم أعلام هذه الملة ، وشيخ الكتابة وبانيها ، وهاصر^٢
أفنان البدائع وجانيها ، اعتمده الرياسة فناءً بها على جبل ذراعه ، واستعانت به
السياسة فدارت أفلاكها على قطب من شبة يراعه ، فتنياً للعناية ظلاًّ ظليلاً^٣ ،
وتعاقبت الدول^٢ فلم ترّ به بديلاً^٣ ، من ندب على علوه متواضع ، وحبر لثدي
المعارف راضع ، لا تمرّ مذاكرة^٣ في فنّ إلاّ وله فيه التبريز ، ولا تُعرض جواهر
الكلام على محكات الأفهام إلاّ وكلامه الإبريز ، حتى أصبح الدهر راوياً لإحسانه
وناطقاً بلسانه ، وغرب ذكره وشرق ، وأشأم وأعرق ، وتجاوز البحر الأخضر
والخليج الأزرق ، إلى نفس هذبت الآداب شمائلها ، وجادت الرياضة خمائلها ،
ومراقبة لربه ، واستنشاق لروح الله من مهبته ، ودين لا يُعجم عوده ، ولا
تخلف وعوده ، وكل ما ظهر علينا معشر بنيه من شارة تجلّي بها العين ، أو إشارة
كما سبك اللّجّين ، فهي إليه منسوبة ، وفي حسناته محسوبة ، فإنما هي أنفس^٣
راضها بأدابه ، وأعلّقها بأهدابه ، وهذب طباعها ، كالشمس تلقي على النجوم
شعاعها ، والصور الجميلة ، ترك في الأجسام الصقيلة انطباعها ، وما عسى أن أقول

١ انظر المجلد ٥ : ٤٣٤ .

٢ الكتيبة : دول العدل .

٣ الكتيبة : لا يمر الكلام .

في إمام الأئمة ، ونور الدياجي المدهمة ، والمثل السائر في بُعد الصيت وعلو الهمة ، وقد أثبت من عيون قصائده ، وأدبه الذي علق الإحسان في مصاديه ، كل وثيق المعنى ، كريم المجنى جامع بين حصافة اللفظ ولطافة المعنى ؛ انتهى .
والمذكور له ترجمة في هذا الكتاب في باب مشيخة لسان الدين فلترجع .

٦٣ - وقال في « الإكليل » في حق عمر بن علي بن غفرون الكلبي من أهل منتفريد^١ ما صورته : شيخ خدم ، قام له الدهر فيها على قدم ، وصاحب تعريض ، ودعاء عريض ، وفائز من الدول النصرية بأياد بيض ، أصله من حصن منتفريد ، خدم به الدولة النصرية عند انتزاع أهله ، وكان ممن استنزهم من حزنه إلى سهله ، وحكم الأمر الغالبي في يافعه وكهله ، فكسب حظوة أرضته ، ووسيلة أرففته وأمضته ، حتى عظم جاهه وماله ، وبسقت آماله ، ثم دالت الدول ، وتنكرت أيامه الأول ، وتغلب من يجانسه ، وشقي بمن كان ينافسه ، فجفت عوده ، والتأثت سعوده ، وهلك والحمول يُظِلّه ، والدهر يقوته من صُبابه حرث كان يستغله ، وله شعر لم يتقنه النظر ، ولا وضحت منه الغرر ، توفي في ذي الحجة عام أربعة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

٦٤ - وقال في « الإكليل » في حق قاسم بن محمد بن الجدد الفهري المري ما صورته : هو من أئمة أهل الزمام ، خليق برعني الذمام ، ذو حظ كما تفتح زهر الكمام ، وأخلاق أعذب من ماء الغمام ، كان يبليده حاسباً ، ودراً في بلحة الإغفال راسباً ، صحيح العمل ، يُلبس الطروس من براعته أسنى الحلل ، قال يمدح السلطان :

أرى أوجه الأيام قد أشرقت بشرا فقل لي رعاك الله ما هذه البشرية
وما بال أنفاس الخزامى تعطرت فأرجت الأرجاء من نفحها عطرا

١ ق : منتفريد ؛ ومنتفريد (Montefrio) تقع شمال مدينة لوشة واسمها القديم (Mons Frigidus) .

ونقبتِ الشمسُ المنيرةُ وجهها قصوراً عن الوجه الذي أخجل البدرا

وهي طويلة ، توفي المذكور عام خمسين وسبعمائة بالطاعون .

٦٥ - وقال في « الإكليل » في حق أبي عثمان سعيد الغساني ما صورته :
هو ممن يتشوق إلى المعرفة والمقالات ، ويتسق إلى الحقائق والمُحالات ، ويشتمل
على نفس رقيقة ، ويسير من تعليم القرآن على خير طريقة ، ويعاني من الشعر
ما يشهد بنُبله ، ويُستظرف من مثله ؛ انتهى .

٦٦ - وقال في « الإكليل » في ترجمة أبي الحجاج يوسف بن علي
الطرطوشي^١ ما صورته : روض أدب لا تعرف الدواء أزهاره ، ومجموع فضل لا
تخفى آثاره ، كان في فنون الأدب مُطلق الأعنة ، وفي معاركه ماضي الظبي
والأسنة ، فإن هزل ، وإلى تلك الطريقة اعتزل ، أبرم من الغزل ما غزل ،
وبزل من دنان راحه ما بزل ، وإن صرف إلى المغرب غرّب لسانه ، وأعاره
لمحة من إحسانه ، أطاعه عاصيه ، واستجمعت لديه أقاصيه ، ورَدَ على الحضرة
الأندلسية والدنيا شابة ، وريح القبول هابتة ، فاجتلى محاسن أوطانها ، وكتب عن
سلطانها ، ثمّ كرّ إلى أوطانه وعطف ، وأسرع للحاق كالبارق إذا خطف ،
وتوفي عن سنّ عالية ، وبرود من العمر غالية .

٦٧ - وقال في ترجمة أبي عبد الله محمد بن أحمد بن المتأهل العذري من
أهل وادي آش ما صورته^٢ : رجل غليظ الحاشية ، معدود في جنس السائمة
والماشية ، تليت على العمال به سورة الغاشية ، وليّ الأشغال السلطانية فذعرت
الجباة لولايته ، وأيقنوا بقيام قيامتهم لطلوع آيته ، وقنطوا كل القنوط ، وقالوا :
جاءت الدابة تكلمنا وهي إحدى الشروط ، من رجل صائم الحُشوة ، بعيد عن
المصانعة والرشوة ، يتجنب الناس ، ويقول عند المخالطة لهم : لا مساس ، عهدي

١ ترجمته في الدرر ٥ : ٢٤٢ وفيه : مات بعد ٧٤٠ .

٢ قد مرّت هذه الفقرة (رقم : ٢٦) .

به في الأعمال يحبط ويُتَبَّر ، وهو يهَلِّل ويكَبِّر ، ويحسِّن ويقبِّح ، وهو يسبِّح ، وقال يخاطب بعض أمراء الدولة :

عمادي ، ملاذي ، موثلي ، وموثمي ألا انعم بما ترضاهُ للمتأهلِ
وَحَقَّقْ بِنَيْلِ القصدِ منك رجاءهُ على نحو ما يرضيك يا ذا التفضلِ
فأنت الذي في العلمِ يُعرف قدرهُ بخيرِ زمانٍ فيه لا زلتَ تَعْتَلِي
فَهَنِّئْتِ يا معنى الكمالِ برتبةٍ تقرُّ لكم بالسبقِ في كلِّ محفلِ

توفي عام ثلاثة وأربعين وسبعمائة ؛ انتهى .

وتذكرت بقوله « ويحسن ويقبح ، وهو يسبح » قول الآخر :

قد بلينا بأميرٍ ظلم الناس وسبَّح
فهو كالجزارِ فيهم يذكُرُ الله ويذبحُ

رجع :

٦٨ - وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله ابن باق^١ من « التاج » ما صورته : مدير أكوس البيان المعتق ، ولعوب بأطراف الكلام المشقق ، انتحل لأول أمره الهزل من أصنافه ، فأبرز درَّ معانيه من أصدافه ، وجنى ثمرة الإبداع لحين قِطافه ، ثم تجاوزه إلى المغرب وتخطاه ، فأدار كأسه المُترَع وعاطاه ، فأصبح لفنيه جامعاً ، وفي فلكيه شهاباً لامعاً ، وله ذكاء يطير شرره ، وإدراك تبليج غرره ، وذهن يكشف الغوامض ، ويسبق البارق الوامض ، وعلى ذلاقة لسانه ، وانفساح أمد إحسانه ، فشديد الصبابة بشعره ، مُغْلٍ لسعره ؛ انتهى .
والمذكور هو محمد بن إبراهيم بن علي باق الأموي ، مرسى الأصل ، غرناطي النشأة ، مالقي الاستيطان .

وقال في « عائد الصلة » : كان رحمه الله تعالى كاتباً أديباً ذكياً لو ذعياً يجيد

١ ترجمته في الدرر ٣ : ٣٧٦ (ط . القاهرة) .

الخط ويرسل النادرة ، ويقدم على العمل ، ويشارك في الفريضة ، وبذء السبأق في الأدب الهزلي المستعمل بالأندلس ، غير زماناً من عمره محارفاً للفاقة يعالج بالأدب الكؤدية ، ثم استقام له الميسم ، وأمكنه البخت من امتطاء غاربه ، فأنشبت الحظوة فيه أناملها بين كاتب وشاهد وحاسب ومدير تجر ، فأثرى ونما ماله ، وعظمت حاله ، عهد عندما شارف الرحيل بجملة تناهز الألف من العين ، لتصرف في وجوه من البر ، فتوهم أنها كانت زكاة أمسك بها ؛ انتهى .
وقال أيضاً : أخبرني الكاتب أبو عبد الله ابن سلمة أنه خاطبه بشعر أجابه عنه بقوله في رويته :

أحرز الخصل من بني سلمة	كاتبٌ تخدمُ الظُّبى قلمه
يحملُ الطُّرسُ من أنامله	أثرَ الحسنِ كلما رقمه
وتمدُّ البيانَ فكرته	مرسلاً حيث يممت ديمه
خصَّني متحفاً بخمسٍ إذا	بسم الروضِ فُقنَ مبتسمه
قلت أهدى زهر الرُّبى خضلاً	فإذا كلُّ زهرةٍ كلمه
أقسم الحسنُ لا يفارقها	فأبرَّ انتقاؤها قسمه
خطَّ أسطارها ونمَّقها	فأتتْ كالعقودِ منتظمة
كاسياً من حلاه لي حُللاً	رسمها من بديعِ ما رسمه
طالباً عند عاطشٍ نهلاً	ولديه الغيوثُ منسجمه
يتبغي الشعرَ من أخي بله	أخرسَ العبيِّ والقصورُ فمه
أيها الفاضلُ الذي حفظت	ألسنُ المدحِ والثنا شيمه
لا تكلفُ أخاكَ مقترحاً	نشرَ عارٍ لديه قد كتمه
وابقَ في عزةٍ وفي دعة	ضافي العيشِ واردةً شيمه
ما نثي الغصنُ عطفه طرباً	وشدا الطيرُ فوقه نغمه

ورأيت على هامش هذه القصيدة بخط أبي الحسن علي بن لسان الدين ما صورته :

نعم ما خاطب به شيخنا وبركة أهل الأندلس وصدر صدورهم أبا عبد الله ابن سلمة ، ومن لفظه سمعتها بالقاهرة ، وإنها لمن النظم العالي المتسق نسق الدرّ في العقود ، رحمه الله تعالى ، قاله ابن المؤلف ؛ انتهى .

وقرأ ابن باق المذكور على الأستاذ أبي جعفر ابن الزبير والخطيب أبي عثمان ابن عيسى ، وتوفي بمالقة في اليوم الثامن والعشرين لمحرّم فاتح عام اثنين وخمسين وسبعمائة ، وأوصى بعد أن يحفر قبره بين شيخيه الخطيبين أبي عبد الله الطنجالي وأبي عثمان ابن عيسى أن يُدفن به ، وأن يُكتب على قبره هذه الأبيات :

ترحمّ على قبر ابن باق وحيّه	فمن حقّ ميت الحيّ تسليمُ حيّه
وقل آمن الرحمن روعةً خائف	لتفريطه في الواجبات وغيّه
قد اختار هذا القبر في الأرض راجياً	من الله تخفيفاً بقدر وليّه
فقد يشفع الجار الكريمُ لجاره	ويشملُ بالمعروف أهل نديّه
وإني بفضلِ الله أوثقُ واثقٍ	وحسي وإن أذنبتُ حبُّ نبيّه

انتهى .

٦٩ - وقال لسان الدين في ترجمة أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن سالم ابن فضيلة المعافري المري^١ المدعو بالتوّ من « الإكليل » ما نصه : شيخ أخلاقه لينة ، ونفسه كما قيل هينة ، ينظم الشعر سهلاً مساقه ، محكماً اتساقه ، على فاقة ، ما لها من إفاقة ، أنشد المقام السلطاني بظاهر بلده قوله :

سرت ريحُ نجد من رُبى أرضِ بابلِ	فهاجتُ إلى مسرى سُراها بلبلي
وذكرني عَرَفُ النسيمِ الذي سرى	معاهدَ أحيابِ سِراةِ أفاضلِ
فأصبحتُ مشغوفاً بذكر منازلِ	ألفتُ ، فواشوقِي لتلكَ المنازلِ
فيا ريحُ هُبِّي بالبطاحِ وبالرُبى	ومرّي على أغصانِ زهرِ الخمائلِ
وسيري بجسمي لتي الروحُ عندها	فروحي لديها من أجلِّ الوسائلِ

١ ترجمته في الدرر ٣ : ٣٦٧ (ط . القاهرة) .

وقولي لها عني مُعَنَّكَ بالنوى له شوقٌ معمودٌ وعبرةٌ ناكلِ
فيا بأبي هيفاء كالغصنِ تشني تقدُّ بقدِّ كاد يتقدُّ مائلِ
وهي طويلة .

ومن شعر المذكور قوله من قصيدة :

بَهَّرَتْ كشمسٍ في غلالةِ عسجدِ وكبدرٍ تمَّ في قضيبِ زبرجدِ
ثمَّ انثنتُ كالغصنِ هزَّتُهُ الصَّبَا طرباً فتزري بالغصونِ الميِّدِ
حوراءُ بارعةٌ الجمالِ غريرةٌ تزهي فتزري بالقضيبِ الأملدِ
إن أدبرتْ لم تُبقي عقلَ مدبرٍ أو أقبلتْ قتلتْ ولكن لا تدي

قال القاضي أبو البركات ابن الحاج : وابتلي المذكور باختصار كتب الناس ، فمن ذلك مختصره المسمى « الدرر الموسومة في اشتقاق الحروف المرسومة » وكتاب حكايات يسمى « دوحة الجنان وراحة الجنان » وغير ذلك .
قال أبو البركات : وسألته عن مولده ، فقال : لي اليوم ستون سنة ، وقال ذلك ليلة الخميس السابع والعشرين لذي قعدة عام أربعين وسبعمائة ، وتوفي آخر رمضان من عام تسعة وأربعين ، رحمه الله تعالى ؛ انتهى .

رجع :

٧٠ - قال لسان الدين في « الإكليل » في ترجمة الكاتب صاحب العلامة أبي العباس أحمد بن علي الملياني المراكشي ما نصه : الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، أي اضطراب في وقار ، وتجهّم تحته أنس العقار ! اتخذه ملك المغرب صاحب علامته ، وتوجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من أشياخ مراكش بثار عمه ، ويطوقهم دمه بزعمه ، ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه ، إذ سَعَوْا فيه حتى اعتقل ، ثم جدوا في أمره حتى قُتل ، فترصد كتاباً إلى مراكش

يتضمن أمراً جَزَماً ، ويشمل من أمور الملك عَزَماً ، جعل فيه الأمر بضرب رقابهم ، وسبني أسبابهم ، ولما أكد على حامله في العَجَل ، وضايقه في تقدير الأجل ، تأتت حتى علم أنه قد وصل ، وأن غرضه قد حصل ، فرأى إلى تلمسان وهي بحال حصارها ، فاتصل بأنصارها ، حالاً بين أنوفها وأبصارها ، وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجمت الظنون في آثاره ، ثم وصلت الأخبار بتمام الحيلة ، واستيلاء القتل على أعلام تلك القبيلة ، فتركها شنيعة على الأيام ، وعاراً في الأقاليم على حملة الأعلام ، وأقام بتلمسان إلى أن حلَّ مُخَنَّق حصرها ، وأزبل هميان الضيقة عن حصرها ، فلحق بالأندلس ولم يعدم برآ ، ورعياً مستمراً ، حتى أتاه حِمَامه ، وانصرفت أيامه ؛ انتهى .

والمذكور ترجمه في « الإحاطة »^١ بقوله : صاحب العلامة بالمغرب ، الكاتب الشهير البعيد الشأو في اقتضاء الترة ، المثل المضروب في الهمة ، وقوة الصريمة ، ونفاذ العزيمة .

حاله - كان نبيه البيت ، شهير الأصالة ، رفيع المكانة ، على سجية غريبة من الوقار والانقباض والصمت ، آخذاً بحظ من الطب^٢ ، حسن الخط ، مليح الكتابة ، قارضاً للشعر ، تذهب نفسه فيه كل مذهب .

وصمته - فتك فتكة شهيرة أساءت الظن بحملة الأعلام على ممر الدهر ، وانتقل إلى الأندلس بعد مشقة .

شعره - من شعره الذي يدل على بأوه ، وانفساح خُطاه في النفاسة وبُعْد شأوه ، قوله :

العزُّ ما ضُرِبَتْ عليهِ قبابي والفضلُ ما اشتملتُ عليه ثيابي

١ انظر ج ١ : ١٤٩ ، والإعلام بمن حل مراکش ١ : ٣٧٣ .

٢ ق : الطلب ؛ وأثبتنا ما في الإحاطة .

والزهْرُ ما أهْداهُ غصنُ براعي
فالمجد يمنع أن يزاحمَ موردي
وإذا بلوتُ صنيعَةً جازيتها
وإذا عقدتُ مودةً أجريتها
وإذا طلبتُ من الفراقِدِ والسُّها
والمسكُ ما أبداهُ نِقْسُ كتابي
والعزمُ يأبى أنْ يضامَ جنابي
بجميلِ شكري أو جزيلِ ثوابي
مجرى طعامي من دمي وشرابي
ثأراً فأوشكُ أنْ أنالَ طلابي

وفاته - توفي بغرناطة يوم السبت تاسع ربيع الآخر عام خمسة عشر وسبعمائة
ودُفن بجبانة باب إلبيرة ، تجاوز الله تعالى عنه ؛ انتهى .

رجع إلى نثر ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٧١ - فمن ذلك قوله في « الروضة » في ترجمة « ضخام الغصون من
شجرة السر المصون » ما صورته : وهي التي أفاءت الظل الظليل ، وزانت المرأى
الجميل ، وتكفلت لمحاسن الشجرة السماء بالتكفيل ، وتعدد إلى غصون المحبوبات ،
وأقسام موضوعاتها المكتوبات ، وغصن المحيين ، أصنافهم المرتبين ، وغصن
علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصبّبة ، وغصن الأخبار المنقولة ، عن ذوي
النفوس المصقولة ، وعند تعين هذه الأغصان المقسومة ، كمل شكل الشجرة
المرسومة ، والسّرحة الموصوفة الموسومة ، ففاءت الظلال ، وكرمت الللال ،
فحييي من تفرد وتوحد ، واستظل من استهدى واسترشد ، ووقف الهائم فخطب
وأشدّ :

يا سَرَحَةَ الحَيِّ يا مَطولُ شَرَحُ الذي بيننا يطولُ
عندي مقالُ فهل مقامُ تُصغينَ فيه لما أقولُ
ولي ديونُ عليكِ حلّتْ لو أنهُ ينفعُ الحلولُ

١ أورد منها بيتين في النضح ٣ : ٥٠٦ ونسبهما لابن براق .

ماضٍ من العيشِ كان فيهِ متزلّنا ظلُّكِ الظليلُ
زالَ وماذا عليهِ ماذا يا سرّحَ لو لم يكنْ يزولُ
حيّا عن المذنبِ المعنىِ منبتكِ القَطْرُ والقَبولُ

وقال رحمه الله تعالى : فصول في المعرفة تغازل بها عيون الإشارة ، إذا
قصرت عن تمام المعنى ألسنُ العبارة ، والله درُّ القائل :

وإذا العقولُ تقاصرت عن مدركٍ لم تتكلّم إلاّ على أذواقها

المعرفة اختراق المراتب الحسية ، والنفوس الجنسية ، والعقول القدسية ،
والبروز إلى فضاء الأزل ، إذا فني من لم يكن وبقي من لم يزل ، مع عمران المراتب ،
ورؤية الجائر في الواجب :

ومن عجبٍ أني أحزنُ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي
وتبكيهمُ عيني وهم في سوادها ويشكو النوى قلبي وهم بين أضلعي

المعرفة مقام يأتلف من جمع مفروق ، وأفول وشروق ، وسلّ عروق ، ورد
مسروق ، حتى يذهب الكيف والأين ، ويتعين العين ، فيجمع العدد ويحمل ،
وينحى السوى ومع ذلك لا يهمل :

للعيدا منك نصيبُ ولك السهمُ المصيبُ
إنما يومك يوماً ن : خصيبٌ وعصيبُ

المعرفة مقام سامي المنعرج ، عاطر الأرج ، ينتقل من السّعة إلى الحرج ، ومن
الشدّة إلى الفرج :

طريقك لا تخفي به إن تبعتْ خطاك ولا يخفي مبيتك فيه
متاعك منشورٌ على كلّ خيمةٍ ورؤياك أمنٌ من ترفعُ تيه

المعرفة عين إن لم تبصر أجزاءها ، أحسن الله عزاءها ، وحقيقة إن لم يجعل الفراق
إزاءها ، كانت الغيرة أجزاءها ، فهي دائرة مركزها يجمع ، ومحيطها في التفريق
يطمع ، يستقل الملك أجمع ، ويرى من يرى ويسمع من يسمع :

بُعدُ المحيط من المحدد واحدٌ والكلُّ في حقِّ الوجودِ سواءُ
والحقُّ يعرفُ ذاته من ذاته صحَّ الهوى فتلاشتِ الأهواءُ

المعرفة صعود ونزول ، ووقوف ووصول ، فلا الوصول عن البداية يقطع ،
ولا البداية عن النهاية تمنع :

من له الأمرُ أجمعُ كلُّ ما شاء يصنعُ
حصلَ القصدُ واستقرَّ فلم يبقَ مطمعُ

العارف في البداية يشكر الراع والساجد ، ثمَّ يعذر الواحد المتواجد ، ثمَّ يرجم
المتكر الجاحد ، فإذا انتهى ورُدَّ العدد إلى الواحد ، قال لسان حاله :

من رأى لي نشيدةً أو على عينها أثرُ
فله الحكم قل له ذهبَ العينُ والأثرُ

إلى أن قال : قال الرئيس : العارف هشّ بش بسام ، فيجل الصغير من تواضعه
مثلما يجل الكبير ، ويبسط من الخامل مثلما يبسط من النبيه ، ثمَّ علل فقال :
وكيف لا يهش وهو فرحان بالحق ، وبكل شيء فإنه يرى فيه الحق ، إني لأجد
ريح يوسف ٢ :

لمعت نارهم وقد عسعسَ اللدُّ لُ وضجَّ الحادي وحرَّ الدليلُ
فتأمّلتها وقلتُ لصحبي هذه النارُ نارُ ليلى فميلوا

١ ق : الغزة .

٢ انظر مشارق أنوار القلوب : ٧٢ وهما من قصيدة السهروردي .

العارف شجاع ، وكيف لا وهو بمعزل عن هيبة الموت ، وجواد ، وكيف لا وهو بمعزل عن صحبة الباخل ، وشفّاح ، وكيف لا ونفسه أكبر من أن تخرجها زلة بشر ، ونساءً للأحقاد ، وكيف لا وذكره مشغول بالحق ، وقالوا : مَنْ عرف الله تعالى صفا له العيش ، وطابت له الحياة ، وهابه كل شيء ، وذهب عنه خوف المخلوقين ، وأنس بالله رب العالمين .

الشبلي : ليس لعارف علاقة ، ولا لمحِب شكوى ، ولا لعبد دعوى ، مَنْ عرف الله سبحانه انقطع ، بل خرس وانقمع ، لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك ؛ انتهى .

٧٢ - وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة : الفرع الصاعد إلى الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ، إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجيرم شريف ، وأفنان ذوات ألوان ، قنوان وغير قنوان ، وطلّغ نضيد ، وجنّى سعيد ، فالقشر الحدود والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها والموسوم ، والفنون التي يقوم عليها والعلوم ، والجرم ظاهر الخلق المقسوم ، وعلاجه كما تعالج الجسوم ، وباطنه المجاهدات التي عليها يقوم ، وقلبه الرياضة والغصون المقامات فيها المقام المعلوم ، ومادنها السلوك الذي بتدرّيج غذائه تبلغ الأفنان والورقات ما تروم ، والزهرات اللوائح والطواع والبوادة التي لها الهجوم ، والواردات التي تدوم أو لا تدوم ، ثمّ الجنى وهو الولاية التي كان الغارس عليها يحوم ؛ انتهى .
ثمّ فصلّ الكل رحمه الله تعالى فليراجع من أراه .

٧٣ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه على لسان سلطانه للأمير يلبغا الخالصكي^١ ، وهو : « إلى الأمير المؤمن على أمر سلطان المسلمين ،

١ كان مدبر الدولة أيام المنصور محمد والأشرف شعبان ، قتله غلمانا لعسفه وظلمه سنة ٧٦٨ .

المقلّد بتدبيره السيد قلادة الدين ، المثني على رسوم بره لمقامه لسان الحرم الأمين ،
الآوي من مرضاة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم إلى الربوة ذات القرار
والمعين ، المستعين من الله تعالى على ما تحمّله وأمله بالقوي المعين ، سيف الدعوة ،
ركن الدولة ، قوام الملة ، مؤمل الأمة ، تاج الخواص ، أسد الجيوش ، كافي
الكفاة ، زين الأمراء ، علم الكبراء ، عين الأعيان ، حسنة الزمان ، الأجلّ
المرفع الأسنى الكبير الأشهر الأسمى الحافل الفاضل الكامل المعظم الموقر الأمير
الأوحد يلغا الخالصي ، وصل الله له سعادة تشرق غرّتها ، وصنائع تسح فلا
تشحّ درتها ، وأبقى تلك المثابة قلادة الله تعالى وهو درتها .

« سلام كريم ، طيب برّ عسيم ، ينخص إمارتكم التي جعل الله تعالى الفضل
على سعادتها أمارة ، واليسر لها شارة ، فيساعد الفلك الدوار مهما أعملت إدارة ،
وتمثل الرسوم كلما أشارت إشارة .

« أما بعد حمد الله تعالى الذي هو يعلمه في كل مكان ، من قاص ودان ،
وإليه توجه الوجوه وإن اختلفت السّير وتباعدت البلدان ، ومنه يلتمس الإحسان ،
وبذكرة ينشرح الصدر ويطمئن القلب ويمرح اللسان ، والصلاة والسلام على
سيدنا ومولانا محمد رسوله العظيم الشان ، ونبيّه الصادق البيان الواضح البرهان ،
والرضى عن آله وأصحابه وأحزابه أحلاس الخيل ، ورهبان الليل ، وأسود الميدان ،
والدعاء لإمارتكم السعيدة بالعز الرائق الخبر والعيان ، والتوفيق الوثيق البنيان ،
فإنّا كتبناه إليكم - كتب الله تعالى لكم حظاً من فضله وافرأ ، وصنعاً عن محبّة
السرور سافرأ ، وفي جو الإعلام بالنعيم الجسام مسافرأ - من حمراء غرناطة
حرسها الله تعالى دار ملك الأندلس دافع الله سبحانه عن حوزتها كيد العداة ،
وأتحف نصلها ببواكر النصر المهداة ، ولا رائد إلا الشوق إلى التعارف بتلك
الأبواب الشريفة التي أنتم عنوان كتابها المرقوم ، وبيت قصيدها المنظوم ، والتماس
بركتها الثابتة الرسوم ، وتقدير المثول في سبيل زيارتها بالأرواح عند تعذره
بالجسوم ، وإلى هذا فإننا كانت بين سلفنا تقبّل الله تعالى جهادهم ، وقدم

نفوسهم ، وأمن معادهم ، وبين تلك الأبواب كما عرفتم من عدلها وإفضالها ،
مراسلةً نيمٌ عَرَفُ الخلوص من خلالها ، وتسطع أنوار السعادة من آفاق كما لها ،
وتلتصق من أسطار طروسها محاسن تلك المعاهد الزاكية المشاهد ، وتُعرب عن
فضل المذاهب وكرم المقاصد ، اشتقنا إلى أن نجددها بحسن منابكم ، ونواصلها
بمواصله جنابكم ، ونغتم في عودها الحميد مكانكم ، ونؤمل لها زمانكم ، فخاطبنا
الأبواب الشريفة في هذا الغرض مخاطبة خجيلة من التقصير ، وجيلة من الناقد البصير ،
ونؤمل الوصول في خفارة يدكم التي لها الأيادي البيض ، والموارد التي لا تغيض ،
ومثلكم من لا تخيب المقاصد في شمائله ، ولا تضحى المآمل في ظل خمائله ،
فقد اشتهر من حميد سيركم ما طبّق الآفاق ، وصحب الرفاق ، واستلزم
الإصفاق ، وهذه البلاد مباركة ، ما أسلف أحد فيها مشاركة ، إلا وجدها في
نفسه ودينه وماله وعباله ، والله سبحانه أكرم منّ وفي لامرئ بمكياله ، والله
عز وجل يجمع القلوب على طاعته ، وينفع بوسيلة النبي صلّى الله عليه وسلّم
الذي نعول على شفاعته ، ويبقى تلك الأبواب ملجأ للإسلام والمسلمين ، وظلاً
للّه تعالى على العالمين ، وإقامة لشعائر الحرم الأمين ، ويتولى إعانة إمارتكم على
وظائف الدين ، ويجعلكم ممّن أنعم الله تعالى عليه من المجاهدين ، والسلام
الكريم يخصكم ورحمة الله تعالى وبركاته ؛ انتهى .

٧٤ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في قضية امتناع بعض الموثقين
من أكل طعامه بمدينة سلا ، وقد صدر به كتابه المسمى بـ « مثلى الطريقة في
ذم الوثيقة » وهذا نصه : أما بعد حمد الله الذي قرر الحكم وأحكمه ، وبين
الحلال من الحرام بما أوضحه من الأحكام وعلمه ، ونوع جنس المعاش وقسمه ،
وماز كل نوع منه ووسمه ، فأثبتته متفاوتاً في درجات التفضيل ورسومه ، والصلاة
والسلام على مولانا محمد رسوله الذي فضّله على الأنبياء وقربّه وطهر من دنس
الشبهات شيّمه ، فما استعمله في غير طاعته ولا استخدمه ، ولا أعمل في سوى

البر والهدى بَنَانَه ولا قَدَمَه ، والرَضَى عن آلِه وأصحابه الذين رَعَوْا ذِمَمَه ، واستمطروا دِيَمَه ، وتواصوا من أجله بالبر وتواصوا بالمرحمة ، فهذا كتابُ « مثلى الطريقة في ذم الوثيقة » دعا إلى جمعه قلة الإنصاف من المُدَاهِن والمُعَاصِر ، والمبَاهِت في مدرك النور الباصر ، ورضى مظنة النَّيْلِ منهم بالباع القاصر ، والمناضلة عن الحمى الذي لم يؤيده الحق بالولي ولا بالناصر ، ولوضعه حكاية ، ولنفسه شكاية ، إذ معرفة الأشياء بعلمها مما يتشوق إليه ، ويحرص عليه ، وهو أني لما قدمت على مدينة فاس حرسها الله تعالى ، مستخلصاً بشفاعة الخلافة ، ذات الإنافة ، مستدعيً برسالة الإيالة ، ذات الجلالة ، فانسحب والمنة لله السر ، وانفسح الفتر ، وشفع من النعم الوتر ، واقتدى المرؤوس بالرئيس ، وتنافس الأعلام في التأنيس ، واتصل الاحتفاء والاستدعاء ، وانتخب الموعى والوعاء ، وأخذ أعقاب الطبيات الوضوء والطيب والدعاء ، تعرفت فيمن جمعته الأخوينة ، والمداعي المتعينة ، برجل من نبهاء موثقيها غرّني بمخيلة البشاشة التي يستفزُّ بها الغريب ، ويستخلص هوى من لم يعمل التجريب ، فأنست بمكانه ، واستظهرت على ما يعرض من مكتبه بدكانه ، وشأنني في الاغتباط بمن عرفت شاني ، فلست للميقة بشاني ، واسترسالي ، حتى لمن أسالي ، طوع عنائي :

أفادتكم النعماء مني ثلاثةٌ ضميري ويتلوهُ يدي ولساني

ولم يكُ إلاّ أن حللت بمدينة سلا حرسها الله تعالى مقصود المحل وإن رغم الدهر الذي رمى فأقصد ، معتمداً بفتوحات الله تعالى وإن أرتج الباب بزعمه وأوصد ، مُصْحَباً بمدد عنايته وإن كمن وأرصد ، لا يمر فاضل إلاّ عرّج على مثنوي ، وأتى من البر فوق هواي ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، وتعرفت عن صاحبي الفاسي أنه قدم علينا من سخر عملية فلا لها الدر المنهوبة ، وتخللها المسبعة المرهوبة ، واغتذى الأطعمة التي مرّقتُها الدموع ، ومطبختها الحمى المروع ، واستقر بالمدينة بعد أن لان وضّرع ، وجدلّ وصرع ، نافق البقلة كاسيد الورع ،

ونزل بمثوى خمول ، ومحطّ مجهول ، وكَنَفَ ممقوت ، وجوار لا يبخل بغيبة
ولا يسمح بقوت ، فبادرت استدعائه بفاضل من الطلبة ممّن يتلقى به الوارد ،
ويقتاد الشارد ، وقد أغرب بقراءة الاحتفاء والاحتفال ، وأجنب الإغفاء والإغفال ،
وجهزت السرايا إلى التماس نعم الله تعالى فحلت الأنفال ، فلماً عرض عليه
الدعوة تعجرف ونفر ، ولماً مسح عطفه بالاستئزال نزا وطفّر ، حتى بهت
الرسول كما بهت الذي كفر ، وآب يحمل عذراً بلرداً ، واحتجاجاً شاردأ ،
فأقطعت جانب شماسه ، وخليت بينه وبين وسّواسه ، ومن الغند قصّدي فاعتذر ،
وأكثر الهذّر ، ولم ينبت الله النبات الحسن شيئاً ممّا بدّر ، وكان جوابي لإياه
ما نصه :

أبيتم دعوتي إمّا لبأوي وتأي لومه مثلي الطريقه
وبالمختار للناس اقتداءً وقد حضر الوليمة والعقيقة
وغير غريبة أن رقّ حرّ على منّ حاله مثلي رقيقه
وإمّا زاجر الورع اقتضاها ويأبى ذاك دكان الوثيقة
وغشيان المنازل لاختيار يُطالب بالخليلة والدقيقة
شكرتُ مخيلةً كانت مجازاً لكم وحصلت بعد على الحقيقة

وذاع خبرها فقلبت عنها الجنوب ، وكلف بها الطالب والمطلوب ، وهشّ إلى
المراجعة عنها أحد الموثقين بسلا ممّن يحوم حول حمى الإدراك ، ويروم درجة
الاختصاص ببعض الفنون والاشترك ، وله في الأدب مساس ، وجلب الباس ،
بما نصه :

رسولك لم يبن لي عن طريقه تقرّب من حديقتك الأنيقه
فلا بأو لديّ ولا إباء ولكن ساء في الغرض الطريقه
وهبّ أني أسأتُ فكم صديق تدلّل واعتدى فجفا صديقه

فلا عجبٌ فديتَ لرفقِ حرٍّ يسكنُ عندَ خجلتهِ رفيقه°
ولإني فيكَ معتقدٌ ، ولكن أرى الأيامَ حاقدةً حنيقه°
على ذي الودِّ فيمن ودَّ حتى يفارقهُ وإن أضحى رفيقه°

فراجعته بما نصه لما أسلفته من جزاء مصاعه ، وكلتُ له بصاعه :

من استغضبت من هذي الخليقة° بمغضبةٍ بإنكارِ خليقته°
ولم يغضبْ فتيسُ أو حمارٌ مجازاً ، لا ، لعمري ، بل حقيقته°
بعثتُ بمرسلٍ لك مع عتيقي فلم تطعِ الرسولَ ولا عتيقه°
وطوقتَ السفيرَ الذنبَ لما عجلتَ به ولم تُبلعه ريقه°
إمامُ جماعةٍ وقرعُ تقوى ومُبلغُ حجةٍ ، وحفيظُ سيقه°
فبؤتَ بها على الأيامِ داءً عُضالاً لا تفيقُ عليه فيقه°
وقد عارضتَ عذركَ باعترافٍ فزدتَ مذمةً تسمُ الطريقة°
وهل بعدَ اعترافٍ من نزاعٍ وهل بعدَ افتصالٍ من وثيقه°
ومن جهلِ الحقوقِ أطاعَ نفساً ببحرِ الجهلِ راسبةً غريقه°
ومنجى نيقهٍ أمرٌ بعيدٌ إذا نصبَ المهندسُ منجنيقه°

فأمسك حينئذ وأقصر ، ورأى الأمر يطول فاختر ، إلا أنه نمي لي عنه قوله :
إن دكان الوثيقة إن نافي الورع فبغير بلده ، وأذهلته لذة لدده ، عما هو بصدده ،
فارتهمت له أن أنصر الدعوى بما يسلمه المنصف المساهل ، وينكره الأرعن الجاهل ،
وتشدّ به المنازل والمناهل ، والمعالم والمجاهل ، مستنداً إلى الحكم الشرعي ، والسنن
المرعي ، والمشاهدة والحس ، وشهادة الجن والإنس .

١ السيقة : لعلها صورة اشتقاقية من السوق أو السياق بمعنى المهر الذي يساق إلى المرأة في صداقها ؛
وبما يقرب هذا المعنى أن الرجل الذي وجهت إليه الأبيات من كتاب الوثائق .

ولو تُركَ القَطَا ليلاً لنا ما

والله يجعله موقظاً من السنّات ، وازعاً عن كثير من الهنات ، وينفع فيه بالنية
فإنما الأعمال بالنيات ، وما أنا أبتدىء وعلى الله الإعانة ، وبحوله وقوته الإفصاح
والإبانة .

قلت : ينحصر الكلام فيه في سبعة أبواب ، الباب الأول : في جواز الإجارة
فيها عند العلماء ، الباب الثاني : في الشركة المستعملة بين أربابها ، الباب الثالث : في
محلها من الورع إن سوّغها الفقه ، الباب الرابع : في منزلتها من الصنائع والمهن ،
الباب الخامس : في أحوال منتحلها من حيث العلم غالباً ، الباب السادس : في
أحوالهم من جهة استقامة الرزق وانحرافه ، الباب السابع : في رد بعض ما يحتاج
به فيها . انتهت الخطبة المقتطعة من تأليف لسان الدين رحمه الله تعالى .

وهذا التأليف في نحو كراسة ، وقال في آخره ما صورته : فإن قيل : ترك
الأجر وقبول العوض في هذا الأمر يدعو إلى تعطيله ، فيفقد الناس منفعة هذه
الطريقة وغنائها ، قلت : الإنصاف فيها اليوم أن لو كان متوليها يرتزق من
بيت المال وأموال المصالح والأوقاف التي تسع ذلك ، وحال الجماهير في فقدانها
والاضطرار إليها ورفع أمورهم بها إلى السلطان ورغبتهم في نصب من يتولى ذلك
حالمهم في فقدان أئمة الصلاة في المساجد الراتبية في جريانه من بيت المال بعلة الترامهم
وارتباطهم فقط ، حسبما نقل الإجماع فيه القاضي أبو بكر ابن العربي رحمه
الله تعالى ومنع الارتزاق من غيره إجماعاً ، وقد كان بالمدن المعبرة من بلاد
الأندلس — جبرها الله تعالى — ناس من أولي التعفف والتعين ، كبنّي الجد بإشبيلية
وبنّي الخليل وغيرهم بغيرها ، يتعيشون من فضول أملاكهم ، ووجائب رباعهم ،
ويقعدون بدورهم عاكفين على بر ، متنايين لرواية وفتيا ، يقصدهم الناس في
الشهادة فيجاملونهم ، ويُبركون على صفتهم ، ويهدونهم إلى سبيل الحق فيها
من غير أجر ولا كلفة ، إلاّ الحفظ على المناصب ، وما يجريه السلطان من الحرمة

والتفقد^١ في الضرورة ، وما يهديهم الناس من الإطراء والتجلة ، والله سبحانه ينيلهم من الأجر والثوبة ، وبلغني اليوم أن حالها بمدينة سجلماسة ينظر إلى هذا الحال من طرف خفي ، ولم يفسد بها كل الفساد ، وكذلك لم نزل نتعرف أن الأمر في شأنها بمدينة تونس أقرب ، وبعض الشر أهون من بعض ، ولو بقيت بحالها لوجب تقرير فضلها وتقريظ منتحلها ، فالصدق أنجي ، والحق عند الله أحجى ، والله عز وجل يستعملنا فيما يرضيه ، ويلطف بنا فيما يجريه علينا من أحكامه وما يقضيه ، ويجعلنا ممن ختم له بالحسنى ، ويقربنا إلى ما هو أقرب من رحمته وأدنى ، وصلوات الله على سيدنا محمد وآله وصحبه ؛ انتهى .

وكتب على ظهر الورقة الأولى من هذا التأليف شيخ شيوخنا الإمام الكبير المؤلف الشهير سيدي أحمد الونشريسي رحمه الله تعالى ما صورته : الحمد لله ، جامعُ هذا الكلام المقيد هذا بأول ورقة منه قد كدّ نفسه في شيء لا يعني الأفاضل ، ولا يعود عليه في القيامة ولا في الدنيا بطائل ، وأفنى طائفة من نفيس عمره في التماس مساوىء طائفة بهم تُستباح الفروج ، وتملك مشيدات الدور والبروج ، وجعلهم أضحوكة لذوي الفتك والمجانة ، وانتزع عنهم جلباب الصدق والديانة ، سامحه الله تعالى وغفر له ، قال ذلك وخطّه بيمنى يديه عبيد ربه أحمد بن يحيى بن محمد بن علي الونشريسي خار الله سبحانه له ؛ انتهى ما ألفيته . وقد كان لسان الدين رحمه الله تعالى كثيراً ما يعرض ويصرح بهجو بعض أهل سلا أو كلهم حتى قال :

أهلُ سلا صاحتُ بهم صائحهُ غاديةٌ في دورهم رائحهُ
يكفيهمُ من عَوَزِ أتهمُ ريجانُهُمُ ليستُ له رائحهُ

والله المرجو للعفو عن الزلات .

٧٥ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى خطبة كتابه في المحبة الذي ما

١ ق : والنفقة .

ألف في فنه أجمع منه ، ولنوردها فإن فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب ، وهي : « اللهم طيبّ بريحان ذكرك أنفاسَ أنفسنا الناشقة ، وعلّل بجريال حبك جوانح أرواحنا العاشقة ، وسدد إلى أهداف معرفتك نبالَ نبلنا الراشقة ، واستخدم في تدوين حمدك شبا أعلامنا الماشقة ، ودلّ على حضرة قدسك خطرات خواطرنا الذائقة ، وأبين لنا سبيلَ السعادة التي جعلتَ فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس الناطقة ، واصرفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة ، حتى نأمن مخاوف أجبالها الشاهقة ، وأحزابها المنافقة ، وأوهامها الطارئة الطارقة ، وبرازخها القاسية الغاسقة ، فلا تسرق بضائعا العوائد السارية السارقة ، ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية اللاحقة ، ولا الأنوار المغلظة البارقة ، ولا العقول المارقة ، يا من له الحكمة البالغة والعناية السابقة ، وصلّ على عبدك ورسولك محمد درة عقود أحبابك المتناسقة ، وجالب بضائع توحيدك النافقة ، المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة ، ما أطلعت أفلاك الأدواح زهراً أزهارها الرائقة ، وحدث قطار السحاب حداً رعوها السائقة ، وجمعت ريح الصبا بين قدود أغصانها المتعاقبة .

« أما بعد ، فإنه لما ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف الله حدودها ، الصادقة بنصر الله للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وعودها - وصلّ الله تعالى عوائد صنعه الجميل لديها ، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومنّ عليها - «ديوان الصبا» وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشاق على الكثير ، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كلّ تنظيم ونثير ، وأسدى في غزل غزله وألم ، ودلّ على مصارع شهدائهم من وقف وترحم ، فصدّق الخبر المخبر ، وطمت اللجة التي لا تُعبر ، وتأرّج من مسراه المسكُ والعنبر ، وقالت العشاق عند طلوع قمره : الله أكبر :

مررت بالعشاقِ قد كبروا وكان بالقربِ صبيّ كرمٍ

١ كتاب من تأليف شهاب الدين أحمد بن أبي حجلة .

فقلت : ما بالهم ؟ قال لي : ألقى للحب كتاب كريم

ولا غرو أن أقام بهذه الآفاق ، أسواق الأشواق ، وزاحم الزفرات في مسالك
الأطواق ، وأسأل جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقائق^١ ، وفتك نسيمها
الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق :

جنى النسيم علينا وما تبينت عذره
إذ صير الخلق نجداً والأرض أبناء عذره

فوقع للحجة المصرية التسليم^٢ ، وقالت أسنة الأقلام معربة عن أسنة الأقاليم :

سلمت لمصر في الهوى من بلد يهديه هواؤه لدى استنشاقه
من ينكر دعواي فقل عني له تكفي امرأة العزيز من عشاقه

فغمر المحافل والمجالس ، واستجلس الراكب واستركب الجالس ، يدعو الأدب
إلى مادبته فلا يتوقف ، ويلقي عصا سحره المصري فتلقف ، ما شئت من ترتيب
غريب ، وتطريب من بنان أريب ، يشير إلى الشعر فتقاد إليه عيونه ، ويصبح
بالأدب الشريد فتلبيه فنونه ، وأنهى خبره للعلوم المقدسة ، ومدارك العز الموطدة
المؤسسة ، سما به الجحد صعداً إلى المجلس السلطاني مقر الكمال ، ومطمح الأبصار
والآمال ، حيث رفارف العز قد انسدت ، وموازن القسط قد عدلت ، وفصول
الفضل قد اعتدلت ، وورق أوراق المحامد قد هدلت ، مجلس السلطان المجاهد ،
القاتح الماهد ، المتحلي في ريعان العمر الحديد ، والملك السعيد ، بجلى القانت
الزاهد ، شمس أفق الملة ، وفخر الخلفاء الجلّة ، بدر هالات السروج المجاهدة ،
أسد الأبطال البارزة إلى حومة الهياج الناهدة ، معشي الأبصار المشاهدة ، مظهر
رضى الله تعالى عن هذه الأمة الغربية عن الأنصار والأقطار ، من وراء أمواج^٣

١ ق : الأطباق . ٢ كذا قال ، ولكن ابن حجلة مغربي المولد ، استوطن القاهرة .

٣ أمواج : سقطت من ق .

البحر الزخار ، باختياره لها واعتيامه ، ومُلبسها برودَ اليُمن والأمان ببركة أيامه ،
ومن أطلع الله تعالى أنوار الجمال من أفق جبينه ، وأنشأ أمطارَ السماح من غمام
يمينه ، وأجرى في الأرض المثل السائر بحلمه وبسالته ودينه ، أمين الله تعالى على
عهدة الإسلام بهذا القطر وابن أمينه وابن أمينه ، فخر الأقطار والأمصار ، ومطمح
الأيدي وملمَح الأبصار ، وسلالة سعد بن عبادة سيد الأنصار ، ومنَ لو نطق
الدين الحنيفي لحيّاه وقدّاه ، أو تمثل الكمالُ صورةً ما تعدّاه ، مولانا السلطان
الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد الله ابن مولانا أمير المسلمين أبي
الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصاري
الخرزجي ، جعل الله تعالى ثغراً الثغر مبتسماً عن شنب نصره ، والفتح المبين
مذخوراً لعصره ، كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قصره ، وسوّغه
من أشتات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حصره ، ولا زالت أفنان الأفلام
تتحف الأقاليم بجنيّ فنون هـنّره ، فخصته عينُ استحسانه أبقاه الله تعالى بلحظة
لحظ ، وما يُلقّاها إلاّ ذو حظّ ، وصدرت إليّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء في
فنه ، والمنادمة على بنت دتّه ، وحسب الشحم من ذي ورم والله سبحانه يجعلني
عند ظنه ، ومتى قورن المثري بالترب ، أو وُزن المشرق بالمغرب ؟ شتان بين من
تُجلى الشمس منه فوق منصتها ، وبين من يشره أفقه الغربي لابتلاع قرصتها ،
لكني امتثلت ، ورشت ونثلت ، ومُكرهاً لا بطلاً مثّلت ، وكيف يتفرغ
للتأليف ، ويتبرع للوفاء بهذا التكليف ، منَ حمّل الدنيا في سن الكهولة على
كاهله ، وركض طِرفَ الهوى بين معارفه ومجاهله ، واشترى السهر بالنوم ،
واستفد سواد الليل وبياض اليوم ، في بعث يجهز ، وفرصة تنهز ، وثغر للدين
يُسد ، وأزر للملك يشد ، وقصة ترفع ، ووساطة تنفع ، وعدل يحرص على
بذله ، وهوى يجهد في عدله ، وكريم قوم ينصف من نذله ، ودين تزاح الشوائب
عن سبّله ، وسياسة تشهد للسلطان بنبله وإصابة نبله ، ما بين سيف وقلم ،
وراحة وألم ، وحرب وسلّم ، ونشر علّم أو علم ، وجيش يعرض ، وعطاء

يُفْرَضُ ، وقرض حسن الله تعالى يُفْرَضُ ، في وطن توافر العدو على حصره ،
 ودار به دَوْر السوار على خصره ، وملك قصر الصبر والتوكل على قصره ، وعددُ
 نسبته من العدد العظيم الطاقة ، الشديد الإضاقه ، نسبةُ الشعرة من جلد الناقة ،
 وبالله نستدفع المكروه ، وإليه نمد الأيدي ونصرف الوجوه ، وسألت منه - أيده
 الله تعالى - القنوع بما يسره الوقت ، مما لا يناله المقت ، والذهاب بهذا الغرض
 لما يليق بالترب والسن ، ويؤمن من اعتراض الإنس والجن ، وما كنت ممن
 أثر على الجلد الهزل ، واعتاض من الغزل الرقيق الغزل بشيمة الجزل ، ولا آنف
 من ذكر الهوى بعد أن خُصتُ غماره ، واجتنت ثماره ، وأقمت مناسكه ورميت
 جماره ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأماراة ، فالهوى أول تيمة قلّدتني الداية ،
 والترب التي عرفتها في البداية ، وأنا الذي عن عروته نُبتُ ، وبُعثتُ إلى الرصافة
 لأرقّ فذُبت ، إلى أن تبين الرشد من الغي ، وصار النشر إلى الطي ، وتصايح
 ولّدان الحيّ ، كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم كما منّ عليّ :

جزى الله عني زاجرَ الشيب خير ما جزى ناصحاً فازت يدايَ بخيره
 ألقتُ طريقَ الحبّ حتى إذا انتهى تعوضتُ حبّ الله عن حبّ غيره

حال السواد بحال الفؤاد ، وصوّح المرعى فانقطعت الرّوآد ، ونهائي ازورار خيال
 الزوراء ، والتفات عاذل الشيب عن المقلة الحوراء ، وكيف الأمان ، وقد طلع
 منه النذير العريان ، يدل على الخبر بخبره ، وينذر بهاذم اللذات على أثره ، والله
 در القائل :

دعيتيَ عيناكَ نحو الصبّا دعاء يردد في كلّ ساعة
 فلولا ، وحقّك ، عذر المشيب لقلتُ لعينيك : سمعاً وطاعة

ولولا أن طيف هذا الكتاب الوارد طرّق مضجمي وقد كاد يبدو الحاجب ،
 ويضيع من الفرض الواجب ، ويعجب من نوم الغفلة العاجب ، لحرّيت معه في

ميدانه ، وعقدتُ بناي بينانه ، وتركت شاني وإن رغم الشاني لشانه ، وقلت
معتدراً عن التهويم في بعض أحيانه :

أهلاً بطيفك زائراً أو عائداً تفديك نفسي غائباً أو شاهداً
يا مَنْ على طيف الخيالِ أحوالي أتظنُّ جفني مثل جفنك راقداً
ما نمتُ ، لكن الخيال يلمُّ بي فيجله طرقي فيُطرقُ ساجداً

ومن العصمة أن لا تجد ، هلاً قبل المشيب ، ومع الزمن القشيب ، وقبل أن تمخض
القربة ، وتبني الخانقاه والربة ، وتؤنس بالله الغربية ، وعلى ذلك فقد أثر ، وباء
قلبي المعثر ، اللهم لا أكثر :

وبدا له من بعد ما اندمك الهوى برقٌ تألقَ موهناً لمعانه
يبدو كحاشية الرداء ودونهُ صعبُ الذرا متمنعٌ أركانهُ
فبدا لينظر كيف لاح ، فلم يطقُ نظراً إليه ورددت أشجانهُ
فالنارُ ما اشتملت عليه ضلوعهُ والماءُ ما سمحت به أجفانهُ

وجعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيده الله تعالى علاوة ، وبعد الفراغ من ألوان
ذلك الخوان حلاوة ، وقلت أخطب مؤلف كتاب « الصباية » بما يعتمده جانب
إنصافه ، ويغطي على نقص إن وقع فيه كمال أوصافه :

يا مَنْ أدار من الصباية بيننا قدحاً ييمّ المسك من رياهُ
وأتى بریحان الحديث فكلّما سمح النديمُ براحه حياهُ
أنا لأهيم بذكر مَنْ قتل الهوى لكن أهيمُ بذكر من أحياهُ

وعنَّ لي أن أذهب بهذا الحب المذهب المتأدي إلى البقاء ، الموصل إلى ذروة السعادة
في معارج الارتقاء ، الذي غايته نعيم لا ينقضي أمده ، ولا ينفد مدده ، ولا
يُفصل وصله ، ولا يفارق الفرع أصله ، حب الله المبلغ إلى قربه ، المستدعي لرضاه

وحبه ، المؤثر بالنظر إلى وجهه ، ويا لها من غاية ، الملقى رَحْلَ المتصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية .

« وكنت وقفت من الكتب المؤلفة في المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام ويستخفه الهوام ، ورسالة ابن واصل رسالة مهذارة ، تطفو من دارة إلى دارة ، في مطاردة هر وفارة ، وكتاب ابن الدباغ القيرواني^١ كتاب مفرقع ، ووجه المقصود منه متبرقع ، وكتاب ابن خلصون وهو أعد لها لولا بداوة تَسِيمُ الخُرطوم ، وتناسب الجمل المخطوم ، فكنت بما ذكر لا أقنع ، وأقول ما أصنع ، فالله يعطي ويمنع :

قلتُ للساخِرِ الذي رفعَ الأنفَ واعتلى
أنتَ لم تأمنِ الهوى لا تُعَيِّرُ فتُبْتلى

شعر :

وعذلتُ أهلَ العشقِ حتى ذُقْتُهُ فعمجتُ كيف يموت من لا يعشق^٢

ومن المنقول : لا تُظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك .

بلاني الحبُّ فيكَ بما بلاني فشاني أن تفيض غروب شاني

أجل بلاني بالغرض الذي هو من القلوب سر أسرارها ، ومن أفنان الأذهان بمنزلة أزهارها ، ومن الموجودات وأطوارها قطبٌ مدارها ؛ ليكون كتابي هذا المقدم على المأزق المهلك ، المتشعب بما لا يملك ، وأن يقنع الاتصاف ، فعسى أن يشفع الإنصاف ، والاقتراف ، يدرؤه الاعتراف ، أنا عند المنكسرة قلوبهم ، ولا تجود يد ، إلا بما تجود ، وكل يُنفق ممّا آتاه الله :

وابنُ اللبّونِ إذا ما لُزَّ في قرَنٍ لم يستطعُ صولةَ البُزلِ القناعيسِ^٣

١ لعله يشير إلى كتاب « مشارق أنوار القلوب » لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري المعروف

بأبن الدباغ (- ٦٩٦) . وقد نشره الأستاذ هـ . ريتز (دار صادر : ١٩٥٩) .

٢ البيت للمتنبسي من قصيدته التي مطلعها « أرق على أرق ومثلي يارق » .

٣ البيت لحرير ، ديوانه : ٢٥٠ .

وعسى الذي أنطق شوقاً ، أن ينطق ذوقاً ، والذي حرك سفلاً أن يحرك فوقاً ،
والذي يسره مقالاً ، أن يكفيه حالاً .

فأولُ الغَيْثِ طَلٌّ * ثم ينسكب

الحرب أول ما تكون بلحاجة * * *

وإنَّ الحرب أولها الكلام^١ * * *

نحمد الله سبحانه على الكلف بهذه الطريقة ﴿وما يُلَقَّأها إلا ذو حظّ عظيم﴾
(فصلت : ٢٥) وللأرض نصيب من كأس الكرم^٢ :

أليسَ قليلاً نظرةٌ إن نظرتها إليكِ ؟ وكلاّ ليس منكِ قليلُ

فاتني أنْ أرى الديارَ بطرفي * فلعلّني أرى الديارَ بسمعي^٣

وعلى ذلك فذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب ، وقرعت في التماس الإعانة
باب الجواد الواهب ، وأطلعت فصوله في ليل طلوع نجوم الغياهب ، وعرضت
كثائب العزيمة عرضاً ، وأقرضت الله قرضاً ، وجعلته شجرة وأرضاً ، فالشجرة
المحبة مناسبة وتشبيها ، وإشارة لما ورد في الكتب المنزلة وتنبئها ، والأرض النفوس
التي تغرس فيها ، والأغصان أقسامها التي تستوفئها ، والأوراق حكاياتها التي
تحكيها ، وأزهارها أشعارها التي تحييها ، والوصول إلى الله تعالى ثمرتها التي ندخرها
بفضل الله ونفقتينها ، شجرة لعمر الله يانعة ، وعلى الزعازع متمانة ، ظلها ظليل ،
والطرف عن مداها كليل ، والفائز يجناها قليل ، رست في التخوم ، وسمت

١ صدره : فإن النار بالعودين تذكى ؟ يردي رسالة لنصر بن سيار يستنجد بها الخليفة الأموي
عند ظهور المسودة .

٢ عكس قول الشاعر : وللأرض من كأس الكرام نصيب ، وكذلك ثبت النص في ق .

٣ البيت للشريف ، ديوانه ١ : ٦٥٨ وديوان الصباية : ٤٩ .

إلى النجوم ، وتزهت عن أعراض الجسوم ، والرياح الحسوم ، وسُقيت بالعلوم ،
وعُذيت بالفهوم ، وحملت كمائمها بالزهر المكتوم ، ووفيت ثمرتها بالغرض
المروم ، فاز من استأثر بجناها ، وتَعَنَى من عني بلفظها دون معناها ، فمن استصبح
بدُهنها استضاء بسناها ، ما أبعدها وما أدناها ، عيناً ملأت الأكفَ بغناها ، كم
بين أوراقها من قلب مقلّب ، وفي هوائها من هوَى مغلّب ، وكم فوق أفنانها من
صادح ، وكم في التماس سقيطها من كادح ، وكم دونها من خطب فادح ،
ولأربابها من هاجٍ ومادح ، تنوّعت أسماؤها ، ولم تنوع أرضها ولا سماؤها ،
فسميت نخلة تَهز وتجنّي ، وزيتونة مباركة يُستصبح بزيتها الأسنى ، وسِدرة إليها
ينتهي المعنى ، أصلها للوجود أصل ، وليس لها كالشجر جنس ولا فصل ، وتربتها
روح ونفس عقل ، وشرفها يعضده بديهة ونقل ، يحط الهائمون بفنائها ، ويصعد
السالكون حول بنائها ، تخرق السبع الطباقي ببراقها ، وتمحى ظلّم الحس بنور
إشراقها ، فسبحان الذي جعلها قُطب الأفلاك ، ومدافن الأضواء والأحلاك ،
ومغرد طيور الأملاك ، وسبب انتظام هذه الأسلاك ، لم يحلّ فيها طريد بعيد ،
ولا اتصف بصفاتها إلا سعيد ، ولا اعتلق بأوجها هاوٍ في حضيض ، ولا بمحض
برهانها متخبط في شرك نقيض ، ولا تعرّض لشيّم بوارقها متمم بسمه بغيض ،
الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، ومنه نستزيد
الاستغراق في بحارها ، والاستنشاق لنواسم أسحارها ، والاستدلال بذرى أفنانها
عليه ، والوصول بسبب ذلك إليه ، إنه ولي ذلك سبحانه ، فطاب لعمرى المنبت
والنابت ، وسما الفرعُ الباسق ورسا الأصل الثابت ، وفاءت الأفنان ، وزخرفت
الحنان ، وتعددت الأوراق والزهرات والأغصان ، ولم أترك فنناً إلاّ جمعت
بينه وبين مناسبه ، ولا فرعاً إلاّ ضمّمته إلى ما يليق به ، واستكثرت من الشعر
لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرك عذبات أفنانها ، ويؤدي إلى الأنوف
روائح بستانها ، وهو المزار الذي ينفخ الشوق في يراعته ، والعزيمة التي تُنطق
بجنون الوجد من ساعته ، وسلعة ألسن العشاق ، وترجمان ضمير الأشواق ،

ومجتلى صور المعاني الرقاق ، ومكامن قنائص الأذواق ، به عبّر الواجدون عن وجدهم ، ومشى المحبون إلى قَصْدِهِمْ ، وهو رسول الاستلطاف ، ومترل الألطاف ، اشتمل على الوزن المطرب ، والجمال المعجب المغرب ، وكان للأوطان مركباً ، ولانفعال النفوس سبباً ، فلا شيء أنسب منه للحديث في المحبة ، ولا أقرب للنفوس الصبّة ، واجتلبت الكثير من الحكايات وهي نوافل فروض الحقائق ، ووسائل مجالس الرقائق ، ومراوح النفوس من كدّ الأفكار ، وإحماض مسارح الأخبار ، وحظ جارحة السمع من منح الاعتبار ، وبعض الجواذب لنفوس المحبين ، والبواعث لهمم السالكين ، وحجتها واضحة بقوله تعالى ﴿ وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ (هود : ١٢٠) في القرآن المبين ، ونقلت شواهداً من الحديث والخبر تجري صحاحها مجرى الزكاة من الأموال ، والخواطر من الأحوال ، ويجري ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال ، ليكون هذا الكتاب لعموم خيره ، مسرحاً للفاره وغيره ، ويجد كل ميداناً لسيره ، وملتقطاً لطيره ، ومحكاً لغيره ، فمن فاق كلف بأصوله ، ومن قصر قنع بفصوله ، ومن وصل حمد الله تعالى على وصوله ، وسميته « روضة التعريف بالحب الشريف » ويحتوي على أرض زكية ، وشجرات فلكية ، وثمرات ملكية ، وعيون غير بكية .

« والحب حياة النفوس الموات ، وعلّة امتزاج المركبات ، وسبب ازدواج الحيوان والنبات ، وسر قوله عز وجل ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ ﴾ (الأنعام : ١٢٢) ليس كالحب الذي دوّن فيه المدوّتون ، ولعبت بكُرّة أقباسه صوالج الجنون ، وقاد الهوى أهله بجبل الهون ، وساقته فيه المنى للمنون ، حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين ، ورضيت الأثر عن العين ، وباعت الحق بالمين ، ولم تحصل إلاّ على خفتي حنين ، وارتحمتا لعشاق الصور ، وسبّاق ملاعب الهوى والهوى ، لقد كلفوا بالزخارف الحائنة الحائلة ، والمحاسن الزائفة الزائلة ، وسليح الجبابة ، وبضائع الإهانة ، أزمانُ التمتع بهم قصيرة ، والأنكاد عليهم مُغيرة ، فتراهم ما بين طعين بعامل

قَدِّ ، ومضْرَج بدمِ خَدِّ ، وأسير نغر قد أعوز فداؤه ، وسقيم طَرْف قد
أعضل داؤه ، وما شئت من ليل يُسهر ، ونداء به يُجهر ، وجُيوب تُشق ، وبصائر
تخطف أبصارها إذا لمع البرق ، ونواسم تحمّل التحيّات ، وخلع أيلك تتلقّى
بخلع الأريحيات ، وربما اشتد الختل ، وأصابت النبل فكان الخبل ، قلوب اشتغلت
عن الله فشغلها الله بغيره ، وهبّ الحبّ الجسماني لا تبعث عليه شهوة بهيمية ،
ولا تدعو إليه قوّة وهميّة ، أليست الداعية مرتفعة ، والباعثة منقطعة ، وصورة
الحسن دائرة ، وأجزاؤه المتناظرة متناثرة؟ أليس الجراب العنصري عائداً إلى أصله؟
أليس الجنس مفارقاً لفصله؟ ولله درُّ علي رضي الله تعالى عنه ، وقد نظر إلى قدح
الماء وقد أراد أن يشرب ، وعن الاعتبار أعرب ، فقال : كم فيك من خدِّ
أسيل ، وطرف كحيل ! فأواه مكررة مردّدة ، ووالهفاء معادة مجددة ، على
قلب أصبح يقلّب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ، ويقول يا
ليتني لم أشرك بربي أحداً ، وحسبنا مرارة الفراق ذلاً ، وفقد النقد قلاً ، والغفلة
عن الله شقاء محتوماً ، والكتابة على الفاتت شوماً :

صدّني عن حلاوة التشيع اتقائي مرارة التوديع
لم يقم أنسٌ ذا بوحشة هذا فرأيت الصواب ترك الجميع

وإن كانت الشهوة فأخسّس بها داعية ، وإلى الفضيحة ساعية ، حسبك من حمار
يعلن بنداء المحبة نهاقه ، ويقذفه على السباق اهتياجه إلى السفاد واشتياقه ، أسير
خبال ، وصريع مبال ، أولى له ثمّ أولى لو تأمل محاسن الجسوم ما أكذب رائدها
المطّري ، وأخبث زخرفها المغّري ، وأقصر مدة استمتاعها ، وأكثر المساعي
تحت قناعها :

على وجهٍ مميّ مسحةٌ من ملاحهٍ وتحت الثياب العارُ لو كان بادياً^١
ما ثمّ إلاّ أنفاسٌ تركد وتخبث ، وعلل تنشأ وتحدث ، وزخارف حسن تُعاهد ثمّ

١ ينسب لذي الرمة (ديوانه : ٦٧٥) وقيل بل وضع على لسانه .

تنكث ، وتركيبٌ يطلبه التحليل بدّينه ، ويأخذ أثره بعد عينه ، وأنس يُفقد ،
واجتماع كأن لم يُعقد ، وفراق إن لم يكن فكأن قد :

وَمَنْ سَرَّهُ أَنْ لَا يَرَى مَا يَسُوءُهُ فَلَا يَتَّخِذُ شَيْئًا يَخَافُ لَهُ فَقْدًا

* * *

منغصُ العيشِ لا يأوي إلى دعةٍ من كان ذا بلدٍ أو كان ذا ولدٍ
والساكن النفس من لم ترضَ همته سكنى مكانٍ ولم يسكن إلى أحدٍ

وقلت وقد مات سكن عزيز عليّ أيام التغرب بسلا عظم جزعي عليه :

يا قلبُ كم هذا الجوى والخفوتُ ذمّاءك استبقِ لثلاثِ يفوتُ
فقالَ لا حولَ ولا قولَ لي قد كان ما كان فحسي السكوتُ
فارقني الرشدُ وفارقتُهُ لمّا تعشقتُ بشيء يموتُ

والزمان لا يعتبر ، وحاصله خبر ، والحازم من نظر في العواقب ، نظر المراقب ،
وعرف الإضاعة ، ولم يجعل الحلم بضاعة ، إنما الحب الحقيقي حبٌ يُصعدك
ويرقيك ، ويخلدك ويبقيك ، ويطعمك ويسقيك ، ويخلصك إلى فئة السعادة ممّا
يشقيك ، ويجعل لك الكون روضاً ، ومشرب الحق حوضاً ، ويُجنك زهر المنى ،
ويُغنيك عن أهل الفقر والغنى ، ويخضع التيجان لنعلك ، ويجعل الكون متصرف
فعلك ، ليس إلاّ الحب ، ثمّ الوصل والقرب ، ثمّ الشهود ، ثمّ البقاء بعدما
اضمحلّ الوجود ، فشفيت الآلام ، وسقط الملام ، وذهبت الأضغاث والأحلام ،
واختصر الكلام ، وعجيت الرسوم وخفيت الأعلام ، ولن الملك اليوم والسلام ،
فالحذر الحذر ، أن يُعجل النفس سيرها ، ويفارق القفصَ طيرها ، وهي بالعرّض
الفاني مشبّطة ، وبنائي الثقيل مرتبّطة ، وبصحبة الفاني مغتبّطة ﴿ أن تقول نفسُ

يا حسرتا على ما فرطتُ في جنبِ الله وإن كنتُ لمن الساخرين . أو تقولَ لو أنَّ
الله هداني لكنت من المتقين . أو تقولَ حين ترى العذابَ لو أنَّ لي كرامةً
فأكونَ من المحسنين ﴿ (الزمر: ٥٦-٥٨) وفي ذلك قلت :

أعشاقَ غيرِ الواحدِ الأحدِ الباقي
جننتم بما يفنى وتبقى مضاضةً
وتربطُ بالأجسامِ نفساً حياتُها
فلا هي فازتُ بالذي علقْتُ بهِ
فراقٌ وقسرٌ وانقطاعٌ وظلمةٌ
كأنِّي بها من بعد ما كُشف الغطا
تقلَّبُ كفتيها بجيظٍ موصلٍ
فلا تطعموها السمَّ في الشهدِ ضلَّةً
بما اكتسبتُ تسعى إلى مستقرها
وليسَ لها بعدَ التفرقِ حيلةٌ
ولو كان مرمى الحزن منها إلى مدى
فجدُّوا فإنَّ الأمرَ جدُّ ، وشمروا
ولا تطلقوا في الحسِّ نبيَّ عنانها
ودُسُّوا لها المعنى رويداً وأيقظوا
ومهما أفاقَتْ فافتحوا لاعتبارها
وعاقبةَ الفاني اشرحوا وتلطَّفوا
فإن سكرتُ واستشرفت عند سكرها
أطيلوا على روض الجمالِ خطورها
وخلُّوا لهيبَ الشوقِ يطوي بها الفلا
فما هو إلاَّ أن تحطَّ رحالها

جنونكمُ واللهِ أعيا على الراقي
تعذبُ بينَ البينِ مهجةً مشتاقِ
مباينةُ الأجسامِ بالجوهرِ الراقي
ولا رأسَ مالٍ كان ينفعها باقي
قيني البعدَ من نيلِ السعادةِ يا واتي
صريعةُ أحزانٍ لديعةُ أشواقِ
رشيقةُ قَدِّ دونَ سبعةِ أطباقِ
فذلكَ سمٌّ لا يسداوى بدرياقِ
فإمَّا بوفرٍ مُحسبٍ أو بإملاقِ
سوى ندمٍ يذري مدامعَ آماقِ
لهان الأسي ما بينِ وخذٍ وإعناقِ
بفضلِ ارتياضٍ أو بإصلاحِ أخلاقِ
وشيموا بها للحقِّ لمحةً لإشراقِ
بصيرتها من بعدِ نومٍ وإغراقِ
مصارعِ أبوابٍ وأقفالِ أغلاقِ
بأخلاقها المرضي تلطَّفَ لإشفاقِ
لماهيَّةِ المسقَى ومعرفةِ الساقِ
إلى أن يقومَ الوجدُ فيها على ساقِ
إلى الوجدِ في مسرى رموزِ وأذواقِ
بمئوى التجلّي والشهودِ بإطلاقِ

وتفنى إذا ما شاهدت عن شهودها . وقد فنيَ الفاني وقد بقيَ الباقي
هنالك تلقى العيشَ تضيفو ظلاله وتنعمُ من عينِ الحياةِ برقراقِ
وما قَسِمُ الأرزاقِ إلاّ عجيبةٌ فلا تطردِ السؤَالَ يا خيرَ رزاقِ

وقد أخذ الكلام في هذا الافتتاح حدّه ، وبلغ النهر مدّه ، فلأخذ أثر هذا الذي
سردت ، في تقرير ما أردت ، وما توفيقى إلاّ بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب ؛
فنقول : ينقسم هذا الموضوع إلى أرض ، وشجر غض ، وكلُّ منها ميسور جدّة ،
وفنّ على حدّة ، ما شئت من مرأى ومستمتع ، فمن شاء أفرد ومن شاء جمّع ،
فلنبدأ بالأرض والفلاحة ، والتكسير والمساحة ، وتعيين حدود تلك الساحة ، ثمّ
نأتي بالشجرة التي تؤمل جناها ، وننظر إناها ، ونجعل الزاد المبلغ معناها ،
قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون .

برنامج هذا الكتاب الذي يحصر الأجناس والفصول ، ويردُّ الفروع إلى
الأصول ، ويسر الباحث عن مسأله بسبب الوصول ، بحول الله وقوته :

خطبة الأعراس ، وتوطئة الغراس ، وتنحصر في جملتين :

الجملة الأولى: في صفة الأرض وأجزائها، وجعل الاختيار يلائمها، وفيها رتب:

الرتبة الأولى – رتبة الأطباق المفروضة ، والاعتبارات المعروضة ، وفيه

مقدمة وأطباق :

المقدمة في تعيين الأرض المذكورة .

الطبق الأول : طبق القلب .

الطبق الثاني : طبق الروح .

الطبق الثالث : طبق النفس .

الطبق الرابع : طبق العقل .

الرتبة الثانية – رتبة العروق الباطنة ، والشعب الكامنة ، وفيها فصول :

- الفصل الأول : في العروق المعدنية .
- الفصل الثاني : في المقررات العينية .
- الفصل الثالث : في المدبرات البدنية .
- الفصل الرابع : في البحوث البرهانية .

الجملة الثانية : في صفة الفلاحة والعمل ، المتكفل فيها بنيل الأمل ، وفيها اختيارات :

- الاختيار الأول : فيما يصلح للاعتماد من هذه الأرض ، وفيه فصول :
- الفصل الأول : في أرض النفس المطمئنة .
- الفصل الثاني : في أرض النفس الأمارة .
- الفصل الثالث : في أرض النفس اللوامة .

الاختيار الثاني : في محركات العزيمة ، لاعتماد هذه الأرض الكريمة ، وفيه فصول :

- الفصل الأول : في الجذب وما يتصل بذلك .
- الفصل الثاني : في الوعظ المثمر لليقظة .
- الفصل الثالث : في ذم الكسل .

الاختيار الثالث : يشتمل على جلب الماء لسقي هذه الأرض من عين العلم في جدولي العقل المحرر والنقل المقرر ، وفيه مقدمة في فضل العلم وتعدد أجناسه ، وفصول :

- الفصل الأول : في جدول العقل .
- الفصل الثاني : في جدول النقل .
- الفصل الثالث : في مقدار الماء المجلوب ، للفلاح المطلوب .
- الفصل الرابع : في غبار التكوين ، وسبب التلوين .

الاختيار الرابع : في الحرث ، وإخراج لَبَن هذه الفلاحة من بين الدم والقرث ، وفيه أقسام :

أولها : القلب الأول .

ثانيها : القلب الثاني الذي عليه المعول .

ثالثها : في سكة الازدراع والتعمير ، وهو مظنة التشمير .

الاختيار الخامس : في تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الحبيثة ، والجدر المعترضة والشعب المذمومة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في إزالة شكوك تسبق إلى المعتقد غالباً .

الفصل الثاني : في قلع الشجر التي تضر بهذه الأرض وتعاديها بالطبع .

الاختيار السادس : في أمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة ، وفيه فصول :

الفصل الأول : في أمراض يُشرع في علاجها ، مما يرجع لطبع الأرض ومزاجها .

الفصل الثاني : في اختيار أنواعها وأجزائها .

الفصل الثالث : في أقوال تليق بأفحاص الفلاح وإصحاره ، عند ملاحظة عجائب الكون وآثاره .

الفصل الرابع : في الوقت المختار لغراسة الأسباب ، في الحب اللباب ، وتنحصر في مقدمة علمية ، وجرثومة جرمية : المقدمة العلمية في ترتيب المحبة والمعرفة ، الجرثومة الجرمية تنقسم إلى بيان يعطي الصورة ، ويشرح الضرورة ، وإلى بطن وظهر ، وسر وجهه ، وباسط ، وبرزخ واسط ، فالباطن الشرع والنقل ، وينقسم إلى أصول :

الأصل الأول : الكلام في النبوة من حيث النقل .

الأصل الثاني : في الإيمان والاعتبار العامي .

الأصل الثالث : فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة في حق غير المحتاج إلى ذلك .

الأصل الرابع : في تقرير العناية والتوفيق في حق غير المحتاج إلى ذلك .
الأصل الخامس : في الموعدة والسماع من حيث تهذيب الجميع ، والظاهر
الطبع والعقل ، وينقسم إلى أصول :

- الأصل الأول : جزء الفلسفة العلمي والعملي .
- الأصل الثاني : سلامة الفطرة في حق المستغني عن ذلك .
- الأصل الثالث : في معرفة الجمال والكمال .
- الأصل الرابع : في الاعتبار الخاصي .
- الأصل الخامس : السلوك بالفكر .

الأصل السادس : في التشبيه بالمبدأ الأول ، باسط الذكر الباسط ، والبرزخ
الواسط ، الصاعد من التخوم ، إلى النجوم ، وهو من أخص الأشياء بباطن
الشجرة ، وأصولها المعبرة ، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أصول :

الأصل الأول : الأدعية والأذكار ، وله عشر شعب .
الأصل الثاني : أصل الأسماء ، وهي أصول الأرض والسماء ، وله تسع
وتسعون شعبة .

الأصل الثالث : أصل السيمياء ، وهو الذي عفن بعضه وبقي الانتفاع ببعضه .
العمود المشتمل على القشر والعود ، والجحى المسعود ، ينقسم قسمين :
قشر وخشب ، ودر مَخْشَلْب ، والقشر ظاهر يكسر ويغذو ، وباطن ينمي
ويغذو ، فظاهره الذي يكسر ويغذو يتضمن الكلام في المحبة وأقسامها من حيث
اللسان ، لا من حيث نوع الإنسان ، وباطنه الذي ينمي ويغذو يتضمن الثناء على
المحبة طبعاً وعقلاً ، وشرعاً ونقلاً .

الحشب الذي يُتخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام :
القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الدالة عليها والصفات .
القسم الثاني : معقول معناها ، المتجلي فيه نور سَنَاهَا .

القسم الثالث : ارتباطها بالمقامات ، واختصاصها فيها بالكرامات .
القسم الرابع : تبيين ضرورتها ، وإيضاح مزيتها .
الفرع الصاعد في الهواء ، على خط الاستواء ، من رأس العمود القائم ،
إلى منتهى الوجود الدائم ، ويشتمل على قشر لطيف ، وجيرم شريف .
القشر : الحدود للمعرفة والرسوم ، وخواص العارف الذي هو المعروف بها
والموسوم ، وينقسم إلى فصول :

الفصل الأول : في حدود المعرفة ورسومها وما قيل فيها .

الفصل الثاني : في أوصاف العارف .

الفصل الثالث : في تفضيل العارف .

الفصل الرابع : في علوم العارف .

والجِرم الشريف ، من الفرع المنيف ، ينقسم إلى ظاهر ، وباطن ، وقلب .
فالظاهر ينقسم إلى أقسام : الكلام في الأخلاق ومنشئها وطباعها بحسب القوى
النفسانية وإفراطها وتفریطها واعتدالها وعلاجها ، وفيه المجاهدات .
والباطن يتضمن الكلام في أن النظر إلى وجه الله تعالى هو السعادة الكبرى
بكل نظر واعتبار .

والقلب قلب الغصن يتضمن الرياضة والسلوك على المقامات كلها ، ويتفرع

منه عشرة غصون :

الغصن الأول : غصن فروع البدايات .

الغصن الثاني : غصن فروع الأبواب .

الغصن الثالث : غصن فروع المعاملات .

الغصن الرابع : غصن فروع الأخلاق .

الغصن الخامس : غصن فروع الأصول .

الغصن السادس : غصن فروع الأدوية .

الغصن السابع : غصن فروع الأحوال .
الغصن الثامن : غصن فروع الولايات .
الغصن التاسع : غصن فروع الحقائق .
الغصن العاشر : غصن فروع النهايات ، ولكل فروع أوراق ، ويلحق به صورة السلوك بالذكر حتى يتأتى الوصول ، وعلى المقصود الحصول ، والكلام على زهرات الطوالع واللوائح والبوادر والواردات ، ونختم بالحنى ، المقترن بنيل المنى ، وهي الولاية .

تفرع ضخام الغصون ، من شجرة السر المصون ، وهي :
غصن المحبوبات وأقسامها ، وتنقسم إلى أربعة أفنان :
الفن الأول : فن الرب المحبوب .
الفن الثاني : فن العبد المحبوب .
الفن الثالث : فن الدنيا المحبوبة .
الفن الرابع : فن الآخرة المحبوبة .
غصن المحبين ، وأصنافهم المرتبين ، ينقسم إلى مقدمة بيان ، وستة أفنان :
الفن الأول : في رأي الفلاسفة الأقدمين .
الفن الثاني : في رأي أهل الأنوار والإشراقين .
الفن الثالث : في رأي الحكماء الإسلاميين .
الفن الرابع : في رأي المكملين بزعمهم المتممين .
الفن الخامس : في أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين .
الفن السادس : في الصوفية سادة المسلمين .
غصن علامات المحبة ، وشواهد النفوس الصبّية ، وينقسم إلى ثلاثة أفنان :
الفن الأول : فيما يرجع إلى حقوق المحبوب .
الفن الثاني : فيما يرجع إلى باطن المحب .

الفن الثالث : فيما يرجع إلى ظاهره .

غصن اختيار المحبين في ميدان جهادهم ، وتباين أحوال أفرادهم ، وهو
ثلاثة أفنان :

الفن الأول : فن المجاهد الصريح .

الفن الثاني : فن المنبت الجريح .

الفن الثالث : فن الصريح الطريح .

جوائح الشجرة ، ومضار فلاحتها المعتبرة ، وينقسم إلى جوائح من نسبتها ،
بالنظر إلى مائها وتربتها ، وإلى ما هو راجع إلى الخواطر— وهي على عدد الرياح—
وإلى ما سببه غفلة الفلاح ، عذر الطائر الصادح ، على فرض القادح ، ووجود
الهاجي والمادح .

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر ، والجنى والأزهار ، وآثارها للحسن
الظاهر ، بفضل المريد القاهر ، لا إله إلاّ هو سبحانه له الحمد ؛ انتهت الخطبة
التي تدل على ما وراءها .

وقال رحمه الله تعالى في آخر هذا الكتاب ما نصه : ونختم الكلام في هذه
الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات :

فلاحتنا لها القِدْحُ المَعْلَى وَسَرْحَتَنَا الضَّمِينَةُ لِلنَّجَاحِ
أَلَسْتَ تَرَى مَنَادِي الخَمْسِ نَادِي بِمَخْتَلِفِ الجِهَاتِ أَوْ النَوَاحِي
يَرُدُّ فِي الأَذَانِ لِكُلِّ وَاَعٍ عَلَى الأَذَانِ حَيَّ عَلَى الفَلَاحِ

وهذا طائر على الشجرة صادح ، ولاحق كادح ، ومعتذر إن قدح قادح ،
وتعارض هاج ومادح . قال المؤلف : ولا بد لنا من دري صادح على هذه الأفنان ،
وشاد يهيج أشجان الجنان ، ويثير شجو الرأفة والحنان ، ويبين مجال الضرورة
لدوي الانصاف ، بكرم الأوصاف ، والناظرين إلى الهنات بعيون الإنصاف ،
فيرحم من قد كان شره التقد ، ويعذر من تشوّف لاستضعاف هذا القصد ،

والأعدار التي تقرر عنا هذا الطائر عديدة ، ومبدئة في الصدق معيدة ، وقرية من الحق لا بعيدة ، فمنها أن هذا الفرض اليوم بأكثر الأرض ، ميدانٌ عدم فيه ولا حول ولا قوة إلا بالله من يُجبل كما يجب جواداً ، ونفيرٌ لا يبيبه إلا من يكثر سواداً ، قد طُمت الأعلام ، وسقط الحمد والملام ، وما لجرح بميت إيلام ، فمدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مغرب ، ولا كسير يحدث عنه غير واصل ولا مجرب ، إنما يرجع فيه إلى كتب مُقفلة ، وأغراض مغفلة ، وما عسى أن يعول المسكين مثلي على قاصر إدراكه ، مع اقتسام باله واشترائه ؟ قصر العلم والعمل ، فاختلط المرعيُّ والهَمَل ، وأخفق المسعى وخاب الأمل ، ومنها شواغل الدنيا التي اختطفت من المكاتب ، وموّهت بالمراتب ، ولقبت بالوزير والكاتب ، وأقامت العبدَ الذي لا يملك شيئاً مقام العاتب ، ومن كان بهذه المثابة وإن عُدَّ يقطاً حازماً ، ونحريراً عالماً ، فإنما هو غريق ، وتائه لا يبدو له طريق ، ولا ينسأغ له ريق ، ولا يُطفأ ببرد اليقين منه حريق ، ولا يربح عليه من قصاد الله تعالى فريق ، ونستغفر الله ، فالذي ألهم هذه العيوب ، يتكفل بإصلاح القلوب ، ومكاشفة الغيوب ، وإن كانت النفوس للحق جاحدة ، فما أمري إلا واحدة :

لا تعجبنَ لطالبِ نالِ العِلا كهلًا وأخفق في الزمانِ الأوّلِ
فالحمَرُ تحكُمُ في العقولِ مُسنّةٌ وتُداسُ أوّلَ عصرها بالأرجلِ

ومنها الاشتغال بالهتدَر ، عن العلم والنظر ، منذ أزمان عديدة ، ومُدَد مديدة ، فلم يبقَ ممّا حُصِّل ، وإليه ممّا في الزمان القديم تُوصل ، إلا رسم بلقع ، وسملٌ ما له مَرَقَع ، ومنها أنني لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذي قلَّ من يتعاطاه ، ويشير قطاه ، ويقتعد مطاه ، من تلقاء نفسٍ جاهلة ببعده مداه ، ومطل جَداه ، ومطالبة مدعيه بما كسبت منه يداه ، فلا يتجاوز طوره ولا يتعداه ، وإن طالب الحق من شرط وصوله ، سلب فصوله ، وحالة موته ، وانقطاع حسه فضلاً عن صوته ،

١ ق : بخيل . ٢ ق : شمل .

لكني خُضْتُ على عدم السباحة غمراً ، وامثلت مع سقوط الاستطاعة أمراً ،
وجئتُ بما في وسعي انقياداً وامثالاً ، ومثلت مثلاً ، فضرورتي بفضل الله تعالى
مشروحة ، والدعوى عن كنفني مطروحة ، وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار ،
ويقرّب الأبرار ، ويقيل العثار ، ويقبل الأعذار ، أن مدة الاشتغال به لم تجاوز
شهرين اثنين ، بين كتب وكم ، وابتداء وختم ، مع ما يتخلل الزمان من حمل
لو رُميَ به رَضوى لتَدَعْدَع ، أو أنزل على ثبير لخشع من خشية الله تعالى
وتصدع : مداراة عدو قد تكالب على الإسلام ، وسياسة سواد صم عن الملام ،
وتعدى حدود النهى والأحلام ، وارتقاب هجوم جيش الآجال وراية الشيب
من الأعلام ، وقد أندر بالفجر انقشاع الظلام ، وكاد يصعد الخطيب فينقطع
الكلام ، جعلت لثقله حصة من جنح الظلام الغاسق ، والليل الواسق ، وعاطيت
حميّه نديم الغارق^١ ، وتعرضت لاقتناص خياله الطارق ، وسرقته من أيدي الشواغل
والليل معين السارق ، ولم يعمل فيه عبد القيس^٢ نظراً مُعاداً ، ولا أنجز من تصحيحه
عَلِمَ الله تعالى ميعاداً ، إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الخبر ، مختلط
الترب بالتبر ، فيدفع ملمومُ الماسخ ، إلى يد الناسخ ، وكلفة المتناقل ، إلى كف
الناقل ، وتُقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل ، إذ كان الأمر — أيده الله تعالى
ونفعه — حريصاً على تعجيل المعارضة ، ومتحريراً سبيل الشرع في هذه المصارفة
والمقارضة ، والجفن المشرق يعلن بالتبريح ، ويتنظر مساعدة الريح ، فمن وقف
عليه من فاضلٍ أثار الله بصيرته ، وجبل على الإنصاف سيرته ، أو مَنْ كان من
أهل الله الذي يعلم أن ما سوى الله تعالى ظل وقيء ، ويتحقق معنى قوله ﴿ ليس
لك من الأمر شيء ﴾ ، فقد أوجب الإنصافُ أن يحو اقراني باعترافي ، ويغطي
أوصافي بإنصافي ، والرحماء يرحمهم الرحمن ، وقد عذر القنبرة سليمان ، ومع

١ كذا ، ولعل صوابه « العاتق » أي الخمر القديمة أو الشراب الجيد .

٢ حقه أن يقول عبد قيس ، لإشارته إلى قول الشاعر :

أعد نظراً يا عبد قيس فإنما أضاءت لك النار الحمار المقيدا

الاستسلام الأمان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . ولا بأس أن يُعْرَضَ بتلك
الأخونةِ الخصيبةِ المثوى والمروج ، والحمل والفروج ، وفي السماء البروج ،
وفي الأرض الفروج ، والأعرج يُسْتَنْدِرُ منه العروج ، ونمد الأيدي المستعملة
في التقصير ، إلى الولي النصير والناقد البصير . اللهم استر بسترِكَ فضائِحنا المخلَّفة ،
وقبائِحنا المجمعَّة المؤلَّفة ، فهو كله تحويمٌ حولَ حِمَاكَ ، وذنذنة يا كريم بيباب
رُحْمَاكَ ، وزند أنت قدَحْتَهُ ، وتألَّقَ بَارِقِ أَنْتِ أَلْحَتَهُ ، فصلِ السببِ يا واصلِ
الأسبابِ ، واجعلنا ممَّنْ تذكَّرَ فنفعته الذكري وما يتذكر إلاَّ أولو الألبابِ ،
اللهم دُلِّ نفوسَنَا الحائرة على عينِ الخبرِ ، واجذبها إلى المؤثرِ بزمام الأثرِ ، اللهم
اجبر الضالة المُثْقَلَةَ الظهرِ ، وارفع عنها مَلَكَةَ الْقَهْرِ ، وحيطة الدهرِ ، والسفر من بلدِ
السر إلى بلدِ الجهرِ ، اللهم أعلق بعروة الحقِ أيدينا الخابطة ، وأظفر بعدوِّ الهوى عزائمنا
المرابطة ، اللهم أوصلِ سبينا بسببك ، واحملنا إليك بك ، لا إله إلاَّ أنت ، وصلِّ
على عبدك ونبيك محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله والصحابة أجمعين « انتهى .
وقال - رحمه الله تعالى - آخرَ بعضِ تراجم هذا الكتاب ما صورته :
خاتمة تشتمل على إشارات ، وتختال من الحق في شارات ، قال بعض مَنْ يظاً
بمطية السلوك ، حِمَى الملوك ، وينقض زوايا الغيوب ، عن المطلوب ، ببصر
بصائر القلوب : شهدت أصناف المحبين والعشاق ، على اختلاف البلاد وتباين
الآفاق ، لا أدري أقال كشفاً وشهوداً ، أو فرضاً أو وجوداً ، أو يقظة أو هجوداً ،
وقد ركضوا مطايا الأشواق ، وضربوا آباطها بعصيِّ المشارب والأذواق ،
وتزوّدوا أزواد الحقائق ، وودعوا أحباب العوائد والعلائق ، وتساهلوا في
المحبوب اعتراض العوائق ، وتفاضلوا في اختيار الجوادِّ واقترحام المضايق ، والطرق
إلى الله تعالى عدد أنفاس الخلائق ، فمن خابط عَشْوَاء ، ومسقط أهواء ، يقول :

يا ليتَ أتِي أوقدُ النارا فإنَّ مَنْ يهواك قد حارا^١

١ حور في قول عدي بن زيد :

يا لبيبي أوقدي النارا إن من تهوين قد حارا

فيجيبه الصدى :

ومن طلب الوصول لدار ليلي بغير طريقها وقع الضلالُ
ومثبت بحيث لا يبدو عَلمٌ ، ولا يُقتص خف ولا قدم ، في مفازةٍ وجودُ
من حلتها عَدَمٌ ، وهو يصيح :

بأبي وأمي والذي ملكتُ يدي أفدي الذي يهدي الطريقَ اللاحبا
ثم يقول :

ولقد سرَّيتُ إليك لكنْ حين لم يكن الدليلُ أجلَّ قصد السالك
ومن طاوٍ نفذ زاده ، وفرغ مزاده ، قد استسلم ، وعجز أن يتكلم ، ولسان
حاله ينشد :

إذا أنتَ لم تزرع وأبصرتَ حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذرِ
وراكضٍ يقطع الدو ، ويعرف الجوّ ، يثبت الأعلام الخافية ، ويقصد
الموارد الصافية والظلال الضافية ، حاديه أمله ، ودليله علمه والراحلة عمله ،
ينشد بأعلى صوته :

قَرَّبَ اللِّقَاءَ فكيف لا ترتاحُ للقاء سكانِ الحمى الأرواحُ
وفرائقٍ يركض البريد ، ويصحب التفريد ، بلغ الطيَّة ، وأناخ المطيَّة ،
قبل وصول الرفقة البطيَّة :

سرى سلخ شهر في فُوقِ حلوبةٍ فله ما أنأى سراهُ وما أدنى
﴿ لو اطلعتَ عليهِم لوليتَ مِنْهُم فِراراً ولملثتَ مِنْهُم رُعباً ﴾
(الكهف : ١٨) .

وقلت :

نَهَضُوا وقد جنَّ الدجى وتخالفت سبلُ الردى فمسدّدون وضلَّلُ

سلي عن المنبت حين تقطعت
قوم سَطَّتْ بهم السباعُ ، وفرقةُ
لفح الهجيرُ وجوههم بسعيه
وجماعةُ ركبوا المفاوز دائماً
وركائبُ جعلوا الدليل أمامهم
والليلُ متلِّفةٌ ، ومدَرَجَةُ الهوى
والواصلون هم القليل وكيف لا
يا رحمةً للعاشقين تفحَّمُوا
طارَتْ بهم أشواقهم فعقولهم
عذراً لكم يا أهل عُدْرَةَ شأنكم

أسبابه تيهاً ولا من يسألُ
عطشوا ، وأين من الظِّماء المنهلُ؟
فتهافتوا بيلالةٍ وتعللوا
عثروا على أثر فشطَّ المنزلُ
وسرَّوا ففازوا بالذي قد أمَّلوا
لا يستقلُّ بها المطيُّ الدليلُ
قفر ومَسْبعةٌ وليل النيلُ
خطر النوى وعلى الشدائد عولوا
معقولةٌ عن شأنها لا تعقل
سَلَّمْتُ فيه لكم فقولوا وافعلوا

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك ، وأفلت من أفلت من الشرك ،
وسلم من قتيل المعترك ، وأشرفوا بركاب الآمال ، على ثنية الجمال ، زعقوا
بإزاء الباب ، ونادوا من وراء الحجاب :

كُلُّ كَتَى عَن شَوْقِهِ بِلِغَاتِهِ وَلِرَبِّمَا أَبْكَى الْفَصِيحَ الْأَعْجَمُ

وأوصلوا رفاع شكواهم ، بسرِّ هواهم ، وبرزوا صفًا ، واستظهروا
بشفعائهم التي ظنوا أنها لا تخفى ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾
(الزمر: ٣) وقد تعينت الأوصاف وتميزت ، وانتبذت الأصناف وتمجرت ،
والعشاق نجت وسلمت ، مذ علمت ، منهم الصقوة والمجان ، والحرافيشُ
والبهلوان ، ممن يعول على ذراعه ، وملء كُمَّتِهِ وصواعه ، وطول باعه ،
وصلابة طباعه ، وسلطنة لسانه ، وامتزاج إساءته بإحسانه ، شأنه البحث عن
المحجوب ، مع الشروق والغروب ، والتوصل إلى وصله المطلوب ، بالحركة
الرشيقة واللفظ الخلوب ، ومن اتَّسَمَ بإذاعة الأسرار ، وصحبة الشرار ،

واللسان المهذار ، حُسِبَ من الأغيار ؛ ومنهم بُدَاة ، ليس لهم إلاّ المُنادمة أداة ،
تعذر عليهم تمييز المحبوب فغلطوا ، وعكفوا على تزئيمه فأفروا :

ربما ضرَّ عاشقٌ معشوقاً ومن البرِّ ما يكونُ عقوقاً

وغلبت على سجيّتهم السلامة ، ولم تنلهم لعدم الموضّل والمعرّف الملامة ،
وليس للقبول عليهم علامة ؛ ومنهم مَنْ شعاره الحشمة ، ولزيمه العفاف
والعصمة ، أو لو الحياء والوقار ، والكمّ للأسرار ، ومخالطة الأبرار ، والتوسل
إلى المحبوب بالافتقار ، وصفاء الضمائر من الأكدار ، لا تختلجهم الشواغل ،
ولا يطرق سراهم الواغل^١ ، أغتتهم الشواهد عن الدعوى ، وأصمّتهم الرضى عن
الشكوى ، وتقسّمت معاملاتهم الآداب ، وصحّ منهم إلى مراتب المراقبة
الانتداب ، والناقد بصير ، وكلام النيات قصير ؛ ومنهم المغلوب الحال ،
المحمول من فوق الرحال ، رَقَصَ وشطح ، وسكر فافتضح ، فهو بلغ الرفقة ،
وملوع الحرقة ، دعني وعبدني بلغ ، فإنّه يضحكني سبع مرات في اليوم ؛
ومنهم من لم يأخذه نعت ، ولا تعين له فوق ولا تحت ، ولا حمد ولا مقت ،
ولا حين ولا وقت ، لو نطق لقال : أنا المعلوم الموجود ، والشاهد المشهود
﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدِينٍ كَمَا بَعُدَّتْ ثُمُودٌ﴾ (هود : ٩٥) .

قضى وصلها لي ، وابتلاككم بحبّها وهل يأخذُ الإنسانُ غيرَ نصيبه

ولم يكنْ إلا أن خرجتِ الرقاع ، وفُضِّلَتِ البقاع ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ
مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ (آل عمران : ٢٥) .

فكان في رقعة طائفة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وما كان لبشرٍ
أن يكلمه اللهُ إلاّ وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً

١ الواغل : المتطفل على الشراب ، يكتي به عن الدخيل في فريق أهل الحياء من السالكين .

فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ﴿ (الشورى: ٥١) قلدتم العقل وله طَوْرٌ ، ورأيتم الحركاتِ لا يتناهى لها دور ، وعالم الجزئيات لا يُسْبِرُ له غَوْرٌ ، وَحَوْرُ المعادِ في بعض الفروض لا يكونُ له كَوْرٌ ، وياشَرُّ ما أصبحتم في المعاد الأول تعتقدونه ، أن جعلتم التصرف في عالم الملك لمن دونه ، قفوا مكانكم ، ولوموا أنفسكم ودعوا شأنكم ٢ .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ ارجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ (الحديد: ١٣) أساطين الحكمة المشرقية ، وفَرَاشِ الأنوار الحقيقية ، دعونا من استكثار الأنوار ، واحتشاد الأطوار ، الحقُّ نورٌ لإرشادٍ لا يطيقُ حُسْنَ ذاته ، إلا من ركب ظهر شتاته ، فارفعوا الكلف ، واذكروا مجرى من تقدم وسلف .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ قُلِ اللَّهُ ، ثُمَّ ذَرَهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾ (الأنعام: ٩١) لَمْ تَرَكَوا البراهين على أصلها ، ولا ناسبتم جنسَ هذه الموضوعات بفصلها ، وأثرتم شغباً طويلاً ، وأوسعتم المُتشابهة تأويلاً ، ولم تعتمدوا من العقل دليلاً ، ولا وقفتم في مجازات العقول قليلاً ، وهَوَّلتُم باصطلاح غيركم تهويلاً ، وادعيتُم الشهود ولم يجعل الله تعالى في الاحتجاج به إلا للأنبياء سبيلاً ، وبنيتُم الحقائق على قياسٍ ونظر ، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر :

رُبَّ خَيْلٍ أَدَارَ فِيَّ اعْتِقَادًا لَمْ أَكُنْ قَبْلَهُ عَرَفْتُ بَفَنَّةً
حَكَمْتُ نَفْسَهُ عَلَى عِلْمٍ غَيْبِي جَعَلَ اللَّهُ بَاطِنِي عِنْدَ ظَنَّةً

وعسى أن تكونوا ممن أخطأ في اجتهاده فأثيب ، واستغفر فسمع « لا

١ الحور : النقصان ، والكور : التمام .
٢ ق : ولوموا مكانكم والزموا شأنكم .

تَشْرِيْب « ، فمَرَّتْكُمْ صَحِيْحَةٌ ، وَالْمَقْصِدُ مِنَ التَّبَعَةِ مَرِيْحَةٌ ، إِذَا كَانَتْ صَرِيْحَةً ، وَلَوْلَا الْاِفْتِيَاتِ ، لَوَضَحْتَ فِي مِيْدَانِ السَّبْقِ لَكُمْ الشِّيَاتِ ، لَكِنْ شَانِكُمْ^١ الْهَذِيَانِ ، وَقَلْبَتْ مِنْكُمْ بَضْعَفَانِكُمْ مِنَ الْمَتَأَخْرِيْنَ الْأَعْيَانِ ، كَابْنِ قَسِيٍّ وَابْنِ بَرْجَانِ^٢ ، فَتَبْرَأُوا مِنْ أَتْبَاعِكُمُ الْمُطِيْفَةِ ، وَأَحْزَابِكُمُ الْمُخِيْفَةِ ، وَأَخْلَصُوا فِعْلَ الْأَنْصَارِ يَوْمَ قِتَالِ بَنِي حَنِيْفَةَ ، وَحَبَّدَا الْحَكْمَ الْمُقْتَدِيَّ ، وَمَنْ يَهْدِي اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيَّ ، وَاكْتَبَحُوا الْأَلْسْنَ عَنِ طَلَاقْتِهَا وَذَلَاقْتِهَا ، وَلَا تَكْلِفُوا الْعُقُولَ فَوْقَ طَاقْتِهَا ، فَلَا بَدَّ مِنْ تَوْقِيْفٍ وَتَسْلِيْمٍ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيْمٌ ، وَإِذَا عَجِمْتُمْ فَانْتَبِهُوا ، أَوْ نَطَقَ إِنْسَانٌ فَاسْكُتُوا ، وَلَا تَرْضُوا أَنْ تُكْتَبُوا مَعَ الَّذِينَ كُتِبْتُمْ ، وَلَكُمْ الْحِظُّ السَّنِيُّ ، وَالْوَصْلُ الْهَنِيُّ .

وَكَانَ فِي أُخْرَى : أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيْمِ ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِاعْيُنٍ ، مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ (الْأَنْبِيَاءُ : ١٦) ذَهَبَ بِوُجُودِكُمُ الْعَدَمَ ، وَابْتَلَعَ حَدُوثِكُمُ الْقِدَمَ ، وَرَضِيْتُمْ بِالْإِشْرَافِ ، فِي الْاِسْتِشْرَافِ ، وَالتَّوَعَّلُ لِنَزِيْمِ الْاِنْحِرَافِ ، وَمَنْ جَعَلَ الْحَسَّ وَهَمًّا ، فَقَدْ كَابَرَ الْعِيَانَ ظَلْمًا ، وَالْعَقْلَ الَّذِي غَلَطَكُمْ هُوَ آلَةُ حِكْمِكُمْ ، وَأَدَاةُ عِلْمِكُمْ ، وَالْعَوَالِمُ أَوْثَقُ مِنْ أَنْ تَكُونَ تَمْوِيَهُ رَاقِشٌ ، وَالْوُجُودُ الْمَطْلُوقُ أَسْطُ مِنْ أَنْ يَصِيرَ أَبُو بَرَّاقِشٍ^٣ ، ثُمَّ مَا لَكُمْ وَالتَّبَجُّحَ وَالتَّشْبِيْحَ^٣ ، وَالتَّعَقُّبَ وَالتَّتَبُّعَ ، وَلَمْ يَغْنِ الْعِرَاكُ ، وَوَقَعَ فِي ثَمَرَتِكُمُ الْاِشْتِرَاكُ ، فَالْفَيْلِسُوفُ يَتَّحِدُ بِالْعَلَّةِ الْقَرِيْبَةِ مِنَ الْخَلْقِ ، ثُمَّ يَتَلَاشَى فِي ذَاتِ الْحَقِّ ، وَالْحَكِيْمُ يَجُوزُ إِلَى عَيْنِ الْحَقِّ رَتْبَةَ الْفَنَاءِ الْمَطْلُوقِ ، وَالتَّمَشُّعَ قَدْ

١ ابن قسي : ثار في أعقاب دولة المرابطين وتسمى تلك الثورة « ثورة المريدين » وكان شيخاً من مشايخ الصوفية وهو صاحب كتاب خلع النملين ، وقد انتشرت طريقته بشلب وكثر خوض أتباعه في الكتب التصوفية وموضوعات الغلاة من الباطنية ؛ وأبو الحكم ابن برجان أيضاً من المتصوفة ، وقد غربه علي بن يوسف اللمتوني وتوفي بمراكش سنة ٥٣٧ هـ (انظر أعمال الأعلام : ٢٤٨ - ٢٥٢) .

٢ أبو براقش : رمز للتلون ، وهو اسم طائر يتنفس فيتغير لونه .

٣ التشبيح : أن يدعي المرء ما لا يحسن .

عضده ونصره ، « كنت سمعته وبصره » ، وإن كان معظم القول المذر ،
ففيكم بعدُ نظر .

وكان في أخرى : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿والذين جاهدوا فينا
لنهديهم سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (النكبات : ٦٩) أنتم الأحياء ،
ولكم يُفتح من الجنان الأبواب ، ركبتم ظهور الأعمال ، وركب غيركم
ظهور الآمال ، وفزتم بسحب الأذيال ، ومن دونكم يحوك عناكب الخيال ،
فبدايتكم الأساس الوثيق ، الذي يبني عليه التحقيق ، ونهايتكم إليها ينتهي الطريق ،
وبها يحط فريق الله تعالى ونعم الفريق ، أولكم المقرب المدرب ، وأوسطكم
الفرد المعرب ، وآخركم الولي المقرب ، حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم ،
فهنئاً لكم طبم ، حواسٌ مسدودة ، وخيوط أفكار كلها ممدودة ، ومشاهد
مشهودة ، ومغلطات تتجاوز حُرَّاسها ، وقواطع معترضة بجملٍ مِرَّاسها ، إلى
أن لا توجد تَقِيَّة ، ولا تبقى بقية ، عند تجلي المعالم الخفية ؛ لو اشتمل العلم على
عملكم ، لكان الكلُّ من هملكم ، بحيث تتعين المراتب وتميز ، وتقرر
المشارب وتتحيز ، فلا يعترض قاطع إلا وقد علم شأنه ، وتعين وقته ومكانه ،
ولا تمثل غاية إلا ودرجها محدودة ، ومراحلها معدودة ، ومشاهدها قبل دخول
الطريق مشهودة ، فهناك تُطَوَّى المراحل ، ويلوح في اللمحة القريبة الساحل ،
ويأمن طول الطريق الواصل .

وكان في رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأدخلوا ، من بعد ما تخيروا
للصطفاء وانتخلوا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ
وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ، ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ ،

واللهُ سميعٌ عليمٌ ﴿ (آل عمران : ٣٣ ، ٣٤) أنتم الأحباب ، ولباب الألباب ، وبوساطتكم اتصلت بين النفوس وبين الحق الأسباب ، لولاكم لم يُفتح الباب ، فلا يصل إلّا مَنْ أوصلتم ، ولا يُحجب إلّا من قطعتم وفصلتم ، أنتم الرعاة والخلق الحمل ، وأنتم الدعاة لمن يريد نَيْلَ الأمل ، مُهدت لكم سُرُرُ القرب تمهيداً ، وبُعِثتم إلى الناس ليوحدوا الله توحيداً ﴿ ولتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴿ (البقرة: ١٤٣) فطوبى لمن أصاخ منكم إلى نِدا ، واستضاء بنور هُدى ، صلواتُ الله عليكم أبداً ، أنتم أولو الأولوية المعقودة ، والعساكر المحشورة المحشودة ، ورؤساء أهلِ المحبّة ، وأدلّاء مبتغي الوسيلة والقربة ، ومسالككم قد بينتها الصحفُ المنزلة ، والملائكة المرسلّة ، ودخلت على العذارى خُدورها ، وعمت السماء وبدورها ، وأغنت عن تقرير نخلها المكاتبُ المائجة بالصبيان ، والسنن المعقودة لها حلق التبيان ، والقواعد المفترضة على الأعيان ، والخزائن المرصوفة بعلوم الأديان ﴿ اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴿ (المائدة: ٣) وقيل لأتباعهم من الجمهور ، وأقطاب فلکهم المشهور : على قدر أتباعكم ، مناقل أبوابكم ، وبحسب اقتدائكم ، يكون سماع ندائكم ، والمهادُ لمن وَثَرَهُ ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿ (الزلزلة : ٧) وتأخيركم في التوقيع هو التقديم ، و« ساقى القوم آخرهم شرباً » مثلٌ قديم ، قال المخبر : فرأيت وجوههم قد تهلت ، ونوآسم المسرّات نحوهم قد أقبلت ؛ ومَنْ سواهم من خالص وزائف ، بين راجٍ وخائف . وسمعت أن طائفة استدعيت بحثٍ حفيّ ، وأدخلت من باب خفيّ ، قيل لهم : هم أصحاب الخبر المكتوم ، وأرباب المقام غير المعلوم ، جعلنا الله تعالى منهم برحمته :

ولولا الحبُّ ما قطعوا الفيافي ولولا الحبُّ ما قطعوا البحارا
فدَعَهُمْ والذي ركبوا إليه وبحنّاً عن خلاصك واختبارا

فلا تشغل بحبّ ديار لَيْلى ولكن حبّ من سكن الديارا^١

وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير ما نصّه : وقد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء ، وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه ، ومع ذلك مُخْبِتون ، وعلى آثار الحبيب مُكَبِّتون ، ما كلّ طريقٍ تُوَصِّلُ ، ولا كلّ تجارة على الربح تحصّل ، ومن العشاق مهجور ومطرود ، وموصل وموعود ، ومغبوط ومحسود ، ومحروم ومجدود ، ومرحوم ومردود :

يا غايّتي ، ولكلّ شيء غاية ، والحبُّ فيه تأخّرٌ وتقدّمٌ
قلّ لي بأبي وسيلةٍ يحظى بما يرجوه غيري من رضاك وأحرّم

ورقة : ولكلّ دائرة مفروضة ، وهالة حول قَمَرِ الحقّ معروضة ، تعود الخطوط من محيطها المُسَدَّد ، إلى مركزها المحدد : فالفيلسوف يروم التثبيت بالعلّة الأولى ، ويعني بها ذات الحق ، أو أن يتحد بالثانية ، وهي مرآة وجه الحق ؛ والإشراقي يروم التّجَوُّهُرُ بنور الأنوار المعبر عنه بالحق ، والاتصال به إمّا بواسطة من الحق أو بغير واسطة من الحق ؛ والحكيم أن يؤديه فكره إلى الحق ، ثم يفتنى في الحق ، ثم يبقى بالحق ، والمتشرّع أن يُجَنِّ في جنة الحق ، ويحصل على جوار الحق ، وينظر إلى جوار الحق ؛ وصاحب الوحدّة المطلقة أن يكون المتفرّق عين الحق ، فسبحان الحق ، المعبود بالحق ، الموجد الجمع في الفَرَق ، لا إله إلا هو . وزيد في هذا المحض الذي كثر في قربه الدعداع^٢ ، وطال على الرؤوس منه الصُّدَاع ، ما تفرد له المقالة المختصرة ، والعناية الميسرة ، بحول مَنْ لا حول ولا قوّة إلاّ به . انتهى .

وقال رحمه الله تعالى في عد ما عدد من فرق الاعتزال ما نصّه :

١ حور قول الشاعر :

وما حبّ الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا

٢ الدعداع : العدو فيه بظه والتواء .

الحبُّ حرَّكهم لكلِّ جدالٍ والحُبُّ أقحمهم على الأهوالِ
والحبُّ قاطعٌ بينهم وأصلَّهم عن نيلِ ما راموه كلَّ ضلالِ
والحبُّ أنشأ فيهمُ عصبيةً بالقيلِ أضرم نارها والقالِ

ولإنما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمل حركاتِ هذا الفَرَّاشِ المختلفِ
الآراءِ عن ذُبَالِ الحقِّ ، يتغفون إليه الوَسِيلَةَ ، قومٌ بالطاعة ، وقومٌ بالعصية ،
وما منهم إلا مُدَّعٍ في المحبةِ متهاك ، حريصٌ على السعادةِ بزَعْمِهِ ﴿ وجوه ﴾
يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ﴿ (الناشية : ٢) مَمَّنْ قَصِدَ الْحَقُّ فَأَخْطَأَهُ ، وأراد
الصوابَ فضلًا عنه ، واشتهر بالحكمة بعدُ في الملةِ الإسلاميةِ جماعةٌ
بالمشرقِ والأندلسِ ، فمن المشاركةِ : أبو الفرج ١ ، ويعقوبُ الكندي ،
وحنينُ بنُ إسحاق ، وثابتُ بنُ قرّة ، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة
والمزاولة ، إلى أن قال : ومن أهل الأندلس : محمد بن مسعدة السرقسطي ،
وأحمد بن طاهر الطرطوشي ، ويحيى بن عمران القرطبي ، وطُفَيْلُ بن
عاصم ، وكَلَيْبُ بن همام البياسي ، والحسن بن حرب الداني ، وابن مسرة ،
ومسلمة المجريطي ، وأبو بكر ابن الصائغ ، وأبو بكر ابن طُفَيْلِ ، وأبو
الوليد ابن رُشْدٍ ٢ ، وكلّ هؤلاء المتقدمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك ،
قال الشاعر :

وعليٌّ أن أسعى ولي سس عليٌّ إدراكُ النجاحِ

حيارى يَمِيدُ بِهِمْ شَجْوُهُمْ كَأَنَّهُمْ ارْتَضَعُوا الخندريسا

١ أبو الفرج هو عبد الله بن الطيب وسترجم له بعد صفحات .
٢ قد جمع لسان الدين هنا عددًا من المشتغلين بالحكمة من الأندلسيين وإذا استثنينا آخر خمسة
ذكرهم وجدنا البقية ممن لم يعرفوا معرفة واضحة .

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفقى أتته الرزايا من وجوه الفوائد^١
﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ،
إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ، وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾ (هود : ١١٨) ﴿ فَرِيقًا هَدَى ، وَفَرِيقًا حَقَّ
عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ﴾ (الأعراف : ٣٠) ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ ﴾ ، ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ، فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴾ (الأنعام : ١٤٩) والخلق قد مدوا أبصارهم وآمالهم ، وتحركوا طوعاً
وكرهاً يَعشُونَ إلى نور الله تعالى ، فمن أعمى أصم لا يسمع ولا يبصر ،
وأعمى فقط يجترىء عن العيان بالمخبر ، وأحول يبصر الشيء شيئين ، والواحد
اثنين ، كما قال الشاعر :

أحوى الجفون له رقيبٌ أحولُ الشيء في إدراكه شيان
فيلوحُ في عينيَّ منه واحدٌ ويلوحُ في عينيه منه آثنانِ
يا ليته ترك الذي أنا مبصرٌ وهو المخيرُ في الحبيب الثاني

وضعيف لا يبصر من بعيد ، وأجهر لا يبصر من قريب ، وأعشى تكثر في
عينه الأشعة ، وربما تندر ، وزرقاء اليمامة :

سبحانَ من قَسَمَ الحظوظَ ظَ فلا عتابَ ولا ملامه^٢
أعشى وأعمى ، ثمَّ ذو بصري ، وزرقاء اليمامة
لولا استقامة من هذا هُ لما تبينت العلامة
ومجاورُ الغرر المخيفِ فِ له البشارةُ بالسلامه

أقام سبحانه الحجّة ، وفرق بين الأمر والإرادة ، وأعطى الكفاية من القدرة
﴿ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ ، وكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (الحديد : ٢٦) اقتصرنا من هذا البحرِ

١ البيت لأبي فراس الحمداني ، ديوانه : ٨٣ وفيه : « إذا كان غير الله للمرء عدة . »

٢ قد أورد المقرئ هذه القصيدة في المجلد الأول : ٧ وانظر مقدمة المحقق : ١٤ .

على نقطة ، ومن هذا الودّيق على قَطْرَة :

ومن يَسُدُّ طريقَ العارضِ الهَطِيلِ ؟^١

عَدُّ الحصى والقَطْرِ ليس يُرامُ

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكراً من غير تبويب ولا تعيين ، لشباع آرائهم ، والعلم بمقاصد مللهم ، وأغراض دعواتهم ، من توحيد الله تعالى وتنزيهه وصفاته وأسمائه ، وكيف يُحشر الناس ليوم لا ريب فيه ﴿ ولتُجزى كلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ ﴾ (الجاثية : ٢٢) وتعليم طرق النجاة ، وإيضاح سبيل الله تعالى ، والتحذير من الغفلة عمّن إليه الرجعى ، وله الآخرة والأولى ، والتخويف من كل ما يقطع عنه ، والترغيب فيما يوصل إليه ، وشأن الرياضة والتدرّج في أحوالها حتى تنتقل من الظواهر إلى البواطن ، وتسرّي في الخلف من السلف ، والندب إلى الاقتصار على الضرورة والقناعة بالبلاغ ، وتبين الرسم فيها ، والتعيين لحدودها ، قد تضمنت ذلك كلّ آيات الله التي تكفل بحفظها ، وسنة رسوله التي قيّض مَنّاخِل الصدق لتصحیح نقلها ، فالمكاتب — والمنّة لله تعالى — مائة ، والمدارس حافلة ، فما لنا والإطالة في الموجود الذائع ، والمشهور الشائع :

والشمسُ تكبرُ عن حَلّي وعن حُلل

فهي الدراريُّ في التقليدِ بالدرر

ما أغنى الشمس عن مدحِ المادحِ ، تحصيلُ الحاصلِ عتاءً ﴿ هوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة : ٣٢) .

فلنذكر بعضَ أرباب الآراء من قريب وبعيد ، وخلق جديد ، على صورة

١ للمتنبّي ، وصدوره : وما ثنّك كلام الناس عن كرم .

المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذي تجزىء منه الحفنة عن الحفنة ،
والقربة عن القرية^١ ، ونقتصر على اليسير لإقامة الترتيب ، وإحكام التبويب ،
وليرى الواقف عليه أننا قد نفصنا الزوايا ، ورشفنا الروايا ، وامتكنا العظام^٢ ،
وامتصينا النظام ، حرصاً على نشيدة الحق أن تعقل ، وعلى الطباع أن تنقل ،
وعلى المرآئي الصدئة أن تصقل ، وعلى صورة النجاة أن تمقل ، ونسأل الله تعالى
هداية توصل إليه ، لا إلهَ إلا هو الرحمن الرحيم ؛ انتهى .

وقال رحمه الله تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته : غصن المحبين ،
وأصنافهم المرتبين ، ويشتمل على مقدمة بيان ، وستة أفنان .

فالمقدمة ... فنقول : أصناف المحبين والعشاق كثير ، وهبَاء نثير ،
وجرَاد أثارها مثير ، بحيث يَشْقُ إحصاؤهم ، ولا يتأتى استقصاؤهم :

فقلتُ كما شاءت وشاء لها الهوى : قَتِيلُكَ ، قالت : أَيُّهُمُ فِهِمُ كَثْرُ^٣ ؟
ثمَّ مدَّ النفسَ بما لا يقتضي المقام الاختصاري ذكره في هذا الموضوع .

وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة ، وهي الخاتمة التي تنبه النفوس
الصِّبَّةَ ، على حكم المحبَّة ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْتِنَا وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ
عَن بَيْتِنَا ﴾ (الأنفال : ٤٢) بعد كلام ما صورته : فِقرَ في معنى هذه الخاتمة فيها
حِكْمَ تنثال ، وتجري مجرى الأمثال :

المحبَّة بحر بعيد الشط ، وخطُّ والفناء منتهى الخط ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ
- إلخ ﴾ (الأحزاب : ٧٢) .

المحبَّة مَهْوَى بعيد ، ومَجَال وعد ووعد ، مرجلٌ يغلي ، ثم خيال
يولي ، وليس له حد عليه يعول .

المحبَّة ظهر لا يركبه ، مَنْ يرى الموت فيتنكبه ، ولا يعلوه ، مَنْ يَأْتِي

١ يريد أن يباع الحبوب يعرض منها نموذجاً مثل ملء حفنة أو قربة .

٢ امتكنا العظم : امتص ما في داخله .

٣ البيت لأبي فراس ، ديوانه : ٢١١ .

إلى وادي الفناء فيسلوه ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾ (البقرة : ٢٤٩) كم قَصَمَت
المحبة من ظهر، وكم سرّ صيرت إلى جهنر ، أولها العار المشهور ، وآخرها
الطي المنشور ، ثم الموت ثم النشور ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ
الكتاب﴾ (الزمر : ٦٩) .

المحبة أنس يستدرج ، ثم شوق يُلجم ويُسرج ، ثم فناء يزعج ، عن
الوجود ويخرج :

على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائم

المحبة كاس ، كم جردت من كاس ، وآس ، مَنْ شَمَمَه لم يجد من آس :

متى أرتجي يوماً شفائي من الضنى إذا كان من يجني عليّ طيبي

تراحم أنفاس المحبين على خَطَرَات الصبَا ، تراحم الهباء على مطارح شعاع
الدبَا ، فلولا بليها لالتهبت ، وتعليل عليها لتلك الأرقام لذهبت :

عليلةٌ في حواشي مِرْطَها بَلَلٌ يُهْدِي لكلِّ عليلٍ منه إنبال
المحبة رقة ، ثم فكرة مسترقة ، ثم ذوق ، يطير به شوق ، ثم وجَل
لا يبقى معه طوق ، ثم لا تحت ولا فوق :

أينما كنتُ لا أُخَلِّفُ رحلاً مَنْ رآني فقد رآني ورحلي

الهوى هَوَان ، وحيام له ألوان ، دمع ساجم ، ووجد هاجم ، وهيام
لا يبرح ، ثم وراءه ما لا يُشْرَح :

قال : بَمَنْ جُنَّ؟ وهل في الورى ما يبعثُ الحبلَ سوى حبه ؟

مَنْ اقتحم بحر الهوى ، هَوَى . لا تدخل في بحر الهوى حتى تشاور صبرك ،
وتجاور قبرك ، فإن كنت منّا أو قرُحُ سلام .

الهوى طريق ، ولسلوكة فريق . الزاد سر مكتوم ، ووفاء معلوم :

وللميادينِ أبطالٌ لها خلُقوا وللدّواوينِ حُسابٌ وكتابٌ

الحبُّ حجٌّ ثانٍ ، لا يَشْتِي نفسَ المريدِ عنهُ ثانٍ ، طريقُهُ التجريدُ ، وزاده
الذكرُ ، وطوافه المعرفةُ ، وإفاضته الفناءُ ﴿ فَإِذَا أَفْضَيْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَاذْكُرُوا
اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ، وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ ، وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ
قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴾ (البقرة: ١٩٨) .

الغرامُ ، صعب المَرَامِ ، والدخولُ فيه حرامٌ ، ما لم يكن فيه شروطُ كرامٍ .
من عرف ما أخذ ، هان عليه ما ترك ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ﴾
(القصص: ٦٨) ظهر الهوى طريقاً سهلاً ، فكفّر التائبون جهلاً :

إِذَا لَمْ يَكُنْ عَوْنٌ مِنَ اللَّهِ لِلْفَقِي أُنْتَهُ الرِّزَايَا مِنْ وَجْهِ الْفَوَائِدِ
والعكس :

قد ينجبُ المحبوبَ في مكروهاها مَنْ ينجبُ المكروهَ في المحبوبِ^٢

وقال الشيخ^٣ :

هو الحبُّ فاسلمٌ بالحشا ما الهوى سَهْلٌ فما اختاره مُضْنَى بِهِ وَلَهُ عَقْلٌ
وعشٌ خالياً فالحبُّ راحتهُ عَنَاءٌ وأولُّهُ سَقَمٌ وآخِرُهُ قَتْلٌ
نصَحْتُكَ عِلْماً بِالهُوِيِّ وَالَّذِي أَرَى مَخَالِفِي ، فَاخْتَرِ لِنَفْسِكَ مَا يَحْلُو
فَمَنْ لَمْ يَمْتِ فِي حَبِّهِ لَمْ يَعِشْ بِهِ وَدُونَ اجْتِنَاءِ النَّحْلِ مَا جَنَّتِ النَّحْلُ
طريقُ القومِ مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْمَوْتِ ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ «مَاتُوا قَبْلَ أَنْ
تَمُوتُوا» . بِيَدِي لَا بِيَدِ عَمْرٍو ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : رَأَيْتَ رَبَّ الْعِزَّةِ فَقُلْتَ : يَا رَبِّ
بِمَ أَصِلُ إِلَيْكَ ؟ قَالَ : فَارِقِ نَفْسَكَ وَتَعَالَ :

١ انظر ما تقدم ص : ٣١٠ .

٢ البيت للسان الدين نفسه من بائية طويلة ستأتي عند ذكر شعره .

٣ هو ابن الفارض ، انظر ديوانه : ١٣٤ وديوان الصباية : ٢٥ .

رَفَضُ السَّوَى فَرَضٌ عَلَى الْعَيْنِ لَا تَخْلُطَنَّ الْحَقَّ بِالْمَيِّنِ
وَالْأَيْنُ وَالْكَيفُ سَوَى ظَاهِرٍ فَاسْتَعْنِ عَنِ كَيْفٍ وَعَنِ أَيْنٍ

الخشب ، الذي يُتَّخَذُ مِنْهُ النَّشْبُ ، ينقسم إلى أقسام ، وأجزاء جسام :
القسم الأول : في الحدود والمعرفات ، والأسماء الواقعة والصفات ^١ .

وللسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ اليدُ الطولى ؛ قال في الروضة في الفصل
الثاني في محركات العزيمة — وهي اليقظة — ما نصّه : قلت : والمحركات المشتركة
في باعث اليقظة كثيرة : منها الوعظ السائق بمقود الشارد عن الله تعالى إلى مَرَبِطِ
التوبة ، ومحرك العزيمة يُرَدِّدُ أذانه على نُؤَامِ أهل الكهف ، وقد ضرب نومُ
الغفلة على آذانهم ، حتى يحول بينهم وبين أذانهم ، ويركبهم ظهر الرياضة التي تُلحِقهم
بالمجذوبين من إخوانهم ، ولَمَّا كَانَ حُبُّ الدُّنْيَا هُوَ الْمَانِعُ عَنِ الشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ
العمل ، والقاطع به بعده لم يجد أساة خبل الهوى وجنون الكسل أنجعَ من رقى
العذل والتأنيب ، وتقبيح المحبوب ، سيّما إذا انزعجت نبال نبلة عن حنيات
ضلوع الصدق ، وقال بعضهم : الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب :

أوقدِ النَّارَ مِنْ رِسَالَةٍ لَيْلَى وَاحْذِرِ السَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دَمُوعِي

ولا تعدلِ الوعظِ البليغِ باللسانِ الفصيحِ ، والقلبِ القَريحِ ، فإذا رأيتِ
الأرضَ قد اهتزت وربّت ، وهضابَ القلوبِ القاسية قد تقلبت ، فشمّرْ
للغراسِ والزراعِ عن الذراعِ ، واغتمِ السراعِ والإسراعِ :

إِذَا هَبَّتْ رِيَا حُكَّ فَاغْتَنِمِهَا فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سَكُونًا

* * *

حفر لها ماء يريها بدأة واضمن لها حوضاً وإن لم تحفر
واربأ بنفسك عن تسامحِ بائعٍ واغتم إذا سامتك شهوةَ مشتري

قالوا : الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط في بساط اللذات ، وينقل

١ الخشب . . . والصفات : هذه العبارة مقحمة هنا وقد وردت ص : ٢٩٤ .

خطواتها عن الخطو في ملعب الخطيئات ، ويمثل لها الصبر عياناً ، وبين العواقب المحجوبة بياناً ، ويُنشئ سحاب الحزن في أجواف أجزائها ، ويذكرها بمآلها وانتهاها ، ويعرض عليها مصارع فنائها ، وخراب بنائها ، وفراق حبايبها وأبنائها ، عند نزول هاذم اللذات بفنائها ، فترجع إلى الله تعالى بحكم الاضطرار أفكارها ، وتخشع من خيفة الله تعالى وجلاله أبصارها .

والوعظ يكون بلسانين ، ويوجد فنين : لسان حال ، ولسان مقال ، وربما كان لسان الحال أبلغ ، وهو يُسَمَّعُ مِنَ الْقُبُورِ الْمُوحِشَةِ ، والقصور الخالية ، والعظام البالية ، وفيه حكايات وأخبار ، ولسان المقال كقوله سبحانه وتعالى ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ، وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ (إبراهيم : ٤٥) وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين ، وضمن فصولها الكتاب الميين ، والسوط الذي يحمل على الأوبة ، ويسوق ذود المتطهرين إلى غدير التوبة ، ونحن نجعله هيئمة بين يدي الفراسة ، لتركية النفوس إن صدق حكم الفراسة ، فمن ذلك ما صدر عني على لسان واعظ :

« الحمد لله الولي الحميد ، المبدئ المعيد ، البعيد في قربه من العبيد ، القريب في بُعدة فهو أقرب من جبل الوريد ، محيي ربوع العارفين بتحيات حياة التوحيد ، ومغني نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العراض الزهيد ، ومخلص خواطر المحققين من سجون دجون التقييد ، إلى فسح التجريد ، نحمده وله الحمد المنتظمة درره في سلوك الدوام وسموط التأيد ، حمد من نزه أحكام وحدانيته ، وأعلام فردانيته ، عن مرابط التقليد ، ومخاطب الطبع البليد ، ونشكره شكر من افتتح بشكره أبواب المزيد ، ونشهد أنه الله الذي لا إله إلا هو شهادة نتخطى بها معالم الخلق إلى حضرة الحق على كبد التفريد ، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد ، وهلال العيد ، وفذلكة الحساب وبيت القصيد ، المخصوص بمنشور الإدلال ،

وإقطاع الكمال ، بين مقام المُرَاد ومقام المُرِيد ، الذي جعله السبب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد ، وخاطبَ الخلائق على لسانه الصادق بحجتي الوعدِ والوعيد ، فكان ممّا أوحى به إليه ، وأنزل الملك به عليه ، من الذكر الحميد ، ليأخذ بالحُجَزِ والأطواق من العذاب الشديد ﴿ ولقد خلقنا الإنسانَ ونعلمُ ما توسوسُ بهِ نفسهُ ، ونحنُ أقربُ إليه من حبلِ الوريدِ ﴾ (ق : ١٦) إلى قوله (حديد) ، صلى الله عليه وعلى آله صلاةٌ تقومُ ببعض حقه الأكيد ، وتسري إلى تربته الزكية من ظهور المواجهِ الجاثية على البريد^١ :

قعدتُ لتذكيرٍ ولو كنتُ منصفاً لذكرتُ نفسي فهي أحوجٌ للذكرى
إذا لم يكنُ مني لِنفسيَ واعظٌ فيا ليتَ شعري كيفُ أفعلُ في الأخرى

آه ! أيُّ وعظ بعد وعظِ الله تعالى يا أحببنا يُسمَع ؟ وفي ماذا وقد تبين الرشد من الغي يطعم ؟ يا من يُعطي ويمنع ، إذا لم تقم الصنيفة فماذا نصنع ؟ اجتمعنا بقلوبنا يا من يفرق ويجمع ، وليئنَّ حديدها بنار خشيتك فقد استعاذ نبيك صلى الله عليه وسلم من قلبٍ لا يخشع ، ومن عينٍ لا تدمع ، اعلموا — رحمكم الله — أن الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ، ومن الجماد والحيوان ، وما أملاه الملكوان^٢ ، فإن الحق نور لا يضره أن يصدر من الخامل ، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الخامل ، وأنتم تدرون أنكم في أطوار سفر لا تستقر لها دون الغاية رحلة ، ولا تتأتى معها إقامة ولا مهلة ، من الأضلاب ، إلى الأرحام ، إلى الوجود ، إلى القبور ، إلى النشور ، إلى إحدى داري البقاء ، أي الله شك ؟ فلو أبصرتُمُ مسافراً في البرية يبني ويفرش ، ويمهد ويعرش ، ألم تكونوا تضحكون من جهله ، وتعجبون من ركافة عقله ؟

١ يريد مواجه المشتاقين إلى زيارة قبره عليه السلام .

٢ الملوان : الليل والنهار .

ووالله ما أموالكم ولا أولادكم وشواغلكم عن الله التي فيها اجتهادكم إلا بقاء سقر في ققر ، أو إعراس في ليلة نقر ، كأنكم بها مطرحة تعبر فيها المواشي ، وتنبو العيون عن خبرها المتلاشي ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (الأنفال : ٢٨) . ما بعد المقيلا إلا الرحيل ، ولا بعد الرحيل إلا المنزل الكريم أو المنزل الوبيل ، وإنكم تستقبلون أهوالاً سكرات الموت بواكير حسابها ، وعتب أبوابها ، فلو كشف الغطاء عن ذرة منها لذهلت العقول وطاشت الأبواب ، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ (فاطر : ٥) . أفلا أعددت هذه الورطة حيلة ، وأظهرتم للاهتمام بها مخيلة ؟ أتعويلاً على عفوهِ مع المقاطعة وهو القائل في مقام التهديد ﴿ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ ؟ (إبراهيم : ٧) أمناً من مكرهه مع المنابذة ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (الأعراف : ٩٩) أطمعاً في رحمته مع المخالفة وهو يقول ﴿ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) أمشاقه ومعاندة ﴿ وَمَنْ يُشَاقِ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ؟ (الحشر : ٤) أشكاً في الله ؟ فتعالوا نعيد الحساب ، ونقرر العقد وننصف بدعوة الحق أو غيرها ، من اليوم تفقد عقد العقائد عند التساهل بالوعيد ، فالعامي يدمي الإصبع الوجعة ، والعارف يضمدها مبدأ العصب :

هكذا هكذا يكون التعامي هكذا هكذا يكون الغرور

﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ ، مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (يس : ٣٠) وما عدا عما بدا ؟ ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم « الكيس مَنْ دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والأحمق مَنْ أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله الأماني » فعلام بعد هذا المعول ؟ وماذا يتأول ؟ اتقوا الله سبحانه في نفوسكم وانصحوها ، واغتنموا فرص الحياة واربحوها ﴿ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ ، وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴾

(الزمر : ٥٦) وتنادي أخرى ﴿ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ (الشورى : ٤٤) وتستغيث أخرى ﴿ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَتَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ﴾ (الأعراف : ٥٣) وتقول أخرى ﴿ رَبِّ أَرْجِعُونِي ﴾ (المؤمنون : ٩٩) فرحم الله مَنْ نظر لنفسه ، قبل غُرُوب شمسهِ ، وَقَدَّمَ لُغْدَهُ مِنْ أَمْسِهِ ، وَعَلِمَ أَنَّ الْحَيَاةَ تَجْرُؤُ إِلَى الْمَوْتِ ، وَالْغَفْلَةَ تَقُودُ إِلَى الْفَوْتِ ، وَالصَّحَّةَ مَرَكِبَ الْأَلَمِ ، وَالشَّيْبَةَ سَفِينَةَ تَقْطَعُ إِلَى سَاحِلِ الْهَرَمِ .
وإن شاء قال بعد الخطبة : إخواني ، ما هذا التواني ، والكلف بالوجود الفاني عن الدائم الباقي والدهر يقطع الأمان ، وهازم اللذات قد شرع في نقض المباني ؟ ألا معتبر في عالم هذه المعاني ؟ ألا مرتحل عن مغايب هذه المعاني ؟

ألا أذنُ تُصْغِي إليَّ سَمِيعَةً أُحَدِّثُهَا بِالصَّدَقِ مَا صَنَعَ الْمَوْتُ
مَدَدَتْ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهَ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَأَ مِنْكُمْ فَلِمَ يَسْمَعُ الصَّوْتِ
هُوَ الْقَدْرُ الْآتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتُوبُوا سَرِيعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الْفَوْتُ

يا كلفاً بما لا يدوم ، يا مَفْتُوناً بغرور الوجود المهدوم ، يا صريعَ جدار الأجل المهدوم ، يا مشتغلاً بينان الطرق قد ظهر المناخ وقرب القدوم ، يا غريقاً في بحار الأمل ما عسك تعوم ، يا معلل الطعام والشراب ولمع السراب ، لا بد أن تهجر المشروب وتترك المطعم . دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر ، وطوى البساط وأنت تكرب ، واقتلع جواهر الجوارح وقد وقع بك النهب ، ولم يبق إلا أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد :

لو خفَّفَ الْوَجْدُ عَنِّي دَعَوْتُ طَالِبَ ثَارِي

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ﴾ (المؤمنون : ١٠٠) كيف التراخي والفوت مع الأنفاس ينتظر ؟ كيف الأمان وهاجم الموت لا يبقى ولا يدّر ؟ كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صحَّ الخبر ؟ مَنْ فُكِرَ فِي كَرْبِ الْحُمَارِ تَغْضَبَتْ عِنْدَهُ

١ ق : مقبونا .

لذة النبيذ ، مَنْ أَحَسَّ بَلْغَطِ الحريقِ فوق جداره لم يُصْغِ بصوته لنعمة العود ،
مَنْ تيقن بذلَّ العزلة هان عليه ترك الولاية :

ما قامَ خيركَ يا زمان بشره أولى لنا ما قَلَّ منك وما كفى

أوحى الله سبحانه إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه أن ضع يدك على
متنِّ ثور ، فبعدد ما حادثه من شعره تعيش سنين ، فقال : يا ربّ وما بعد ذلك ؟
قال : تموت ، قال يا ربّ فالآن :

رأى الأمرَ يُفْضِي إلى آخرِ فَصَيَّرَ آخره أوّلاً

إذا شعرت نفسك بالميل إلى شيء فاعرض عليها غصّة فراقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ
هَلَكَ عَن بَيْتَةٍ وَيَحْيَا مِنْ حَيٍّ﴾ (الأنفال : ٤٢) فالمفروح به هو المحزون
عليه ، أين الأحباب ؟ مروا ، فيا ليت شعري أين استقروا ؛ استكانوا والله
واضطروا ، واستغاثوا بأوليائهم ففروا ، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضروا ، فالمنازل
من بعدهم خالية خاوية ، والعروش ذابلة ذاوية ، والعظام من بعد التفاضل
متشابهة متساوية ، والمساكن تندب في أطلالها الذئاب العاوية :

صِحْتُ بِالرَّبْعِ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَيْتَ شِعْرِي أَيْنَ يَمْضِي الغريبُ
ويجنب الدارِ قبرٌ جديدٌ منه يُسْتَسْقَى المَكَانُ الجديبُ
غاض قلبي فيه عندَ التماحي قلتُ هذا القبرُ فيه الحبيبُ
لا تسلُ عن رجعتي كيف كانت إنَّ يومَ البينِ يومٌ عصيبُ
باقترابِ الموتِ علَّتُ نفسي بعد ألفي كلُّ آتٍ قريبُ

أين المعمار الخالد ؟ أين الولد أين الوالد ؟ أين الطارف أين التالد ؟ أين المجادل
أين المجالد ؟ ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (مريم : ٩٨)
وَجُوهٌ علاهن الثرى ، وصحائف تُفَضُّ ، وأعمال على الله تُعرض . بحث الزهاد

والعباد ، والعارفون والأوتاد ، والأنبياء الذين يَهْدَى بهم العباد ، عن سبب
الشقاء الذي لا سعادة بعده ، فلم يجدوا إلا البعد عن الله تعالى ، وسببه حبُّ
الدنيا « لن تجتمع أمتي على ضلالة » :

هَجَرْتُ حَبَائِي مِنْ أَجْلِ لَيْلِي فَمَا لِي بَعْدَ لَيْلِي مِنْ حَبِيبِ
وَمَاذَا أُرْتَجِي مِنْ وَصْلِ لَيْلِي سَتَجْزِي بِالْقَطِيعَةِ عَنْ قَرِيبِ

وقالوا : ما أورد النفسَ المواردَ وفتحَ عليها بابَ الحتفِ إلا الأملُ ،
كلِّمًا قَوْمَتَهَا مِثَاقَ الْخُدُودِ فَتَحَّ لَهَا أَرْكَانَ الرَّخِصِ ، كلِّمًا عَقَدتْ صَوْمَ
الْعَزِيمَةِ أَهْدَاهَا طُرْفَ الْغُرُورِ فِي أَطْبَاقِ : حَتَّى ، وَإِذَا ، وَلَكِنْ ، وَرَبَّمَا ، فَأَفْرَطَ
الْقَلْبُ فِي تَقْلِيْبِهَا حَتَّى أَفْطَرَ :

ما أوبقَ الأنفَسَ إلا الأملُ وهو غرورٌ ما عليه عمَلُ
يفرضُ منه الشخصُ وهماً ما له حالٌ ولا ماضٍ ولا مستقبلُ
ما فوق وجه الأرضِ نفسُ حيةٍ إلا قد انقضتْ عليها الأجلُ
لو أنهم من غيرِها قد كوتوا لامتلاء السهلِ بهم والجبلُ
ما ثم إلا لقمٌ قد هيئتُ للموتِ ، وهو الآكلُ المستعجلُ
والوعدُ حقٌ والورى في غفلةٍ قد خودعوا بعاجلٍ وضلُّوا
أين الذين شيدوا واغرسوا ومهدوا وافرشوا وظلُّوا
أين ذوو الراحاتِ زادت حسرةٌ إذ جنبُّوا إلى الثرى وانتقلوا
لم تدفعِ الأحبابُ عنهم غيرَ أنْ بكوا على فراقهم وأعولوا
اللهُ في نفسك أولى من له ذخرتَ نصحاً وعتاباً يقبلُ
لا تتركها في عمى وحيرةٍ عن هولٍ ما بين يديها تغفلُ
حصرٌ لها الفاني وحاول زهدُها وشوقها إلى الذي تستقبلُ
وفدٌ إلى الله بها مضطرةٌ حتى ترى السيرَ عليها يسهلُ

١ ق : بعد .

هو الفناء والبقاء بعده والله عن حكمته لا يُسألُ
يا قُرَّةَ العينِ ويا حَسْرَتَهَا يومَ يُوقَى الناسُ ما قد عملُوا

يا طرداء المخالفة ، إنكم مُدْرَكُونَ فاستيقوا باب التوبة ، فإن ربّ تلك
الدار يجير ولا يجار عليه ، فإذا أمنتم فاذكروا الله كما هداكم ، يا طَفِيلِيَّةَ
الهمّة ، دُسُّوا أنفسكم بزُمر التائبين وقد دُعُوا إلى دعوة الحبيب ، فإن لم
يكن أكل فلا أقل من طيب الوليمة ، قال بعض العارفين : إذا عقد التائبون
الصلح مع الله تعالى انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال ﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ
بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾ (الزمر : ٦٩) . معاني هذا المجلس والله نسيم سحر ،
إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق ، سَعَوْتَ هذا الوعظ ينغصص إن شاء الله زَكَمَةَ
البطالة ، إن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ، إكسير هذا الكتاب يقلب بحكمة
جابر القلوب المنكسرة عَيْنَ مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ ،
وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ﴾ (الأنعام : ٣٦) إلهي دلنا من حيرة يضلّ فيها - إلاّ إن
هديت - الدليل ، وأجرنا من غمرة وكيف إلا بإعانتك السبيل ؟ نفوس صدىء
على مرّ الأزمان منها الصّقيل ، ونبا بجنوبها عن الحق المقييل ، وآذان أنهضها
القول الثقيل ، وعثرات لا يقيلها إلاّ أنت يا مقييل العثار يا مقييل ، أنت حسبنا
ونعم الوكيل ؛ انتهى .

ومن مواضع لسان الدين رحمه الله سبحانه ما أورده في الروضة إثر ما سبق ،
إذ قال : إخواني صمّت الآذان والنداء جهير ، وكذب العيان والمشار إليه
شهير ، أين الملك وأين الظهير ؟ أين الخاصة أين الجماهير ؟ أين القبيل والعشير ؟
أين كسرى بن أردشير ؟ صدق والله الناعي وكذب البشير ، وغشّ المستشار
واتهم المشير ، وسئل عن الكلّ فأشار إلى التراب المشير :

خذ من حياتك للممات الآتي وبتدار ما دام الزمان مُوَاتِي
لا تغتررْ فهو السرابُ بَقِيعةٌ قد خودعَ الماضي بهِ والآتي

يا من يؤملُ واعظاً ومذكراً
هلاًّ اعتبرتَ ويا لها من عبرةٍ
قف بالبقيعِ ونادٍ في عرصاتِه
درجُوا ولستَ بخالدٍ من بعدهم
والله ما استهلكتَ حياً صارخاً
لا فوتَ عن دركِ الحِمَامِ لهاربٍ
كيف الحياةُ لدارجٍ متكلِّفٍ
أسفاً علينا معشرَ الأمواتِ لا
ويغرنا لمعُ السَّرابِ فنغتدي
والله ما نصَّحَ امرءاً من غشّه

يوماً ليوقظهُ من الغفلاتِ
بمدافنِ الآباءِ والأمماتِ
فلكممَ بها من جيرةٍ وليداتِ
متميزٍ عنهم بوصفِ حياةِ
إلاّ وأنتَ تُعدُّ في الأمواتِ
والناسُ صرعى معركِ الآفاتِ
سنةِ الكرى بمدارجِ الحياتِ
ننكُ عن شغلٍ بهاكِ وهاتِ
في غفلةٍ عن هاذمِ اللذاتِ
والحقُّ ليسَ بخافتِ المشكاةِ

يا من غدا وراح ، وألف المراح ، يا من شرب الراح ، ممزوجة بالعذب
القراح ، وقعد لعيان صروف الزمان مقعد الأفراح ، كأنك والله باختلاف
الرياح ، وسماع الصباح ، وهجوم غارة الاجتياح ، فأديل الحفوت من الارياح ،
ونُسيت أصوات الغناء برنات الرياح ، وعوضت عررُ الثوب القباح ، من غرر
الوجوه الصُّباح ، وتناولت الجسومَ الناعمة أيدي الاطِّراح ، وتنوسيت العهود
الكريمة بمر المساء عليها والصبح ، وأصبحت كُماة النطاح ، من تحت البطاح ،
وخملت المهتدة والرماح ، ذليلة من بعد الجماح :

ولو كان هوّلُ الموتِ لاشيءٍ بعده لهان علينا الأمرُ واحتقر الهولُ
ولكنه حشُرٌ ونشُرٌ وجنّةٌ ونارٌ ، وما لا يستقلُّ به القولُ

يا مشتغلاً بداره ورمَّ جداره ، عن إسراعه إلى النجاة وبيداره ، يا من
صاح بإنذاره شيبُ عذاره ، يا من طرفٍ عينٍ اعتذاره بأقذاره ، يا من قطعه
بُعدُ مزاره وثقلُ أوزاره ، يا معتلفاً^٢ ينتظر هجوم جزّاره ، يا مختلساً للأمانة

٢ ق : معتلفاً .

١ ق : صرف .

يرتقبُ مفتش ما تحت إزاره ، يا من أمعن في خمر الهوى خَفُ من إسكاره ،
يا من خالف مولى رِقَمَه تَوَقَّ من إنكاره ، يا كلفاً بعارية تُرَدُّ ، يا مفتوناً
بأنفاس تُعَدُّ ، يا معولاً على الإقامة والرحال تُشَدُّ ، كأنتي بك وقد أوثق الشدَّة ،
وألصق بالوسادة الخدَّ ، والرجلُ تقبض والأخرى تمدُّ ، واللسان يقول ﴿ يا ليتنا
نُرَدُّ ﴾ (الأنعام : ٢٧) :

إنَّا إلى الله وإنا له ما أشغلَ الإنسانَ عن شأنِهِ
يرتاحُ للأثوابِ يزُهَى بها والحيطُ مغزولٌ لأكفانِهِ
ويخزنُ الفلَسَ لورائِهِ مُستنفداً مبلغَ أكوانِهِ
قوضُ عن الفاني رحالَ امرئٍ مدَّ إليه عينَ عرفانِهِ
ما ثمَّ إلا موقِفٌ زاهدٌ قد وكَّلَ العدلُ بميزانِهِ
مُفَرِّطٌ يشقى بتفريطِهِ ومحسنٌ يُجزى بإحسانِهِ

يا هذا خفي عليك مَرَضٌ اعتقادك فالتبس الشحمُ بالورَم ، جهلت قِيمَ
المعادنِ فبيعتَ الشبَّهَ بالذهب ، فسَدَ حِسُّ ذوقك فتفككت بحفظه ، أين
حرصك من أجلك ؟ أين قولك من عملك ؟ يدركك الحياء من الطفل فتتحمى
حمى الفاحشة في البيت بسببه ، ثم تواقعها بعين خالق العين ، ومُقَدِّر الكيف
والأين ، تالله ما فَعَلَ فَعَلَكَ بمعبوده ، مَنْ قَطَعَ بوجُوده ﴿ ما يَكُونُ مِنْ
نَجْوَى ثَلَاثَةِ - إله عليم ﴾ (المجادلة : ٧) تعود عليك مَسَاعِي الجوارح التي
سخرها لك بالقناطرِ المقنطرة من الذهب والفضة ، فتبخل منها في سبيله بفلس ،
وأحدُ الأمرين لازم : إمَّا التكذيب ، وإمَّا الحماقة ، وجمعك بين الحالتين
عجيب ، يرزقك السنين العديدة من غير حق وَجَبَ لك ، وتسيء الظن به في
يوم ؛ توجب الحق ، وتعتذر بالغفلة ، فما بال التماذي ؟ تعرّف بالذنب فما

١ ق : فيه ، ولعلها « قيمة » .

٢ ق : حسن .

الحجة في الإصرار ؟ ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾ بإذنِ رَبِّهِ ، والذي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِيداً ﴿(الأعراف : ٥٨)﴾ يا مدعي النسيان ماذا فعلت بعد التذكير ؟ يا معتزلاً بالغفلة أين ثمرة التنبيه ؟ يا مَنْ قطع بالرحيل أين الزاد ؟ يا ذُبابة الحرص كم ذا تلجج في ورطة الشهد ؟ يا نائماً مِلَّ عَيْنَيْهِ حَدَارِ الْأَجَلُ قد أُنذِر ، يا ثَمَلِ الاغترار قَرُبَ خُمَارِ النَّدَمِ ، تَدَّعِي الحَذَقَ بالصنائع وتجهل هذا القدر ، تبذل النصح لغيرك وتغشُّ نَفْسَكَ هذا الغش ، اُنْدَمَلِ جَرِحُ تَوْبَتِكَ على عَظْمٍ ، قام بناء عَزَمَتِكَ على رمل ، نبتت خضراء دَعَوَتِكَ على دِمْنَةٍ ، عَقَدْتَ كَفْلَكَ من الحق على قَبْضَةِ ماء ﴿أَفَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَّاهُ حَسَنًا﴾ ، فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴿(فاطر : ٨)﴾ إذا غام جو هذا المجلس ، وابتدأ رش غمام الدموع ، قالت النفس الأمارة : حوالينا لا علينا ، فدالت رياح الغفلة ، وسحابُ الصيف هفاف ، كلما شدَّ طفل العزيمة على دِرَّةِ التوبة صانَعَتَهُ ظَنْرُ الشهوة عن ذلك بعصفور ، إذا ضيق الخوف فُسْحَةَ المهل سرق الأمل حدود الجار ، قال بعض الفضلاء : كانوا إذا فقدوا قلوبهم ، تفقدوا مطلوبهم ، ولو صدق الواعظُ لأثر ، اللهم لا أكثر :

طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلٌ

والخطب جليل ، والمتفطن قليل ، فهل إلى الخلاص سبيل ؟ اللهم انظر إلينا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء ، وشملت الأموات والأحياء ، يا دليلَ الحائرين دُلِّنا ، يا عزيز ارحم دُلِّنا ، يا وليَّ من لا وليَّ له كُنْ لنا كلتنا ، إن أعرضتَ عنا فمن لنا ؟ نحن المذنبون وأنت غفار الذنوب ، فقلِّبْ قلوبنا يا مقلبَ القلوب ، واسترْ عيوبنا يا ستارَ العيوب ، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب ؛ انتهى .

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى في المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعدة ، ونصه :

إذا لم أُنح يوماً على نَفْسِي التي بجرّاتها أُحْبِبْتُ كلَّ حَبِيبِ
وقد صحَّ عندي أنَّ عاديةَ الردي تدبُّ لها والله كلَّ ديبِ
فمتنّذا الذي يبكي عليها بأدمعي إذا كنتُ موصوفاً برأي لبيبِ

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى إنسانه ،
وقد ذبلت بالسقم نرجسة لحظه ، وذوّت وردة خده ، واصفرت لمغيب الفراق
شمسُ حسنه ، وهو يجود بنفسه التي كان يبخلُ منها بالنفس ، يخاطب بلسان
حاله مترجماً : « وليت الفجل يهضمُ نفسه » ، وأنت على أثر مسحه إلى دَسْتِ
الحكم ﴿ وما أدري ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُمْ ﴾ (الاحقان : ٩) .
ومنها : تالله لو لم يكن المخبر صادقاً لنشب بحلق العيش بعده شوكة الشك :

ولو أنا إذا متنا تركنا لكان الموتُ راحةً كلُّ حيٍّ
ولكننا إذا متنا بعثنا ونُسأل بعده عن كلِّ شيءٍ

فالحازم من بتر الآمال طوعاً ، وقال : بيدي لا بيد صَمْرُو ﴿ يا أيُّها
النَّاسُ إنَّ وعدَ اللهِ حقٌّ فلا تَغُرَّتْكُمْ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّتْكُمْ باللهِ
الغُرُورُ ﴾ (فاطر : ه) .

وقال أمير الوعاظ رحمه الله تعالى :

وبصدّها تبيّنُ الأشياءُ^١

يا مقتولاً ما له طالب ثار ، يريدُ الموتَ مُطلَقَ الأعينة في طلبك ، وما
يحميك حصن ، ثوبُ حياتك منسوج من طاقات أنفاسك ، والأنفاس تستلب
ذرات ذاتك ، وحركات الزمان قوينة في النسج الضعيف ، فيا سرعة التمزق ،
يا رابطاً مناه بخيطة الأمل ، إنّه ضعيف الفتل ، صياد التلف قد بثَّ الصقور ،
وأرسل العقبان ، ونصّب الأشرار ، وقطع المواد ، فكيف السلامة ؟ تهاياً

١ عجز بيت المتنبي ، وصدّره : « ونذيمهم وبهم عرفنا فضله » .

لِسُرْعَةِ المَوْتِ وَأَشَدِّ مَنَها قَلْبَ القَلْبِ ، لَيْتَ شَعْرِي لِمَا يُؤوِلُ الأَمْرَ ؟
فَوَاللَّهِ لَا أُدْرِي أَيَغْلِبُنِي الهَوَى إِذَا جَدَّ جِدُّ البَيْنِ أَمْ أَنَا غَالِبُهُ
فَإِنْ أُسْتَطِعَ أَغْلَبُ وَإِنْ يَغْلِبُ الهَوَى فَمِثْلَ الَّذِي لَا قَيْتُ يُغْلِبُ صَاحِبُهُ

مَرَكَبُ الحَيَاةِ يَجْرِي فِي بَحْرِ البَدَنِ بِرُخَاءِ الأَنْفَاسِ ، وَلَا بَدَّ مِنْ عَاصِفٍ قَاصِفٍ
بِفُلْكَهٖ وَيَغْرُقُ الرِّكَابَ :

فَاقْضُوا مَا رَبِّكُمْ عِجَالًا إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الأَسْفَارِ^١

وَقَالَ : كَأَنَّكَ بِحَرْبِ التَّلْفِ قَدْ قَامْتَ عَلَى سَاقٍ ، وَانْهَزْتَ جُنُودَ الأَمَلِ ،
وَإِذَا بِمَلِكِ المَوْتِ قَدْ بَارَزَ الرُّوحَ يَجْذِبُهَا بِمَخْطَاطِيفِ الشَّدَائِدِ مِنْ قِنَانِ العُرُوقِ ،
وَقَدْ شَدَّ كَتَافَ الذَّبِيحِ ، وَحَارَ البَصْرَ لِشِدَّةِ الهَوْلِ ، وَمَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ عَنِ الِیَمِینِ
قَدْ فَتَحُوا أَبْوَابَ الجَنَّةِ ، وَمَلَائِكَةُ العَذَابِ عَنِ الِیَسَارِ قَدْ فَتَحُوا أَبْوَابَ النَّارِ ،
وَجَمِيعُ المَخْلُوقَاتِ تَسْتَوَكِفُ الخَبْرَ ، وَالکَوْنُ کُلُّهُ قَدْ فَاءَ عَلَى صَبِيحَةٍ : سَعِدَ
فَلَانٌ ، أَوْ شَقِيَ فُلَانٌ ، فَهَنَالِكَ تَنْجَلِي أَبْصَارِ الذِّینِ کَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ
ذِکْرِي ، وَيُحْکَمُ ! تَهَيَّأْ لِتِلْكَ السَّاعَةِ ، حَصِّلْ زَادًا قَبْلَ النُّوْتِ :

تَمَتَّعْ مِنْ شَمِيمِ عَرَّارِ نَجْدٍ فَمَّا بَعْدَ العِشِيَّةِ مِنْ عَرَّارٍ

مِثْلُ لَعِينِكَ سُرْعَةُ المَوْتِ ، وَمَا قَدْ عَزَمْتَ أَنْ تَفْعَلَ حِينَئِذٍ فِي وَقْتِ الأَسْرِ
فَافْعَلْهُ فِي وَقْتِ الإِطْلَاقِ ، وَقَالَ أَبُو العَتَاهِيَةِ^٢ :

خَانَكَ الطَّرْفَ اتَّئِدُ^٣ أَيُّهَا القَلْبُ الجَمُوحُ
قَدَوَاعِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ دُنُوءُ وَنَسْرُوحُ
كَيْفَ إِصْلَاحُ قُلُوبٍ إِنَّمَا هُنَّ قُرُوحُ

١ البيت لأبي الحسن التهامي ، من قصيدته « حكم المنية في البرية جاري » ، ديوانه : ٢٨ .

٢ ديوان أبي العتاهية : ٩٧ .

٣ الديوان : الطموح .

أَحْسَنَ اللهُ بِنَا
فَإِذَا الْمَشْهُورُ مَنَّا
كَمْ رَأَيْنَا مِنْ عَزِيزٍ
صَاحٍ مِنْهُ بِرَحِيلٍ
مُوتُ بَعْضِ النَّاسِ فِي الْأَرْضِ
سَيَصِيرُ الْمَرْءُ يَوْمًا
بَيْنَ عَيْنَيْ كُلِّ حَيٍّ
كَلْنَا فِي غَفْلَةٍ وَالِدِ
لِبنِي الدُّنْيَا مِنَ الدُّنْيَا
رُحْنٌ فِي الْوَشْيِ وَأَصْبَحَ
كُلُّ نَطَاحٍ مِنَ الدَّهْرِ
نَحْ عَلَى نَفْسِكَ يَا مَسْ
لِتُنوحَنَّ وَلَوْ عَمَّ

وقال في المعنى ١ :

لَمِنْ طَلَلٍ أُسَائِلُهُ
غَدَاةَ رَأَيْتَهُ تَنعَى
وَكُنْتُ أَرَاهُ مَأْهُولًا
وَكُلُّ لَاعْتِسَافٍ الدَّهْرِ
وَمَا مُتَمَكِّكٌ إِلَّا
فِيصْرَعُ مِنْ يَصَارِعُهُ
يُنَازِلُ مِنْ يَهْمُهُ بِهِ

١ ديوانه : ٣٢٧ .

٢ الديوان : وما من مسلك .

وأحياناً يؤخّره
كفالك به إذا نزلت
وكم قد عزّ من ملك
ويشي عطفه مراحاً
فلما أن أتاه الحقُّ
فخفض^٢ عينه للمو
فما ليث السّياق به
فجهزه إلى جدث
ويصبح شاحط المثوى
مخمشة نوادبسه
وكم قد طال من أمل
رأيت الحق لا يخفي
لا فانظر لنفسك أي
لمنزول وحدة بين ال
قصير السمك قدرضمت^٣
بعيد تجاور الجيرا
أيتها المقابر في
ومن كنا نتاجرهُ
ومن كنا نعاشرهُ
ومن كنا نُشاربه
وتارات يعاجله
على قوم كلاكله
تحف به قبائله^١
وتعجبه شمائله
ولّى عنه باطله
ت واسترخت مفاصله
إلى أن جاء غاسله
سيكتر فيه خاذله
مفجعة ثواكله
مسلبه حلائله
فلم يدركه أمله
ولا تخفى شواكله
زاد أنت حامله
مقابر أنت نازله
عليك به جنادله
ن ضيقة مداخله
ك من كنا نازله
ومن كنا نعامله
ومن كنا نداخله
ومن كنا نؤاكله

١ الديوان : قنابله .
٢ الديوان : فمض .
٣ الديوان : رصت .

وَمَنْ كُنَّا نُفَاخِرُهُ وَمَنْ كُنَّا نُطَاوِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نُرَاقِبُهُ وَمَنْ كُنَّا نُزَايِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا نُكَارِمُهُ وَمَنْ كُنَّا نُجَامِلُهُ
 وَمَنْ كُنَّا لَهُ الْفَأْ قَلِيلًا مَا نُزَايِلُهُ ١
 وَمَنْ كُنَّا لَهُ بِالْأَمِّ سِ إِخْوَانًا نَوَاصِلُهُ ٢
 فَحَلَّ مَحَلَّةً مَنْ حَلَّ هَا صُرِمَتْ جِبَائِلُهُ
 أَلَا إِنَّ الْمَنِيَّةَ مَنْ هَلُّ وَالْخَلْقُ نَاهِلُهُ
 أَوَاخِرُ مَنْ تَرَى تَفْنَى كَمَا فَنَيْتَ أَوَائِلُهُ
 لِعَمْرِكَ مَا اسْتَوَى فِي الْأَمِّ سِرِّ عَالِمُهُ وَجَاهِلُهُ
 لِيَعْلَمَ كُلُّ ذِي عَمَلٍ بِأَنَّ اللَّهَ سَائِلُهُ
 فَاسْرِعَ فَائِزًا بِالْخَيْبِ سِرِّ قَائِلُهُ وَفَاعِلُهُ

ثم قال لسان الدين رحمه الله تعالى ، بعد ما سبق ، ما صورته : وهذا الغرض
 بحر ، ويكفي من خزائنه عرض ، ومن بيت ماله قرض ، إن شاء الله تعالى .
 ثم قال : تنبيه يشتمل على سؤالين : أحدهما أن يقال : الوعظ غير مناسب
 للمحبة ، إذ لا يحصل إلا بعد الفراغ واليقظة ، الثاني : أن يقال : عظم الحسرة
 لفراق عالم الحس ، وأطلتم في قشور ، فنجيب عن الأول : إننا لم نجلب الوعظ
 إلا بين يدي تأميل حضور المحبة ، فكأنه يجري مجرى الأسباب ، فإن الغرض
 به وجهة النفس من جو السرور ، واللعب بالزور ، إلى جو الحزن والارتماض ،
 ومن هنالك تأخذ بنظامها أيدي الاضطراب ، فتحصل اليقظة ثم التوبة ، ومنها
 يستقيم الطريق في منازل السائرين إلى الحق :

١ ق : نزاوله ، والتصويب عن الديوان .

٢ الديوان : ومن كنا بلامين أحاييناً ...

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغِبَتْها وإذا تُرِدُّ إلى قَلِيلٍ تَقْنَعُ^١

وعند ذلك يُطَوِّى بساط الزجر والوعظ^٢ ، ويمدّ بساط الاعتبار والحب ، إن شاء الله تعالى ، فإنها كالثكلتي بطبعها لما فارقتَه من عنصر نور الله تعالى والعوالم الروحانية التي هي الشعار والدثار ، والأمل والدار ، والحياة والجمال ، والوجود والكمال ، وإن كانت لا تشعر بالسبب ، ولا تستحضر ذكر العلة ، فإذا ذُكر الفراق أتتْ ، أو تُنوشد الآثار حنّتْ ، ويطرقها الحزن عند الألحان الشجية ، وتحس بعض الأحيان بالمواجد العشقية :

وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ لقبرِ ثوى بين اللوى والدكادك^٣
فقلت لهم : إن الأسي يبعث الأسي دعوني فهذا كلة قبر مالك

وعن الثاني : إن كثيراً من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحس ، فضلاً عن النظر فيه ، وإن شعرت بذلك عد منها نبلاً ، ومَن كان بهذه المثابة لا سبيل لندائه إلا من باب القشور ﴿ أولئك ينادونَ من مكانٍ بعيدٍ ﴾ (فصلت : ٤٤) إلى أن يتأتى النداء من باب الله تعالى بفضل الله تعالى ، فالنفوس الشخصية غير متساوية ، وهي بهوى الهوى هاوية ، فالقريبُ منها يُجذبُ بالأنامل ، والبعيدُ بالجزل الكوامل ، وعلى قدر المحمول تكون قوة الحامل :

يضع الهناء مواضع النقب^٤

يكفي اللبيب إشارةً مكتومةً وسواه يدعى بالنداء العالي
وسواهما بالزجر من قبل العصا ثمَّ العصا هي رابعُ الأحوال

١ لأبي ذؤيب الهذلي ، ديوان الهذليين ١ : ١١ .

٢ والوعظ : سقطت من ق .

٣ البيتان لمتعم بن نورية في رثاء أخيه مالك .

٤ من أمثالهم ؛ وهو شطر بيت لدريد بن الصمة ، وصدره : «متبذلاً تبدو محاسنه» .

وقال رحمه الله تعالى في فصل ذم الكسل ، ما صورته : ونحن نجلب بعض الأمثال في ذمّه ، ممّا يسهل حفظه ، ويجب لحظه ، فمن ذلك : الكسل مزلقّة الريح ، ومسخرة الصبح . إذا رقدت النفسُ في فراش الكسل استغرقها نوم الغفلة ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك : ١٠) . الندامة في الكسل كالسم في العسل . الكسل آفة الصنائع ، وأرضة في البضائع . العجز والكسل ، يفتحان الخمول ولا تسلسل . الفلاح إذا ملّ الحركة ، عدم البركة :

ظهران لا يبليغان المرء إن ركبنا باب السعادة : ظهر العجز ، والكسلُ

وفي اغتنام الأيام : من أضاع الفرصة ، تجرع الغصة . إن كان لك من الزمان شيء فالحال ، وما سواه فمُحال . تارك أمره إلى غد ، لا يُفْلح للأبد . الإنسان ابن ساعة ، فليحطها من إضاعته . التسويف سُمُّ الأعمال ، وعدو الكمال . لم يُحرم المبادر ، إلا في النادر . ما درجت أفرأخ ذلّ إلا من وكر طماعه ، ولا بسقت فروع ندم إلا من جرثومة إضاعته . العزم سوق ، والتاجر الجسور مرزوق . من وثق بعهد الزمان ، علقت يده بجبل الحرمان . الربح في ضمن الجسارة ، والمضيق أولى بالجسارة .

ومن أمثالهم - في نظر الإنسان لنفسه ، قبل غروب شمسهِ - قولهم : اعلم أن كلّ حكيم صانع إذا فكر في أمره ونظر في العواقب علم أنه لا بد يوماً أن يخرب دكانه الذي هو محل بضاعته ، وتنحل أنقاضه ، وتكل أدواته ، وتضعف قوته ، وتذهب أيام شبابه ، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان ، واستغنى عن السعي ، فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر ، ولا إلى أدوات مجددة ، فليتجر بما اقتناه ويشغل بالانتفاع والالتذاذ بما كسبت يده ، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد ، فبادر واجتهد واحرص واستعجل ، وتروّد قبل

خراب دكانك وهدم بنيته ، فإن خير الزاد التقوى ، قال حسّان^١ :

إذا أنتَ لم ترحل بزاد من التقي وأبصرت بعد اليوم من قد تزودا
ندمتَ على أن لا تكون كمثلهِ ولم تتَرصد مثلَ ما كان أرصدَا

قال أبو الفرج ابن الطيب البغدادي^٢ في اغتنام الوقت في كتابه « في السياسة والآراء الفاضلة » : يجب أن تعيد وتمثل ، فإن الفكر مضطرب متشوش بكثرة نوازع النفس واختلاف قواها ، والعمى في بعض الأوقات ، فإذا سنع للنفس وقتاً فاضل بصفاء جوهرها ، وأبرمت قانوناً أو صورة متوسطة فاضلة ، يجب أن يقيد بذلك وقت سعد ربما لا يعاود أو يعاود ؛ انتهى .

٧٦ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ الموحدين بتونس ابن تافراجين ، يخبره بالتمحيص الجاري عليه ، ونصّه : « من أمير المسلمين أيده الله ونصره ، وأعلى أمره وأظهره ، إلى ولينا في الله تعالى الذي له القدام الرفيع المناصب ، والمجد السامي الذوايب ، والسياسة التي أخبارها سمّر الركبان وحدّو الركائب ، الشيخ الجليل الكبير ، الشهير الخطير ، الهمام الأمضى ، الرفيع الأعلى ، الأجد الأوحد ، الأسعد الأصعد ، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل الأرضي الأنقى المعظم الموقر المبرور ، علّم الأعلام ، سلالة أكابر أصحاب الإمام ، معيد دولة التوحيد إلى الانتظام ، أبي محمد عبد الله ابن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الأسعد

١ كذا والمشهور أن هذين البيتين من قصيدة الأعشى التي نظمها في مدح الرسول وحالت قريش بينه وبين الوفاة عليه ، ومطلها « ألم تفتض عينك ليلة أرمدا » .

٢ أبو الفرج عبد الله بن الطيب عراقي فيلسوف اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق والحكمة من تأليف أرسطوطاليس وكتب جالينوس الطبية (قيل توفي سنة ٤٣٥) ومن تلامذته ابن بطلان (القفطي : ٢٢٣ ، وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٣٩) .

الأجد الحسيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكل المعظم المقدس^١ المرحوم
أبي العباس تافراجين ، وصلّ الله تعالى له عزة تناسب شهرة فضله ؛ وسعادة
تتكفل له في الدارين برفعة محله : سلام كريم يخص مجادتكم الفاضلة ، ورتبتكم
الحافلة ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

« أمّا بعدَ حمدِ الذي يُمَحِّصُ ليشيب ، ويأمر بالاستقالة ليُجيب ،
ويُعقِبَ ليلَ الشدة بصبح الفرج القريب ، وينجي من شجر التوكل عليه ،
والتسليم إليه ، ثمر الصنع العجيب ، ويظهر العبر مهما كسر ثم جبر لكل ذي
قلب منيب ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي نلجأ إلى ظل شفاعته
في اليوم العَصيب ، ونستظهر بجاهه على جهاد عبدة الصليب ، ونستكثر عدد
بركاته في هذا الثغر الغريب ، ونصول منه على العدو بالحبيب ، والرضى عن
آله وصحبه نجوم الهداية من بعد الأمانة من الأفول والمغيب ، فإنّا كتبناه
إليكم - كتب الله لكم عزة متصلة ، وعصمة بالأمان من نوب الزمان متكفلة -
من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى ، ولا زائد بفضل الله تعالى الذي لطف
وجبر ، وأظهر في الإقالة وحسن الإدالة العبر ، ممن كتب الله تعالى له العقبي
لما صبر ، إلا الخبر الذي كسا الأعطاف الخبر ، والصنع الذي صدق خبره
الخبر ، والحمد لله تعالى كثيراً كما هو أهله فلا فضل إلا فضله ، ولمكانتكم
عندنا المحل الذي قررت شهرة فضلكم قواعده ، وأعلت مصاعده ، وأثبت التواتر
شواهد ، إذ لا نزال نتحف بسيركم التي في التدبيرات تفتقى ، وعلم يسترشد به
إذا العلم اختفى ، والسبيل عفا ، وإن تلك الدولة بكم استقام أودها ، وقامت
والحمد لله عمدها ، وإنكم رعيتم في البنين حقوق آبائنا ، وحفظتم عليها ميراث
عليائها ، ولو لم تتصل بنا أنباؤكم الحميدة ، وآراؤكم السديدة ، بما يفيد العلم
بفضل ذاتكم ، ويغري قوى الاستحسان بصفاتكم ، لغبطنا بمخاطبتكم

١ ق : القدوة .

ومفاتيحتكم ، ما نجدُهُ من الميل لكم طبعاً وجبيلةً ، من غير أن نعتبر سبباً أو علةً ، فالتعارف بين الأرواح لا يُنكر ، والحديث الكريم يؤيد من ذلك ما يُنقل ويُذكر^١ .

«وبحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به في ملكنا القدر ، وحيث بلغ الورد وكيف كان الصّدْر ، وربما اتصلت بكم الحادثة التي أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذياً ، ولا برح في جوانب إحسانها رائحاً وغادياً ، يتيم حجرتها الكافل ، ورضيع درّها الحافل ، الشقي الخاسر ، الخائن الغادر ، محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره ، الخفية عنا حيلُ مكره لحمول قدره ، إذ دعاه محتومُ الحين ليهلك إلى أن يهلك ، وسوّلت له نفسه الأمانة بالسوء أن يُملك أخانا الخاسر ثم يملك ، وسبحان الذي يقول ﴿يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (هود : ٤٦) ، وكيف تم له ما أبرمه من تسوّر الأسوار ، واقتحام البوّار ، وتملك الدار ، والاستيلاء على قطب المدار ، وأتانا كتنفتنا عصمة الله تعالى بمتحولنا الذي كان به ليلتذ محل ثواننا ، وكفّت القدرة الإلهية أكف أعدائنا ، وخلصنا غلاباً بحال انفراد إلاّ من عناية [الله] ونعم الرفيق ، وصدق اللّجاء إلى رحمة الله تعالى التي ساحتها عن مثلنا لا تضيق ، مهما تنكر الزمان أو تفرق الفريق ، وشرذمة الغدر تأخذ علينا كلّ فج عميق ، حتى أويئنا من مدينة وادي آش إلى الجبل العاصم ، والحجة المرغمة أنف المخاصم ، ثم أجزنا البحر بعد معاناة خطوب ، وتجهم من الدهر وقطوب ، وبلا الله هذا الوطنَ بمن لا يرجو لله وقاراً ، ولا يألو شعائره المعظمة احتقاراً ، فأضرمه ناراً ، وجلّل وجوهه خزيّاً وعاراً ، حتى هتك الباطل حِمَاه ، وغير اسمه ومُسمّاه ، وبدّد حاميته المتخيرة وشدّ بها ، وسخّم دواوينه التي حصّها الترتيب والتجريب وهذبها ، وأهلك نفوسها وأموالها ، وأساء لولا

١ يشير إلى الحديث «الأرواح جنود مجنّدة ما تعارف منها ائتلف . . . إلخ» .

٢ ق : فهما .

تَدَارِكُ اللهُ تَعَالَى أَحْوَالَهَا .

«ولمَّا تَأَذَّنْ جَلْ جَلَالِهِ فِي إِقَالَةِ الْعِثَارِ ، وَدَرَكِ الثَّارِ ، وَأَنْشَأَتْ نَوَاسِمَ رِضَاهِ إِدَامَةَ الْإِسْتِغْفَارِ ، وَرَأَيْنَا قِلَادَةَ الْإِسْلَامِ قَدْ أَنْتَارَهَا ، وَالْمَلَّةَ الْحَنِيفِيَّةَ كَادَتْ تَذْهَبُ آثَارَهَا ، وَمَسَائِلَ الْخِلَافِ يَتَعَدَّدُ مُثَارَهَا ، وَجَعَلَتْ الْمَلْتَانَ نَحُونًا تَشِيرُ ، وَالْمَلِكُ يَأْمَلُ أَنْ يُوَافِيَهُ بِقُدُومِنَا الْبَشِيرِ ، نَحْرُكْنَا حَرَكَةَ خَفِيفَةَ تَشْعُرُ أَنَّهَا حَرَكَةُ الْفَتْحِ ، وَنَهْضُنَا نَبْتِدِرُ مَا كَتَبَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الْمَنْحِ ، وَقَدْ اِمْتَعَضَ لَنَا الْكُؤُنُ بِمَا حَمَلُ ، وَاسْتَحْدَمَ الْفُلُكُ نَفْسَهُ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى وَاكْتَمَلَ ، وَكَادَ يَقْرُبُ لِقْرَى ضَيْفِنَا الثَّوْرُ وَالْحَمَلُ ، وَظَاهَرْنَا مَحَلُّ أَيْخِنَا السُّلْطَانَ الْكَبِيرِ الرَّفِيعِ الْمُعْظَمِ الْمُقَدَّسِ أَبِي سَالِمِ الَّذِي كَانَ وَطَنُهُ مَأْوَى الْجَنُوحِ ، وَمَهَبَّ النَّصْرَ الْمُنُوحَ - رَحْمَةُ اللهِ تَعَالَى عَلَيْهِ - مَظَاهِرَةَ مِثْلِهِ مِنَ الْمُلُوكِ الْأَعَظَمِ ، وَخَمَّ الْجَمِيلَ بِالْجَمِيلِ وَالْأَعْمَالَ بِالْحَوَاتِمِ ، وَأَنْفَ حَتَّى عَدُوِّ الدِّينِ لِنَعْمَتِنَا الْمَكْفُورَةِ ، وَحَقُوقِنَا الْمَحْجُوبَةِ الْمُسْتَوْرَةِ ، فَأَصْبَحَ بَعْدَ الْعَدُوِّ حَبِيبًا ، وَعَادَ بَعْدَ الْإِيَابَةِ مُنِيبًا ، وَسَخَّرَ أَسَاطِيلَهُ تَحْضِيضًا عَلَى الْإِجَازَةِ وَتَرْغِيبًا ، وَاسْتَقْبَلْنَا الْبِلَادَ وَبَحْرَ الْبَشْرِ يَزْخَرُ مَوْجُهُ ، وَمَلِكُ الْإِسْلَامِ قَدْ خَرَّ عَلَى الْحَضِيضِ أَوْجُهُ ، وَالرُّومُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَى الثُّغُورِ ، وَقَدْ سَاءَتْ ظُنُونُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْعَقْبِيِّ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ، وَالْحَيْثُ الْغَادِرُ الَّذِي كَانَ يَمُوهَ بِالْإِقْدَامِ قَدْ ظَهَرَ كَذِبَ دَعْوَاهِ ، وَهَانَ مَشْوَاهِ ، وَتَوَرَّطَ فِي أَشْرَاكِ الْمُنْدَمَةِ تَوَرَّطَ مِثْلَهُ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهِ ، وَجَحَدَ نِعْمَةَ مَوْلَاهِ ، فَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ ، عَزَّ وَجَلَّ ، تَدَارَكَ جَزِيرَةَ الْأَنْدَلُسِ بِرُكَابِنَا ، وَعَاجَلَ أَوَارَهَا بِأَنْسَاكَابِنَا ، لَكَانَتْ الْقَاضِيَّةُ ، وَلَمْ تَرَهَا مِنْ بَعْدِ تِلْكَ الرِّيحِ الْعَقِيمِ مِنْ بَاقِيَةٍ ، لَكِنَّا وَالْفَضْلُ لِلَّهِ تَعَالَى رَفَعْنَا عَنْهَا وَطَاءَةَ الْعَدُوِّ وَقَدْ نَاءَ بِكُلِّكُلِّ ، وَابْتَرَزْنَاهُ مِنْهَا أَيَّ مَشْرَبٍ وَمَأْكَلٍ ، وَاعْتَرَزْنَا عَلَيْهِ بِاللَّهِ تَعَالَى الَّذِي يَعْزُ وَيَذَلُّ ، وَيَهْدِي وَيَضِلُّ ، فَلَمْ نَسَاحِهِ فِي شَرْطٍ يَجْرُ غَضَاضَةً ، وَلَا يَحْلُفُ فِي الْقُلُوبِ مَضَاضَةً ، وَخُضْنَا بِحَرِّ الْهَوْلِ ، وَبَرَّثْنَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى رَبَّنَا عَنِ الْقُوَّةِ وَالْحَوْلِ ، وَظَهَرَتْ لِلْمُسْلِمِينَ ثَمَرَةُ سَرِيرَتِنَا ، وَمَا بَدَلْنَا فِي مِصَانَعَةِ

العدوّ عن الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا ، فقويت فينا أطماعهم ، وانعدت
على التحرّم بنا إجماعهم .

« وقصدنا مالقة بعد أن انثالت الجهة الغربية ، وأذعنت المعافل الأبيّة ،
فيسّر الله تعالى فتحها ، وهياً منحها ، ثمّ توالّت البيّعات ، وصرخت بمآذن
البلاد الدّعاة ، واضطرب أمر الخائن وقد دلفت المخاوف إليه ، وحسب كلّ
صيّحة عليه ، فاقتضت نعامته الشائلة ، ودولة بغية الزائلة ، وآراؤه الفائلة ، أن
ضم ما أمكنه من ذخيرة مكنونة ، وآلة للملك مَصُونَة ، واستركب أوباشه الذين
استباح الحقّ دماءهم ، وعرف الخلق اعتزاهم للغدر وانتماءهم ، وقصد
سلطان قسّتالة من غير عهد ولا وثيقة ، ولا مثلى طريقة ، ولا شيمة بالرّعني
خليقة ، لكن الله ، عزّ وجل ، حمّله على قدمه ، لإراقة دمه ، وزين الوجود
بعدمه ، فلحّين قدومه عليه راجياً أن يستفّزه بعرض ، أو يحيل صحة عقده
المبرم إلى مرّض ، ومؤملاً هو وشيعته الغادرة كرّة على الإسلام مُجهّزة ،
ونصرة لمواعيد الشيطان مُنجزة ، تقبّض عليه وعلى شيعته ، وصمّ عن سماع
خديعته ، وأفحش بهم المثلة ، وأساء بحسن رأيه فيهم القِتلة ، فأراح الله تعالى
بإبادتهم نفوس العباد ، وأحيا بهلاكهم أرواق البلاد .

« وحشّنا السير إلى دار ملكنا فدخّلناها في اليوم الأغر المعجّل ، وحصلنا
منها على الفتح الإلهي المعجّل ، وعدنا إلى الأريكة التي بنا بنا عنها التمحيصُ
فما حسباه إلاّ سراراً أعقبه الكمال ، ومرضاً عاجله الإبلال ، فثابت للدين
الآمال ، ونجحت الأعمال ، وبذلنا في الناس من العفو ما غفّر الذنوب ، وجبر
القلوب ، وأشعنا العفو في القريب والقصيّ ، وألبسنا المريب ثوب البريّ ،
وتألّقنا الشارد ، وأعذبنا الموارد ، وأجرينا العوائد ، وأسئنا الفوائد ، إلا
ما كان من شردمة عظمت جرّائهم ، وخبّثت في معاملة الله تعالى سرائرهم ،
وعُرف شوْمهم ، وصدق من يَلُومهم ، فأقصيناهم وشرّدناهم ، وأجلّيناهم

عن هذا الوطن الجهادي وأبعدناهم .

« ولما تعرّف سلطان قشتالة باستقلالنا ، واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا ،
بادر يُعرّف بما كان من عمله فيمن لَحِقَ به من طائفة الغدر ، وإخوان
الخدیعة والمكر ، وبعث إلینا برؤوسهم ، ما بین رئیسهم الشقيّ ومرؤوسهم ، وقد
طفوا على جدّ أول السیوف حبّابُها ، وراق بجنّاء الدماء خِصابها ، وبرز الناسُ إلى
مشاهدتها معتبرین ، وفي قدرة الله تعالى مستبصرین ، ولدفاع الناس بعضهم ببعض
شاكِرین ، وأحقّ الله تعالى الحقّ بكلماته وقطّع دابر الكافرین ، فأمرنا بنصب
تلك الرؤوس بمسورِ الغدر الذي فرعته ، وجعلناها علماً على عاتق العمل السیئ
الذي اخترعته ، وشرعنا في مُعالجة العلم ، وأفضنا على العباد والبلاد حُكْمَ
السلم ، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله ، وسكن هذا الوطن بعد زلزاله ،
وأفاق من أهواله .

« ولعلمنا بفضلکم الذي قضایاه شائعة ، ومُقدّماته ذاتعة ، أخبرنا کم به على
اختصار ، واجتزاء واقتصار ، لیسر دینکم المتین بتماسك هذا الثغر الأقصى
بعد استرساله ، وإشرافه على سوء مآله ، وكنّا نخاطب محلّ أختینا السلطان الخلیل
المعظمّ الأسعد الأوحّد الخلیفة أمير المؤمنین أبي إسحاق ابن الخلیفة أمير المؤمنین
المعظمّ المقدس أبي یحیی ابن أبي بكر ابن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين
— وصَلَّ الله تعالى أسباب سعده وحرس أکناف مجده — لولا أنّنا تعرّفنا
کونه في هذه المدة مقيماً بغير تلك الحضرة التونسية ، فاجتزأنا بمخاطبة جهتکم
السنية ، وبین سلفنا وسلفکم من الود الراسخ البیان ، والکریم الأثر والعیان ،
ما يدعوا إلى أن یكون سببُ المخاطبة موصولاً ، وآخرة الود خیراً من الأولى ،
لکن الطريق جمّ العوائق ، والبحر مفروق البوائق ، وقبُول العذر بشواغل

١ ق : معروف .

القطر بالفضل لائق ، ومُرَادنا أن يتصل الودُّ ، ويتجدّد العهد ، والله عز وجل يتولى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه ، ويَجْمَع قلوبهم حيث كانوا على طاعة الله تعالى ورضوانه ، وهو سبحانه يُطِيل سعادتكُم ، ويحرس مجادتكُم ، ويُنتِج إدارتكم ، ويُسنِّي إرادتكم ، والسلام الكريم يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته .

٧٧ - ومن ثمره رحمه الله تعالى ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله ، وذلك قوله : « يا أيها الناس ، ضاعف الله تعالى بمزيد النعم سروركم ؛ وتكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم ؛ أبشركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم ، المترادفة بيمينه وسعادته نعمُ الله تعالى عليكم ، أمتع الله تعالى الإسلام ببقائه ، وأيده على أعدائه ، ونصره في أرضه بملائكة سمائه ، وأن الله تعالى فَتَحَ له الفتح المبين ، وأعزَّ بحركة جهاده الدين ، وبيّض وجه المؤمنين ، وأظفره باطريرة البلد الذي فجع المسلمين بأسرهم فجيرةٌ تثير الحمية ، وتحرك الأنفس الأبية ، فانتقم الله تعالى منهم على يده ، وبلغه من استئصالهم غاية مقصده ، فَصَدَّقَ من الله تعالى لأوليائه وعلى أعدائه الوعدُ والوعيد ، وحكم بإبادتهم المبدئ المعيد ﴿ وكذلك أخذُ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ؛ إنَّ أخذَه أليمٌ شديدٌ ﴾ (هود : ١٠٢) وتحصّل من سببه بعدما رويت السيوف من دماهم آلاف عديدة ، لم يُسمع بمثها في المدد المديدة ، والعهود البعيدة ، ولم يُصب من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذكر ، ولا رجل يُعتبر ، فتح هني ، وصنع سني ، ولطف خفي ، ووعد وفي ، فاستبشروا بفضل الله تعالى ونعمته ، وقِفُوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته ، وقابلوا نِعْمَه بالشكر يزدكم ، واستبصروا في الدفاع عن دينكم ينصركم ويؤيدكم ، واغبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تعدموا من الله تعالى معها عيشاً خصيباً ، ولا رأياً مُصيباً ، ولا نصراً عزيزاً ولا فتحاً قريباً ، وتضرعوا في بقائها ، ونصّر لوائها ، إلى مَنْ لم يزل سميعاً للدعاء مجيباً ، والله عز وجل

يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة ، ولا يعدمكم ولا أولي الأمر منكم توفيقاً وسعادة ، والسلام الكريم يخصصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته من مُبْلِغ ذلك فلان « انتهى .

٧٨ - ومن نثر لسان الدين - رحمه الله تعالى - ما أنشأه عن سلطانه الغني بالله تعالى - حين وصله ابنه الذي كان بفاس - يخاطب سلطان فاس ، ما نصّه : « المقام الذي تقلّد نافلة الفضل شَفَعاً ، وجود سورة الكمال إفراداً وجمَعاً ، واستولى وجمَع ببرّه المنع ، والتهنئة والفتح ، فأحرز أصلاً وفرعاً ، واستحق الشكر عقلاً وشرعاً ، وأغرى أيدي جوده ، بالقصد الذي هو حظّ وليه من وجوده ، فأثار من جيش اللقاء نَقْعاً ، ووسّط به جمَعاً ، مقام محلّ أخينا الذي أقلام مقاصده درّبة بحسن التوقيع ، وعيون فضله مُدْكَاة لإحكام الصنيع ، وعدّبات فخره تهفو بذروة العلم المنيع ، ومكارمه تتفنن فيها مذاهب التنوع ، أبقاه الله تعالى وألسن فضله ناطقة ، وأقيسة سعدِه صادقة ، وألويته بالنصر العزيز خافقة ، وبضائع مكارمه في أسواق البر نافقة ، وعصائب التوفيق لركائب أغراضه موافقة ؛ السلطان الكذا ابن السلطان الكذا : سلام كريم ، طيب برّ عميم ، ينحسّ مقامكم الأعلى ، وطريقتكم المثلى ، وأخوتكم الفضلى ، ورحمة الله تعالى وبركاته ، مُجِلُّ قدركم ، وملتم برکم ، وموجب حمدكم وشكركم ، فلان .

« أمّا بعد حمد الله تعالى الذي جعل الشكر على المكرمات وقفاً ، ونهج منه بإزائها سيلاً لا تكتسب ولا تخفى ، وعقد بينه وبين المزيد سبباً وحلفاً ، وجعل المودة في ذاته ممّا يُقَرَّبُ إليه زُلْفَى ، مربح تجارة من قصد وجهه بعمله حتى يرى الشيء ضعفاً ، وناصر هذه الجزيرة من أوليائه الكرام السيرة بمن يوسعها فضلاً وعطفاً ، ومدني ثمار الآمال فتمتع بها اجتناء وقطفاً ، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي العربي الكريم ، الرؤوف الرحيم ،

الذي مدّه من الرحمة على الأمة سجّفاً ، وملاً قلوبها تعاطفاً وتعارفاً ولطفاً ،
القائل « مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ » ووعد مَنْ عامل الله تعالى بربح المقاصد
السنية ، وعداً لا يجد خُلُفًا ، والرضى عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده
للإسلام كَهْفًا ، وعلى أهله في الهواجر ظِلًّا ملتبساً ، غيوثُ الندى كلما
شامُوا سَمَاحًا وليوث العدى كلما شَهِدُوا زَحْفًا ، والدعاء لمقام أخوتكم
الأسعد بالنصر الذي يكف من عُدُوَانِ الكفر كَفًّا ، والمجد الذي لا يغادر
كتابهُ من المفاخر التي ترك الأول للآخر حَرَفًا ، وإلى هذا - أيدكم الله بنصر
من عنده ، وحكم للملكم الأسمى باتصال سعده ، وأنجز في ظهوره على من
عاند أمره سابقَ وعده - فَإِنَّا نقرر لدى مقامكم وإن كان الغنيّ بأصالة عَقْلِهِ ،
عن اجتلاء الشاهد ونَقْلِهِ ، وجلاء البيان وصَقْلِهِ ، أن الهدايا وإن لم تحلّ العَيْنُ منها
كما حلت ، أو تناولها الاستتزارُ فما نبهت في لحظ الاعتبار ولا جَلَّتْ ، أو كانت
زَيْفًا كلما أغري بها الاختبار قَلَّتْ ، لا بد أن تترك في النفوس مَيْلًا ، وأن
تستدعي من حسن الجزاء كَيْلًا ، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نَيْلًا ،
وأَيُّ دليل أوضح مَحَجَّةً ، وأبين حِجَّةً ، من قوله صلى الله عليه وسلم
« تهادوا تحابوا » من غير تبين مقدار ، ولا إعمال اعتبار ، ولا تفرقة بين
لحين ولا نُضار ؟ فكيف إذا كانت الهدية فليذة الكبد التي لا يلد العيش بعد
فراقها ، ولا تضيء ظلّم الجوانح إلا بطلوع شمسها وإشراقها ، وجمع الشمل
الذي هو أقصى آمال النفوس الآلفة ، والبواطن المصاحبة للحنين المحالفة ، لا سيما
إذا اقتعدت محلّ الهناء ، بالفتح الرائق السناء ، وحقّت بها من خلفها وأمامها
صنائع البر وقوامة الاعتناء ، فهنالكَ تفخر ألسن الثناء ، وتتطابق أعلام الشكر
السامية البناء .

« وإِنَّا ورد علينا كتابُكم الذي سَطَّره البر وأَمَله ، وكَنَفَه اللَّحْظُ
وتَوَلَّاهُ ، ووَشَّحه البيانُ وحَلَّاهُ ، مهنئًا بما منح الله جلّ جلاله من رد الحق ،
وتعيين الجمع ورفع الفرق ، وتطويق الأمان وأمان الطوق ، وإسعاد السعد ،

وبلوغ القصد ، وقطع دابر من جحد نعمة الأب والجد ، وسل سيف البغي
 دامي الحد ، والحمد لله تعالى حمداً يلهمه ويتيح له ، ونسأله إمداداً يسوغه ويبيحه ،
 على أن أحسن العُقْبِي وأعقب الحسنى ، وأرى النعم بين فرادى ومثني ،
 وجمع الشمل الذي قد تبدد ، وجدد رسم السعادة لهذا القطر فتجدد ، وأخذ
 الظالم فلم يجد من مَحِيص ، وجمع لنا الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص ،
 وقلد برؤوس الفَجْرَةِ الغدرة الفرضة التي قرعوها ، وأطفأ بمُرَاقِ دمائهم
 نارَ الضلالة التي شرعوها ، وكتب لقبيلكم الفضل الذي يُحمد ويُشكر ، والحق
 الذي لا يُجحد ولا يُنكر ، فلقد أوى لما تبرأت الخُلُصان ، وتحققى عندما
 تنكر الزمان ، وسبب الإدالة ، وطاوع الأصالة والجلالة ، حتى فرج الله تعالى
 الكُربة ، وآس الغربة ، وأقال العثرة وتقبل القرية ، له الحمد على آلائه ،
 وصلة نعمائه ، ملء أرضه وسماؤه .

« ووصل صحبتته الولد مكنوفاً بجناح اللطف ، ممهّداً له ببركتكم مهادُ
 العطف ، فبرزنا إلى تلقيه تنويهاً لهديتكم وإشادة ، وإبداء في برکم وإعادة ،
 وأرکبنا الجيش الذي آثرنا حين استقلالنا عرضه ، وقررنا بموجب الاستحقاق
 فرضه ، فبرز إلى الفضاء الأفصح حسن الترتيب ، سافراً عن المرأى العجيب ،
 ولولا الحنان الذي تجده النفوس للأبناء وتستشعره ، والشوق إلى اللقاء الذي
 لا يحده منصف ولا يُنكره ، لما شق علينا طول مقامه في حجرکم ، ولا ثواؤه
 لصق أريكة أمرکم ، فجوارکم محل لاستفادة رسوم الإمارة ، وتعلم السياسة
 والإدارة ، حتى يرد علينا يقدمُ كتيبة جهادکم ، ويقود إلينا طليعة نصرکم إيانا
 وإمدادکم ، فنحن الآن نشكر مقاصدکم التي اقتضى الكمال سياقها ، وزين
 المجد آفاقها ، وقدّرها فأحكم طباقها ، ونقرر لديکم أن حظنا من ودادکم ،
 ومحلنا من جميل اعتقادکم ، حظُّ بان رجحانه وفضلُه ، ولم يتأت بين من
 سلف من السلف مثله ، من الصحبة في المنزل الحسین وهي الوسيلة ، وفي رعيتها

تظهرُ الفضيلة ، والاشتراك في لازم الوصول إلى الحق ، وضم أشتات الخلق ،
 والمودة الواضحة الطرق ، إلى ما بين السلف ، من الود الآمن بدْرُهُ من الكلف ،
 المذخورة أذِمَّتُهُ للخلف ، فإذا كانت المعاملة جارية على حسبه ، وشعبها راجعة
 إلى مذهبه ، جنى الإسلام ثمرة حافلة ، واستكفى الدينُ إيالة كافلة ، فالله ، عزَّ
 وجلَّ ، يمهّد البلاد بيمن تديبركم ، ويُجْري على مهَيِّع السدادِ جميعَ
 أموركم ، ويجعلكم ممّن زين الجهاد عواتق أعماله ، وكان رضى الله تعالى
 عنه أقصى آماله ، حتى تُرْبِي مآثركم على مآثر أسلافكم الذين عرف هذا الوطن
 الجهادي إمدادهم ، وشكر جهادهم ، وقبل الله تعالى فيه أموالهم وأولادهم ،
 وحَسَن من أجله معادهم .

« وقد حضر بين يدينا رسولكم الذي وجهتم الولد - أسعده الله تعالى - لنظره ،
 وتخيراتموه لصحبة سفره ، فلان ، وهو من الأمانة والفضل ، والرّجاحة والعقل ،
 بحيث طابق اختياركم ، واستحقَّ إثارتكم ، فأظن في تقرير ما لديكم من
 عناية بهذه الأوطان عينت الرد ، وضربت الوعد ، وأخلصت في سبيل الله تعالى
 القصد ، وغير ذلك ممّا يؤكد المودة المستقرة الأركان ، المؤسسة على التقوى
 والرضوان ، فأجبنه بأضعاف ذلك ممّا لدينا لكم ، وقابلنا بالثناء الجميل قولكم
 وعملكم ، والله تعالى يصل سعدكم ، ويحرُسُ مجدكم ، والسلام الكريم
 يخصكم ، ورحمة الله تعالى وبركاته . »

٧٩ - ومن ذلك ما كتبه - رحمه الله تعالى - على لسان الأمير سعد ابن
 سلطانه الغني بالله تعالى إليه وهو :

« مولاي ومولى كبيرى ومولى المسلمين ، ورحمتي المتكفلة بالسعد الراق
 الجين . يقبلُ قدَمكم التي جعل الله تعالى العزَّ في تقيلها ، والسعد في اتباع
 سبيلها ، عبْدُكم الصغير في سنه ، الكبير في خدمتكم وخدمة كبيره في حياتكم
 بفضل الله تعالى ومَنّته ، الهاشُّ لتمريرغ وجهه في كتابكم حسن الذراع ، المنبئة طباعه

عن العبودية الكامنة بالبِدار إلى ذلك والإسراع ، عبدكم وولدكم سعد ، كتبه من بابكم ، المحوط بعز أمركم ، المتحف إن شاء الله تعالى بأبناء نصركم ، وقد وصل إلى عبدكم تشريفكم السابغ الحلل ، وتنويهكم المبلغ غايات الأمل ، وخط يدكم الكريمة وغمامة رحمتكم الهامية الدائمة ، فيا له من عز أثبت لي الفخر في أبناء الملوك ، وسار بي من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج المسلوك ، قرّر من عافية مولاي وسعادته ، واقتران السعود حيث حل بوفادته ، ما تكفل ببلوغ الآمال ، وتم لسانُ الحال في شكر الله تعالى لسانَ المقال ، والله تعالى يديم أيام مولاي حتى يقوم بحق شكر النعم لسائته ، وتؤدي بعده جوارحه من الدفاع بين يدي سلطانه ما يسر به سلطانه ، وبعث جوابه منقولاً ليد حامله من يده ليهيئ تقبيل اليد الكريمة بحال تأكيد ، ويقرر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد ، ويعرف شمول نعمة الله تعالى ونعمته لمن ببابه من خدام وحرَم وعبيد ، ويمد يد الرغبة لمولاه في صلة الإنعام بتشريفه ، وإعلامه بتزايدات حركته وتعريفه ، ففي ضمن ذلك كلُّ عز مشيد ، وخير جديد ، وينتهي تحية أهل منزل مولاي على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه ، التي يأخذ منها كلُّ بحظه ، والسلام الكريم ورحمة الله تعالى وبركاته .

٨٠ - وقال رحمه الله تعالى : ومن نثري ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من مالمقة ، وقد وصلتُ به إليه من المغرب :

« مولاي الذي رضى الله تعالى مقرون برضاه ، والنَّجْحُ مُسَبَّبٌ عن نيته ودُعاه ، وطاعته مرتبطة بطاعة الله ، أبقى الله تعالى عليَّ بكم ظلَّ رحماه ، وغمام نعماه ، وزادني من مواهبه هداية في توفية حقه الكبير فإن الهدى هدى الله : يقبل مواطئ أقدامكم التي ثراها شرفُ الخلود وفخر الحياه ، ويقرر من عبوديته ما يسجل الحق مقتضاه ، ويسلم على مثابة رحمتكم السلام الذي يحبه الله تعالى ويرضاه ، ولدكم وعبدكم يوسف ، من منزل تأييدكم

بظاهر مالقة، حرسها الله، والوجود ألسنٌ بالعزّ بالله ناطقة، والأعلام والشجر
ألويةٌ بالسعد خافقة، وأنواع التوفيق متوافقة، وصنائع اللطيف الحبير
مصاحبة مرافقة.

«وقد وصل يا مولاي لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به عليّ مقامكم،
وجادت به سحائب إنعامكم، ولمن تحت حجة ستركم المسدول، وفي ظل
اهتمامكم الموصول، ولمن ارتسم بخدمة أبوابكم الشريفة من الخدام، وأولي
المراقبة والالتزام، ما يضيّق عنه بيانُ العبارة، ويفتضح فيه لسانُ القول والإشارة،
من عنايات سنية، ونعم باطنة وجلية، وملاحظة مولوية، ومقاصد ملكية، فما
شئت من قباب مذهبة، وملابس منتخبة، وأسرة مرتبة، ومحاسن لا مستورة
ولا محجبة، واللواء الذي نشرتم على عبدكم ظلّه الظليل، ومددتم عليه جناح العز
الجليل، جعله الله تعالى أسعد لواء يسير في خدمتكم، ومد عليّ وعليه لواء
حرمتمكم، حتى يكون لجهادي بين يديكم شاهداً، وبالنصر العزيز والفتح
المبين عليكم عائداً، ولطائفة الخلوص لأمركم قائداً، ولأولياء بابكم هادياً
ولأعدائكم كائداً.

«واتفق يا مولاي أن كان عبدكم قد ركب مغتتماً برد اليوم، ومؤثراً للرياضة
في عقب النوم، والتف عليه الخدام، والأولياء الكرام، فلما عدنا تعرضت
لنا تلك العنايات المجلوة الصور، المتلوة السور، وقد حشر الناس، وحضرت
منهم الأجناس، فعلا الدعا، وانتشر الثنا، وراقت الأبصار تلك المهمة
العليا، فنسأل الله تعالى يا مولاي أن يكافئ مقامكم بالعز الذي لا يتبدل،
والنصر الذي يُستأنف ويُسْتَقْبَل، والسعد الذي مُحْكَمه لا يتأول، والعبد
ومن له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار، وارتياح لقرب
المزار:

وأبرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

« والعمل على تيسير الحركة متصل ، والدهر لأوامر السعد محتفل ، بفضل
الله تعالى ، والسلام على مقام مولاي مقام الشفقة والرحمة ، والمنّة والنعمة ،
ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

٨١ - ومن لإنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف المذكور مشيخة
الغزاة على لسان السلطان والده ما نصّه :

« هذا ظهير كريم فاتح بنشر الألوية والبُنود ، وقوَدِ العساكر والجنود ،
وأجال في ميدان الوجود ، جياذ البأس والجلود ، وأضفى ستر الحماية والوقاية
بالتهايم والنجود ، على الطائفين والعاكفين والرُكع السجود ، عقد للمعتمد به
عقد التشريف ، والقدر المنيف ، زاكي الشهود ، وأوجب المنافسة بين مجالس
السروج ومضاجع المهود ، وبشر السيوف في الغمُود ، وأنشأ ریح النصر آمنة
من الحمود ، أمضى أحكامه ، وأهد العزّ أمامه ، وفتح من زهر السرور والحبور
كامه ، أمير المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا
أمير المسلمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر - أيد الله تعالى أمره وخلد ذكره -
لكبير ولده ، وسابق أمده ، وريحانة خلدّه ، وياقوتة الملك على يده ، الأمير
الكبير الطاهر الظاهر الأعلى ، واسطة السلك ، وهلال سماء الملك ، ومصباح
الظلم الحلك ، ومظنة العناية الأزلية من مدير الفلك ومجري الفلك ، عنوان سعده ،
وحسام نصره وعضده ، وسَمِيّ جده ، وسلالة فضله ومجده ، السعيد المظفر
الهمام الأعلى الأمضى ، العالم العامل الأرضى ، المجاهد المؤمل المعظم أبي الحجاج
يوسف ، ألبسه الله تعالى من رضاه عنه حللاً لا تخلق جدتها الأيام ، ولا
تبلغ كنهها الأفهام ، وبلغه في خدمته المبالغ التي يُسرُّ بها الإسلام ، وتسبّح
في بحار صنائعها الأفلام ، وحرّس معاليها الباهرة بعينه التي لا تنام ، وكفنه
بركته الذي لا يُضام ، فهو الفرع الذي جرى بخصله على أصله ، وارتسم
نصره في نصله ، واشتمل حده على فصله ، وشهدت ألسن خلاله ، برفعة

جلاله ، وظهرت دلائلُ سعادته ، في بدء كل أمر وإعادته ، لماً صرف وجهه إلى ترشيحه ، لافتراع هضاب المجد البعيد المدى وتوشیحه ، بالصبر والحلم والبأس والندی ، وأرهدف منه سيفاً من سيوف الله تعالى لضرب هام العدا ، وأطلعه في سماء الملك بَدَرَ هُدَى ، لمن راح وغدَا ، وأخذَه بالآداب التي تقيم من النفوس أودا ، وتبذر في اليوم فتجني غدا ، ورفاه في رتب المعالي طوراً فطوراً ، ترقى النبات ورقاً ونوراً ، ليجده بحول الله تعالى يداً باطشة بأعدائه ، ولساناً مُجيباً عند ندائه ، وطرزاً على حُلَّة علالته ، وغماماً من غمام آلائه ، وكوكباً وهاجاً بسَمائه ، وعقد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده ، قبل أن ينتقل عن مهده ، وظلَّه بجناح رايته ، وهو على كَتيدِ دابته ، واستركب جيش الإسلام ترحيباً بوفادته ، وتنوياً بمجادته ، وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم سعادته ، رأى^١ أن يزيده من عنايته ضروباً وأجناساً ، ويتبع أثره ناساً فناساً ، قد اختلفوا لساناً ولباساً ، واتفقوا ابتغاء لمرضاة الله والتماساً ، ممن كرم انتماؤه ، وزُينت بالحسب العد سماءه ، وعُرف غناؤه ، وتأسس على المجادة بناؤه ، حتى لا يدع من العناية فناً إلاّ وجكبه إليه ، ولا مقادة فخر إلاّ جعلها في يديه ، ولا حُلَّةَ عزّ إلاّ أضفى ملابسها عليه .

و [لما] كان جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية - أمن الله سبحانه خلاها ، وسكن زلزالها ، وصدق في رحمة الله تعالى التي وسعت كل شيء آمالها - كلفَ همته ، ومرعى ذمته ، وميدان اجتهاده ، ومتملق أمل جهاده ، ومعرج إرادته ، إلى تحصيل سعادته ، وسبيل خلاه ، إلى بلوغ كماله ، فلم يدع له علة إلاّ أزاحها ، ولا طلبية إلاّ أجال قِداحها ، ولا عزيمة إلاّ أورى اقتداحها ، ولا رغبة إلاّ فسح ساحها ، آخذاً مُدوّنته بالتهذيب ، ومصافه بالترتيب ، وآماله بالتقريب ، محسناً في تلقّي الغريب ،

١ هذا جواب «لما» في السطر الأول اعلاه .

وتأنيس المريب ، مستنجزاً له وبه وعد النصر العزيز والفتح القريب ، ورفع عنه لهذا العهد نظر مَنْ حَكَمَ الأغراض في حُماته ، واستشعر عروق الحسائف لتشذيب كمامته ، واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته ، وجلب حياته ، وتممير ماله وتوفير أوقاته ، ذاهباً أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته ، فانفرج الضيق ، وخلص إلى حسن نظره الطريق ، وساغ الريق ، ورضي الفريق ، رأى - والله الكفيل لنجح رأيه ، وشكر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه - أن يجهد لهم اختياره ، ويحسن لديهم آثاره ، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده ، وأبطال جلاده ، وحماة أحوازه ، وآلات اعتزازه ، مَنْ يجري مَجْرَى نفسه النفيسة في كل مَبْنَى ، ويكون له لفظ الولاية وله - أيده الله تعالى - المعنى ، فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب ، ومقادة الجنائب ، وأجمّة الأبطال ، ومزنة الودقِ المَطال ، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نساء الملوك الكرام ، وأعلام الإسلام ، وسائر قبائل بني مَرين ، ليوث العَرين ، وغيرهم من أصناف القبائل ، وأولي الوسائل ، ليعوط جماعتهم ، ويعرف بتفقدته إطاعتهم ، ويستخلص لله تعالى ولأبيه - أيده الله تعالى - طاعتهم ، ويشرف بإمارته مواكبهم ، ويزين بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم ، تقديماً أشرق له وجه الدين الخنيف وتَهْلل ، وأحسن باقتراب ما أمَل ، فلكخيل اختيال ومَرآح ، وللأسل السُمُر اهتزاز وارتياح ، وللصدور انشراح ، وللآمال مَغْدَى في فضل الله تعالى ورواح .

« فليتول ذلك - أسعده الله تعالى - تولى مثله ممن أسرة الملك أسرته ، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه أسوته ، والملك الكريم أصل لفرعه ، والنسب العربي منجد لطيب طبعه ، آخذاً أشرافهم بترفيح المجالس بنسبة أقدارهم ، مُغْرِباً حسن اللقَاء بليثارهم ، شاكراً غنائهم ، مستدعياً ثنائهم ، مستدرأً لأرزاقهم ، موجباً المزية بحسب استحقاقهم ، شافعاً لديه في رغباتهم المؤمّلة ، ووسائلهم المتحمّلة ، مسهلاً الإذن لو فودهم المتلاحقة ، منفقاً لبضائعهم النافقة ،

مؤنساً لغرمائهم ، مستجلباً أحوال أهليهم وآبائهم ، مميّزاً بين أغفالمهم ونبهائهم .
« وعلى جماعتهم - رعى الله تعالى جهادهم ، ووفر أعدادهم - أن يطيعوه
في طاعة الله تعالى وطاعة أبيه ، ويكونوا يداً واحدة على دفاع أعداء الله تعالى
وأعدائه ، ويشدوا في مواقف الكريمة أزره ، ويمثلوا نهيه وأمره ، حتى يعظم
الانتفاع ، ويشور الدفاع ، ويخلص المِصال لله تعالى والمِصاع ، فلو وجد - أيده
الله تعالى - غايةً في تشريفهم لبلغها ، أو موهبة لسوَّغها ، لكن ما بعد ولده
العزیز عليه مذهب ، ولا وراء مباشرتهم بنفسه معزَّب ، والله تعالى منجج
الأعمال ، ومبلغ الآمال ، والكفيل بسعادة المال .

« فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمنه من أمر مطاع ،
وفخر مستند إلى إجماع ، ووجوب اتباع ، وليكن خير مرعِيٍّ لخير راع ،
بحول الله تعالى .

« وأقطعته - أيده الله تعالى - ليكون بعض المواد لأزواد سفره ، وسماط
تفَرّه ، في جملة ما أولاه من نعمه ، وسوَّغه من موارد كرمه ، جميع القرية
المنسوبة إلى عرب عِنان ، وهي المحلة الأثيرة ، والمنزلة الشهيرة ، تنطلق عليها
أيدي خُدّامه ورجاله ، جارية مجرى صريح ماله ، محررة من كل وظيفة
لاستغلاله ، إن شاء الله تعالى ، فهو المستعان سبحانه ، وكتب في كذا » انتهى .

٨٢ - وكتب لسان الدين - رحمه الله تعالى - في شأن تقليد الأمير سعد

أخي المذكور الأصغر منه سنّاً ما صورته :

« هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة ظهيراً ، وعقّد منه في سبيل الله تعالى
لواء منصوراً ، وأعطى المعتمد به باليُمن كتاباً منشوراً ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ
مَحْظُوراً ﴾ (الإسراء : ٢٠) وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهر سُفوراً ، ويسطع
نوراً ، وأقر عيوناً للمسلمين وشرح صدوراً ، ووعد الأهلة أن تصير بإمداد
شمس الهدى إياها بدوراً ، وبشر الإسلام بالنصر المنتظر ، والفتح الرائق الغرر ،

مواسط وثغوراً ، وأتبع حماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعد بها أمراً
 وأكريم بها مأموراً ، أمر به ، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه ، أمير المسلمين
 عبد الله محمد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الحجاج ابن أمير
 المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين أبي الوليد ابن فرج بن نصر ، أعلى الله
 تعالى رايته وسدد رأيه ، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ، لقرّة عينه ، ومقتضى
 حقه من العدو ودّينيه ، وغصن دوحه ، وآية لّوحه ، ودرّة فلادته ،
 ودّرّي أفلاك مجادته ، وسيف نصره ، وهلال قصّره ، وزينة عصره ،
 ومتقبل هديه ورشده ، ومظنّة إشراق سعده ، وإنجاز وعده ، ولده الأسعد ،
 وسليل ملكه المؤيد ، الأمير الأجلّ الأعزّ الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى ،
 لابس أثواب رضاه ونعمته ، ومنحة الله لنصره وخدمته ، ومظهر عزّه وبعد
 همته ، التقى الرضيّ العالم العامل الماجد حامي الحمى تحت ظل طاعته ، وكافي
 الإسلام الذي يأمن من إضاعته ، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظّاً الشهر في يومه
 وحظ اليوم في ساعته ، الموقر المهيب المؤمل المعظم أبي النصر سعد عرفه الله
 تعالى ببركة سعد بن عبادة جده ، خال رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأعظم
 بمجده ، ووزيره في حلّه وعقده ، وأجنائه ثمرة النصر الذي كناه به ووصل
 سببه بسببه فما النصر إلا من عنده ، وأنتج له الفتح المبين من مقدمتي نصره
 وسعده ، لما صرف وجهه عنايته إليه في هذه البلاد الأندلسية التي خلص الله انفرادها
 وانقطاعها ، وتمحض - لأن تكون كلمة الله هي العليا - قيراعها ، وصدق
 مصلها في سبيله جلّ وعلا ومصاعها ، إلى ما يمهد أرجاءها ، ويحقق رجاءها ،
 من سلم يعقد ، ولا يعدم الحزم معه ولا يفقد ، وعطاء ينقد ، ورأي لا يتعقب
 ولا ينقد ، وحرّب تضمّر له الجياد ، ويعتقل الأسلّ المياد ، وكان الجيش
 روض أمله الذي في جنّاه يسرح ، ومرمى فكره الذي عنه لا يبرح ، فديوانه
 ديوان أمانيه الذي تسهب فيه وتشرح ، أسهمه من سياسته أوفى الحظوظ

وأَسْنَاهَا ، وقصرَ عليه لفظَ العناية ومعناها ، ووقف عليه موَّحَدَهَا ومَثْنَاهَا ،
فأزاح الله ، وأحيا أمله ، وأنشأ جَدَلَهُ ، ورفع عنه من لم يبذل الجَدَلَ له ،
ولا أَخْلَصَ لله فيه عمله .

« واختار لقيادة مقابله المنصورة ، وإمارة غزواته المبرورة ، أقرب الناس
إلى نفسه نَسَباً ، وأوصلهم به سَبَباً ، وأحقهم بالرتب المنيفة والمظاهر الشريفة ،
ذاتاً وأباً ، وحاداً وشياً ، وأمره على أشرافه ، ودل به الأنفال على أعرافه ،
وصرف إليه آماله ، واستعمل في أسنته يمينه وفي أعتته شماله ، وعقد عليه
ألويته الخافقة لعزة نصره ، ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنىً فهيأه لخصره ،
وأدار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره ، ونبه نفوس المسلمين على
جلالة قَدْرِهِ ، وقدمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الأشياخ من
أولاد يعقوب كبار بني مَرِّين ، وسائر قبائلهم المكرمين ، وغيرهم من القبائل
المحترمين ، ينوب عن أمره في عَرَضِ مسائلهم ، وقيرى وافدهم ، وإجراء
عوائدهم ، تقديماً تهلّل له الإسلام واستبشر ، وتيقن الظفرَ فاستبصر ، لما علم
بمن استنصر ، فليخلصوا له في طاعته الكبرى الطاعة ، وليعلقوا ببنان نداء بنان
الطماعة ، ويؤملوا على يديه نجاح الوسيلة إلى مقامه والشفاعة ، ويعلموا أن
اختصاصهم به هو العنوان على رَفْعِ محالهم لديه ، وعزة شأنهم عليه ، فلو وجد
هَضْبَةٌ أعلى لفرعها لهم وعلاها ، أو عزة أعز لجلاها ، أو قبيلة أزركى لصرف
وجوههم سَطْرَها وولاها ، حتى تجنى ثمرة هذا القصد ، وتعود بالسعد حركة
هذا الرصد ، وتعلو ذؤابة هذا المجد ، وتشهد بنصر الدين على يده السنة الغور
والنجد ، بفضل الله سبحانه .

« وعليه - أسعد الله الدولة باستعماله مكافحاً بأعلامها ، وزيناً لأيامها ، وسيفاً
في طاعة إمامها - أن يقدم منهم في مجلسه أهلَ التقديم ، ويقابل كرامهم بالتكريم ،
ويستدعي آراء مشايخهم في المشكلات في أمور الحرب ، ويغضي جفون عزائمهم
في موقف الصبر والضرب ، ويتفقدهم بإحسانه عند الغناء ، ويقابل حميد سعيهم

بالثناء ، على هذا يعتمد وبحسبه يعمل ، وهو الواجب الذي لا يُهمل ، وقصده
بالإعظام والإجلال ، والانتقاد الذي يعود بالآمال ، ويُنجح الأعمال ، بحول الله
تعالى متقبل ، وكتب في كذا « انتهى .

٨٣ - ومما اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سلا إلى
سلطانه الغني بالله تعالى ، وقد بلغه ما كان من صنع الله سبحانه له [وعودته إلى
سلطانه] :

« هنيئاً بما خولت من رفعة الشان
وأن خصك الرحمن جل جلاله
أغار على كرسيه بعض جنه
فلما رآها فتنة خراً ساجداً
وهب لي ملكاً بعدها ليس ينبغي
فأتاه لما أن أجاب دعاءه
وإن كان هذا الأمر في الدهر مفرداً
فقابل صنيع الله بالشكر واستعن
وحق الذي سماك باسم محمد
لما بلغ النعمى عليك سروره
فإني أنا العبد الصريح انتسابه
إذا كنت في عزٍ ومُلكٍ وغبطة
وإن كره الباغي وإن رغم الشاني
بمعجزة منسوبة لسليمان
فألقت له الدنيا مقالداً إذعان
وقال إلهي امنن علي بغفران
تقلده بعدي لإنس ولا جان
من العز ما لم يؤت يوماً لإنسان
فأنت له لما اقتديت به الثاني
به وأجز إحسان الإله بإحسان
لأن الصبا قد عاد منه بريعان
أليّة واف لا أليّة خوان
كما أنت مولاي العزيز وسلطاني
فقد نلت أوطاري وراجعت أوطاني

« مولاي الذي شأنه عجب ، والإيمان بعناية الله تعالى به قد وجب ، وعزه
أظهره من برداء العزة احتجب ، إذا كانت الغاية لا تدرك ، فأولى أن تسلّم
وتترك ، ومنة الله تعالى عليك ليست ممّا يشرح ، قد عقل العقل فما يبرح ، وقيد
اللسان فما يرتعي في مجال العبارة ولا يسرح ، اللهم ألهمنا على هذه النعمة شكراً

ترضاه ، وإمداداً من لدُنْكَ نتقاضاه ، يا الله يا الله . سعود أنارت بعد أفول
شهابها ، وحياة كَرَّتْ بعد ذهابها ، وأحباب اجتمعت بعد فراقها ، وأوطان
دَنَّتْ بعد بُعْدِ شامها من عراقها ، وأعداء أذهب الله تعالى رَسْمَ بغيهم
ومَحاه ، وبُغاة أدار عليهم الدهر رحاه ، وعباد أعطوا من كشف الغم ما
سألوه ، ونازحون لو سئَلُوا في إتاحة القرب بما في أرواقهم لبذلوه ، وسبحان
الذي يقول ﴿ ولو أننا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ
دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ ﴾ (النساء : ٦٦) فليهن الإسلامَ بياضُ وجهه بعد اسوداده ،
وتغلبَ إِيالة مَنْ لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر على بلاده ، وعودة الملك المظلوم
إلى معتاده ، واستواء الحق النائي جنبه فوق مهاده ، ورد الإرث المغصوب إلى
مستحقه عن آبائه وأجداده . والحمد لله الذي غسل عن وجه الأمة الحنيفية العار ،
وأنقذ عُهدتها وقد ملكها الذعار ، فرد المُعار ، وأعيد الشعار ، نحمدك اللهم
حمداً يليق بقدسك ، لا بل لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك .

« والعبد يا مولاي قد بهرت عقْلَه آلاء الله تعالى قبلك ، فالفكر جائل واللسان
ساكت ، والعقل ذاهل والطرف باهت ، فإن أقام رَسْمًا للمخاطبة فقلم مرح
وركض ، وطِرْسُ هز جناح الارتياح ونفض ، ليس هذا المَرَامَ ممّا يرام ،
ولا هذه العناية التي تحار فيها الأفهام ، ممّا تُصْنِي غرضه السَّهام ، فنسأل
الله تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين ، وبأحكام تقلبات الأيام من المعتبرين ،
حتى لا يغرّه السراب الخادع ، والدهر المرغم للأنوف الخادع ، ولا يرى في
الوجود غير الله من صانع ، ولا معطٍ ولا مانع ، ويمتعه بالعز الحديد ، ويوفقه
للنظر السديد ، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد ، والسلام » انتهى .

٨٤ - وممّا خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى أبا عبد الله ابن عمر

التونسي قوله :

« سيدي الذي عهدته لا يُنسى ، وذكره يُصْبِحُ في ترديده بالجميل ويُمسَى ،

أبقاكم الله تعالى تجلون من السعادة شمسا ، وتصرفون في طاعته لساناً فرداً وبناناً خمسا : وصلني كتابكم الأشعث الأغر ، ومقتضبيكم الذي أضغاثه لا تُعبر ، شاهدةً بعدم الاعتناء أوضاعه ، معدوماً إمتاعه ، قصيراً في التعريف بالحال المشوّف إليها باعه ، مضمناً الإحالة على خليّ من معناها ، غير ملتبس بموحدها ولا مثناها ، سألته كما يسأل المريضُ عمّاً عند الطبيب ، ويحرص الحبيبُ على تعرّف أحوال الحبيب ، فذكر أنه لم يتحمل غير تلك السحابة الغنية في الاختصار ، المجحفة بحظّي الأسماع والأبصار ، فهمتُ بالعتب ، على البخيل بالكتب ، ثم عذرت سيدي بما يعترني مثله من شواغل تطرق ، وخواطر تومض وتبرق ، وإذا كان آمناً سيرته ، مهناً سيرته ، فهو الأمل ، ويُفنع هذا المجمل ، وإن كان التفسير هو الأكل ، وما ثمّ ما يعمل ، وودّه في كل حال وده ، والله سبحانه بالتوفيق يمدّه ، والسلام .

وكانت للسان الدين رحمه الله تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة وأعيانها ، دلّت على قوة عارضته في البلاغة ، وقد ألعنا بجملة منها في هذا الكتاب في مواضع ولم نكثّر منها طلباً للاختصار أو التوسط بحسب ما اقتضاه الباعث في الحال ، والله سبحانه وتعالى يبلّغ الآمال ، ويزكي الأعمال .

٨٥ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج

يوسف بن نصر إلى سيد العالمين صلى الله عليه وسلم لإثر نظم ، ونص الكَل هو :

إذا فاتني ظلُّ الحمى ونعيمه	فحسبُ فؤادي أن يهَبَ نسيمه
ويُقنعني أني به متكتف	فزمزمه دمعِي ، وجسمي حطيمه
يعود فؤادي ذكرُ مَنْ سَكَنَ الغضا	فيُقعدُهُ فَوْقَ الغضا ويقيمهُ
ولم أرَ شيئاً كالنسيم إذا سرى	شفى سَقَمَ القَلْبِ المشوقِ سقيمهُ
نعللُ بالتذكارِ نفساً مشوقة	نديرُ عليها كأسه ونديمهُ

وما شفّيتي بالغور قد مرّح
ولا سهرت عيني لبرق نية
براني شوق للنبي محمد
ألا يا رسول الله ناداك ضارع
مشوق إذا ما الليل مدّ رواقه
إذا ما حديثك عنك جاءت به الصبا
أيجهر بالتجوى وأنت سمعها
وتعوزه السقيا ، وأنت غيائه
بنورك نور الله قد أشرق الهدى
لك أنهل فضل الله بالأرض ساكباً
ومن فوق أطباق السماء بك اقتدى
لك الخلق الأرضي الذي جلّ ذكره
يجلّ مدى عليك عن مدح مادح
ولي يا رسول الله فيك وراثته
وعندي إلى أنصار دينك نسبة
وكان بودّي أن أزور مبيّواً
وقد يجهد الإنسان طرف اعترامه
وعذري في تسويف عزمي ظاهر
عدتني بأقصى الغرب عن تربك العدا
أجاهد منهم في سبيلك أمة
فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى
فلا تقطع الحبل الذي قد وصلته

ولا شافني من وحش وجرّة ريمه
من الثغر يبدو موهناً فأشيمه
يسوم فؤادي برّحه ما يسومه
على النأي محفوظ الوداد سليمه
تهم به تحت الظلام همومه
شجاه من الشوق الحثيث قديمه
ويشرح ما يخفي وأنت عليه
وتتلفه الشكوى ، وأنت رحيمه
فأقماره وضاحه ونجومه
فأنواؤه ملتفة وغيومه
خليل الذي أوطاها وكليمه
ومجدك في الذكر العظيم عظيمه
فموسر درّ القول فيك عديمه
ومجدك لا ينسى الدمام كريمه
هي الفخر لا يخشى انتقالاً مقيمه
بك افتخرت أطلاله ورسومه
ويعوزه من بعد ذلك مرومه
إذا ضاق عذر العزم عمّن يلومه
جلالقة الثغر الغريب ورومه
هي البحر يعيي أمرها من يرومه
لريع حماه واستبيح حريمه
فمجدك موفور النوال عميمه

وأنتَ لنا الغيثُ الذي نستدرُهُ وأنتَ لنا الظلُّ الذي نستديمُهُ
ولما نأت داري وأعوز مطمعي وألقني شوقُ يشبُّ جحيمُهُ
بعثتُ بها جهدَ المقلِّ معولاً على مجدك الأعلى الذي جلَّ خيمُهُ
وكلتُ بها همي وصدقَ قريحتي فساعدني هاءَ الرويِّ وميمُهُ
فلا تنسني يا خيرَ مَنْ وطىء الثرى فمثلك لا يُنسى لديه خديمُهُ
عليك صلاةُ الله ما ذرَّ شارقُ وما راقَ من وجهِ الصباحِ وسيمُهُ

« إلى رسول الحق إلى كافة الخلق ، وغمام الرحمة الصادق البرق ، الحائر في ميدان اصطفاء الرحمن قصَب السَّبَق ، خاتم الأنبياء ، وإمام ملائكة السماء ، ومن وجبت له النبوة وآدم بين الطين والماء ، شفيع أرباب الذنوب ، وطبيب أدواء القلوب ، والوسيلة إلى علاّم الغيوب ، نبي الهدى الذي طهّر قلبه ، وغفّر ذنبه ، وخصّم به الرسالة ربه ، وجرى في النفوس مجرى الأنفاسِ حُبّه ، الشفيع المشفع يوم العرض ، المحمود في ملائكة السماء والأرض ، صاحب اللواء المنشور يوم النشور ، والمؤتمن على سير الكتاب المسطور ، ومُخرَج الناس من الظلمات إلى النور ، المؤيد بكفاية الله وعِصْمَتِهِ ، الموفور حظّه من عنايته ونعمته ، الظل الخفاق على أمته ، مَنْ لو حازت الشمسُ بعضَ كماله ما عدمت إشراقاً ، أو كان للأباء رحمة قلبه ذابت نفوسهم إشفاقاً ، فائدة الكون ومعناه ، وسر الوجود الذي يبهر الوجودَ سناه ، وصفيّ حضرة القدس الذي لا ينام قلبه إذا نامت عيناه ، البشير الذي سبقت له البشرية ، ورأى من آيات ربه الكبرى ، ونزل فيه ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى﴾ (الإسراء : ١) مَنْ الأنوارُ من عنصر نوره مُستمدّة ، والآثار تخلق وآثاره مستجدّة ، مَنْ طوي بساط الوحي لفقده ، وسُدّ باب الرسالة والنبوة من بعده ، وأوتي جوامع الكلم فوقفت البلغاء حَسْرَى دون حدّه ، الذي انتقل في الغرر الكريمة نوره ، وأضاءت لميلاده مصانع الشام وقصوره ، وطفقت الملائكة تبيّته وفودها وتزوره ، وأخبرت الكتب

المنزلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته ، وأخذ عهد الإيمان به على مَنْ اتصلت
بمبعثه منهم أيام حياته ، المَفْرَعُ الأَمْعُ يوم الفزع الأكبر ، والسَنَدُ المعتمد عليه
في أهوال المحشر ، ذو المعجزات التي أثبتتها المشاهدة والحس ، وأقَرَّ بها
الجنُّ والإنس ، من جماد يتكلم ، وجذع لفراقه يتألم ، وقمر له ينشق ،
وحَجَرَ يشهد أن ما جاء به هو الحق ، وشمس بدعائه عن مسيرها تحبس ، وماء
من بين أصابعه يتبجس ، وغمامٍ باستسقائه يَصُوب ، وطَوِيٍّ يَصُق في
أجاجها فأصبح ماؤها وهو العذب المشروب ، المخصوص بمناقب الكمال وكمال
المناقب ، المسمى بالحاشر العاقب ، ذو المجد البعيد المرامي والمراقب ، أكرم من
رُفِعَت إليه وسيلة العترف المغترب ، ونجحت لديه قُرْبَة البعيد المقرب ،
سيد الرسل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، الذي فاز بطاعته المحسنون ،
واستُنْفِدَ بشفاعته المذنبون ، وسَعِدَ باتباعه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
صلى الله عليه وسلّم ما لمَعَ بَرَقٌ ، وهَمَعَ ودَّق ، وطلعت شمس ، ونَسَخَ
اليومُ أمس :

« مِنْ عَتِيقِ شَفَاعَتِهِ ، وَعَبْدِ طَاعَتِهِ ، الْمُعْتَصِمِ بِسَبَبِهِ ، الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ ثُمَّ بِهِ ،
المستشفى بذكره كلّمَا تألم ، المفتتح بالصلاة عليه كلّمَا تكلم ، الذي إن ذكر
تمثل طلوعه بين أصحابه وآله ، وإن هَبَّ النسيم العاطر وجَدَ فيه طيبَ خلاله ،
وإن سمع الأذان تذكر صَوْتَ بِلَالِهِ ، وإن ذكر القرآن استشعر تردُّدَ جبريل
بين معاهده وخاله ، لاثِمِ تَرْبِهِ ، ومؤمل قربه ، ورهين طاعته وحبّه ،
المتوسل به إلى رضَى الله ربّه ، يوسف بن إسماعيل بن نصر :

« كَتَبَهُ إِلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَالدَّمْعُ مَاحٌ ، وَخَيْلُ الْوَجْدِ ذَاتُ جِمَاحٍ ، عَنِ
شَوْقٍ يَزْدَادُ كُلَّمَا نَقَصَ الصَّبْرُ ، وَانْكَسَارٌ لَا يَتُحُّ لَهُ إِلَّا بَدُنُو مَزَارِكِ الْجَبْرِ ،
وكيف لا يُعْيِي مشوقك الأمر ، وتوطأ على كبده الجمر ، وقد مَطَلَّتْ
الأيامُ بالقدوم على تريك المقدسة اللحد ، ووعدت الآمالُ ودانتُ بإخلاف
الوعد ، وانصرفت الرفاق والعينُ بنور ضريحك ما اكتحلت ، والركائبُ إليك

ما رَحَلَتْ ، والعزائم قالت وما فعلت ، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرَحْ ، وطيورُ الآمال عن وكور العجز لم تَبْرَحْ ، فيا لها من معاهدَ فاز مَنْ حَيَّاهَا ، ومشاهد ما أعطَرَ رِيَّاهَا ، بلاد نيطت بها عليك التمام^١ ، وأشرق بنورك منها النجودُ والتهايم ، ونزل في حُجُرَاتِهَا عليك الملك ، وانجلي بضياء فرقانك فيها الخلك ، مَدَارِسُ الآيات والسور ، ومَطَالع المعجزات السافرة الغرر ، حيث قضيت الفروض وحتمت ، وافتتحت سورة الرحمن وختمت ، وابتدئت الملة الحنيفية وتمت ، ونُسخت الآيات وأحكمت :

« أما والذي بعثك بالحق هادياً ، وأطلعك للخلق نوراً بادياً ، لا يطفىء غلتي إلا شربك ، ولا يسكن لوعي إلا قربك ، فما أسعدَ مَنْ أفاض من حرم الله إلى حرمك ، وأصبح بعد أداء ما فرضتَ عن الله ضيفَ كرمك ، وعقر الخدَّ في معاهدك ومعاهد أسرتك ، وتردد ما بين دارِي بعثك وهجرتك ، وإنتي لما عاقتني عن زيارتك العواتق ، وإن كان شغلي عنك بك ، وعدتني الأعداء فيك عن وصل سبي بسبك ، وأصبحت بين بحر تلاطم أمواجه ، وعدو تكائف أفواجه ، ويحجب الشمس عند الظهيرة عجاجه - في طائفة من المؤمنين بك ووطنوا على الصبر نفوسهم ، وجعلوا التوكل على الله وعليك لبوسهم ، ورفعوا إلى مصارحتك رؤوسهم ، واستعدبوا في مرضاة الله تعالى ومرضاتك بوسهم ، يطرون من هيعة إلى أخرى ، ويلتفتون والمخاوف عن يمني ويُسرى ، ويقارعون وهم الفئة القليلة جمعاً كجموع قيصر وكسرى ، لا يبلغون من عدو هو الذرُّ عند انتشاره ، عُشْرَ معشاره ، قد باعوا من الله تعالى الحياة الدنيا ، لأن تكون كلمة الله تعالى هي العليا ، فيا له من سِرْبِ مَرُوع ، وصريخ إلا منك ممنوع ، ودعاء إلى الله وإليك مرفوع ، وصيبة حُمر

١ نثر فيه قول الأعرابي :

بلاد بها نيطت علي تمانني وأول أرض مس جلدي تراها

الحواصل ، تخفق فوق أوكارها أجنحة المناصل ، والصليبُ قد تمطى فمدّ
ذراعيه ، ورفعتِ الأطماع بضْبَعِيه ، وقد حُجِبَتْ بالقَتَامِ السماء ، وتلاطمت
أمواج الحديد ، والبأس الشديد ، فالتقى الماء ، ولم يبق إلا الذَّمَاء ، وعلى ذلك
فما ضعفت البصائر ولا ساءت الظنون ، وما وعد به الشهداء تعتقده القلوب حتى
تكاد تشاهده العيون ، إلى أن نلقاك غداً إن شاء الله تعالى وقد أبلينا العذر ،
وأرغمنا الكفر ، وأعمَلْنَا في سبيل الله تعالى وسبيلك البيض والسَّمْرُ — استنبتُ
رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح خافق ، وتسعد من نيتي التي تصحبها برفيق
مُؤَافِق ، فتؤدِّي عن عبدك وتبلغ ، وتعفر الخلد في تُرْبِكَ وتمرِّغ ، وتطيب
بِريّاً معاهدك الطاهرة وبيوتك ، وتقف وقوف الخضوع والخشوع تجاه تابوتك ،
وتقول بلسان التملق ، عند التثبيت بأسبابك والتعلق ، منكسرة الطرف ، حذراً
بَهْرَجُهَا من عدم الصرف : يا غياث الأمة ، وغمام الرحمة ، ارحم غربتي
وانقطاعي ، وتغمد بطولك قصر باعي ، وقو على هيبتك خورَ طباعي ، فكم
جُرْتُ من لج مهول ، وجُبت من حزون وسهُول ، وقابل بالقبول نيابتي ،
وعجل بالرضى إجابتي ، ومعلوم من كمال تلك الشيم ، وسجايا نيك الديم ،
أن لا يخيب قَصْدُ من حَطَ بفنائها ، ولا يظماً واردٌ أكبَّ على إنائها .

« اللهم يا من جعلته أول الأنبياء بالمعنى وآخرهم بالصورة ، وأعطيته لواء
الحمد يسيرُ آدمُ فمن دونه تحت ظلاله المنشورة ، وملكت أمته ما زوي له من
زوايا البسيطة المعمورة ، وجعلتني من أمته المجبولة على حُبِّه المفطورة ، وشوقني
إلى معاهده المبرورة ، ومشاهده المزورة ، ووكلت لساني بالصلاة عليه ، وقلبي
بالحين إليه ، ورغبتني بالتماس ما لديه ، فلا تقطع منه أسبابي ، ولا تحرمني
من حبه ثوابي ، وتداركني بشفاعته يوم أخذ كتابي .

« هذه يا رسول الله وسيلة من بعدت داره ، وشطَّ مزاره ، ولم يجعل بيده

١ استنبت : جواب « لما » التي وقعت قبل سطور عديدة .

اختياره . فإن لم تكن^١ للقبول أهلاً فأنت للإغضاء والسماح أهل ، وإن كانت ألفاظها وعرة فجنابك للقاصدين سهل ، وإن كان الحب يتوارث كما أخبرت ، والعروق تدس حسبما إليه أشرت ، فلي بانتسابي إلى سعدٍ عميدٍ أنصارك مزية ، ووسيلة أثيرة حفية ، فإن لم يكن لي عمل ترتضيه في نية ، فلا تنسني ومنّ بهذه الجزيرة المفتحة بسيف كلمتك ، على أيدي خيار أمتك ، فإنما نحن بها وديعة تحت بعض أقفالك ، نعوذ بوجه ربك من إغفالك ، ونستشق من ريح عنايتك نَفحة ، ونرتقب من مُحيا قبولك لمحة ، ندافع بها عدوّاً طغى وبنى ، وبلغ من مضايقتنا ما ابتغى ، فمواقف التمحيص قد أعيت منّ كتب وورّخ ، والبحر قد أصمت من استصرخ ، والطاغية في العُدوان مستبصر ، والعدو مجلق والولي مقصر ، وبجاهك ندفع ما لا نطق ، وبعنايتك نعالج سقيم الدين فيفيق ، فلا نفردنا ولا تهملنا ، وناد ربك فينا ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا ﴾ (البقرة : ٢٨٦) ، وطوائف أمتك حيث كانوا عناية منك تكفيهم ، وربك يقول لك وقوله الحق ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾ (الأنفال : ٣٣) والصلاة والسلام عليك يا خير منّ طاف وسعى ، وأجاب داعياً إذا دعا ، وصلى الله على جميع أحزابك وآلك ، صلاة تليق بجلالك ، وتحق لكمالك ، وعلى ضجيعيك وصديقيك ، وحبيبيك ورفيقيك ، خليفتك في أمتك ، وفاروقك المستخلف بعده على جلتك ، وصهرك ذي النورين المخصوص ببرك ونحلتك ، وابن عمك سيفك المسلول على حلتك ، بدر سمائك ووالد أهلتك ، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيراً أثيراً ورحمة الله تعالى وبركاته ، وكتب بحضرة جزيرة الأندلس غرناطة ، صانها الله تعالى ووقاها ، ودفع عنها ببركتك كيدَ عداها » انتهت الرسالة .

٨٦ - وكتب أيضاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم على لسان مخدومه

١ الضمير يعود إلى « وسيلة » ويعني بها الرسالة .

السلطان الغني بالله محمد ابن السلطان أبي الحجاج - رحم الله تعالى الجميع -
ما صورته :

دَعَاكَ بِأَقْصَى الْمَغْرِبِينَ غَرِيبُ
مَدْلٌ بِأَسْبَابِ الرَّجَاءِ وَطَرْفُهُ
يَكْلِفُ قُرْصَ الْبَدْرِ حَمْلَ تَحِيَّةٍ
لَتَرْجِعَ مِنْ تِلْكَ الْمَعَالِمِ غَدْوَةً
وَيَسْتَوْدِعُ الرِّيحَ الشَّمَالَ شَمَائِلًا
وَيَطْلُبُ فِي جِيبِ الْجُيُوبِ جَوَابَهَا
وَيَسْتَفْهَمُ الْكَمْفَ الْخَضِيبِ وَدَمْعَهُ
وَيَتَّبِعُ آثَارَ الْمَطِيِّ مَشِيْعًا
إِذَا أَثَرَ الْأَخْفَافِ لَاحَتْ مَحَارِبًا
وَيَلْقِي رِكَابَ الْحِجِّ وَهِيَ قَوَافِلُ
فَلَا قَوْلَ إِلَّا أَنَّهُ " وَتَوَجَّعُ
غَلِيلٌ " وَلَكِنْ مِنْ قَبُولِكَ مِنْهَلُ
أَلَا لَيْتَ شَعْرِي وَالْأَمَانِيُّ ضَلَّةً
أَيُنْجِدُ نَجْدٌ بَعْدَ شَحْطِ مَزَارِهِ
وَتُقْضَى دِيُونِي بَعْدَمَا مَطَّلَ الْمَدَى
وَهَلْ أَقْضِي دَهْرِي فَيَسْمَحُ طَائِعًا
وَيَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ لِحَوْمِي مُورِدُ
وَلَكِنَّكَ الْمَوْلَى الْجَوَادُ وَجَارُهُ
وَكَيْفَ يَضِيقُ الذَّرْعُ يَوْمًا بِقَاصِدِ
وَمَا هَاجَنِي إِلَّا تَأَلَّقُ بَارِقِ

وَأَنْتَ ، عَلَى بَعْدِ الْمَزَارِ ، قَرِيبُ
غَضِيضٌ عَلَى حَكْمِ الْحَيَاءِ مَرِيبُ
إِذَا مَا هَوَى وَالشَّمْسُ حِينَ تَغِيْبُ
وَقَدْ ذَاعَ مِنْ رَدِّ التَّحِيَّةِ طِيبُ
مَنْ الْحَبِّ لَمْ يَعْلَمْ بِهِنَ رَقِيبُ
إِذَا مَا أَطَلَّتْ وَالصَّبَاحُ جَنِيبُ
غَرَامًا بِخَنَاءِ النَّجِيعِ خَضِيبُ
وَقَدْ زَمَزَمَ الْحَادِي وَحَنَ نَجِيبُ
يَخْرَ عَلَيْهَا رَاكِعًا وَيَنْيْبُ
طِلَاحٌ وَقَدْ لَبَى النَّدَاءَ لَيْبُ
وَلَا حَوْلَ إِلَّا زَفْرَةٌ وَنَجِيبُ
عَلِيلٌ وَلَكِنْ مِنْ رِضَاكَ طِيبُ
وَقَدْ تَخَطَّى الْأَمَالُ ثُمَّ تَصِيبُ
وَيَكْتُبُ بَعْدَ الْبَعْدِ مِنْهُ كَثِيبُ
وَيَنْفُذُ بَيْنِي وَالْمَبِيعُ مَعِيبُ
وَأَدْعُو بِحَظِي مَسْمَعًا فَيُجِيبُ
لَدَيْكَ ؟ وَهَلْ لِي فِي رِضَاكَ نَصِيبُ ؟
عَلَى أَيِّ حَالٍ كَانَ لَيْسَ يَخِيبُ
وَذَاكَ الْجَنَابُ الْمُسْتَجَارُ رَحِيبُ
يَلُوحُ بِفَوْدِ اللَّيْلِ مِنْهُ مَشِيبُ

ذكرتُ به ركبَ الحجاز وجيرةً
 فبتُّ وجفتي من لآليءِ دمعِهِ
 ترتخني الذكري ويهفو بي الجوى
 وأحضرُ تَعليلاً لشوقي بالمني
 مرامي ، لو أعطى الأمانى ، زورةً
 فقولُ حبيبٍ إذ يقول تشوقاً
 تعجبتُ من سيفي وقد جاور الغضا
 وأعجبُ أن لا يورقَ الرمحُ في يدي
 فيا سرحَ ذاك الحيّ لو أخلفَ الحيا
 ويا هاجرَ الجوّ الحديبِ تلبثاً
 ويا قادحَ الزندِ الشّحاحِ ترفقاً
 أيا خاتمِ الرسلِ المكينِ مكانهُ
 فؤادي على جمرِ البعادِ مقلّبُ
 فواللهِ ما يزدادُ إلا تلهتباً
 فليلتُهُ ليلُ السّليمِ ويومها
 هواي هُدّى فيك اهتديتُ بنوره
 وحسبي على أني لصحبك منتمٍ
 عدتُ عن مغانيك المشوقةِ للعدا
 حِرْاصُ على إطفاءِ نورِ قدَحْتَهُ
 فكم من شهيدٍ في رضاك مجدّالٍ
 تمرُّ الرياحُ الغُفْلُ فوق كلومهم
 بنصرِكَ عنك الشغلُ من غيرِ منةٍ

أهابَ بها نحو الحبيبِ مهيبُ
 غنيّ وصبري للشجونِ سليبُ
 كما مال غصنُ في الرياضِ رطيبُ
 ويطرُقُ وجدُ غالبُ فأغيبُ
 يَبْتُ غرامُ عندها ووجيبُ
 عسى وطنُ يدنو إليّ حبيبُ
 بقلبي فلم يسبكه منه مذيبُ
 ومن فوقه غيثُ المشوقِ سكبُ
 لأغناك من صوبِ الدموعِ صيبُ
 فعهدِي رطبُ الجانينِ خصيبُ
 عليك فشوقي الخارجِي شيبُ
 حديثُ الغريبِ الدارِ فيك غريبُ
 يُمَاحُ عليه للدموعِ قلبُ
 أبصرتَ ماءً ثارَ عنه هيبُ
 إذا شدَّ للشوقِ العصابُ عصبُ
 ومنتسبي للصحبِ منك نسيبُ
 وللخزرجيينِ الكرامِ نسيبُ
 عقاربُ لا يخفى هنّ ديبُ
 فمستلبُ منِ دونهِ وسليبُ
 يظله نسرٌ وينسبُ ذيبُ
 فتعقبُ من أنفاسِها وتطيبُ
 وهلّ يتساوى مشهدُ ومغيبُ

فإن صحَّ منك الحظُّ طاوَعَتِ المُنَى
ولولاك لم يُعْجَمَ من الروم عودها
وقد كانتِ الأحوالُ ، لولا مراغِبُ
فما شئتَ من نصرٍ عزيزٍ وأنعمِ
منابرُ عزِّ أذنَ الفتحُ فوقها
نَقُودُ إلى هيجائها كلَّ صائلِ
ونجتابُ من سرِّدِ اليقينِ مدارعاً
إذا اضطربَ الخطيُّ حولِ غدِيرِها
فعدراً وإغضاءً ولا تنسَ صارخاً
وجاهك بعدَ الله نرجو ، وإتتهُ
عليك صلاةُ الله ما طيّبَ الفضا
وما اهترَّ قدَّ للغصونِ مرثعُ

ويبعدُ مرمَى السهمِ وهو مُصيبُ
فعودُ الصليبِ الأعجميِّ صليبُ
ضمنتَ ووعدُ بالظهورِ ، تُريبُ
أثابَ بهنَّ المؤمنينَ مُثيبُ
وأفصحَ للعصبِ الطريرِ خطيبُ
كما ريعَ مكحولُ اللحاظِ ريبُ
يكفَّتُها من يجتني ويشبُ
يروقكَ منها لجسةٌ وقصيبُ
بعزكَ يرجو أن يجيبَ مجيبُ
لحظُ مليءٌ بالوفاءِ رغبُ
عليك مطيلٌ بالثناءِ مطيبُ
وما افترَّ ثغرُ للبروقِ شنيبُ

« إلى حجة الله تعالى المؤيدة ببراهين أنواره، وفائدة الكون ونكته أدواره، وصفوة نوع البشر ومنتهى أطواره ، إلى المجتبي وموجود الوجود لم يتغن بمطلق الوجود عديمه ، المصطفى من ذرية آدم قبل أن يكسو العظام أديمه ، المحتوم في القيد ، وظلمات العدم ، عند صدق القدام ، تفضيله وتقديمه ، إلى وداعة النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر ، ودرة الأنبياء التي لها الفضل على الدرر ، وغمام الرحمة الهامية الدرر ، إلى مختار الله تعالى المخصوص باجتماعه ، وحببيه الذي له المزية على أحبائه ، وذرية أنبياء الله تعالى آبائه ، إلى الذي شرح صدره وغسله ، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله ، وأتم عليه إنعامه الذي أجزله ، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله ، إلى بشرى المسيح والذبيح ، ومن لهم التجر الرياح ، المنصور بالرعب والريح ، المخصوص

بالنسب الصريح ، إلى الذي جعله في المَحُولِ غماماً ، وللأنبياء إماماً ، وشقَّ صدره لتلقي روح أمره غُلاماً ، وأعلم به في التوراة والإنجيل إعلاماً ، وعلم المؤمنين صلاةً عليه وسلاماً ، إلى الشفيح الذي لا تُردُّ في العَصاة شفاعته ، والوجيه الذي قُرنَت بطاعةِ الله تعالى طاعتهُ ، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى الله تعالى في أهل الجرائمِ ضَرَاعته ، صاحب الآيات التي لا يسعُ ردها ، والمعجزات التي أربى على الألفِ عدها ، فمن قمر شقَّ ، وجذع حن له وحق ، وبنان يتفجرُ بالماء ، فيقوم برِيّ الظماء ، وطعامٍ يُشبعُ الجمعَ الكثير يسيرُهُ ، وغمام يُظللُّ به مقامه ومسيره ، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض ، وأول من تنشقُّ عنه الأرض ، ووسيلة الله تعالى التي لولاها ما أقرض القرض ، ولا عرف النفل والقرض ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذي الجلال ، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الأرسال ، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال ، صلى الله عليه وسلم ما ذرَّ شارق ، وأومض بارق ، وفرق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق ، صلاة تتأرجح على شذا الزَّهر ، وتبليج عن سنا الكواكب الزَّهر ، وتردد بين السر والجهر ، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر ، وتدوم بدوام الدهر :

« من عبد هُداة ، ومستقري مَوَاقِع نِداة ، ومزاحم أبناء أنصاره في مستداه ، وبعض سهامه المفوقة إلى نحور عداة ، مؤمِّل العتق من النار بشفاعته ، ومحرز طاعة الجبَّار بفاعته ، الآمن باتصال رعيه من إهمال الله تعالى وإضاعته ، متخذ الصلاة عليه وسائل نجاة ، وذخائر في الشدائد مُرتجاة ، متاجر بضائعها غير مُزجاة ، الذي ملأ بحبه جوانح صدره ، وجعل فكره هالة لبدرة ، وأوجب حقه على قدر العبد لا على قدره ، محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي ، نسيب سعد بن عبادة من أصحابه ، وبوارق سحابه ، وسيوف نصرته ، وأقطاب دار هجرته ، ظلَّه الله تعالى يوم الفرع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان ، كما أثار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان ، وجعله

من أهل السياحة في فضاء حُبِّكَ والهيمنان :

« كتبه إليك يا رسولَ الله - واليراع تقتضي الهيبة صفرة لونه ، والمداد يكاد أن يحول سواد جَوْنَه ، وورقة الكتاب يخفق فؤادُها حرصاً على حفظ اسمك الكريم وصَوْنَه ، والدمعُ يقطر فتتقط به الحروف وتفصل الأسطر ، وتوهمُ المثلولِ بمثواك المقدس لا يمر بالخاطر سواه ولا يخطر ، عن قلب بالبعد عنك قَرِيح ، وجفن بالبكاء جريح ، وتأوّه عن تبريح ، كلما هَبَّ من أرضك نسيم ريح ، وانكسار ليس له إلا جَبْرُك ، واغتراب لا يؤنس فيه إلا قربك ، وإن يُقْضَى قفرك ، وكيف لا يسلم في مثلها الأسي ، ويوحش الصباح والمسا ، ويرجفُ جبلُ الصبرِ بعدما رَسَا ، لولا لعلٌ وعسى ، فقد سارتِ الركبانُ إليك ولم يُقْضَ مسير ، وحومت الأسرابُ عليك والجناحُ كَسِير ، ووعدت الآمال فأخلفت ، وحلفت العزائم فلم تَفِ بما حلفت ، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل ، إلا على التمثيل ، ولا من المعالم الملتمة التنوير ، إلا على التصوير ، مهبطٌ وحي الله تعالى ومنتزل أسمائه ، ومترددٌ ملائكة سمائه ، ومدافن أوليائه ، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه ، رزقي الله تعالى الرضى بقضائه ، والصبرَ على جاحم البعد ورمضائه - من حمراء غرناطة حرسها الله تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك ، ومسحبة رجلك يا رسولَ الله وخيِّلك ، وأنأى مطارح دعوتك ومساحب ذيلك ، حيث مصافّ الجهاد في سبيل الله وسبيلك قد ظللها القتام ، وشُهْبَانُ الأسنّة أطلعها منه الإعتام ، وأسواقُ بيعِ النفوسِ من الله تعالى قد تعدد بها الأيامى والأيتام ، حيث الجراحُ قد تحلت بعسجد نجيعها النحور ، والشهداء تحفُّ بها الحور ، والأمم الغربية قد قطعها عن المدد البحور ، حيث المباسم المُفْتَرَّة ، تجلوها المصارع البرّة ، فتحبيها بالعرءاء ثغورُ الأزهار ، وتندبها صَوَادِحُ الأدواحِ برنات تلك المزهرة ، وتحلّي السحابُ أشلاءها المعطّلة من ظلّها بالجواهر ، وحيث الإسلام من عدوّه المكاييد بمنزلة

قطرةٍ من عارضِ غمام ، وحصاةٍ من ثبيرٍ أو شمام ، وقد سدت الطريق ،
وأسلم الفراقُ الفریق ، وأغصَّ الریق ، ويشسَّ من الساحل الغریق ، إلا أن
الإسلام بهذه الجهة المتسكة بجبل الله تعالى وحبك ، المهتدية بأدلة سبلك ،
سالم والحمد لله تعالى من الانصداع ، محروسٌ بفضل الله تعالى من الابتداع ،
مقدودٌ من جديد الملة ، معدومٌ فيه وجودُ الطوائف المضلّة ، إلا ما يخص
الكفر من هذه العلة ، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه يجمع القلة .
« ولهذه الأيام يا رسول الله أقام الله تعالى أودّه براءً بوجهك الوجيه ورعيًا ،
وإنجازاً لوعدك وهو الذي لا يخلف وعداً ولا يخيب سعيًا ، وفتح لنا فتوحاً
أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب ، وبشّرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع
الثريب ، ونصرنا وله المنة على عبدة الصليب ، وجعل لألفنا الرُدِّيَّ
ولامنا السّردي حكم التغليب ، وإذا كانت الموالي التي طوقت الأعناق مِنهنا ،
وقررت العوائد الحسان سيرها وسننها ، تبادر إليها نوابها الصرحاء وخدامها
النصحاء بالبشائر ، والمسرات التي تشاع في العشائر ، وتجلو لديها نتائج أيديها ،
رغابات مباديها ، وتتحافها وتهاديها ، بمجاني جناتها وأزاهر غَوَاديها ، وتطرف
محاضرها بطرفِ بواديها ، فبابك يا رسولَ الله أولى بذلك وأحقّ ، ولك
الحق الحق ، والحرُّ منّا عبْدُك المسرّق ، حسبما سجّله الرق ، وفي رضاك
من كل من يلتمس رضاه المطمع ، ومثواك المَجْمَع ، وملوك الإسلام
في الحقيقة عبيد سُدَّتْكَ المؤملة ، وخَوَلُ مَنابِتِك المحسنة بالحسنات المجملة ،
وشهب تعشو إلى بدورك المكملة ، وبعض سيوفك المقلّدة في سبيل الله تعالى
المحملة ، وحرّسة مهاديك ، وسلاح جهادك ، وبروق عهادك .

« وإن مكفول احترامك الذي لا يخفر ، وربّي إنعامك الذي لا يكفر ،
وملتحف جاهك الذي يمحي ذنبه بشفاعتك إن شاء الله تعالى ويغفّر ، يطالع
روضة الجنة المفتحة أبوابها بمثواك ، ويفاتح صِوان القدس الذي أجنك وحواك ،

وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذي طَوَّك ، ويعرض جنى ما
غرست وبذرت ، ومصداق ما بشرت به لما بشرت وأندرت ، وما انتهى إليه
طلَّقُ جهادك ، ومصَّبُ عِيادك ، لتقرَّ عينُ نصحك التي أنام العيونَ الساهرةَ
هجومها ، وأشيع البطونَ ورواها ظمؤها في الله تعالى وجوعها ، وإن كانت
الأمر بمراى من عَيْنِ عنايتك ، وغيبها متعرف بين إفصاحك وكنائتك ، ومجمله
يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلَّغَ وسيلتي إليك ، هو أن الله سبحانه لما عرفني
لطفه الخفي في التمحيص ، المقتضي عدم المحيص ، ثم في التخصيص ، المغني
بعيانه عن التنصيص ، وفق بركاتك السارية رحمتها في القلوب ، ووسائل
محبتك العائدة بنيل المطلوب ، إلى استفادة عظة واعتبار ، واغتنام إقبال بعد إدار ،
ومزيد استبصار ، واستعانة بالله تعالى وانتصار ، فسكن هبوب الكفر بعد إعصار ،
وحلَّ مخنق الإسلام بعد حصار ، وجرت على سنن السنَّة بحسب الاستطاعة
والمنَّة السيرة ، وجُبرت بجاهك القلوب الكسيرة ، وسُهلت المآربُ العسيرة ،
ورفع بيد العزة الضيِّم ، وكشف بنور البصيرة الغيِّم ، وظهر القليل على الكثير ،
وباء الكفرُ بخطة التعثير ، واستوى الدينُ الحنيفُ على المهاد الوثير ، فاهتبلنا
يا رسول الله غيرة العدو وانتهزناها ، وشِمْنَا صَوَّارم عزة العدو وهزَّزناها ،
وأزحنا علل الجيوش وجهزناها .

« فكان ممَّا ساعد عليه القدر ، والخطبُ المبتدر ، والورد الذي حَسُنَ بعده
الصدَّر ، أننا عاجلنا مدينة بُرْغُه^١ ، وقد جرَّعت الأختين مالقة ورندة ،
من مدائن دينك ، ومزابين ميادينك ، أكواس الفِراق ، وأذكرت مثل مَنْ
بالعراق ، وسدت طرق التزاور عن الطُّراق ، وأسالت المسيلَ بالنجيع
المُراق ، في مراصد المراد والمُراق ، ومنعت المراسلة مع هدير الحمام ، لا بل
مع طيِّف المنام عند الإلام ، فيسرَّ الله تعالى اقتحامها ، وألحمت بيض الشفار

١ برغه (Burgo) بين مالقة ورندة .

في زُرُق الكفار إلحامها ، وأزال بَشْرُ السيف من بين تلك الحروف إقحامها ، فانطلق المَسْرَى ، واستبشرت القواعدُ الحَسْرَى ، وهدمت بطريقها المخيف مصارع الصرعى ومثاقف الأَسْرَى ، والحمد لله على فتحه الأَسْنَى وَمَنَحِهِ الأَسْرَى، ولا إله إلا هو منقلِّ قيصر وكسرى، وفتح مغلقتهما المنبعة قَسْرًا ؛ واستولى الإسلام منها على قرار جنات ، وأم بنات ، وقاعدة حصون ، وشجرة غصون ، طهرت مساجدها المغتصبة المكروهة ، وفعج بحفظها الفيل الأفيال وأبرهة ، وانطلقت بذكر الله الألسنة المدرّهة ، وفاز بسبق ميدانها جياذك الفرهة ، هذا وطاغية الروم على توفّر جموعه ، وهول مرثيه ومسموعه ، قريبٌ جوارهُ ، بحيث يتصل خُواره ، وقد حرك إليها الحنين حوارهُ .

« ثمّ نازل المسلمون بعدها شجاء الإسلام الذي أعيا النطاسيَّ علاجهُ ، وكرك^١ هذا القطر الذي لا تُطاول أعلامه ولا تصاول أعلاجه ، وركاب الغارات التي تطوي المراحل إلى مكابدة المسلمين طي البرود ، وحجر الحيات التي لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود، ومُنَغَّصُ الورود في العذب المورود ، ومُقِصِّ المضاجع ، وحلم الهاجع ، ومجهز الخطب الفاجيء الفاجع ، ومستدرك فاتكة الراجع ، قبل هبوب الطائر الساجع ، حصن آشر^٢ حماه الله تعالى دعاء لا خبراً ، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبراً ، فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجد ، وأذلوا عزته بعزة ذي العرش المجيد ، وحفت به الرايات يَسِمُها وَسَمُكُ ، ويلوح في صفحاتها اسمُ الله تعالى واسمُكُ ، فلا ترى إلا نفوساً تتراحم على مؤرد الشهادة أسرابها ، وليوثاً يصدّق في الله تعالى ضرابها ، وأرسل الله عليها رجزاً إسرائيلياً من جرّاد السهام ، تشد آياته عن الأفهام ،

١ شبهه بحصن الكرك ، وكان ذا شأن ومنعة في الحروب الصليبية .

٢ حصن آشر (Iznajar) في الجنوب الشرقي لحصن رومة (Rute) على ضفة راند من روافد شنييل ؟ وقد صحف في ق فكتب « أشب » .

وسدد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام ، من بعد الاستغلاق والاستبهام ، وقد عبثت جوارح صخوره في فنائص الهام ، وأعيا صَعْبُهُ على الجيش اللّهُام ، فأخذ مسائغهُ النقصُ والتقبُّ ، ورعًا فوق أهله السَّقْبُ^١ ، ونُصِبَتِ المعارج والمَرَاقِي ، وقُرِعَتِ المناكب والتراقي ، واغتم الصادقون مع الله تعالى الحظ الباقي ، وقال الشهيد السابق : يا فوز استبأني ، ودخل البلد فألحم السيف ، واستُلبَ البَحْتُ والزيف ، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامك في أبراجها المشيدة ، وظفر ناشدُ دينك منها بالنشيدة^٢ ، وشكر الله تعالى في قصدها مساعي النصائح الرشيدة ، وعمل ما يرضيك يا رسول الله في سدِّ ثَمَمِها ، وصَوَّنَ مستلمها ، ومُداوَاةَ أَلَمِها ، حرصاً على الاقتداء في مثلها بأعمالك ، والاهتداء بمِشْكَاة كمالك ، ورتب فيها الحماة تشجي العدو ، وتصل في مرضاة الله تعالى ومرضاتك برواحها الغُدُو .

« ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة^٣ بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلمتها بالجناح الساتر ، وأنامتها في ضَمان الأمان للحُسام الباتر ، وقد وتر الإسلام من هذه المومسة البائسة بوتر الواتر ، وأحفظَ منها بأذى الوقاح المهاتر ، لما جرَّته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر ، حَسَبَ المنقولِ لا بل المتواتر ، فطوى إليها المسلمون المدى النازح ، ولم تشكُ المطيُّ الروازح ، وصدق الجِدُّ جَدَّها المازح ، وخفقت فوق أوكارها أجنحةُ الأعلام ، وغشيتها أفواجُ الملائكة الموسومة وظلالُ الغمام ، وصابت من السهام ودَقَّ الرَّهَام ، وكاد يكفي السهام على الأرض ارتجاج أجوائها بكلمة الإسلام ، وقد صَمَّ خاطبُ عروس الشهادة

١ السقب : ولد الناقة وفي العبارة إشارة إلى ما حل يقوم صالح عندما عقروا الناقة ، فيقال في المثل لتصوير الهلاك « رغا فوقهم السقب » .
٢ النشيدة : الضالة التي تنشد أي تطلب .
٣ إطريرة (Utrera) إلى الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كيلومتراً ، وقد ضبعت بكسر الهززة وسكون الطاء .

عن الملام ، وسمح بالعزيز المصون مباح الملك العلام ، وتكلم لسان الحديد الصامت وصمت إلا بذكر الله لسان الكلام ، ووفت الأوتار بالأوتار ، ووصل بالخطي ذرع الأبيض البتار ، وسلطت النار على أربابها ، وأذن الله تعالى في تبار تلك الأمة وتبأبها ، فترلوا على حكم السيف آفاً ، بعد أن أتلفوا بالسلح إتلافاً ، واستوعب المقاتلة كِتافاً ، وقرنوا في الجدُل أكتافاً أكتافاً ، وحملت العقائل والخرائد ، والولدان والولائد ، إركاباً من فوق الظهور وإردافاً ، وأقلت منها أفلاك الحمول بدوراً تضيء من ليالي المحاق أسدافاً ، وامتلأت الأيدي من المواهب والغنائم ، بما لا يصوره حلم النائم ، وتركت العوآفي تنداعى إلى تلك الولائم ، وتفنن من مطاعمها في الملائم ، وشنت الغارات على حمص فجملت خارجها مغاراً ، وكست كبار الروم بها صغاراً ، وأجحرت أبطالها لإججاراً ، واستاقت من التعم ما لا يقبل الحصر استبحاراً .

«ولم يكن إلا أن عدل القسم ، واستقل بالقفول العزيز الرسم ، ووضع من التوفيق الوسم ، فكانت الحركة إلى قاعدة جيان قيعة الظل الأبرد ، ونسيجة المنوال المفرد ، وكناس الغيد الحرد ، وكرمي الإمارة ، وبحر العمارة ، ومهوى هوى الغيث الهتون ، وحزب التين والزيتون ، حيث خندق الجنة تدنو لأهل النار مجانيه ، وتشرق بشواطئ الأنهار إشراق الأزهار زهر مبانيه ، والقلعة التي تختمت بنان شرفاتها بخواتيم النجوم ، وهمت من دون سحابها البيض سحائب الغيث السجوم ، والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها ، وهجوم فراقها ، سمة الوجوم لذلك الهجوم ، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة ، وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصادقة ، وحببها بالفادحة الفادحة ، ففصت الربى والوهاد بالتكبير والتهليل ، وتجاوبت الخيل بالصهيل ، وانهالت الجموع المجاهدة في الله تعالى انياله الكثيب المهيل ، وفهمت نفوس العباد المجاهدة في الله تعالى حق الجهاد معاني التيسير من ربها والتسهيل ، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل ، وأربت المحلات المسلمة على التأميل ، ولما صبحتها

النواصي المقبلة الغرر، والأعلام المكتبة الطرر، برز حاميتها مُصحرين^١،
 وللحوزة المستباحة منتصرين، فكأثرهم من سرعان الأبطال رجُلُ الدِّبَابِ^٢،
 ونَبَّتُ الوهاد والرُّبَى، فأقحموهم من وراء السور، وأسرت أقلام الرماح
 في بسط جددهم المكسور، وتركت صرعاهم ولائم للنسور، ثم اقتحموا رَبَضَ
 المدينة الأعظم ففرعوه، وجدّوا مَنْ دافع عن أسواره وصرعوه، وأكواس
 الختوف جرّعه، ولم يتصل أولى الناس بأخراهم، ويحمد بمخيم النصر العزيز
 سُراهم، حتى خذل^٣ الكافر الصبرُ وأسلم الجلد، ونزل على المسلمين النصر
 فدُخِلَ البلد، وطاح في السيل الجارف الوالد منه والولد، وآتهم المطرف والمتلد،
 فكان هولاً بعيداً الشناعة، وبعثاً كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع
 والسجود، والسلام عن مطاولة النجود، والأيدي عن ردم الخنادق والأغوار،
 والأكبش عن مناطق الأسوار، والنفوط عن إصعاق الفجار، وعمد الحديد،
 ومعاول البأس الشديد، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار، فهبَّتِ الكتبان،
 وأبيد الشيب والشبان، وكسرت الصُّلبان، وفتح بهدم الكنائس الرهبان،
 وأهبطت النواقيسُ من مرآقيها العالية وصروحها المتعالية، وخلعت ألسنتها
 الكاذبة، ونقل ما استطاعته الأيدي المجاذبة، وعجزت عن الأسلاب ذوات
 الظهور، وجلل الإسلام شعار العزّ والظهور، بما خلت عن مثله سوائف الدهور
 والأعوام والشهور، وأعرست الشهداء ومن النفوس المبيعة من الله تعالى نخل
 الصدقات والمهور، ومن بعد ذلك هُدم السور، ومحيت عن محيطه المحكم
 السطور، وكاد يسير ذلك الجبلُ الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور، ومن
 بعد ما خرب الوجار، عُقرت الأشجار، وعُقر النار، وسلطت على بنات

١ مصحرين : بارزين .

٢ الرجل : الجماعة ، والدبا : الجراد .

٣ في ق : جذل ، وصوبناه .

٤ ق : الأشلاء .

التراب والماء النار ، وارتحل عنها المسلمون وقد عمتها المصائب ، وأصمى لبتّها السهمُ الصائب ، وجللتها القشاعيمُ العصاب ، فالذئاب في الليل البهيم تسعل ، والضباع من الحدب البعيد تنسل ، وقد ضاقت الجدُلُ عن المخائق ، وبيع العريضُ الثمين بالدائق ، وسبكت أسورة الأسوار ، وسويت الهضاب بالأغوار ، واكتسحت الأحواز القاصية سرايا الغوار ، وحجبت بالدخان مطالع الأنوار ، وتحلفت قاعتها عبرة للمعتبرين وعظة للناظرين ، وآية للمستبصرين ، ونادى لسان الحمية ، يا لثارات الإسكندرية ، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين ، وأحقّ الله الحقّ بكلماته وقطع دابر الكافرين .

« ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى ، ولدتها الحزينة عليها العبرى ، مدينة أبدة^١ ذات العمران المستبعر ، والربض الحرق المصحح ، والمباني الشّم الأنوف ، وعقائل المصانع الجمّة الحلي والشنوف ، والغاب الأنوف ، بلدة التجر ، والعسكر المجر ، وأفق الضلال الفاجر الكذب على الله تعالى الكاذب الفجر ، فخذل الله تعالى حاميتها التي يعي الحسبان عدّها ، وسجر بحورها التي لا يرام مدّها ، وحقّت عليها كلمة الله تعالى التي لا يستطاع ردّها ، فدخلت لأول وهلة ، واستوعب جمّها والمنة لله تعالى في نهلة ، ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة ، فلما تناولها العفا والتخريب ، واستباحها الفتح القريب ، وأسند عن عوالها حديث النصر الحسن الغريب ، وأقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب ، وأضرعت مسايها^٢ لهول المصاب ، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذي عظم صيته ، والعز الذي سما طرفه واشرب لبته ، والعزم الذي حُمد مسراه ومبيته ، والحمد لله ناظم الأمر وقد راب شتيته ، وجابر الكسر وقد أفات الجبر مفيته .

١ أبدة (Ubeda) - بتشديد الباء - إلى الشمال الشرقي من جيان .

٢ المسايه : جمع مسيف ، ويعني بها لسان الدين في الأرجح ، المدماك (أي السطر من البناء) .

« ثم كان الغزو إلى أم البلاد، ومثوى الطارف والتلاد، قرطبة، وما قرطبة؟
المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسي
الذي بعصاه رُعي الحمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والحمل،
والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمِيَّة^١ الحمل، فخيّم الإسلام بعقوتها^٢
المستباحة، وأجاز نهرها المعبي على السّباحة، وعم دَوَحها الأشبّ بواراً،
وأدار المحلّات بسورها سِوَاراً، وأخذ بِمُخَنَقها حِصَاراً، وأعمل النصر بشجر
بصلها^٣ اجتناء ما شاء واهتصاراً، وجدلّ من أبطالها من لم يرض انجحاراً، فأعمل
إلى المسلمين لإصحاراً، حتى فرغ بعض جهاتها غلاباً جهاراً، وزفعت الأعلام إعلاماً
بعز الإسلام وإظهاراً، فلولا استهلال الغوادي، وأن أتى الوادي، لأفضت
إلى فتح الفتوح تلك المبادي، ولقضى تَفَقُّه العاكف والبادي، فاقضى
الرأي - ولذنب الزمان في اغتصاب الكفر إياها متاب، تعمل يبشّراه بفضل
الله تعالى أقتاد وأقتاب، ولكل أجل كتاب - أن يرأض صعبها حتى يعود
ذلولاً، وتُعفى معاهدها الآهلة فتترك طُلولاً، فإذا فجع الله تعالى بمارج النار
طوائفها المارجة، وأباد بخارجها الطائفة والدارجة، خَطَبَ السيفُ منها أمَّ
خارجة^٥، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارقُ الهضاب بالهشيم قد شابت،
والغلات المستغلات قد دعا بها القَصَلُ فما ارتابت، وكأن صحيفة نهرها لما

١ العبشمية : نسبة إلى عبد شمس .

٢ العقوة : الساحة . وفي ق : بعقرتها .

٣ ق : فأعمل النصر . . . نصها ؛ والمراد أن النصر حطم رماحها .

٤ التفت في الحجج : الخلق والتقصير وقص الأظفار ونحر البدن وغير ذلك مما يفعله الحاج إذا حل من
إحرامه ، والمراد أنه استوفى حجه ، فكفى به لسان الدين عن بلوغ غاية الأرب .

٥ أم خارجة : كانت سريعة الخطبة ولذلك قيل في المثل « أسرع من نكاح أم خارجة » وقد شبه قرطبة
بها لتداول الغلبة عليها دهرأ بعد دهر ، والمُح ابن شهيد إلى هذا حين تغزل بقربابة فقال :

زنت بالرجال على سنّها فيا حبذا هي من زانيه

أضمرت النار في^١ ظهرها ذابت ، وحيته فرّت أمام الحريق فانسابت ، وتخلّفت لغمامم الدخان عمائم تلويها برؤوس الجبال أيدي الرياح ، وتشرها بعد الركود أيدي الاجتياح ، وأغرّبت بأقطارها الشاسعة ، وجهاتها الواسعة ، جنود الجوع ، وتوعدت بالرجوع ، فسلب أهلها لتوقع الهجوم متزور المهجوع ، فأعلامها خاشعة خاضعة ، وولّدانها لثديّ البؤس راضعة ، والله سبحانه يُوفِدُ بخبر فتحها القريب ركابَ البُشرى ، وينشر رحمته قبيلنا نشرًا .

«ثم تنوّعت يا رسول الله لهذا العهد أحوالُ العدو تنوّعاً يوهم إفاقته من الغمرة ، وكادت فتنته تؤذّن بجمود الجمرة ، وتوقّع الواقع ، وحذّر ذلك السمّ الناقع ، وخيف الحرق الذي يحار فيه الراقع ، فتمرفنا عوائد الله سبحانه ببركة هدايتك ، وموصول عنايتك ، فأنزل النصر والسكينة ، ومكّن العقائد المكيّنة ، فثابت العزائم وهبّت ، واطّردت عوائد الإقدام واستتبت ، وما راع العدو إلا خيل الله تعالى تجوس خلاله ، وشمس الحق توجب ظلاله ، وهذاك الذي هدّيت يدُحيض ضلاله ، ونازلنا حصني قنبيل والحائر^٢ ، وهما معقلان متجاوران يتناجى منهما الساكن سراراً ، وقد اتخذنا بين النجوم قرّاراً ، وفصل بينهما حسام النهر يروق غراراً ، والتفّ معصمه في حلّة العصب وقد جعل الجسر سواراً ، فخذل الصليبُ بذلك الثغر منّ تولّاه ، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه ، وتبرجت عروسُ الفتح المبين بمجّلاه ، والحمد لله تعالى على ما أولاه .

ثم تحركنا على نفثة^٣ تعدّي ثغر الوسطة على عدوّه المساور في المضاجع ، ومصبحة بالفاجيء الفاجع ، فنازلنا حصن روطه الآخذ بالكتّمْ ، المعترض بالشّجا اعتراض العظم ، وقد شحنه العدو مددأ بثيساً ، ولم يألُ اختياره رأياً ولا تليساً ، فأعيا داؤه ، واستقلت بالمدافة أعداؤه ، ولما أتلع إليه جيد المنجنيق ،

١ ق : حافي ، وللمها : حامي .

٢ ق : والموائر .

٣ على نفثة : على أثر .

وقد برك عليه بروك الفَنِيْق ، وشد عصام العزم الوثيق ، لجأ أهله إلى التماس
العهود والمواثيق ، وقد غصوا بالريق ، وكاد يذهب بأبصارهم لمعانُ البريق ،
فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمي ذماره ، ويقرر اعتماره ، واستولى أهل
الثغور إلى هذا الحد على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها ، وشرعوا أرشِيَّة الرماح
إلى قُلُوب قلوبها ففتحوها .

« ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفُضُ عن الأعراف مَراكم الغبار ، وترخي عن
آباط خيلها شدَّ حَزْمِ المغار ، حتى عاودت النفوسُ شوقها ، واستتبت ذوقها ،
وخطبت التي لا فَوْقها ، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية ، والمدارك
المتصعبة على الأفكار المتعاصية ، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي
منه طرِقَ وادعُ ، ومطلع الحق الذي صدَّع الباطلَ صادعُه ، وثنية الفتح التي
برَقَ منها لامعه ، ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه ، وفرضة
المجاز التي لا تنكر ، ومجمع البحرين في بعض ما يذكر ، حيث يتقارب الشيطان ،
ويتوازي الخطان ، وكاد أن تلتقي حَلَقَتَا البِطَان ، وقد كان الكفرُ قَدَرٌ قَدَرٌ
هذه الفرضة التي طرقت منها حِماه ، ورماه الفتح الأول بما رماه ، وعلم أن لا
تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم إلاّ من تلقائها ، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها ،
فأجلب عليها برَجْلُه وخَيْلُه ، وسد أفق البحر بأساطيله ، ومراكب أباطيله ،
بقِطع لَيْلُه ، وتداعى المسلمون بالعدوتين إلى استنقاذها من لهواته ، أو إمساكها
من دون مهواته ، فعجز الحول ، ووقع بملكه إياها القول ، واحتازها قَهْرًا ،
وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهرًا ، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم ،
واسودَّت الوجوه لخبرها الهاجم ، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم ، وانقطع
المدد إلا من رحمة من يُنقِص الكروب ، ويغري بالإدالة الشروق والغروب ،
ولما شكنا بشبا الله تعالى نحَرَّها ، وأغصصنا بجيوش الماء وجيوش الأرض
تُكاثِر نجم السماء برها وبحرّها ، ونازلناها نذيقها شديد النزال ، ونحجتها
بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال ، رأينا بأوآ لا يظاهر إلا بالله تعالى ولا يُطال ،

وممنعةً يتحاماها الأبطال ، وجناباً روضه الغيث الهطال ، أما أسواقها فهي التي أخذت النجد والغور ، واستعدت بجدال الجلالد عن البلاد فارتكبت الدور^١ ، تحوز بحراً من العمارة ثانياً ، وتشكك^٢ أن يكون الإنس لها بانياً ، وأما أبراجها فصفوف و صفوف ، تزين صفحات المساييف منها أنوف ، وآذان لها من دوامغ الصخر شُوف ، وأما خندقها فصخر مجلوب ، وسور^٣ مقلوب ، فصَدَقَتْها المسلمون القتال بحسب محلّتها من نفوسهم ، واقتران اغتصابها بيوهم ، وأقول شموهم ، فرشقوها من النبال بظلاله تحجب الشمس فلا يشرق سناها ، وعرجوا في المراقي البعيدة يفرعون منها ، ونفوسها أنقأباً ، وحصونها عقاباً ، ودخلوا مدينة إلبنة^٤ بنتها غلاباً ، وأحسبوا السيوف استلالاً والأيدي اكتساباً^٣ ، واستوعب القتل مقاتلتها السابغة الجُنن ، البالغة المن ، فأخذهم الهول المتفاقم ، وجدلوا كأنهم الأرقام ، لم تفلت منهم عين تطرف ، ولا لسان يلبى من يستطلع الخبر أو يستشرف .

« ثم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سواراً على سورها ، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها ، وأدناوا إليها بالضروب من حيل الحروب ، بروجاً مشيدة ، ومجانيق توثق حبالها منها نشيدة ، وخفقت بنصر الله تعالى عدبات الأعلام ، وأهدت الملائكة مدد السلام ، فخذل الله تعالى كفارها ، وأكهم^٤ شفارها ، وقلم بيد قدرته أظفارها ، فالتمسوا الأمان للخروج ، ونزلوا على مرآقي العروج ، إلى الأباطح والمروج ، من سمائها ذات البروج ، فكان بروزهم إلى العراء من الأرض ، تذكرة بيوم العرّض ، وقد

١ أي أنها وقعت في قضية دور (وهو من مصطلح المنطق) بسبب ما استعدت به من جدال المجالدة ؛ ولا ريب أن التلاعب بمصطلح أهل المناظرة هنا واضح .
 ٢ في ق : البنية ؛ والمقصود أن هذه المدينة «إلبنة» هي بنت الجزيرة الخضراء أي هي من توابعها .
 ٣ يقابل هنا بين الاحتساب - وهو ما كان لوجه الله تعالى - وبين الاكتساب .
 ٤ أكهم : أكل عن الضرب .

جلل المقاتلة الصغار ، وتعلق بالأمان النساء والصغار ، وبودرت المدينة بالتطهير ، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير ، والذكر الجهير ، وطرحت كفارها الثمايل عن المسجد الكبير ، وأزرى باللسنة النواقيس لسان التهليل والتكبير ، وأنزلت عن الصروح أجرامها ، يعيي الهدام^١ مرامها ، وألفي منبر الإسلام بها مجفواً فأنست غربته ، وأعيد إليه قربه وقربته ، وتلا واعظ الجمع المشهود ، قول منجز الوعود وموِّق العود ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ، فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلَتْهُمْ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ ، وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتَيْبٍ ، وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ، ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾ (هود: ١٠٢) فكان الدمع يُغرق الآماق ، والوجد يُستأصل الأرماق ، وارتفعت الرغبات ، وعلت السيات ، وجيء بأسرى المسلمين يرسفون في القيود الثقال ، وينسلون من أحداق الاعتقال ، فضكت عن سوقهم أساود الحديد ، وعن أعناقهم فلَكَاتُ البأس الشديد ، وظلّوا بجناح اللطف العريض المديد ، وترتبت في المقاعد الحامية ، وأزهرت بذكر الله تعالى المآذن السامية ، وعادت المدينة لأحسن أحوالها ، وسكنت من بعد أهوالها ، وعادت الجالية إلى أموالها ، ورجع إلى القطر شبابه ، وردّ على دار الإسلام بابه ، واتصلت بأهل لا إله إلا الله أسبابه ، فهي اليوم في بلاد الإسلام قلادة النحر ، وحاضرة البر والبحر ، أبقى الله تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك ، ودائع الله تعالى في ذمتك ، بكلمة دينك الصالحة الباقية ، وسدّل عليه أستار عصمته الواقية ؛ وعدنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول ، وهجيراً الشروق والأفول ، والجهاد يا رسول الله الشأن المعتمد ، ما امتدّ بالأجل الأمد ، والمستعان الفرد الصمد .

« ولهذا العهد يا رسول الله صلى الله عليك ، وبلّغ وسيلتي إليك ، بلغ من هذا

١ الهدام : الآلات .

الْقَطْرُ المرتدي بجاهك الذي لا يذل من ادَّرَعَه ، ولا يضل من اهتدى بالسبيل الذي شرعه ، إلى أن لاطَفْنَا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها ، ورفع التماثيل بيوت الله تعالى ونصبها ، فأنجاب عنها بتورك الحلك ، ودار بإدالتها إلى دعوتك الفلك ، وعاد إلى مكاتبتها القرآن الذي نزل به على قلبك الملك ، فوجبت مطالعة مَقْرَكِ النبويِّ بأحوالِ هذه الأمةِ المكفولة في حَجْرِكَ ، الفضلة بإدارة تَجْرِكَ ، المهتدية بأنوار فَجْرِكَ ، وهل هو إلا ثمراتُ سَعْيِكَ ، ونتائج رَعْيِكَ ، وبركة حَبِّكَ ، ورضاك الكفيل برضى ربك ، وغمام رعدك ، وإنجاز وَعَدِّكَ ، وشعاع من نور سعدك ، وبَدْرٌ يجني رَيْعَهُ من بعدك ، ونصر رايتك ، وبرهان آيتك ، وأثر حمايتك ورعايتك .

« واستنبتُ هذه الرسالة مائحةً ببحرِ الندى الممنوح ، ومُفَاتِحَةَ بابِ الهدى بفتح الفتوح ، وفارعة المظاهرِ والصروح ، وملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح ، لتمدُّ إلى قبولك يدَ استمناح ، وتطيرَ إليك من الشوق الحثيث بجناح ، ثم تقف موقف الانكسار ، وإن كان تَجْرُها آمناً من الخسار ، وتُقَدِّمُ بأنس القربة ، وتحجم بوحشة الغربية ، وتتأخر بالهيبه ، وتُجْهش لطول الغيبة ، وتقول : ارحم بُعدَ داري ، وضعف اقتداري ، وانتزاح أوطاني ، وخلوِّ أعطاني ، وقلة زادِي ، وفراغ مزادي ، وتقبلُ وسيلةَ اعترافي ، وتغمدُ هفوةَ اقترافي ، وعجلُ بالرضى انصراف متحملي لانصرافي ، فكم جُبْتُ من بحر زاخر ، وقفَرُ بالركاب ساخر ، وحاش لله تعالى أن يخيب قاصدك ، أو تتخطاني مقاصدك ، أو تطردني موائدك ، أو تضيقَ عني عوائدك ، ثم تمدَّ مقتضيةً مزيد رحمتك ، مستدعيةً دعاء مَنْ حضر من أمتك ، وأصحابتها يا رسولَ الله عرضاً من النواقيس التي كانت بهذه البلاد المفتحة تعيق الإقامة والأذان ، وتسمع الأسماع الضالة والأذان ، مما قَبِلَ الحركة ، وسالم المعركة ، ومكَّن من نقله الأيدي المشتركة ، واستحق بالقدوم عليك والإسلام بين يديك السابقة في الأزل البركة ، وما سواها فكانت جبالاتٍ عَجَزَ عن نقلها الهدام ، فنسخ وجودها الإعدام ، وهي يا

رسول الله جنى من جنائك ، ورطبٌ من أفنانك ، وأثرٌ ظهر علينا من مسحةِ جنائك .

« هذه هي الحال والانتحال ، والعائقُ أن تشدَّ إليك الرحال ، ويعمل الرحال ، إلى أن نلتاق في عَرَصات القيامة شفيحاً ، ونحلَّ بجاهك إن شاء الله تعالى محلاً ربيعاً ، ونقدمَ في زُمْرَةِ الشهداء الدامية كلومهم من أجلك ، الناهلة غلغهم في سَجَلِك ، ونبتهل إلى الله تعالى الذي أطلعك في سماء الهداية سراجاً ، وأعلى لك في السبع الطباق معراجاً ، وأم الأنبياء منك بالنبى الخاتم ، وقَفَى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم ، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغربية أسبابك ، ولا يسدَّ في وجوها أبوابك ، ويوقفها لاتباع هداك ، ويثبت أقدامها على جهاد عِداك ، وكيف تعدم ترفيها ، أو تخشى بَخْساً وأنت موقيةها ، أو يعذبها الله تعالى وأنت فيها ؟ وصلاة الله وسلامه تحط بفنائك رحال طيبها ، وتهدر في ناديك شقاشقُ خطيبها ، ما أذكر الصباحُ الطلُّقُ هداك ، والغمامُ السكُّبُ نَداك ، وما حنَّ مشتاق إلى لثَمِ ضريحك ، وبَلَّيتُ نسمات الأسحار عمّا استرقت من ريحك ، وكتب في كذا » . انتهت الرسالة ، وفيها ما لا يخفاء به من براعة لسان الدين ، رحمه الله تعالى وقدس روحه الطاهرة ، آمين .

٨٧ - وممّا علق بحفظي من نثره رحمه الله تعالى أثناء رسالة في الغزاه خاطب بها ملك المغرب قوله بعد كلام : أين مروان بن الحكم ودهاؤه ، وعبد الملك بن مروان وبهاؤه ، والوليد وبنائه ، وسليمان وغذاؤه ، وعمر بن عبد العزيز وثناؤه ، ويزيد ونساؤه ، وهشام وخيلاؤه ، والوليد وندماؤه ، والجعدي وآراؤه ، أم أين السفاح وحسامه ، والمنصور واعتزاه ، والمهدي وإعظامه ، والهادي وإقدامه ، والرشيد وأيامه ، والأمين وندامه ، والمأمون وكلامه ، والمعتم وإسراجه وإلحامه ؟ انتهى .

وقد تقدّم كلام أبي الخطاب ابن دحية في هذا المعنى بطوله في الباب الثاني من هذا القسم ، فليراجع ثمة ^١ .

[للمقرّي محاكياً لسان الدين]

قلت : وقد تقدّم في الخطبة نَظْمِي لمثل هذا ، وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثراً مما لم يحضرني منه الآن غير قولي : أين الإسكندر ويونانه ، وشَدَاد وبنِيانه ، والنمروذ وعدوانه ، وفرعون وهامانه ، وقارون وطغيانه ، وكسرى أنوشروان وإيوانه ، وقيصر وبطارفته وأعوانه ، وسيف ابن ذي يَزَنَ وغُمْدانه ، والمنذر ونُعْمانه ؟ إلى أن قلت : وأين أبو بكر رضي الله تعالى عنه وثباته ، وعمر رضي الله تعالى عنه ووثباته ، وعثمان رضي الله تعالى عنه ورهباته ، أم أين علي رضي الله تعالى عنه وشجاعته وعلمه ، وأين معاوية رضي الله تعالى عنه وحمله ، وأين يزيد وظلمه ؟

ثم ذكرت ما تقدم لسان الدين ، وقلت بعده : وأين الواثق وغاناؤه ، والمتوكل وموآليه وأولياؤه وأبناؤه ، والمنتصر وآماله ، والمعتر وجماله ، والمستعين وعمّاله ، والمهتدي وأعماله ، والمعتمد وذكَاؤُهُ وإحاطته بالأخبار واشتماله ، والمقتدر ونساؤه وإهماله ؟ إلى أن قلت : وأين بنو عبّيد وصلاحهم ، وبنو بويه وصلاحهم ، وبنو سَلْجُوق ونظامهم ، وبنو سامان وإعظامهم ، وبنو أيوب وصلاحهم ، والجراكسة ومبائيتهم وسلاحهم ؟

ثم قلت في ملوك المغرب : وأين عبد الرحمن الداخل وأمراؤه ، والناصر وزهراؤه ، والحكم ووزراؤه ، والمؤيد وظهرائه ، أم أين المنصور بن أبي عامر وغزواته وموآليه ، والمُظَفَّر وأدواته ومعاليه ، أم أين بنو حَمّود

١ انظر المجلد ٥ : ١١٥ .

وعُلاهم ، وأوصافهم وحِلاهم ، وبنو جَهْوَرٍ وحَزْمِهِم ، وبنو باديس وعَزْمِهِم ، وأين مُعْتَضِدِ بَنِي عَبَّاد ، ومعتمدِهِم الذي سَنَا كَرَمِهِ للمعتفين باد ، وبنو ذي النون وَمَزِيَّتِهِم ، وبنو صُمَادِحٍ ومرِيَّتِهِم ، وبنو الأَفْطَسِ وبنو هود ، وما كان لهم من المكارم في الحفل المشهود ، وأين لَمَتُونُهُ ، وصبرِهِم الذي ركبوا مُتُونُهُ ، أم أين الموحدون وناصرِهِم ومنصورِهِم ، ومصانِعِهِم وقصورِهِم ، أم أين بنو الأحمر وغرناطتِهِم ، وإزالَتِهِم عن حوزة الدين أدناسَ المعتدين وإمَاطَتِهِم ، وجَعَلْتُهُمُ الأُمُورَ لِمِثْلِ ابن الحكيم ولسان الدين وإِنَاطَتُهُمُ ، أم أين بنو مَرِيْنٍ وفارسِهِم ، ومغانِيهِم ومدارسِهِم ، وأين بنو زِيَّانٍ ومنازلِهِم الشاهقة ، وأشجار عَزْمِهِم الباسقة ، وأين الحَفْصِيَّوْنَ ، ومستنصرِهِم الذي قضى للمعالي الديون ، وأبو فارس ، الذي شُنِفَتْ بأخباره آذانُ الطروس والفهارس ؟ طحنت والله تعالى الجميعَ رَحَى النون ، وتَأَيَّمَتِ الأزواجُ ويتم البنون ، وطالت الأيام والسنون ، وبقيت القصور العالية خالية ، والرسوم المتكاثرة دائرة ، والسلوك المنظومة متناثرة ، وعن قريب يقف الكلُّ بين يدي ربِّ الأرباب ، في يوم تَدَهَّلَ فيه الألباب ، وتنقطع إلا من رسول الله صلى الله عليه وسلم الأسباب ، ويقتنص للمظلوم من الظالم ، وتنبهم للنجاة الطرقُ والمعالم ، وتُبَلِّى السرائر لدى مَنْ هو بها عالم ، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مِمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّرًا ، وَمِمَّا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ (آل عمران : ٣٠) يوم يحكم الله تعالى في الخلق ، بالحق ، حسبما سبق في علمه إذ جعلهم قريباً وبعيداً ، وشقيماً وسعيداً ، اللهم اجعلنا في ذلك اليوم الصعب مَمَّنَ فاز بالنجاة ، وحاز شفاعة نبيك ومُصْطَفَاكَ ذي الحرمة والجاه ، صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم ؛ انتهى .

رجع لنثر لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى :

٨٨ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب

أبا زِيَان لما تمَّ له الأمر ، وهو مشتمل على نظم ونثر ، ونصّه :

يا ابن الخلائف يا سميَّ محمدٍ
أبشُرْ فأنت مجدُّدُ الملكِ الذي
من ذا يعاندُ منكَ وارثه الذي
ألقَتْ إليكَ يدُ الخلافةِ أمرها
هذا وبينكَ للصريخِ وبينها
من كانَ هذا الصنعُ أوَّلَ أمره
مولايَ عندي في علاكَ محبةٌ
قلبي يحدّثني بأنكَ جابرٌ
بثرى جدودك قد حطّطتُ حقيبي
وبذلتُ وسعي واجتهادي مثلما
فهو الولي لدى الذي اقتحم الردى
وولي جدكَ في الشدائدِ عندما
فاستهد منه النصحَ واعلم أنه
إن كنت قد عجلت بعضَ مدائحِي

يا مَنْ علاهُ ليس يحضُرُ حاصِرُ
لولاك أصبحَ وهو رَسْمٌ دائِرُ
بعوده فلكُ المشيئةِ دائِرُ
إذ كنتَ أنت لها الوليُّ الناصرُ
حربٌ مضرّسةٌ وبحرٌ زاجرُ
حسنتَ له العقبي وعزَّ الآخِرُ
واللهُ يعلمُ ما تُكِنُّ ضمائرُ
كسري ، وحظي منك حظٌّ وافِرُ
فوسيلتي لعلاكَ نورٌ باهرُ
يلقي للملكِ سيفَ أمركَ عامرُ
وقضى العزيمة وهو سيِّفٌ باترُ
خذلت علاهُ قبائلٌ وعشائرُ
في كلِّ معضلةٍ طيبٌ ماهرُ
فهي الرياضُ ، وللرياضِ بواكرُ

« مولانا ، وعمدة ديننا ودياننا ، الذي سخر الله تعالى البر والبحر بأمره ،
وحكم فوق السموات السبع بعز نصره ، وأغنى يوم سعده عن سلّ السلاح
وشهّره ، وفتق عن زهر الصنع الجميل كمامة تسليمه وصبّره ، وقبض له في
علم غيبه وزيراً مذخوراً لشدّ أزره ، وقوّد الملك إليه على حال حصّره ،
الخليفة الإمام ، الذي استبشر به الإسلام ، وخفقت بعزه الأعلام ، ولاح بدرُ
مُحيّاه فافتضّ الظلام ، المقتدي بالنبي الكريم سميّه في المرشد التي تألقت منها
الصبح ، والمقاصد التي لازمها الشجع ، والتمحيص الذي نبع منه المنع ، حتى

في الهجرة التي جاءه بعدها الفتح ، أبو زيان ابن مولانا السلطان ولي العهد ترشيحاً ومآلاً ، ومؤمل الإسلام تقلداً للمذهب الصريح وانتحالاً ، وأمير المسلمين لو أوسع القدر إمهالاً ، ووُسْطَى عقد البنين خلائق متعددة وخِلالاً ، المتحف بالشهادة ولماً يعرفُ بدره هلالاً ، المعوّض بما عند الله تعالى سعادة ألبسته سِرْبَالاً ، وأبلغته من رضوان الله تعالى آمالاً ، أبي عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء ، وعنصر الصبر والوفاء ، وسر الله تعالى المسدول على الضعفاء ، والمجاهد في سبيل الله تعالى بنفسه وماله ، المنيف على مراكز النجوم بهمه وآماله ، المقدس أبي الحسن ابن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين ، من قبيل بني مَرَيْن ، وصفوة الله تعالى في هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين ، وزينة الدنيا وعمدة الدين ، هنأه الله تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل ، وخوّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل ، وتوّجه من تاج العزة القعساء عند اشتباه السبيل ، وعوّضه من قبيل الملائكة عند تشتت القبيل ، وجعل قدمه الراسخة ، وآياته الناسخة ، وربّوته السامية الباذخة ، وغرة نصره الشاذخة ، وأوزعه شكر آلائه ، في الخلاص من ملكة أعدائه ، وخطر البحر وعدوان مائه ، وغُول السفر ، وارتكاب الغرر ، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بدّلوا تبديلاً ، ولا ارتضوا لقبيلة طاعته بعد أن ولوا وجوههم شطّرها تحويلاً ، بل صبروا صبراً جميلاً ، وباعوا نفوسهم تنميماً لعقدة إيمانهم وتكميلاً .

« يسلم على مقامكم الذي وسم السعد مشرق جبينه ، وذُخِرَتْ قِبْلُ الطاعة ليمينه ، وأقسم الدهر بمظاهرة أمره السعيد فبراً - والشكرُ لله تعالى - في يمينه ، عبدكم الذي اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى ، وقرّ بملككم عيناً وشرح صدرا ، وبذل الجهد وإن قل قُدْرَةَ وقدر ، والتمس لكم الدعاء علناً وسراً ، ابنُ الخطيب الذي حَطَّ رَحْلَ اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم ، محارب

١ شدخت الغرة : سالت فملاّت الوجه دون أن تصل العينين .

بركم وأسباب وجودكم ، وآبائكم الذين في مظاهرتهم ورعيتهم يظهر للناس مخايلُ هداكم وتدرُّ سحائبُ جودكم ، ملتحفاً منذ سنتين بأصونة قبورهم وثيابها ، مستظلاً بأفنيتهما المعظمة وقبايبها ، ممرغاً خدّه بترابها ، مؤاصلاً الصراخ يا لمرين ويا ليعقوب متطارحاً على أبوابها ، فلم يُتسحِ الله تعالى له نعمة ترعى الضيف وتحمي الدخيل ، أو حميةً تدفعُ الضيم وتشفي الغليل ، إلاّ على يديكم يا أيّها الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، وبطل الميدان في موقف الهول العظيم ، المذخور لنصر المظلوم وإنصاف الغريم ، وإجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم .

« كتبه مهنتاً بما سنّى الله تعالى لملككم من الصنع الذي خرق حجاب العادة ، وأرى إعجاز السعادة ، معجلاًً ذلك بين يدي المبادرة إلى لثم بساطكم الذي شرفَ وجوهها بلثمهِ الوجوه ، وتحشاهُ الأملاك الجبابرةُ وترجوه ، وأداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائه في الحقل المشهود ، وإبلاغ لسان الحمد وسع الجهود ، وإلقاء ما عند العبد من خلوص وجنوح ، وحبّ واضح أيّ وضوح ، فوليّ دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزّه الله تعالى يقرره ، ويبين مجمله ويفسره ، والعبد واثق بفضل الله تعالى على يديكم ، وملتمس النصر لديكم ، وقاطعٌ أن طلبته بكم تتسنى ، وأنكم سبب عاقبته الحسنى ، إما بالظهور على الوطن الذي تجرأ به المنقلبُ على ملككم ، ومدّ اليد إلى نثر سللككم ، ونقص لإرثكم المسلم المحرر ، وزلزل وطنكم المؤسس على الطاعة المقرر ، وأضرم النار في بساطكم وجبالكم ، وأطلق يد الفتنة على بيوت أموالكم متكرراً عليكم بالقلة ، متعزراً بالذلة ، جانياً على داركم بما لا تبيحه الملة ، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يتأذن الله تعالى في الانتصاف ، والله يجعلُ الظهورَ بكم من الأوصاف ، ويعينكم على جبر الكسير ، وتيسير الأمر العسير ، ويهنيكم منيحة الملك الكبير ، ويبقي كلمته في عقبكم بعد تملؤ التعمير ، والسلام » .

٨٩ - وله رحمه الله تعالى في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور: « المولى الذي طوق المنن ، وأحيا السنن ، وأنبت الله تعالى حبه في القلوب النبات الحسن ، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها ، ومُقِيل عثارها ، والآخذ بثارها ، والمخلد لآثارها ، السلطان أبو زيان . . . إلخ - أبقاكم الله تعالى عالي القدم ، منصور العَلَم ، ظاهراً على الأمم ، مقصود الحمى كالركن المتمزَم . عبدُ مقامكم الذي آوَيْتموه غريباً ، وأنستموه مريباً ، وأنلتموه على عدوه الدهرِ نصرأ عزيزاً وفتحاً قريباً ، فلم يخش دركاً وثريراً ، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريباً ، ابن الخطيب عن ثناء يعطر الآفاق ، ويرقم الأوراق ، ويخلق الجيوب والأطواق ، وحب بهر نوراً وراق ، وجاس اشتهاره الشام والعراق . ويطالع العبدُ محل مولاه الذي خلّف ببابه قلبه وولده ، وصبره وجلده ، وصير وطنه داره الحقيقيةً وبلده ، أته لما قدم على محل أخيه ، المعتد بما أودع الله تعالى من الخلال الشريفة فيه ، مولاي ابن مولاي أبي عبد الله - كفل الله تعالى جميل رعيه وكرم عهده ، وحكم بإعلاء جدّه ومضاء حدّه - رَعَى الوسيلة ، وصدّق المخيلة ، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة ، فلم يدعُ حقاً إلا صرفه ، ولا نكرة إلا عرفه ، ولا نعمة إلا أولاه ، وما ذاك يا مولاي وإن تعددت الرسائل والأذمة ، وادّكرت القُربُ بعد أمة ، إلا بوصاتكم التي لا تُهمل ، وحرمتكم التي لا تُجهل ، وعطف مقامكم الذي اشتهر ، واعتنائكم بعبدكم الذي راق وبهَر ، فالعبد عبدكم بكل اعتبار ، وخدمتكم وإن نأت الدار ، ومحسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار ، والأمل في مقامكم غير منقطع السبب ، والأهل والولد تحت كَنَفِ مقامكم الأصيل الحسب ، حتى يمنَّ الله تعالى بحج بيته وزياره رسوله على يديكم ، ويكون قضاء هذا الوطر منسوباً إليكم ، وبعد هذا يستقرّ القرار ، حيثُ يختار مَنْ يخلق ما يشاء ويختار ، بحول الله تعالى .

والعبد يذكر مولاه بما بشره به بين يدي وداعه ، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه ، من انجلاء الحركة عن عزه وظهوره ، ونجاح أحواله واستقامة أموره ، ويهنيه بصدق الوعد ، وإمطار الرعد ، وظهور السعد ، وهي وسيلة إذا عدت الوسائل ، وروعت الذمم الجلائل ، ومثل مولاي من رعى وأبقى ، وسلك التي هي أبر وأتقى ، وما قصر عنه القلم من حق مولاي فالرسول أعزه الله تعالى يتممه ، وما قصر عنه الرسول فالله تعالى يعلمه ، وهو جلّ وعلا يديم أيام مولاي ويبقي مجده ، ويصلّ سعده ، والسلام « انتهى .

٩٠ - ومما خاطب به لسان الدين رحمه الله تعالى شيخ الدولة يحيى بن رحو^١ قوله : « سيدي الذي له المزية العظمى ، والمحلّ الأسمى ، شيخ قبيل بني مرّين ، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين ، والمتميز بالدهاء والرجاحة ، والمعرفة الفسيحة الساحة ، والصدقة المباحة ، وشروط الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة ، أسلّم على ذاتكم الطاهرة التي بخلت الأزمان والله أن تأتي بنظيرها ، وتنافست الدول في تكبيرها ، وسارت المواكب الملوكية بمسيرها ، وأثنت الألسن بفضلها وخيرها ، وأقرر لديها أنني أعددت من معرفتها بالأندلس كترآلم أنفق منه إلى اليوم وزناً ، إعداداً له وخزناً ، إذ لا يخرج العتاد الكبير إلا عن حاجة وفاقة ، ولا ترد اليد إلى الذخيرة إلا في إضاعة وعجز طاقة ، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلي جهلاً بقيمتها العالية ، وإزراء بجهتها الكافلة الكافية ، لكن نابت عن يدها أيد ، وكفى عن ابتدالها ما كف الله تعالى من عمرو وزيد ، والآن أقرر أنني قد كادت حاجتي إلى ذلك العتاد أن تتمحض ، وزبدته أن تتمحض ، إذ هو حظي من رعيّ ذلك القبيل الذي قصرت عليه رياسته ، والوزير

١ هو يحيى بن عمر بن رحو ، ولاء يوسف بن إسماعيل رياسة الجند المغربي بعد أبي ثابت عامر بن عثمان (سنة ٧٤١) ، وهذه هي وظيفة شيخ الغزاة بالأندلس ، وقد بقي يحيى في هذه الوظيفة حتى سنة ٧٦٤ حين قبض عليه السلطان النصري وسجنه واستلبه جاهه (المصحح البديري : ١١٨) .

الذي من رأيه تستمد سياسته ، وإذا وَفَدَ خاصة هذه المدينة مُهَيَّيْن ، وبشكر
إيائته الكريمة مُثْنِيْن ، فخيمته ظلُّ ظليل ، ومشاركته معتمدي في الكثير فكيف
ولا غرض لي إلاّ في القليل ، وعندي أن رَعِيَه المثلّي لا يفتقر إلى وسيلة تجلب ،
ولا ذِمَام يحسب ، فمثله من قدر قدر الهناء ، وشد أعلام الحمد والثناء ، سامية
البناء ، وعرف أن الدنيا على الله تعالى أحقر الأشياء ، وقد رفعت أمري كله
بعد الله تعالى إلى رأيك ، وغنيت عن سعبي لنفسي بجميل سعيك ، والسلام .

٩١ - وممّا خاطب به لسان الدين شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق
التلمساني رضي الله تعالى عنه قوله شافعاً : « يا سيدي أبقاكم الله تعالى مَحَطّاً
الآمال وقِبْلَةَ الوجوه ، وبلّغ سيادتكم ما تؤمله من فضل الله تعالى وترجوه ،
وكلاً بعين حفظه ذاتكم الفاخرة ، وجعل عز الدنيا متصلاً لكم بعز الآخرة ،
بعد تقبيل يديكم التي يدها لا تزال تُشكر ، وحستها عند الله تعالى تُذكر ،
أنهي إلى مقامكم أن الشيخ الكذا أبا فلان - مع كونه مستحقّ التجلّة بهجرة
إلى أبوابكم الكريمة قَدُمْت ، ووسائل من أصالة وحشمة كرمت ، وفضل
ووقار ، وتنويه للولاية أن كانت ذات احتقار ، وسن اقتضى الفضلُ بره ،
وأدب شكر الاختبار عليه وسرّه - له بمعرفة سلفكم الأرضي وسيلة مرعية ،
وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية ، وتوجه إلى بابكم ، والتمسك
بأسبابكم ، والمؤمل من سيدي ستره بجناح رعيه في حال الكبرة ، ولحظه
بطرف المبرة ، إمتا في استعمال يليق بذوي الاحتشام ، أو سكون تحت رعي
واهتمام ، وإعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام ، وهو أحق الغرضين بالتزام ،
وإحالة سيدي في حفظه رسم مثله ، على الله تعالى الذي يجزي المحسنين بفضله ،
ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العليّ محروساً من النوائب ، مُبَلِّغ الآمال
والمآرب ، والمملوكُ قد قرّر شأنه في إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم ،
والتحسب في هذه الأبواب عليكم ، وتقليب القلوب بيد الله تعالى الذي يعطي

ويمنع ، ويملك الأمر أجمع ، والسلام .

٩٢ - وكتب إليه أيضاً في الشفاعة بما نصّه : « سيدي الأعظم ، وملاذي الأعصم ، وعروة عزي الوثقى التي لا تُفصم ، أبقاك الله تعالى بقاء آثارك آية للجز تأمر الدهر فيآتمر ، ويلبي بفنائك الطائف والمعتمر ، بأيّ لسان أنبي على فواضلك وهي أمّهات المينن ، وطُرفُ الشام واليمن ، ومقامات بديع الزمن ، والتحف المرتفعة عن الثمن ؟ فحسبي دعاء أردده وأواليه ، وأرتقب مطلوبَ الإجابة من مُقدّمه وتاليه ، وإن تشوّف المنعمُ للحالِ الموقوفِ خيرُهُ بمشيئة الله تعالى على جميل سَعِيه ، الموسّد على وطاء لطفه المغشّي بغطاء رعيه ، قلبٌ خافق ، وقلبٌ مؤمن يجول به وسواسٌ منافق ، وقد تجاوز موسى مجمع البحرين ، وأصبح سريّ بابهِ سريّ العين ، ولقد كانت مراحلُ الرّمَلِ قصيرةً قبل أن يكسبها زجلي ثِقَلَ الحركة ، ويخلط خاصّي في وظائفها المشتركة ، وليت أمري برز إلى طرف ، وأفضى إلى منصرف ، وربما ظفر آيس بما يرجوه ، وبرز المحبوب من المكروه ، والله تعالى لا يفضّح جاه الكتاب الذي أحيا وأنشر ، وحيّاً وبشر ، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت ماثبتكم المحشر ، وموصل كتابي ، ينوبُ في تقبيل اليد العليا منّابي .

« وليعلم سيدي أن هذا القطر على شهرته ، وتألّق مشتره وزهرته ، إذا انتحل كرامه ، وعهد الفضل لم يبق إلا انصرامه ، فهو لبابه المتخير ، وزلاله الذي لا يتغير ، أصالةٌ معروفة ، وهمّةٌ إلى الإيثار مصروفة ، ونُبلاً على السنّ والكبرة ، ورجوليةٌ خليقة بصيلة الحرمة والمبرة ، والوسيلة لا تُطرح ، والمعنى الذي لا يفسّر لوضوحه ولا يُشرح ، وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثاً وقديماً ، واعترافه بنعمه مديراً لها ومديماً ، والله تعالى يوفي من إيثار سيدي حظّه ، ويجدّد لديه رعيه ولحظه ، حتى يعود خافقاً علىكم لإقباله ، معلماً بَرْدُ اهتباله ، مسروراً

يلوغ آماله ، فلعمري إن محلَّ ولايته لكفِّي ، وإنَّ عهد أمانته لوفِّي ، وإن عامل جدّه لظاهر وخفيّ ، وما يفعله سيدي من رعيه ، وإنجاح سعيه ، محسوب من مناقبه ، ومعدود في فضل مذاهبه ، والسلام الكريم يخصكم ورحمة الله وبركاته « انتهى .

وقد تكررت في كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه الله تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظماً ونثراً ؛ إذ كان - أعني ابن مرزوق - رئيس الدولة ، ومعمد الجليّة ، وسبق منّا التعريفُ ببعض أحواله في باب مشايخ لسان الدين ممّا جرّته المناسبة ، فليرجع إليه منّ أرادّه ، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة .

٩٣ - وممّا اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد ابن خلدون ، لما ارتحل من بحر المرية واستقر ببلد بسكرة عند رئيسها أبي العباس ابن مَزْنِي ، صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا ، وقد تقلّد كتابة صاحب تلمسان ، ووصل الكتاب عنه من إنشائه ، وهذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى ^١ :

بنفسي وما نفسي عليّ بهينة	فبزلتني عنها المكاسُ بأثمان ^٢
حبيبٌ نأى عني وصمّم لا يني	وراش سهامَ البينِ عمداً فأصماني
وقد كان همُّ الشيبِ ، لا كان ، كافياً	فقد آدني لما ترحلَ همتان
شرعتُ له من دمعِ عينيَ مورداً	فكدرَ شربي بالفراقِ وأظماني
وأرعيته من حُسنِ عهدي جميمةً	فأجذبَ آمالي وأوحشَ أزماني
حلفتُ على ما عنده لي من رضَى	قياساً بما عندي فأحنثَ أيماي
ولأتي على ما نالني منه من قلى	لأشواقٍ من لقياه نُغبةَ ظمآن

١ وردت هذه الرسالة في التعريف : ١٠٤ .

٢ المكاس : المشاحة في الثمن .

سألتُ جنوبي فيه تقرباً عرشه فقتتُ بجنّ الشوقِ جنّ سليمانِ
 إذا ما دعا داعٍ من القومِ باسمه وثبتتُ وما استثبتتُ شيمَةَ هيمانِ
 وتالله ما أصغيتُ فيه لعاذلٍ تحاميته حتى ارعوى وتحاماني
 ولا استشعرتُ نفسي برحمة عابدٍ تُظللُّ يوماً مثلهُ عبدَ رحمنِ
 ولا شعرتُ من قبله بتشوقٍ تخلل منها بينَ روحِ وجثمانِ

أما الشوقُ فحدثتُ عن البحرِ ولا حرَجَ ، وأما الصبرُ فسلُّ به أيةُ درج ،
 بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشقُ الفرج ، والمؤمن ينشَقُ
 من رَوْحِ الله تعالى الأرج ، وأنتى بالصَّبْر ، على إبر الدبّر ، لا بل الضرب
 الهبر^١ ، ومطاوله اليوم والشهر ، حتى حكم القهر ؟ وهل للعين أن تسلو سلو
 المقصر ، عن إنسانها المبصر ، أو تذهل ذهول الزاهد ، عن سرّها الرائي والمشاهد ؟
 وفي الجسد بَضْعَةٌ يصلح إذا صلحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ،
 وإذا كان الفراق هو الحِمام الأول ، فعلامَ الموعول ؟ أعيّت مُراوضة الفراق ،
 على الراق ، وكادت لوعة الاشتياق ، أن تُفْضي إلى السِّيَاق :

تركتُموني بعد تشييعكم أوسع أمرَ الصبرِ عصيانا
 أفرعُ سني ندماً تارة وأستميحُ الدمعُ أحياناً

وربما تعلتُ بغشيانِ المعاهد الخالية ، وجددتُ رسومَ الأسى بمباكرة
 الرسومِ البالية ، أسأل نونَ النوى عن أهليه ، وميمَ الموقدِ المهجور عن مُصْطليه ،
 وثناء الأثافي المثلثة عن منازل الموحدين ، وأحار بين تلك الأطلال حيرة الملحدين ،
 لقد ضللتُ إذأ وما أنا من المهتدين ، ككَلِفْتُ لعمر الله بسالٍ عن جفوني المورقة ،
 ونائم عن همومي المتجمعة المتفرقة ، ظعنَ عن ملال ، لا متبرماً مني بشرّ
 خلال ، وكدرّ الوصل بعد صفائه ، وضرَجَ النصل بعد عهد وفائه :

١ الهبر : الذي يهبر أي يقطع .

أَقِيلَ اشْتِيَاقًا أَيُّهَا الْقَلْبُ رَبِّمَا رَأَيْتَكَ تُصْنِفِي الْوَدَّ مِنْ لَيْسَ جَازِيَا^١
فَمَا أَنَا أَبْكِي عَلَيْهِ بَدْمٍ أَسْأَلُهُ ، وَأَنْهَلُ فِيهِ أَسَى لَه^٢ ، وَأَعْلَلُ بِذِكْرَاهُ قَلْبًا^٣
صَدَعَهُ ، وَأَوْدَعَهُ مِنَ الْوَجْدِ مَا أَوْدَعَهُ ، لَمَّا خَدَعَهُ ، ثُمَّ قَلَاهُ وَوَدَّعَهُ ، وَأَنْشَقُ
رِيَّاهُ أَنْفَ ارْتِيَا حِ قَدْ جَدَّعَهُ ، وَأَسْتَعْدِي بِهِ عَلَى ظَلَمِ ابْتَدَعَهُ :

خَلِيلِيَّ هَلْ أَبْصَرْتُمَا أَوْ سَمِعْتُمَا قَتِيلًا بَكِيٍّ مِنْ حَبِّ قَاتَلَهُ قَبْلِي^٤
فَلَوْلَا عَسَى الرَّجَاءُ وَلَعَلَّهُ ، لَا بَلَّ شِفَاعَةَ الْمُحَلِّ الَّذِي حَلَّه ، لَمْزَجْتُ الْحَيْنِ
بِالْعَتَبِ^٥ ، وَبَثَّتْ كَتَائِبُهُ كَمَاءً فِي شَعَابِ الْكُتُبِ ، تَهَزُّ مِنَ الْأَلْفَاتِ رَمَاحًا خُزُرَ
الْأَسْتَةِ ، وَتُوْتِرُ مِنَ النُّونَاتِ أَمْثَالَ الْقِسِيِّ الْمُرْتَةِ ، وَتَقُودُ مِنْ بِيَاضِ الطَّرْسِ
وَسَوَادِ النَّقْسِ بُلُقًا تَرْدِي^٦ فِي الْأَعْتَةِ ، وَلَكِنَّهُ أَوَى إِلَى الْحَرَمِ الْأَمِينِ ، وَتَفِيئًا
ظِلَالِ الْجَوَارِ الْمُؤْمِنِ مِنْ مَعْرَةِ الْعَوَارِ عَنِ الشَّمَالِ وَالْيَمِينِ ، حَرَمِ الْخِلَالِ الْمُرْتَبِيَّةِ ،
وَالظَّلَالِ الْبِزْرَبِيَّةِ ، وَالْهَمَمِ السَّنِيَّةِ ، وَالشَّيْمِ الَّتِي لَا تَرْضَى بِالْدُونِ وَلَا بِالْدَيْبِيَّةِ ،
حَيْثُ الرَّفْدِ الْمَمْنُوحِ ، وَالطَّيْرِ الْمِيَامِنِ يُزْجَرُ لَهَا السُّنُوحِ ، وَالْمَشْوَى الَّذِي إِلَيْهِ -
مَهْمَا تَقَارَعَ الْكِرَامِ عَلَى الضِّيْفَانِ ، حَوْلَ جَوَابِي الْجَفَانِ - الْمَيْلُ وَالْجَنُوحِ :

نَسَبٌ كَانَ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى نَوْرًا ، وَمَنْ فَلَقَ الصَّبَاحَ عَمُودًا^٧
وَمَنْ حَلَّ بِتِلْكَ الْمَثَابَةِ فَقَدْ اطمأنَّ جَنْبُهُ ، وَتَغَمَّدَ بِالْعَفْوِ ذَنْبَهُ ، وَلِلَّهِ دَرُّ
الْقَائِلِ حَيْثُ يَقُولُ :

- ١ البيت للمتنبّي بعد فراقه لسيف الدولة وحلوله عند كافور .
- ٢ التعريف : وأندب في ربيع الفراق ، أَسَى لَه .
- ٣ التعريف : وأشكو إليه حال قلب .
- ٤ البيت لجميل بثينة ، ديوانه : ١٧٦ .
- ٥ التعريف : لنشرت ألوية العتب .
- ٦ تردّي : تمشي الرديان ، وهو نوع من المشي دون العدو .
- ٧ البيت لأبي تمام (ديوانه : ٨١ ط . بيروت) .

فوحقّه لقد انتدبتُ لوصفه بالبُخلِ لولا أنْ حمصاً داره
بلد متى أذكره تهتجُ لوعتي وإذا قدحتَ الزندَ طار شراره

اللهم غفراً ، لا كُفراً ، وأين قرارة النخيل ، من مَثَوَى الأَقْلَفِ البخيل ،
ومكذبة المخيل ؟ وأين ثانية هَجَرَ ، من متبولاً من أَلحدِ وفَجَرَ ؟

من أنكرَ غيثاً منشؤه في الأرضِ وليسَ بمُخلفها
فبنانُ بني مَزْنِي مُزْنٌ تنهلُ بلطفِ مُصْرَفِها
مُزْنٌ مذ حلَّ بيسكرةٍ يوماً نطقتَ بمُصْحَفِها^١
شكرتُ حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها
ضحكتُ بأبي العباس من أ أيامِ ثنايا زخرفها
وتنكرتُ الدُّنيا حتى عُرِفَتْ منه بمعرفها

بل نقول : يا محلّ الولد ﴿ لا أقسمُ بهذا البلدِ وأنتَ حلٌّ بهذا البلدِ ﴾
(البلد: ٣، ٢) لقد حلَّ بَيْنُكَ عُرَى الجَلَدِ ، وخلقَ الشوقَ بعدك يا ابنِ خلدون
في الصميمِ من الخَلَدِ ، فحيّاً اللهُ تعالى زمناً شُفِيَتْ برُقى قربك^٢ زَمَانَتُهُ ،
واجتُلِيَتْ في صدفِ مجدك جَمَانَتُهُ ، ويا من لمشوقٍ لم تقضِ من طولِ خلتك
لِبَانَتُهُ^٣ ، وأهلاً برووضِ أظلتَ أشناتِ معارفك بانته ، فحمائمهُ بعدك تندب ،
فيساعدها الجُنْدُبُ ، ونواسِمُهُ ترقُّ فتتغاشى ، وعشياته تتخافت وتتلاشى ،
ومزْنُهُ باك ، ودَوْحُهُ في مآتمِ ذي اشتباك ، كأن لم تكن قَمَرَهُالاتِ قبابه ،
ولم يكُ أنسُك شارِعَ بابهِ ، إلى صفوةِ الظرفِ ولُبابهِ ، ولم يسبحِ إنسانٌ عينك في
ماءِ شبابه ، فلهفي عليك من درةِ اختلستَها يَدُ النوى ، ومَطَّلَ بردُها الدهر
ولَوَى ، ونَعَقَ الغرابُ بينها في ربوعِ الجَوَى ، ونطقَ بالزَّجرِ فما نطقَ عن

١ مصحف بسكرة : بشكره أو تشكره .

٢ التعريف : في قربك .

٣ التعريف : وقصيت في مرعى خلتك لبانته .

الهوى ، وبأي شيء نعتاضُ منك أيتها الرياض ، بعد أن طمى نهرك^١ الفياض ،
وفهّقتِ الحياض ؟ ولا كان الشانء المشنوء ، والجربُ المهنوء ، مینَ قِطْعِ
ليلٍ أغار على الصبح فاحتمل ، وشارك في الدمّ الناقّةَ والجمل ، واستأثر جنحه
ببدر النادي لما كمل ، نشر الشراع فَرَاع ، وأعمل^٢ الإسراع ، كأنّما هو
تمساح النيل ضايق الأحباب في البرهة ، واختطف لهم من الشط نزهةَ العينِ
وعینَ الزهه ، ولجّجَ بها والعيون تنظر ، والغمر عن الاتّباع يحظر ، فلم
يُقَدَّرْ إلاّ على الأسف ، والتماح الأثر المشفّ ، والرجوع بملء العيّبة
من الخيبة ، ووقر الجسرة^٣ من الجسرة ، وإنّما نشكو إلى الله البثّ والحزن ،
ونستمطر من عبارتنا المُنزَن ، وبسيف الرجاء نصُول ، إذا شرّعت لليأس
النصول :

ما أقدرَ الله أن يُدثني على شَحَطٍ مَن دارُهُ الحزنُ ممّن داره صُولُ

فإن كان كَلِمَ الفراقِ رغبياً^٥ ، لما نويت مغيباً ، وجللت الوقت الهنيء
تشغيلاً ، فلعلّ الملتقى يكون قريباً ، وحديثه يروى صحيحاً غريباً .
إيه ثقة^٦ النفس كيف حال تلك الشمائل ، المزهرة الخمائل ؟ والشيم ،
الهامية الديم ، هل يمر بيالها مَن راعت بالبعد باله ، وأخمدت بعاصف البين
ذُبالة ، أو ترثي لشؤونِ شأنها سَكْبُ لا يفرّ ، وشوق بيتُ جبال الصبر ويترّ ،
وضنّى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر ، والأمر أعظم والله يستر ، وما
الذي يضيرك ؟ صينَ من لفتح السّمومِ نضيرُك ، بعد أن أضرمتَ وأشعلت ،

١ نهرك : سقطت من ق .

٢ التعريف : وواصل .

٣ الجسرة : الناقّة ؛ والوقر : الحمل .

٤ البيت لحندج بن حندج المري ، (حماة المرزوقي : ١٨٣١) .

٥ الجرح الرغب : الواسع .

٦ التعريف : إيه سيدي .

وأوقدت وجعلت ، وفعلت فعلتك التي فعلت ، أن تترفق بدماء ، أو تردّ
 بنُغْبَةِ ماء ، أرماقَ ظمء ، وتتعاهد المعاهد بتحية يُشَمُّ منها شذا أنفاسك ، أو
 تنظر إلينا على البعد بمُقَلَّة حَوَراء من بياض قرطاسك وسواد أنفاسك ، فربما
 قنعت الأنفُسُ المحبة بخيال زور ، وتعللت بنوالٍ متزور ، ورضيت لما لم تصدِّ
 العنقاء بزرزور :

يا من ترحلَ والنسيمُ لأجلِهِ تشتاقُ إن هبتَ شذا رِيّاهَا
 تحيي النفوس إذا بعثت تحية فإذا عزمْتَ اقرأ ﴿ ومن أحيَاهَا ﴾^١

ولكن أحييت بها فيما سلف نفوساً تفديك – والله تعالى إلى الخير يهديك –
 فنحن نقول معشر مرديك : ثنّ^٢ ولا تجعلها بيضة الديك^٣ ، وعذراً فإنّي لم
 أُجترِ على خطابك بالفقر الفقيرة ، وأدلت لدى حجراتك برفع العقيرة ، لا عن
 نشاط بعثت مرمُوسه ، ولا اغتباط بالأدب تغري سياسته سُوسه ، وانبساط
 أوحى إليّ على الفترة ناموسه ، وإنّما هو اتفاق جرّته نفثة المصدور ، وهناء
 الجربِ المجدور ، وخارق لا مخارق^٣ ، فثم قياس فارق ، أو لحن غنى به بعد
 الممات^٤ مفارق ، والذي سبّبه^٥ ، وسوّغ^٦ منه المكروه وحبّبه ، ما اقتضاه
 الصنويحيى – مدّ الله تعالى حياته ، وحرّس من الحوادث ذاته – من خطاب
 ارتشف به لهذه القريحة بثلاتها ، بعد أن رضي علّلتها ، ورشح إلى الصّهر
 الحضرمي سلّلتها ، فلم يسع إلا إسعافه ، بما أعافه ، فأملت مُجيباً ، ما لا

١ إشارة إلى الآية الكريمة : ومن أحييها فكأنما أحيي الناس جميعاً (المائدة : ٣٢) .
 ٢ من قول بشار :

قد زرتنا مرة في العمر واحدة ثني ولا تجعلها بيضة الديك

٣ التعريف : وإن تعلل به مخارق .

٤ التعريف : بعد البعد .

٥ التعريف : والذي هيأ هذا القدر وسببه .

٦ التعريف : وسهل .

يُعدّ في يوم الرهان نجيباً ، وأسمعتُ وجيباً ، لما ساجلتُ بهذه الترهات سحرراً
عجيباً ، حتى إذا أَلِفَ القلمُ العريان سَبَّحَه ، وجمع بردون الغرارة فلمَّ
أُطِقَ كَبَّحَه ، لم أُنْفِقْ من غَمْرَةٍ غلوه ، وموقف متلوه ، إلا وقد تَحَيَّرَ إلى
فئتكَ معترراً بل معترراً ، واستقبلها ضاحكاً مُفْتَرّاً ، وهشَّ لها برراً ، وإن كان
لونهُ من الوجَلِ ١ مُصْفَرّاً ، وليس بأول من هجر ، في التماس الوصل ممّن
هَجَرَ ، أو بعث التمر إلى هَجَرَ ، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام ،
وإجالة جِياد الأقلام ، في محاوراة الأعلام ؟ بعد أن حال الجَرِيضُ ، دون القريض ٢ ،
وشغل المريض ، عن التعريض ، واستولى ٣ الكسَلُ ، ونصلت الشعرات البيض
كأنّها الأسَلُ ، تروع برقط الحيات ، سِرْبَ الحياة ، وتطرق بذوات الغُرُزِ
والشَيَاتِ ٤ ، عند البيات ، والشيب الموت العاجل ، وإذا ابيضَّ زَرَعٌ صَبَّحَتْه
المناجل ، والمعتبر الآجل ، وإذا اشتغل الشيخ بغير معاده ، حُكِمَ في الظاهر
بإبعاده ، وأسرهُ في مَلَكَةِ عِبادِهِ ، فأغضَّ أبقاك الله واسمح ، لمن قَصَرَ عن
المَطْمَحِ ، وبالعين الكليّة فالمح ، واغتم لباسَ ثوب الثواب ، واشفَّ بعض
الجوى بالجوَابِ ، تولاك الله تعالى فيما استضفت وملكت ، ولا بعدت ولا
هلكت ، وكان لك أية سلكت ، ووَسَمَك من السعادة بأوضح السمات ، وأتاح
لقائك من قبل الممات ، والسلام الكريم يعتمد جلال ولدي ، وساكن خَلْدِي ،
بل أخي وإن عتبه ٥ وسيدي ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

قلت : هذه الرسالة الرافلة في حلال البلاغة لم أر مثلها ولم أقف عليه ، فرحم
الله تعالى لسان الدين ووجهه سحائب الرحمة إليه ، فلقد كان آية الله في النظم

١ التعريف : الخجل .

٢ هذا مثل ؟ والجريض : ما يعترض في الخلق من غصص ، أي حال العائق دون قول الشعر ،
ويتصل بقصة عبيد بن الأبرص ويوم البؤس عند النعمان .

٣ التعريف : وغلب حتى .

٤ ذوات الفرر والشيات هي الخيل .

٥ التعريف : وإن اتقيت عتبه .

والنثر وجميع العلوم على اختلافها .

٩٤ - وكما خاطب الولي ابن خلدون مخاطب أخاه أبا زكريا يحيى حسبما قال في بعض كتبه : ومما خاطبت به الفقيه أبا زكريا ابن خلدون ، لما ولي الكتابة عن السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان من بني زيان واقترن بذلك نصر وصنع غبطته به وأشدّتْ به قصد تنفيقه وإنهاضه لديه : «نخص الحبيب الذي هو في الاستظهار به أخ وفي الشفقة عليه وكّد ، والولي الذي ما بعد قرب مثله أمل ولا على بُعد جلد ، والفاضل الذي لا يخالف في فضله ساكن ولا بلد ، أبقاه الله تعالى وفاز فوزه وعصمته لها من توفيق الله سبحانه عمد ، ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غور ولا ثمد ، ومدى إمداده من خزائن إلهام الله تعالى وسداده ليس له أمد ، وحمى فرح قلبه بمواهب من ربه أن يطرقة كمد .

«تحية مُحِلِّه ، من صميم قلبه بمحلته ، المنشئ رواق الشفقة ، مرفوعاً بعمد المحبة والمِقَّة ، فوق ظعنه وحلّه ، مؤثره ومُجِلِّه ، المعتي بدقّ أمره وجِلِّه ، ابن الخطيب ، من الحضرة الجهادية غرناطة ، صان الله تعالى خلالها ، ووقى هجير هجر الغيوم ظلّالها ، وعمر بأسود الله تعالى أغيالها ، كما أغرى بمن كفر بالله تعالى صيالها ، ولا زائد إلاّ من من الله تعالى تصُوب ، وقوة يسترد بها المغصوب ، ويخفف الصليب المنصوب ، والحمد لله تعالى الذي بحمده يُنال المطلوب ، وبذكره تطمئن القلوب ، ومودتكم المودة التي غذتها تُدِيّ الخلوص بلبانها ، وأحلتها حلائل المحافظة بين أعينها وأجفانها ، ومهدت موات أخواتها الكبرى أساساً بنيانها ، واستحقت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء الله تعالى واتصال زمانها ، واقتضاء عهد الأيام بيمينها وأمانها ، والله درُّ القائل :

فإن لم يكنْها أو تكُنْه فإنّه أخوها غَدَتْه أمّه بلبانها^١

١ البيت لأبي الأسود الدؤلي (ديوانه في نفاث المخطوطات ٢ : ٣٧) وكان له غلام يتاجر إلى الأهواز ويشرب الخمر .

« وصل الله تعالى ذلك من أجله وفي ذاته ، وجعله وسيلة إلى مرضاته ، وقربة تنفع عند اعتبار ما روعي من سنن الجبار ومفترضاته .

« وقد وصل كتابكم الذي فاتح بالريحان والروح ، وحلّ من مرسوم الولاء محلّ البَسْمَلَة من اللوح ، وأذن لتوافح الثناء بالبوح ، يشهد عدله بأنّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دارَ خلود ، وقدح زنداً غير صلود ، واستأثر من محابركم السيلة ، وقضّب أقلامكم الميادة الميالة ، بأبٍ مُنْجِبٍ وأم ولود ، يقفو شانيه غير المشنوّ ، وفصيله غير الجرب ولا المهنوّ ، من الخطاب السلطاني سفينة مُنْوَح ١ ، إن لم نقل سفينة نوح ، ما شئت من آل أزواج ، وزمّر من الفضل وأفواج ، وأمواج كرم تظفو فوق أمواج ، وفنون بشائر ، وإهطاع قبائل وعشائر ، وضربٍ للمسرات أعياء الشائر ، فله هو من قلم راعي نَسَبَ القنا فوصل الرحم ، وأنجد الوشيج والملتحم ، وساق بعصاه من البيان الذود المزدهم ، وأخاف من شدّ عن الطاعة مع الاستطاعة فقال ﴿ لا عاصمَ اليَوْمَ مِن أمرِ اللهِ إلاّ مَنْ رَحِمَ ﴾ (هود : ٤٣) ؛ ولو لم يوجب الحقّ برّقه ورعده ، ووعيده ووعده ، لأوجبه يمنه وسعده ، فلقد ظهرت مَخايل نُجْحِه ، علاوة على نصحه ، ووضحت محاسن صُبْحِه ، في وحشة الموقف الصعب وقبحه ، وصلّ الله تعالى له عوائد منحه ، وجعله إقليداً كلّما استقبل باب أمل وكَلَّه الله تعالى بفتّحه .

« أمّا ما قرّره ولاؤكم من حب زكا على حبة القلب حبّه ، وأنبته النبات الحسن ربّه ، وساعده من الغمام سكّنه ، ومن النسيم اللدن مهبّه ، فرسم ثبت عند الوليّ نظيره ، ومن غير معارض يَضِيرُه ، وربما أربى بتذييل مزيد ، وشهادة ثابت ويزيد ٢ ، ولم لا يكون ذلك ، وللقلب على القلب شاهد ؟ وكونها

١ المنوح : العطايا .

٢ ثابت ويزيد : من أعلام التابعين الثقات كأن تقول : ثابت البناني ويزيد بن الأسود ؛ ثم يلمح إلى قول جميل :

إذا قلت ما بي يا بثينة قاتلي من الوجد قالت ثابت ويزيد

أجناداً مُجَنَّدَةً لا يحتاج تقريره إلى ماهد وجهه جاهد ، ومودة الأخوة سبيلها
 لاحب ، ودليلها للدعوة الصادقة مصاحب ، إلى ما سبق من فضل ولقاء ،
 ونظافة سقاء ، واعتقاد ، لا يُرَاعَ سِرُّهُ بذنب انتقاد ، واجتلاء شهاب وقّاد ،
 لا يحوج إلى إيقاد ، إنّما عاق عن مواصلة ذلك نوى شَطَطَ منها الشطن ، وتشذيب
 لم يتعين معه الوطن ، فلما تعين ، وكاد الصبحُ أن يتبين ، عاد الوَمِيضُ دَيْجُوراً ،
 والثماد بجرأً مسجوراً ، إلى أن أعلق الله تعالى منكم اليدَ بالسبب الوثيق ، وأحلّكم
 مَنْجَى نِيق^١ ، لا يخاف من منجنيق ، وجعل يراكم لسعادة موسى^٢ معجزة
 تأتي على الخبر بالعيان ، فتخزّ لثعبانها سَحْرَةَ البيان :

أيجبى سقى حيث لُحِتَ الحيا	فَنَعَمَ الشباب ونعمَ الوكون
وحياً يراكم مِن آية	فقد حرك القومَ بعد السكون
دعوتَ لخدمة موسى عصاه	فجاءت تَلَقَّفُ ما يَأفكُون
فأذعنَ من يدّعي السحر رَغْماً	وأسلمَ من أجلها المشركون
وساعدك السعدُ فيما أردت	فكانَ كما يَنْبغي أن يَكُون

«فأنتم أولى الأصدقاء بصلّة السبب ، ورعيّ الوسائل والقرب ، أبقاكم الله
 تعالى وأيدي الغبطة بكم عالية ، وأحوال تلکم الجهات بدرکم المهمات حالية ،
 وديمُ المسرات من إنعامكم المُبِرّات على معهود المبرات متوالية .
 «وأما ما تشوقتم إليه من حال وليكم فأمل متقلص الظل ، وارتقابٌ لهجوم
 جيش الأجلِ المطلّ ، ومُقام على مساورة الصلّ ، وعمل يكذب الدعوى ،
 وطمأنينة تنتظر الغارة الشعوا ، ويد بالمدخور تفتح ، وأخرى تجهد وتمنح ،
 ومرض يزور فيثقل ، وضعف عن الواجب يعقل ، إلا أن اللطائف تستروح ،

١ النيق : الطويل من الجبال .

٢ موسى : هو السلطان أبو حمو .

والقلب من باب الرجاء لا يبرح ، وربما ظفر البائس ، ولم تطَّرد المقاييس ،
تداركنا الله تعالى بعفوه ، وأوردنا من منهل الرضى والقبول على صفوه ، وأذن لهذا
الخرق في رَفْوِهِ .

« وأما ما طلبتم من انتساخ ديوان ، وإعمال بنان في الإتحاف ببيان ، فتلك
عهود لديّ مهجورة ، ومعاهد لا مُتَعَهِّدَة ولا مَزُورَة ، شغل عن ذلك حوضٌ
يعلو لجهه ، وحرص يُقْضَى من لَغْظ المانح عجبُه ، وهول جهادٍ تَسَاوَى جُمَادِيَاهُ
وَرَجَبُهُ ، فلولا التماسُ أُجر ، وتعلُّلُ بريحِ تَجْر ، لقلت : أهلاً بذات
النحيين^١ ، فلئن شكت ، وبذلت المصُون بسبب ما أمسكت ، فلقد ضحكت
في الباطن ضعف ما بكت ، ونستغفر الله تعالى من سوء انتحال ، وإيثار المزاح
بكل حال ، وما الذي ينتظر مثلي ممن عرف المآخذ والمثارك ، وجربَ لما بلا
المبارك ، وخبر مساءة الدنيا الفارك ؟

« هذا أيها الحبيب ما وسعه الوقت الضيق ، وقد ذهب الشباب الرِّيق ،
فليسمح فيه معهود كمالك ، جعل الله تعالى مطاوعة آمالك ، مطاوعة يمينك
لشمالك ، ووطاً لك موطاً العزّ بباب كل مالك ، وقرن النّجج بأعمالك ،
وحفظك في نفسك وأهلك ومالك ، والسلام » انتهى .

٩٥ - ومن مخاطبات لسان الدين لصاحب العلامة أبي القاسم ابن رضوان :

« قد كنت أجهِدُ في التماسِ صنيعةٍ نفساً شهابُ ذكائها وقادُ
وأقولُ لو كان المخاطب غيركم عندَ الشدائدِ تذهبُ الأحقادُ

« سيدي ، أبقاكم الله تعالى علّم فضل وإنصاف ، ومجموع كمال أوصاف :
كلام النية قصير ، والله تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير ، وإليه بعد هذا الخطاب
كلّ رجعى منا ومصير ، وليس لنا إلاّ هو مولّى ونصير ، وهذا الرجل سيدي الخطيبُ

١ يكتفي عن كثرة الشغل لقولهم في المثل : « أشغل من ذات النحيين » والنحي : طرف السن .

أبو عبد الله ابن مرزوق - جيره الله تعالى - بالأمس كنا نقف ببابه ، ونتمسك بأسبابه ، ونتوسل إلى الدنيا به ، فإن كنا قد عرفنا خيراً وجبت المشاركة ، أو كفافاً تعينت المتاركة ، أو شراً اهتلت غرة الهدى الأتفسُ المباركة ، واتصفتُ بصفة من يُعصى فيسمح ، ويُسأل فيمنح ، ويعود إلى قبيح بالفعل الجميل ، ويُحسبُ يدَ التأميل ، ومع هذا فلم نندُرِ إلاّ خيراً كَرُمَ منه المورد والمصرف ، ومن عرف حجة على من لا يعرف ، وأنتم في الوقت سراج علم لا يخبو ستاه ، ومجموع تخلّقت عرفنا منه ما عرفناه ، وهذه هي الشهرة التي تُعتم إذا سمرت ، والهنة التي تُحَبِّر عليها النفسُ إذا نفرت ، حتى لا تجد بعون الله تعالى عارضاً يَعُوقها عن الخير ، وسبيل الكمال الأخير ، والأجر في استيفاء كتاب الشفاعة ، وتحريّ المقاصد النفاة ، وتنفيق البضاعة ، قد ضمنه مَنْ وَعَدَ بقيام الساعة ، والجزاء على الطاعة وغير الطاعة ، وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قبلي ، وهي في الحقيقة لي ، فكيف والله تعالى يرى عملكم وعملي ، والمتروك حقير ، والوجود إلى رحمة من رحمات الله تعالى فقير ، والسلام « انتهى .

٩٦ - ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى قوله في مخاطبة شيخ العرب

مبارك بن إبراهيم رحمه الله تعالى^١ :

« ساحاتُ دارِكِ للضيافِ مَبَارِكُ وبضوءِ نارِ قِرارِكِ يَهْدِي السالكُ
ونوالِكِ المَبذُولُ قد شملَ الوري طرّاً ، وفضلِكِ ليسَ فيه مشارِكُ
قلْ للذي قال الوجودُ قد انطوى والبأسُ ليسَ لَهُ حِسامُ فاتِكُ
والجودُ ليسَ لَهُ غمامُ هاطلُ والمجدُ ليسَ لَهُ همامُ باتِكُ^٢
جمع الشجاعةِ والرجاحةِ والندی والبأسَ والرأيَ الأصيلَ مَبَارِكُ

١ وردت هذه الرسالة في الاستقصا ٤ : ١٣ - ١٥ .

٢ الباتك : القاطع .

للدين والدنيا وللشيم العلاء
 عند الهياج ربيعة بن مكدّم
 ورث الجلالة عن أبيه وجدّه
 فجياده للآملين مراكب
 فإذا المعالي أصبحت مملوكة
 يا فارس العرب الذي من بيته
 يا من يبشّر باسمه قصّاده
 أنت الذي استأثرت فيك بغبطني
 لا زلت نوراً يهتدي بضياؤه
 ويخصّ مجدك من سلامي عاطر
 والجود إن شحّ الغمام السافك
 في الفضل والتقوى الفضيل ومالك^١
 فكأنهم ما غاب منهم هالك
 وخيامه للقاصدين أرائك
 أعناقها بالحق فهو المالك
 حرّم لها حجّ به ومناسك
 فلهم إليه مسارب ومسالك
 وسواك فيه مآخذ ومتارك
 من جتّه للروع ليل حالك
 كالمسك صاك به الغوالي صائك^٢

الحمد لله تعالى الذي جعل بيتك شهيراً ، وجعلك للعرب أميراً ، وجعل
 اسمك فالاً ، ووجهك جمالاً ، وقربك جاهاً ومالاً ، وآل رسول الله صلى الله
 عليه وسلّم لك آلاً ، أسلم عليك يا أمير العرب وابن أمرائها ، وقطب سيادتها
 وكبرائها ، وأهنيك بما منحك الله تعالى من شهرة تبقى ، ومكرمة لا يضل
 المتصف بها ولا يشقى ، إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتساعه ، واختلاف
 أشياعه ، مأمناً للخائف ، على قياس^٣ المذاهب والطوائف ، وصرف الألسنة
 إلى مدحك والقلوب إلى حبك ، وما ذلك إلا لسريرة لك عند ربك ، ولقد
 كنت أيام تجمعي وإيّاك المجالس السلطانية على معرفتك متهاكاً ، وطوع الأمل
 سالكاً ، لما يلوح لي على وجهك من سيما المجد والحياء ، والشيم الدالة على العلياء ،
 وزكاء الأصول وكرم الآباء ، وكان والدي - رحمه الله تعالى - قد عين للقاء

١ الفضيل بن عياض ومالك بن دينار (وقد يكون : مالك بن أنس) .

٢ الغوالي : الطيوب ، مفرداً غالية ؛ صاك : خلط ومزج .

٣ الاستقصا : على كثرة .

خال السلطان قريبيكم لما توجه في الرسالة إلى الأندلس نائباً في تأنيسه عن مخدومه ،
ومنوّهاً حيثُ حلّ بقدمه ، واتصلت بعد ذلك بينهما المُهاداة والمعرفة ، والوسائل
المختلفة ، فعظُم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرف بزيارة ذلك الجنب الذي
حُلولُهُ شرف وفخر ، ومعرفته كنز وذخْر ، فلَمَّا ظهر الآن لمحل الأَخ الكذا
القائد فلان اللحاقُ بك ، والتعلّق بسبيك ، رأيت أنه قد اتصل بهذا الغرض
المؤمل بعضي والله تعالى ييسر في البعض ، عند تقرير الأمنِ وهدنةِ الأرض ،
وهذا الفاضل بركة حيثُ حلّ لكونه من بيت أصالة وجهاد ، وماجداً وابنَ
أجداد ، ومثلك لا يُوصَى بحسن جواره ، ولا يُنَبّه على إيثاره ، وقبيلك في
الحديث - من العرب - والقديم ، وهو الذي أوجب لها مزيةَ التقديم ، لم يفتخر
قطُّ بذهبٍ يجمع ، ولا ذخيراً يُرْفَع ، ولا قصر يبنى ، ولا غرس يُجْتنى ،
إنّما فخرها عدوّ يُغْلَب ، وثناء يجلب ، وجزورٌ ينحر ، وحديث يذكر ،
وجود على الفاقة ، وسماحة بحسب الطاقة ، فلقد ذهب الذهب ، وفي النشَب ،
وتمزقت الأثواب ، وهلكت الخيلُ العِرابُ ، وكلُّ الذي فوق التراب تراب ،
وبقيت المحاسنُ تروى وتنقل ، والأعراضُ تجلى وتُصقل ، والله درُّ الشاعر
إذ يقول :

وإنّما المرءُ حديثٌ بعده فكن حديثاً حسناً لمن وعى^١

هذه مقدمة إن يسّر الله تعالى بعدها لقاء الأمير ، فيجلى اللسان عمّا في
الضمير :

ومدحي على الأملاك مدح ، وإنّما رأيتك منها فامتدحت على وسمي
وما كنتُ بالمهدي لغيرك مدحتي ولو أنه قد حلّ في مفرق النجمِ

١ من مقصورة ابن دريد (ص : ١١٥) .

٩٧ - ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ،

وهو :

« راشَ زَمَانِي وَبَرَى نَبْلَهُ
فَكَنتَ لي من وَقَعها جُنَّةً
ولو قَهَرْتَ الموتَ أَمَّنْتَنِي منهُ
وأَدْخَلْتَنِي الجَنَّةَ
فَكيفَ لا أَنشُرُها مِنَّةً
قد عَرَفْتَهَا الإنسُ والجِنَّةُ »

« بماذا أُخاطب به تلك الجلالة ، فيتيسر الخطاب وتحصل الدلالة ، أسيدي ويشركني فيه ، من قال لا إله إلا الله بفيه ؟ أو بروح حياتي ، ومقدم ماهية ذاتي ، وذخري الكبير الكثير ، لا بل فللكي الأثير ، وهو تضيق على الولد والأهل ، وتعدي المراتب المحدودة من الجهل ، فلم يبق إلا الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان ، وهي بعض دلالات الإنسان ، أفدت الإكسير ، وجبرت الكسير ، ورويت يا أبا العلاء التيسير ، وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الظعن والمسير ، فمن رام شكر بعض^٢ أياديك فلقد شد حقائق الرحال ، إلى نيل المحال ، والحق أن نكّل جزاك ، لمن جعل إلى المجد اعتزك ، ونولي شكرك وثناك ، إلى من عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق وإقامة الحق إنّاك ، وندعو منك بالبقاء إلى الروض المسجود ، وغمام الجود ، وإمام الرُكع السجود ، لا بل لنور الله تعالى المشرق على التهائم والنسجود ، ورحمته المبثوثة أثناء هذا الوجود .

« وليعلم سيدي أن النفس طماعة جماعة ، وسراب آمالها بحارُه لماعة ، فلا تفيق من كد ، ولا تقف عند حد ، سيّما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد ، ولم يَسِرْ منها في عالم الغيب البريد ، ولا تجلت لها السعادة التي يجذب بها المراد ويشمّر لها المرید ، إلى أن يتأتى عما دون الحق المحيد ، ويصح التوحيد ،

١ ق : يا ابن العلاء .

٢ بعض : سقطت من ق .

وقد مثلت الآن خصماً ، توسعُ ظهر استظهارى بالتسليم قَصْماً ، وتقول :
المال عديلي عند القيمة ، وطبيبي في الأحوال السقيمة ، وهو نتيجة كدِّي عند
الأقيسة العقيمة ، ومن استخلصني على شرفي إذا تفاضلت الجواهر ، وتبينت
للحق المظاهر ، وتعينت المراتب التي يقتعدها على رأي البراهمة النور الاصفهندي
والنور القاهر ، فخلاصُ المال طَوَّعُ يديه ، وهو كما قال الله تعالى أهْوَنُ
عليه ، فألاطفها ، حتى تلين معاطفها ، وأخادعها ، حتى تلوي أخادعها ، وأقول :
قد وقع الوعد ، وأشرق السعد ، ولان الجعد ، وسكن الرعد ، والله تعالى الأمر
من قبلُ ومن بعد ، فتجيبني : العمر المنام ، وأيام الجاه والقدرة قد يحق لها
الاغتنام ، وهمُّ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف ، و « إذا لم يغير حائطه »
مثل معروف ، وفي الوقت زبون يرجي به استخلاصُ الحقوق ، ويُسْتَبْعَد وقوع
العقوق ، فإن رأى مولاي أن يَشْفَعَ المنه ، ويقرع باباً ثانياً من أبواب الجنة ،
قبل أن يشغل شاغل ، أو يكدر الأكل والشرب وارش أو واغل ١ ، أو يثوب
للمتعدي نظر في اللجاج ، أو يُدَسَّ له ما يحمله على الاحتجاج ، - و « أو »
متسع مناطها ، فسيح استنباطها ، كثير هياطها ومياطها - فهو تمام صنيعته التي
لم ينسج على منوالها الأحرار ، ولا اهتدت إلى حسنيتها الأبرار ، ولا عرف بدرُ
مجدها السرار ، فإليه كان الفرار ، والله تعالى ثم له خلص الاضطرار ، ويستقر
تحت دخيله القرار ، وتطمئن الدار ، فإن ما ابتداء به من عزَّ ضَرَبَ على الأيدي
العادية منه حكمُ الحكام ، وفارع الهِضاب والآكام ، على ملاٍ ومجمع ،
وبمرأى من الخلق ومَسْمَع ، يقتضي اطراد قياس العزة القعساء ، وسعادة
الإصباح والإمساء ، وظهور درجات الرجال على النساء ، فهو جاه حارت
فيه الأوهام وهذه أذباله ، ومن ركب حقيقة أمرها هان عليه خياله ، والمال
ماله ، والعيال عياله ، والوجود سريع زباله ، والجزء عند الله تعالى مكياه ،

١ الوارش : المتطفل على الآكلين ؛ والواغل : المتطفل على الشاربين ؛ وفي ق : واش .

وعروض المغصوب باقية الأعيان^١ ، مستقلة الشجر قائمة البنيان ، تمنع عن شرائها قاعدة الأديان ، وغيرها من مكيل وموزون ، بين مأكول ومخزون ، والكتب مُلقاة بالقاع ، مطرحة بأحبث البقاع ، فإن تَأْتَى الجَبْر ، وإلا فالصَبْر ، على أنْ وَعَدَ عمادي لا يفارقُ الإنجاز ، ومكرمه التي طوقها قد بلغت الشام والحجاز ، وحقيقة التزامه تباين المجاز ، وآية مجده تستصحب الإعجاز ، ولله در إبراهيم بن المهدي يخاطب المأمون ، لما أكذب في العفو عنه الظنون :

وَهَبْتَ مالي ولم تبخل عليَّ بِهِِ وقبلَ ذلك ما إن قد وهبت دمي^٢

وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتها بأختها الكبرى ، وفريدة فجئت بأخرى ، وشفعت وترا ، أبقاك الله تعالى لتخليد المناقب ، وإعلاء المراتب ، وجعل أحمص نعلك تاجاً للنجم الثاقب ، وتكفَّل لك في النفس والولد بحسن العواقب :

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أضيف إليها ألف آميناً^٣

وأما تنبيه سيدي على إنشاء رزق ، وتقدير رفق ورفق ، فلا أنبه حاتماً وكعباً ، أن يملأ قعباً ، لمن خاض بجرأاً أو ركب صعباً ، هذا أمر كفانيه الكافي ، وداء كَوَخَزِ^٤ الأشافي ، أذهب الشافي ، والسلام « انتهى .

٩٨ - ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى على لسان السلطان قوله :

« هذا ظهيرٌ كريم ، مُضَمَّنُهُ استجلاء لأمر الرعية واستطلاع ، ورعاية

- ١ يشير لسان الدين هنا إلى ما أخذ منه بالأندلس ، من عروض ومكيلات وموزونات وكتب . . . إلخ ؛ ويقول إن أعيان العروض (من شجر ومبان) لا تزال شاهدة .
٢ الأغاني ١٠ : ١٢٥ ، وروايته : « رددت مالي ولم تمنن علي به ؛ وقبل ردك مالي . . . إلخ » .
٣ انظر المجلد ١ : ١٧٥ .
٤ ق : لوخز ؛ والأشافي : جمع إشفى وهو المخرز .

كرمت منها أجناس وأنواع ، وعدل بهر منه شعاع ، ووصايا يجب لها إهطاع ،
أصدرناه للفقير فلان لما تقرر لدينا دينه وعدله وفضله ، رأينا أنه أحقّ من نقلّده
الهمّ الأكيد ، ونرمي به من أغراض البرّ الغرض البعيد ، ونستكشف به أحوال
الرعايا حتى لا يغيب عنا شيء من أحوالها ، ولا يتطرق إليها طارق من أهوالها ،
وينهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها لإنهاء يتكفل بحياطة أبقارها وأموالها .

« وأمرناه أن يتوجه إلى جهة كذا حاطها الله تعالى فيجمع الناس في مساجدهم ،
ويندبهم من مشاهدهم ، ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم ، وإحساب
أموالهم ^١ ، ومكابدتنا المشقة في مداراة عدوّهم الذي نعلم من أحواله ما غاب
عنهم دفعه الله تعالى بقدرته ، ووقى نفوسهم وحرّمهم من معرّته ، ولما رأينا
من انبئات الأسباب التي تؤمل ، وعجز الحيل التي كانت تعمل ؛ ويستدعي
إنجادهم بالدعاء ، وإخلاصهم فيه إلى رب السماء ، ويسأل عن سيرة القوادم ،
وولاية الأحكام بالبلاد ، فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه ، ويقصّها عليه ، ليلبغها
إلينا ، ويوفدها مقررة الموجبات لدينا ، ويختبر ما افترض صدقة للجبل ، وما
فضل عن كريم ذلك العمل ، ليعين إلى بناء الحصن بجبل فارّه يسرّ الله تعالى لهم
في إتمامه ، وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه ، وغيره ممّا افترض إعانة
للمسافرين ، وإنجاداً لجهاد الكافرين ، فيعلم مقداره ، ويتولى اختباره ^٢ ، حتى
لا يجعل منه شيء على ضعيف ، ولا يعدل به لمشروف عن شريف ، ولا تقع
فيه مضايقة ذي الجاه ، ولا مُخادعة غير المراقب لله ، ومتى تحقّق أن غنياً
قُصّر به عن حقّه ، أو ضعيفاً كلف منه فوق طوّقه ، فيجبر ^٣ الفقير من الغني ،

١ ق : آمالهم .

٢ ق : اختياره .

٣ ق : فيجبر .

وَيَجْرِي مِنَ الْعَدْلِ عَلَى السَّنَنِ السَّوِيِّ ، وَيَعْلَمُ النَّاسَ أَنَّ هَذِهِ الْمَعُونَةُ ١ وَإِنْ كَانَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَحَلِّ ضَرُورَتِهَا سَيْرَةً ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَضَاعِفُهَا لَهُمْ أضعافاً كَثِيرَةً ، فَلَيْسَتْ مِمَّا يُلْزَمُ ، وَلَا مِنَ الْمَعَاوِنِ الَّتِي بَتَكَرَّرِهَا يُجْزَمُ ؛ وَيَنْظُرُ فِي عَهْدِ التَّوْفِيقِ فَيَصْرِفُهَا فِي مَصَارِفِهَا الْمَتَبِينَةِ ، وَطَرَفِهَا الْوَاضِحَةِ الْبَيِّنَةِ .

« وَيَتَفَقَّدُ الْمَسَاجِدَ تَفَقُّدًا يَكْسُو عَارِيهَا ، وَيَتِمُّ مِنْهَا الْمَأْرَبُ تَتَمِيمًا يُرْضِي بَارِيهَا ، وَيَنْدُبُ النَّاسَ إِلَى تَعْلِيمِ الْقُرْآنِ لَصِبْيَانِهِمْ ، فَذَلِكَ أَصْلُ أَدْيَانِهِمْ ، وَيَحْذَرُهُمُ الْمَغِيبَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مِنْ أَعْشَارِهِمْ ، فَالزَّكَاةُ أُخْتُ الصَّلَاةِ وَهِيَ مِنْ قَوَاعِدِ الْإِسْلَامِ ، وَقَدْ اخْتَرْنَا لَهُمْ بِأَقْصَى الْجِدِّ وَالْإِعْتِرَازِ ، وَرَفَعْنَا عَنْهُمْ رَسْمَ التَّعْرِيفِ نَظْرًا إِلَيْهِمْ بَعَيْنِ الْإِهْتِمَامِ ، وَقَدَمْنَا الثَّقَاتَ لِهَذِهِ الْأَحْكَامِ ، وَجَعَلْنَا الْحَرَصَ ٢ شَرْعِيًّا فِي هَذَا الْعَامِ ، وَفِيمَا بَعْدَهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الْأَعْوَامِ .

« وَمَنْ أَهَمُّ مَا أَسْتَدْنَاهُ إِلَيْهِ ، وَعَوْلَانَا فِيهِ عَلَيْهِ ، الْبَحْثُ بِتِلْكَ الْأَحْوَازِ عَنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ ، وَالسَّائِرِينَ مِنَ السَّبِيلِ عَلَى غَيْرِ السَّوَاءِ ، وَمَنْ يُنْبِزُ بِفَسَادِ الْعَقْدِ ، وَتَحْرِيفِ الْقَصْدِ ، وَالتَّلْبِيسِ بِالصُّوفِيَّةِ وَهُوَ فِي الْبَاطِنِ مِنْ أَهْلِ الْفَسَادِ ، وَالذَّاهِبِينَ إِلَى الْإِبَاحَةِ وَتَأْوِيلِ الْمَعَادِ ، وَالْمُؤَلِّفِينَ بَيْنَ النِّسَاءِ وَالرِّجَالِ ، وَالْمَتَّبِعِينَ لِمَذَاهِبِ الضَّلَالِ ، فَهَمَّاهُ عَثْرٌ عَلَى مُطَوَّقٍ بِالتَّهْمَةِ ، مَنِيذِرٌ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، فَلْيَشُدِّ ثِقَافَهُ شَدًّا ، وَيَسُدِّ عَنْهُ سَبِيلَ الْخِلَاصِ سَدًّا ، وَيَسْتَرِعِي فِي شَأْنِهِ الْمَوْجِبَاتِ ، وَيَسْتَوْعِبِ الشَّهَادَاتِ ، حَتَّى يَنْظُرَ فِي حَسْمِ دَائِهِ ، وَيَعَاجِلِ الْمَرَضَ بِدَوَائِهِ ، فَلْيَتَوَلَّ مَا ذَكَرْنَا نَائِبًا بِأَحْسَنِ الْمَنَابِ ، وَيَقْصِدْ وَجْهَ اللَّهِ تَعَالَى رَاجِيًّا مِنْهُ جَزِيلَ الثَّوَابِ ، وَيَعْمَلْ عَمَلًا مَنْ لَا يَخَافُ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً لِيَجِدَ ذَلِكَ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ .

« وَعَلَى مَنْ يَقِفُ عَلَيْهِ مِنَ الْقَوَادِ وَالْأَشْيَاحِ وَالْحُكَّامِ أَنْ يَكُونُوا مَعَهُ يَدًّا وَاحِدَةً

١ المعونة : الضريبة ، والجمع معاون .

٢ الحرص : تخمين الكرم والنخيل خاصة ؛ وفي ق : الحرص .

على ما حررنا في هذه الفصول ، من العمل المقبول ، والعدل المبذول ، ومن قصر
عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضى من مقتضياته ، فعقابه عقاب من عصي
أمر الله وأمرنا فلا يلم إلا نفسه التي غرته ، وإلى مصرع النكير جرته ، والله
تعالى المستعان « انتهى .

٩٩ - ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني لما
قصدها عقب ما شرع في جواره وتوسل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم الله
تعالى الجميع :

« السلام عليك ثم السلام ، أيها المولى الهمام ، الذي عرف فضله الإسلام ،
وأوجبت حقه العلماء الأعلام ، وخفقت بعزه نصره الأعلام ، وتنافست في
إنفاذ أمره ونهيه السيوف والأقلام . السلام عليك أيها المولى الذي قسم زمانه
بين حكم فصل ، وإمضاء نصل ، وإحراز خصل ، وعبادة قامت من اليقين على
أصل . السلام عليك يا مقرر الصدقات الجارية ، ومُشبع البطون الجائعة وكاسي
الظهور العارية ، وقادح زناد العزائم الوارية ، ومُكْتَب الكتائب الغازية
في سبيل الله تعالى والسرايا السارية . السلام عليك يا حجة الصبر والتسليم ،
وملتقى أمر الله تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم ، ومفوض الأمر في الشدائد
إلى السميع العليم ، ومُعمَل البنان الطاهر في اكتاب الذكر الحكيم . كرم الله
تعالى تربتك وقدسها ، وطيب روحك الزكية وآنسها ، فلقد كنت للدهر جمالاً ،
وللإسلام ثمالاً ، وللمستجير مجيراً ، وللمظلوم ولياً ونصيراً ؛ لقد كنت للمحارب
صدراً ، وفي المواكب بدرأ ، وللمواهب بحرأ ، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلاً
وسترأ ؛ لقد فرعت أعلام عزك الثنايا ، وأجزلت همتك للملك الأرض الهدايا .
كأنك لم تعرض الجنود ، ولم تنشر البنود ، ولم تبسط العدل المحدود ، ولم توجد
الجود ، ولم تزين الرُكع السجود ، فتوسدت الثرى ، وأطلت الكرى ، وشربت
الكأس التي يشربها الورى ، وأصبحت ضارع الحد ، كليل الحد ،

سالكاً سنن الأب والجد ، لم تجد بعد انصرام أجلك ، إلا صالح عملك ، ولا أصبحت لقبرك ، إلا رابح تجرك ، وما أسلفت من رضاك وصبرك ، فنسأل الله تعالى أن يؤنس اغترابك ، ويَجُودَ بسحاب الرحمة ترابك ، وينفعك بصدق اليقين ، ويجعلك من الأئمة المتقين ، ويعلي درجتك في عَالِيَيْن ، ويجعلك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين .

« ولِيَهْنِكَ أن صَيَّرَ اللهُ تعالى ملكك من بعدك ، إلى نير سعدك ، وبارق رَعَدِكَ ، ومنجز وعدك ، أَرْضَى ولديك ، وريحانة خَلْدِكَ ، وشقّة نفسك ، والسَّرْحَةَ المباركة من غَرْسِكَ ، ونور شمسك ، وموصل عملك البر إلى رمسك ، فقد ظهر عليه أثر دعواتك ، في خلواتك وأعقاب صلواتك ، فكلمتك والمنّة لله تعالى باقية ، وحسنتك إلى محل القبول راقية ، يرعى بك الوسيلة ، ويتمم مقاصدك الجميلة ، أعانه الله تعالى ببركة رضاك على ما قلده ، وعمر بتقواه يومه وغده ، وأبعد في السعد أمده ، وأطلق بالخير يده ، وجعل الملائكة أنصاره والأقدار عُدَدَه .

« وإنتي أيّها المولى الكريم ، البر الرحيم ، لما اشتراي ، وراشني وبراني ، وتعبدني بإحسانه ، واستعمل في استخلاصي خط بنانه ، ووصية لسانه ، لم أجد مكافأة إلا التقرب إليك وإليه برثائك ، وإغراء لساني بتخليد عليائك ، وتعفير الوجنة في حرمك ، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك ، ففتحت الباب في هذا الغرض ، إلى القيام بحقك المفترض ، الذي لولاه لاتصلت الغفلة عن أدائه وتمادت ، فما يبست الألسن ولا كادت ، متحيزاً بالسبق ، إلى أداء هذا الحق ، بادئاً بزيارة قبرك الذي هو رحلة الغرب ما نويته من رحلة الشرق ، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان ، وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان ، والله سبحانه يجعله عملاً مقبولاً ، ويبلغ فيه من القبول مأمولاً ، ويتغمد من ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصيّبة ، والتحيات الطيبة ، فنعم الملوك الكبار ،

والخلفاء الأبرار ، والأئمة الأخيار ، الذين كرمت منهم السيِّر وحسنت الأخبار ،
وسعد بعزماهم الجهادية المؤمنون وشقي الكفَّار ، وصلوات الله تعالى عوداً
وبدءاً على الرسول الذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار ، وعلى آله
وأصحابه الذين هم السادة الأبرار ، وسلم تسليماً » انتهى .

١٠٠ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : وممَّا خاطبت به الوزير المتغلب
على الملك بالمغرب ما نصّه :

« لا ترجُ إلاَّ اللهَ في شدَّةٍ وثيقٍ بهِ فهوَ الذي أيدَكَ
حاشاك أن ترجوَ إلاَّ الذي في ظلمةِ الأحشاء قد أوجدك
فاشكره بالرحمةِ في خلقه ووجهك بسطُ الرضى أو يدك
واللهُ لا تهملُ ألطافه قلادةِ الحقِّ الذي قلَّدك
ما أسعدَ الملكَ الذي سُسنته يا عمراً العدلِ ، وما أسعدك

« نخص الوزير الذي بهر سعده ، وحمد في المضاء قصده ، وعول على الشيم
التي اقتضاها مجده ، وأورثه إياها أبوه وجدّه ، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا ،
أبقاه الله تعالى ثابت القدام ، خافق العلم ، شهير حديث سعده في الأمم ، مثلاً
خبرٌ بسالته وجلالته في العرب والعجم .

« تحية معظم مجده الكبير ، المستند إلى عهده الوثيق وحسبه الشهير ؛ المسرور
بما ستاه الله تعالى له من نَجح التدبير ، والنصر العديم النظير ، وإنجاده إياه
عند إسلام النصير ، وفراق القبيل والعشير ، ابن الخطيب ، واليد ممدودة إلى
الله تعالى في صِلَة سعد الوزير - أبقاه الله تعالى - ودوام عصمته ، واللسان يطنب
ويسهب في شكر نعمته ، والأمل متعلق بأسبابه الكريمة وأذمته ، وقد كان
شيعه مع الشفقة التي أذابت الفؤاد ، وألزمت الأرق والسهاد ، على علم بأن
عناية الله تعالى عليه عاكفة ، وديم آلائه لديه واكفة ، فإن الذي أقدره وأيده

ونصره ، وأنفذت مشيئته ما دبَّره ، كفيل بإمداده ، ومكّيّ بإسعاده ، ومرجّو لإصلاح ديناه ومَعاده ، وفي أثناء هذه الأراجيف استولى على معظم وزارته الجزع ، وتعاورته الأفكار تأخذ وتدعّ ، فإنّي كما يعلم الوزير أعزه الله تعالى منقطع الأسباب ، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعد الجناح ، ومستعدى عليّ بكوفي من المعدودين فيمن له من الخالصان والأحباب ، فشرعت في نظريّ أحصل منه على زوال اللبس ، وأمان النفس ، واللحاق بمأمن يرعاني برعي الوزير ، بخلال ما يدبر الأمر من له التدبير ، ففي أثنائه ، وتمهيد أساس بنائه ، ورَدّ البشير بما سنّاه الله تعالى لسيدي وجابر كسري ، ومنصفي بفضل الله تعالى من دهري ، من الصنع الذي ظهر ، وراق نوره وبهر ، فأمنت وإن لم أكن ممن جئني ، وحفتني المسرات بين فرادي وثني ، وانشرح بفضل الله تعالى صدري ، وزارتي النعم والتهاني من حيث أدري ولا أدري ، ووجهت الولد الذي شملته نعمة الوزير وإحسانه ، وسبق إليه امتنانه ، نائباً عني في تقبيل يده وشكر يده ، والوقوف ببابه ، والتمسك بأسبابه ، آثرته بذلك لأمر : منها المزاولة فيما كان يلزمني من إخوته الأصاغر ، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر ، وإفرادي له بالبركة ، ولعائق ضعف عن الحركة ، وبعد ذلك أشرعُ بفضل الله تعالى في العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العلية ، عارضاً من ثنائها ما يكون وفق الأمنية ، ورُبَّ عمل أغنى عنه فضل نية ، والسلام الكريم على سيدي ورحمة الله تعالى وبركاته .

١٠١ - قال : وكتبت إليه أيضاً على أثر الفتح الذي تكيف له :

« سيدي الذي أُسرَّ بسعاده ، وظهور عناية الله تعالى به في إبدائه وإعادته ، وأعلم كرم مَجادته ، وأعترف بسيادته ، الوزير الميمون الطائر ، البخاري حديثُ سعده ومضائه مجرى المثل السائر ، أبقاه الله تعالى عزيز الأنصار ، جارية يمين نقيبته حركة الفلّك الدوّار ، معصوماً من المكاره بعصمة الواحد القهار ؛

معظم سيادته الرفيعة الجانِب ، وموقر وزارته الشهيرة المناسب ، الداعي إلى الله تعالى بطول بقائه في عزّ واضح المذاهب ، وصنع واكف السحائب ، ابن الخطيب ، عن الذي يعلم سيدي من لسان طلقُ بالثناء ، ويد ممدودة إلى الله تعالى بالدعاء ، والتماس لما يعدُّ من جزيل النعماء ، والفتح الذي تفتح له أبواب السماء ، وقد اتصل ما سنّاه الله تعالى له من النصر والظهور ، والصنع البادي السفور ، لمّا التقى الجمعان ، وتهوديت أكواس الطعان ، وتبين الشجاع من الجبان ، وظهر من كرات سيدي وبسالته ما تحدث به ألسنة الركبان ، حتى كانت الطائفة لحزبه ، وظهرت عليه عناية ربه ، فقلت : الحمد لله الذي جعل سعدَ عمادي متّصل الآيات ، واضح الغرر والشّيات . وقد كنتُ بعثتُ أهنته بما قدم من صنع جميل ، وبلوغ تأميل ، فقلت : اللهم أهد علينا التّهاني تتّرى ، واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هي الصغرى ، واجمع له بين نعم الدنيا والأخرى ، والناس - أبقى الله تعالى سيدي - لهم مع الاستناد إليك جهات ، وأمور مشتبهات ، إلا المحب المشيع فجهتك هي التي آنت الغربية ، وفرّجت الكربة ، ووعدت بالخير ، وضمنت عاقبة الضير ، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوي على عبده بهذه المدينة وأصلُ إن شاء الله تعالى لمباشرة الهناء ، وقرّة العين بمشاهدة الآلاء ؛ والله عزّ وجلّ يديم سعادة سيدي ويطيل بقاءه ، ويرادف قبلكه نعمه وآلاءه ، بفضلّه « انتهى .

١٠٢ - وقال : وممّا خاطبت به المذكور وأنا ساكن بسلا :

« أيا عمّر العدل الذي مطّل المدى	بوعد الهدى حتى وفيت بدينه
ويا صارم الملك الذي يستعدّه	لدفع عداه أو لمجلس زينه
هتت عينك اليقظى من الله عصمة	كفت وجه دين الله موقع شينه
وهل أنت إلا الملك والدين والدنا	ولا يلبس الحق المبين بمينه
إذا نال منك العين ضرّاً فإنما	أصيب به الإسلام في عين عينه

« الوزير الذي هو للدين الوزر الوافي ، والعلم السامي المراقب والمراقبي ، والحلي المقلد فوق الترائب والترابي ، والكثر المؤمل والذخر الباقي ، حجب الله تعالى العيون عن عين كمالك ، وصير الفلك الدوار مطية آمالك ، وجعل اتفاق اليمن مقروناً بيمينك ، وانتظام الشمل معقوداً بشمالك .

« اعلم أن مطلق لسان الثناء على مجدك ، والمستضيء على البعد بنور سعدك ، ومعقود الرجاء بعروة وعدك ، لا يزال في كل ساعة يسحبُ الفلك فيه ذيلها ، ويعاقب يومها وليها ، مُصنعي الأذن إلى نبي يهدي عنك لله تعالى دفاعاً ، أو يمد في ميدان سعدك باعاً ، وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم ، وآسي الكلوم ، وذو المقام المعلوم ، فتعرفت أن بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام ، وتفكته به المواقفة والأفدام^١ ، من كرة مرسله الشهاب ، أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب ، حومت حول عينك لا كدّر صفاؤها ، ولا هُدْم فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها ، فرعت حول حماها ، ورامت أن تصيب فخيّب الله تعالى مرماها :

نرى السوء مما نتقي فنهاه^٢ وما لا نرى مما بقي الله أكثر^٣

« فقلت : مكروه أخطأ سَهْمُهُ ، وتنبيه من الله تعالى لمن نبيل عقله وفهمه ، ودفاع قام دليله ، وسعد أشرق جليله ، وأيام أعربت عن إقبالها ، وعصمة غطت بسرballها ، وجوارح جعل الله تعالى الملائكة تحرسها ، فلا تغتالها الحوادث ولا تفرسها ، والفطين يشعر بالشيء وإن جهل أسبابه ، والصوفي يسمع من الكون جوابه ، فبادرت أهنته تهته من يرى تلك الجوارح الكريمة أعز عليه من جوارحه ، ويرسل طير الشكر لله تعالى في مساقط اللطف الخفي ومسارحه ،

١ المواقفة : أهل الثقافة أي الذين يصارعون الحيوانات المتوحشة ؛ والأفدام : الحمقى .

٢ مر هذا البيت وقصته بين الأمير عبد الرحمن ووزيره الزجاجي في المجلد ٣ ص : ٦١٣، ٥٣٩ .

وسأله سبحانه أن يجعلك عن النوائب حِجْرًا لا يُقرب ، وربك ربّعا لا يخرب ، ما سبّح الحوتُ ودبّ العقرب ، ثم إنّي شفعت الهناء ووترته ، وأظهرت السرور فما سترته ، بما ستّاه لتديريك من مسألة تكذبُ الإرجاف ، وتغني عن الإيجاف ، وتخصب للإبل العجاف ، وتريح من كيد ، وتفرغ إلى مجادلة عمرو وزيد ، وكأني بسعدك قد سدّال الأمان ، وعدل الزمان ، وأصلح الفاسد ، ونفق الكاسد ، وقهر الروح المستاسد ، وسرّ الحبيب وساء الحاسد ، والسلام » انتهى .

١٠٣ - ومن لإنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر ابن محمد بن علي الهنتاتي معزياً له عن أخيه عبد العزيز :

« أبا ثابتٍ كنّ في الشدائدِ ثابتا أعيدُكَ أن يُلغى حسودُكَ شامتا
عزاؤك عن عبد العزيزِ هو الذي يليقُ بعزّ منك أعجزَ ناعتا
فدوحتك الغنّاء طالت ذوائباً وسرحتك الشّماء طابت منابتا
لقد هدّ أركانَ الوجودِ مُصابهُ وأنطق منه الشجورُ من كان صامتا
فمن نفّس حرّاً أوثق الحزنُ كظمها ومن نفّس بالوجدِ أصبح خافتا
هو الموتُ للإنسانِ فصلٌ لحدّه وكيف ترجي أن تصاحبَ مائتا
وللصبرِ أولى أن يكونَ رجوعنا إذا لم نكنّ بالحزنِ نرجعُ فائتا

« اتصلَ بي أيّها الهمام ، وبدر المجد الذي لا يفارقه التمام ، ما جتته على عيائك الأيام ، واقتنصه مُحلّق الردى بعد أن طال الحيام ، وما استأثر به الحِمَام ، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذّمَام ، من وفاة صنوك الكريم الصفات ، وهلاك وَسَطى الأسلاك ، وبدر الأحلاك ، ومجير الأملاك ، وذهاب السّمح الوهّاب ، وأنا لديدغُ صِلّ الفراق ، الذي لا يفيق بألف راق ، وجريح سَهَم

١ الحجر : المنوع المحمي .

البين ، ومجاري العيون الحارية بدمع العين ، لفقد أنيس سهّل عليّ مَضَض النكبة ،
 ونحى ليث الخطب عن فريسي بعد صدق الوثبة ، وآتسني في الاغتراب ،
 وصحني إلى منقطع التراب ، وكفل أصاغري خير الكفالة ، وعاملني من حسن
 العشرة بما سجّل عقد الوكالة ، انتزعه الدهر من يدي حيث لا أهل ولا وطن ،
 والاغترابُ قد ألقى بعطن ، وذات اليدِ يعلم حالها من يعلم ما ظهر وما بطن ،
 ورأيت من تطارح الأصاغر على شلّو الغريب ، النازح عن النسيب والقريب ،
 ما حملني على أن جعلت البيت له ضريحاً ، ومدفنأً صريحاً ، لأخدع من يرى
 أنه لم يزل مقيماً لديه ، وأن ظلّ شففته منسحبٌ عليه ، فأعيا مصابي عند ذلك
 القرع ، وأعظم الظمأ البرح ، ونكأ القرع القرع ، إذ كان ركنأً قد بنته لي يد
 معرفتك ، ومتصفاً في البرّ بي والرعي لصاغيتي بكريم صفتك ، فوالهفا عليه من
 حسام ، وعز سام ، وأيادٍ جسام ، وشهرة بين بني حام وسام ، أي جمالٍ خلقت ،
 ووجه للقاصد طلقت ، وشيم تطمح للمعالي بحق ، وأي عضد لك يا سيدي الأعلى
 لا يهين إذا سطا ، ولا يقهقر إذا خطا ، يوجب لك على تحليه بالشبية ، ما توجه
 البنوة من الهيبة ، ويرد ضيفك آمناً من الخيبة ، ويسد ثغرك عند الغيبة ، ذهبت
 إلى الجزع فرأيت مصابه أكبر ، ودعوت بالصبر فولّى وأدبر ، واستنجدتُ
 الدمع فنضب ، واستصرخت الرجاء فأنكر ما روى واقتضب ، وبأي حزن يلتقى
 عبد العزيز وقد جلّ فقده ، أو يطفأ لآعجه وقد عظم وقّده ، اللهم لو بكى
 بندي أياديه ، أو بغمائم غواديه ، أو بعُباب واديه ، وهي الأيام أي شامخ
 لم تهده ، أو جديد لم تبليه وإن طالت المدة ؟ فرقت بين التيجان والمفارق ،
 والحدود والنمارق ، والطلّي والعقود ، والكأس وابنة العقود ، فما التعلّل بالفان ،
 وإنما هي إغفاء أجفان ، والتشبث بالحبال ، وإنما هو ظلّ زائل ؟ والصبر على
 المصائب ، ووقوع سهمها الصائب ، أولى ما اعتمد طلاباً ، ورجع إليه طوعاً
 أو غلاباً ، فأنا يا سيدي أقيمُ رسم التعزية ، وإن بُوتُ بمضاعف المرزية ، ولا
 عتب على القدر ، في الورد من الأمر والصدّر ، ولولا أن هذا الواقع ممّا لا

يجدي فيه الخُلصان ، ولا يغني فيه اليراع ولا الخرصان ، لأبلى جهده من أقرضتموه معروفاً ، وكان بالتشيع إلى تلك الهضبة معروفاً ، لكنّها سوقٌ لا ينفقُ فيها إلا سلعة التسليم ، للحكيم العليم ، وطَيّ الجوانح على المضض الأليم ، ولعمري لقد خلدت لهذا الفقيه وإن طمس الحِمَام محاسنه الوضاحة ، لمّا كبس منه الساحة ، صحفاً منشّرة ، وثغوراً بالحمد موثّرة ، يفخر بها بتّوه ، ويستكتر بها مكتسبو الحمد ومُقْتَنُوهُ ، وأنتم عماد البازة ، وعلم المفازة ، وقطب المدار ، وعامر الدار ، وأسد الأجمّة ، وبطل الكتيبة الملجمة ، وكافل البيت ، والستر على الحي والميت ، ومثلك لا يهدى إلى نهجٍ لاجب ، ولا ترشده نار الحياجب ، ولا ينبه على سنن نبيّ كريم أو صاحب ، قدركَ أعلى ، وفضلك أجلى ، وأنت صدر الزمان بلا مدافع ، وخير مُعلِّم لأعلام الفضل ورافع ، وأنا وإن أخرت فرض بيعتك لما خصّصتي من المصاب ، ونالني من الأوصاب ، ونزل بي من جور الزمان الغصّاب ، ممّن يقبل عُدْرَهُ الكرم ، ويسعه الحرم المحترم ، والله سبحانه الكفيل لسيدي وعمادي بقاء يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء ، ويعلي لقومه رُتَبَ العزّ ساميةَ البناء ، حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده ، ولا يحسّ بعضُ زمانٍ مع جوده ، ويقر عينه في ولده وولد ولده ، ويجعل أيدي مُناويه تحت يده ، والسلام .

١٥٤ - وخاطبه لسانُ الدين أيضاً بما نصّه :

« سيدي الذي هو رجل المغرب كلّه ، والمجمَعُ على طهارة بيته وزكاء أصله ، علم أهل المجد والدين ، وبقية كبار الموحّدين . .
 « بعدَ السلامِ الذي يجب لتلك الجلالة الراسخة القواعد ، السامية المصاعد ، والدعاء لله أن يفتح لك في مضيقات هذه الأحوال مسالكَ التوفيق ، ويمسكك من عصمته بالسبب الوثيق ، أعرّفك أن جبلك اليوم وقد عظم الرّجفان ، وفاض التنور وطفى الطوفان ، تؤمل النفوسُ الغرقيّ جُودِيَّ جوده ، وتغتنب غاية

الاعتباط بوجوده . ووالله لولا العلاتقُ التي يجبُ لها الالتزام ، ما وقع على غير قصدك الاعتزاز ، والله تعالى يمدك بإعانتة على تحملُ القُصَّاد ، ويُبقي محلك رفيعَ العماد كثيرَ الرماد ، ويجعل أبا يحيى خلفاً منك بعد عمر النهاية البعيد الآماد ، ويُبقي كلمة التوحيد فيكم إلى يوم التناد . وحاملهُ القائد الكذا معروف النباهة والجهاد ، ومحله لا ينكر في الفؤاد ، لما اشتبهت السبل ، والتبسَ القول والعمل ، لم يجد أنجي من الركون إلى جنابك ، والتمسكُ بأسبابك ، والانتظام في جملة خواصك وأحبابك ، حتى ينبلج الصبح ، ويظهر النُجج ، ويعظم المنح ، ويكون بعد هجرته الفتح ، ومثلُكم من قُصدٍ وأملٍ ، وأنضي إليه المطي وأعمل ، وأما الذي عندي من القيام بحق تلك الذات الشريفة ، والقول بمنابها المنيفة ، فهو شيء لا تفي به العبارة ، ولا تؤديه الألفاظ المستعارة ، والله تعالى المسؤول في صلة عز سيدي ودوام سعده ، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

١٠٥ - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى : ومما خاطبتُ به شيخ الدولة - وقد استقل من مرض - ما نصّه :

« لا أعدم الله دار الملك منك سنّاً يجلى به الحالكان الظلم والظلمُ
وأشدتكَ الليالي وهي صادقة « المجد عوفي إذ عوفيت والكرمُ »^١

« من علم - أعلى الله تعالى قدرك - أن المجد جواد حلاك شياتهُ ، لا بل الملك بدرٌ أنت آياته ، لا بل الإسلامُ جسمٌ أنت حياته ، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينهُ ، ومثلُك تيره وتزينه ، ولدين تعامل الله تعالى بإعزازه وتدوينهُ ، فلقد ألت نفوسُ المؤمنين لآلامك ، ووجم الإسلامُ لتوقع إسلامك ، وخفقت الأعلام لتأخر إطفائك بمصالح الملك وإعلامك ، فإنما أناملُ الدين والدنيا متشبهة بأذيال أيامك ، ورحالُ الأملِ مخيمةٌ بين حلالك وخيامك ،

١ صدر بيت للمتنبي ، وعجزه « وزال عنك إلى أعدائك الأمل » .

فإذا قابلت الأشرافُ نِعِمَ اللهُ تعالى بشكر ، ورمت الغفلة عن ذلك بنكر ، فاشكره
 جلَّ وعلا بملء لسانك وجنانك ، واجرِّ في ميدان حمده مطلقاً من عنانك ، على
 ما طوّقك من استرقاق حرّ ، وإفاضة أيادٍ غرّ ، واقتناء عسجدٍ من الحمد
 ودرّ ، وإتاحة نفعٍ ودفعِ ضرّ ، وإدالة حلوٍ من مرّ ، وكنّ على ثقةٍ من مدافعةِ
 الله تعالى عن حماك ، وعزّ تبليغِ ذوائبه السّماك ، ورزقٍ يجره فألٌ متمك ،
 ودونك مجلسَ الإمامة فقدّ تديره بزمامك ، وحظوةِ الخلافة فاستحققتها
 بوسائلك القديمة وذمامك ، ومحاسن الدولة فاجلّها على منصة إمامك ، ورسوم
 البر فأغرّ بها عينَ اهتمامك ، وذروة المنبر فأمضِ بها ظبّةَ حسامك ، وأجنّ
 الآملين زهرَ الأيادي البيض من كمامك أكمامك ، فيا عز دولة بك - يا جملة
 الكمال - قد استظهرت ، وأذلت المعاند وقهرت ، وبإعمالِ آرائك اشتهرت ،
 فراقت فضائلها وبهّرت : جزالةٌ كما شقّ الجوّ جارح ، ولطافةٌ كما طارح
 نغمَ التأليفِ مطّارح ، وفكر في الغيب سارح ، ودين لغوامض الحلم والعدل
 شارح ، ومكارم تحت آثار الكرماء ونسخت ، وحلّت عقود أخبار الأجواد
 في الأعصار وفسخت ، فلم تدع لفضل الفضلِ ذكراً ، وتركت معروف
 يحيى بن خالدٍ نكراً ، لا بل لم يبق لكعب ، من علو كعب ، وأنست دعوة
 حاتم ، بأيّ ماحٍ وخاتم ، قُصارهُ شيءٌ حوّار ، ومنع حوّار ، وعقرُ ناب ،
 عند اقشعرار جناب ، وأين يقع من كبرٍ قدّر ترفع عن الكبر ، وجودٍ خضب
 الأيدي بحناء التبر ، وعزّ استخدم الأسلّ الطّوال بيراع أقلّ من الشبر ،
 وحقنّ الدماء المُرّاة بإرّاعة نجيع الحبر ، وفكّ العِقال ، ورفع الثوبَ الثقال ،
 وراعَ الذرّة والثقال ، وعترَ الزمانُ فأقال ، ووجد لسان الصدق فقال .

« أقسمُ بيارىء النسم ، وهو أبرُّ القسّم ، ما فازت بمثلك الدول ، ولا ظفرت
 بمثلك الملوك الأواخر والأول ، ولو تقدّمت لم يُضربْ إلاّ بك المثل ، ولم
 يقع إلا على سنّتك وكتابك والإجماع المنعقد على آدابك العمل ، والمملوك لما شام
 مالكة برّق العافية ، وتدرّع بالألطف الخافية ، كتب مبشراً باهتاء ، ومذيعاً

ما يجب من الحمد والثناء ، وشاكراً ما له بوجوده من الاعتناء ، فقد باذر زكن الدين بالبناء ، وأبقى السر والمنة على الآباء والأبناء ، فنسأل الله تعالى أن يمتع منك بأثير الملوك ، ووسطى السلوك ، وسلالة أرباب المقامات والسلوك ، ويبقيك وحصّة الصحة وافرة ، وغرة العزة القعساء سافرة ، وغادة عادة السعادة غير نافرة ، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غائمة ظافرة ، ما زحفت للصباح شهب المواكب ، وتفتحت بشط نهر المجرة أزهار الكواكب ، والسلام « انتهى .

١٠٦ - ومن ذلك ما خاطب به سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق ، جواباً عن كتابه ، وقد استقر خطيب السلطان بتونس :

« ولما أن نأت منكم ديارٌ وحالَ البعدُ بينكمُ ويني
بعثتُ لكم سواداً في بياضٍ لأنظركم بشيء مثل عيني

« بـم أفاتحك يا سيدي ، وأجلّ عددي ؟ [كيف أهدي] سلاماً ، فلا أخطر ملاماً ؟ أو أنتخب لك كلاماً ، فلا أجد لتبعة التقصير في حقتك الكبير إلاماً ؟ إن قلت : نحية كسرى في الثناء وتبّع ، فكلمة في مرتع العجمة تربيع ، ولها المصيف فيه والمربع ، والجميم والمنبع ، فتروى متى شاءت وتشيع ، وإن قلت : إذا العارض خطر ، ومهما همى أو قطر ، سلام الله يا مطر ، فهو في الشريعة بطر ، وركبة خطر ، ولا يرعى به وطن ولا يقضى به وطر ، وإنما العرق الأوشج ، ولا يستوي البان والبنفسج ، والغوسج والعرفج :

سلام وتسليم وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج

١ من قول الشاعر :

سلام الله يا مطر عليها وليس عليك يا مطر السلام

٢ البيت لابن الرومي من قصيدته في رثاء يحيى بن عمر العلوي ومطلعهما :

أمامك فانظر أي نهجك تنهج طريقان شتى مستقيم وأوعج

والسجسج : البرود .

«وما كان فضلك ليمنعني الكفرانُ أن أشكره ، ولا لينسني الشيطانُ أن أذكره ، فاتخذ في البحر سبباً^١ ، أو أسلك غير الوفاء مذهباً ، تأبى ذلك - والمنته لله تعالى - طيباع ، لها في مجال الرعي باع ، وتحقيق وإشباع ، وسوائم من الإنصاف ، ترعى في رياض الاعتراف ، فلا يطرقتها ارتياع ، ولا تخيفها سباع ، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمسُ ظهيرة ، وأذان عقيرة^٢ جهيرة ، فوق مثذنة شهيرة ، آدت الأكتادَ لها ديون تستغرقُ الدم ، وتسترقُ حتى الرمم ، فإن قضيت في الحياة فهي الخطة التي نرتضيها ، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد إلا أن ينفذ مراسمها ويُمضيها ، وإن قُطع الأجل فالغني الحميد - من خزائنه التي لا تبيد - يقضيها ، ويرضي من يقتضيها . وحيّا الله تعالى أيها العلك السامي الجلال ، زمناً بمعرفتك المبرة على الآمال ، برّ وأحف ، وإن أساء بفراقك وأجحف ، وأعرى بعدما ألحف ، وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزايين^٣ ، ثم أوحش منها أصونة هذه الخزايين ، فأب حنين الأمل بخفيه ، وأصبح المغرب غريباً يقلبُ كفيّه ، ونستغفر الله تعالى من هذه الغفلات ، ونستهديه دليلاً في مثل هذه الفلكوات ، وأي ذنب في الفراق للزمن ، أو لغرابِ الدمن ، أو للرواحل المدلجة ما بين الشام إلى اليمن ، وما منها إلا عبد مقهور ، وفي رمة القدر مبهور ، عقد والحمد لله مشهور ، وحجة لها على النفس اللوامة ظهور ، جعلنا الله تعالى ممن ذكر المسبب في الأسباب ، وتذكر ﴿ وما يذكّر إلا أولو الألباب ﴾ (البقرة : ٢٦٩ ، آل عمران : ٧) ، قبل غلق الرهن وسد الباب ، وبالجمله فالفراق ذاتي ، ووعده مائي ، فإن لم يكن فكأن قد ، ما أقرب اليوم من الغد ، والمرء في الوجود غريب ، وكل آت قريب ، وما من مقام إلا لزيال ، من غير احتيال ، والأعمار مراحل والأيام أميال :

١ ناظر إلى الآية القرآنية : « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره ، واتخذ سبيله في البحر . . . » .

٢ العقيرة : الصوت .

٣ المزايين : يريد أن الدرة تتخذ لأموال الزينة .

نَصِيْبُكَ فِي حَيَاتِكَ مِنْ حَيْبِ نَصِيْبِكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالٍ ١

« جعل الله تعالى الأدب مع الحق شائنا ، وأبعد عنا الفراق الذي شائنا ،
وإني لأسر لسيدي بأن رعى الله تعالى صالح سلكه ، وتداركه بالتلافي في
تلكه ، وخلص سعادته من كلفه ، وأحله من الأمن في كنفه ، وعلى قدرها
تصاب العلياء ، وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء .

« هذا ، والخير والشر في هذه الدار ، المؤسسة على الأكدار ، ظلال
مضمحلان ، فقد ارتفع ، ما ضرراً أو نفع ، وفارق المكان ، فكأنه ما كان ،
ومن كلمات الملوك ، البعيدة عن السلوك ، إلا أن يشاء ملك الملوك ٢ :

خذ من زمانك ما تيسر واترك بجهدك ما تعسر
ولرب مجمل حالة ترضى به ما لم يفسر
والدهر ليس بدائم لا بد أن يسوء إن سر
واكم حديثك جاهداً شمت المحدث أو تحسر
والناس آية الزجا ج إذا عثرت به تكسر
لا تعدم التقوى فمن عدم الثقى في الناس أعسر
وإذا امرؤ خسر إلا ه فليس خلق منه أخسر

« وإن لله تعالى في رعيك لسراً ، ولطفاً مستمراً مستقراً ، إذ ألقاك اليم إلى
الساحل ، فأخذ بيدك من ورطة الواحل ، وحرك منك عزيمة الراحل ، إلى الملك
الحلال ، فأدالك من إبراهيمك سميماً ، وعرفك بعد الوالي وسميماً ، ونقلك
من عناية إلى عناية ، وهو الذي يقول وقوله الحق ﴿ ما ننسخ من آية -
الآية ﴾ (البقرة : ١٠٦) .

١ من قصيدة المتنبي في رثاء أم سيف الدولة .

٢ الأبيات في مشاهدات لسان الدين : ١١٥ .

« وقد وصل كتاب سيدي محمد - والحمد لله - العواقب ، ويصف المراقي التي حلها والمراقب ، وينشر المفاخر الحفصية والمناقب ، ويذكر ما هياه الله تعالى لديها من إقبال ، ورخاء بال ، خصيصي اشتمال ، ونشوة آمال ، وأنه اغتبط وارتبط ، وألقى العصا بعدما خبط ، ومثل تلك الخلافة العلية من تزين الذوات المخصوصة من الله تعالى بتشريف الأدوات بميزان تمييزها ، وتفرق بين شبه المعادن وإبريزها ، و « شبه الشيء » مثل معروف^١ ، ولقد أخطأ من قال : الناس ظروف ، إنما هم شجرات ربيع في بقعة ماحلة ، وإبل مائة لا تجد فيها راحلة^٢ ، وما هو إلا اتفاق ، ونجح للمسلك وإخفاق ، وقلما كذب إجماع وإصفاق ، والجليس الصالح لرب سياسة أمل مطلوب ، وحظ إليه مجلوب ، وإن سئل أطرف ، وعمر الوقت ببضاعة أشرف ، وسرق الطباع ، ومد في الحسنات الباع ، وسلى في الخطوب ، وأضحك في اليوم القطوب ، وهدى إلى أقوم الطرق ، وأعان على نواب الحق ، وزرع له المودة في قلوب الخلق ، زاد الله تعالى سيدي لديها قرباً أثيراً ، وجعل فيه للجميع خيراً كثيراً ، بفضلته وكرمه .

« ولعلمي بأنه - أبقاه الله تعالى - يقبل نصحي ، ولا يرتاب في صدق صبحي ، أغبطه بمشواه ، وأنشده ما حضر من البديهة في مسارة هداه ونجواه :

بمقام إبراهيم عذِّ واصرف به فكراً ثورقُ عن بواعث تنبري
فجواره حرمٌ وأنت حمامةٌ ورقاء والأغصانُ عودُ المنبرِ
فلقد أمنت من الزمان وربِّه وهو المروع للمسيء وللبري

« وإن تشوف سيدي فلعمر وليه لو كان المطلوب دنيا لوجب وقوع الاجتراء ،

١ من قول المتنبي :

وشبه الشيء منجذب إليه وأشبهنا بدنينا الطغام

٢ من حديث الرسول (ص) : « الناس كإبل مائة لا تجد فيها راحلة » .

ولاغبط بما تحصل في هذه الجزور ، المبيعة في حانوت الزور ، من السهام الوافرة
الأجزاء ، فالسلطان - رعاه الله تعالى - يوجب ما فوق مزية التعليم ، والولد
- هداهم الله تعالى - قد أخذوا بحظّ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم ، والخاصة
والعامة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم ، وترك لما بالأيدي وتسلّم ، وتديبر
عاد على عدوّها بالعذاب الأليم ، إلا من أبقى السلامة وهو من إبطان الحسد
بجالّ السليم ، ولا ينكر ذلك في الحديث ولا في القديم ، ولكن النفس منصرفة
عن هذا الغرض ، نافضة يدها من الغرض ، قد فوتت الحاصل ، ووصلت في
الله تعالى القاطع وقطعت الواصل ، وصدقت لما نصح الفؤدّ الناصل ، وتأهبت
للقاء الحِمَامِ الواصل ، وقلت :

انظر خضابَ الشبابِ قد نَصَلَا وزائرَ الأنسِ بَعْدَهُ انفَصَلَا
ومطلبي والذي كَلِفْتُ بِهِ حاولتُ تحصيله فما حَصَلَا
لا أملٌ مُسْعَفٌ ولا عَمَلٌ ونحن في ذا والموتُ قد وصَلَا

«والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء في الأصائل والأسحار ، إلى مقيل العيثار ،
شديدُ الافتقار ، والله عزّ وجلّ يَصِلُ لسيدي رعيّ جوانبه ، ويتولى
تيسير آماله من فضله العميم ومآربه ، وأقرأ عليه من التحيات ، المحملة
من فوق رحال الأريحيات ، أزكاها ، ما أوجع البرقُ الغمامَ فأبكاها ، وحسد
الروضُ جمالَ النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها ، واضطبن
هرمُ الليل عند الميل عصا الجوزاء وتوكاها ، ورحمة الله تعالى وبركاته » انتهى .

١٠٧ - ومما خاطب به لسان الدين - رحمه الله تعالى - ابن مرزوق
المذكور قوله :

١ اضطبن العصا : وضهما تحت ضبته ليتوكأ عليها ، والضين : ما بين الخاصرة ورأس الورك .

«سيدي ، وعمادي ، كَشَفُ قناعِ النصيحة من وظائف صديق ، أو خديم لصيق ، وأنا بكلتا الجهتين حقيق ، ويتلجلج في صدري كلام أنا إلى نَفْثته ذو احتياج ، ولو في سبيل هياج ، وخرقِ سياج ، وخوض دَيَاجٍ ، وقد أصبحت سعادتي عن أصل سعادتك فرعاً ، فوجب النصحُ طبعاً وشرعاً ، فليعلم سيدي أن الجاه ورطة ، والاستغراق في تيار الدول غلطة ، وبمقدار العلو — إلا أن يقي الله تعالى — تكون السقطة ، وأنته — والله تعالى يعصمه من الحوادث ، ويقيه من الخطوب الكوارث — وإن تبعه الجحْمُ فهو مفرد ، وبسهام الحَسَدَةِ مُقْصَدٌ ، وأن الذي يقبَلُ يده ، يُضْمَرُ حسده ، وما من يوم إلا والعِللُ تستشري ، والحيلُ تريش وتبري ، وسمومُ المكاييد تسري ، والعينُ الساهرة تطرقُ العينَ النائمة من حيث تدري ولا تدري ، وهذا الباب الكريم مخصوص بالزيادة والبركة ، وخصوصاً في مثل هذه الحركة ، فثم ظواهر تُخالف السرائر ، وحيثُ تصيبُ في الجوّ الطائر ، وما عسى أن يتحفظ المحسود ، وقد عَوَتِ الكلابُ وزارت الأسود ، وإن ظن سيدي أن الخطة الدينية تذب عن نفسها ، أو تنفع مع غير جنسها، [فذلك] قياسٌ غير صحيح ، وهبوب الريح ، وإنّما هي درجة فوق الوزارة والحجابه ، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة ، وجاه يجر على القبيل الأذيال ، ويفيدُ العزّ والمال ، وبحرٌ هال ، وصدور تحمل الجبال ، وإن قطع بالأمان ، من جهة السلطان ، لم يؤمن أن يقع فيه ، والله سبحانه يقيهِ ، ويمتّع به ويُسْقِيهِ ، ما البشر بصدّده ، والحى يجري إلى أمده ، فيستظهر الغير بقبيل ، ويجري من التغلب على سبيل ، ويبقى سيدي — والله تعالى يعصمه — طائراً بلا جناح ، ومحارباً دون سلاح ، ينادي من مكان يثق بوده في طَلَلٍ ، ويقرع سن النادم والأمر جَلَلٍ ، ومثله بين غير صنفه — ممّن لا يتصف بظرفٍ ، ولا يلتفت إلى الإنسانية بظرفٍ ، ولا يعبد الله تعالى ولو على حَرْفٍ — محمول عليه من حيث الصنفية ، معتمد بالعداوة الخفية ، وإن ظن غير هذا فهو مخدوع مسحور ، ومفتون مغرور ، وبالفكر في الخلاص تفاضلت النفوس ، واستُدْفِعَ البوس ، وله وجوه كلّها متعذر

الحصول ، دونه بيضُ النصول ، إلا ما كان من الغرض الذي بان فيه بعد الجِدِّ الفُتور ، وعدل عنه وقد أخذ الدستور ، وتيسرت الأمور ، وتقررت الأيمان والنور ، فإنه عَرَضَ قريب وسفر قاصداً ، ومَسَعَى لا ينفق فيه سيدي من ماله درهم واحد ، ووطنٌ لحركتهِ راصد ، لا يمنع عليه أهله ، ولا يستصعب سَهله ، وأميره جبره الله تعالى يتطرح في تعيينكم لاقتضائه ، وإحكام آرائه ، وتأمين خائفه ، واستقدام أصنافه وطوائفه ، وتتحركون حركة العز والتنويه ، والقدر النبیه ، لا يُعوزكم ممّن وراءكم مَطْلَب ، ولا يُلْفَى عن مخالفتكم مذهب ، ولا يكدر لكم مشرب .

« وتمر أيام وشهور ، وتظهر بطون للدهر وظهور ، وتُفْتَح أبواب ، وتُسَبَّب أسباب ، من رجوع يتأتى بعد السكون والفتور ، وقد سكنت الخواطر وتنوَّعت الأمور ، أو مقام تمهد به البلاد ، ويعمل في ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد ، وتستغرق في هذا الغرض الآماد ، ويتأتى ان حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد ، تنهت في الأعمار ، ويكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار ، أو التحكم في ذخيرة سما منها المقدار ، وذُهِل عند مشاهدتها الاعتبار ، وخزانة الكتب يجملتها وفيها الأمهات الكبار ، قد تجافت عنها الحاجة وعُدِم إليها الاضطرار ، والربع الذي يُسَوِّغ بالشرع والعقار ، فهذا كله حاصل ، وثمّ ضامن لا يُتَّهم وكافل ، وعهود صبغتها غير ناضل .

« وبالجملمة فالوطن لأغراض الملك جامع ، ولقاصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع ، وإن توقع إثارة فتنة ، أو ارتكاب إحنة ، فالأمر أقرب ، وحاله المتيسر أغرب ، وهذه الحجّة في تلمسان غير معتبرة ، وأجوبتها مقرر ، وقدم رسول الطاغية وإعانتة تحصل في الغالب ، على هذه المطالب ، وبالجملمة فالدنيا

١ من الآية الكريمة (التوبة : ٤٢) « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك » .

قد اختلّت ، والأقدامُ قد زلّت ، والأموال قد قلت ، وشيبة الدهر ولتت ،
 وذلك القطر على علته أحكم لمن يرومُ الجاهَ وأمنع ، وأجدى بكل اعتبار
 وأنفع ، وقد حصّرتُ لاستخلاصكم إياه الآلةُ التي لا تتأتّى في كل زمان ،
 وتبيهاً إمكان أيّ إمكان ، واقتضيت أيمان ، وعرضت سلع تفلُّ لها أثمان ،
 وارتهنت الوفاء مروءاتٍ وأديان ، وتحقّق بذلك القطر الفساد الذي اشتهر به
 مأموره وأموره وأميره ، والمنكر الذي يجب على كل مسلم تغييره ، فإن شئت شرعاً
 فالحكم ظاهر ، أو طبعاً فالطبع حاضر ، وما ثمّ عاذل بل عاذر ، والمؤونة
 التي تلزم أقل من أن تكون ثمن بعض الحصون ، فضلاً عن الشجرة ذات
 الغصون ، وما يُستهلك في هذا الغرض شيء له خطر ، ولا يُستنقذ من الصحيفة
 سطر ، واليد محكمة بكلّ أو شطر .

«وما يخص المملوك من هذا الأمر إلاّ استنقاذ نَسَب ، واستخلاص مؤمّل
 بين موروث ومكتسب ، وبعيد أن لا ينعر له في زمن من الأزمان ، فلا بدّ في
 كل وقت من أعيان ، ومروءات وأحساب وأديان ، والله سبحانه كل يوم هو في
 شان ، وأما خدمة دوله فهي عليّ حرام ، لا ينجح لي فيها أن أعتمدها مرام ،
 وكأنتي بالمشرق لاحتق ، ولأنفاسه الذكية ناشق ، فما هي إلاّ أطماع ، سرّابها
 لماع ، فإذا انقطعت ، انفسحت الدنيا واتسعت ، ومعاش في غمار ، أو عكوف
 في كسر دار ، لمداومة استقالة واستغفار ، والله ما توهّم أن من بتلك البلاد
 يستنسر بغائنه عليكم ، أو يحقر ما لديكم ، فقد ظهر الكائن ، وتطابق المخبر
 والمعان ، فسبحان من يقوي الضعيف ويهين المخيف ، ويجري يد المشروف
 والشريف ، والهمم بيد الله تعالى يُنجدُها ويخذلها ، والأرضُ في قبضته يرعاها
 ويهملها .

«هذا بثّ لا يسع إفساؤه ، وسر إن لم يُطوّ سقط به على السرحان شاؤه ،

١ أصل المثل «سقط العشاء به على سرحان» ، ولعل القراءة الصحيحة : «عشاؤه» .

وفيه ما ينكره الأمر ، وتعلّق به الظنون وتعمل الخواطر ، فتدبروه واعتبروه ، وبقلكم فاستبروه ، ثمّ غطوه بالإحراق واستروه ، والله تعالى يرشدكم للتي هي أسدّ ، ويحملكم على ما فيه لكم العز السرمّد ، والفخر الذي لا ينفد ، والسلام^١ انتهى .

١٠٨ - وقال رحمه الله تعالى : وممّا صدر عني ما أجبته به عن كتاب بعث به إليّ الفقيه الكاتب عن سلطان تلمسان أبي عبد الله محمد بن يوسف القيسي الثغري :

«حيّا تلمسانَ الحيا فربوعها صدَفٌ يجودُ بدره المكنونِ
 ما شتّ من فضلٍ عميمٍ إن سقى أروى ومنّ ليسَ بالممنونِ^٢
 أو شتّ من دينٍ إذا قلدح الهدى أروى ودُنْيَا لَمْ تَكُنْ بالدونِ
 وردّ النسيمُ لها بنشرِ حديقهٍ قدّ أزهرتْ أفنانها بفنونِ
 وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت فلها الشفوفُ على عيونِ العينِ

«ما هذا النشر ، والصف والحشر ، واللف والنشر ، والفجر والليالي العشر ، شدّاً كما تنفست دارين ، وسطور رقم حللها التزيين ، وبيان قام على إبداعه البرهان المبين ، ونقّس ، وشي به طرس ، فجاء كأنه عيون العين ، لا بل ما هذه الكتاب الكتيبة التي أطلعت علينا الأعنة ، وأشرعت إلينا الأسنة ، وراعت الإنس والجنّة ، فأقسم بالرحمن ، لولا أنّها رفعت شعار الأمان ، وحيّت بتحية الإيمان ، لراعت السّرب ، وعافت الذود أن يردّ الشّرب ، أظنتها مدد الجهاد قدم ، وشاردّ العرب استعمل في سبيل الله واستخدم ، والمتأخّر على ما فاته ندم ، والعزم وجد بعدما عدم ، نستغفر الله ، إنّما هي رقاع الرفاع^٣ ،

١ ورى لسان الدين في هذه الرسالة عن أمور وحاطها بالغموض ولذا طلب أن تحرق الرسالة .

٢ المن : الفضل ؛ والممنون : المقطوع .

٣ ق : رقاع رقاع ؛ والرفاع : رفع الحب بعد الحصاد .

وَصَلَاتُ صَلَاةٍ لَيْسَ فِيهَا سَبَقٌ وَلَا إِرْبَاعٌ^١ ، وَبِقَاعٌ لَهَا بَطْلٌ الطَّبَاعِ الْكَرِيمَةِ
 انْتِفَاعٌ ، وَالْحَانَ بَيَانُ يَعْضُدُهَا إِيقَاعٌ ، وَدَرٌ مَنْسُوقٌ ، وَرَطْبٌ لِنَخْلِهَا بُسُوقٌ ،
 وَلِلَّهِ دَرُ الْقَائِلِ : الْمَلِكِ سَوْقٌ^٢ ، وَمَنْ نَصِيرُ الشَّيْخِ عَلَى كِتَابَةٍ تَعْقِبُهَا كِتَابَةٌ ،
 وَاقْتِضَاءٌ وَجِيبَةٌ مِنْ ذِي غَلَّةٍ غَيْرِ نَجِيْبَةٍ ، بَيْنَا هُوَ يَكَابِدُ مِنْ مَرَاجِعَةِ الْحَيِّ مِنْ
 حَضْرَمُوتِ الْمَوْتِ ، وَلَا يَكَابِدُ يَرْجِعُ الصَّوْتِ ، إِذْ صَبَحَتْهُ قَيْسٌ وَهِيَ الَّتِي شَدَّتْ
 عَنِ الْقِيَّاسِ ، وَأَجْحَمَتْ عَنْ مَبَارَزَتِهَا أُسُودُ الْأَخْيَاسِ^٣ ، فَلَوْلَا امْتِثَالُ أَمْرِ ،
 وَصَبْرٌ عَلَى جَمْرٍ ، لِأَعَادَ مَا حَكَمِي فِي مَبَارَزَةِ الْوَصِيِّ عَنْ عَمْرٍو^٤ ، فَتَحَرَّجَ مِنْ
 الْخَطْلِ ، وَبَيَّنَّ عُدْرَةَ الْمَكْرَهِ عَنْ مَنَاجِزَةِ الْبُطْلِ ، أَلَمْ يَدِرْ قَائِدُ رَعِيْلَيْهَا ، وَزَائِرُ
 غَيْلَيْهَا ، أَنْتِي أُمَّتٌ بِذِمَّةٍ مِنْ عَمِيْدِهِ لَا تُخْفَرُ ، وَأَنْ ذَنْبٌ إِضَافَتِي لَهُ
 لَا يُغْفَرُ ، وَحَقُّهُ الْحَقُّ الَّذِي لَا يُجْحَدُ وَلَا يُكْفَرُ :

لَمَّا رَأَتْ رَايَةَ الْقَيْسِيِّ زَاحِفَةً
 قَلْتُ الْوَعْيَى لَيْسَ مِنْ رَأْيِي وَلَا عَمَلِي
 قَدْ كَانَ ذَاكَ وَرِنَاتُ الصَّهْلِ ضَحَى
 وَالْآنَ قَدْ صَوَّحَ الْمَرْعَى وَقَوَّضَتِ الْ
 قَالَتْ أَلَسْتَ شَهَابَ الدِّينِ تَضْرَمُهَا
 وَإِنَّ أَحْسَنَ مِينَ هَذَا وَذَا وَزَرَ
 هُوَ الْحَمَى لِأَبِي حَمُوَ اسْتَجْرَهُ فَفِيهِ
 وَاللَّهِ لَوْ أَهْمَلَ الرَّاعِي النَّقَادَ بِهِ
 إِلَيَّ رَيْعْتُ وَقَالْتُ لِي وَمَا الْعَمَلُ ؟
 لَا نَاقَةٌ لِي فِي هَذَا وَلَا جَمَلٌ
 تَهَزُّ عِطْفِي كَأَنِّي شَارِبٌ ثَمِلٌ
 خِيَمَاتِ وَالرَّكْبَ بَعْدَ اللَّبَثِ مُحْتَمِلٌ
 حَاشَا الْعِلَاءَ أَنْ يَقَالَ : اسْتَنُوقَ الْجَمْلُ
 بِمِثْلِهِ فِي الدَّوَاهِي يُبَلِّغُ الْأَمْلُ
 هِ الْأَمْنُ مَنْسَدَلٌ وَالْفَضْلُ مَكْتَمِلٌ
 مَا خَافَ مِنْ أُسْدٍ خَفَّانٍ بِهِ هَمَلٌ^٥

١ الإرباع : الإسراع . وفي ق : إرقاع .

٢ هو من المثل : « الملك سوق يحمل إليها ما نفق فيها » .

٣ ق : الأجناس .

٤ الوصي : علي بن أبي طالب ، ومبارزته لعمر بن العاص - فيما روي - تدل على أن عمراً لم يكن من أرباب المبارزة وإنما من أهل الحيلة والدهاء .

٥ النقاد : الغم ؛ وخفان : اسم موضع .

تكونُ من قوم موسى إن قَصَّوْا عدلوا
هُمُ الجبالُ الرواسي كلما حملوا
فقلتُ : كان لكِ الرحمن بعدي ما
فها أنا تحت ظلّ منه يلحفني
فقلّ لقيس لقد خاب القياسُ فلا
دامتْ له دِيَمُ النعمى مُساجلةً
وآمنتْ شمسُ علياه الأفولَ إلى
وإن تقاعدَ دهرٌ جائرٌ حملوا
هُمُ البحارُ الطوامي كلما حملوا
سواهُ معتمدٌ والرأيُ معتمَلُ
والشملُ مني بسترِ العزّ يشتملُ
تُدْكَوُا المصاعَ وتحت الليل فاحتملوا
يمناه ، تنهملُ اليمنى فتنهملُ
طيّ الوجودِ فلا شمسٌ ولا حمَلُ

« ولو خوى - والعود بالله - نجم هذا المتات ، ولم يتصف السبب - وحاشاه -
بالاتصال ولا بالانبات ، فمرعى العدل مكفول ، وسبب الرفق موصول ،
وإن اشتجرت نُصُول ، والهريمُ تأبى الأبطالُ التتزل إلى نزاله ، والناسكُ
التائبُ يدينُ ضربُ الغاراتِ باعتزاله ، إلاّ مَنْ أعرق في مذهبِ الخارجي
الأخرق ، نافع بن الأزرق ، وحسبي ، وقد ساء كسبي ، أن أترك الخطر
لراكبه ، وأخلّي الطريق لمن يبني المنارَ به ، ونسير بسير أمثالي من الضعفاء ،
ونكفّ فهو زمان الانكفاء ، ونسلم مخطوبةَ هذا الفن إلى الأكفاء ، ونقول :
بالبنين والرفاء ، فقد ذهب الزمن المذهب ، وتبين المذهب ، وشاخ البازي
الأشهب ، وعتادُ العمر يُنهب ، ومرهب الفوت من فوقِ القود يرهب ،
اللهمّ ألهمّ هذه الأنفسَ رُشدَها ، وأذكرها السكرات وما بعدها .
« إيه أخي والفضلُ وَصَفْكَ ونعتك ، والزيفُ يُبهرجه بحتك ، وسهامُ
اليراعة انفردَ بها بَرِيكُك وَتَحْتُك ، واصلتني رسالتك البرة ، بل غمامتك
الثرة ، وحيثني تُغورُ فضلُك المُقتَرّة ، فعظمتُ بورودها المسرة ، جددتِ
العهدَ بمحبوب لقاتك ، وأنهلت ظامي الاستطلاع في سقائك ، واقتضتُ تجديدَ
الدعاء ببقائك ، إلاّ أنّها ربّما ذُهلّت عند وداعك ، وأبهر عقلها نورُ إبداعك ،

١ ق : ولو جرى ... المتاب ... بالانتياب .

فلم تَلْقَنِ الوصية ، وسلكت المسالك القصية ، وأبعدت من التطوف ، وجاءت بتبغني من أسرار التصوف ، ومتى تُقَرَّنُ هيبةُ السبع الشداد ، بحانوت الحداد ، أو تنظر أحكام الاعتكاف ، بدكان الإسكاف ، أو يُتَعَلَّمُ طبعُ المثقال ، بحانوت البقال ؟ والظن الغالب - وقد تلتبس المطالب - أنكم أمرتموها ، لما أصدرتموها ، بإعمال التشوف ، فطردت حكم الإبدال ، غائبة عما يلزم من الجدل ، وسمت الشين صاداً ، وعينت لزرع الوصية حصاداً ، والله تعالى يجعل المحبَّ عند ظنِّ من نظر بمرآته ، أو وصَّفه ببعض صفاته ، وهي تزلقُ عن صفاته ، فالتصوفُ أشرف ، وظلاله أَوْرف ، من أن يناله كلفُ بباطل ، ومغرورٌ بسرابٍ ماطل ، لا بربابٍ هاطل ، ومفتونٌ بحالٍ حالٍ أو عاطل ، ومن قال ولم يتصف بمقاله ، فعقله لم يَرِمْ عن عقاله ، وجبالُ أُنقاله ، مانعة له عن انتقاله .

«وعلى ذلك، وبعد تقرير هذه المسالك ، فقد عمرت يدها كيلا تعود بها صِفراً بعد إعمال السفر ، أو ترى أنها قد طولبت بذنب الغلط المغتفر ، وأصبحت المراجعة بمجلس وعظٍ فتحت به باب الحرج ، إلى إنكار الإمام أبي الفرج^١ ، وفنُّ الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد ، والمُبْرِقُ قبل غمام رحمته والمُرْعِد ، والله در القائل : لستَ به ولم تبعه ، والاعتراضُ بعدُ مُلّازم ، لكنَّ الإسعافَ لقصده لازم ، وعامله عند الاعتلال بالعدر جازم ، وإغضاؤه ملتَمَس ، وفضله لا يجبو منه قَبَس ، وعدراً أيها الفاضل ، وبعد الاعتذار ، عن القلم المِهْذَار ، وإغفال الحذار ، اقرأ عليهم من طيب السلام ، ما يُخْجَلُ أزهار الكمام عقب الغمام ، ورحمة الله تعالى مِن مُمْلِيهِ على الكاتب ، ولعلها تفتأ من عَتَبِ العاتب ، ابن الخطيب : فإتي كتبه والليلُ دامس ، وبحرُ

١ يعني أبا الفرج ابن الجوزي لشهرته في الوعظ .

الظلامِ طامس ، وعادة الكسل طبعٌ خامس ، والنافخُ بشكوى البرد هامس ،
والذبالُ المُنادم خافت ، لا يهتدي إليه الفَرَاشُ المتهافت ، يقومُ ويقعد ،
ويقيق ثم يرعد ، ويزفر ثم يخذ ، وربما صار ورقةَ آس ، أو مبضعَ آس ،
وربما أشبه العاشقَ في البَوح بما يخفيه ، وظهوره من فيه ، فتميله الآمال وتلويهِ ،
وتميته النواسمِ المفافة بعدما تحييه ، والمطر ، قد تعذَّرَ معه الوطرُ ، وساقه الخطر ،
وفعل في البيوتِ المتداعية ما لا يفعل التركُ والططر ، والنشاطُ ، قد طُويَ منه
البساط ، والجوارحُ بالكلالِ تعتذر ، ووظائفُ الغدِ تنتظر ، والفكرُ في الأمور
السلطانية جائل ، وهي بحر هائل ، ومثلي مقنوعٌ منه باليسير ، ومعذورٌ في قِصرِ
الباع وضعفِ المسير ، والسلام « انتهى .
وهي من البلاغة في الذروة .

١٠٩ - ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى قوله : ومما صدر عني في
السياسة : « حدثت من امتاز باعتبار الأخبار ، وحاز درجةَ الاشتهار ، بنقل
حوادثِ الليل والنهار ، وولج بين الكمامم والأزهار ، وتلطف لحجل الورد
من تبسم البهار ، قال : سهر الرشيد ليله ، وقد مال في هجر النيذ ميله ، وجهد
ندماؤه في جلب راحته ، وإلمام النوم بساحته ، فشحت عيهادهم ، ولم يُغنِ
اجتهادهم ، فقال : اذهبوا إلى طُرُقِ سَمَها ورسمها ، وأمهاثِ قسمها ،
فمن عثرتم عليه من طارقِ ليل ، أو غُثاءِ سيل ، أو ساحبِ ذَيْل ، فبلغوه ،
والأمتة سوغوه ، واستدعوه ، ولا تدعوه ، فطاروا عَجالي ، وتفرقوا
ركباناً ورجالا ، فلم يكن إلا ارتدادُ طرف ، أو فُواقِ حرف ، وأتوا بالغنيمة
التي اكتسحوها ، والبضاعة التي ربحوها ، يتوسطهم الأشعث الأغر ، واللجُّ
الذي لا يُعبَّر : شيخٌ طويل القامة ، ظاهر الاستقامة ، سبَلته مُشمطةٌ ،

١ الفواق : فترة ما بين الحلبتين ؛ والحرف : الناقة .

وعلى أنفه من القبع^١ مَطَّة ، وعليه ثوب مرقوع ، لطير الحرق عليه وقوع ،
يُهَيِّنُ بِذِكْرِ مَسْمُوعٍ ، وَيُنْبِئُ عَنْ وَقْتِ مَجْمُوعٍ ، فَلَمَّا مَثَلَ سَلَمٌ ، وَمَا
نَبَسَ بَعْدَهَا وَلَا تَكَلَّمَ ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ الْمَلِكُ فَتَقَعَدَ ، بَعْدَ أَنْ انْشَمَرَ وَابْتَعَدَ ، وَجَلَسَ ،
فَمَا اسْتَرَقَ النَّظَرَ وَلَا اخْتَلَسَ ، لِأَنَّمَا حَرَكَةُ فِكْرِهِ ، مَعْقُودَةٌ بِزِمَامِ ذِكْرِهِ ،
وَلِحِظَاتِ اعْتِبَارِهِ ، فِي تَفَاصِيلِ أَخْبَارِهِ ، فَابْتَدَرَهُ الرَّشِيدُ سَائِلًا ، وَانْحَرَفَ إِلَيْهِ
مَائِلًا ، وَقَالَ : مِمَّنَ الرَّجُلُ ؟ فَقَالَ : فَارِسِيُّ الْأَصْلِ ، أَعْجَمِيُّ الْجَنَسِ عَرَبِيُّ
الْفَصْلِ ، قَالَ : بَلَدُكَ وَأَهْلُكَ وَوَلَدُكَ ؟ قَالَ : أُمَّا الْوَلَدُ فَوَلَدُ الدِّيَّانِ ، وَأُمَّا
الْبَلَدُ فَمَدِينَةُ الْإِيَّانِ ، قَالَ : النَّحْلَةُ ، وَمَا أَعْمَلْتَ إِلَيْهِ الرَّحْلَةَ ؟ قَالَ : أُمَّا الرَّحْلَةُ
فَالْإِعْتِبَارُ ، وَأُمَّا النَّحْلَةُ فَالْأَمْرُ الْكُبَّارُ ، قَالَ : فَنَنْتَ ، الَّذِي اشْتَمَلَ عَلَيْهِ دَنْتَكَ ؟
فَقَالَ : الْحِكْمَةُ فَتِي الَّذِي جَعَلْتَهُ أَثِيرًا ، وَأَضْجَعْتَ فِيهِ فَرَاشًا وَثِيرًا ، وَسَبَّحَانَ
الَّذِي يَقُولُ ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (البقرة : ٢٦٩)
وَمَا سَوَى ذَلِكَ فَتَبَعَ ، وَلِي فِيهِ مُصْطَفٍ وَمُرْتَبِعٍ ، قَالَ : فَتَعَاضِدُ جَدَلُ
الرَّشِيدِ وَتَوْفَرُ ، كَأَنَّمَا أَغْشَى وَجْهَهُ قِطْعَةٌ مِنَ الصَّبِيحِ إِذَا أُسْفِرَ ، وَقَالَ : مَا رَأَيْتَ
كَالَلَيْلَةِ أَجْمَعَ لِأَمَلٍ شَارِدٍ ، وَأَنْعَمَ بِمُؤَانَسَةِ وَارِدٍ ، يَا هَذَا إِنِّي سَائِلُكَ ، وَلَنْ تَحْيَبَ
بَعْدُ وَسَائِلُكَ ، فَأَخْبَرَنِي مَا عِنْدَكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ الَّذِي بُلِينَا بِحَمْلِ أَعْبَائِهِ ، وَمُنِينَا
بِمَرَاوِضِ إِبَائِهِ ، فَقَالَ : هَذَا الْأَمْرُ قِلَادَةٌ ثَقِيلَةٌ ، وَمِنْ خُطَّةِ الْعِجْزِ مُسْتَقِيلَةٌ ،
وَمِفْتَخَرَةٌ لِسَعَةِ الذَّرْعِ ، وَرَبَطَ السِّيَاسَةَ الْمَدِينِيَّةَ بِالشَّرْعِ ، يَفْسُدُهُ الْحُكْمُ فِي
غَيْرِ مَحَلِّهِ ، وَيَكُونُ ذَرِيْعَةً إِلَى حَلَّتِهِ ، وَيُصْلِحُهُ مِقَابِلَةُ الشَّكْلِ بِشَكْلِهِ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ
سَبْعًا آكِلًا تَدَاعَتْ سَبَاعٌ إِلَى أَكْلِهِ .

« فَقَالَ الْمَلِكُ : أَجْمَلْتَ فَفَصَّلَ ، وَبَرَّيْتَ فَفَصَّلَ ، وَكَلَّمْتَ فَأَوْصَلَ ،
وَإِنِّي الْحَبَّ لِمَنْ يُحَوِّصِلُ ، وَأَقْسِمُ السِّيَاسَةَ فَنُونًا ، وَاجْعَلْ لِكُلِّ لِقَبِّ قَانُونًا ،
وَإِبْدَأْ بِالرَّعِيَّةِ ، وَشَرُوطِهَا الْمَرْعِيَّةِ .

١ القبع : الصياح أو الإعياء والانبهار .

« فقال : رعيتك ودائع الله تعالى قبلك ، ومرآة العدل الذي عليه جبلك ، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله تعالى التي وهب لك ، وأفضل ما استدعيت به عونَه فيهم ، وكفايته التي تكفيهم ، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلمهم ورضيعهم ، والترفع عن تضييعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها ، أخذاً يحوطُ ماها ، ويحفظُ عليها كماها ، ويقصرُ عن غير الواجبات آماها ، حتى تستشعرَ عِلَّيتها رأفتك وحنانك ، وتعرفَ أوساطها في النَّصَبِ امتنانك ، وتحذرَ سِفْلَتها سنانك ، وحظرُ على كل طبقة منها أن تتعدى طورها ، أو تخالف دورها ، أو تجاوزَ بأمرِ طاعتك فورها ، وسدَّ فيها سُبُلَ الذريعة ، وأقصرَ جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة ، وامنع أغنياءها من البطرِ والبطالة ، والنظرِ في شبهات الدين بالتمشددِ والإطالة ، وليقلَّ فيما شجر بين الناس كلامها ، ويرفض ما تنبذ به أعلامها ، فإن ذلك يسقطُ الحقوقَ ، ويرتبُ العقوقَ ، وامنعهم من فحشِ الحرص والشره ، وتعاهدهم بالمواعظِ التي تجلو البصائر من المره ، واحملهم من الاجتهاد في العمارة على أحسنِ المذاهب ، وانتههم عن التحاسدِ على المواهب ، ورضهم على الإنفاق بقدر الحال ، والتعزي عن الفات فرده من المحال ، وحذر البخل على أهل اليسار ، والسخاء على أولي الإعسار ، وخذهم من الشريعة بالواضح الظاهر ، وامنعهم من تأويلها منعَ القاهر ، ولا تطلق لهم التجمع على من أنكروا أمره في نواديبهم ، وكف عنهم أكفَ تعديهم ، ولا تبخ لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم ، ولتكن غايتهم ، فيما توجهت إليه إبايتهم ، ونكصت عن الموافقة عليه رايتهم ، لإنهاء إلى من وكلتهم بمصالحهم من ثقاتك ، المحافظين على أوقاتك ، وقدم منهم من أمنت عليهم مكره ، وحمدت على الإنصاف شكره ، ومن كثر حياؤه من التأنيب ، وقابل الهفوة باستتابه النبيب ، ومن لا يتخطى عندك محله الذي حلّه ، فربما عمد إلى المبرم فحلّه ، وحسن النيّة لهم

بجهد الاستطاعة ، واغتفر المكاره في جنب حسن الطاعة ، وإن ثار جرادهم ،
واختلف في طاعتك مرآدهم ، فتحصن لثورتهم ، واثبت لفورتهم ، فإذا سالوا
وسلوا ، وتفرقوا وانسلوا ، فاحتقر كثرتهم ، ولا تقل عثرتهم ، واجعلهم
لما بين أيديهم وما خلفهم نكالا ، ولا ترك لهم على حلمك انكالا .

« ثم قال : والوزير الصالح أفضل عددك ، وأوصل مددك ، فهو الذي يصونك
عن الابتذال ، ومباشرة الأندال ، ويثب لك على الفرصة ، وينوب في تجرع
الغصة ، واستجلاء القصة ، ويستحضر ما نسيته من أمورك ، ويغلب فيه الرأي
بموافقة مأمورك ، ولا يسعه ما تمكنتك المسامحة فيه ، حتى يستوفيه ، واحذر
مصادمة تياره ، والتجوز في اختياره ، وقدم استخارة الله تعالى في إثارة ،
وأرسل عيون الملاحظة على آثاره ، وليكن معروفاً بالإخلاص لدولتك ، معقود
الرضى والغضب برضاك وصولتك ، زاهداً عما في يديك ، مؤثراً لكل ما
يزلّفُ لديك ، بعيد الهمة ، راعياً للأذمة ، كامل الآلة ، محيطاً بالإيالة ،
رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحي والميت ، مؤثراً للعدل
والإصلاح ، درياً بحمل السلاح ، ذا خبرة بدخل المملكة وخرجها ، وظهرها
وسرجها ، صحيح العقد ، متحرزاً من النقد ، جاداً عند هوك ، متيقظاً في حال
سهوك ، يلين عند غضبك ، ويصلبُ الإسهاب بمقتضبك ، قلقاً من شكره
دونك وحمده ، ناسباً لك الإصابة بعمده ، وإن أعبأ عليك وجود أكثر هذه
الخلال ، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال ، فاطلب منه سكون النفس
وهدونها ، وأن لا يرى منك رتبة إلا رأى قدره دونها ، وتقوى الله تعالى تفضل
شرف الانتساب ، وهي للفضائل فذلكة الحساب ، وساو في حفظ غيبه
بين قربه ونأيه ، واجعل حظه من نعمتك موازياً لحظك من حسن رأيه ، واجتنب
منهم من يرى في نفسه إلى الملك سيلاً ، أو يقود من عيصه للاستظهار عليك
قبيلاً ، أو من كاتر مالك ماله ، أو من تقدم لعدوك استعماله ، أو من سمّت
لسواك آماله ، أو من يعظم عليه إعراض وجهك ، وبهمة نادر نجهك ،

أو من يداخلُ غيرَ أحبائك ، أو من ينافسُ أحداً ببابك .

«وأما الجند فاصرف التقديمَ منهم للمقاتلة ، والمكايدة والمخاتلة ، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة ، وخذهم بالثبات للصدمة ، ووفِّ ما أوجبت لهم من الجراية والنعمة ، وتعاهدهم عند الغناء بالعلفة والطعمة ، ولا تكرم منهم إلا من أكرمه غناؤه ، وطاب في الذب عن ظنك ثناؤه ، وولَّ عليهم النبهاء من خيارهم ، واجتهد في صرفهم عن الافتتان بأهلهم وديارهم ، ولا توطئهم الدعة مهاداً ، وقدمهم على حصصك وبعوثك مهما أردت جهاداً ، ولا تلين لهم في الإغماض عن حسن طاعتك قياداً ، وعودهم حُسن المواسة بأنفسهم اعتياداً ، ولا تسمح لأحدٍ منهم في إغفال شيء من سلاح استظهاره ، أو عُدَّة اشتهاره ، وليكن ما فضل من شبعهم وربهم ، مصروفاً إلى سلاحهم وزيتهم ، والتزيد في مراكبهم وغلمانهم ، من غير اعتبار لأثمانهم ، وامنعهم من المستغلات والمتاجر ، وما تكسب به غير المشاجر ، وليكن من الفوار اكتسابهم ، وعلى المغانم حسابهم ، كالجوارح التي تفسد باعتيادها ، أن تطعم من غير اصطيادها .

«واعلم أنها لا تبدل نفوسها من عالم الإنسان ، إلا لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان ، ويملك حركاتها بالتقويم ، ورُتبتها بالميزان القويم ، ومن تثق بإشفاقه على أولادها ، ويشري رضى الله تعالى بصره على طاعته وجلادها ، فإذا استشعرت لها هذه الخلال تقدمتك إلى مواقف التلف ، مطيعة دواعي الكلف ، واثقة منك بحسن الخلف ، واستبق إلى تمييزهم استباقاً ، وطبقهم طباقاً ، أعلاها من تأملت منه في المحاربة عنك أخطاراً ، وأبعدهم في مرضاتك مطاراً ، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزمأ ووقاراً ، واستهانة بالعظام واحتقاراً ، وأحسنهم لمن تقلده أمرك من الرعية جواراً ، إذا أجدت اختباراً ، وأشدتهم على ماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطباراً ، ومن بلاء في الذي عنك إحلاء وإمراراً ، ولحقه الضر في معارض الدفاع

عنك مراراً ، وبعده مَنْ كانَتْ مَحَبَّتُهُ لَكَ أَزِيدُ مِنْ نَجْدَتِهِ ، وَمَوْقِعُ رَأْيِهِ أَنْفَعُ مِنْ مَوْقِعِ صَعْدَتِهِ ، وَبَعْدَهُمَا مَنْ حَسَنَ انْقِيَادَهُ لِأَمْرَائِكَ ، وَإِحْمَادَهُ لِأَرَائِكَ ، وَمَنْ جَعَلَ نَفْسَهُ مِنَ الْأَمْرِ حَيْثُ جَعَلَهُ ، وَكَانَ صَبْرُهُ عَلَى مَا عَرَاهُ أَكْثَرَ مِنْ اعْتِدَادِهِ بِمَا فَعَلَهُ . وَاحْذَرُ مِنْهُمْ مَنْ كَانَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَكْبَرَ مِنْ مَوْقِعِهِ فِي الْإِنْتِفَاعِ ، وَلَمْ يَسْتَحْيِ مِنَ التَّرِيدِ بِأَضْعَافِ مَا بَدَلَهُ مِنَ الدَّفَاعِ ، وَشَكَا الْبُخْسَ فِيمَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ مِنْ فَوَائِدِكَ ، وَقَاسَ بَيْنَ عَوَائِدِ عَدُوِّكَ وَعَوَائِدِكَ ، وَتَوَعَّدَ بِانْتِقَالِهِ عَنْكَ وَارْتِحَالِهِ ، وَأَظْهَرَ الْكِرَاهِيَةَ لِحَالِهِ .

« وَأَمَّا الْعَمَالُ فَإِنَّهُمْ يَنْبُثُونَ عَنِ مَذْهَبِكَ ، وَحَالِهِمْ فِي الْغَالِبِ شَدِيدَةٌ الشَّبَهُ بِكَ ، فَعَرَّفَهُمْ فِي أَمَانَتِكَ السَّعَادَةَ ، وَأَلْزَمَهُمْ فِي رِعْيَتِكَ الْعَادَةَ ، وَأَنْزَلَهُمْ مِنْ كِرَامَتِكَ بِحَسَبِ مَنَازِلِهِمْ فِي الْإِنصَافِ ، بِالْعَدْلِ وَالْإِنصَافِ ، وَأَحْلَيْتَهُمْ مِنَ الْحَفَايَةِ ، بِنِسْبَةِ مَرَاتِبِهِمْ مِنَ الْأَمَانَةِ وَالْكَفَايَةِ ، وَقَفَّيْتَهُمْ عِنْدَ تَقْلِيدِ الْأَرْجَاءِ ، مَوَاقِفَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ ، وَقَرَّرْتُ فِي نَفْسِهِمْ أَنَّ أَعْظَمَ مَا بِهِ إِلَيْكَ تَقَرَّبُوا ، وَفِيهِ تَدَرَّبُوا ، وَفِي سَبِيلِهِ أَعْجَمُوا وَأَعْرَبُوا ، إِقَامَةُ حَقِّ وَدَحْضُ بَاطِلٍ ، حَتَّى لَا يَشْكُو غَرِيمٌ مَطْلَ مَاطِلٍ ، وَهُوَ آثَرُ لَدَيْكَ مِنْ كُلِّ رِيَابٍ هَاطِلٍ ، وَكَفَّيْتَهُمْ مِنَ الرِّزْقِ الْمَوَافِقِ ، عَنِ التَّصَدِيِّ لِذُنُوبِ الْمُرَافِقِ ، وَاصْطَنَعْتُ مِنْهُمْ مِنْ تَيْسَرَتِ كَلْفَتِهِ ، وَقَوِيْتُ لِلرَّعَايَا أَلْفَتَهُ ، وَمَنْ زَادَ عَلَى تَأْمِيلِهِ صَبْرُهُ ، وَأَرَبَّى عَلَى خَبْرَتِهِ خُبْرَهُ ، وَكَانَتْ رَغْبَتُهُ فِي حَسَنِ الذِّكْرِ ، تَشْفُؤُ عَلَى بَنَاتِ الْفِكْرِ ، وَاجْتَنَبْتُ مِنْهُمْ مَنْ يَغْلِبُ عَلَيْهِ التَّخْرُقُ فِي الْإِنْفَاقِ ، وَعَدَمُ الْإِشْفَاقِ ، وَالتَّنَافُسُ فِي الْاِكْتِسَابِ ، وَسَهْلُ عَلَيْهِ سَوْءُ الْحِسَابِ ، وَكَانَتْ ذَرِيعَتُهُ الْمَصَانَعَةُ بِالنَّفَايَةِ ، دُونَ التَّقْصِي وَالْكَفَايَةِ ، وَمَنْ كَانَ مَنْشُؤُهُ خَامِلًا ، وَلِأَعْبَاءِ الذَّنَاءَةِ حَامِلًا ، وَابْنُ مَنْ يَكُونُ الْاِعْتِدَارُ فِي أَعْمَالِهِ ، أَوْضَحَ مِنَ الْاِعْتِدَارِ فِي أَقْوَالِهِ ، وَلَا يَفْتَنُّكَ مِمَّنْ قَلَدْتَهُ اجْتِلَابُ الْحِظِّ الْمَقْنَعِ ، وَالتَّنْفُوقُ بِالسَّعْيِ الْمَسْمُوعِ ، وَمُخَالَفَةُ السَّنَنِ الْمَرْعِيَةِ ، وَاتِّبَاعُهُ رِضَاكَ بِسَخَطِ الرِّعْيَةِ ، فَإِنَّهُ قَدْ غَشَّكَ ، مِنْ حَيْثُ بَلَكَ وَرَشَّكَ ، وَجَعَلَ مِنْ يَمِينِكَ

في شمالك ، حاضر مالك ، ولا تُضْمَنَ عاملاً مال عمله ، وحُلِّ بينه فيه وبين
أمله ، فإنك تبتِ رسومك بحياه ، وتخرجه من خدمتك فيه إلا أن تملكه إياه ،
ولا تجمع لهُ بين الأعمالِ فيسقط استظهارك ببلد على بلد ، والاحتجاج على
والد بولد ، واحرصُ على أن يكونَ في الولاية غريباً ، ومنتقلهُ منك قريباً ،
ورهيئةً لا يزال معها مريباً ، ولا تقبلُ مصالحته على شيء اختانه ، ولو برغبة
فتانه ، فتقبلِ المصانعةَ في أمانتك ، وتكونَ مشاركاً لهُ في خيانتك ، ولا
تُطِلْ مدة العمل ، وتعاهد كشف الأمور ممن يرعى الحمل ، ويبلغ الأمل .
«وأما الولد فأحسنِ آدابهم ، واجعل الخير دابهم ، وخفْ عليهم من
إشفاقك وحنانك ، أكثر من غلظة جنانك ، واكتمْ عنهم ميلك ، وأفضْ فيهم
جودك وتيئلك ، ولا تستغرقْ بالكلفِ بهم يومك ولا لئيلك ، وأثنيهمُ
على حُسنِ الجواب ، وسبِّقْ لهم خوفَ الجزاء على رجاء الثواب ، وعلمهم
الصبرَ على الضرائر ، والمهلة عند استخفاف الجرائر ، وخذهم بحسن السرائر ،
وحبب إليهم مراسِ الأمور الصعبة المراس ، وحُسنِ الاصطناع والاحتراس ،
والاستكثار من أُولي المراتب والعلوم ، والسياسات والحلوم ، والمقام العلوم ،
وكرهَ إليهم مجالسة الملهين ، ومصاحبة الساهين ، وجاهد أهواءهم عن عقولهم ،
وحذرِ الكذبَ على مقولهم ، ورشحنهمُ إذا آنت منهم رُشداً أو هدياً ،
وأرضعهم من الموازرة والمشاورة ثدياً ، لتمرثهم على الاعتياد ، وتحملهم على
الازدياد ، ورُضنهمُ رياضة الجياد ، واحذر عليهم الشهوات فهي داؤهم ،
وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم ، وتدارك الخلق الذميمة كلما نَجَمَت ، واقدها
إذا هجمت ، قبل أن يظهر تضعيفها ، ويقوى ضعيفها ، فإن أعجزتك في الصغر
الحيل ، عظم الميل :

إنَّ الغُصونَ إذا قومَتها اعتدلت ولَنَ تَكِينَ إذا قومَتها الحشْبُ

وإذا قدرُوا على التدبير ، وتشوفوا للمحل الكبير ، إياك أن تيرطنهم في

مكانك ، جهد إمكانك ، وفرقهم في بلدانك ، تفریق عیدانك ، واستعملهم في بعوث جهادك ، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك ، فإن حَضَرَكَ تشغلهم بالتحاسد ، والتباري والتفاسد ، وانظر إليهم بأعين الثقات فإن عين الثقة ، تُبْصِرُ ما لا تبصر عين المحبة والمقبة .

«وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع ، وتبصر وتسمع ، فرُضُّهُم بالصدق والأمانة ، وصُنُّهُم صَوْنِ الحُمانَةِ ، وخذهم بحسن الانقياد إلى ما أثرته ، والتقليل مما استكثرته ، واحذر منهم من قويت شهواته ، وضاعت عن هواه لهواته ، فإن الشهوات تنازعك في استراقه ، وتشاركك في استحقاقه ، وخيبرهم من ستر ذلك منه بلطف الحيلة ، وآداب الفساد محيلة ، وأشرب قلوبهم أن الحق في كل ما حاولته واستترته ، وأن الباطل في كل ما جانبته واعتزلته ، وأن من تصفح منهم أمورك فقد أذنب ، وباين الأدب وتجنب ، وأعط من أكدده ، وأضقت منه ملكه وشدته ، راحة يشتغل فيها بما يعنيه ، على حسب صعوبة ما يعانیه ، تغططهم فيها بمسارحهم ، وتجم كليلة جوارحهم ، ولتكن عطاياك فيهم بالمقدار الذي لا يبطر أعلامهم ، ولا يؤسف الأصاغر فيفسد أعلامهم ، ولا ترم محسنهم بالغاية من إحسانك ، واترك لمزيدهم فضلا من رفقك ولسانك ، وحذر عليهم مخالفتك ولو في صلاحك ، بحد سلاحك ، وامنعهم من التواثب والتشاجر ، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر ، واستخلص منهم لسرك من قلت في الإفشاء ذنوبه ، وكان أصبر على ما ينوبه ، ولودائعك من كانت رغبته في وظيفة لسانك ، أكثر من رغبته في إحسانك ، وضبطه لما تقلد من وديعتك ، أحب إليه من حسن صنيعتك ؛ وللسفارة عنك من حلا الصدق في فمه ، وآثره ولو باختطار دمه ، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمله ، وعني بلفظه حتى لا يهمله ، ولمن تودعه أعداء دولتك من كان مقصور الأمل ، قليل القول صادق العمل ، ومن كانت

قسوته زائدة على رحمته ، وعظّمه في مرضاتك آثر من شحمته ، ورأيه في الحذر سديد ، وتحرزّه من الخيل شديد ؛ ولخدمتك في ليلك ونهارك من لانت طباعه ، وامتد في حسن السجّية باعّه ، وأمن كيده وغدره ، وسلم من الحقد صدره ، ورأى المطامع فما طمع ، واستثقل إعادة ما سمع ، وكان بريئاً من الملال ، والبشر عليه أغلب الخلال ، ولا تؤنسهم منك بقبيح فعل ولا قول ، ولا تؤيسهم من طوّل ، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعاثهم ، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم ، إصابة الغرض فيما به وكلوا ، وعليه شكّلوا ، فإنّك لا تعدم بهم انتفاعاً ، ولا يعدمون لديك ارتفاعاً .

«وأما الحرم فهنّ مغارس الولد ، ورياحين الخلد ، وراحة القلب الذي أجهدهته الأفكار ، والنفس التي تقسّمها الإحماد إلى المساعي والإفكار ، فاطلب منهن من غلب عليهن من حسن الشيم ، المترفة عن القيم ، ما لا يسوءك في خلدك ، أن يكون في ولدك ، واحذر أن تجعل لفكر بشرٍ دون بصيرٍ إليهن سبيلاً ، وانصبّ دون ذلك عذاباً وبيلاً ، وأرعيهنّ من النساء العجّز منّ بانة في الديانة والأمانة سبله ، وقويت غيبرته ونبله ، وخذهنّ بسلامة النيات ، والشيم السنيات ، وحسن الاسترسال ، والخلق السلسال ، وحذّر عليهنّ التغامر والتغاير ، والتنافس والتخاير ، وآس بينهن في الأغراض ، والتصامم عن الإعراض ، والمحابة بالأعراض ، وأقلل من مخالطتهن فهو أبقى لهمتك ، وأسبل لحرمتك ، ولتكن عشرتك لمن عند الكلال والملال ، وضيق الاحتمال ، بكثرة الأعمال ، وعند الغضب والنوم ، والفراغ من نصّب اليوم ، واجعل مبيتك بينهن تنمّ بركاتك ، وتستتر حركاتك ، وافصل من ولدت منهن إلى مسكن تخبر به استقلالها ، وتعتبر بالتفرد خلالها ، ولا تطلق حرمة شفاعه ولا تدبيراً ، ولا تنطّبها من الأمر صغيراً ولا كبيراً ، واحذر أن يظهر على خدمن في خروجهن عن القصور ، وبروزهن من أجمة الأسد الهصّور ، زي بارع ، ولا طيب للأثوف مسارع ، واخصص بذلك منّ طعن في السن ، ويشس من الإنس

والجن ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله ، وقصر عن جمال الصورة ورُسم بالبلّك .

« ثمّ لما بلغ إلى هذا الحد حمي وطيس اسحنفاره ، وختم حزبهُ باستغفاره ، ثم صمت ملكياً ، واستعاد كلاماً أولياً .

« ثم قال : واعلم يا أمير المؤمنين - سدد الله تعالى سهمك لأغراض خلافته وعصمك من الزمان وآفته - أنك في مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل ، في طائفة من عز الله تعالى تذبُّ عنك حُماها ، وتدافع عن حوزتك كتابها ، فاحذر أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه بضاعة ، أو يهجم بك رضاك على إضاعة ، ولتكن قدرتك وقفاً على الاتصاف ، بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسوية ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية ، وخفّ أن تقعد بك أناتك عن حزم تعين ، أو تستفرك العجلة في أمر لم يتبين ، وأطع الحجة ما توجهت إليك ، ولا تحفل بها إذا كانت عليك ، فانقيادك إليها أحسنُ من ظفرك ، والحق أجدى من نفرك ، ولا تردنّ النصيحة في وجه ، ولا تقابل عليها بنجّه ، فتمنعها إذا استدعيتها ، وتُحجب عنك إن استوعبتها ، ولا تستدعها من غير أهلها ، فيشغبك أولو الأغراض بجهلها ، واحرص على أن لا ينقضى مجلس جلسته ، أو زمن اختلسته ، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه في معادك بفائدة .

« ولا يزهدنك في المال كثرته ، فتقل في نفسك أثرته ، وقس الشاهد بالغايب ، واذكر وقوع ما لا يحتسب من النوايب ، فالمال المصون ، أمتع الحصون ، ومن قل ماله ، قصرت آماله ، وتهاون بيمينه شماله ، والملك إذا فقد خزينه ، أخنى على أهل الجدة التي تزينه ، وعاد على رعيته بالإجحاف ، وعلى جبايته بالإلحاف ، وساء معتاد عيشه ، وصغر في عيون جيشه ، ومنّوا عليه بنصره ، وأنفوا من الاقتصار على قصره ، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه ، وتربط آمال أهل السلاح به ، والمال نعمة الله تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه ، فتجمع

بالشهوات بين إتلافك وإتلافه ، واستأنس بحسن جوارها ، واصرف في حقوق الله تعالى بعض أطوارها ، فإن فضّلَ المالُ عن الأجل فأجلّ ، ولم يضر ما خلف منه بين يدي الله عزّ وجلّ ، وما ينفق في سبيل الشريعة ، وسد الذريعة ، مأمول خَلَفَهُ ، وما سواه فمتعين تَلَفَهُ .

« واستخلص لنواديك الغاصة ، ومجالسك العامة والخاصة ، من يليق بولوج عَتَبِهَا ، والعروج لرتبها ، أمّا العامية فمن عظم عند الناس قدره ، وانشرح بالعلم صدره ، أو ظهر يساره ، وكان لله تعالى إخباته وانكساره ، ومن كان للفتيا منتصباً ، وبتاج المشورة معتصباً ، وأمّا الخاصة فمن رَقَّت طباعه ، وامتد فيما يليق بتلك المجالس باعه ، ومن تبحر في سير الحكماء ، وأخلاق الكرماء ، ومن له فضل سافر ، وطبع للدنية منافر ، ولديه من كل ما تستر به الملوك عن العوام حظ وافر ، وصف ألبابهم بمحصول خيرك ، وسكّن قلوبهم بيمن طيرك ، وأغْنِيَهُمْ ما قدرت عن غيرك . واعلم بأن مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة ، والمصاييح المتعلقة ، وعلى قدر تعاهدها تبدّل من الضياء ، وتجلو بنورها صورَ الأشياء ، وفرغها لتجبير ما يزين مدتك ، ويحسن من بعد البلاء جدّتك ، وبعناية الأواخر ذكرت الأوّل ، وإذا محيت المفاخرُ خربت الدول .

« واعلم أن بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان ، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان ، فاحرص على ما يوضح في الدهر سُبُلَكَ ، ويحرز المزية على من قبلك ، وأن خير الملوك من ينطق بالحجة وهو قادر على القهر ، ويبدل الإنصاف في السر والجهر ، مع التمكن من المال والظّهر ، ويسار الرعية جمال للملك وشرف ، وفاقتهم من ذلك طرف ، فغلب أليقَ الحالين بمملكك ، وأولاهما بظعنك وحلّك .

« واعلم أن كرامة الجور دائرة ، وكرامة العدل متكاثرة ، والغلبة بالخير

سيادة ، وبالشر هَوَاة ، واعلم أن حسن القيام بالشرعية يحسمُ عنك نكايَةَ
الخوارج ، ويسمو بك إلى المعارج ، فإنها تقصدُ أنواع الخدع ، وتورِي بتغيير
البدع ، وأطلق على عدوك أيدي الأقوياء من الأكفاء ، وألسنة اللقيفِ من
الضعفاء ، واستشعر عند نكته شعارَ الوفاء .

«ولتكنْ ثقتك بالله تعالى أكثرَ من ثقتك بقوة تجدها ، وكتيبة تنجدها ،
فإن الإخلاص يمنحك قوى لا تُكتسب ، ويمهد لك مع الأوقات نصراً لا يحتسب .
«والتمس أبدأً سلمَ من سالمك بنفس ما في يدك ، وفضلْ حاصلَ يومك
على مُنتظرِ غدك ، فإن أبي وضحتْ محبتك ، وقامت عليه للناسِ بذلك حجتك ،
فللنفوس على الباغين مِثْل ، ولها من جانبه نَيْل ، واستهد في كلِّ يومٍ سيرةَ
من يناويك ، واجتهد أن لا يوازيك في خير ولا يساويك ، وأكذبْ بالخير ما
يُشيعه من مساويك ، ولا تقبل من الإطراء إلا ما كان فيك فضل عن إطالته ،
وجدٌ يُزري على بطالته ، ولا تلقَ المذنبَ بمحبتك وسبِّك ، واذكر عند
حركة الغضب ذنوبك إلى ربك ، ولا تنسَ أن ربَّ المذنب أجلسك مجلسَ
الفصل ، وجعل في قبضتك ريشَ النصل . وتشاغلْ في هدنة الأيام بالاستعداد ،
واعلم أن التراخي مندرٌ بالاستعداد ، ولا تهملْ عَرْضَ ديوانك ، واختبارَ
أعدائك ، وتحصينَ معاقلك وقلاعك . وعمُّ إياك بحسن اطلاعك ، ولا تشغل
زَمَنَ الهدنة بلداتك ، فتجني في الشدة على ذاتك ، ولا تطلقْ في دولتك ألسنةَ
الكهانة والإرجاف ، ومطاردة الآمال العجاف ، فإنه يبعثُ سوء القول ، ويفتحُ
باب العوّل ، وخذ على المدرسين والمتعلمين ، والعلماء والمتكلمين ، حملاً
الأحداث على الشكوك الخالجة والمزلات الواجحة ، فإنه يفسدُ طباعهم ،
ويغري سباعهم ، ويمدّ في مخالفة الملة باعهم ، وسُدَّ سبيلَ الشفاعاتِ فإنها
تفسد عليك حُسْنَ الاختيار ، ونفوسَ الخيار ، وابدل في الأسرى من حُسْنِ
ملكك ما يرضي مَنْ مَلَكَكَ رقابها ، وقلدك ثوابها وعقابها ، وتلقَ بده
نهارك بذكر الله تعالى في ترفعك وابتدالك ، واختم اليوم بمثل ذلك .

« واعلم أنك مع كثرة حُجَابِكَ ، وكثافة حِجَابِكَ ، بمنزلة الظاهر للعيون ، المطالب بالديون ، لشدة البحث عن أمورك ، وتعرف السر الخفي بين أمرك ومأمورك ، فاعمل في سرِكَ ما لا تستبجُ أن يكونَ ظاهراً ، ولا تأنف أن تكونَ به مُجَاهراً ، وأحكِمْ بَرِيكَ في الله ونَحْتِكَ ، وخَفْ مَنْ فَوْقَكَ يَخْفُ مَنْ تَحْتِكَ ، واعلم أن عدوك من أتباعك من تناسيت حسنَ قَرَضِهِ ، أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفَرَضِهِ ، فأصمت الحجاج ، وتوقَّ اللجج ، واسترب بالأمل ، ولا يحملنك انتظامُ الأمورِ على الاستهانة بالعمل ، ولا تحقرن صغير الفساد ، فيأخذَ في الاستسداد ، واحبس الألسنة عن التخالي باغتيابك ، والتشبث بأذيال ثيابك ، فإن سوء الطاعة ينتقلُ من الأعين الباصرة ، إلى الألسن القاصرة ، ثم إلى الأيدي المتناصرة ، ولا تثقُ بنفسك في قتالِ عدوِّ ناواك ، حتى تظفرَ بعدوِّ غضبيكَ وهواك ، وليكن خوفك من سوء تدبيرك ، أكثرَ من عدوك الساعي في تبيرك^١ ، وإذا استترلت ناجماً^٢ ، أو أمنت نائراً هاجماً ، فلا تقلده البلد الذي فيه نَجَمٌ ، وهَمَى عارضُهُ فيه وانسجم ، يعظم عليك القدح في اختيارك ، والغض من إثارك ، واحترز من كيدِهِ في حَوْرِكَ ومَأْمَكِ^٣ ، فإنك أكبر همِّه وليس بأكبر همِّك ، وجَمَلِ المملِكة بتأمين الفلوات ، وتسهيل الأقوات ، وتجديد ما يُتعامَلُ من الصرفِ في البياعات ، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات ، ولا تبخس عيارَ قيمِ البضاعات ، ولتكن يدك عن أموال الناس محجورة ، وفي احترامها إلا عن الثلاثة مأجورة : مال مَنْ عدا طورهُ طَوْرَ أهله ، وتخارق في الملابس والزينة ، وفضول المدينة ، يرومُ معارضتك بجهله ؛ ومَنْ باطنَ أعداك ، وأمنَ اعتداك ؛ ومَنْ أساء جوارَ رعيتك بإخساره ، وبذل الأذاية فيهم بيمينه ويساره .

١ التتبير : الهلاك .

٢ الناجم : النائر .

٣ الحور : العودة ؛ والمأم : القصد .

وأضرب ما منيت به التعادي بين عبدانك ، أو في بلد من بلدانك ، فسُدَّ فيه الباب ، واسأل عن الأسباب ، وانقلهم بوساطة أولي الألباب ، إلى حالة الأحباب ، ولا تطوق الأعلام أطواق المنون ، بهواجس الظنون ، فهو أمر لا يقف عند حد ، ولا ينتهي إلى عدّ ، واجعلْ ولدك في احتراسك ، حتى لا يطمع في افتراسك .

« ثم لما رأى الليل قد كاد ينتصف ، وعموده يريد أن ينقص ، ومجال الوصايا أكثر مما يصف ، قال : يا أمير المؤمنين ، بحر السياسة زاخر ، وعمر المتمتع بناديك مستاخر ، فإن أذنت في فن من فنون الأنس يجذب بالمقاد ، إلى راحة الرقاد ، ويعتق النفس بقدرة ذي الجلال ، من ملكة الكلال . » فقال : أما وقد استحسنا ما سردت ، فشأنك وما أردت .

« فاستدعى عوداً فأصلحه حتى حمده ، وأبعد في اختباره أمدّه ، ثم حرك بجمه ، وأطال الجس ثمه ، ثم تغنى بصوت يستدعي الإنصات ، ويصدع الحصة ، ويستفز الحليم عن وقاره ، ويستوقف الطير ورزقُ بنيه في منقاره ، وقال :

صاح ما أعطرَ القبولَ بنمّه	أتراها أطالت اللبثَ ثمّه
هي دارُ الهوى مئى النفس فيها	أبدَ الدهرِ والأمانى جمّه
إن يكن ما تارَّجَ الجوُّ منها	واستفاد الشذا وإلا فمّمّه
من لطرفي بنظرة ولأنفسي	في رباها وفي ثراها بشمّه
ذكرَ العهدُ فانتفضتْ كأنّي	طرقتني من الملائك لّمّه
وطنٌ قد نضيتُ فيه شباباً	لم تُدتنس منه البرودَ مذّمّه
بنتُ عنه والنفسُ من أجل من قد	خلقتُهُ خلاله مُغتّمّه
كان حلماً فويحُ من أملَ الدّه	رَ وأعماه جهله وأصمّه
تأملُ العيشَ بعد أن خلقَ الجس	م وبنائه عسيرُ المرمّه ؟
وغدت وقرّةُ الشيبه بالشيب	ب على رغم أنفها معتمّه

فَلَقَدْ فَازَ سَالِكٌ جَعَلَ الدَّهَ إِلَى اللَّهِ قَصْدَهُ وَمَأْتَهُ
مِنْ يَبِيتٍ مِنْ غُرُورِ دُنْيَا بِهِمْ يَلْدَغُ الْقَلْبَ أَكْثَرَ اللَّهُ هَمَّهُ

ثمَّ أَحَالَ اللَّحْنَ إِلَى لَوْنِ التَّنْوِيمِ ، فَأَخَذَ كُلُّ فِي النِّعَاسِ وَالتَّهْوِيمِ ، وَأَطَالَ
الْحَسْنَ فِي الثَّقِيلِ ، عَاكِفًا عَكُوفِ الضَّاحِي فِي المَقِيلِ ، فَخَاطَ عَيُونََ القَوْمِ ،
بِجَيُوطِ النُّومِ ، وَعَمَّرَ بِهِمِ المَرَاقِدَ ، كَأَنَّمَا أَدَارَ عَلَيْهِمِ الفِرَاقِدَ ، ثُمَّ انصَرَفَ ،
فَمَا عَلِمَ بِهِ أَحَدٌ وَلَا عَرَفَ ، وَلَمَّا أَفَاقَ الرَّشِيدَ جَدًّا فِي طَلْبِهِ ، فَلَمْ يَعْلَمْ بِمُنْقَلَبِهِ ،
فَأَسْفَ لِلْفِرَاقِ ، وَأَمَرَ بِتَخْلِيدِ حِكْمِهِ فِي بَطُونِ الأَوْرَاقِ ، فَهَبِيَ إِلَى اليَوْمِ تَتَلَّى
وَتُنْقَلِ ، وَتَجَلَّى القُلُوبَ بِهَا وَتُصْقَلِ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ « انتهى .

قال في « الإحاطة » بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته : فهذا ما حضر من
المنثور وحفظه عندي من الإجابة ضعيف ، وغرضه كما شاء الله تعالى سخيف ،
لكن الله سبحانه بعباده لطيف ؛ انتهى .

١١٠ - ومما علق بحفظي من نثره قوله في تحليته لبعض أهل زمانه : هو
إمام الفئدة ، وعين أعيان هذه المائة .

١١١ - وقوله في وصف فاس^١ : نعم العرين ، لأسود بني مَرِّين ، ذات
المشاهد التي منها مطرح الجنة ومسجد الصابرين :

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمَامَةُ طَوْقَهَا وَكَسَاهُ رِيشَ جَنَاحِهِ الطَّاوُوسُ^٢
فَكَأَنَّهَا الأَنْهَارُ فِيهِ مُدَامَةٌ وَكَأَنَّ سَاحَاتِ الدِّيَارِ كَوْوَسُ

جمعت ما ولد سام وحام ، وكثر الالتئام والالتحام ، واشتد الزحام ، إلى

١ انظر مشاهدات لسان الدين : ١١٠ - ١١١ والمقري ينقل من حفظه فلذلك اختلف ما أورده عن
النص الأصلي في عدة مواضع ، لا حاجة للإشارة إليها .

٢ مر البيتان والقول في نسبتها في المجلد ١ : ١٦٩ .

أن قال : يلتقى الرجل أبا مثواه فلا يدعوه لبيته ، ولا يُطعمه من بقله وزيته ؛
لا يطرق الضيف حِمَاهِم ، ولا يعرف اسمهم ولا مسمَاهِم ﴿إلاّ الذين آمنوا
وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ﴾ (ص : ٢٤) .

١١٢ - وقوله في وصف مراكش المحروسة : ذات المقاصر والقصور ،
ومأوى اللّيث الهَصُور ، ومسكن الناصر والمنصور ، إلى أن قال : ومنازها
في الفلاة ، بمنزلة وآلي الولاية . ثمّ بعد كلام : إلاّ أن خرابها هائل ، وزحامها
حرب وائل ، وعقاربها كثيرة الدبيب ، منغصة لمضاجعة الحبيب ؛ انتهى ما
كتبته من حفظي لطول العهد .

١١٣ - وقال رحمه الله تعالى في وصف مدينة بسطة^١ من كلام لم يحضرنى
جميعه الآن : محل خصيب ، ومنزل رحيب ، وكفاها مسجد الجنة دليلاً على
البركة وباب المسك دليلاً على الطيب ، ولها من اسمها نصيب ، إذ هي بحر الطعام ،
وينبوع العيون المتعددة بتعدّد أيام العام ؛ انتهى .

[في ذكر بسطة]

ولما أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القلصادي^٢ في رحلته قال : سقى
الله تعالى أرجاءها المشرقة ، وأغصانها المورقة ، شآبيب الإحسان ، ومهدها
بالهدنة والأمان ، دار تحجل منها الدور ، وتتناصر عنها القصور ، وتقرّ لها
بالقصور ، مع ما حوته من المحاسن والفضائل ، من صحّة أجسام أهلها وما طُبعوا

١ المشاهدات : ٣١ .

٢ أبو الحسن القلصادي علي بن محمد بن محمد بن علي القرشي البسطي زريل غرناطة ، آخر من له التواليف
الكثيرة من أئمة الأندلس (إذ توفي سنة ٨٩١) . وقد ترجم له المقرئ في الراحلين إلى المشرق

(ج ٢ : ٦٩٢) .

عليه من كرم الشمائل ، وحسبك فيها من عدم الحرج ، أن داخلها باب الفرج ؛
ثم قال : والله در القائل :

دارٌ مشى الإتيانُ في تنجيدها حتى تناسبَ روضها وبنائها
مرقومةُ الجناتِ ذاتُ قرارةٍ يمتدُّ قُدَّامَ العيونِ فضاؤها
ما زال يضحكُ دائماً نوَّارها في وجهِ ساحتهِ ويلعبُ ماؤها

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله ابن الأزرق :

في بسطةٍ حيثُ الأباطحُ مشرِّقةٌ أضحتُ جفوني بالمحاسنِ مُغلِّقةٌ
وله أيضاً في تورية :

قلْ لمنْ رامَ النوى عن وِطْنِ قَوْلَةٍ ليسَ بها من حَرَجِ
فرَجِ الهَمِّ بسكنى بسطةٍ إنَّ في بسطةِ بابِ الفَرَجِ

رجع :

١١٤ — ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان

جدته ، وهو :

« إلى قرّة أعيننا وأعين المؤمنين ، وقلدة كبدنا الذي نصل للقائه الحنين بالحنين ،
وعزنا الذي حللنا من كنفه بالحرم الأمين ، وسرنا الذي خلفنا برضاه من أفقده
الدهر من كرم البنين ، ووارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين ، أمير المسلمين
الأسعد المؤيد الموفق الطاهر البر الرحيم الأرضى الكافل الفاضل حفيدنا محمد
ابن ولدنا الرضى وواحدنا الكريم الحفي السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الظاهر
المقدس ، جعل الله تعالى من عصمته لزيماً يرافقه ، وأجرى القدر بما يوافق ،
وحفظ عليه الكمال الذي تناسب فيه خلقه وخلائقه ، والبر الذي حسنت فيه
طرقه وطرائقه .

« من المستظلة بظلال رضاه وبرّه ، المبتهلة إلى الله تعالى في عزّ نصره ، وسعادة أمره ، الداعية إلى الله تعالى أن يسترها في الحياة وما بعدها بستره ، وما يقضّل عمرها من عمره ، جدته الثائقة إليه ، كتبتة من كتّفه العزيز بحمّرائه العلية عن الخير الدائم بدوامه ، واليسر الملازم ببرّكة أيامه ، ولا زائد بفضل الله تعالى إلا الشوق إليه ، وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه ، وتجهيز مواكب الدعاء المقبول من خلفه ومن بين يديه .

« وقد وصل كتابه العزيز الوفاة والوصول ، الكريم الجُمْلُ والفصول ، مُطلَعُ وجهِ السرورِ والجلد ، ومُهْدي قَصِيّ الأمل ، ومجددُ العهدِ بحديثه الذي في ضمنه شفاء الغُللِ ، وبرء العِللِ ، مُهدِيًا تحفة عافيته وهي الهدية التي جَلَّتْ عن المكافأة ، وترفعت عن المجازاة ، إنمّا يجازي عليها مَنْ يصل بفضلها عاداتها ، ويُوالي بعد الإبداء إعادتها . ووصفتم يا ولدي ما عرفتم من نعم الله تعالى التي انثالت عليكم سحابُها ، وعنايته التي يلقي ركابكم تسهاها وترحابها ، واستبشار الجهات بقدمكم الميمون ، واجتلاء وجهكم الذي فيه للإسلام قرّة العيون ، وكيف لا يكون ذلك وأنتم ذخريهم العزيز ، وحرزهم الحريز ، والندرة التي خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز ، في أيامكم والحمد لله نامت أجنافهم ، وتكيف أمانهم ، نسأل الله تعالى أن يديم لنا ولهم نعمة بقائكم ، ويُعلي الدين بعلوكم في معارج العز وارتقائكم ، فقابلنا ما قرره سلطانكم بالحمد والثناء ، والشكر المتصل على الآناء ، ومحضتكم من خالص الدعاء ، ما يتكفّل لكم بالحسنى وما وعد الله تعالى من نيل الرجاء ، وتمهيد الأرجاء ، وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء ، بنعم الله تعالى المُغدقة والآلاء ، ونسألُ من فضلكم وبركم صلة التعريفِ بمثل هذه الأخبارِ السارة والآباء ، وإتحافنا بمثلها مع الصباح والمساء ، وإن كان مجدكم غنيّاً عن الشبه لمثل هذه الأشياء ، أدام الله تعالى لكم أسباب البقاء ، وكان لكم في كلّ حال ، من إقامة وارتحال ، بعزة وجهه وقدرته » انتهى .

ويرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب ، فإنه يعبر في كل مقام بما يليق ، فتارة يترقى في أدراج البراعة ، وطوراً يهتك عنان البراعة .

[شعر لسان الدين]

وأما شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية في الحسن ، وقد قدمنا في هذا الكتاب منه نبذة في أثناء نثره وكلامه الذي جلبناه ، وفي مواضع غيرهما ، جملة مفيدة من شعره رحمه الله تعالى .

وقال رحمه الله تعالى في « الإحاطة » ما نصّه : الشعر — ولثبت جملة من مطولاته ، ونثله بشيء من مقطوعاته ، ونقدم من المطولات أمداح رسول الله صلى الله عليه وسلم تبركاً بها ، فمن ذلك قولي^١ :

هل كنت تعلم في هبوبِ الريحِ	نفساً يوجبُ لاعجَ التبريحِ
أهدتك من شيحِ الحجازِ تحيةً	فاحت لها عرضَ الفجاجِ الفيحِ
بالله قل لي كيف نيرانُ الهوى	ما بينَ ريحِ في الفلاةِ وشيحِ
وخضبيةِ المنقارِ تحسبُ أنها	نهلتُ بموردِ دمعي المسفوحِ
باحتُ بما تخفي وناحتُ في الدجى	فرايتُ في الآماقِ دَعْوَةَ نوحِ
نطقتُ ، بما يخفيه قلبي ، أدمي	ولطالما صمتتُ عن التصريحِ
عجباً لأجفانِ حملنَ شهادةً	عن خافت بين الضلوعِ جريحِ
ولقلما كتبتُ رُوَاةً مدامعي	في صفحتها حليةِ التجريحِ
جاد الحمى بعدي وأجرعَ الحمى	جودٌ تكلُّ به متونُ الريحِ
هنّ المنازلُ ، ما فؤادي بعدها	سال ، ولا وجدني بها بمريحِ
حسي وكوعاً أن أزورَ بفكرتي	زوارها والجسمُ رهنُ نزوحِ ^٢

١ الإحاطة ، الورقة : ٤١٣ .

٢ الإحاطة : رهن ضريح .

وأحسَّ فيها من جناح جنوحى
 لولا وميضاً بارقاً وصبوح
 ورقاً تقلبها بنانٌ شحيح
 وطمت ريمتُ عبابها بسبوح
 مسحت بوجه الصباح صبوح
 وزجرت للآمال كلَّ سنوح
 والصبح فيه تخلصي لمديح
 بعنان كلِّ مولدٍ وصریح
 وأمينه الأرضى على ما يوحى
 ضاءت أشعتها بصفحة يوح
 راقت بها أوراق كلِّ صحیح
 مثلوا بساحة بابه المفتوح
 جمَّ الهبات عن الذنوب صفوح
 في ملعب للترهات فسبح
 والليل يعثر في فضول مسوح
 والركب بين مؤسدٍ وطريح
 إن أصبحت لبني أنا ابن ذريح
 اليمن فيها والأمان لروحى
 يا خير مؤتمن وخير نصيح
 أكون تجري فيك غير ربيع
 أو أن أرى مسعاي غير نجيح
 يوماً فوجه العفو غير قبيح

فأثَّ فيها من حديث صبابي
 ودجنة كادت تفضل بها السرى
 رعشت كواكب جوها فكأنتها
 صابرت منها لجة مهما ارتمت
 حتى إذا الكف الخضيب بأفقها
 شمت المنى وحمدت إدلاج السرى
 فكأنتما ليلى نسيب قصيدتي
 لما حططت لخير من وطىء الثرى
 رحى إله العرش بين عباده
 والآية الكبرى التي أنوارها
 ربُّ المقام الصدق والآي التي
 كهف الأنام إذا تفاقم معضيل
 يردون منه على مثابة راحم
 هفي على عمرٍ مضى أنضيتُهُ
 يا زاجر الوجناء يعتسف الفلا
 يصل السرى سبقاً إلى خير الورى
 لي في حمى ذاك الضريح لبانة
 ومهبط الروح الأمين أمانة
 يا صفوة الله المكين مكانه
 أقرضت فيك الله صدق محبتي
 حاشا وكلاً أن تخيب وسائلتي
 إن عاق عنك قبيح ما كسبت يدي

واخجلتي من حلبة الفكر التي
 قصرت خطاها بعدما ضمرتها
 مدحتك آيات الكتاب فما عسى
 وإذا كتاب الله أنني مفصحا
 صلتى عليك الله ما هبت صبا
 واستأثر الرحمن جل جلاله
 أغريتها بغرامسي المشروح
 من كل موفور الحمام جموح
 يُثني على عليك نظم مديحي
 كان القصور قصار كل فصيح
 فهفت بغصن في الرياض مروح
 عن خلقه بخفي سر الروح

وأشدت السلطان ملك المغرب ليلة الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين
 وسبعمائة هذه القصيدة :

تألق نجدياً فأذكري نجداً
 وميض رأى برّد الغمامة مغفلاً
 تبسم في بحريّة^٢ قد تجهمت
 وراود منها فاركاً قد تنعمت
 وأغرى بها كف الغلاب فأصبحت
 فحلتها الحمراء من شفق الضحى
 لك الله من برق كأن وميضه
 تعلم من سكانه شيم الندى
 وتوج من نوارها قنن الرّبي
 لسرعان ما كانت مناسف للصبا
 بلاد عهدنا في قرارها الصبا
 إذا ما النسيم اعتل في عرصاتها
 وهاج بي الشوق المبرح والوجدنا
 فمدّ يداً بالبر أعلمت البردا
 فما بذلت وصلاً ولا ضربت وعدا
 فأهوى لها نصلاً وهددها رعدا
 ذلولاً ولم تسطيع لإمرته ردّاً
 نضاها وحلّ المزن من جيدها عقدا
 يد الساهر المقرور قد قدحت زندا
 فغادر أجراء الحمى روضة تندى
 وختّم من أزهارها القضب المُلدا
 فقد ضحكت زهراً وقد خجلت وردا
 يقلّ لذلك العهد أن يالف العهدا
 تناول فيها البان والشيع والرندا

١ الإحاطة : مفهماً .
 ٢ البحرية : صفة للسحابة .

إذا ما استثيرت أرضها أنبتت وجدا
 إذا التمحتها العين عاقدت السهدا
 حديث الهوى العذري صيره عبدا
 فيثني إذا ما هبَّ عَرَفُ الصبا قدَا
 على كبدي إلا وجدتُ لها بَردا
 وقلَّ على الأيام مَنْ يحفظ العهدا
 إذا استقبلتُ مسرى الصبا اشتعلتُ وقدَا
 تجوسُ خلالَ الصبرِ كانَ لها بندا
 ذمائي وأن يستأصلَ العظمَ والجلدا
 وقد وقع التسجيلُ من بعد ما أَدَى
 فله عينا من رأى الجوهَرَ الفردَا
 وأجهده ركضُ الأسي فجرى ورَدا
 ليرجعه فاستنَّ في إثرِهِ قصدا
 فكانَ حماماً في المسير بها هدَى
 فلجَّ ولم يرقبَ سواعاً ولا ودَا
 فأعقبها دمعاً وأورثها سهدا
 وأكني بدعدٍ في غرامي أو سَعْدَى
 فأذهل نفساً لم تُبِنَ عنده قصدا
 وأعمل في رمل الحمى النصَّ والوَخدا
 لديَّ فكان الصبرُ أضعفها جندا
 فصدَّني المقدورُ عن وجهي صدَا
 ولم تُلتفتْ دعواه فاستوجبَ الردَا

فكم في مجاني وردها مِن علاقةٍ
 إذا استشعرتها النفسُ عاهدتِ الجوى
 ومن عاشقٍ حرَّ إذا ما استماله
 ومن ذابلٍ يحكي المحين رقةً
 سقى الله نجداً ما نضحتُ بذكرها
 وآسَ قلبي فهو للعهدِ حافظ
 صبورٌ وإن لم يبقَ إلا ذبالةٌ
 صبورٌ إذا الشوقُ استجادَ كتيبةً
 وقد كنتُ جلدًا قبل أن يذهب النوى
 أأجحدُ حقَّ الحبِّ والدمعُ شاهدُ
 تناثر في إثر الحمُولِ فريدُهُ
 جرى يَققاً في ملعبِ الخلدِ أشهباً
 ومرتحلٍ أجريتُ دمعِي خلفه
 وقلتُ لقلبي طيراً إليه برقعِي
 سرقتُ صواعَ العزمِ يومَ فراقه
 وكحلتُ عيني من غبارِ طريقه
 لي الله كم أهذي بنجدٍ وحاجرٍ
 وما هو إلا الشوقُ نارَ كينه
 وما بي إلا أن سرى الركبُ موهناً
 وجاشتُ جنودُ الصبرِ واليينِ والأسى
 ورُمْتُ نهوضاً واعترمتُ مودعاً
 رقيقٌ بدت للمشترين عيوبُهُ

تخلف مني ركبٌ طيبةَ عانياً
مُخَلَّفٌ سربٌ قد أُصيبَ جناحهُ^١
نشدتك يا ركبَ الحجاز ، تضاءلت
وجمَّ لك المرعى وأذعنتِ الصَّوى
إذا أنتَ شافهتَ الديارَ بطيبة
وآسئتَ نوراً من جنابِ محمدٍ
فنبُّ عن بعيدِ الدارِ في ذلك الحمى
وقلْ يا رسولَ الله عبدٌ تقاصرتُ
ولم يستطعُ من بعد ما بَعُدَ المدى
تداركهُ يا غوثَ العبادِ برحمةٍ
أجار بك الله العبادَ من الردى
حمى دينكَ الدنيا وأقطعك الرضى
وطهَّر منكَ القلبَ لما استخصه
دعاهُ فما ولّى ، هداهُ فما غَوَى
تقدمتَ مختاراً ، تأخرتَ مبعثاً
وعلةُ هذا الكونِ أنتَ ، وكلُّ ما
وهل هو إلا مظهرٌ أنتَ سرُّهُ
ففي عالمِ الأسرارِ ذاتكَ تجتلي
وفي عالمِ الحسِّ اغتديتَ ميوماً
فما كنتَ لولا أن ثبتَّ هدايةً
فماذا عسى يُثني عليكَ مُقَصِّرٌ
بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شقاً
عليكَ صلاةُ الله يا كاشفَ العمى

١ ق : جناحه .

أما آن للعاني المعنى بأن يُفدى
وطرن فلم يسطع مراحاً ولا مغدى
لك الأرضُ مهما استعرض السهبُ وامتدَّ
ولم تفتقد ظلاً ظليلاً ولا وردا
وجئتَ بها القبرَ المقدسَ واللحدا
يجلّي القلوبَ الغُلفَ والأعينَ الرمدا
وأذِر بهِ دمعاً وعقرَ بهِ خدّاً
خطاهُ وأضحى من أحبتهِ فرداً
سوى لوعةِ تعادُ أو مدحةٍ تُهدى
فجودك ما أجدى وكفك ما أندى
وبوأهم ظلاً من الأمنِ ممتدّاً
وتوجك العلياً وألبسك الحمدا
فجلَّلهُ نوراً وأوسعَه رشداً
سقاهُ فما يظما ، جلاهُ فما يصدأ
فقد شملتُ علياؤك القبلَ والبعدا
أعاد فأنتَ القصدُ فيه وما أبدا
ليمتاز في الخلقِ المكبُّ من الأهدى
ملامحَ نورٍ لاحَ للطورِ فأنهداً
لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى
من الله مثل الخلقِ رسماً ولا حدّاً
ولم يألُ فيك الذكرُ مدحاً ولا حمداً
من النارِ قد أوردته بعدها الخلداً
ومُدَّهَبَ ليلِ الروع وهو قد اربداً

إلى كم أراني في البطالة كأنما
تقتضى زماني في لعل وفي عسى
حسامُ جبانٍ كلما شيمَ نصله
ألا ليت شعري هل أراني ناهداً
رضيع لبان الصدق فوق شملة
فتهدى بأشواق السراة إذا سرت
إلى أن أخط الرحل في تريك الذي
وأطفئ في تلك الموارد غلتي
لمولدك اهتز الوجود فأشرق
ومن رعبه الأوثان خرت مهابة
وغاص له الوادي وصبح عزه
رعى الله منها ليلة أطلع الهدى
وأقرض ملكاً قام فينا بحقها
وحبنا على شط الخليج محلة
وجاد الغمام العِد في خلائنا
علياً وعثماناً ويعقوب ، لا عدا
حَمَوَاهُمْ في حومة البأس والندى
ولله ما قد خلقوا من خليفة
إذا ما أراد الصعب أغرى بنيله
وكم معتد أردى وكم تائه هدى
أبا سالم دينُ الإله بك اعلى
قدم من دفاع الله تحت وقاية
ودونكها مني نتيجة فكرة
ولو تركت مني الليالي صباية

وعمري قد ولّى ، ووزري قد عدّا
فلا عزيمة تمضي ولا لوعة تهدا
تراجع بعد الغزم والترم الغمدا
أقود القلاص البدن والضامر النهدا
مضمرة وسدت من كورها مهدا
وتحدي بأشعاري الركاب إذا تحدى
تضوع ندّا ما رأينا له ندّا
وأحسب قرباً مهجة شكت البعدا
قصور بيصرى ضاءت الهضب والوهدا
ومن هوله إيوان كسرى قد انهدّا
يوتاً لنارِ الفرس أعدمها الوقدا
على الأرض من آفاقها القمر السعدا
لقد أحرز الفخر المؤثّل والمجدا
يحالف من ينتابها العيشة الرغدا
مآثرهم لا تعرف الحصر والعدّا
رضى الله ذاك النجل والأب والجدّا
فكانوا الغيوث المستهلة والأسدا
حوى الإرث عنهم والوصية والعهدا
صدور العوالي والمطهمة الجردا
وكم حكمة أخفى ، وكم نعمة أبدى
أبا سالم ظلّ الإله بك امتدّا
كفالك بها أن تسحب الخلق السردا
إذا استرشت للنظم كانت صفّاً صلدا
لأجهدتها ركضاً وأرهقتها شدا

ولكنه جهد المقل بلغته وقد أوضح الأعداء من بلغ الجهدا
وقلت أخاطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عنان على أثر انصرافه من بابه رحمه
الله تعالى :

أبدى لداعي الفوز وجه منيب
كلف الجنان إذا جرى ذكر الحمى
والنفس لا تنفك تكلف بالهوى
رحل الصبا فطرح في أعقابه
أترى التغزل بعد أن ظعن الصبا
أتى المثلي بالهوى من بعد ما
لبس البياض وحل ذروة منبر
قد كان يسترني ظلام شيبتي
وإذا الحديدان استجداً ألبيا
سلي عن الدهر الخوون وأهله
مقلّب الحالات فاخبر ثقله
فكل الأمور إذا اعترتك لربها
قد ينجأ المحبوب في مكروها
واصبر على مضض الليالي لأنها
واقنع بحظ لم تنله بحيلة
يقع الحريص على الردى ولكم غدا
من رام نيل الشيء قبل أوانه
فإذا جعلت الصبر مفزع معضل
وإذا استعنت على الزمان بفارس

وأفاق من عدل ومن تأنيب
والبان حن له حنين النيب
والشيب يلحظها بعين رقيب
ما كان من غزل ومن تشيب
شأني الغداة أو النسب نسيبي
لاوخط في الفودين أي ديب
مني ووالى الوعظ فعل خطيب
والآن يفضحني صباح مشبي
من لبسة الأعمار كل قشيب
تسل المهلب عن حروب شيب
مهما أعدت يداً إلى تقليب
ما ضاق لطف الرب عن مربوب
من يحب المكاره في المحبوب
لحوامل سيكدن كل عجب
ما كل رام سهمه بمصيب
ترك التسبب أنفع التسبب
رام انتقال يكلم وعسيب
عاجلت عله بطب طيب
لبي نداءك منه خير مجيب

١ فارس هو السلطان أبو عنان .

بِخَلِيفَةِ اللَّهِ الَّذِي فِي كَفِّهِ
الْمُنْتَقَى مِنْ طِينَةِ الْمَجْدِ الَّذِي
يَرْمِي الصَّعَابَ بِصَعْبِهِ فَيَقُودُهَا
وَيَرَى الْحَقَائِقَ مِنْ وِرَاءِ حِجَابِهَا
مِنْ آلِ عَبْدِ الْحَقِّ حَيْثُ تَوَشَّحَتْ
أَسَدُ الشَّرِّ سِرْجُ الْوَرَى فَمَقَامِهِمْ
إِمَّا دَعَا الدَّاعِيَ وَثُوبَ صَارِخاً
شَهْبٌ ثَوَاقِبُ فِي سَمَاءِ عِجَاجَةٍ
مَا شَتَّ فِي آفَاقِهَا مِنْ رَامِحٍ
عَجِبْتُ سَيُوفِهِمْ لَشِدَّةِ بِأَسْهُمٍ
نَظَمُوا بَلَبَاتِ الْعُلَا وَاسْتَوْسَقُوا
تُرُوي الْعَوَالِي وَالْمَعَالِي عَنْهُمْ
مِنْ كُلِّ مَوْثُوقٍ بِهِ إِسْنَادُهُ
فَأَبُو عَنَانَ عَنْ عَلِيٍّ نَصَّهُ
جَاءُوا كَمَا اتَّسَقَ الْحِسَابُ أَصَالَةً
مُتَجَسِّدًا مِنْ جَوْهَرِ النُّورِ الَّذِي
مُتَأَلِّقًا مِنْ مَطْلَعِ الْحَقِّ الَّذِي
قُلُّ لِلزَّمَانِ وَقَدْ تَبَسَّمَ ضَاحِكًا
هِيَ دَعْوَةُ الْحَقِّ الَّتِي أَوْضَاعُهَا
هِيَ دَعْوَةُ الْعَدْلِ الَّذِي شَمَلُ الْوَرَى
لَوْ أَنَّ كَسْرَى الْفُرْسِ أَدْرَكَ فَارِسًا
لَمَا حَلَّتْ بِأَرْضِهِ مُسْتَمْلِيًا

١ فذلك : جمع فذلكة وهي محصل الحساب .

شمل الرضى فكأن كل أفاحة
وأيت في بحر القرى أم القرى
فرايت أمن الله في ظل الثقي
ورأيت سيف الله مطور الشبا
وشهدت نور الحق ليس بأقل
ووردت بحر العلم يقذف موجه
لله من شيم كأزهار الربى
وجمال مرأى في رداء مهابة
يا جنة فارقت من غرفاتها
أسفي على ما ضاع من حظي بها
إن أشرقت شمس شرقت بعبرتي
حتى لقد علمت ساجعة الضحى
وشهادة الإخلاص توجب رجعتي
يا ناصر الدين الحنيف وأهله
حقق ظنون بنيه فيك فإنهم
ضائق مذاهب نصرهم فتعلقوا
ودجا ظلام الكفر في آفاقهم
فانظر بعين العز من ثغر غدا
نادتك أندلس ومجدك ضامن
غصب العدو بلادها وحسامك ال
أرض السوابح في المجاز حقيقة
يتأود الأسل الثقف فوقها

تومي بثغر للسلام شنيب
حتى حطت بمرفأ التقريب
والعدل تحت سرادق مضروب
يمضي القضاء بجده المرهوب
والدين والدنيا على ترتيب
للناس من درر الهدى بضروب
غيب انشال العارض المسكوب
كالسيف مصقول الفرند مهيب
دار القرار بما اقتضته ذنوبي
لا تنقضي ترحاته ونحبي
وتفيض في وقت الغروب غروبي
شجوي وجانحة الأصيل شحوبي
لنعيمها من غير مس لغوب
أنضاء مسغبة وفل خطوب
يتعللون بوعدك المرفوب
بجناب عز من علاك رحيب
أوليس صبحك منهم بقريب؟
حدرا العدا يرنو بطرف مريب
أن لا نجيب لديك ذو مطلوب
ماضي الشبا مسترجع المغضوب
من كل قعدة محرب وجنوب
وتجيب صاهلة رغاء نجيب

١ المطور : المشوذ ؛ الشبا : الحد .

والیمنُ مَعْقُودٌ بكلِّ سبیبِ
یُذْکِی بِأَرْبَعِهَا شُؤَاظَ لَهِیبِ
زَیَّانَ بَیْنَ مَجْدَلِ وَسَلِیبِ
تَظْهَرُ لَدَیْكَ عَلامَةُ التَّغْلِیبِ
عُودُ الصَّلِیبِ یَومَ غَیْرِ صَلِیبِ
زَهرَ الأَسْنَةِ فِوقَ کُلِّ قَضِیبِ
وَمُورِدُ الحَیْدِینِ غَیْرُ مَرِیبِ
وَأُمُورِهَا تَجْرِی عَلی تَجْرِیبِ
لِحُلُولِ یَومِ فی الضَّلالِ عَصِیبِ
عَرَضَ الوَرى لِلمُوعَدِ المَکْتُوبِ
کانتَ مُدَوِّتَةً بِلا تَهْذِیبِ
وَرَأیتَ رِیحَ النَصرِ ذاتَ هُبوبِ
أُخْرى بَعزَّ النَصرِ ذاتَ وَجُوبِ^١
جُزْأیَ قِیاسِکَ فُزْتَ بِالمَطْلُوبِ
حَزْبُ الهُدَى مِن حَزْبِ المَغْلُوبِ
کُلُّ یَهْشُ إلی التَّماسِ نَصِیبِ
فإِلیکَها بِالْحَظِّ وَالتَّعْصِیبِ
قَفْرًا بِکَرِّ الغَزوِ وَالتَّعْقِیبِ^٢
عَرَسٌ لَنَسْرِ بِالفِلاةِ وَذِیبِ
رَهبِأَ وَخَدَّ بِالأَسى مَندُوبِ
مِن شَلوِ طَاغِیةٍ لِشَلوِ سَلِیبِ

والنصرُ یُضحکُ کُلَّ مِسمِ غَرةِ
والرومِ فارمِ بِکُلِّ نَجمِ ثاقِبِ
بذِوابِلِ السُّبِّ الِتی تَرَکتُ بَني
وأَضَفَ إلی لامِ الوغى أَلِفَ القِنا
إِن کَنتَ تَعجَمُ بِالعِزائِمِ عودِها
وَلِکَ الکِتابُ کَالحِماثِلِ أَطَلَعْتُ
فَمَرَّحُ العَظفِینِ لا مِن نِشوةِ
یَبْدُو سَدادُ الرَأيِ فی رِایاتِها
وَتَری الطِیورَ عِصائِبًا مِن فِوقِها
هَذَبَها بِالعَرَضِ یُذْکِرُ یَومَهُ
وِهي الکِتابُ إِنْ تَنوَسِی عَرَضِها
حَتى إِذا فَرَضَ الجِلاَدُ جِداهُ
قَدَمْتَ سالِبَةَ العَدوِّ وَبعِداها
وَإِذا تَوسَطَ وَصَلُ سِيفِکَ عِنداها
وَتَبْرَأُ الشِیطانُ لَمّا أَنُ عِلا
الأَرْضُ إِرثُ وَالمَطامِیعُ جَمَّةُ
وَخِلائِفُ التَّقوى هُمُ وَرِاثِها
لِکَأنِی بِکَ قَد تَرَکتَ رِبوَعِها
وَأَقَمْتَ فیها مَأَمًّا لِکَنتَهُ
وَترَکتَ مَفلَئِها بِقَلبِ وَاجِبِ
تَبکِی نِوادِیِها وَیَتَقَلَنَ الحِطَّاءُ

١ یومى إلى المدونة في الفقه المالكي ، وتهذيب المدونة للبرادعي .

٢ في هذا البيت وما بعده إشارات إلى المصطلح المنطقي .

٣ التعقيب : العودة ثانية ، وهو من قولهم « قدح معقب » أي يعاد إلى الخريطة مرة بعد مرة .

جعلَ الإلهُ البيتَ منكَ مثابَةً
 فإذا ذكرتَ كأنَّ هَبَّاتِ الصَّبَا
 لولا ارتباطُ الكونِ بالمعنى الذي
 قلنا لعالمك الذي شرفتهُ
 ولأجلِ قطركَ شمسها ونجومها
 تبدو بمطلعِ أفقها فضيَّةً
 مولاي أشواقِي إليكَ تهزني
 بجلى عَلاكَ أَطَلَّتْهَا وَأَطْبَتْهَا
 طالبتُ أفكارِي بفرضِ بديها
 متنبئُ أنا في حُلَى تلكَ العلى
 والطبعُ فحلُّ ، والقريحةُ حُرَّةُ
 هابتَ مقامكَ فاطبَّيتَ^٢ صعاها
 لكنني سَهَلْتُهَا وَأَدَلْتُهَا
 إن كنتُ قد قاربتُ في تعديلها
 عذري لتقصيري وعجزِي ناسخُ
 مَنْ لَمْ يَدِنِ اللهُ فِيكَ بِقَرَبَةٍ
 للعاكفينَ وأنتَ خيرُ مُثِيبِ
 فَضَّتْ بِمَدْرَجِهَا لَطِيمَةً^١ طيبِ
 قَصُرَ الحِجْبِي عن سرِّهِ المحجوبِ
 حسدِ البسيطِ مزيَّةَ التركيبِ
 عدلتُ من التشريقِ للتغريبِ
 وتغيبُ عندكَ وهي في تذهيبِ
 والنارُ تفضحُ عَرَفَ عودِ الطيبِ
 ولكم مُطِيلٍ وهو غيرُ مُطِيبِ
 فوقتُ بشرطِ الفورِ والترتيبِ
 لكنَّ شعري فيكَ شعراً حبيبِ
 فاقبلهُ بينَ نجيةٍ ونجيبِ
 حتى غدتُ ذُلُلاً على التدریبِ
 من كلِّ وحشيٍ بكلِّ ريبِ^٣
 لا بدَّ في التعديلِ من تقريبِ^٤
 ويحلُّ منكَ العفوُّ عن تريبِ
 هو من جنابِ اللهِ غيرُ قريبِ

ولما احتفل السلطان لإعذار ولده نظمت هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب ، وتشتمل على أوصافٍ من ذكر الحلبة التي أرسلها ، والطلبة التي

١ اللطيمة : وعاء الطيب أو قافلة تحمل طيوراً .

٢ اطبيت : استملت .

٣ الوحشي : اللفظ الوحشي ؛ والريبب : المريب المألوف في البيت يعني به القول ؛ ولعل فيه إشارة بعيدة إلى وحشي قاتل حمزة وإلى الريبب مثل عمر بن أبي سلمة الذي كان ريبب النبي (ص) .

٤ التعديل والتقريب من مصطلحات الحساب والفلك .

نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصي إليها ، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها ، وهي آخر النظم في الأغراض السلطانية ، قصر الله تعالى ألسنتنا على ذكره ، وشغلها به عن غيره :

شَحَطْتُ وَفَوْدُ اللَّيْلِ بَانَ بِهِ الْوَحْطُ
أَتَاهُ وَلِيدُ الصَّبْحِ مِنْ بَعْدِ كِبَرَةٍ
كَأَنَّ النُّجُومَ الزُّهْرَ أَعْشَارُ سُورَةٍ
وَقَدْ وَرَدَتْ نَهْرَ الْمَجْرَةِ سِحْرَةٍ
وَقَدْ جَعَلَتْ تَقْلِي بِأَنْمَلِهَا الْفَلَا
يَجْفُ عِبَابُ اللَّيْلِ عَنْهَا جَوَاهِرًا
فَسَارَتْ خِيَالًا مِثْلَهَا ، غَيْرَ أَنَّهُ
سَرَتْ سَلَخُ شَهْرٍ فِي تَلْفَتِ مَقْلَةٍ
لِيَ اللَّهِ مِنْ نَفْسِ شِعَاعٍ وَمَهْجَةٍ
وَنَقْطَةِ قَلْبٍ أَصْبَحَتْ مِنْشَأَ الْهُوَى
فَأَقْسَمُ لَوْلَا زَاغِرُ الشَّيْبِ وَالنَّهْيِ
لَرِيعِ هَذَا الْأَحْرَاسُ مِنِّْي بِطَارِقِ
تَسَاقَلَهُ كَوَّمَاءُ سَامِيَةِ الذَّرَا
وَلَوْلَا النَّهْيُ لَمْ تَسْتَهِنْ سُبُلَ الْهُدَى
وَلَوْلَا عَوَادِي الشَّيْبِ لَمْ يَبْرَحِ الْهُوَى
وَلَوْلَا أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ مُحَمَّدٌ
يَنْوِبُ عَنِ الْإِصْبَاحِ إِنْ مَطَّلَ الدَّجَى

وَعَسَكَرَهُ الزَّنْجِيُّ هَمٌّ بِهِ الْقَبْطُ
أَيُولَدُ أَجْنَا نَاحِلُ الْجِسْمِ مَشْطُ
وَمِنْ خَطَرَاتِ الرَّجْمِ أَثْنَاءَهَا مَطُ
غَوَائِصَ فِيهِ مِثْلَمَا تَفْعَلُ الْبَطُ
وَيُرْسَلُ مِنْهَا فِي غَدَائِرِهِ مَشْطُ
فِيكَثْرُ فِيهَا النَّهْبُ لِلْحَيْنِ وَاللَّقْطُ
مِنْ الْبَثِّ وَالشُّكُوى يَبِينُ لَهُ لَغْطُ
عَلَى قَتَبِ الْأَحْلَامِ تَسْمُو وَتَنْحَطُ
إِذَا قُدْحَتْ لَمْ يَجِبُ مِنْ زَنْدِهَا سَقْطُ
وَعَنْ نَقْطَةِ مَفْرُوضَةٍ يَنْشَأُ الْخَطُّ
وَنَفْسٌ لَغَيْرِ اللَّهِ مَا خَضَعَتْ قَطُّ
مَفَارِقُهُ شَمْطُ وَأَسْيَافُهُ شُمْطُ
وَيَقْدَفُهُ شَهْمٌ مِنَ النَّيْقِ مَنْحَطُ
وَكَادَ وَزَانُ الْحَقِّ يَدْرِكُهُ الْغَمْطُ
يَهْتَجُهُ نَوْءٌ عَلَى الرَّمْلِ مَخْطُ
هَالَتْ بِحَارِ الرَّوْعِ وَاحْتَجَبَ الشُّطُ
وَيُضْمَنُ سَقِي السَّرْحِ إِنْ عَظُمَ الْقَحْطُ

١ الأجنأ- وهو مهور الآخِر - الأحدب .

٢ قد مر بنا استخدام لسان الدين لمعارفه في الشعر ، وهو هنا يظهر شيئاً من معرفته الهندسية .

تقرُّ له الأملاكُ بالشيَمِ العِلا
أرادوه فارتدُّوا ، وجاروه فانشوا
تُسِرُّ على المداحِ غُرُّ خِلاله
تعلّم منه الدهرُ حالِيه في الورى :
ويجمعُ بين القبضِ والبسطِ كفه
خلائق قد طابت مذاقاً ونفحةً
أسبطَ الإمام الغالبِي محمّدِ
وقتكِ أواقِ الله من كلِّ غائلِ
لقد زلزلتْ منك العزائمُ دولةً
إيالةً غدرِ ضيغِ الله ركنها
على قدَرِ جلّى بك الله بؤسها
وكانوا نعيمَ الجنتينِ تفيأوا
فقد عوّضوا بالأثُلِ والحمطِ بعدها
فمن طائحِ فوق العراءِ مجدّلِ
وأتحفَ منك الله أمةَ أحمدِ
أتمتَ على مَهْدِ الأمانِ عيونها
وصمَّ صدى الدنيا فلماً رحمتها
وأحكمتَ عقْدَ السلمِ لم تألُ بعده
وأيقنَ مراتبُ ، وأصبحَ نافرُ

إذا بُدِّلَ المعروفُ أو نُصِبَ القسطُ
وساموه في مرّقى الجلالةِ فأنحطوا
ومارسموا فوق الطروسِ وما خطوا
فآونةً يسخو ، وآونةً يسطو
بحكمة من في كفه القبضُ والبسطُ
كما مُزجتُ بالباردِ العذبِ إسفنطُ^١
ويا فخرَ ملكٍ كنت أنت له سبطُ
فأيُّ سلاحٍ ما المجنُّ وما اللمطُ^٢
أناختُ على الإسلامِ تجني وتشتطُ
ونادى بأهلها التّبارَ فلم يُبسطوا
ولا يكملُ البُحرانُ أو ينضجُ الخلطُ
ولمّا يقعُ منها النزولُ ولا الهبطُ^٣
وهيهاتِ أين الأثُلُ منها أو الحمطُ
ومن راسفٍ في القيدِ أزقه الضغطُ
أماناً كما يصفو على الغادةِ المرطُ
فيُسمعُ من بعد السهادِ لها غطُ
تراحمَ مرّادُ عليها ونحطُ
وجاء فصحَّ العقدُ واستوثقَ الربطُ
وأذعنَ مُعتاصُ ، وأقصرَ مشتطُ

١ الإسفنط : اسم الخمر .

٢ اللط : الدرق اللطية ، منسوبة إلى لمطة من قبائل المغرب .

٣ استوحى في هذا البيت والذي يليه الآية الكريمة « لقد كان لسبإ في مسكنهم آية جنتان . . . الآية »
(سبأ : ١٥) .

والله مَبْنَاكَ الَّذِي مَعْجَزَاتُهُ
 وَأَنْسَتَ غَرِيبَ الدَّارِ مَسْقَطَ رَأْسِهِ
 تَنَاسَبَتِ الْأَوْضَاعُ فِيكَ وَأَحْكَمَتِ
 فَجَاءَ عَلَى وَفْقِ الْعِلَاءِ رَاتِقُ الْخَلْيِ
 وَلِلَّهِ إِعْذَارٌ دَعَوْتَ لَهُ الْوَرَى
 تَقْوَدُهُمُ الزُّلْفَى ، وَيَدْعُوهُمْ الرُّضَى
 وَأَغْرَبَتْ بِالْبَهْمِ الْعِلَاجَ تَحْفِيًّا
 أَتَتْ صُورَةَ مَعْلُومَةٍ عَنْ مَزَاجِهَا
 قَضِيَتْ بِهَا دِينَ الزَّمَانِ ، وَلَمْ يَزَلْ
 وَأُرْسِلَتْ يَوْمَ السَّبْقِ كُلَّ طِمِيرَةٍ
 رَتَتْ عَنْ كَحِيلٍ كَالغَزَالِ إِذَا رَنَا
 وَقَامَتْ عَلَى مَنْحَوْتَةٍ مِنْ زَبْرَجَدٍ
 وَكَلَّ عَتِيقٍ مِنْ تَمَائِلِ رُومَةٍ
 وَطَاعِنَةٍ نَحَرَ السَّكَاكِ أَعَانَهَا
 تَلَقَّفَ حَيَاتِ الْعَصِيِّ إِذَا هَوَتْ
 أَزْرَتْ بِهَا بَحْرَ الْهَوَاءِ سَفِينَةٌ
 وَطَارَدَتْ مَقْدَامَ الصُّوَارِ بِجَارِحِ
 مَتِينُ الشَّوَا فِي رَأْسِهِ سَمْهَرِيَّةٌ
 وَقَسِدٌ كَانَ ذَا تَاجٍ فَلَمَّا تَعَلَّقَا
 وَجِيءَ بِسَبْلِ الْمَلِكِ يَنْجِدُ عِزْمَهُ
 سَمَحَتْ بِهِ لَمْ تَرَعْ فِرْطَ ضِنَانَةٍ
 فَأَقْدَمَ مَخْتَارًا ، وَحَكَمَ عَازِرًا

سَمَتَ أَنْ تَوَافِيهَا الشَّفَاهُ أَوْ الْخَطُّ
 وَمِنْ دُونَ فَرخِيهِ الْقِتَادَةُ وَالخَرَطُ
 عَلَى قَدَرٍ حَتَّى الْأَرَاثِكُ وَالْبُسْطُ
 كَمَا سُمِّطَ الْمَنْظُومُ أَوْ نَظْمَ السَّمْطُ
 فَهَيَّوْا لِذَاعِيهِ الْمَهِيْبِ وَإِنْ شَطُّوْا
 وَيَجِدُوهُمْ الْخَصْبُ الْمَضَاعَفُ وَالغَبْطُ
 فَلَمْ يُذْخِرِ الشَّيْءَ الْغَرِيبُ وَلَا السَّمْطُ
 وَأَصْلُ اخْتِلَافِ الصُّورَةِ الْمَرْجُ وَالخَلْطُ
 أَكْدَ كَذُوبِ الْوَعْدِ يَلُوي وَيَشْتَطُّ
 كَمَا قَذَفَ الْمَلْمُومَةَ النَّارُ وَالنَّفْطُ
 وَأَوْفَتْ بِهَادِ كَالظَّلِيمِ إِذَا يَعْطُو
 تَخَطُّ عَلَى الصَّمِّ الصَّلَابِ إِذَا تَخْطُو
 تَأْتَقُ فِي اسْتِخْطَاطِهِ الْقَسُّ وَالقَمْطُ
 عَلَى الْكُونِ عَرَقٌ وَاشْجٌ وَحَتَّى سُبْطُ
 فَتَعْبَانَهَا لَا يَسْتَقِيمُ لَهُ سِرْطُ
 عَلَى الْجَوِّ لَا الْجُودِيُّ كَانَ لَهَا حَطُّ
 يُصَابُ بِهِ مِنْهُ الصَّمَاخُ أَوْ الْإِبْطُ
 مَقْصَرَةٌ عَنَّهُنَّ مَا يُنْبِتُ الْخَطُّ
 بِسَامِعَتِيهِ زَانَهُ مَهْمَا قَرُطُ
 عَلَيْهِ الْحِفَاطُ الْجَعْدُ وَالخَلْقُ السَبْطُ
 وَفِي مِثْلِهَا مِنْ سَنَةِ يَتْرُكُ الْفِرْطُ
 وَلَمْ يَشْتَمَلْ مَسْكَ عَلَيْهِ وَلَا ضَبْطُ

ولو غير ذات الله رامته نَضَنْصَتْ
وأسد نزال من ذؤابة خزرج
جلادهم مثنى إذا اشتجر الوغى
كثائب أمثال الكتاب تتالياً
دليلهم القرآن ، يا حبذا الهدى
وبيض كأمثال البروق غمامها
ولكنه حكم يطاع سنة
وربت نقص للكمال ماله
فهنيته صنعا ودمت ممتكاً
ودون الذي يهدي ثناؤك في الورى
رضيت ومن لم يرض بالله حاكماً
حياتك للإسلام شرط حياته
قنا كالأفاعي الرقط أو دونها الرقط
بهاليل لا روم القديم ولا قبط
كان رعاء بالعضاه لها حبط
فمن بيضها شكل ، ومن سمرها نقط
ورھطهم الأنصار ، يا حبذا الرھط
إذا وشحت سحب القتام دم عبط
وأعمال بر لا يلبق بها الحبط
ولا غرو فالأقلام يصلحها القط
عزيزاً تشيد المعلوات وتختط
من الطيب ما تهدي الألوّة والقسط
ضلالاً فله الرضى وله السخط
ولا يوجد المشروط إن عديم الشرط
هذا كاف في المطولات لنجلب منها عرضاً يدل على جوبها ، ونتحف منها أنفس
الظرفاء بمطوبها ، منقولة من الكتاب المسمى بـ « أبيات الأبيات » ومن الكتاب
المسمى بـ « الصيِّب والجهام » .

فمن التورية على طريقة المشاركة قولى ٢ :

مضجعي فيك عن قتادة يروي وروى عن أبي الزناد فؤادي
وكذا النوم شاعر فيك أسمى من دموعي بهم في كل وادي
ومن هذا الباب أيضاً :

١ الألوّة : العود يتبخر به ؛ والقسط : عود هندي أيضاً يدخل في البخور والطيب .
٢ راجعت أكثر هذه المقطعات على نسخة الإحاطة ولكنها لم ترد على الترتيب الذي جاءت فيه في النسخ ؛
ولست أرى حاجة إلى شرحها في الحواشي ؛ وانظر أيضاً أزهار الرياض ١ : ٣٠٤ - ٣١٣ فقد
ورد أكثرها هناك ؛ وكذلك نثير فرائد الجمان : ٢٤٨ - ٢٥٦ .

ولمّا رأيتُ عزمي حثيثاً على السّرى
أتتُ بصحاحِ الجوهريِّ دموعُها
وقد راها صبري على موقفِ البينِ
فعارضت من دمعي بمختصرِ العينِ

وفي هذا المعنى :

كُتبتُ بدمعِ عيني صَفْحَ خَدَيِ
ورابِ الحاضرِين ، فقلتُ : هذا
وقد منع الكرى هجرُ الخليلِ
كتابُ العينِ يُنسَبُ للخليلِ

ومن الأغراضِ الظريفةِ فيها :

تعمجت وخط الشيب في زمنِ الصِّبا
فمهما رأيتُ شيباً فوق مفرقي
لخوضي غمارَ الهمِّ في طلبِ المجدِ
فلا تنكروها إنها شيبَةُ الحمدِ

ومن التورية بالنجوم ، والكاتب بيته بيت شرفه :

بأوتُ على زمي همةً فأعتبني الزمنُ العاتبُ
وشرفني الله في موطني وفي بيته يشرف الكاتبُ

وأبدع منها قولِي لمن يُدعى بشمس الدين :

قلْ لشمسِ الدينِ وقَّيتَ الردي
رَمِدَتْ عَيْنُكَ هذا عَجَبُ
لم يدعْ سَقْمُكَ عندي جَلَدًا
أوعَيْنُ الشمسِ تشكو الرَمَدًا

وقلت في غرض التورية بما يظهر من الأبيات :

أقلَّ الأُلى كانوا نجو
وتساكر الناسُ الحديدِ
مأ للورى فالكونُ مظلمُ
ث الحقِّ وافتقدَ المعلمُ
أنا كاتبُ السلطانِ ما
طلعتُ قطُّ كتابَ مُسلمِ
إلا سخاماً قادحاً
في الدينِ واللهُ المسلمُ

وفي معنى الدعابة مع بعض الطلبة :

قال لي عندما أتى بجدالٍ
ولساني يبدلُ الدالَ تاءً
التمسُ مخرجاً يوافقُ قولي
وشكوكٍ على أصولِ الدينِ
عاجزٌ في الأمورِ عن تبينِ
قلت: أحسنتَ يا جلالَ التينِ

وفي التورية :

اذمُ ذوي التطفيلِ مهما أتى
يمشي على رجليه مع أنهُ
وإن تكنُ أجملتهم فاعنه
من جنس من يمشي على بطنه

وقلت :

أفقدَ جفنيّ لذيدَ الوسنِ
عذارهُ المسكيّ في خدّه
من لم أزل فيه خليعَ الرّسنِ
أنبتهُ اللهُ النباتَ الحسنِ

وقلت في رثاء من اسمه حسن :

أشكو إلى الله من بئ ومن شجّتي
أصابتِ الحسنَ العينُ التي رشقتُ
لم أجن من محنتي شيئاً سوى محنِ
وعادةُ العين لا تُصمّي سوى الحسنِ

وفي الشيب :

تفِرُّ عن الشيبِ الغواني تعزّزاً
بدا وضحاً في جدة العمر شانياً
كما يعتريها إن رأت سامَ أبرصا
فمن سام شيخاً فهو قد سام أبرصا

وقلت في السها من النجوم الجوفية :

قالوا : السها بادي النحول كأنه
أتراه يشكو؟ قلت : هذا ممكنٌ
متسترٌ تبدو مخايلُ خوفه
والله يعلمُ داره من جوفه

وقلت :

عابوا وقالوا : بساقه شَعْرٌ
قلت : انظروا ورد روضِ وجنته
لقد عداه الكمالُ من ساقِ
وكلُّ وردٍ مُشوكُ الساقِ

وقلت في التضمين :

رُفِعَتْ قصةُ اشتياقي ليحيى
ورمى بالكتابِ ضعفَ اهتبالِ
فزوى الوجهَ رافضاً للفتوةِ
قلت يحيى خذِ الكتابَ بقوةِ

وقلت :

وذي حَيْكِلٍ يُعْمِي التَّقِيَّةَ أمرُهُ
يدبُ شَبولَ اللَّيْثِ ، واللَّيْثُ سَاهِرٌ
مكايدهُ في لِحَةِ اللَّيْلِ تَسْبِحُ
ويسرقُ نَابَ الكَلْبِ ، والكَلْبُ يَنْبِحُ

وقلت :

لَمَّا رَأَوْا كَلْفِي بِهِ وَدَرَوْا
قالوا الفتي حلوٌ فقلتُ لهم
مقدار ما لي فيه من حُبِّ
طلعتُ حلاوته على قلبي

وقلت ، ولهما حكاية :

وذي زوجةٍ تشكو فقلتُ له : اسقِها
فقال : أبتُ شربَ الدواءِ بطبَّعِها
دواءً من الحَبِّ المَلِينِ للبَطْنِ
فقلت : اسقِها إن عافت الشربَ بالقرنِ

وقلت :

لعنوا بَرِيًّا من خبائثِ ظَنِّهِمْ
واللهِ لا أوطأتُ ساقِي سوقِهِمْ
فالله يلعنُ أهلَ سوقِ العنبرِ
أبدَ الزمانِ فتلكِ سوقِ آلِ العنِ بَرِي

ومن الفكاهات :

ولمّا دعانيّ داعي الهوى وأخلف ما كنتُ أمَلتُهُ
ولم يبقَ غير البكا حيلةً بكيتُ بمقدارِ ما نلتُهُ

وقلت ، وقد رُفِعَ للسلطانِ باكورةً بنفسج :

قدم البنفسجُ وهو نعم الواردُ قد نَمَّ منهُ إليّ طيبٌ زائدُ
فسألته : ما باله ؟ فأجابني والحقُّ لا يُبغى عليه شاهدُ
أقبلتُ أطلبُ من بنانِ محمدٍ صلةً فعادَ عليّ منه عائدُ

وقلت من التشبيه :

سهرنا وفي سير النجومِ اعتبارنا إلى أن ضفاً للليلِ من فوقنا رَينطُ
فخلنا شهابَ الرجمِ لإبرةَ خائطٍ مسوحاً وما يبقى من الذنبِ الخيطُ

وقلت أودع صديقاً أنستُ به :

فلاحةٌ مثلي ممقوتةٌ وإن أعجبَ البدءُ منها وراقُ
زرعتُ اللقواءَ وعالجتهُ فلم أستغدُ منه إلاّ الفراقُ

ومن تضمين المثل :

لا تهيجُ بالذكرِ في كبدي نارَ وجدٍ شقٍّ محتَمَلُهُ
ويقولُ الناسُ في مثلٍ لا تحركُ من دنا أجلكهُ

ومن المدح :

عَجَباً لراحتكِ الملتةِ بالندى أن لا تكونَ على الغمامِ غماما
يهي ووجهكُ نورهُ متألّقٌ والقطرُ إن سَحَبَ السحابُ أغاما

ومن أبيات المدح :

ومطلع الجود في الدنيا وقد أفلا
لم يسمع الناس يوماً من لسانك لا

يا ناصر الدين لما قلَّ ناصرُهُ
لولا التَّشهُدُ والتردادُ منك له

ومن أوصاف صنيع سلطاني :

هشَّتْ إليه الشُّهُبُ في آفاقها
شدَّتْ لتخدم فيه عقْدَ نطاقها

ماذا أحدثتُ في صنيعِ خلافة
فكأنما الجوزاءُ حينَ تعرَّضتْ

ومن قصيدة في وصف قرس :

خفياً على سرِّ الفؤادِ المكتَمِ
أهميمٌ يوجد فيهِ وهو ابنُ مُلْجَمِ

فبَوَّأتهُ مِنْ مهجتي مُتَبَوِّأ
ويا عَجَباً مِنِّي وفرطِ تشيبي

ومن الحماسة في التورية بالمنطق^١ :

ورأيتُ رِيحَ النصرِ ذاتِ هبوبِ
أخرى بعزِّ النصرِ ذاتِ وجوبِ
جُزْأِي قِياسِ فزتِ بالمطلوبِ

حتى إذا فرضَ الجِلالُ جدالهُ
قَدَمَتِ سَالِبَةَ العِدْوِ وبعدها
وإذا توسَّطَ حدُّ سيفك عندها

وفي خاتمة قصيدة :

السبقُ يُعرِّفُ آخرَ المضمَارِ
فلربَّ كنزٍ في أساسِ جدارِ

ما ضرَّني إنْ لمْ أجيءْ متقدِّماً
ولئنْ غدا رُبِعُ البلاغةِ بِلَقْعاً

ومن المدح :

رأياً يفرِّقُ بينَ الرأيِ والرشدِ
وكفِّهِ هَدْيِي حيرانَ وريِّ صَدِّ

إنْ أبهَمَ الخطبُ جلتى في دُجْنَتِهِ
وإنْ عتا الدهرُ أبدي من أسرَّتِهِ

١ مرت الأبيات في البائية التي مدح فيها أبا عنان ، انظر ما تقدم ص : ٤٥٨ .

وإنْ نظرتَ إلى لآلئِ غُرَّتِه
يوم الهياج رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

ومن الأوصاف في قصيدة :

كمْ ليالٍ بتُّ في ظلِّمائها
أمطى من نارِ شوقي فُرْشا
وكأنَّ النَّجمَ شَرَبْتُ عَمَلْ
واصلَ الثَّملةَ حتَّى ارتعشا

ومن التورية بالكفتين من الحيل العددية :

لا عدلَ في الملكِ إلاّ وهوَ قد نصبه
وصيرَ الخلقَ في ميزانه عَصَبَه
والكفتانِ ترى من كفه درتا
أن تخرجَ العددَ المجهولَ للطلبه
وفي رجلٍ يحْتال على الولاية^١ :

حلفتَ لهم بأنك ذو يسارٍ
وذو ثقةٍ وبرٍّ في اليمينِ
ليستندوا إليك بحفظِ مالٍ
فتأكلَ باليسارِ وباليمينِ

وقلت ، ولهما حكاية تظهر من الأبيات :

قلتُ لما استقلَّ مولاي زرعِي
ورأى غلَّةَ الطعامِ قليله
دمتِي لانْتجاعِي الحرثِ كلتُ
فهِيَ اليومَ دمنةٌ وكليله

ومما صدرتُ به كتاباً لأحد الفضلاء :

يا مَنْ تقلَّدَ للعلاءِ سلوكا
والفضلُ صيرَ نهجَهُ مسلوكا
كاتبتي متفضلاً فملكنتي
لا زلتُ منك مكاتباً مملوكا

وقلت في غرض يظهر منه :

١ يتفق لسان الدين وابن رضوان في هذه التورية ، انظر ما تقدم ص : ١١٢ .

جلس المولى لتسليم الورى
فإذا ما سألوا عن يومنا
وقلت من التورية :

يا مالكي بخلال
أضمرت قلبي ناراً
وقلت في التورية :

أضاف إلى الجفون السود شعراً
فقلت أميرُ هذا الحسن تزكو الـ
وقلت أيضاً :

بأبي بدرٌ غزاني
فأنا اليوم شهيدُ الـ
وقلت ، ولهما حكاية :

أيا ليلةً بالحب لم تألُ شهرةً
فأمن قلبُ اللوز من علةِ النوى
ومن النزعات المشرقية في التورية :

يا قائدي نحو الغرام بمقلّة
ماذا جنيت عليّ من مفضّ الهوى
نفقت حلواتها بكلّ فوادي
اللهُ ينصفُ منك يا قوادي

١ ق : ولها .

٢ ق : من غمة .

ومن هذا النَّمطِ المشرقي :

وقالتُ حَلَقْتُ الكسَّ مني بنوْرَةَ
ألا فابلغي عني فديتكَ واصدقي

فقلتُ لها استنصرت من ليس ينصرُ
محلَّتْ ذاك الكسَّ أني مقصرُ

ومنها :

قال لي والدموعُ تنهلُ سَحّاً
بك ما بي فقلتُ مولاي عافا

أنا جفني القريحُ يروي عن الأءِ
مشٍ ، والجفنُ منك عن مكحولِ

ومن أبيات التورية أو ما داخلته :

في مصرٍ قلبي من خزائنِ يوسف
حَلَيْتُ شعري باسمه فكأنهُ

حَبٌّ وعيرُ مدامعي تمتاره
في كلِّ قَطْرِ حَلَّةُ ديناره

ومن المدح أيضاً ولا أستحضر لقبه :

رأيتُ بكفكَّ اعتبارا
فقلتُ وقد عجبتُ منها

بأساً وندى ما إن يبارى
يا بحرُ متى تدعو نوارا

وقلتُ ممّا يجري مجرى الحكم :

إنَّ الهوى لَشكَايةٌ معروفةٌ
والنفسُ إن ألفتْ مرارةَ طعمه

صبرُ التصبرِ من أجلِّ علاجها
ضمنتُ بذاك له صلاحَ مزاجها

ومن الغرائب في الأوصاف :

كأنما الروضُ ملكٌ
باهى بهِ جُلَساءُ

١ ق : سبياً .

يرضى التديمُ فمهما سقى الرياض كساهُ

وفي غرض النسيب :

أصبحَ الخلدُ منكَ جنةَ عدنٍ
مجتلىَ أعينٍ وشَمَّ أنوفٍ
ظَلَّتْهُ من الجفونِ سيوفُ
جنةِ الخلدِ تحتَ ظلِّ السيوفِ

وقلت في النسيب :

أرسلتُ طرفي في حُلاكِ بنظرةٍ
هي كانت السببَ الغريبَ لما بي
وأراكَ بالعبراتِ قد عاقبتها
ليسَ الرسولُ بموضعٍ لعقابِ

ومن تحسين القبيح :

وأحوّلَ يعدي القلبَ سهمُ جفونه
فترضحني صحبجات القلوب به مرضي
رأى الحسنُ أنَّ اللحظَ منه مهندٌ
فحرقهُ كيما يكونَ له أمضى

ومن التزعات الحسنة :

من لي بذكرى كلما أوجزتها
تمحو سُلُويَ واشتياقي تثبتُ
وسحابُ دمعٍ كلما أمطرته
غير القتادِ بمضجعي لا يُنبِتُ

ومن النسيب :

جاء العذارُ بظللٍ غيرِ ممدودٍ
فمتهى الحسنِ منه غيرُ محدودٍ
ناديتُ قلبي إذ لاحتَ طلائعُه
يا صبرَ أيوبَ هذا درعُ داودِ

وفي تقيضه :

ما ضرَّ منِّي أنْ أخلقتَ موعودي
وروض خدك أضحي ذاوي العُودِ
وقالَ قوسُ عذارٍ فوقَ صفحتِه
سفينة الحسنِ قد حطَّت على الجودي

ومن التضمين :

يا مَنْ بأَكَفِ فؤادي رَبِّعٌ^١ قد ضاقَ بي عن حبِّكَ المتسعُ
ما فيكَ لي جدوى ولا أرعوي « شحُّ مطاعٌ وهوى متبَعٌ »

ومن الأغراض المخترعة :

أنكرتُ لما أطلَّ عارضُهُ فقال لي حين رابهُ نظري
ألمْ تقلْ لي بأنَّتي قمرٌ فانظر لي وبرُّ أرنبِ القمرِ

ومن التضمين :

يا كوكبَ الحسنِ يا معناهُ يا قمره
أمرتني بسلوٍ عنك ممتنعٍ يا روضهُ المتناهي الرَّبعِ يا ثمره
« مأمورٌ حسنكُ لما يقضِ ما أمره »

وقلت :

لما رضيتَ بفرقي وبعادي وصرمتَ آمالي وختَ ودادي
لاعنتُ أمَّ الصبرِ فيكَ وبعده ورثتُ للأشجانِ كثرَ فؤادي
فالصبرُ مني أجنبيُّ بعدها ولواعجُ الأشجانِ من أولادي

ومن الأغراض المشرقية :

سار بي للأمير يشكو اعتراضي يوسفُ والشهودُ أبناءُ جنسهُ
قال لي ما تقول قلتُ مجيباً لم نخفُ من نكاله أو لحبسهُ
حصَّصَ الحقُّ ياخوندُ فدعني أنا راودتُ يوسفاً عن نفسهُ

ومن الأوصاف :

١ ق : ربع .

بتنا نظارحُ همَّ القحطِ ليلتنا
وكانَ يَحمدُ ما كُنَّا نكأبدهُ
وأيدَ الهَمِّ والسَّهدُ البراغيتا
منَ المشقَّةِ لو أنَّ البراغيتا

وفي قريب من المعنى :

وقالوا بَدَتْ منكمْ على الجسمِ حمرةٌ
عَدَّتْ نحونا ليلاً ومن بعدنا اغتدتْ
فقلتُ براغيثُ لكمْ رَقَطونَا
كما رَقَصَتْ في القلْوِ بزرِ قَطونَا

ومن التضمين :

قال جَوادي عندما
إلى متى تهزني
همزتُ همزاً أعجزه
﴿ويلٌ لكلِّ همزة﴾

وفي رثاء السلطان أبي الحجاج رحمه الله تعالى :

غبتَ فلا عينٌ ولا مخبرُ
يا يوسفُ أنتَ لنا يوسفُ
ولا انتظارٌ منكَ مرقوبُ
وكلُّنا في الحزنِ يعقوبُ

وقلت ، ولهما حكاية :

طالَ حزني لنشاطِ ذاهبِ
وشبابِ كانَ يندى نضرةً
كنتُ أسقى دائماً من حانه
نزلَ الثلجُ على ريحانه

وقلت ، وقد أعجبنى نشاطُ ولدي :

سرقَ الدهرُ شبابي من يدي
وحمدتُ الأمرَ إذْ أبصرتهُ
ففوادي مُشعرٌ بالكمدِ
باعَ ما أفقدني من ولدي

١ ق : وشباب كان يندى من يدي .

وقلت ، ولهما حكاية :

قلتُ للشيبِ لا يرَبِّكَ جَفائي
أنتَ بالعتبِ يا مشيبيَ أولى
في اختصاري لك البرور ومقتك
جثني غفلةً وفي غيرِ وقتك

ومما خططته في رملةٍ نزلتها :

أقمنا برهةً ثم ارتحلنا
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاء
كذاك الدهرُ حالٌ بعد حالٍ
وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالٍ
ومن سام الزمانَ دوامَ أمرٍ
فقد وقف الرجاء على المحالِ

وقلت أيام مقامي بسلا :

أيا أهلَ هذا القطرِ ساعدَه القطرُ
تشاغلتُ بالدنيا ونمتُ مفرطاً
بليتُ فدلّوني لمن يُرفعُ الأمرُ
وفي شغلي أو نومتي سرقَ العمرُ

وقلت ، والبقاء لله وحده ، وبه نخم الهدر :

عدّ عن كيتٍ وكيتٍ ما عليها غيرُ ميتٍ
كيفَ ترجو حالةَ البقّةِ يا لمصباحٍ وزيتٍ

انتهى ما نقلته من « الإحاطة » من ترجمة نظمه ، وبعض ما ذكر هنا قد تقدّم ، وكرّره لكونه بلفظه في الإحاطة ، وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين - رحمه الله تعالى - كثيراً ، ولنعرّز ذلك هنا بذكر ما لم يتقدّم ذكره ، إذ نظمه بجزء لا ساحل له ، ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا المحل من الإحاطة ما صورته : ولوالدي أيضاً المترجم به - رحمه الله تعالى - في سكنين الأضاحي لسultanه أبي الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكنين المضحية :

ليَ الفخرُ إن أبصرتني أو سمعتَ بي على كلِّ مصقولِ الغرارينِ مرهفِ
كفائيَ فخرًا أنْ تَرانيَ قسائمًا بسنةِ إبراهيمَ في كَفِّ يوسفِ

ومقطوعاته كثيرة لم يتضمن هذا الديوان منها إلا القليل بسبب الاختصار ، ومن أراد الوقوف على جملتها فعليه بكتاب « الصيِّب والجهام » في شعره ، رحمه الله تعالى ، قال ذلك ولده علي ، لطف الله تعالى به آمين ؛ انتهى .

فمن ذلك قوله رحمه الله تعالى ^١ :

عسى خطرة بالركبِ يا حاديَ العيسِ على الهضبةِ السَّماءِ من قصرِ باديسِ ^٢
لنظفَرَ من ذاكِ الزلالِ بعلَّةِ وننعمَ في تلكِ الظلالِ بتعريسِ
حبستُ بها ركبِي فواقًا ، وإنما عقدتُ على قلبي بها عقدَ تحبيسِ ^٣
لقد رسختُ أيُّ الجوى في جوانحي كما رسخ الإنجيلُ في قلبِ قسيسِ
بميدانِ جنمي للسهادِ كتيبةُ تغير على سرحِ الكرى في كراديسِ
وما بي إلا نفحةُ حاجريةُ سرت والدجى ما بين وهنٍ وتغليسِ
ألا نَقَسُ يا ريح من جانبِ الحمى تُنقَسُ من نارِ الجوى بعضَ تنفيسِ
ويا قلبُ لا تُلُقِ السلاحَ فرمما تعذَّر في الدهرِ اطرادُ المقاييسِ
وقد تُعْتِبُ الأبتامُ بعدَ عتابها وقد يعقب الله النعيمَ من البوسِ
ولا تخش لِحِ الدمعِ يا خطرةِ الكرى إلى الجفنِ بل قيسي على صرحِ بلقيسِ
تقولُ سليمي ما لجسمك شاحباً مقالة تأنيبٍ يُشابُ بتأنيسِ
وقد كنتَ تعطو كلما هبت الصبا بريانَ في ماءِ الشبيةِ مغموسِ
ومن رابحِ الأيتامِ يا ابنةَ عاميرِ بجوبِ الفلا راحت يداهُ بتفليسِ

١ الإحاطة : ٤٢١ وأزهار الرياض ١ : ٢٣٤ .

٢ قصر باديس : فرضة بالمغرب تقابل مالقة من الديار الأندلسية .

٣ التحبيس : الوقف الدائم .

فلا نحسبي والصدقُ خيرُ سجيّةٍ
وقفراءٍ أمّا ركبُها فمضللٌ^١
سحبنا بها من هَضْبَةٍ لقرارةٍ
إذا ما نهضنا عن مقبلِ غزاةٍ
أردنا بها كأساً دهاقاً من السرى
وحانةٍ خمّارٍ هداña لقصدِها
تطلعَ ربانيّتها من جداره
بكرنا وقلنا إذْ نزلنا بساحه
أيا عابدِ الناسوتِ إنّا عصابةٌ
وما قَصَدنا إلاّ المقامَ بجانةٍ
فأنزلنا قوراءَ في جنباتها^٢
بدرنا بها طينَ الختامِ بسجدةٍ
ودارَ العذارى بالمدامِ كأنها
وصارفتنا فيها نُضاراً بمثله
وقمنا نشاوى عندما متّعَ الضحى
فقالَ لبئسَ المسلمونَ ضيوفنا
وهلْ في بنيِ مَثْواكَ إلاّ مبرزٌ^٣
إذا هزّ عَسالَ اليراعةِ فاتكأ
يقلّبُ تحتَ النقعِ مقلةَ ضاحكٍ^٤

ظهورَ النوى إلاّ بطونِ النواميسِ^١
ومربعُها من آنسٍ غيرِ مأنوسٍ
ضلالاً وملنا من كِناسٍ إلى خيسٍ
نزلنا فعرّسنا بساحةِ عريسٍ^٢
أملنا بها عند الصباحِ من الروسِ
شميمٌ الحميا واصطكاكُ النواقيسِ
يهيّمُ في جنحِ الظلامِ بتقدّيسِ
عن الصافناتِ الجردِ والضمّرِ العيسِ
أتينا لتثليثِ بلي ولتسديسِ
وكمْ ألبسَ الحقّ المين بتكليسِ
محارِبِ شتى لاختلافِ النواميسِ
أردنا بها تجديدَ حسرةِ إبليسِ
قطيعٌ تهادى في رياشِ الطواويسِ
كأننا ملأنا الكاسَ ليلاً من الكيسِ
كما نهضتْ غلبُ الأسودِ من الخيسِ
أما وأبيكَ الخبرَ ما نحن بالبيسِ
بجلبةِ شورى أو بجلقةِ تدريسِ
أسالَ نجيعَ الخبرِ فوقَ القراطيسِ
إذا التفتَ الأبطالُ عن مُقلِّ شوسِ

١ لعل صوابها : « النواويس » .

٢ العريس : عرين الأسد .

٣ ق : فوراً على جنباتها ، والتصويب عن أزهار الرياض والإحاطة .

٤ الأزهار : قفا تتهادى ؛ وسقط البيت من الإحاطة .

سبينا عَقَارِ الرُّومِ فِي عَقْرِ دَارِهَا ١
لِئِنْ أَنْكَرْتُ شَكْلِي فَفَضْلِي وَاضِحٌ
وَهَلْ جَائِزٌ فِي الْعَقْلِ إِنْكَارُ مَحْسُوسِ
رَسَبْتُ بِأَقْصَى الْغَرْبِ ذَخَرَ مَضْنَةٍ
وَكَمْ دَرَّةٌ عَلِيَاءُ فِي قَاعِ قَامُوسِ
وَأَغْرَيْتُ سُوسِي بِالْعَذِيبِ وَبَارِقِ
عَلَى وَطَنِ دَانِي الْجَوَارِ مِنَ السُّوسِ

ومن أبدع ما صدر^٢ عن لسان الدين رحمه الله تعالى لاميته المشهورة التي خاطب بها السلطان حين عاد من المغرب إلى الأندلس ، وأعاد الله تعالى عليه ملكه الذي كان خُلِعَ منه ، ويقال : إن السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمرء إعجاباً بها ، وإنها إلى الآن لم تنزل مكتوبة بتلك القصور التي استولى عليها العدو الكافر ، أعادها الله تعالى للإسلام ، وأول هذه القصيدة :

الْحَقُّ يُعْلُو وَالْأَبَاطِلُ تُسْفَلُ ۚ وَاللَّهُ عَنِ أَحْكَامِهِ لَا يُسْأَلُ

قال لسان الدين رحمه الله تعالى : نظمتها للسلطان - أسعده الله تعالى - وأنا بمدينة سلا ، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس ، كان صنَعُ الله تعالى براعة استهلالها ، ووجهت بها إليه إلى رُنْدَةٍ قَبْلَ الْفَتْحِ ، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاءً بنذري وسميتها « المنح الغريب في الفتح القريب » ومنها :

وَإِذَا اسْتَحَالَتْ حَالَةٌ وَتَبَدَّلَتْ
وَالْيَسْرُ بَعْدَ الْعُسْرِ مَوْعُودٌ بِهِ
وَالْمُسْتَعِدُّ لَمَّا يُؤْمَلُ ظَافِرٌ
أَحْمَدٌ وَالْحَمْدُ مِنْكَ سَجِيَّةٌ
أَمَّا سَعُودُكَ فَهِيَ دُونَ مُنَازَعٍ
فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَبَدَّلُ
وَالصَّبْرُ بِالْفَرَجِ الْقَرِيبِ مَوْكَلٌ
وَكِفَاكَ شَاهِدٌ « قِيلُوا وَتَوَكَّلُوا »^٣
بِحَلِيَّتِهَا دُونَ الْوَرَى تَتَجَمَّلُ
عَقْدٌ بِأَحْكَامِ الْقَضَاءِ مَسْجَلٌ

١ الإحاطة والأزهار : خانها .

٢ انظر أزهار الرياض ١ : ٢٦٢ .

٣ يشير إلى الحديث « اعقلها وتوكل » .

بغريهها يتمثلُ المتمثلُ
وهفت من الروحِ الهضابُ المثلُ
قد تنقصُ الأشياءُ مما تكملُ
واللهُ يأمرُ بالمتسابِ ويقبلُ
بإساءةٍ قد سرَكَ المستقبلُ^١
أرضاكَ فيما قد جنَّاهُ الأوَّلُ
لما ارتضى بكَ قيماً لا تُعزلُ
وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذلُ

ولك السجايا الغرُّ والشيمُ التي
ولك الوقار إذا ترزلتِ الرُّبى
عوذُ كمالك ما استطعتَ فإنه
تابَ الزمانُ إليكَ مما قد جنى
إن كان ماضٍ من زمانكَ قد مضى
هذا بذاكَ فشفعَ الجاني الذي
واللهُ قدْ ولاكَ أمرَ عبادهِ
وإذا تغمَّدكَ الإلهُ بنصره

ومنها :

متنَّ العُبابِ فأَيَّ صبرٍ يحملُ
والريحُ تقطعُ للزفيرِ وترسلُ
تختالُ في بُردِ الشبابِ وترفلُ
من يعلمُ الأثني وماذا تحملُ

وظنعتَ عن أوطانِ ملككَ راكباً
والبحرُ قد حنيتَ عليكَ ضلوعه
ولك الجوارى المنشآتُ قد اغتدتُ
جوفاءِ يحملها ومن حملت به

ومنها :

سدَّ الثنيةَ عارضُ مهكلُ
يرمي الجلادَ به أغرُّ محجلُ
وإذا تغنى للصهيلِ فلبسُ
أذنُ ممشقةٌ وطرفُ أكحلُ
من لطفه وكأنما هو هيكلُ

صبتهمُ غرَّرا الجيادِ كأنما
من كلِّ منجردٍ أغرُّ محجلُ
زجلُ الجناحِ إذا أجددَ لغايةً^٢
جيدُ كما التفت الظليمُ وفوقه
فكأنما هو صورةٌ في هيكلِ

١ سقط هذا البيت من ق .

٢ الأزهار : لغارة .

ومنها :

وخليج هندٍ راقٍ حُسْنُ صفائِهِ
غرقتُ بصفحته النّمالُ وأوشكتُ
فالصرحُ منه مُمرّدٌ ، والصفحُ مذ
وبكلُّ أزرقٍ إنْ شكّتُ الحاظهُ
متأوّدٌ أعطافُهُ في نشوَةِ
عجباً له أنّ النّجيعَ بطرفِهِ

ومنها :

للهِ موقفكَ الذي وثبائهُ
والحيلُ خَطٌّ ، والمجالُ صحيفَةٌ
والبيضُ قد كُسرَتْ حروفُ جفونها
للهِ قومكَ عند مشجر القنسا
قومٌ إذا لَفَحَ الهجيرُ وجوههمْ
وثباتهُ مثلٌ بهِ يُتَمَثَلُ
والسّمْرُ تنقطُ ، والصورمُ تشكَلُ
وعواملُ الأسلِ المثقّفُ تعملُ
إذْ ثوبَ الدّاعي المهيّبُ وأقبلوا
حججوا برايات الجهاد وظللوا

وهي طويلة لم يحضرنى الآن منها سوى ما كتبتّه .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله ٢ :

يا إمامَ الهدى وأيَّ إمامٍ
أنتَ عبدُ الحليم ، حلمكَ نرجو
أوضحَ الحقِّ بعد إخفاء رسمِهِ
فالمسمّى له نصيبٌ من اسمه

وقال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان إفريقية
مودعاً ٣ :

١ الأزهار : مصتدل .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٦١ .

٣ المصدر نفسه .

أبا مالك أنتَ نجلُ الملوكِ غيوثُ الندى وليوثُ النزالِ
ومثلكَ يرتاحُ للمكرماتِ وما لكَ بين الورى من مثالِ
عزيزُ بأنفسنا أن نرى ركابكَ مؤذنةً بارتحالِ
وقد خبرت منك خُلُقاً كريماً أنافَ على درجاتِ الكمالِ
وفازتُ لديكِ بساعاتِ أنسٍ كما زار في الليل طيفُ الخيالِ
ولو لا تعللُنا أننا نزورك فوق بساطِ الجلالِ
ونبلغُ فيك الذي نبتغي وذاك على الله سهلُ المنالِ
لما فترتُ أنفُسُ من أسَى ولا برحتُ أدمعُ في انهمالِ
تلقتك حيث حللت السعودُ وكان لك الله في كلِّ حالِ

وتوفي أبو مالك المخاطب بهذا في بلاد الجريد سنة ٧٥٠ .

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها الله تعالى^١:

ماذا أحدث عن بحر سبحتُ به من البحارِ فلا إثمٌ ولا حرجُ
دحاهُ مبتدعُ الأشياءِ مستويأ ما إن به دركٌ كلاً ولا درجُ
حتى إذا ما المنارُ الفردُ لاحَ لنا صحت ابشري يا مطايا جاءك الفرجُ
قربت من عامرٍ داراً ومنزلةً والشاهد العدل هذا الطيب والأرجُ

وقال رحمه الله تعالى^٢:

كأننا بتامسنا نجوسُ خلالها وممدودها في سيرنا ليس يقصرُ
مراكبُ في البحرِ المحيطِ تجبطنُ ولا جهةً تدري ولا البرّ تبصرُ

١ الأزهار : احتلكت .

٢ أزهار الرياض : ٢٦٥ .

٣ المصدر نفسه .

وقال ساعده الله تعالى ، وهو مكتوب بالمدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج ابن نصر رحمه الله تعالى^١ :

ألا هكذا تُبنى المدارسُ للعلمِ وتبقى عهودُ المجدِ ثابتةَ الرسمِ -
ويُقصد وجه الله بالعملِ الرضي وتجنّي ثمار العزّ من شجر العزمِ -
تفاخر مني حضرة الملكِ كلّمنا تقدم خصم في الفخار إلى خصمِ -
فأجدى إذا ضنّ الغمامُ من الحيا وأهدى إذا جنّ الظلام من النجمِ -
فيا ظاعناً للعلمِ يطلبُ رحلةً كفيت اعتراض البيد أو لبحج اليمِ -
ببأي حطّ الرحل لا تنوِ وجهةً فقد فزت في حال الإقامة بالغنمِ -
فكم من شهابٍ في سمائي ثاقبٍ ومن هالة دارت على قمرٍ تمّ -
يفيضون من نورٍ مبينٍ إلى هدّى ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكمِ -
جزى الله غني يوسفًا خير ما جزى ملوك بني نصر عن الدين والعلمِ -

وقال رحمه الله تعالى^٢ : مررت يوماً مع شيخنا أبي البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة حرسها الله تعالى فأنشدني من نظمه :

غرناطة ما مثلها حضرة ° الماء والبهجة والحضرة °

واستجازني رحمه الله تعالى ، فقلت :

سكانها قد أسكنوا جنة ° فهم يلقون بها نضرة °

وقال في تورية طيبة^٣ :

إني وإن كنتُ ذا اعتلالٍ رثّ القوى بيّن الهزالِ

١ أزهار الرياض : ١ : ٢٧٢ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار الرياض : ١ : ٢٧٤ .

في عارضِ التيسِ لي شفاءً فكيف في عارضِ الغزالِ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب شيخه سيدي أبا عبد الله ابن مرزوق موطئاً على بيت المشاركة في العذار^١ :

أما والذي تُبلى لديه السرائرُ
غدتُ لضميمِ ابنِ الربيبِ فريسةً
إذا التمسْتُ كفتي لديه جرايتي
وما كان ظني أن أنالَ جرابِسةً
متى جاد بالدينارِ أخضرَ زائفساً
وقد أخرج التعنيتُ كيسَ مرارتي
تذكرتُ بيتاً في العذارِ لبعضهم
« وما أخضرُ ذاك الحدُّ نبتاً ، وإنما
وجاهُ ابنِ مرزوقٍ لديّ ذخيرةٌ
ولو كان يدري ما دهاني لساءه
لما كنتُ أرضى الحسفَ لولا الضرائرُ
أما ثار من قومي لنصري نائرُ
كأني جانٍ أوبقتُهُ الجرائرُ
يحكمم من جرّائها في جائرُ
ودارتهُ دارتُ عليها الدوائرُ
ورقتُ لبلوأيّ النفوسُ الأخيرُ^٢
له مثلٌ بالحسن في الأرض نائرُ
لكثرة ما شقتُ عليه المرائرُ »
وللشدةِ العظمى تُعدُّ الذخائرُ
وأنكرَ ما صارتُ إليه المصائرُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحد الشرفاء^٣ :

أعياء اللقاءِ عليّ إلا لمحّةً
فجعلتُ بابك عن يمينك نائباً
فإذا وجدتك نلتُ ما أملتُهُ
أو لم أجدك فقد شفيتُ غليلاً

ولما دخل رحمه الله تعالى مدينة أنفا^٤ ، ومر منها على دار عظيمة تُنسب إلى والي

١ المصدر نفسه .

٢ اضطربت هذه اللفظة في ق ، وأثبتنا ما في أزهار الرياض .

٣ أزهار الرياض ١ : ٢٧٥ .

٤ أنفا : هي الدار البيضاء الحديثة في المغرب .

جبايتها عبّو من بني الترجمان قارون قومه وغني صنفه ، قال ١ :

قد مررنا بدار عبّو الوالي وهي ثكلى تشكو صروف الليالي
أقصدت ربّها الحوادث لما رشقتّه بصائبات نبال
كان بالأمس والياً مستطيلاً وهو اليوم ما له من والٍ

وقال في الشيخ ابن بطّان الصنهاجي ٢ :

لله درك يا ابن بطّان فما لشهير جودك في البسيطة جاحد
إن كان في الدنيا كريم واحد يزنُ الجميع فأنت ذاك الواحد
أجريت فضلك جعفرأ يحيا به ما كان من مجد فذكرك خالد
فالقوم منك تجمّعوا في مفرد ولد كما شاء العلاء ووالد
وهي الليالي لا تزال صروفها يشقى بموقعها الكريم الماجد
وبمستعين الله يصلحُ منك ما قد كان أفسدهُ الزمانُ الفاسدُ

وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث ٣ :

زحفتُ ٤ إليّ ركائبُ البرغوثِ نَمَّ الظلام بركبها المحثوثِ
بالحبةِ السوداء قابل مقدمي لله أي قيرى ، أعدّ ، خبيثِ
كسحتُ بهن ذباب سرح تجلدي ليلاً فجلُّ الصبرِ جدُّ رثيثِ
إن صابرتُ نفسي أذاه تعبّدتُ أو صحتُ منه أنفتُ من تحنيثِ
جيشانٍ من ليلٍ وبرغوثٍ فهل جيشُ الصباح لصرختي بمغيثِ

١ أزهار الرياض ١ : ٢٨٨ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار ص : ٢٨٩ .

٤ ق : رجعت .

وقال يخاطب الوالي محمد بن حسن بن أبي العلاء ، وصدّر بها رسالة ١ :

لم يُبق لي جودُ الولايةِ حاجةً
بعد اللقاء أولو الفضائلِ بغيي
أجملتهُ وتشوّفتُ لبيانه
وخصصتُ باللقاء غيرك غيراً
للبست يا ابن أبي العلاء قُشِبَ الملا
إن دون الفضلاء فضلاً معلماً
تُخني عليك رعيّةُ آمالها
أرعيتّها هملاً فلم يطرق لها
من كنتَ واليه تولّتهُ العلا
في الأمن أو في الجاه أو في المال
ورأيتُ هذا القصد شرطَ كمال
هممٌ فكنتَ مفسراً الإجمال
وجعلتُ ذكرك شاهد الأعمال
وتركتَ أهل الأرض في أسمال
فلقد أتيتَ عليه بالإكمال
في أن تفوزَ يدك بالآمال
بمنيع سورك طارقُ الإهمال
ومن اطّرحتَ فما له من والي

وقال في عثمان بن يحيى بن عمر بن روح ٢ :

أسميَ ذي النورين وجهك في الوغى
إن تفخر بمرين أرضُ العدوِّ الـ
شمس الضحى حلتْ بليث عرين
مقصوى فإنك أنتَ فخرُ مرين

وقال رحمه الله تعالى عند وقوفه على مراکش واعتباره بما صار إليه أمرها ٣ :

بلدٌ قد غزاهُ صرْفُ الليالي
فألذي خرَّ من بناه قتيلاً
وكانَ الذي يزورُ طيباً
أعجمتُ منه أربعُ ورسومُ
وأباحَ المصونَ منه مبيحُ
والذي خرَّ منه بعضُ جريحُ
قد تأتي له بها التشريحُ
كان قديماً بها اللسانُ الفصيحُ

١ أزهار : ٢٨٩ .

٢ المصدر نفسه .

٣ أزهار : ٢٩٠ .

كم معان غابت بتلك المغاني
وملوك تعبدوا الدهر لما
دوخوا نازح البسيطة حتى
حين شبت لهم من البأس ناراً
أثرٌ ينسب المؤثر لما
ساكن الدار روحها، كيف يبقى

وجمال أخفاهُ ذاك الصريحُ
أصبح الدهرُ وهو عبدٌ صريحُ
قال ما شاء ذابيلٌ و صفيحُ
ثم هبت لهم من النصر ريحُ
طال بعد الدنو منه التروحُ
جسدٌ بعدما تولت الروحُ ؟

وقال رحمه الله تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رحمه الله تعالى^١ :

يا حفيد الولي يا وارث الفخ
لك يا أحمد بن يوسف جنبا
ر الذي نال في مقام وحال
كل فطر يعيي أكف الرجال

وقال في « نفاضة الجراب » : لما خرجت من آسفي^٢ سرت إلى منزل ينسب إلى أبي خدو ، وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب ، فألطف وأجزل ، وأنس في الليل ، وطلبني بتذكرة ثبت عندي معرفته فكتبت له^٣ :

نزلنا على يعقوب نجل أبي خدو
وقابلنا بالبشر واحتفل القرى
يحق علينا أن نقوم بحقه
فعرّفنا الفضل الذي ما له حد
فلم يبق لحم لم ننته ولا زبد
ويلقاه منا البر والشكر والحمد

وقال :

ألقي إلى الأيام فضل مقادني فتجنبي ما بين كد وإرهاق

١ أزهار : ٢٩٨ .

٢ آسفي : بالمغرب على ساحل الاطلنطي ؛ والسين منها مفتوحة أو ساكنة .

٣ المصدر نفسه .

وأُتلف بين الخلق والرزق ففكرتني
وإِذا كنتُ بالإِثراءِ لي في تملقِ
ولستُ بخلاقٍ ولستُ برزاقِ
رضيتُ بعز النفس في عز إِملاقِ

وقال :

لك الملك ملك الحسن فاقض بنا الذي
إذا ما كسرت اللحظ من تحت حاجبِ
تشاء فما يُعصى لأمرِكَ واجبهُ
تحكّم في الأبواب كسرى وحاجبهُ

وقال :

سألنا ربيعَ العامِ للعامِ رحمةً
فقلنا وقد ردَّ الوجوهَ ولم يُبَلِّ
فضنَّ ولم يسمَحْ بذرةٍ إنعامِ
قليلُ الحيا قُبِّحتَ والله من عامِ

وقال :

تخوته صرفُ الزمان وهَل ترى
هو الدهر ذو وجهين يومٍ وليلةٍ
بقاءً لحَيٍّ أو دواماً على أمرِ
ومن كان ذا وجهين يعتبُ في غدرِ

وقال رحمه الله تعالى في شجر الجوز :

انظر إلى ينعي وحسنِ بُسُوقِي
يجلو اللواحظَ منظرِي حسناً كما
يهفو النسيمُ بقدي المشوقِ
يجلو ثُغورَ الغاياتِ عروقي

وقال رحمه الله تعالى في ساقِ :

كيف آمتما على الشربِ ظيباً
راح يسقي فصَّبَّ في الكأسِ نزرأ
لحظهُ في القلوبِ غيرُ أمينِ
ثقةً منهُ بالذي في العيونِ

وقال يخاطب السلطان^١ :

١ أزهار : ٢٩٨ .

أنتَ للمسلمين خيرُ عمادٍ
لو رأى ما شرعتَ للخلقِ فيه
لجزى ملكك المباركَ خيراً
فاشكر الله ما استطعتَ بفعلٍ
كلُّ ملكٍ يُرى بصحبةِ أهلِ الأ
فإذا ما ظفرتَ منهم بإكسيه
والبرايا تبيدُ والملكُ يفتى

وقال رحمه الله تعالى :

ما لي أهدبُ نفسي في مطامعها
إذا استعنتُ على دهري بتجربةٍ
والنفسُ تأنفُ تهذي وتهذي بي
تأبى المقاديرُ تجريبي وتجري بي

وقال :

من لا نصيبَ لصحبته في خيره
فاقصده أباه متى أردتَ وقل له
وإذا سعى لم يقصِ حاجةَ غيره
الله يُلهمه العزاءَ بأيره

وقال رحمه الله تعالى :

أمُستخرجاً كثرَ العقيقَ بآماني
فقد ضعفتُ عن حملِ صبريَ طاقي
أناشدكَ الرحمنَ في الرمتيَ الباقي
عليك وضاقَتُ عن زفيرِ أطواقي

وقال رحمه الله تعالى :

إذا لم أشاهد منكَ قبل مني
فحسنُ عزائي حيل بيني وبينه
نهايةَ آمالي وغايةَ غاياتي
وقرةَ عيني لم تحلَّ بمرآتي
شهودكَ أمني من عُداةِ خواطري
وقربك حِرْزي من توفِّعِ آفاتِ

فإن لم يكن وصلٌ فبهها إشارةٌ فيا حُسنَ شاراتي بها من إشاراتِ
وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا :

دُنْيَا خَدَعْتَ الَّذِي سَقَرْتِ لَهُ عَنْ صَفْحَةٍ لَمْ يَحِلَّ بِهَا كَرَمٌ
سَرَقْتَ حِظَّ الْإِلَهِ مِنْ يَدِهِ فَهَانَ مَا كَانَ مِنْهُ يُحْتَرَمُ
هَذَا الَّذِي نَالَ مِنْكَ لَيْسَ لَهُ مَنْقَطَعٌ دَائِمٌ وَمَنْصَرَمٌ
وَهَبَهُ نَالَ الَّذِي أَرَادَ أَمَا بَيْنَ يَدَيْهِ الْمَشِيبُ وَالْمَهْرَمُ

ولمَّا أورد رحمه الله تعالى قول القائل^١ في وصف الدنيا :

كَلَّمَا أَنْبَتَ الزَّمَانُ قَنَاةً رَكِبَ المرءُ فِي القَنَاةِ سَنَاةً
وَكَأَنَّآ لَمْ نَرْضَ فِيهَا بَرِيءًا بِ الدَّهْرِ حَتَّى أَعَانَهُ مِنْ أَعَانَا

قال أثره ما نصّه : والحق ما قلته من أبيات تناسب ذلك ، ولا حول ولا
قوة إلا بالله :

وَاللَّهِ إِنْ لَمْ يُدَارِكْهَا وَقَدْ وَحَلَتْ بَلْمَحَةٍ أَوْ بِلُطْفٍ مِنْ لَدُنْهُ خَفِي
وَلَمْ يَجِدْ بَسْلَافِيهَا عَلَى عَجَلٍ مَا أَمْرَهَا صَائِرٌ إِلَّا إِلَى التَّلْفِ
فحب الدنيا رأس كل بلية ، ولولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيتها
الأولية .

ومن نظمه رحمه الله تعالى قوله :

إِنْ رَأَى الْحَقُّ فِيكَ مِنْهُ بَقِيَّةً فَاتَّقِ البعدَ فِيهِ حَقَّ التَّقِيَّةِ
وَإِذَا لَمْ يَكُنْ لِدَاثِكَ رَسْمٌ قَائِمٌ تِلْكَ حَالَةُ حَقِّيَّةِ

وقوله رحمه الله تعالى :

١ هو المتنبي ، من قصيدة له مطلعها « صحب الناس قبلنا ذا الزمانا » .

وإن أشكلت يوماً فخذها كما هيا
إذا قمتَ بالباقي فما زلتَ باقيا

فسامحْ إذا ما لم تفدكَ عبارةٌ
وتلخيصٌ ما دندنتَ بالقولِ حوله

وقال رحمه الله تعالى ١ :

ملايحَ نورٍ لاجَ للطُّورِ فأنهداً
لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى
من الله مثلَ الخلقِ رسماً ولا حداً

ففي عالمِ الأسرارِ ذاتكَ تَجتلي
وفي عالمِ الحسِّ اغتديتَ ميوماً
فما كُنْتَ لولا أن أتيتَ هدايةً

وهذه الأبيات في مدح النبي صلى الله عليه وسلم .

وقال رحمه الله تعالى :

مرَّ الليالي وما ذا البثُّ والحزَنُ
ولا حبيبٌ ولا خلٌّ ولا سكنُ
إذا لصارَ رماداً تحتك الغصنُ

حَمَامَةَ البانِ ما هذا البكاء على
لا منزلٌ بنتَ عَنهُ أنتَ تندبُهُ
لو كنتَ تَنفثُ عن شوقِ مُنيتَ به

وقال رحمه الله تعالى مضمناً :

وإلا فمَغنى القومِ عَنكَ بعيدُ
إذا لم ترد شيئاً فأنتَ مريدُ

أَمِطْ عَنكَ مهما اسطعتَ كلَّ إرادةٍ
تكونُ مريداً ثمَّ فيكَ إرادةٌ

وقال رحمه الله تعالى :

قضيياً لعبوا بالرجاء وبالباسِ
طروباً بحملِ المشرفة والكاسِ
جمالَ رُوءاءِ في تارُجِ أنفاسِ
إذا ما سفحتُ الحبرَ في صفحِ قرطاسِ

تعلَّقته من دوحَةِ الجودِ والباسِ
ضروباً بضربِ للبراعةِ والقنا
يدكرنيه الصبحُ عند انصداعه
ويبدو لعيني شَعْرُهُ وجبينُهُ

١ انظر ص : ٤٥٣ .

وقال رحمه الله تعالى :

أحبُّ لِحَبَّتِهَا جَمَلِي وَرَحَلِي وَعَزَمِي وَالْقَتَادَةَ وَالطَّرِيقَا
وَمَنْ أَحْشَاهُ مِنْ سَبْعٍ وَلِصِّ فَكَيْفَ فَرِيقَهَا ؟ سَلِمُوا فَرِيقَا !
وَكَيْفَ أُخْصُّ بِاسْمِ الْحَبِّ إِنْ لَمْ أَحَبَّ لِأَجْلِهَا إِلَّا صَدِيقَا

وقال رحمه الله تعالى : وقلت من قصيدة :

أَنَا نَسَخَةُ الْأَكْوَانِ أَدْمَجُ خَطَّهَا فَسِرُّ ذَوِي التَّحْقِيقِ فِي طَيِّ أَوْرَاقِي
فَمِنْ عَالَمِ الْأَشْبَاحِ لَيْلِي وَظَلْمَتِي وَمِنْ عَالَمِ الْأَرْوَاحِ نُورِي وَإِشْرَاقِي

وقال رحمه الله تعالى :

مَوْلَايَ مَوْلَايَ إِنْ أَرْضَاكَ بَدَّلْ دَمِي فَقَدْ أَتَيْتُ بِهِ أَسْعَى عَلَى قَدَمِي
وَإِنْ تَعَاظَمَ ذَنْبٌ قَدْ جَنَّتْ يَدِي وَطَالَ قَرْنِي عَلَيْهِ السِّنُّ مِنْ نَدَمِ
فَهَبْ لِي وَاعْتَصِرْ مَا كَانَ مِنْ خَطِّ وَزَلْ وَارِعْ لِي حَبِي عَلَى الْقَدَمِ

وقال رحمه الله تعالى من قصيدته العينية السلوية التي وجهها إلى سلا أيام
خلف بها أهله وولده :

بُولِي اللَّهُ فَايْدَأُ وَابْتَسِرُ وَاحِدِ الْآحَادِ فِي بَابِ الْوَرَعِ

[ترجمة الولي ابن عاشر]

قلت : هذا الولي هو العارف بالله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر أحد
الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب ، وقد زرت قبره بسلا عام تسعة
وألف ، وهو أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر^١ ، الأندلسي ، نزيل سلا ، الولي
الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال .

١ انظر ترجمة ابن عاشر في نيل الابتهاج : ٤٣ ، والمقري ينقل عنه ؛ وأنس الفقير : ٩ .

قال ابن عرفة : ما أدركت مبرزاً في زماننا هذا إلا الشيخ أبا الحسن المنتصر
وأحمد بن عاشر بسلا ؛ انتهى .

وقال بلديتنا أبو عبد الله ابن سعد التلمساني في كتابه « النجم الثاقب فيما
لأولياء الله تعالى من المناقب » : كان أحدَ الأولياء الأبدال ، معدوداً في كبار
العلماء ، مشهوراً بإجابة الدعاء ، معروفاً بالكرامات ، مقدماً في صدور الزهاد ،
منقطعاً عن الدنيا وأهلها ، ولو كانوا من صالحى العباد ، ملازماً للقبور في الخلاء
المتصل ببحر مدينة سلا ، منفرداً عن الخلق ، لا يفكر في أمر الرزق ، وله أخبار
جليلة ، وكرامات عجيبة مشهورة ، ممن جُمع له العلم والعمل ، وألقي عليه
القبول من الخلق ، شديد الهيبة ، عظيم الوقار ، كثير الخشية ، طويل التفكير
والاعتبار ، قصده أمير المؤمنين أبو عنان ، وارتحل إليه عام سبعة وخمسين
وسبعمائة ، فوقف ببابه طويلاً ، فلم يأذن له ، وانصرف وقد امتلأ قلبه من
حبه وإجلاله ، ثم عاود الوقوف ببابه مراراً فما وصل إليه ، فبعث له
بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته ، فأجابته بما قطع رجاءه
منه ، وأيس من لقائه ، واشتد حزنه ، وقال : هذا ولي من أولياء الله تعالى حجه
الله عنا ؛ انتهى .

ولما أجرى ذكره لسان الدين في « نفاضة الجراب » قال ما ملخصه :
ولقيت من أولياء الله تعالى بسلا الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين ، فراراً عن
زهرة الدنيا ، وعزواً عنها ، وإغفاء في الورع ، وشهرة بالكشف ، وإجابة الدعوة
وظهور الكرامة ، أبا العباس ابن عاشر ، يسر الله تعالى لقاءه على تعذره لصعوبة
تأتيه ، وكثرة هيبته ، قاعداً بين القبور في الخلاء ، رث الهيئة ، مُطْرِق اللحظ ،
كثير الصمت ، مفرط الانقباض والعزلة ، قد فرّ من أهل الدنيا وتطارحهم ،
فهو شديد الاشمئزاز من قاصده ، مُجَرَّمز للوثبة من طارقه ، نفع الله تعالى به .
وقال ابن الخطيب القسطيني الشهير بابن قنفذ : لقيته بسلا سنة ٧٦٣ ،
وهو على أتم حال في الورع ، والفرار من الأمراء ، والتمسك بالسنة ، وهو الشيخ

الفقيه الولي ، توفي في سنة خمس وستين وسبعمائة ؛ انتهى .
وممن انتفع به ونال بركته الولي العارف بالله سيدي أبو عبد الله ابن عبّاد
شارح الحكم ، وقد ترجمناه في هذا الكتاب .

وقال ابن عباد المذكور في رسائله : وقد كنت قديماً خرجت في يوم مولده
صلى الله عليه وسلّم صائماً إلى ساحل البحر ، فوجدت هناك سيدي الحاج ابن عاشر
رحمه الله تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه ، فأرادوا مني الأكل ،
فقلت : إنّي صائم ، فنظر إلي سيدي الحاج نظرة منكّرة ، وقال لي : هذا يوم
فرح وسرور يُستقبح في مثله الصوم كالعيد ، فتأمّلت قوله فوجدته حقاً ، وكأنته
أيقظني من النوم ؛ انتهى .

وقال ابن قنفذ السابق في رحلته ما صورته : وكان ابن عاشر رحمه الله تعالى
فريداً في الورع ، ميسراً عليه في ذلك أتم تيسير ، محفوظاً من كل ما فيه شبهة ،
كثير النفور من الناس ، وخصوصاً أصحاب الولاية في الأعمال ، وخرجت على
يده تلامذة نجباء أختيار ، وطريقه أنّه جعل « إحياء علوم الدين » بين عينيه ، واتبع
ما فيه بجدّ واجتهاد ، وصدق وانقياد ، وكان الحجّة في ذلك الطريق ، وأول
اجتماعي به تفرّ مني ، فحبستّه بيدي وهزّزته ، فتبسم ووقف معي ، وسألني
عن نسبي ، ودعا لي ، وطلبتّه بما يطعمني ، فاعتذر لي بالإقلال ، ثم قال : أمهل ،
فدخل وأخرج لي حبّات تين يابسة في يده اليمنى ، وغطاها باليد اليسرى ، ودفعها
إليّ ، وضحك معي ، وعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه معي ، لأنّه
لا ينسب إلى أحد ، وحصل لي بذلك فخر لا يدري قدره إلاّ منّ حاول بعضه
معه ، وقصدني كثير من الخواص فسألني عن مجلسي معه وما وقع من جوابه
وسؤاله ، وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه في عام سبعة وخمسين وسبعمائة
على لقائه فلم يقدر عليه بوجهٍ ، وحجبه الله تعالى حتّى تبعه يوم جمعة من الجامع
الأعظم على قدمه ، والناس ينظرونه ، وهو لم يره ، فرجع ، ولم يكن قوته إلاّ
من نسخ العمدة في الحديث ، وكيف يبيعهها ، ولمن يبيعهها ، ولا يأخذ إلا قيمتها ،

ولم تزل حالته وبركته في زيادة إلى أن توفي سنة ٧٦٥ ، وسأله بعض الأخيار بمحضري عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني ؛ لوجود ذلك من بعضهم ، فقال : المسلم الذي له هذه الدرجة يرى من العاهة ، والنصراني لا يرى ، ثم قال : وهل يرى الفقيه من العاهة ؟ فقال له : نعم ، ثم نظر يمينا وشمالاً ليجد صاحب عاهة يأتي بالعيان ، فلم يجد أحداً ، وكأته اغتاض لهذا السؤال ، ثم أخرج يده وقال : يأتي لمن يقعد عن الحركة ، فيحبسه بيده ، ويقومه وقد ذهب ألمه بعد أن جثا إلى الأرض في الصفة ، ثم قال : وسئل بعضهم عن هذا ، وكان السائل نصرانياً في زي المسلم ، فقال له : الفرق بينهما سقوط الزنار من وسطك ، قال : فسقط ، وفضحه الله تعالى ، وأسلم بسبب ذلك ؛ انتهى كلام ابن قنفذ القسطيني ، رحمه الله تعالى .

وترجمة ولي الله تعالى سيدي الحاج ابن عاشر - نفعنا الله تعالى ببركاته - متسعة جداً ، وكراماته ومناقبه لا تبلغ لها حداً ، ولا نطبق لها عدداً ، وإنما ألمعنا بذكره قصداً للتبرك به ، والله ولي التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

رجع إلى نظم لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ، فنقول : ومن مداعباته رحمه الله تعالى قوله :

ومولع بالكتب يتتاعها بأرخص السوم وأغلاه
في نصف الاستذكار أعطيته مختصر العين فأرضاه

ويعني بمختصر العين الزبيدي فافهم ، وقال رحمه الله تعالى من قصيدة :

ووالله ما اعتل الأصيل ، وإنما تعلم من شجوي فبان اعتلاله

وهذا غاية في المبالغة وحسن التعليل .

وقال رحمه الله تعالى^١ : وقفت على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات في حركة
 راحة أعملتها إلى الجهات المراكشية ، باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار ،
 عام واحد وستين وسبعمائة ، وهو بمقبرة أغمات في نَشْرَ من الأرض ، وقد
 حفَّت به سِدْرَةٌ ، وإلى جنبه قبر « اعتماد » حظية مولاة رُمَيْك ، وعليهما
 هيئة التغرب ومعاناة الحمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما ،
 فأنشدت في الحال :

قد زرتُ قبرك عن طوعٍ بأغماتِ رأيتُ ذلكَ من أولى المهماتِ
 لم لا أزوركُ يا أئدى الملوكِ يدأُ ويا سراجَ الليالي المدهماتِ
 وأنت من لو تخطى الدهر مَصْرَعَه إلى حياتي بلحادثٍ فيه أبياتي
 أنافَ قبرك في هَضْبٍ يميّزهُ فتننتجيه حقيّاتُ التحياتِ
 كرمتَ حيّاً وميتاً واشتهرتَ علأُ فأنتَ سلطانُ أحياءِ وأمواتِ
 ما ريء مثلك في ماضٍ ، ومعتقدي أن لا يُرى الدهرَ في حالٍ ولا آتِ

وقد تقدّم هذا في القسم الأول في الباب السابع منه ، وكررته هنا ، والله
 الموفق .

وقال رحمه الله تعالى مورياً حين أكل مشرفُ الدار القابضَ ، أي أكل
 ماله^٢ :

مُشْرِفُ دارِ الملكِ ما باله متفخِ الجوفِ شكاً نافضاً^٣
 فقيلَ لي ليسَ بهِ علّةٌ لكنّه قد أكلَ القابضاً^٤

١ أزهار الرياض ١ : ٢٩٧ ، وانظر الأبيات في الجزء ٤ : ٩٨ .

٢ أزهار : ٣٠٠ .

٣ النافض : الحمى .

٤ القابض - في المصطلح الأندلسي - المال المقبوض .

وقال ١ :

يا نفسُ لا تصغي إلى سلوةٍ كم أخلف الموعدَ عرقوبُ
وأنتَ يا قلبي وصاك إله راھيمُ بالحزنِ ويعقوبُ

وقال في السعيد أبي بكر ابن السلطان أبي عنان :

أميرٌ كأنَّ قُميرَ الدُّجى أفاض الضياءَ على صفحتيه
تملاً قلبي من حبه غداةَ نظرتُ بعيني إليه
فلا بسطَ الدهرُ كف الردي لذلك الشخيصِ وذاك الوجيه

وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق :

تعلّمَ طيفوري خلالَ سميتهِ وإن كان منسوباً إلى غير بسطام^٢
وجاء فقيرَ الوقتِ لابسَ خرقة فليس براضٍ غيرَ صحبة صوام
فديتك لا تردُّدُهُ عنك نجيباً ودرسهُ يا مولاي قصّة بلعام^٣

وقال : ممّا كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور ، وقد وصل ولده إلى سلا
ومنع ابن الخطيب عن لقائه عذرُ مرضٍ ، وكان نزوله بزواية النساك :

صدّتي عن لقاء نجلك عذرٌ يمنعُ الجسمَ عن تمامِ العبادة^٤
واختصرتُ القرى لأن حطّ رحلاً في محلّ الغنى ودار الزّهاده
وكوّ آني احتفلتُ لم يُعِينِ الده سرُّ ولا نلتُ بعضَ بعضِ أراده
وعلى كلِّ حالةٍ فقصوري عادةً إذ قبولك العذرَ عاده

١ هذه المقطوعة والعشر التالية لها في أزهار الرياض ٣٠٠ - ٣٠٤ .

٢ الطيفور : طبق عليه طعام أو مائدة صغيرة ، وفي الإسبانية (Ataifor) ، وانظر الحاشية : ٢

من ج ٤ : ٥١٠ ، وطيفور اسم أبي يزيد البسطامي .

٣ بلعام اسمه مشتق من البلع فهو يوري بذلك .

لا عدمت الرضى من الله والحسد فى كما نصَّ وَحْيُهُ والزِيادة

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبى الحسن بشالة لاستنهاض عزيمة فى قضاء

غرضه :

برئت لله من حَوَلي ومن حِيالي
أصبحتُ ما ليَ من عطفِ أُوَمَلِه
ما كنتُ أحسبُ أن أُرْمى بقاصيةِ
من بعد ما خلصتُ نحوى الشفاعةُ ما
إن كنتُ لستُ بأهلٍ للذي طمحتُ
فكيفَ يُلغى ولا تُرعى وسيلته
من بعد ما اشتهرتُ حالي به وسرتُ
والرسلُ تترى ولا تخفى نتائجها
ولا لليليَ من صبحِ أطالعه
لو أنتي بآبن مرزوقٍ عقدتُ يدي
لكان كربي قد أفضى إلى فرجِ
المحتُ بالعتبِ لم أحذرُ مواقعه
ولست أجد ما خوَّلتُ من نعم
ولست أبأس من وعدٍ وعدتُ به

إن نام عني وليي فهو خيرٌ ولي
من غيره فى مهماتٍ ولا بدَلِ
للهمجر أقطعُ فيها جانبَ الأملِ
بين العُلا والُدجى والبيض والأسلِ
إليه نفسى وأهنوى نحوه أُملي
دخيلُ قبرِ أميرِ المسلمين علي
بها الركائبُ فى سهلٍ وفى جبلِ
عندَ التأملِ من قولٍ ولا عملِ
كأنَّ همِّي قد مدَّ الدُّجَّةَ لي
وكان محتكماً فى خيرةِ الدولِ
وكان حزني قد أوفى على جدِّ لي
« أنا الغريقُ فما خوْفى من البللِ »
لكنَّها النفسُ لا تنفكُ عن أملِ
« وإتَّما خلقَ الإنسانُ من عَجَلِ »

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبى الحجاج :

أمولاي إنَّ الشعرَ ديوانُ حكمةِ
وقد وُجدَ المختارُ فى الحفلِ مُنصَّباً
يفيد الغنى والعزَّ والجاهَ من كانا
لهُ وحباً كعباً عليهِ وحسانا

١ الأزهار : الفلا .

بذلك ديواناً صحيحاً فديوانا
وفاروقه الأدنى إليه وعثمانا
وكرّمنا بالقرب منهم وحيّانا
خطابٌ وشعرٌ يستقرّان تبيانا
فروضَ روضِ القولِ سحاً وتهتانا
به فعَلَّ المختارُ ديناً وإيماناً
وتقضي بما يرضيه سرّاً وإعلاناً
فصنعةُ نظمِ القولِ أرفعُهُ شاناً

وفيما رواه الناقلون وأثبتوا
بأنَّ أبا بكرٍ خليفته الرضي
وأنَّ علياً قدسَ الله جمعهم
لهم في ضروبِ القولِ إذ هم فحولهُ
وفاض على أهل القريضِ نوالهُم
وأنت أحقُّ الناسِ أن تفعلَ الذي
فما زلت تهدي في البريةِ هديه
وإن قيل قدرُ المرءِ ما هو محسنٌ

وقال مورياً :

ولكنّها للواردين عذابُ
فدمعي «عقيق» بالجفون مذابُ

بنفسي حبيبٌ في ثناياه «بارق»
إذا كان لي منه عن الوصل «حاجر»

وقال :

في نارِ هجرِكَ دائماً وقعوده
فعلامَ يُقضى في العذابِ خلوده

عذبتَ قلبي بالهوى فقيامه
ولقد عهدتُ القلبَ وهو موحدٌ

وقال في التجنيس :

تداعتُ مبانها وهمتُ بأن تهى
تنأى وهل أسلو حياتي وأنت هي
ولم تنهه عنه النُهي كيف ينتهي

دعوتك للودّ الذي جنّباته
وقلتُ لعهد الوصل والقربِ بعدما
ومنّ شام من جوّ الشيبية بارقاً

وقال :

والقلبُ من قرّقِ التوديعِ قد وجبا
عني الحبيبُ ولم تقضِ الذي وجبا

ناديتُ دمعِي إذ جدَّ الرحيلُ بهم
سقطتَ يا دمعُ من عيني غداةَ نأى

وقال :

شليحُ لعمرى أساء الجوارَ وسدَّ عليَّ رحيبَ الفضا
هو الشيخُ أبردُ شيء يُرى إذا لبس البرنسَ الأيضا

وقال : قلت أخاطب بعض من أدل عليه وما أولاني بذلك :

إذا قمتَ قلْ بعقيب الكرى إلهي أنتَ إله الورى
تباركتَ أنشأتهم من تراب وأنشأتني بينهم من خرا

قلت : ولا خفاء ببشاعة هذا ، فحذفه أولى من إثباته .

وقال يداعب بعض أصحابه :

شيخُ رباطٍ إن أتى شادنٌ خلوته عند انسدادِ الظلامِ
أدلتى وقدَّ أبصره دلتوه وقال يا بشرايَ هذا غلامٌ

وقال في غرض يظهر :

لم أجد فيه لينَ بثِّ لقلبي وقبولاً لحجتي واعتذاري
ثقلَ الله ظهره بعِيالٍ سوَّدَ الله وجهه بعدارٍ

وقال من قصيدة :

أخذتَ وأمواجُ الردى متلاطمةٌ بضبغِي يا نجلَ الوصيِّ وفاطمةُ

وقال :

ووجه غرستُ الوردَ فيه بنظرةٍ فيا ليتَ كفتي مُتعتَ بجنتي غرسي
كانَ سوادَ الخالِ في وجناته علامةُ مولانا على أحمرِ الطرس
وبينهما في باطن الأمرِ نسبةٌ لذلك أمضيتُ الغرامَ على نفسي

وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء :

ضبط الفقيه فقلت ذاك غريبة ما كان ذلك منه بالمعلوم
فدنا إليّ وقال قد أصرفتكم من ضراطي بغريبة المزموم

وفي آخر سنة أربع وسبعين وجّه إلى السلطان أبي حمّو سلطان تلمسان أبياتاً
لزومية في غرض الهناء ، وهي :

وقف الغرام على ثنالك لساني رعيماً لما أوليت من إحسان
فكأتما شكري لما أوليته شكرُ الرياض لعارض النيسان
أنا شيعّة لك حيث كنت ، قضية لم يختلف في حكمها نفسان
ولقد تشاجرت الرماح فكنت في ميدان نهرك فارس الفرسان
ورويت غرّاً مائري أسندتها لعلاك بين صحاح وحسان
ولأنّ أولى بالثبّيع شيمة لم تنفق لسواك من إنسان
الشمس أنت قد انفردت وهل يرى بين الوري في مطلع شمسان
جبرت بجبرك كلّ نفس حرة وشدا بشكر الله كلّ لسان
وبدّت سعودك مستقيماً سيرها وعلت فقرّ أمامها النحسان
فاستقبل السعد المعاود سافراً عن أيّ وجه للرضي حسان
وابغ المزيد بشكر ربك ولتثق بمضاعف الإنعام والإحسان
فالشكر يقتادُ المزيد ركباً تتاب بابك منه في أرسان
ثمّ السلام عليك يزري عرفه طيباً بعرف العود والبلسان

وقال ٢ :

١ ق : بذكر .

٢ أزهار : ٣٠٤ .

بحقّ ما بيننا يا ساكني القصبهٗ رُدُّوا عليّ حياتي فهي مغتصبهٗ
ماذا جنيتم على قلبي بينكم وأنتم الأهل والأحباب والعصبهٗ

قلت : ولعل ابن زمرّك قال أبياته التي على هذا الروي المذكورة في غير هذا
الموضع من هذا الكتاب جواباً لهذه حين كان ابن زمرّك من جملة أتباع لسان
الدين رحم الله تعالى الجميع .

وقال لسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى ١ :

حين ساروا عني وقد خنقتني عبراتٍ قد أعربت عن ولّوعي
صحتُ من ينصرُ الغريبَ؟ فلماً لم أجدُ ناصراً بِلعتُ دموعي

وقال :

قالَ لي والدموعُ تنهلُ سحُباً في عراضٍ ٢ من الحدودِ محولٍ
بكَ ما بي فقلتُ مولاي عافا كَ المعافي من عبّرتي ونحولي
أنا جفني القريح يروي عن الأء مش والجفنُ منك عن مكحولٍ

وقال :

أشكو لبسمه الحريقَ وقد حمى عني لَماهِ المشتَهى ورحيقهٗ
يا ريقه حيرتني ومطلتني ما أنتَ إلا باردٌ يا ريقهٗ

وقال فيمن ركب البحر وماد ٣ :

ركب السفينةَ واستقلَّ بأفقهَا فكأتما ركبَ الهلالَ الفرقدُ

١ أزهار : ٣٠٥ وكذلك القطعة التالية والتي بعدها .

٢ ق والأزهار : عراض .

٣ أزهار : ٣٠٦ والقطعة التي تليها أيضاً .

وشكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيبي الأملد
وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجهاً إلى الأندلس لطلب
حقه :

ولما حثت السيرَ والله حاكم للملك في الدنيا بعزٍ وفي الأخرى
حكى فرس الشطرنج طرفك لا يرى ينقل من بيضاء إلا إلى حمراء
ويعني بالبيضاء فاساً الحديدية ، وبالحمراء حمراء غرناطة .
وتذكرت هنا أن بعض علماء الأندلس ، وأظنه أبا عبد الله ابن جزري ، لما
رَمِدَتَ عَيْنُ بعض أهل فاس سأله عنها ، فقال :

يا سيدي عيني قد أودى قذاها بالأنس
فانظر إليها ترها دار ملك الأندلس

يعني حمراء ، فأجابه بقوله :

وقيت مما تشكي من القذى والوصب
ما رمدت عينك بل عين العلاء والأدب
فلتحمدن أن لم تكن دار ملك المغرب

يعني بيضاء ، وهذا من غريب ما يحاضر به .

رجع - وقال لسان الدين رحمه الله تعالى^١ :

أجاد يراع الحسن خطَّ عذاره وأودعه السرَّ المصون الذي يدري
ولم يفتقر فيه لحم وطابع فمبسمه أغناه عن طابع السر

١ هذه القطعة والقطع العشر التالية في أزهار الرياض ٢٠٧ - ٣١٠ .

وقال في غرناطة :

أحييك يا معنى الكمال^١ بواجب
تقسّم منك الترب قومي وجيرتي

وقال في غرض ينحو نحو المشاركة :

رموا بالسلو حليف الغرام
أعوذ بعزك يا سيدي
وأدمعه كالحيسا الهاطل
لذلي من دعوة الباطل

وقال :

يا ليل طُلت ولم تجد بتسم
هلاً رحمت تغربي وتفرقي
وأريتني خلُق العبوس النادم
لله ما أفساك يا ابن الخادم

وقال في مروحة سلطانية :

كأني قوسُ الشمس عند طلوعها
وإلا كما هبت بمحتدم الوغي
وقد قدمت من قبلها نسمة الفجر
بنصر ولكن من بنود بني نصر

وقال يخاطب شيخه ابن الجيآب :

بين السهام وبين كُتُبِكَ نسبة
وإذا أردت لها زيادة نسبة
فبها يصاب من العدو المقتل
هذي وهذي في الكنانة تجعل

وقال يتغزل ، وفيه معنى غريب :

إنَّ اللحاظَ هي السيوفُ حقيقةً
لم يُدعَ غمدُ السيفِ جفنًا باطلاً
ومن استراب فحجتي تكفيه
إلا لشبه اللحظِ يغمد فيه

١ أزهار : أحبك يا معنى الكمال .

قيل : وأحسن منه قول غيره :

إنَّ العيونَ التَّجَلَّ أمضى موقِعاً من كلِّ هِنديٍّ وكلِّ يَماني
فَضلُّ العُيونِ على السُّيوفِ بأنَّها قتلَتْ ولمْ تُخرجْ من الأَجفانِ

وأصل ما قال لسان الدين قول الأول :

بينَ السُّيوفِ^١ وعينيه مناسبةٌ من أجلها قيل للأعمادِ أجفانُ

وقال لسان الدين رحمه الله تعالى في الساعة ، وتسميها المغاربة المنجاة :

تأملِ الرملَ في المنجانِ منقطعاً يجري وقدَّرهُ عُمراً منك منتها
واللهِ لو كان وادي الرملِ^٢ ينجده ما طالَ كامله إلا وقد ذهب

وقال :

أقولُ لعاذلي لَمَّا نَهاني وقد وجد المقالة إذ جفاني
علمتَ بأنَّه مرُّ التجني وفاتك أنه حلُّ اللسانِ

وقال في غرض صوفي :

لا تنكروا إن كنتُ قد أحببتكم أو أنتي استولى عليَّ هواكم
طوعاً وكرهاً ما ترون فإنتي طفتُ الوجود فما وجدت سواكم

وقال بمدح ، وفيه تورية :

وإن نَظَرْتُ إلى الألاءِ غُربتهِ يومَ الهياجِ رأيتَ الشمسَ في الأسدِ

وقال ممّا يُكتب على طاق الماء بباب القبّة^٣ :

١ ق : اللعاط .

٢ ق : الأرض .

٣ هذه القطمة والقطع الثلاث بعدها في الأزهار ٣١٢ - ٣١٣ .

أنا طاقٌ تزهر بيَ الأيامُ
وتبدَّيتُ للنواظر محمرا
تعبتُ في بدائعي الأفهامُ
واقفٌ للصلاة حتى إذا ما
بأ كأنَّ الإناءَ فيَّ إمامُ
جئتُ للشربِ حان مني سلامُ

وقال في ذلك أيضاً :

يا صانعيَ اللهِ ما أحكمته
أحكمتَ تاجي يومَ صغتَ رقوشه
فلأنتَ بينَ العالمينَ رئيسُ
وأقمتَ في محرابه فكأنته
فصبتُ إليه مَقارقُ ورؤوسُ
مجلى إناءِ الماءِ فيه عروسُ

وقال في المشيب^١ :

أنتى لملثي بالهوى من بعد ما
لبس البياضَ وحلَّ ذروةَ منبرِ
للوخط في الفودين أيّ ديبِ
مني ووالى الوعظَ ، فعلَ خطيبِ

وقال رحمه الله تعالى :

والله ما جان على ماله
والناس في خيرٍ وفي ضدهِ
أو جاهه من ذبّ عن عرضهِ
هم شهداء الله في أرضهِ

وقال^٢ :

إلهي بالبيت المقدس والمسي
وبالموقف المشهود يا رب في مني
وبالمصطفى والصحب عجل إقالي
صدعتُ وأنتَ المستغاثُ جنباه
وجمع إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا
إذا ما أسأل الناس من خوفك الدمعا
وأنجح دعائي فيك يا خير من يدعى
أقبل عثرتي يا موثلي واجبر الصدعا

١ البيتان من بائته التي تقدمت ص : ٤٥٥ .

٢ أزهار الرياض ١ : ٢٧١ .

وقال رحمه الله تعالى في بنيونش سبعة^١ :

بنيونش^٢ أسنى الأماكنِ رقةً
هي جنة الدنيا التي من حلتها
نال الرضى والروح والريحان
قالوا القروءُ بها فقلتُ فضيلةً
وأجلُّ أرضِ الله طراً شانا
حيوانُها قد قارب الإنسانا^٣

وفي بنيونش هذه يقول أبو عبد الله ابن مجبر^٤ :

بنيونشُ جنةٌ ولكن
وجنةُ الخلدِ لا يراها
طريقُها يَقْطَعُ النياطا
إلا فتى يَقْطَعُ الصراطا

وقال ابن الخطيب رحمه الله تعالى^٥ :

إنَّ الهوى لشكاية معروفة
والنفس إن ألفت مرارة طعمه
صبر التصبر من أجلِّ علاجها
يوماً ضمنت لها صلاح مزاجها

وقال رحمه الله تعالى^٦ :

ولمَّا رأت عزمي حيثاً على السرى
أتت بصحاحِ الجوهري دموعُها
وقد رابها صبري على موقفِ البينِ
فقابلت من دمعي بمختصر العينِ

وقال رحمه الله تعالى :

تذكرتُ عهداً كان أحلى من الكرى
وأقصر من إمام طيف خياله

١ أزهار الرياض ١ : ٣٤ .

٢ الأزهار : بليونش ، وهي لغة في بنيونش .

٣ ذكر في الاستبصار : ١٣٨ أن على قرية بليونش جبلاً عظيماً فيه القردة .

٤ وردا في أزهار الرياض (٣٤) منسويين للقاضي عياض .

٥ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٧١ .

٦ مر البيتان في ما تقدم ص : ٤٦٤ .

فيا ليت شعري مَنْ أتاح لي المني وعذَّب بالي هل أمرٌ بياله
وقال رحمه الله تعالى :

عيني جنت فعلام تحرق أضلعي أما جني جارٌ يعذبُ جارُ
يا قلبُ لا تدهشك نيرانُ الهوى فكنازِ لإبراهيمَ تلك النارُ
فاصبرْ على ما حملوا تنلِ المني بالسبكِ أدرك نقشهُ الدينارُ
وقال رحمه الله تعالى :

وما كان إلا أن جنى الطرفَ نظرةً غدا القلبُ رهناً في عقوبةِ ذنبه
وما العدلُ أن يأتي امرؤُ بجزيرةٍ فيؤخذَ في أوزارها جارُ جنبه
وقال رحمه الله تعالى :

برى جسدي فيكم غرامٌ ولوعةٌ إذا سكن الليلُ البهيمُ ثورُ
فلولا أنيبي ما اهتدى نحو مضجعي خيالكمُ بالليل حين يزورُ
ولو شئتُ في طيِّ الكتابِ لزرتكم ولم تدرِ عني أحرفُ وسطورُ
وقال رحمه الله تعالى :

بلدٌ تحفُّ به الرياضُ كأنهُ وجهٌ جميلٌ والرياضُ عذارهُ
وكانما واديه معصمٌ غادةٌ ومن الجسورِ المحكماتِ سوارهُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا حمو صاحب تلمسان ويشكره على
ما كان أعان به أهل الأندلس^١ :

لقد زارَ الجزيرةَ منك بحرٌ يمدُّ فليس تعرف منه جزراً

١ هذه القطعة والتي تليها في أزهار الرياض : ٢٦١ .

أعدت لها بعهدك عهدَ موسى سميكَ فهي تتلو منه ذكرا
أقمت جدارها وأفدت كترأ ولو شئت اتخذت عليه أجرا

وقال أيضاً :

وقالوا الجزيرة قد صوّحت فقلتُ غمامَ الندى تنتظرُ
إذا وكفتُ كفُّ موسى بها غماماً يعودُ الجنبُ الحضرُ

وقال رحمه الله تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية^١ :

أفادتُ وجهتي بنّادك مالا قضى ديني وأصلحَ بعضَ حالي
ومتعتُ الخواطرُ بانسراحِ وأطرفتِ النواظرُ باكتحالِ
وأبتُ خفيفَ ظهرٍ ، والمطايا بجاهك تشتكي ثقلَ الرحالِ
وشاني للمعالم غيرُ شانِ وحالي بالمكارم جدُّ حالِ
فحبُّ علاكَ إيماني وعقدي وشكرُ نذاك ديني وانتحالي
كما قد صحَّ لله انقطاعي بتأميلي جنابك وارتحالي
وما يبقى سوى فعلٍ جميلِ وحالُ الدهر لا تبقى بحالِ
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاءِ وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالِ
ومنَّ سامَ الزمانَ دوامَ أمرِ فقد وقف الرجاء على المحالِ

وقال رحمه الله تعالى في الضرّاعة إلى ربّه ، والاعتراف بذنبه^٢ :

مولايَ إن أذنبتُ يُنكرُ أن يُرى منك الكمالُ ومنّي النقصانُ ؟
والعفوُ عن سببِ الذنوبِ مسبَّبُ لولا الجنايةُ لم يكنُ غفرانُ

١ أزهار : ٢٧١ .

٢ أزهار : ٢١١ .

وقال رحمه الله تعالى ١ :

سلامٌ على تلك المربع إنَّها
ويا آسة المغنى انعمي فطلما
معاهدُ الألفي وعهدُ صحابي
سكبتُ على مثواك ماء شبابي

وقال ساعده الله تعالى :

أموطني الذي أزعجتُ عنه
لئن أزعجتُ عنك بغير قصدٍ
ولم أرزأ به مالا ولا دم
فقبلي فارق الفردوس آدم

ومن ميلاديته رحمه الله تعالى قوله ٢ :

ما على القلب بعدكم من جناح
وعلى الشوق أن يشبَّ إذا هـ
جيرة الحى ، والحديثُ شجون
أترون السلو خامرَ قلبي
ولو أنني أعطى اقتراحي على الـ
ضايقتني فيكم صروفُ الليالي
وسقتني كأسَ الفراقِ دهاقاً
واستباحتُ من جدتي وفتائي

أن يرى طائراً بغير جناح
بأنفاسكم نسيمُ الصبح
والليالي تلينُ بعد الجراح
بعدكم ؟ لا وفالقِ الإصباح
أيام ما كان بعدكم باقتراحي
واستدارتُ عليَّ دورَ الوشاح
في اغتياق مواصلٍ واصطباح
حرماً لم أخله بالمستباح

ومنها :

يا ترى والنفوسُ أسرى أمان ٣
هل يُباح الورودُ بعد زيادٍ
ما لها من وثاقها من سراح
أو يتاح اللقاء بعد انتزاح

١ أزهار : ٦ .

٢ أزهار : ٢٣٧ والإحاطة : ٣١٥ .

٣ الإحاطة : الأمانى .

وإذا أعوز الجسم التلاقي ناب عنه تعارف الأرواح

وهي طويلة لم يحضرنى منها الآن سوى ما ذكرته .

وقد حدا حدّوها الفقيه الكاتب أبو زكريا يحيى بن خلدون أخو قاضي
القضاة ولي الدين بن خلدون صاحب التاريخ ، فقال في مولد عام ثمانية وسبعين
وسبعمائة ، واستطرد لمدح السلطان أبي حمّو موسى صاحب تلمسان الذي تقدم
ذكره قريباً :

ما على الصبّ في الهوى من جناح
وإذا ما المحبُّ عيلَ اضطراباً
يا رعى الله بالمحصّبِ ربّماً
كم أدرنا كأسَ الهوى فيه مزحاً
هل إلى رسمه المحيلِ سبيلٌ
نسألُ الدارَ بالخليطِ ونسقي
أيّ شجو عاينتُ بعد نواها
أهلَ ودي إن رابكم برحٌ وجدي
فاسألوا البرقَ عن خفوقِ فوادي
يا أهيلَ الحمى نداء مشوقٍ
طلما استعذبَ المدامعَ ورداً
عاده بالطلولِ للشوقِ عيدٌ
من لقلبٍ من الجوى في ضرامٍ
ولصبٍ يهبجُه الذكرُ شوقاً
وليالٍ قضيتُ للهوِ فيها

أن يرى حلفَ عبرةٍ وافتضاحِ
كيف يُصغني إلى نصيحةٍ لاحِ
آذنتُ عهدَه النوى بانتراحِ
ربّ جدٍ من الجوى في المزاحِ
يا حُدأةَ المطيِّ تلك الطّلاحِ
ذلك الرّبّعَ بالدموعِ السّفاحِ
من أسى لازمٍ وصبرٍ مُزاحِ
من صبا بارقٍ وبرقٍ لياحِ
والصبا عن سقامِ جسمي المتاحِ
ما له عن هوى الدُمى من برّاحِ
في هواكم عن كلِّ عذبٍ قرّاحِ
من حمامٍ بدوحهنّ صداحِ
ولحفنٍ من البكا في جراحِ
فهو سكرأ يرتادُ من غيرِ راحِ
وطراً والشبابُ ضاني الجناحِ

١ أزهار : ٢٣٩ .

ساجباً في الغرامِ ذيلَ مراحِ
 روعَ الشيبِ سربها بالصباحِ
 بسوى حسرةٍ وطولِ افتضاحِ
 يغفرِ الله زلتي واجتراحي
 حباً خبيرِ الورى الشفيحِ الماحي
 أشرفُ الخلقِ في العلا والسماحِ
 سره بينَ غايةٍ وافتتاحِ
 نور كنه المشكاةِ والمصباحِ
 مصطفى الله من قريشِ البطاحِ
 آخرُ المرسلين بعثَ نجاحِ
 وسراج الهدى وشمس الفلاحِ
 من قرى قيصرِ جميعِ الضواحي
 من مشيدِ الإيوانِ كلِّ النواحي
 ورأى آيَ ربِّه في اتضاحِ
 ظافراً في العُلا بكلِّ اقتراحِ
 وجلاً ليلَ غيبتهمُ بالصباحِ
 كلِّ عاصٍ وطائعٍ باجتراحِ
 يلجأ الناس بينَ ظامٍ وضاحي
 فوق عزِّ الحبيبِ مرَّمي طماحِ ؟
 باسمه ، والكليمُ في الألواحِ
 في سماعِ أتى بها والتماحِ
 بهرتُ والجمادِ والأرواحِ
 وحساباً كالزهرِ أو كالصباحِ

راكباً في الهوى ذلولَ تصابِ
 ونجومُ المنى تنيرُ إلى أن
 أيُّ مسرّي حمدتُ لم أخلُ منه
 واخساري يومَ القيامةِ إن لم
 لم أقدمُ وسيلةً فيه إلا
 سيّد العالمين دنياً وأخرى
 سيّد الكونِ من سماءِ وأرض
 زهرةُ الغيبِ مظهرُ الوحي معنى ال
 آيةُ المكرماتِ قطبُ المعالي
 أولُ الأنبياءِ تخصيصَ زلّفى
 صفوةُ الخلقِ أرفعُ الرُّسلِ قدراً
 من ميلاده بمكة ضاءتُ
 وخبّتُ نارُ فارسٍ وتداعتُ
 من رقى في السماء سبعا طباقاً
 ودنا منه قاب قوسينِ قرباً
 من هدى الخلقِ بين حميرٍ وسودِ
 من يجيرُ الورى غداً يومِ يجزى
 من إلى حوضه وظلُّ لواه
 أحمدُ المجتسبي حبيباً ، وأتى
 في أناجيله المسيحُ تلاه
 ولكم حجةٍ وبرهانِ صدقِ
 إن في النجمِ والنباتِ لآياتِ
 معجزاتٍ فتنَ المداركَ ووصفاً

يا رِوَاةَ القْرِیضِ والشَّعْرِ عَجْزاً
إِنَّمَا حَسَبْنَا الصَّلَاةُ عَلَیْهِ
يَا إلهی بِحَقِّ أَحْمَدَ عَفْوَاً
وَأَدْمُ دَوْلَةَ الخَلِیْفَةِ مُوسَى
مَفْخَرُ المَلِكِ مُسْتَقَرُّ المَزَايَا
نَاصِرُ الحَقِّ خَاذِلُ الجُورِ عَدْلًا
یَتَلَقَّى التَّدَى بِوَجْهِ حَبِیْبِ
وَلَهُ المَكْرَمَاتُ إِرْثًا وِلْبَسًا
مَنْ عَلَا بِأَذْخِ وَفَخْرِ صَمِیمِ
وَأَحَادِیثَ فی المَعَالِی حَسَانِ
عَاقِدُ صَفْقَةِ العُلَا کُلِّ حَیْنِ
لِلتَّدَى وَالهُدَى یَرْوَحُ وَیَغْدُو
مَلِكُ تَشْرِقُ الأَسْرَةَ مِنْهُ
وَإِذَا مَا عَلَا بِعَالِی العَوَالِی
لِبَسِ الدَّهْرُ مِنْهُ حِلَّةَ حَسَنِ
وَعَلَى عَاتِقِ الخِلَافَةِ مِنْهُ
وَرِثَ المَلِكِ شَاخِخًا عَنِ سِرَاةِ
مَنْ نَبِی القَاسِمِ الذِّینَ تَحَلَّوْا
فَرَعَوْا هِضْبَةَ الخِلَافَةِ مَجْدًا
نَشَرُوا رَايَةَ المَفَاخِرِ حَمْدًا
يَا إِمَامًا بَدَّ المَلُوكَ جِلَالًا
أَنْتَ شَمْسُ الكَمَالِ دَمْتَ عَلَیْهَا
وَبَنُوكَ الأَعْلُونَ أَنْجَمُ سَعْدِ
وَأَبُو تَاشَفِینَ بَدْرُ مَنِیرِ

ما عسى تدركون بالأمداح
وهي للفوز آيةُ استفتاح
عن ذنوب جنيتهن قباح
ذي المعالي المينة الأوضح
مظهرُ اللطف ذو التقى والصلاح
متلجأ الخائفين بحرُ السماح
ويلاقي العدا بئس صفاح
حازَ حَمْدًا بِهَا مُعَلَى القِدَاحِ
وَکَمَالِ بِحَتِّ وَمَجْدِ صُرَاحِ
رُويَتْ عَنْهُ فِي العَوَالِی الصُّحَاحِ
فَآثِرُ فِيهِ سَعِيَهُ بِالرِّبَاحِ
أَيُّ مَغْدَى إِلَى العُلَا وَمَرَاكِ
فِي سَمَاءِ السَّرِيرِ نُورَ صَبَاحِ
صَهْوَةَ الجُرْدِ فَهوَ لَيْثُ الكِفَاحِ
وَثِي لِلسَّرُورِ عِطْفَ مَرَاكِ
طَرَزُ فَخْرِ سَبِي النُّهَى بِالتَّمَاكِ
شَيَّدُوا رُكْنَهُ بِأَيْدِي الصَّفَاحِ
بِالمَعَالِی وَاسْتَأَثَرُوا بِالقِصَاحِ
رَفَعُوا سَقْفَهُ عَلَى الأَرْمَاحِ
خَافِقَ النُّورِ بِالرُّبَى وَالبِطَاحِ
وَجَمَالًا فُديَتْ بِالأَرْوَاحِ
فِي اغْتِبَاقِ مِنَ المَنَى وَاصْطِباحِ
زَاهِرَاتِ بَنُورِكَ الوُضَاحِ
زَانَهُ اللهُ بِالْحِلَالِ الصَّبَاحِ

أكمل العالمين خلقاً وخلقاً أشرف الناس في الندى والكفاح
وبكم زينّت سماء المعالي واهتدى الناس في الدجى والصبح

وكان السلطان أبو حمّو المدوح بهذه القصيدة يحتفل ليلة مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم غاية الاحتفال ، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله .

ومن احتفاله له ما حكاه شيخُ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدي أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني في كتابه « راحُ الأرواح فيما قاله المولى أبو حمّو من الشعر وقيل فيه من الأمداح وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح » ونصّه : أنه كان يُقيم ليلة الميلاد النبوي - على صاحبه الصلاة والسلام - بمشورة من تلمسان المحروسة مدعاة حفيظة يحشر فيها الناس خاصة وعامة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرّابي مَبَثُوثة ، وبُسْطٍ مُوشَّاة ، ووسائد بالذهب مغطاة ، وشمع كالأسطوانات ، وموائد كالهالات ، ومباخر منصوبة كالقباب ، يخالها المبصرُ تبراً مذاب ، ويقاض على الجميع أنواع الأطعمة ، كأنها أزهار الربيع المنمنمة ، تشتهيها الأنفُس وتستلذها النواظر ، ويخالط حسن رِيّها الأرواح ويخامر ، رُتّبَ الناسُ فيها على مراتبهم ترتيبَ احتفال ، وقد علت الجميع أبهة الوقار والإجلال ، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام ، ومكفّرات^١ ترغّب في الإقلاع عن الآثام ، يخرجون فيها من فن إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب ، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب ، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجاة قد زخرت كأنها حلّة يمانية ، لها أبواب موجفة^٢ على عدد ساعات الليل

١ المكفّرات : أشعار تقال في التزهيد فتكفر ما كان من عبث ، وهي تشبه « المحصنات » .
٢ الأزهار : مرتجة .

الزمانية ، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها ، وفتح عند ذلك باب^١ من أبوابها ، وبرزت منه جارية صُورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطورة ، فضعها بين يدي السلطان بلطافة ، ويُسرّأها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة ، هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ، ونداء المنادي حيّ على الفلاح ؛ انتهى .

وقال التنسي المذكور في كتابه المسمى : « نظم الدر والعقيان في شرف بني زَيّان وذكر ملوكهم الأعيان » ما نصّه : وكان السلطان أبو حاتم يقوم بحق ليلة مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم ، يقيم مدعاة^١ يحشر لها الأشراف والسوقة ، فما شئت من نمارق مصفوفة ، وزرابي مبثوثة ، وشمع كالأسطوانات ، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم ولدان قد لبسوا أقبية الخز الملون وبأيديهم مباخر ومرشات ينال كل منها بحظّه ، وخزانة المنجاة ذات تماثيل بلجين محكمة الصنعة ، بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه ، ويختلّه فيهما أرقم خارج من كوة بجدر الأيكة صاعداً^٢ ، وبصدرها أبواب مرتجة بعدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفها بابان كبيران ، وفوق جميعها دُورين رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خط الاستواء سير نظيره في الفلك ، ويُسامت أول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عُقابان ، ففي كل واحد منهما صنجة صُفّر يلقيها إلى طست من الصفر مجوّف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرن^٣ ، وينهش الأرقم أحد الفرخين ، فيصفر له أبوه ، فهناك يُفتح باب الساعة الذهبية ، وتبرز منه جارية محترمة كأظرف ما أنت راء ، يسمّنها إضبارة فيها اسم ساعتها منظوماً ، ويُسرّأها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة ، والمُسْمِع قائم ينشد

١ المدعاة : الدعوة .

٢ الأزهار : صعداً .

أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم يوثى آخر الليل بموائد كالهلات دَوْرًا ، والرياض نَوْرًا ، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم^١ على ألوان تشهيهها الأنفس وتستحسنها الأعين ، وتلدُّ بسماع أسمائها الآذان ، ويشتره مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغرثان ، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتداء جلوسه فيه ، وكل ذلك بمرأى منه ومستمع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح . على هذا الأسلوب تمضي ليلة المصطفى صلى الله عليه وسلم في جميع أيام دولته ، أعلى الله تعالى مقامه في عليين ، وشكر له في ذلك صنيعه الجميل آمين . وما من ليلة مولد مرت في أيامه إلا ونظم فيها قصيداً في مديح مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، أول ما يتبدى المسموع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده ، ثم يتلوه إنشاد من رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظماً ؛ انتهى وهو آتم مساقاً ممّا في « راح الأرواح » .

ولا بأس أن نلمّ ببعض المقطوعات التي أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيى ابن خلدون المذكور على لسان جارية المنجاة في مخاطبة السلطان أبي حمو معلمة بما مرّ من ليل ، ففي مضي ساعتين قوله^٢ :

أخليفةَ الرحمن والملكُ الذي	تعنو لعزّ عُلّاه أملاكُ البشرُ
لله مجلسك الذي يحكي عُلّاءُ	بك مالكي أفق السماء لمن نظر
أوما ترى فيه النجومَ زواهراً	وجنهُ الخليفة بينهن هو القمر
والليلُ منه ساعتان قد انقضتُ	تثني عليك ثنا الرياضِ على المطر
لا زال هذا الملكُ منصوراً بكمُ	وبلغتَ ممّا ترتجي أسنى الوطر

وقوله في مضي ثلاث ساعات :

١ الأزهار : الطعام .

٢ وردت هذه المقطعات في بنية الرواد ٢ : ٢١٩ - ٢٢٢ وأزهار الرياض ١ : ٢٤٦ - ٢٤٧ .

أمولايَ يا ابنَ الملوكِ الأُلى
تولّت ثلاثَ من الليلِ أبقتُ
فدمُ حجّةِ الله في أرضهِ
وقوله في مضي ست ساعات :

يا ماجداً وهو فردٌ
ستَ من الليلِ ولّت
دامتُ لياليكَ حتى
تخاله في عساكرا
ما إن لها من نظائر
إلى المعادِ نواضر

وقوله في مضي ثماني ساعات :

يا أكرمَ الخلقِ ذاتاً
مرّت ثمانِ وأبقتُ
فيهنَّ كانَ شبابي
ولّى بها الدهرُ عني
فالله يبقيكَ مولّى
وأشرفَ الناسِ أسرةً
في القلبِ مني حسرةً
أخا نعيمٍ ونضرةً
تُرى لها بعدُ كرهةً
يطيل في السعدِ عمرةً

وقوله في مضي عشر ساعات :

يا مالكَ الخيرِ والخيلِ التي حكمتَ
هذا الصبّاحِ وقد لاحت بشائره
لله عشرٌ من الساعاتِ باهرةً
كذا تمرُّ ليالي العمرِ راحلةً
نمسي ونصبحُ في هو نُسرٌ به
له بعضٌ على الأيامِ مُقتبِلِ
والليلِ ودّعنا توديعَ مرتحلِ
مضينَ لا عن قلى منّا ولا مللِ
عنا ونحن من الآمالِ في شغلِ
جهلاً وذلك يُدُنينا من الأجلِ

١ البنية : يا واحداً في علاه من نابه في عساكر .

والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفا
يا ليت شعري غداً كيف الخلاصُ به
يا ربُّ عَقُوكَ عما قد جَنَّتْهُ يدي
يا ربُّ وانصر أميرَ المسلمين أبا
وأبني في العزِّ والتمكين مدتهُ
عليه إذ مرَّ في الآثام والزللِ
ولم تقدِّمَ لهُ شيئاً من العملِ
فليس لي بجزاء الذنبِ من قبَلِ
حمو الرضى وأنله غايةَ الأملِ
وأعلِ دولته الغرَّاءِ على الدولِ

انتهى المجلد السادس

محتويات المجلد السادس

الباب الرابع

١٦٣ - ٥

في مخاطبات الملوك والأكابر للسان الدين

- | | | | | | | |
|----|---|---|---|---|------|--|
| ٥ | . | . | . | . | ١ - | ظهير من أبي زيان المريني للسان الدين |
| ٧ | . | . | . | . | . | [ترجمة أبي زيان المريني] |
| ١٣ | . | . | . | . | ٢ - | رسالة من أبي سالم إلى لسان الدين |
| ١٤ | . | . | . | . | ٣ - | جواب لسان الدين |
| ١٧ | . | . | . | . | ٤ - | رسالة من لسان الدين إلى أبي سالم |
| ٢٢ | . | . | . | . | . | [ترجمة أبي سالم المريني] |
| ٢٤ | . | . | . | . | . | [ثناء المغاربة والمشاركة على لسان الدين] |
| ٢٨ | . | . | . | . | ٥ - | رسالة ابن خاتمة إلى لسان الدين |
| ٣٠ | . | . | . | . | ٦ - | من لسان الدين إلى ابن خاتمة |
| ٣٣ | . | . | . | . | . | [رسالة ابن خاتمة إلى ابن جزري] |
| ٣٤ | . | . | . | . | ٧ - | رسالة من ابن خاتمة إلى لسان الدين |
| ٣٧ | . | . | . | . | ٨ - | رسالة أخرى من ابن خاتمة إلى لسان الدين |
| ٣٨ | . | . | . | . | . | [أحمد بن صفوان] |
| ٤٠ | . | . | . | . | ٩ - | إجازة ابن صفوان للسان الدين |
| ٤١ | . | . | . | . | ١٠ - | من العذري إلى لسان الدين |
| ٤١ | . | . | . | . | ١١ - | رسالة من لسان الدين إلى ابن نفيس |
| ٤٣ | . | . | . | . | ١٢ - | من لسان الدين إلى ابن رضوان |
| ٤٤ | . | . | . | . | ١٣ - | جواب ابن رضوان |
| ٤٤ | . | . | . | . | ١٤ - | من لسان الدين إلى الجنان |
| ٤٥ | . | . | . | . | ١٥ - | جواب الجنان |
| ٤٦ | . | . | . | . | . | [ترجمة الجنان أحمد الأوسي] |
| ٤٦ | . | . | . | . | . | [مقطعات وقصائد تكتب على المباقي] |

٥٦	[رسالة من الفشتالي إلى المؤلف]
٥٩	[تعريف بأبي الحسن الشامي]
٦٠	١٦ - بين ابن الحلياب ولسان الدين
٦٠	١٧ - قصيدتان للبلوي يخاطب بهما لسان الدين
٦٣	[ترجمة أبي يحيى البلوي]
٦٤	١٨ - رسالة من ابن مرزوق إلى لسان الدين
٦٥	١٩ - جواب لسان الدين
٦٧	٢٠ - من البرجي إلى لسان الدين
٦٨	[ترجمة أبي القاسم البرجي]
٧٥	٢١ - مخاطبات ابن زمرك للسان الدين
٨١	٢٢ - من ابن سلبطور إلى لسان الدين
٨٢	[ترجمة ابن سلبطور]
٨٤	٢٣ - من ابن راجح إلى لسان الدين
٨٤	٢٤ - جواب لسان الدين
٨٥	[ترجمة ابن راجح]
٨٥	٢٥ - من لسان الدين إلى ابن راجح
٨٦	٢٦ - جواب ابن راجح
٨٨	[بقية ترجمة ابن راجح]
٨٩	٢٧ - من العشاب إلى لسان الدين
٨٩	٢٨ - من محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي إلى لسان الدين
٩٠	[ترجمة محمد بن محمد بن عبد الملك]
٩٠	٢٩ - من المكودي إلى لسان الدين
٩١	٣٠ - من أبي عبد الله اليتيم إلى لسان الدين
٩٢	٣١ - من لسان الدين إلى اليتيم
٩٥	[ترجمة أبي عبد الله اليتيم]
٩٦	٣٢ - مخاطبة الكرسوطي لسان الدين
٩٧	[ترجمة أبي عبد الله الكرسوطي]
٩٧	٣٣ - مخاطبة ابن الزبير لسان الدين
٩٨	[ترجمة أبي عمرو ابن الزبير]
٩٩	[ترجمة أبي يحيى الأكحل]
٩٩	٣٤ - مخاطبة الأكحل لسان الدين

١٠١	٣٥ - مخاطبة ابن عياش للسان الدين
١٠١	٣٦ - مخاطبة أبي عبد الله الوادي أشي للسان الدين
١٠٢	٣٧ - مخاطبة أبي محمد الأزدي للسان الدين
١٠٣	[قطع من شعر الأزدي]
١٠٦	٣٨ - من لسان الدين إلى ابن رضوان
١٠٦	٣٩ - جواب ابن رضوان
١٠٧	[ترجمة ابن رضوان]
١١٢	٤٠ - مخاطبة أبي بكر ابن عبد الملك للسان الدين
١١٣	[ترجمة أبي بكر ابن عبد الملك]
١١٣	٤١ - مخاطبة أبي سلطان الغرناطي للسان الدين
١١٥	[ترجمة عبد العزيز أبي سلطان]
١١٨	٤٢ - رسالة من النباهي للسان الدين
١١٩	[ترجمة النباهي]
١٢٤	٤٣ - مخاطبات بين لسان الدين وابن الجياب
١٢٨	٤٤ - من سعيد الغرناطي إلى لسان الدين
١٢٨	٤٥ - مخاطبات بين ابن البناء ولسان الدين
١٣١	[ترجمة ابن البناء]
١٣١	٤٦ - رسالة من لسان الدين إلى سلطان تونس
١٣٣	٤٧ - مخاطبة من ابن البربري المالقي إلى لسان الدين
١٣٥	٤٨ - مخاطبة من الحرالي إلى لسان الدين
١٣٥	[ترجمة أبي القاسم الحرالي]
١٣٥	٤٩ - رسالة من المنتشاقري إلى لسان الدين
١٣٧	٥٠ - رسالة من لسان الدين إلى المنتشاقري
١٣٨	[ترجمة أبي الحجاج المنتشاقري]
١٤٦	[تعليق الباعوني على كتاب الريحانة]
١٤٦	[نقل من الروض الأريض لابن عاصم]
١٤٨	[ترجمة أبي يحيى ابن عاصم]
١٤٨	[نموذج من نثر ابن عاصم]
١٥٠	[من نظم ابن عاصم]
١٥١	[قصيدة لابن الأزرق في مدح ابن عاصم]
١٥٣	[رسالة ابن عاصم إلى ابن طركاظ]

١٥٥

[ظهر بتقديم ابن عاصم للنظر في أمور الفقهاء]

١٦٢

التأليف باسم لسان الدين وولده .

الباب الخامس

في إيراد جملة من نثر لسان الدين وشعره وموشحاته

١٦٥ - ٤٤٨

نثر لسان الدين .

- ١ - فاتحة كتاب « اللمحة البدرية »
- ٢ - قطعة له في الحوض على الجهاد
- ٣ - صداق لكبير الشرفاء بفاس
- ٤ - كتاب إلى بعض السادة (ابن رضوان) لمرض ألمّ به
- ٥ - من ترجمة أبي عبد الله الشديد في الإحاطة
- ٦ - كتاب إلى علي بن بدر الدين الطوسي
- ٧ - من ترجمة ابن خلدون في الإحاطة
- ٨ - جواب لسان الدين عن رسالة لابن خلدون
- ٩ - رسالة لسان الدين في مداعبة ابن خلدون حين تسرى جارية رومية
- بقية ترجمة ابن خلدون عن الإحاطة
- [تعليق للمقري والباعوني]
- ١٠ - من ترجمة يحيى البرغواطي
- ١١ - تعليق لسان الدين على كتاب ألفه البرغواطي
- ١٢ - رسالة إلى أبي حمّو مرفقة بقصيدة سينية
- ١٣ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب أيام أبي سالم
- ١٤ - رسالة في تهنئة ابن أبي مدين صاحب الأشغال
- ١٥ - رسالة إلى قاضي الجماعة بسبب غلط أحد الخدام
- ١٦ - رسالة إلى بعض الفضلاء يعتذر عن الذهاب إليه
- ١٧ - رسالة إلى أبي عبد الله ابن نصر حين وصل ولده الأندلس
- ١٨ - رسالة في تهنئة ابن نوّار حين تزوج بنت المزوار
- ١٩ - رسالة إلى عامر بن محمد الهنتاني عميد مراکش

- ٢١٠ من مقامة له في البلدان يصف مدينة سبتة
- ٢١١ من « نفاضة الجراب » في وصف مكناسة الزيتون
- ٢١٣ وصف مكناسة في مقامة البلدان
- ٢١٣ [تعليق للمقري]
- ٢١٧ [زيارة لسان الدين لقبر السلطان أبي الحسن وقصيدته في رثائه]
- ٢١٩ نبذة من كتاب « أعمال الأعلام »
- ٢٢٠ من كلامه ؛ وطريقته في كتابة التراجم
- ٢٢٠ ٤٣ - نقول متفرقة من نثره في كتب التراجم
- ٢٢٥ ٤٤ - عن التاج في ترجمة ابن لب الأمي
- ٢٣٠ ٤٥ - عن التاج في ترجمة ابن عبد الرحيم الوادي آشي
- ٢٣٠ ٤٦ - عن الاكليل في ترجمة ابن العطار المزني
- ٢٣٠ ٤٧ - « محمد بن علي ابن خاتمة
- ٢٣١ ٤٨ - « ابن داود الحميري
- ٢٣٦ ٤٩ - « ابن مقاتل المالقي
- ٢٣٧ ٥٠ - « الشديد المالقي .
- ٢٣٩ ٥١ - « ابن الحسن العمراني
- ٢٣٩ ٥٢ - « محمد المرادي العشاب
- ٢٤٠ ٥٣ - « أبي عبد الله المليكنشي
- ٢٤٢ ٥٤ - « أبي عبد الله العبدري
- ٢٤٢ ٥٥ - « أبي القاسم العزفي
- ٢٤٣ ٥٦ - « أبي عبد الله المكودي
- ٢٤٤ ٥٧ - من نثره في ترجمة ابن بيش العبدري
- ٢٤٥ ٥٨ - عن الإكليل في ترجمة أبي عبد الله ابن هانيء السبتي
- ٢٥٣ [همزية صفوان]
- ٢٥٥ ٥٩ - عن التاج في ترجمة أبي محمد الأزدي
- ٢٥٧ ٦٠ - عن الإكليل في ترجمة أبي الحسن السكاك
- ٢٥٧ ٦١ - عن التاج في ترجمة ابن الصباغ العقيلي
- ٢٦٠ ٦٢ - عن التاج والإكليل في ترجمة ابن الجياب
- ٢٦١ ٦٣ - عن الإكليل في ترجمة ابن غفرون الكلبي
- ٢٦١ ٦٤ - « ابن الجلد الفهري

٢٦٢	.	.	.	٦٥ - عن الإكليل في ترجمة أبي عثمان الغساني
٢٦٢	.	.	.	٦٦ - « » « » « » أبي الحجاج الطرطوشي
٢٦٢	.	.	.	٦٧ - « » « » « » ابن المتأهل العنزي
٢٦٣	.	.	.	٦٨ - عن التاج وعائد الصلة في ترجمة ابن باق
٢٦٥	.	.	.	٦٩ - عن الإكليل في ترجمة ابن فضيلة المعافري
٢٦٦	.	.	.	٧٠ - عن الإكليل والإحاطة في ترجمة أبي العباس الملياني
٢٦٨	.	.	.	٧١ - صورة من نشره في روضة التعريف
٢٧١	.	.	.	٧٢ - صورة أخرى من روضة التعريف
٢٧١	.	.	.	٧٣ - من رسالة له إلى يلغا الخاصكي
٢٧٣	.	.	.	٧٤ - صدر كتابه المسمى « مثل الطريقة في ذم الوثيقة »
٢٧٨	.	.	.	[تعليق الونشريسي على هذا الكتاب]
٢٧٩	.	.	.	٧٥ - خطبة كتابه في المحبة
٢٩١	.	.	.	[برنامج كتابه في المحبة]
٣٠٠	.	.	.	[نماذج مختارة من كتابه في المحبة]
٣١٥	.	.	.	[نماذج منه في الوعظ]
٣٢٧	.	.	.	[قصيدتان لأبي العتاهية]
٣٣٠	.	.	.	[هل يناسب الوعظ المحبة]
٣٣٢	.	.	.	[فصول في ذم الكسل واغتنام الوقت]
٣٣٣	.	.	.	٧٦ - رسالة إلى ابن تافراجين على لسان السلطان
٣٣٩	.	.	.	٧٧ - رسالة إلى الشعب في البشارة بفتح لإطرية
٣٤٠	.	.	.	٧٨ - رسالة عن السلطان إلى سلطان فاس
٣٤٣	.	.	.	٧٩ - رسالة على لسان الأمير سعد ابن الغني بالله
٣٤٤	.	.	.	٨٠ - رسالة على لسان ولد السلطان من مالقة
٣٤٦	.	.	.	٨١ - ظهير في تولية الأمير يوسف مشيخة الغزاة
٣٤٩	.	.	.	٨٢ - ظهير في تقليد الأمير سعد مشيخة الغزاة
٣٥٢	.	.	.	٨٣ - رسالة كتبها من سلا إلى الغني بالله
٣٥٣	.	.	.	٨٤ - رسالة إلى أبي عبد الله ابن عمر التونسي
٣٥٤	.	.	.	٨٥ - رسالة على لسان أبي الحجاج إلى رسول الله (ص)
٣٦٠	.	.	.	٨٦ - رسالة على لسان الغني بالله إلى رسول الله (ص)
٣٧٩	.	.	.	٨٧ - من رسالة له في العزاء
٣٨٠	.	.	.	[للمقري محاكياً لسان الدين]

٣٨٢	.	.	.	٨٨ - مخاطبة للسلطان أبي زيّان لما تمّ له الأمر
٣٨٥	.	.	.	٨٩ - مخاطبة أخرى للسلطان أبي زيّان
٣٨٦	.	.	.	٩٠ - مخاطبة ليحيى بن رحو
٣٨٧	.	.	.	٩١ - مخاطبة لابن مرزوق الخطيب
٣٨٨	.	.	.	٩٢ - رسالة إلى ابن مرزوق في الشفاعة
٣٨٩	.	.	.	٩٣ - رسالة إلى أبي زيد ابن خلدون
٣٩٦	.	.	.	٩٤ - رسالة إلى أبي زكريا ابن خلدون
٣٩٩	.	.	.	٩٥ - رسالة إلى أبي القاسم ابن رضوان
٤٠٠	.	.	.	٩٦ - رسالة إلى شيخ العرب مبارك بن إبراهيم
٤٠٣	.	.	.	٩٧ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب
٤٠٥	.	.	.	٩٨ - ظهير على لسان السلطان
٤٠٨	.	.	.	٩٩ - مخاطبة تربة السلطان أبي الحسن المريني
٤١٠	.	.	.	١٠٠ - رسالة إلى وزير المغرب
٤١١	.	.	.	١٠١ - رسالة أخرى إليه على أثر فتح
٤١٢	.	.	.	١٠٢ - رسالة ثالثة إليه من سلا
٤١٤	.	.	.	١٠٣ - رسالة إلى عامر بن محمد الهتائي في التعزية بأخيه
٤١٦	.	.	.	١٠٤ - رسالة أخرى إليه
٤١٧	.	.	.	١٠٥ - رسالة إلى شيخ الدولة وقد أبلّ من مرض
٤١٩	.	.	.	١٠٦ - رسالة إلى ابن مرزوق الخطيب
٤٢٣	.	.	.	١٠٧ - رسالة أخرى إلى ابن مرزوق
٤٢٧	.	.	.	١٠٨ - جواب عن كتاب من سلطان تلمسان
٤٣١	.	.	.	١٠٩ - مقامة في السياسة
٤٤٥	.	.	.	١١٠ - من نثره «عبارة واحدة»
٤٤٥	.	.	.	١١١ - من نثره في وصف فاس
٤٤٦	.	.	.	١١٢ - من نثره في وصف مراکش
٤٤٦	.	.	.	١١٣ - من نثره في وصف بسطة
٤٤٦	.	.	.	[في ذكر بسطة للتصادي]
٤٤٧	.	.	.	١١٤ - رسالة إلى السلطان على لسان جدته
٥١٧ - ٤٤٩	.	.	.	شعر لسان الدين
٤٤٩	.	.	.	مطلولات عن الإحاطة

٤٦٣	مقطعات عن الإحاطة
٤٧٥	مختارات أخرى من غير الإحاطة
٤٩١	[ترجمة الولي ابن عاشر]
٤٩٤	رجع إلى نظم لسان الدين
٥١٠	[قصيدة لأبي زكريا ابن خلدون]
٥١٣	[احتفالات أبي حمو بالمولد النبوي]
٥١٥	[مقطوعات لأبي زكريا ابن خلدون على المنجاة]